لجنة التأليف والترجمة والنشر

شرح ديوان الحماسة

لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي

... — ٤٢١

نشره

أحمد أمين　　　عبد السلام هارون

القسم الثاني

الطبعة الأولى

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٧١ هـ — ١٩٥١ م

4

بسم الله الرحمن الرحيم

١٦٢

وقال عبد الله بن سَبْرَة[١] :

١ — إذَا شَالَتِ الجَوْزاءُ والنَّجْمُ طَالِعٌ   فكُلُّ مَخَاضَاتِ الفُرَاتِ معابِرُ
٢ — وإنِّي إذا ضَنَّ الأميرُ بإذْنِهِ   عَلَى الإِذْنِ من نَفْسِي إذا شِيتُ قادِرُ

أراد بالنَّجم الثُّرَيَّا ، وأكثر ما يعترض هذه اللفظةُ فى استعمالهم مُعَرَّفًا يُرَادُ به الثُّرَيَّا لا غير ، ألا تَرَى قول الهُذَلِيّ[٢] :

فَوَرَدْنَ والعَيُّوقُ مَقْعَدَ رابِئِ الـ   ـضُّرَبَاءِ خَلْفَ النَّجْمِ لا يتَتَلَّعُ

والجوزاء سُمِّيت بذلك لأنَّ وَسَطَهَا أبيض . وجَوْزُ كلِّ شيء : وسَطُه . والوَقْتُ الذى يشير إليه يشتدّ فيه الحرّ . لذلك قال ساجعُهم : « إذا طلع النَّجْمُ ، فالصَّيْفُ فى حَذَمٍ ، والعُشْبُ فى حَطَمٍ » . فكأنَّ قائلَ هذا الشعرِ استأذَنَ صاحبَهُ فى الانتقال إلى البَدْوِ فلم يأذَنْ له ، فأخَذَ يتشكَّى[٣] عن مُرَادِهِ بهذا

---

(١) عبد الله بن سبرة الجرشى ، منسوب إلى جرش ، وهو موضع باليمن . قال أبو رياش : « كان عبد الله بن سبرة هذا أحد فتاك العرب فى الإسلام ، وكان رجل من الروم يقال له سعد الطلائع يأتى صاحب الصوائف ، فيقول سعد لصاحب الصائفة : ابعث معى جندا أدلهم على عورات الروم ، فيتوغل بهم وقد جعل لهم كمينا من الروم فيقتلون ، فأكثر ، فقال يوما لصاحب الصائفة : ابعث معى رجلا من أصحابك فإنى قد عرفت غرة لهم . فانتدب عبد الله بن سبرة ومضى معه حتى انتهى إلى غيضة فقال لعبد الله : ادخل . فقال له عبد الله : أنا الدليل أم أنت ؟ فأبى وعرف عبد الله ما أراد فقتله ، وخرج عليه بطريق من بطارقتهم فاختلف هو وعبد الله ضربتين فضربه عبد الله فقتله ، وضربه الرومى فقطع إصبعين له » .

(٢) هو أبو ذؤيب ، ديوان الهذليين (١ : ٦) .

(٣) م : « بتسلى » ، والوجه ما فى الأصل .

الكلام ويتوجَّد[١] . ويقول : إذا تناهى الحرُّ وارتفعت الجوزاء فى أول الليل إلى كَبِد السماء ، وطلَع الثُّرَيَّا عند السَّحَر ، فكلُّ مَخاضةٍ من جوانب الفرات مَعْبَرٌ لى أهرُبُ فيه ؛ لأنّ نُضُوبَ الماء ونقصانَه يكون فى ذلك الوقتِ . وقوله « والنَّجمُ طالعٌ » لو وَلِيَهُ « إذا » فقيل إذا النجم طالعٌ ، لم يَصْلُحْ ؛ لأنّ الجملةَ التى يُبيَّن بها إذَا لا بُدَّ فيها من فِعلٍ ، لما يتضمَّن من معنى الشَّرط والجزاء . تقول آتيك إذا زيدٌ يأمُرُ[٢] . ولو قلتَ آتيكَ إذا زيدٌ أميرٌ لم يَصْلُح ؛ لكنَّه لما انعطَفَ على قوله « شالَتِ الجَوْزاء » حَسُنَ حَمْلاً على المعنى ، كأنَّه قيل : وطلَع النجمُ . وهذا إذا كان الواو فيه للعطف ، ويجوز أن يُجعَلَ الواوُ واو الحال ، يُريدُ إذا شالَتِ الجوزاء فى حال طُلُوع النجم . والعاملُ فى « إذا » ما دَلَّ عليه قولُه : « فكلُّ مخاضات الفُرات معابر » . وقولُه : « وإنى إذا ضَنَّ الأميرُ » ، يقول : إذا تمنَّع الأميرُ من الإذْنِ لى ، وصدَّنى الوقتُ عن مُرادى ، ولم أَقْدِر على جَواز المَسالح والمَراصِد ، لكونها مشحونةً بالمُرتَبِين[٣] فيها ، انتظرتُ غَيضَ الماء وجَزْرَه فى الفُراتِ ، وإمكانَ المَخاضاتِ من العُبُور والذَّهابِ ، فحينئذ آذَنُ لنفسى وأهرُبُ . وإنما قال ذلك لأنَّ المَشارعَ لا تُضْبَطُ كما تُضْبَطُ الجُسُورُ ومَضايقُ الطُّرُق .

١٦٣

وقال الربيع بن زيادٍ العبسى[٤] :

١ — حَرَّقَ قَيْسٌ علَىَّ البلا دَ حَتَّى إذا اضطرَمَتْ أَجْذَما

(١) يقال توجد فلان أمر كذا ، إذا شكاه ، وهم لا يتوجدون سهر ليلهم : لا يشكون ما مسهم من مشقته . م : « ويتوعد » .

(٢) يقال أمر كفرح وكرم ، أى صار أميرا . (٣) تسهيل المرتبئين .

(٤) الربيع بن زياد العبسى : أحد الكملة . انظر ما سبق فى حواشى الحماسية ١٥٨ فى القسم الأول .

يقول : ألْهَبَ قيس بن زهير البلادَ علىَّ ناراً تتوهّجُ ، فلمّا استعَرَتْ وتأجّجَتْ هرَبَ وترَكَنى أصْطلِى بها . وإنما قال هذا لأنّ قيسًا ترك أرض العرَب وانتقل إلى عُمَان بعد إثارة الفِتَن واهتياجِ الشر ، فى سَبْق داحس . والإجذام : الإسراعُ فى السَّيْر ، وجعلَه مثلاً لانزوائه ونَفْضِه اليَدَ مما كانَ لابسَه وتولاّهُ ، من إيقاد نار الحرْب بين الفريقين .

٢ — جَنِيَّةُ حَرْبٍ جَنَاها فما تُفُرِّجَ عنــه وما أسْــلِمَا

جَنِىٌّ : فَعِيلٌ فى معنَى مفعول ، لـكنَّه ألْحَقَ الهاء به لأنه جعلَهُ اسماً ، كما أُلحق بالبَنِيَّة وهى الـكعبة ، وبالذَّبيحة والنطيحة . وهذا اعتدادٌ على قيْسٍ بما جَناهُ[1] ، وتَحمُّدٌ بما أتاهُ ، وامتنانٌ بأنه لمْ يقعُد عن نُصْرَتِه ، ولم يَخْذُلْهُ وقت حاجته ، ولم يُخَلِّهِ للأعداء وقت إقامَتِه ، ولا تَرَكَ النِّيَابةَ عنه واعتناقَ الأمرِ بعد غيبته ، بل نَهَضَ فى الشرّ والقتال ما اتَّصَلَ نهوضُه ، وتفرّدَ بالدّفاع عنه عند فُتُورِهِ ونُفورِهِ . وقوله « فما تُفُرِّجَ عنه » ، أى ما تُفُرِّقَ عنه ولا تُكُشِّفَ .

٣ — غَدَاةَ مَرَرْتَ بآلِ الرِّبا بِ تَعْجَلُ بالرَّكْضِ أنْ تُلْجِمَا

أقْبَلَ يخاطِبُ بعد ما كان يُخْبِرُ ، على عادتهم فى تصاريف كلامهم . وقوله « غداةَ مرَرْتَ » ظَرْفٌ لما دَلَّ عليه أجْذَمَا . أى هَربتَ فى ذلك الوقت والأوان . و« تُعْجَلُ » فى موضِع الحال . والمعنى : اجتزت بآل هـذه المرأةِ مُستَعْجَلاً بركْضِ الأعداء[2] فى أثَرِكَ ، حتى لم تتَّسِع لإلجام دابَّتِكَ ، ولم تأمَنْ رَيْثَ إصْلاحِ أمْرِكَ ، والتهيُّؤ لنجاتك . وقولُه « أن تُلْجِم » فى موضع النصب مِن تُعْجَلُ ، وكان الواجب أن يَقُولَ تُعْجَلُ بالرَّكْضِ عن أن تُلْجِمَ ، فحَذَفَ

(١) م : « فيما جناه » .
(٢) م والتبريزى : « تركض الأعداء » .

الجارّ ووصَل الفعل فعمِل . وفى القرآن : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ .

٤ — وكُنّا فوارسَ يَوْمِ الهَرِيـ ـرِ إِذْ مالَ سَرْجُكَ فاسْتَقْدَما[١]

يومُ الهَرِيرِ معروف[٢] . وإنما قال كنا فُرسانَ هذا اليوم ، لِما كان عُرِفَ من جميل بلائهم ، وحُسْن ثباتهم فيه ووفائهم ، وليذَكِّر بتبريزهم حين نَكَصُوا على أعقابِهم ، وقصَّرُوا عن شأوِهم . وذِكْرُ مَيْلِ السَّرْج مَثَلٌ ، وقولُ جرير يَشْهَدُ لذلك ويَكْشِفُه ، حين قال :

قُلْ للجَبانِ إذا تأخَّرَ سَرْجُهُ هَلْ أنْتَ من شَرَكِ المنيّةِ ناجِ

والمراد اضطرابُ الأمر وفَشَلُ الرأى وتمكُّنُ الخوف والدَّهَشِ من المنهزم ، ونزولُه عما يَهُمُّ بركوبه . وفى طريقته قول الآخر :

لا تَجْعَلُونا إلى مَوْلَى يَحُلُّ بِنا عَقْدَ الحِزامِ إذا ما لِبْدُهُ مالا

وكما جعَلَ الحزامَ مَثَلًا لتدارُك الأمر وتلافِى فاسِدِه على الوجه الذى تَراه ، جَعَلَ تركَ شَدِّ الحزام عند ما يَطْرُق أو يَنُوبُ مَثَلًا للتحزُّم والتجمُّع قبل نُزول الخَطْبِ ، حتّى إذا بَدَتْ أعناقُه لا يحتاج إلى استئنافِ شىء لتَمام أُهْبتِه . وعلى ذلك قولُ امرئِ القَيْس :

أَقْصِرْ إليكَ من الوَعِيدِ فإنّنى مِمّا أُلاقى لا أَشُدُّ حِزامِى

فتأمَّلْ ما فتحْنا مُبْهَمَهُ تَنَلْ كلَّ فائدةٍ ، وتَظْفَرْ بكلِّ غنيمة . ويقال : استَقْدَمَ بمعنى تَقَدَّم ، وفى ضِدّه استأخر بمعنى تأخَّرَ . والمعنى : كنا فُرْسانَ هذه الوقعةِ فى هذا اليوم المشهور ، حين كُنتَ للشرِّ مُعْوِرًا ، وعلى شَفَا البَلاءِ مُوفِيًا .

(١) التبريزى : « فكنا » .
(٢) انظر الأغانى (١١ : ٥٥) ومعجم البلدان فى رسمه .

٥ — عطفنا وراءك أفراسنا وقد أسلم الشفتان الفما

يقول : تعطفنا عليك فى ذلك الوقت ، ودافعنا دونك ، وقد كشرت الأسنانُ وأسلمتها الشفاه ، تقلُّصا عنها ويُبوسةً حادِثةً فيها . وذِكْرُ الفم كناية عن الأسنان ، كما يُقالُ فضَّ اللهُ فاهُ . ويقال فى هذا المعنى ذبّتْ الشفاهُ[1] . ومِثلُهُ قولُ عنترة :

* إذْ تقلِصُ الشفتانِ عنْ وضحِ الفمِ[2] *

والواو من قوْلِه قد أسلمَ الشفتان واو الحال . والاستعارة بإسلام الشفتين فى نهاية الحُسْن .

٦ — إذا نفرتْ من بياض السيُو ف قُلْنا لها أقْدِمِى مُقْدَما

يقولُ : إذا جَبُنتْ خيْلُنا وحادتْ عن تلألُؤ السيوف وبريق الشمس وشُعَاعِها فى السِّلاح ، وهَرير الأبطال وتداعيها ، أكْرهْنَاهَا على الإقدام . وذِكْرُ القوْلِ هاهنا كنايةٌ عن الفعل ، وهذا كما يقال قال برأسِه كذا ، إذا حرَّكه ، وقال بسوْطِه ، إذا أشار به . والمُقْدَم والإقدامُ بمعنًى . وحقيقة الكلام إذا نفرتْ قدَّمْناها تقديما .

١٦٤

وقال الشنْفرى[3] :

١ — لا تقبُرُونى إنَّ قبْرِى مُحرَّمٌ عليكمْ ولكن أبْشِرِى أمَّ عامِرِ

(١) ذبت : ذبلت وجفت من العطش أو غيره .

(٢) صدره : * ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى *

(٣) الشنفرى : شاعر جاهلى من بنى الإواس بن الحجر بن الهنو بن الأزد بن الغوث . انظر أخباره فى الأغانى (٢١ : ٨٧) ؛ والشنفرى اسمه ، وقيل لقب له ، ومعناه العظيم الشفة . وهو ابن أخت تأبط شرا ، وكان أحد الثلاثة العدائين .

يقال: قَبَرْتُ الإنسانَ، إذا دفنْتَه، وأقْبَرْتُه إذا جعلْتَ له موْضِعَ قبْرٍ، وفى القرآن: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾. والشَّاعر كأنَّهُ نبَّهَ بهذا الكلام على أنَّه مِمَّنْ يُقتَل ويُترَك بالعَراء لا يَرْثِى له شَقيق، ولا يرثيه[(١)] نسيبٌ ولا رفيقٌ، فيأتيه عوَافِى السباع والطَّير. فخاطَبَ أصْحابَهُ وقال: لا تدفنونى إنَّ دفْنِى مُحرَّمٌ عليكم، يريهم استغناءه عنهم حيًّا وميِّتًا، ورِفْعَةَ نفسِه عن الاستنامةِ إليهم والاعتماد عليهم، وذهابَه عنهم فِعلَ المُجانِبِ لهم، البعيد منهم. ثم قال «ولكن أبْشِرى أمَّ عامرٍ»، أى ولكِنِ الضَّبُع تأكُلُ لحمى فأبْشِرى أمَّ عامِرٍ. جَعَلَهُ كما هُوَ لَقَبَ الضَّبُع[(٢)]. وموضِعُه من الإعراب مبتدأ والخبر محذوفٌ، وهو يأكلنى وتتولَّى أمْرِى ونحوُهُ. وهذا فى أنَّه جُملةٌ جُعِلَتْ لقباً وفى أنَّ شرْطَها أن تُحْكَى، كتأبط شرًّا وما أشبهه. وإنما جُعلت لقباً لها لأنَّ العادَةَ فى اصطياد الضَّبُع أن يُقْصَدَ وِجارُها ويُحْفَرَ وهى تتأخَّر شيئاً شيئاً. والصائدُ يقول: أم عمْرٍو ليست هاهنا؟ أبْشِرِى أُمَّ عامرٍ بشَاه هَزْلَى، وجَرَادٍ عَظْلَى، خامِرِى أمّ عامر ليست هاهنا؟ فلا يزالُ يَحْفِرُ الوِجارَ، ويكرِّر هذا الكلامَ، والضَّبُع تتأخر حتَّى تبلغَ أقْصَى وجارِها فتخرجَ حينئذٍ بأغْلاظِ عُنُفٍ. ولمَّا كان الأمْرُ [على هذا[(٣)]] فى اصطيادها لقَّبها ببعض ما تُخاطَبُ به فى تلكَ الحال، فكأنَّهُ قال: لا تقربونى إذا مِتُّ فقد حَرَّمْتُ دَفْنِى عليكم، ولكِنَّ الذى يُقالُ لَهُ أبْشِرِى أمَّ عامِرٍ ولىُّ أمْرِى دونَكم. فهذا وَجْهٌ حَسَنٌ إليه يَذْهَبُ الحُذّاق من أصحاب المعانى. وحكى سيبويه عن الخليل فى قول الأخطل:

ولقد أبيت من الفتاةِ بمعزلٍ فأبيتُ لا حَرِجٌ ولا محرومُ

(١) كذا فى م. وفى الأصل: «ولا يرثه».
(٢) الصواب «كنية الضبع».
(٣) التكملة من م.

أنه قال أيتِ الذى يقال له لا حَرِجٌ ، فحكى . ثم قال : يقوّيه فى ذلك قول الأخطلِ :

على حينِ أنْ كانَتْ عُقَيْلٌ وشائطًا وكانَتْ كِلابٌ خامِرِى أمَّ عامِرِ(١)

لأنه أراد كانت كِلابٌ التى يقال لها خامِرِى أمَّ عامِرِ ، فحكى ذلك الكلام وكَنَى به عن الضَّبُع . ويحتمل أن يكون البيت على كلامين ، كأنّه قال : لا تدفنونى ، مخاطِبًا أصحابه ورفقاءهُ ، وليس يُرِيدُ نَهْيَهُم عن ذلك ؛ ولكن يريد كَشْفَ حالِهِ لهم ، وبيانَ عاقِبَةِ أمْرِه فيهم . ثم أقبلَ على الضَّبُع فقال : أبْشِرِى يا أمَّ عامِرِ ، فإنَّكِ تأكُلِينَ مِنِّى . ويكونُ هذا فى تحويل الكلام عن شىء إلى آخر ، كقول الله عزّ وجلّ : ﴿ يوسُفُ أعْرِضْ عن هذا واستَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إنَّكِ كُنْتِ من الخاطئين ﴾ ، فاعْلَمْ ذلك تنتفعْ به إن شاء الله . ويقال بَشَّرْتُه فأبْشَرَ ، كما يُقال فطَّرْتُه فأفطر . ويقال بَشَرْتُه بالتخفيف بمعنى بَشَّرْتُه ، فاستَبْشَر . وحُكِىَ أبْشَرْتُه أيضًا .

٣ - إذا احْتَمَلُوا رأسى وفى الرأسِ أكْثَرِى وغُودِرَ عندَ المُلْتَقَى ثُمَّ سائِرِى

إذا ظَرْفٌ لقَوْلِهِ تَقبُرُونى ، أو لِمَا دَلَّ عليه اللَّفْظُ والحال ، وقد جُعِل خَبَرًا للمبتدأ الذى بَعْدَ لكِن ، وهو قَوْلُهُ أبشِرى أمَّ عامِرِ(٢) مَن يأكُلُنى أو يتولَّى أمْرِى . ويجوز أن يكون ظَرْفًا لقَوْلِهِ أبْشِرِى فى القَوْلِ الثّانِى . وإنما قالَ « وفى الرَّأسِ أكْثَرِى » لأنّ الحواسَّ خَمْسٌ ، وأرْبَعٌ منها فى الرأسِ : البَصَرُ للمرئيّات ، والأذن للمسموعات ، والأنف للمشمومات ، والفَمُ للمَذُوقات . وقد اعتَرَض به بين المعطوفِ والمعطوف عليه ، وساغَ ذلك لأنّه يُسَدِّدُ المعنى المطلوب

(١) الوشائظ : الدخلاء فى القوم ليسوا من صميمهم . والبيت فى اللسان (وشظ) .

(٢) أى الذى يقال له أبشرى أم عامر هو الذى يأكلنى أو يتولى أمرى . انظر ما سبق فى ص ٤٨٨ س ١٤ — ١٧ .

ويؤكّده. وقوله « وغُودِرَ عند المُلتقى ثمّ سائرى » ، يروى بفتح الثاء ويكون ظرفا وإشارة إلى المعركة ومزدحَمِ الناس. والتقدير وغُودِرَ ثَمَّ سائِري حيث التقى القَوْمُ بعد أن حُمِلَ رأسُه لشُهْرَته ، أو ليُعْلَمَ به إتيانُ القَتْلِ عليه . ويُروى « ثُمّ » بضم الثاء ويكون حرفَ العطف عُطِفَ به سائرى على المُضمَر في غُودِرَ ، والمعنى غودِرَ رأسُهُ ثُمّ سائرُهُ حَيْثُ التَقى القَوْمُ للنّظارة . والأولى أجْود . وإنّما ضَعُفَت هذه لأنّ عَطفَ الظاهر على المضمر المرفوع ضَعيفٌ حَتّى يُؤَكّدَ . وتأكِيدُه : وغودِرَ هو عند الملتقى ثُمّ سائرُهُ . ويجوز أن يكونَ سائرى في موضِع النّصْب معطوفاً على رأسى ، كأنّه احتملوا رأسَه ثم سائرَهُ ، فيكون أقْرَبَ . وكان الشّنْفَرَى أحَدَ الخُلَعاء الذين تَبرّأ عشائرُهُم منهم وأسْلَمُوا بجرائرهم ، ولهذا قال في نَفْسِه :

طَرِيدُ جِنَاياتٍ تَيَاسَرْنَ لَحْمَهُ   عَقِيرَتُهُ لأَيّا بِما حَنّ أَوّلُ[1]

ومن أجْلِ ذلك كَشَفَ القِناعَ مَعَ قومه ، وأخذ يتفادى منهم ويقول : لا تَقْبُرُونى إن قبرى مُحَرَّمٌ عليكم . فإن قيل : أين جوابُ إذا ؟ قلتَ : إنْ جعلتَه ظَرْفاً لقوْلِه لا تقبرونى فذاك جوابُهُ ، وكذلك إن جعلتَه ظَرْفاً للخبرِ المقدَّر . والسائر : الباقى من الشىء ، وهو من السُّؤْر ، وأسْأَرْتُ في الإناء .

٣ — هُنالِكَ لا أَرْجُو حَياةً تَسُرُّنى   سَجِيسَ اللَّيالى مُبْسَلاً بالجرائرِ

أشار بقوله « هنالك » إلى الوقت الذى يتناهى فيه الأَمَد ، ويدنُو فيه الأجَل ، لا إلى الوقتِ الآتى عليه بَعْدَ القتل ، وهو ظَرْفٌ لِلاَ أَرْجُو . والمعنى : في ذلك الوقت لا أطمع في حياةٍ سارّةٍ لى ، وأنا مخذولٌ مُسْلَمٌ بجرائرى في القبائل ، لا يُرَى إلا شامِتٌ بى ، أو طالبٌ للانتقام منّى . وقولُه « سَجِيسَ الليالى » يُرادُ

(١) البيت من لاميته التى يقال لها « لامية العرب » .

به امتدادُه وسلاسَتُه فى الاتصال ، وهو اسم الفاعِلِ من سَجُس[١] . وقد أحْكَمْنا القولَ فيه فى كتابنا فى الأزمنة[٢] . وهو ظَرْفٌ لقوله مُبْسَلاً بالجرائر . وانتصب مُبْسَلاً على الحال . والجرائر : جَمْع الجريرة . وأُبْسِلوا : أُسْلِموا . وفى القرآن ﴿ أُولئِكَ الذين أُبْسِلُوا بما كَسَبُوا ﴾ .

١٦٥

وقال تأبَّطَ شرًّا[٣] :

١ — وقالوا لها لا تَنْكِحِيهِ فإنَّهُ ۞ لِأَوَّلِ نَصْلٍ أنْ يُلاَقِيَ مَجْمَعَا

كان تأبَّطَ شرًّا خطَبَ امرأة عبسية ، فأرادت إجابته وَوَعَدَتْ مُناكحتَهُ ، فلما جاءها أظهرَتِ الزُّهْدَ ، وأخْلَفَتِ الوَعْدَ ، واعتلَّت بأنَّ الرغْبَةَ فى شرَفه وفَضْلِه كما كانت ، لكنَّهُ قيل لها ما تَصْنَعِين برجُلٍ يُقتَل عَنْكِ قريباً ، لأنَّ له فى كل حَيٍّ جنايةً ، وعنده لكلِّ إنسانٍ طائلة ، فتبْقَيْنَ أيِّمًا ! فانصرف تأبَّط شرًّا وقال هذه الأبيات .

وقولُه « أن تُلاَقِيَ » يجوز أن يكون موضِعُه رَفعًا بالابتداء ، وخَبَرُهُ لأوَّلِ نَصْلٍ ، والجملة فى موضِع خبر إنَّ . [والتقديرُ : إنَّ[٤]] تأبَّطَ شرًّا مُلاقاتُهُ مَجمَعًا لأوَّلِ نَصْلٍ يُجرَّدُ . ويجوز أن يكون « يُلاقى » فى موضِع النصبِ على أن يكون بَدَلاً من الهاء فى « إنَّه » ، كأنَّه قال إنَّ ملاقاتَهُ مَجمَعًا لأوَّلِ نَصْل . والهاء فى فإنَّهُ يجوز أن يكون لتأبَّط شرًّا ، وهو الأجود فى الوجهين . ويجوز أن

(١) ابن جنى : « يقال سجس الماء ، إذا فسد وتغير . ومنه عندى قولهم : لا أكلك سجيس الدهر ، أى امتداده . والتقاؤهما أن الشىء إذا طالت مدته فى غالب الأمر تغير وفسد ، كأنه قال : لا أكلك إلى آخر المدة التى يتغير فيها الدهر » .

(٢) الأزمنة والأمكنة (١ : ٢٩٣) . وهذا نص صريح فى أن المرزوقى ألف شرح الحماسة بعد تأليفه كتاب الأزمنة .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١١ .

(٤) التكملة من م .

يكون للأمر والشأن فى الوجه الأوّل، ويكون تفسيرُه الجملة. ويجوز أن يكون فى موضع الظَّرْف، أى زَمَنَ أن يُلاقِىَ مَجْمَعًا. والمعنى هو لأوّلِ نَصْلٍ إذا لاقى مَجْمَعًا، أى يُقْتَلُ بأوّلِ نَصْلٍ يُعمَل[1] فى ذلك الوقت. ويُرْوى «أن يُلاقِىَ مَصْرَعا»، والمَصْرَع يجوز أن يكون مَصْدَرًا، ومكانًا، وزمانًا. وانتصابه يجوز أن يكون على أنه مفعول يُلاقِى. ويجوز أن يكون مفعولُ يُلاقى محذوفًا ويكون مَصْرَعًا فى موضع الحال؛ كأنه قال أن تلاقِيَه ذا مَصْرَعٍ، أى مصروعًا، فحَذَف المُضافَ.

٢ — فلَمْ تَرَ مِنْ رأيٍ فَتِيلًا وحاذَرَتْ ... تَأَيُّمَهَا من لابِسِ اللَّيْلِ أَرْوَعَا

يقول: لم ترَ هذه المرأة من الرأى لمّا قَبِلَتْ مَشُورةَ الناسِ وتمنَّعَتْ منا لحَتى ما يوازى فتيلًا، أى ما يغنى غناء فتيل. وقد حَذِرَتْ بقاءها أيِّمًا من رَجُلٍ رَكّابِ اللّيل لا يفارقه فيما يَهُمُّهُ، فكأنه لباسُه ذَكِيِّ القَلْبِ شَهْمٍ. والفتيل والنَّقير والقِطْمير يُضْرَبُ المَثَلُ بها فى حَقارَةِ الشىء. والأَرْوَعُ يكون الحديدَ القَلْبِ المُرَوَّعَ الفؤاد، ويكون الجميلَ. وقولُه «وحاذَرَتْ» فى موضِعِ الحال، والأَجْوَد أن يُضْمَرَ معها «قَدْ»، أى لم ترَ فتيلا من الرأى مُحاذِرةً.

٣ — قَليلُ غِرارِ النَّوْمِ أَكْبَرُ هَمِّهِ ... دَمُ الثَّأْرِ أَوْ يَلْقَى كَمِيًّا مُسَفَّعا

هذا من صفة لابِسِ الليل. فإن قيل: ما معنى قليل غِرارِ النَّوْم؟ وإذا[2] كان الغِرارُ القليلَ من النَّوم، بدِلالة قولهم ما نَوْمُهُ إلا غِرارًا[3]، فكيف جاز أن تقول قليل غرار النوم، وأنت لا تقولُ هو قليلُ قليلِ النوم؟ قلتَ: يجوز أن يُرادَ بالقليل النَّفْىُ لا إثباتُ شىء منه، والمعنى: لا ينامُ الغِرارَ فكيف

(١) يعمل، من الإعمال لا من العمل. وفى م: «يعمد».
(٢) فى الأصل: «وإنما»، صوابه فى م.
(٣) م: «إلا غرار» بالرفع، وهو الأصوب. وقد أنشدوا فى الشاذ:

وما الدهر إلا منجنونا بأهله ... وما صاحب الحاجات إلا معذبا

مافوقَه ؟ ويجوز أن يكون المعنى نومُه قَليلُ مايقِلُّ من النَّـوْم ، أى نومُه قليلُ القليل ، يريدُ به أنّهُ مُسهَّدٌ ، وأن أكبرَ[1] مايهتمّ له طلبُ دَمِ الثأر ، أو ملاقاةُ كَمِيٍّ مُسفَّعِ الوَجْهِ ، لدوَامِ تبذُّلِه للسّمائم ، وتَسيارِه فى الهَواجِر . والكمِيُّ : الذى يَكمِى شَجاعتَه لوقتِ الحاجة إليه ، وقيل هو الذى يُتَكمَّى فى سِلاحِه ، وقوله « أوْ يَلْقَى » أَنْ مُضْمَرةٌ بين أوْ والفِعْل ، ولولا ذلك لم يجُزْ عطْفُ الفِعل على الاسم ، لاختلافهما . وإذا أُضْمِرَ « أنْ » يَصيرُ حرفُ العطفِ ناسقًا اسمًا على اسم ، والتقدير : أكبرُ هَمِّه دَمُ الثّأر أو لقاء كَمِيٍّ . ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ، والتقدير : أو أن يرسل رسولا ، حتى يكون أنْ مع الفِعْل فى تقدير مَصْدَر مَنْسُوق على قَوْله وَحْيًا ، إذ قد امْتنَع أن يُحْمَلَ على أن يُكلِّم .

٤ — يُماصِعُهُ كُلٌّ يُشَجِّعُ قَوْمَهُ وما ضَرْبُهُ هامَ العِدَى لِيُشَجَّعا[2]

يجوز أن يكون قوله « يماصِعه » صفة لـكمِيًّا مُسفَّعا ، لأنَّ مِثْلَهُ من الأفعالِ يكون صِفَةً للنَّكِرَةِ ، وحالاً للمعرفة ، ويكون الثناء على خَصْمِه الذى هَمُّه ملاقاتُهُ ، كالثَّناء عليه . ويجوز أن يكون راجعاً إلى الأوَّل ، وداخلاً فى صفاتِهِ ، فيتْبَعَ قوله قليلُ غِرارِ النوم . ومعنى يماصِعُهُ : يقاتله . وأصله الضَّرْبُ بالسَّيف والرُّمْحِ . ويقال مَصَع بذَنَبِهِ ، إذا حرَّكَهُ . ومَصَعَ الطائرُ بذَرْقِهِ ، إذا رَمَى به .

(١) كذا فى م وهو الأوثق . وفى الأصل : « أكثر » .

(٢) التبريزى : « وروى : كلٌّ يُشَجِّعُ يومه

وروى : كلٌّ يشجِّعُ نَفْسَه

ومن روى : كل يشجع قومه بالنصب فالمعنى راجع إلى ما ذكرناه أيضاً ، لأن شجاعته فى نفسه شجاعة قومه ، فكأنه بإقدامه فى الحروب كسب لقومه ذكر الشجاعة فيهم ، ونسبها إليهم »

وقولُه « كلٌّ » أى كلُّ واحدٍ من الناس ، فأفْرَدَ وهو فى النِّيَّة مضافٌ . ومعنى البيت : إنَّ كلَّ مَن قاتَلَ هـذا الرَّجُل قاتلَهُ طَمَعًا فى أن يَنْسُبَه قَوْمُه إلى الشَّجاعة ، وليتبجَّح به عند أقرانِه[١] ، ويذهب به صِيتُه فى الناس . وليس قَتْلُهُ للشُّجعان وضربُهُ هامَ الأعْداء لمثل ذلك ، لـكنه طَبْعٌ منه ، وجَرْىٌ على عادته . وقوله « يُشَجِّع قومُه » أى لأن يشجعه قومه ، والمفعول محذوف بدلالة قوله[٢] :

* ألَا أيُّهذا الزَّاجِرِى أحْضُرَ الوَغَى *

يُرِيدُ أن أحْضُر ، يدلُّ على هذا ما بَعْدَه ، وهو :

* وأن أشْهَدَ اللَّذَّاتِ هل أنْتَ مُخْلِدِى *

٥ — قَلِيلُ ادِّخارِ الزَّادِ إلَّا تَعِـلَّةً فقد نَشَزَ الشُّرْسُوفُ والْتَصَقَ المِعَا

قولُه « إلا تَعِلّةً » من عَلَّلْتُهُ بكذا ، فهو كالتَّقدمة من قدَّمْتُ. والشَّراسيف : مَقاطُّ الأضْلاع[٣] ، ولا ينْشِز إلاَّ للهُزَالِ . وذِكْرُ القِلَّةِ ها هنا مقصودٌ به إلى النَّفْى لا غير ، بدلالة مجىْ الاستثناء بعده ، وإذا كان كذلك لم يثبت القَليلُ به . والمعنى : ما يَدَّخرُ من الزَّادِ إلا قدراً يَتعلّل به ، فقد أثَّرَ الطَّوَى فيـه حتى هُزِل ، فتَرَى رءوس أضلاعه شاخصةً ، وأمعاءه بجنبه ملتصقة ، لقِلّة طُعْمِه ، واتِّصال ممارسته للشَّدائد . وعلى هذا قول الله عزّ وجل : ﴿ قليلاً ما تُؤمِنُونَ ﴾ و﴿ قليلاً ما تَذَكَّرُون ﴾ .

٦ — يَبِيتُ بِمَغْنَى الوَحْشِ حتَّى أَلِفْنَهُ ويُصْبِحُ لا يَحْمِى لهَا الدَّهْرَ مَرْتَعَا

قوله « يبيت بمغنى الوحش » ، أى استمرّت هذه الحالة به ، واتصلت منه

(١) التبجح : الفخر . (٢) هو طرفة ، فى معلقته المشهورة .
(٣) مقاط : جمع مقط . وفى الأصل : « مقابل » ، تحريف . وفى م : « مقط » .

ودامت ، لأن الأماكن سِواه ضاقَتْ عنه ، ومجامع الإنس تكرَّهَتْهُ فلَفَظَتْهُ ، فألِفَ القِفار ولزِمَ مرابِع الوحش ومساكنَها ، حتى أَنِسَتْ به وسكَنَتْ إليه ، وعَدَّتْهُ واحداً منها ، وصار هو أيضاً على تعاقب الزمان وتصرُّفِ الأحوال لا يَحْمِي من أجْلِهَا مرْعى ، ولا يُراعِي من مَرادِها مَأْوَى ، لأن هِمَّته مصروفة إلى غَيْرِهَا ، ونفسَه مَشْغُولَةٌ بسواها ، فلا نَفْرَتُها مِنْهُ تَقْبِضُها عنه ، ولا صَيْدُهُ لَهَا يَحْمِلُهَا من همه . ومِثْلُ هذا قول الآخر[1] .

عَلَامَ تَرَى لَيْلَى تُعَذِّبُ بالمُنَى ... أخا قَفْرَةٍ قد كان بالغُول يأنس[2]
وأضْحَى صَدِيقَ الذِّئب بَعْدَ عَدَاوَةٍ ... و بغْضٍ وربَّتْهُ القِفارُ الأمالس[3]

٧— على غِرَّةٍ أوْ جَهْرَةٍ من مُكانِسٍ ... أطَالَ نِزَالَ القَوْمِ حتَّى تَسَعْسَعَا[4]

تَعلَّقَ قولُه « عَلَى » بقولِه « لا يَحْمِي » . والمعنَى : لا يحافِظُ لها ولا يترقبُها ، لا على غَفْلةٍ منها واغترارٍ منه إياها ، ولا بمجاهَرةٍ لها ولا مكاشفة دونَها ، بل أطالَ مزاولةَ الغارات ومُنازلةَ الكُماة مُنْذُ تَرَعْرَعَ ، إلى أن وَلَّى شبابُه وتَسَعْسَع . وهذه إشارةٌ إلى ما تَنقَّل فيه على تغيُّر الأحوال ومُضِيِّ الأوقات ، من اكتساب العداوات وإيقاع الوقَعات ، وتهييج الغارات . وقوله « تَسَعْسَعَ » من قولِكَ تَسَعْسَعَ الليلُ أو النهار ، إذا أدْبَر . وفى الحديث : « تَسَعْسَعَ الشَّهرُ » .

---

(١) هو عبيد بن أيوب العنبرى ، أو عبيد بن ربيعة التميمى . انظر الحيوان (٦ : ١٦٨) وحماسة البحترى ٤١١ .

(٢) الحيوان : « أخا قفرات كان بالذئب » .

(٣) فى الحيوان :

وصار خليل الغول بعد عداوة ... صفيا وربته القفار البسابس

(٤) رواية التبريزى : « أو نهزة من مكانس » . وفى الأصل : « نزاع القوم » والتفسير بعده يقتضى ما أثبتنا من م والتبريزى . وقد أشار التبريزى أيضاً إلى رواية : « تشمشما » ، قال : « من قولهم رجل شمشاع ، أى حلو خفيف ، أى صار لبقا بالنزال مليح الطعان والضراب ، لطول عادته لذلك » .

والمُكانِس : المُلازِم للكِناس . ويُقال كَنَسَ الظَّبْيُ فهو كانسٌ ، إذا أوى إلى كِناسه . قال لبيد :

تسلب الكانسَ لم يُوأَرْ بها ... شُعْبَةُ السّاقِ إذا الظِّلُّ عَقَلْ[1]

ويُقالِ للكِناس المَكْنَسُ . يقال : ظَبْيٌ كَنِسٌ[2] ، إذا لزِمَ كناسَه .

٨ – ومَنْ يُغْرَ بالأعْداء لا بُدَّ أنّهُ ... سيَلْقَى بهم من مَصْرَعِ الموتِ مَصْرَعَا[3]

قوله « لا بُدَّ » يجرى مَجرى لا مَحالَة ، وهو من البَدَد مصدر للأبدّ ، وهو سَعَةُ ما بين اليَدِ والجَنْبِ ، كأنّ المراد لا سَعَةَ فى ذلك ولا تجوُّز . وكان الواجب أن يقول : لا بُدَّ من أنّهُ سيَلْقَى ، فحَذَفَ مِنْ . فإذا قُلْتَ : لا بُدّ من كذا ، فانتصاب بُدَّ بلاَ ، وخبَرُه من كذا . ولم يتعلَّق مِنْ بُدَّ كما تَعلّق بخَيْرٍ من قولك لا خَيْرَ منه لك ، لأنّه لو كان كذلك لَنُوِّنَ بُدٌّ ولم يجُزْ غيرُهُ . يقولُ : من أُولِعَ بمنابذة الأعداء ، وغَرِىَ بمضارّتهم لا بُدَّ أن يَلْقَى بهم يوماً من الأيّام مَصْرَعاً من مَصارِع الموت ، لأنّه كما يرَى فيهم يرَى بِهِم . ويقال : غَرِىَ بكذا وأُغْرِىَ به ، وقد رُوِى « يَغْرَ » بفتح الياء ، و « يُغْرَ » بضمِّها . والمَصْرَعُ هاهنا مَصْدَرٌ ، وقد يكون فى غير هذا اسماً للمكان والزَّمان . وعلى طريقة هذا البيت المَثَلُ السائر : « من يرَ يوْمًا يُرَ به » . وجواب الجزاء فى ضمن قولهِ لا بُدَّ أنه سيَلْقَى ، والتقدير من يُغْرَ بالأعداء فهو سيَلْقَى بهم مَصْرَعَ الموْت ، لا بُدَّ من ذلك .

٩ – رأَيْنَ فتًى لا صَيْدُ وَحْشٍ يهُمُّهُ ... فلَوْ صافَحَتْ إنْسًا لصافَحْنَهُ مَعَا

---

(١) فى الأصل : « يورا » ، وفى م : « يوءا » ، والوجه ما أثبتنا ، وهى إحدى روايتى البيت ، كما فى اللسان (وأر) . ويروى : « لم يوأر » ، وهى رواية الديوان ١١ طبع ١٨٨١ .

(٢) كذا فى النسختين . والمعروف « كانس » .

(٣) فى الأصل : « من مصرع القوم » ، صوابه فى م والتبريزى .

رَجَع إلى ذِكر الوحش بعد أن اعترض بين الكلام فيها بقوله : « أطالَ نِزالَ القومِ » ، و بقولِه « ومن يُغر بالأعداء » . وهو يريدُ أن يبيّنَ سببَ أُنسِها به ، وزوالَ نِفارِها منه بأشْقَى مما قدّمه . فيقول : رأتِ الوَحْشُ به فتىً صيدُ الوَحْشِ مما ليس يَخطُر ببال ، ولا يَعُدُّه من جملة الأشغال . فلو مَكّنَتْ من نفسِها إنسًا لمكّنَتْ هذا . فقولُه « لا صيدُ وَحْشٍ يهمُّه » من صفةِ الفتى ، ونَفَى بقوله لا الفِعْلَ ، فلذلك لم يكرّر لا مرّتين كما تقولُ لا عَبْدٌ لك ولا جارية . وإذا كان كذلك فقد أضمَرَ بعدَ لا فِعْلاً ، وجعَل الصيد يرتفع به ، ويكون الفِعل الظاهر بعدَهُ تفسيراً ، كأنه قال لا يهمُّه صيدُ وَحْشٍ يهمُّه . والمصافحةُ أصلُها فى مماسّة صَفحة إحدى اليدينِ للأُخرى عند السلام ، فاستعارها للتمكين والاستسلام . وقولُه « معًا » فى موضع الحال ، أى مجتمعةً ومصطحِبةً . والفائدة فى ذكر الإتيان بلفظةٍ تُفيد العموم ، فكأنّ المراد الوحشُ على اختلاف أجناسِها .

١٠— ولكنّ أربابَ المَخاضِ يَشُقُّهُمْ إذا اقتَفَروهُ واحدًا أوْ مُشيَّعَا

١١ — وإنّى وإنْ عُمِّرْتُ أعْلَمُ أنّنى سألْقَى سِنانَ الموتِ يَبرُقُ أصْلَعَا

قولُه « المَخَاض » هى النُّوق الحواملُ ، وهو اسمٌ صِيغ للجماعة منها ، ولا واحِدَ لها من لَفْظِها ، وإنما خَصّها لأنّ التنافُسَ فيها أكثر ، وأربابَها بها أشحّ . والشاعرُ ترَكَ قِصّةً إلى قِصّة ، فكأنّه قال : لا يهمُّه طَلَبُ الوَحْشِ ، لكن يهمُّه قصْد أرباب الإبل فى أموالِهم ، فهو يؤذيهم و يفزّعهم ، ويُضْنيهم إذا تتبّعُوا أثَرَهُ . وقد أغار عليهم واستاق إبلَهم مُنفردًا عن أصحابه ، أو محتفلاً بهم مُعانًا بتشييعهم . وهذا بيانُ ما قدّمه فى قولِه « أطالَ نِزالَ القومِ حتى تَسَعْسَعَا » .

وانتصَب واحداً على الحال ، والعاملُ فيهِ اقتفروه ، أى منفرداً . ويقال اقتفرتُ الوحش[١] إذا تتبعتَ أثرَهُ . ومعنى يَشُفُّهُمْ ، يهزلهم ويكدّ عيشهم . ومشيّعا : معه شيعةٌ . يريد أنه لا يبالى كيف سقط عليهم وأنه يشُفُّهم على كل حالٍ . وقولُه « وإنى وإنْ عُمِّرت » بيانُ قولِهِ « ومن يُغزَ بالأعداء » ، كما أنّ قوله « رأيْنَ فتًى » بيان قولِهِ « يبيتُ بمَغْنَى الوَحْش حتى ألِفْنَهُ » ؛ لأنه فسّرَ كلّ بيْتٍ من الأبيات الثلاثة ببيتٍ . فيقول : أنا وإن أُطيلَ عُمْرِى ، ومُدَّ من نفَسِى بما يَلْحَقُنى من واقيةِ الله تعالى على ما أجترِحُه وأختاضُه[٢] ، أتيقّنُ أنى سألْقَى أجَلى ، وأُوافِى مَصْرَعى إذا دَنا الحِينُ المعلوم ، بالحَيْنِ المحتوم ، وتَراءَى سِنانُ الموتِ لى بارِزاً بارِقاً ، أى السِّنان الذى يكون به الموتُ ، فلا أختارُ لنفسى إلاّ مالا يكسبنى عاراً . وفى الكلام مع هذا الذى ذكرناهُ التَّسلِّى التامّ ، والرِّضا بالمقدور . وجواب الشرط فى قوله أعلَمُ أننى ، وهو على إرادة الفاء ، ويجوز على نِيَّةِ التقديم والتأخير .

١٦٦

وقال بَعْضُ بنى فَقْعَسٍ[٢] :

١ — دَعَوْتُ بَنِى قَيْسٍ إلَىّ فَشَمَّرَتْ خَنَاذِيذُ مِنْ سَعْدٍ طِوَالُ السَّوَاعِدِ[٣]

يقول : استغثت بهؤلاء القوم وندبْتُهُم إلى نُصْرَتى والدِّفاع دونى ، فخفّتْ لى رجالٌ كأنّهم فحولٌ ممتدّةُ القاماتِ ، مبسوطة الأيدى بالضّرب والطّعن .

(١) فى الأصل : « الرجل » ، صوابه فى م والتبريزى .

(٢) كذا فى م . وفى الأصل : « وأعتاصه » .

(٣) فى الحيوان (١ : ١٣٤) : « بعض النيسيين من قيس بن ثعلبة » . وفى البيان (٢ : ١١) : « قول القيسى » .

ويجوز أن يريد بالطُّول الاقتدار والغَلَبة ، كما يُقالُ فى السَّلاطةِ : هو طويل اللِّسان . والخناذيذ : الكِرام من الخيل ، فاستعارَها للكِرام من الرِّجال كما يُستعار القُرُوم المَصَاعِبُ لهم . ومن زعَمَ أنّ الخناذيذ : الخِصْيان أو الفحولة ، فقولُه بعيدٌ عن الصواب ؛ يَشْهَدُ لما ذكرناهُ من أنهُ الكِرامُ قولُ الشاعِرِ[1] :

* وَخَنَاذِيذَ خِصْيَةً وَفُحُولاً[2] *

والطِّوال ، يكون جَمْعَ طويل وطُوَالٍ جميعا . ومفعول شَمَّرَتْ محذوف ، والمُراد ، رفَعتْ ذُيُولَهَا ، وتهيّأت مجتمعة ومتخفّفة للقتال . وكما قيل هم طِوَال الأيْدِي والسواعِدِ فى الجرِيْ المُقْدِمِ ، المُسْتَعْلِي المُقْتَدِرِ ، قيل فى السخاء : هم بُسُطُ الأيْدِي والأكُفِّ ، وقيل هو شديد السَّاعِدِ للقوِيِّ الجَلْد .

٢ — إذَا مَا قُلُوبُ القَوْمِ طَارَتْ مَخَافَةً   من المَوْتِ أرْسَوْا بالنُّفُوسِ المَوَاجِدِ

انتصب مخافةً على أنه مفعولٌ له . وجواب إذا « أرسوْا » . والمعنَى : إذا تمكّن الرُّعْبُ من القُلوبِ والصُّدور حتّى طاشتْ [له[3]] الألباب ، وطارتْ له الأفئدة ، ثَبت هؤلاء القَوْم فى مواقفِ التّدافُع والتحارُب بنفوسٍ كريمةٍ لا تُغْضِي على قَذًى ، ولا تصبِرُ على أذًى ، فهى آبِيَةٌ للدَّنِيّات ، صابِرةٌ عند النّائبات . وقوله « أرْسَوْا » مفعولُه محذوف ، كأنّه قال أرْسَوْا قُلُوبَهُمْ بالنُّفوس الكريمة . ويجوز أن يكون الباء من بالنفوس زائدةً للتأكيد[4] ، كما قال :

(١) دعوت بنى قيس ، هذه رواية الأصل و م والتبريزى . وفى الحيوان والبيان : « دعوت بنى سعد » .

(٢) هو النابغة الذبيانى ، كما حقق ابن برى . ويروى لخفاف بن عبد قيس البرجمى . اللسان (خنذ) . وفى الحيوان (١ : ١٣٣) أنه خفاف بن ندبة .

(٣) صدره : * وبراذين كابيات وأتنا *

(٤) هذه من م .

* سُودُ المَحاجِرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَرِ[١] *

والمعنى أرْسَوْا النُّفوس ، أى أثبتوها إثباتًا لا تَحَلْحُلَ معه ولا تموُّج . على هذا قولهم : الجبال الرّاسيات ، وهو راسِى الدَّعائم . والمَواجِدُ : جَمْعُ مَاجِدَةٍ ، وأصْلُه الكَثْرَةُ ، يقال أمجدتُ الدَّابَّةَ العَلَفَ ، إذا أكثَرْتَهُ لها .

١٦٧

وقال سَعْدُ بن مَالِكٍ[٣] :

١ — يابُؤسَ للحَرْبِ الّتى وَضَعَتْ أراهِطَ فاسْتَرَاحُوا

اللام من قوله « يا بُؤسَ للحرب » دَخَلَتْ لتأ كيد الإضافة فى هذا الموضِع ، وهى إضافةٌ لا تخصّص ولا تُعرِّف . وهذه اللام لا تجىء على هذا الحَدِّ إلا فى بابَيْنِ : أحدها بابُ النَّفْى بِلاَ ، وذلِكَ مِنهُ فى قولِكَ لا غُلاَمَىْ لك ولا أبالَكَ وما أشبههما ، والثانى بابُ النداء فى قولِكَ يابُؤسَ للحرب ، وإنّما المعنى يابؤس الحرب . ألا تَرَى أنّه لو لم يُرِدِ الإضافةَ لنَوّنَ يابؤسَ فى النّصب ، لكونه نكرةً ، أو كان يجعله مَعْرِفَةً مبنيّةً على الضمّ . وقد أتى الشاعر فى بابِ النَّفْىِ على أصْلِهِ فى الإضافةِ فقال :

(١) وقال ابن جنى فى التنبيه : « يجوز أن تكون الباء ها هنا حالا من الضمير فى أرسوا ، أى أرسوا نفوسهم معهم ، كقولك خرج بثيابه ، أى وثيابه عليه » .

(٢) البيت يروى لشاعرين متعاصرين ، أحدهما الراعى النميرى ، والآخر القتال الكلابى . انظر الخزانة (٣ : ٦٧٧ — ٦٦٩) . وصدر البيت :

* هن الحرائر لاربات أحمرة *

(٣) هو سعد بن مالك بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة ، جد طرفة بن العبد ، كما ذكر التبريزى . وهذه الحماسية يقولها سعد يعرض فيها بالحارث بن عباد ، وكان قد عرف باعتزال الحرب ومجانبتها ، ولم يسقه إلى خوض غمارها فى آخر الأمر إلا ماروواه أو رياش ، ومؤداه أن ابن أخيه واسمه بجير بن عمرو بن عباد — عرض له مهلهل على غرة فقتله وقال له : بؤ بشسع نعل كليب ! فقيل للحارث بن عباد : إن ابن أخيك قد قتل دية لشسع نعل كليب ، فلم يهتج لذلك =

أبالموتِ الذى لا بُدَّ أنّى   مُلاقٍ لا أباكِ تخوِّفينى[١]

والذى يَدُلُّ على أنّ هــذه الإضافة لا تخصِّص أنَّ لا قد عمِلَ معها ، وهو لا يَعْمَلُ إلّا فى النكِرات . ومَعْنى البيتِ أنَّهُ على وَجْه التعجُّب دعَا بُوسَ الحرْب التى حطَّتْ أراهِط وأذلَّتْهُم حتى استسلموا للأعداء ، وألِفوا وضْعَ الحرْبِ[٢] ، وحالفوا الراحة ، وآثرُوا السلامَةَ . وهذا الكلامُ فيه مع القصْد إلى التعجُّب تهكُّمٌ وتعييرٌ ؛ كأنّه أراد : ما أبْأسَ الحرْبَ التى فعلَتْ ذلكَ . وقوله « فاستراحوا » فيه تهكُّمٌ و بيانٌ لاستغنامِهم ذلك[٣] ، ومَيْلِهم إليه ؛ كأنّهم عدُّوا نَفْضَ اليَدِ من مجاذبةِ الأعْداء ومراقبتِهم والاحترازِ من مكايدِهم ، لظهور عجزهم ، وتصوُّرِهم بصورةِ مَن لا يُحتفَلُ لَهُ ، ولا يُستظهر عليه ، ولا يُتَّقى مِنه — سلَامَةً وراحَةً ، وإن كان سُقُوطاً ومهانَةً . وكل ذلك لخروجهم عن مَلَكَةِ العِزّةِ ، واطّراحِهم قِناع الحَمِيَّةِ . وأراهِطُ جَمْعٌ ، يقال رَهْطٌ وأرْهُطٌ وأراهِطُ . والرَّهْطُ يَقَعُ على ما دون العشرة — ولذلك جاز أن يُضافَ ما دون العَشَرَةِ من أسماء الآحاد إليه — وفارَقَ الخَيْلَ والغَنمَ والإبِل[٤] .

٢ — والحَرْبُ لا يَبْقَى لِجا   حِمِها التَّخَيُّــلُ والمِراحُ

= وتربث حتى يتحقق من الخبر بنفسه ، وأرسل إليه المهلهل : إنى إنما قتلته بشسع نعل كليب لجمع قومه وأعد للحرب عدتها ، وكان يوم التحالق بين قومه بكر بن وائل وإخوتهم تغلب . وانظر العقد (٥ : ٢٢٠ — ٢٢١) .

(١) البيت لأبى حية النميرى ، كما فى اللسان (أبى) .

(٢) أى ترك الحرب .

(٣) م : « بيان الاستغناء منهم لذلك » .

(٤) أشبع التبريزى الكلام على : « وضعت أراهط » ، قال : « وليس الوضع هاهنا ضد الرفع ، وإنما المراد أنها تركتهم فلم تكلفهم القتال فيها . وإنما يعنى سعد بن مالك الحارث بن عباد ومن كان مثله فى اعتزال الحرب . وقد روى أن الحارث لما حارب مع بنى بكر بعد قتل بجير قال : أترانى ممن وضعته الحرب ؟ فهذا يدل على النصب . ومن رفع أراهط فالمعنى يا بؤس للحرب التى وضعتها أراهط . وهذا اللفظ هو الأصل لأن قولك ترك بنو فلان الحرب هو واجب الكلام ، وقولك تركت الحربُ بنى فلان مجاز واتساع » .

يقال : جَحَمَتِ النارُ فهى جاحِمَةٌ ، إذا اضطرمَتْ ؛ ومنه الجحيم . وهذا الكلام جارٍ مَجْرى ما قَبْلَهُ ، وفيه إزراءٌ بالذين ذَكَرَهُمْ ، وإيهامٌ بأنّهم كانوا أصحابَ خُيلاء و بَطَرٍ ، ومِرَاحٍ ونَزَقٍ ، فلم تَثْبُتْ أقدامُهُمْ عند اللّقاء ، ولا صَبَرَتْ أنفُسُهُمْ أوانَ الكِفاح ، فقال مُعرِّضاً : لا يبقى لنار الحرب كبرياءُ المتكبِّرين ، ولا نشاط المَرِحين ، بل يستبدلون بهما اللِّينَ والكسل ، والانخزال والفشَل ، والصبر على الامتهان ، والاستسلام عند الامتحان . وقوله «لا يبقى لجاحِمها التخيُّل» يجوز أن يريدَ به صاحبَ التخيُّل ، فحذَفَ المضاف وأقام المُضاف إليه مقامه ، وحينئذٍ يكون البَدَلُ فى إلّا الفتى — وهو أوّل البيت الذى يليه منه ، وَجْهَ الكلام ومختارَهُ ؛ لأنَّ الثانىَ يكونُ من الجنس الأوّل ، وفى الوجه الأوّل لا يكون من جنْسه ، والاختيار فى المستثنى بعده النَّصْبُ .

٢ — إلّا الفتى الصَّبَّارُ فى الـ نَّجَدَاتِ والفَرَسُ الوَقاحُ

قوله « إلّا الفتى » ارتفع على أنه بَدَلٌ من التخيُّلُ ، وهذا لُغَةُ تميم ، ولُغة سائر العَرَب النَّصْبُ فيما كان استثناء خارجاً وإن كان جائياً بعد النَّفى ، لأن كونَهُ ليس من الأوّل يُبْعِدُ البَدَلَ فيه ، والنَّصْبُ كان جائزاً على كُلِّ وَجْهٍ . والنَّجَدَاتُ : الشَّدائد . والصَّبْرُ أصلُه الحَبْسُ ، وفعَّالٌ بناء المبالغة ، ولا يجوز أن يكون اسمَ الفاعل من صَبَّرَ ، لأن اسم الفاعِل من صَبَّرَ مُصَبِّرٌ . يقول : لكن [لا] يَبْقَى لِمُلابسة الحربِ والصَّبْرِ على شدائدها [إلّا الفتى[1]] الحسَنُ الثَّباتِ فى الكرائهِ ، والفرَسُ الصُّلْبَةُ على الجِراء . ويقال فرَسٌ وَقَاحٌ ، وحافِرٌ وقاحٌ ، وهو وَقِحُ الوَجْهِ ؛ ومصدره القِحَةُ .

(١) التكملة من م .

٣ — والنَّثْرةُ الحَصْداءُ والْـ بَيْضُ المُكَلَّلُ والرِّماحُ

عَدَّدَ الآلاتِ التى يحتاج إليها الفتَى الصَّبَّارُ فى النَّجَداتِ عند مِراسِ الحرب ، ودِفاعِ الشَّرّ . فالنَّثْرةُ : الدِّرْعُ الواسِعةُ المُحْكَمةُ السَّرْدِ ، ويُقال فيها النَّثْلةُ باللام أيضاً . والحَصْداء : الجَدْلاء ، ومَصْدَرُهُ الحَصَدُ . يقال حَصِدَ يَحْصَدُ حَصَداً ، وأحْصَدْتُه وهو مُحْصَدٌ . يقال ذلك فى الأوتاد والحِبال والدُّروع إذا أُحْكِمَتْ وفُتِلَتْ . ويُقالُ هو حَصِيدٌ ومُسْتَحْصِدٌ أيضاً . وقولُه « البَيْضُ المُكَلَّلُ » يَعْنِى بالمسامير ، كأنَّها غُشِّيَتْ وسُمِّرت . والمعنى إنما يَبْقَى على صِلاءِ الحَرْبِ ومزاولتِها مَنْ كانَ فى نَفْسِه يَرْجِعُ إلى قُوَّةٍ وجَلَدٍ ، ومن صَبْرِه يَعْتَمِدُ على أبْلَغِ أمَدٍ ، ومن سِلَاحِه يَثِقُ بأتَمِّ عُدَدٍ . ولم يَصِفِ الرِّماحَ ، ويَعْنى أقومَها لا محالة .

٤ — والكَرُّ بَعْدَ الفَرِّ إذْ كُرِهَ التَّقَدُّمُ والنِّطاحُ

بَيَّنَ ما يَحتاج إليه الصَّبَّارُ من الأفْعالِ فى الحَرْب ، كما بَيَّنَ الآلاتِ التى من شَرْطِهِ [استصحابُها[1]] ، فكأنَّهُ قال : ويَبْقَى لجاجِها الكَرُّ بَعْدَ الفَرِّ فى وَقْتٍ يُكْرَهُ فيه الإقْدامُ والتقدُّم ، والنِّطَاحُ والتَّجَرُّدُ . و بعضهم يروى هذا البيت فى غير هذا الموضِع[2] ، والصواب هذا الترتيب . وجَعَلَ النِّطاح بين الكِباش مَثَلاً للمبالَغة بين الفرسان .

٥ — وتَساقَطَ التَّنْواطُ والـ ذَّنَباتُ إذْ جُهِدَ الفِضَاحُ[3]

هذا ينعطف على قوله وضَعَتْ أراهط فاستراحوا . يقول : وتَساقَطَ الدُّخلاء

---

(١) هذه من م .

(٢) أى يرويه بعد البيت التالى ، وممن فعل ذلك التبريزى .

(٣) التبريزى : « وتساقط الأوشاظ » ، ثم أشار إلى رواية « التنواط » . ولم يفسر الأوشاظ صريحا . وفى اللسان : « والوشيظ : التابع والحلف ، والجمع أوشاظ » .

والهُجَناء الذين نِيطُوا بصميم العرَب فلم يكونوا منهم . والتنواطُ مَصْدَرٌ فى الأصل ، كالتَّرداد والتَّكرار ؛ وكأنّ المُراد ذَوُو التَّنواط ؛ فحُذِف المُضافُ وأُقيم المضاف إليه مَقَامَهُ . ويجوز أن يكون وُصِفَ به كما يوصَفُ بالمصادِر . وذَكَر بعضُهم أنَّ التَّنواطَ ما يُعَلَّقُ على الفرَس من إداوَةٍ وغيرِها ؛ لأنَّ كلَّ ذلك قد نِيطَ به ، ثم أُطْلِق تشبيهاً على الدُّخلاء . وقد استُعْمِلَ هذه اللفظةُ فى الدَّعِىّ ، فقيل : هو مَنُوطٌ . وقال الشَّاعر[1] :

وأنْتَ دَعِىٌّ نِيطَ فى آلِ هاشِمٍ   كما نِيطَ خَلْفَ الراكِبِ القدَحُ الفرْدُ

فعلى هذا يجوز أن يريد بذوى التَّنواط الأدْعياء . وقوله الذَّنبات ، يريدُ التُّبَّاع والعُسَفاء . ويقال لهم الذَّنائب والأذناب أيضا . وكما قيل هذا تشبيها بِذُنابة الوادى[2] ، قيل فى الرؤساء الذَّوائب ، لأنّهم الأعْلَوْن . وذكر بعضُهم أنَّ الذَّنَباتِ لا يُقال فى النّاس ، وإنما يُقال لهم أذناب ، ثم أنشد :

قَوْمٌ هُمُ الأنفُ والأذنابُ غَيْرُهُمُ   ومن يُسَوِّى بأنفِ الناقةِ الذَّنَبا[3]

ومن حيث جاز الأذنابُ واستعارتُها جاز استعارةُ الذَّنَبةِ والذُّنابةِ والذَّنائب والذَّنَبات ، ولا فَصْل . وقولُه « إذ جُهِد الفِضاح » معناه بُلِغ بالفضيحة جَهْدُها ولم يُرْضَ بالعَفْوِ منها . وفى الوقت الذى أشار إليه ، لا يَثْبُتُ إلّا من يَرْجِعُ إلى كَرَمٍ مُتَناهٍ ، وحِرْصٍ على المحافظة على الشّرفِ بالغٍ .

٦ — كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِها   وَبَدَا مِنَ الشَّرِّ الصُّرَاحْ

أخذ يقتصُّ ما جرَى عليهم . وقولُه « كشفت لهم عن ساقِها » مَثَلٌ يُضرَبُ لشدَّة الحرب ، وإنما أهلُها فى ذلك الوقت يكشفون عن الساق ، فجعل الفِعل

(١) هو حسان بن ثابت يهجو أبا سفيان بن الحارث . ديوانه ١٦٠ واللسان (نوط) .
(٢) الذنابة بضم الذال وتكسر أيضاً .
(٣) البيت للحطيئة . ديوانه ص ٦ .

لها ، والمُراد انكشفت الحرب لهم عن تَشَمُّرِ أهلِها واشتدادها . وقد قيل : الساق اسْمٌ للشدّة ، وفُسِّر عليه قولُه تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ فقيل : المعنى يوم يكشَفُ عن شِدَّة . وكذلك كشفت الحربُ عن ساقِها ، معناهُ أبْرَزَت عن شِدّتِها . وقولُه « وبدا من الشَّرِّ الصُّرَاح » أى الخالص الذى لا يمتزج به خيْرٌ ولا يُرْجَى بَعدهُ صَلَاحٌ . ويقال : صَرِيحٌ وصُرَاحٌ ، كما يقال طَوِيلٌ وطُوَالٌ ، وعريضٌ وعُراضٌ . ويقال : صَرَّحَتِ الخمرةُ ، إذا انكشفت عنها زُبدتُها .

٧ — فالهَمُّ بيضاتُ الخدو رِ هُنَــاكَ لا النَّعَمُ المُرَاحُ

أقبَلَ يَصفُ ما امتُحِنوا به فى الحُرَمِ إذا تُرِكَ حَديثُ المَالِ والبَلَاء فى النُّفوس . وقولُه « فالهَمُّ بيضاتُ الخُدُورِ » يجوز أن يُرادَ به ما يُهْتَمُّ له فى ذلك الوَقْتِ : الحُرَمُ والنِّساء المُخَدَّرَاتُ اللاتى كأنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكنونٌ صيانةً وجَمالًا ، لا الإبلُ المُرَاحةُ من مَرَاعِيها . كأنه سَمَّى ما يُهتَمُّ له هَمًّا . ويجوز أن يكون المعنى ما يُهَمُّ به : النِّساء لا الإبل . والمراد أنهم كانوا يغتنمون سِباءَ النِّساء وإلحاقَ العارِ بسببهِنّ ، لا اغتنام الأمْوال . وتُشَبَّهُ المرأةُ بالبيض لتلمُّلِها وزَوال الحجوم عنها . وقال الخليل : بَيْضَةُ الخِدْرِ هى الجاريةُ المُخَدَّرة الجميلة . وإنما قال المُرَاحُ لأنَّ النَّعَمَ مُذَكَّرٌ . ويقال سَرَحْتُ الماشيةَ بالغداةِ ، وأرَحتُها بالعَشِيّة .

٨ — بِئْسَ الخلائفُ بَعْدَنا أوْلادُ يَشْكُرَ واللِّقَاحُ

أولاد يَشْكُر ، هم من جملة من وضَعَتْهُ الحربُ . فيقول : إذا خَلَّفْنا من لا دِفاع به من الرِّجال والأموال ، فبِئس الخلائف بعدنا . جعلَ أولاد يشكرَ كاللِّقاح — وهى الإبل بها لَبَنٌ — فى حاجتِها إلى من يَذُبُّ عنها ، ويُحامِى عليها . ورواه بعضُهم : « واللَّقاح » بفتح اللام ، وهم بنو حنيفة ، وكانوا لا يَدِينُون للمُلُوكِ . ويكونُ الكلامُ على هذا تهكُّمًا .

٩ — مَنْ صَدَّ عَنْ نِيرانِها فأنَا ابنُ قَيْسٍ لا بَرَاحُ[١]

يقول : مَن أَحْجَمَ عن الحَرْبِ وكَرِهَ الاصطلاء بنارها والصَّبرَ على بلواها ، وعَجَزَ عن الثبات فى وجُوهِ أبنائِها ، فأنا ابن قَيْسٍ لا بَرَاحَ لى فيها ولا انحراف . ومعنى « فأنا ابن قَيْسٍ » فأنا المشهور بأبيه ، المستَغْنِي عن تطويل نَسَبِه . فقولُه لا بَرَاح ، الوَجْهُ فيه النَّصْبُ ، ولكنَّ الضرورة دَعَتْهُ إلى رَفْعِها . وقال سيبويه : جَعَلَ لا كَلَيْسَ هاهنا فرفَعَ به النَّكِرة ، وجعلَ الخبر مُضْمَرًا . ومِثْله :

* بِئْسَ الجَحِيمَ حِينَ لا مُسْتَصْرَخُ[٢] *

كأنهما قالا : حين ليس عندى مُستصرَخٌ ولا بَرَاحٌ عندى فى الحَرْب .

---

(١) هذا آخر المقطوعة عند المرزوقى . وروى التبريزى بعده خمسة أبيات . وهى :

١٠ — صبرًا بنى قيسٍ لها حتَّى تُرِيحوا أو تُراحُوا

١١ — إنّ المُوائِلَ خوفَها يَعتاقُه الأجلُ المتاحُ

١٢ — هيهاتَ حالَ الموتُ دُو نَ الفَوتِ وانتُضِىَ السِّلاحُ

١٣ — كيفَ الحياةُ إذا خَلَت مِنّا الظواهرُ والبِطاحُ

١٤ — أينَ الأعِزَّةُ والأسِـنَّةُ عنـد ذلك والسَّماحُ

وقال فى شرح البيت الأول : « أى اصبروا لهذه الحرب حتى تقتلوا أعداءكم فتريحوكم من شدتها أو يقتلوكم فيريحوكم من ذلك » . وفى شرح الثانى : « الموائل : الذى يطلب الموئل . خوفها أى خوف الحرب . ونصب الخوف بالموائل . ويعتاقه ، أى يشغله الأجل عن النجاء فيقع فيما يكره منها . والمتاح : القـدر . وهو كما يقال : لا ينفع مما هو واقع التوقى » . وقال فى شرح الثالث : « أراد أن الموت قد حال دون أن يفوت الرجـل فيذهب من هذه الحروب منهزما . يريد أنه ليس إلا القتل أو الغلب » . وفى شرح الرابع : « الظواهر : أعالى الأودية والبطاح : بطونها . وهو من نوادر الجمع ، واحدها أبطح وبطحاء » .

(٢) للعجاج فى ديوانه ١٤ . وقبله ، وهو أول الأرجوزة :

* والله لولا أن تحش الطبخ *

وهذا يقِلُّ فى الشِّعر ولا يَكْثُرُ . وجعل غيرُهُ بَرَاحٌ مبتدأً والخبرَ مُضمَرًا؛ وإنما يَحْسُنُ ذلك إذا تكرَّر ، كقول القائل : لا دِرْهَمٌ لى ولا دينارٌ ، ولا عَبْدٌ لى ولا أَمَةٌ . إلّا أنه جُوِّزَ للشاعر الرَّفعُ فى النَّكِرَة بعد لا وإن لم يكرِّرْ ، لأنَّ أصْلَ ما يُنفَى بلا الرفع ، فكأنه من باب ردِّ الشىء إلى أصله . ويقال ما بَرِحْتُ من مكان كذا ، أى مازُلْتُ بَرَاحًا وبُرُوحًا . وما بَرِحْتُ أفعلُ كذا بَرَاحًا ، أى أقمتُ على فِعلِهِ ، مثل ما زِلتُ أفعَله . والبَرَاحُ الأوّلُ فى المكان ، والبَرَاحُ الثانى فى الزَّمان ، ولا بُدَّ له من خَبَر .

١٦٨

قال جَحْدَرٌ ، وهو رَبِيعةُ بنُ ضُبَيعةَ(١) :

١ — قد يَتِمَتْ بِنْتِى وآمَتْ كَنَّتِى

٢ — وشَعِثَتْ بَعْدَ ادِّهانٍ جُمَّتِى(٢)

٣ — رُدُّوا عَلَىَّ الخَيْلَ إنْ أَلَمَّتِ

٤ — إنْ لم أُناجِزْها فَجُزُّوا لِمَّتِى

٥ — قد عَلِمَتْ والدَةٌ ما ضَمَّتِ

٦ — ما لَفَّفَتْ فى خِرَقٍ وَشَمَّتِ(٣)

٧ — إذا الكُماةُ بالكُماةِ الْتَفَّتِ(٤)

---

(١) جحدر ، قال ابن جنى فى المبهج : « هو الجعد القصير من الناس ، وهو صفة منقولة » . وجحدر هو ربيعة بن ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن ضبيعة ، كما ذكر التبريزى .

(٢) م : « بعد الدهان » . التبريزى : « بعد الرهان » وهذه الأخيرة محرفة .

(٣) قال التبريزى : « ويروى : ولففت » .

(٤) بعده عند التبريزى :

* أَمُخدجٌ فى الحربِ أم أَتَمَّتِ *

هذا توجعٌ وتحسُّرٌ . والمرادُ إنى قد استتمتُ ، وكانت هذه الأمور من اليُتْمِ والأيْمةِ والتشعُّث قد اتفقتْ ووقعت . وإنما قال هذا لأنه كان قد سيمَ في يومِ تحلاقِ اللمم أن يَحْلِقَ الشَّعر ، إذ كانوا جعلوا ذلك شِعاراً لهم[1] ، وهذا اليومُ من أيام بَكْرٍ وتَغْلِب[2] . وكان جَحْدَرٌ هذا حَسَنَ اللِّمَّة غَزِلاً ، متبجِّحاً بجماله ووَفْرتِه عند النساء ، فسأل — لكراهته ما ساموه — الإعفاء منه ، منتظِرين ما يكون من بلائه ، وتشهير نفسِه بين الصَّفَّين بعلامةٍ تُميِّزُه وآثارِ تشرُّفه ، وحَمَلاتٍ على الأعداء تدلُّ على غَنائه ، ومقاماتٍ تَشهَدُ بوفائه ؛ فإنْ لم يَفِ بذلك حينئذٍ تُجَزُّ لِمَّتُهُ عُقوبةً وتنكيلاً ، ففى جَزِّ اللِّمَّةِ إذلالٌ ؛ ولذلك كان يُفعَل بالأسير عند المَنِّ عليه . ثمّ ذكر ما نشأ عليه وتفرَّس فيه[3] من وقتِ الولادةِ إلى الإيفاع ، من الغَناء والكِفاية ، والذَّكاء والشَّهامة ، فقال : قد عَلِمَتْ والدتى أىَّ ولَدٍ تَضُمُّهُ إلى نَفْسها بى ، وأىَّ إنسانٍ تلفَّفُ فى القُمُطِ حين لَفَّتْنى ، وأىَّ فارسٍ تَشُمُّهُ بشَمِّى . إذا تراكمَتِ الأهوالُ ، وتداعت الأبطال ، وضاق المَكَرُّ والمَجَالُ ، وتلاحقَتِ الرِّجالُ بالرِّجال . فهذا سبب توطينهِ النفسَ على القتل ، [ووجْه الشَّرْط فى مناجزة الخيل[4]] . وقوله « يَتِمتْ » مصدرُهُ اليُتْمُ . قال الدُّرَيْدِىُّ : اليتيم الفَرْدُ ، لذلك سُمِّىَ الذى يموتُ أحدُ والديه

---

(١) كانت بكر بن وائل — وهم قوم جحدر — قد حلقت رءوسها استبسالا للموت ، وجعلوا ذلك علامة بينهم وبين نسائهم . وكان الحارث بن عباد قد اقترح يوم تحلاق اللمم أن يشترك النساء فى هذه الحرب ، وأن تحمل كل امرأة إداوة من ماء تتقلدها ، وهراوة تمسكها ، فإذا مرت المرأة على صريع قد حلق رأسه عرفته فسقته من الماء ونعشته ، وإذا مرت على صريع لم يحلق رأسه ضربته بالهراوة فقتلته وأتت عليه . وكما حلقت بكر رءوسها قطعت ثمار سياطها — وهى عذباتها — وذلك رأفة بالخيل أن تعقر أو يؤثر بها أثر قبيح عند شدة القتال ، والذى أشار بذلك هو عامر بن تيم اللات بن ثعلبة ، فسمى لذلك « مقطع الجذم » .

(٢) م : « من وقعات بكر وتغلب » .

(٣) م : « وتقدس فيه » ، تحريف .

(٤) هذه التكملة من م .

يتيمًا ، كأنه أُفرِدَ ، وقيل اليَتيم فى الناسِ من الأبِ والأمّ ، ومن البهائم من الأمّ .

وقولُه « آمَتْ » مَصْدَرُه الأَيْمَةُ والأُيُومُ . والأَيِّمُ : التى لا زَوْجَ لها .

والكَنَّةُ ، قال الخليل : هى امرأةُ الأخِ أو الابن . ويَشْهَدُ لما قالَه قول الشاعر[1] :

هِىَ ما كَنَّتِى وتَزْ عُمُ أنّى لها حَمُو[2]

ويَعْنِى جَحْدَرٌ بالكَنّةِ امرأةَ نفسه ، كأنّه من حيث كانت كَنّةَ قومِهِ أضافَها إلى نَفْسِهِ .

والشَّعَثُ والشُّعُوثة : اغبرارُ الشَّعْرِ وتلبُّدُه .

وقولُه « رُدُّوا علىَّ الخيْلَ » ، يريدُ اصرفوا وُجُوهَها إلىَّ .

والمناجَزَةُ : المعالجةُ بالقِتال[3] ، ومنه إنجازُ الوَعْدِ ، ونَجَزَ الشىء .

وقوله « ما لَفَفْتُ فى خِرَقٍ » بَدَلٌ من قولِهِ ما ضَمَّتْ ، والتكرار على هذا الوجه تفخيمٌ للقِصّة .

---

(١) هو نفيد ثقيف ، كما فى اللسان (حما) .

(٢) من مجزو الخفيف . وقبله فى اللسان وشرح التبريزى :

أيها الركب سلموا واربعوا كى تكلموا
وتقضوا لبانة وتحيوا وتنعموا
خرجت مزنة من الـ بحر ريا تجمجم

وقد روى التبريزى قصة لهذا الشعر استعان فيها الحارث بن كلدة طبيب العرب بوسائل العلاج النفسى .

(٣) كذا فى النسختين . والوجه : « المعاجلة » . وفى اللسان : « وتناجز القوم : تسافكوا دماءهم ، كأنهم أسرعوا فى ذلك » .

١٦٩

وقال شَمّاسُ بن أَسْوَدَ[١] :

١— أغَرَّكَ يومًا أن يُقالَ ابن دَارِمٍ وتُقْصَى كما يُقصَى من البَرْكِ أجْرَبُ

لفْظُهُ لفظ الاستفهام ، والمعنى معنى التوبيخ والتقريع . ويقالُ غَرَّهُ ، إذا غَشَّهُ وخَتَرَهُ[٢] بما لا يجبُ السكونُ إليه والإيمان به . ويقال : ما غرَّكَ مِنِّى ، أىْ لِمَ وثِقْتَ بى ؟ وما غرَّكَ بى ، أى لِمَ اجترأْتَ علىَّ ؟ وما غرَّكَ عنِّى ، أى لِمَ غَفَلْتَ عنى ؟ فيقول : اغتَرَرْتَ بقولِ النـاس فِيكَ هو ابنُ دارمٍ وإن أُخِّرَ مَنزِلَتُكَ ، وأُقْصِيتَ فى نفْسِك كما يُقْصَى البعيرُ الجَرِبُ من البَرْكِ مَخافةَ الإعداء ، وكان حُكْمُ مِثْلِكَ ألاَّ يُقْنِعَه فخامةُ الذِّكْرِ مع سقوط القَدْرِ ، ولا يَسْكُن من الناس إلى تسميتهم إياهُ بأحَبِّ أسمائه إليه وهذا فِعْلُهم به . قولُه « ابنُ دارمٍ » يجوز أن يكون مبتدأ وخَبَرُهُ محذوفٌ ، وأن يكون خـبرًا والمبتدأ محذوف ، والمُضمَر فى الوجهين أنتَ أو هو . ويقال بَعيرٌ جَرِبٌ وأَجْرَبُ . والبَرْكُ : جمع بارِكٍ ، كتاجِرٍ وتَجْرٍ .

٢— قَضَى فيكُم نَوْسٌ بما الحَقُّ غيرُهُ كذلكَ يَخْزُوكَ العزيزُ المُدَرَّبُ[٣]

---

(١) التبريزى : « شماس من الفرس الشموس ، وإنما يريدون أنه أبى عزيز . وهذا أشـبه من اليوم الشامس ، وإن كان ذلك جائزا » . وقد نسبه التبريزى فقال : « شماس بن أسود الطهوى » . وذكر أنه يقول الشعر لحرى بن ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم . وكان قيس بن حسان بن عمرو بن مرثد قد أخذ بكرا من إبل عمرو بن عمران ، جار حرى بن ضمرة ، فانتقم له حرى بأن أخذ من إبل قيس بن حسان ثلاثين بعيراً ، فانطلق قيس إلى أخواله بنى مجاشع يستعديهم ، فمشوا إلى بنى نهشل وطلبوا أن يرد إليه حرى الإبل ، فلم يقبل ، فطلبوا منهم خلعه فخلعوه ، وأخذه بنو مجاشع فضربوه وأخذوا منه أكثر مما أخذه .

(٢) ختره : غشه وخدعه . وفى م : « خبره » .

(٣) التبريزى : « قيس » بدل « نوس » ، وقال : « روى أبو هلال : قضى فيكم نوس » .

نَوْسٌ هذا المذكور كان له جارٌ ، واهتضَمَهُ ابن دارِمٍ واستاقَ مالَهُ ، فلما جاء الصريخُ نَوْسًا ذهبَ فى أثَرِ ابن دارِمٍ وارتجَع مالَ جارِهِ منه ، وسَلَبَهُ ما صَحِبَه من مالِ نفسِهِ ، وأبانَ يَدَهُ منه بضَرْبةٍ تناوَلَهُ بها ، فلهذا قال : حَكَمَ فيكم نَوْسٌ عند الانتقام لجارِهِ منكم بحكومةٍ جائرة خارجةٍ عن الاقتصاد إلى الاشتطاط . ثم قال « كذلك يَخزُوكَ » أى يَسُوسُكَ الرجُلُ الجَلْدُ العزيزُ المجرَّبُ . وهذا الكلام ، أعْني كذلك يَخزُوكَ ، يَجْرِى مَجْرَى الالتفات ، كأنَّهُ التفتَ إلى غيرِهم فخاطَبَهم مُبكِّتًا لهم ومُقرِّعًا بذلك . ولا يمتنع أن يكون صَرَفَ الكلام عن خِطاب الجماعة وأقبلَ يخاطِبُ الواحد . ويقال خَزَاهُ يَخزُوهُ ، إذا كَفَّهُ عن المكروه وحَبَسهُ على مُرِّ المُرادِ . قال لبيد :

* واُخْزُها بالبِرِّ للهِ الأجَلّْ[(١)] *

٣ — فأَدِّ إلى قيْسِ بن حسّانَ ذَوْدَهُ   وما نِيلَ مِنكَ التَّمْرُ أوْ هُوَ أطْيَبُ

يُخاطِبُ ابن دارِمٍ متوعِّدًا ومُعيِّرًا ، ويقول : اخْرُجْ مما فى ذِمَّتِك من ذَوْدِ قيس بن حسّان إليه ، وحالُك إذا رُمْتَ ظُلْمَ غيرِكَ أنَّ ما يُنالُ مِنكَ كالتَّمْرِ فى الحَلاوةِ أو أطْيَبُ . والمعنى : إنَّ تعرُّضَك لأخْذِ مالِ قريبٍ منك أو بعيدٍ عنكَ ، مع ضَعْفِ المُنَّةِ فى سُقُوط العِزّة[(٢)] ، لا يُجْدِى عليك نَفْعًا ، ولا يَسُوقُ إليك غُنْمًا ، فازْهَدْ فيما عِندكَ له ، ورُدَّهُ قبلَ أنْ تَسْتَوْبِلَ عاقبتَهُ ، وتَسْتَوْخِمَ مَغَبَّتَهُ . والواوُ من قَوْلِه « وما نِيلَ » ، واو الحالِ ، كأنَّه قال أدِّه وأنْتَ إذا أُكِلْتَ مُسْتَطابٌ . وقَوْلُه « أو هو أطيب » أى أطْيَبُ من التَّمْر .

---

(١) صدره فى ديوان لبيد ١٢ طبع ١٨٨١ والمقاييس واللسان (خزا) :

* غير أن لا تكذبنها فى التقى *

(٢) م : « وسقوط العزة » .

والحَذْفُ من الخَبَرِ جائِزٌ ، وقد مَضَى مِثْلُهُ . وأَوْ هي أَوِ الإباحة ، وقد نُقِل إلى الخبر .

٤ — فإلَّا تَصِلْ رِحْمَ ابنِ عَمْرِو بنِ مَرْثَدٍ ... يُعلِّمْكَ وَصْلَ الرَّحْمِ عَضْبٌ مُجَرَّبُ

يقول : إنْ لم تَصِلْ رَحِمَكَ مُختارًا لَهُ ، ومُعفِّيًا أثرَ العُقوق به ، ومُزِيلًا عن نفسك سِمَةَ الجاهل الذى يَدْخُل فيما لا يُمْكِنُهُ الخروج منه ، والآ كل ما لا يَقدِرُ على استمرائه ، عَلَّمَكَ صِلَةَ الرَّحِمِ والخروجَ من الحُقوق ، سَيْفٌ قاطِعٌ لا يُبْقِي عليك ولا يَألُو تأديبك . وفى طريقته السائرة قولُهم : « الطَّعْنُ يَظْأَرُ[1] » ، ومن الشِّعرِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

ومن يَعْصِ أطرافَ الزِّجاجِ فإنَّهُ ... مُطيعُ العَوالِي رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

١٧٠

وقال حُجْرُ بْنُ خالد[2] :

١ — وَجَدْنا أبانا حَلَّ فى المَجْدِ بَيْتَهُ ... وأَعْيا رِجالًا آخَرِينَ مَطالِعُهْ

قَوْلُه « حَلَّ فى المَجْدِ بَيْتَه » فى موضع المفعول الثانى لوجَدَ ، لأنه بمعنى عَلِمَ . والبيت لا يَحُلُّ ولكن يُحَلُّ فيه ، لكنَّهُ رَمَى بالكلام على السَّعَةِ والمجاز ، لأنَّ المعنى لا يَختلُّ . ويقولون : فُلانٌ عالِي المكان ، لأنه إذا عَلَا مكانه فقد عَلَا هو . وقال الآخر :

* وحَلَّتْ بُيُوتى فى يَفاعٍ مُمَنَّعِ *

فيقول : عَلِمْنا بالاختبار[3] فى طِلابِ العُلُوِّ ، والاجتهاد فى مَنالِ أقصى

(١) أى يعطف على الصلح . ويروى : « الطعن يظئره » . انظر مقاييس اللغة (ظأر) .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١١٨ من القسم الأول .
(٣) كذا فى م . وفى الأصل : « بالاختيار » .

السَّمُوَّ ، تَمَكَّنَ بَيْتُ أبينا من ذِرْوَةِ المجد والشَّرَفِ ، فَمَحَلُّه فائتٌ لا يُلحَقُ ، ومَطْلَعُهُ مُعْجِزٌ لا يُمكِن ، إذْ كان مَداهُ الغايَةَ التى ليس وراءها مُسْتَشْرَفٌ لناظِرٍ ، ولا مَنالٌ للاحِقٍ .

٢ — فَمَنْ يَسْعَ مِنَّا لا يَنَلْ مِثْلَ سَعْيِهِ ولٰكن مَتَى ما يَرْتَحِلْ فهو تابِعُهْ

يَقُولُ : من طَلَبَ نَيْلَ مَكانِهِ ، أو الارتقاء إلى درجتِهِ ، بسَعْيٍ يَتَكَلَّفُهُ ويَجْهَدُ فيه نَفْسَهُ ، وقَفَ دُونَهُ وقَعَدَ به طَوْقُهُ ، وكان أقْصَى غايتِهِ بعد استفراغ مجهودِهِ ، أن يكون تابِعاً له ، وواطِئاً عَقِبَه ؛ فأمَّا مُسامَاتُهُ[1] فى مَدارِجِهِ ، أو مُسامَتَتُه فى مَطالِعِهِ ، فلا سبيل إليه ، ولا مَطْمَعَ فيه .

وقد سَلَكَ الأعْشَى هذا المَسْلَكَ فقال :

* كُلٌّ سيَرْضَى بأنْ يُلْقَى له تَبَعاً[2] *

وذِكر الارتحالِ حَسَنٌ فى الاستعلاء[3] مع ذِكر السَّعْى . وقد قيل : « لولا السَّعْىُ لم تكن المَساعِى » .

٣ — يَسُودُ ثِنانا مَنْ سِوانا وبَدْؤُنا يَسُودُ مَعَدّاً كُلَّها ما تُدافِعُه[4]

الثِّنَى : مَنْ دون الرئيس ، لٰكنه يَلِيهِ فى الرُّتْبَة . والبَدْء : السَّيِّدُ غَيْرُ مُدافَعٍ عن أوّلِيَّة سيادتِهِ ، فكأنّ المراد بهما الأوّل فى الرِّياسة والثانى . وأصْلُه من

---

(١) م : « مساواته » .

(٢) صدره فى الديوان ٨٦ : * تلق له سادة الأقوام تابعة *

(٣) م : « الاستعارة » . ولكل وجه .

(٤) يروون أن حجر بن خالد لما أنشد هذا البيت رفع عمرو بن كلثوم التغلبي يده فلطمه فى حضرة الملك ، فغضب الملك وقام ابن كلثوم ، فلما كان الليل دخل حجر على عمرو قبته فلطمه فنادى : يالتغلب ! فامتلأت الأرض خيلا ، ثم نادى مناد من فوق قصر الملك : ياحجر بن خالد ، أنى لك بار ! فتصدعت خيل التغالبة . وأنشأ حجر مديحا فى الملك ، رواه التبريزى والجاحظ فى الحيوان (٣ : ٥٩) ، أوله :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد * كفعل أبى قابوس حزما ونائلا

ثَنَيْتُ الشَّىْء . وفى حديث النبىّ صلّى الله عليه وسلم : « لا ثِنَى فى الصَّدَقة » . والمَعْنَى أنها لا تؤخذُ فى السَّنة مرتَيْنِ . ويُقالُ ثنَيْتُ الشَّىء ثَنْياً ، ثم يُسَمَّى المَثْنِىُّ ثِنْياً وما ثُنِيَ به هو أيضاً ثِنْياً . وعلى هذا الضِّعْفُ ، يُقالُ ضعَفْتُ الشىء مُخَفَّفاً فى معنى ضاعَفْتُ ضَعْفاً ، ثم يُسَمَّى المَضْعُوف ضِعْفاً بالكسر ، والمَضْعُوف به ضِعْفاً أيضًا . قال لبيد :

* وعَالَيْنَ مَضْعُوفاً وفَرْداً سُمُوطُهُ[١] *

والبَدْء : العَظْمُ المنفصل مما عليه من اللَّحْمِ ، كأنّه من هذا . قال :

* أغْلَتِ الشَّتْوَةُ أبْدَاءَ الجُزُرْ[٢] *

ومعنى البيت : المغمور فينا إذا حصَلَ فى غيرنا سادَهُم وعلاهُم ، والرئيس مِنَّا تُسَلَّمُ له الرِّياسة على قبائلِ مَعَدٍّ كُلِّها ، غيرَ مُعارَضٍ فيها ، ولا مُدافَعٍ [عنها[٣]] .

٤ — ونَحْنُ الذين لا يُرَوَّعُ جارُنا وبَعْضُهُمُ للغَدْرِ صُمٌّ مَسامِعُهْ

يَصِفُ عزَّهم ومنْعتَهم ، وعَهْدَهم ووفاءَهم ، وأنَّ المُجاوِرَ لهم ، والمعتَصِم بحَبْلِهم ، يَبْقَى آمناً معهم غيرَ مذعورٍ ، وموفوراً غيرَ مسلوبٍ . ثم قال مُعَرِّضاً بغيره : وبَعضُ الناس لما يَستَعْمِلُه من الغَدرِ ، ويشتَهِرُ به من تضييع الذِّمار ، ولكونه مُنطوِيًا فيما يأتيه على الإصرارِ ، يُصِمُّ مَسامِعَهُ عن ذِكر العار ، فلا يُبالى بذَمِّ النَّاسِ له ، ولا يأْنَفُ من تهجينهم أفعالَهُ . وفى طريقته قول الآخر[٤] :

(١) عجزه : * جمان ومرجان يشك المفاصلا *

(٢) لطرفة فى ديوانه ٧٣ واللسان (يسر ، بدأ) . وصدره :

* وهم أيسار لقمان إذا *

(٣) هذه من م .

(٤) أنشد الجاحظ فى البيان (٣ : ٣٣٣) البيتين التاليين مع ثالث بعدهما ، وروى عن أبى عبيدة أنها من الشوارد التى لا أرباب لها . وانظر عيون الأخبار (٢ : ٢٩) وديوان المعانى (١ : ١٨٢) وأمالى القالى (٣ : ٨٣) وخزانه الأدب (٣ : ٦٦٠) والصناعتين ١٠٣ ومحاضرات الراغب (١ : ١٥٠) .

إنْ يَجْبُنُوا أوْ يَغْدِرُوا أوْ يَبْخَلوا لا يَحْفِلوا
يَغْدُوا عليكَ مُرَجَّلينَ كأنَّهُمْ لم يَفْعَلوا[1]

وكان وجه الكلام أن يقولَ لا يُرَوَّعُ جارُهم ، حتى يرجعَ من الصِّلَةِ إلى الموصول الذِّكْرُ ؛ لكنّهُ لما كان المقصودُ بقوله نحنُ والذين شيئاً واحداً لم يُبالِ برُجوع الضمير إلى كلٍّ واحدٍ منهما . وقد مَضَى مِثْلُه .

٥ — نُدَهْدِقُ بَضْعَ اللَّحْمِ لِلْباعِ والنَّدَى وبَعْضُهُمُ تَغْلِي بذَمٍّ مَناقِعُه[2]

الدَّهْدَقَةُ : الصَّوْتُ[3] . والبَضْعُ : القطْعُ . أى نتولَّى ذلك كَرَماً مِنّا على اعتسافٍ وسوء تَأَتٍّ . ويجوز أن يكون البَضْعُ جمعَ بَضْعَةٍ[4] فيكون المعنى : إنّا نُقَلِّبُها فى القُدُور ، فلِعِظَمِها يُسْمَعُ لها فى التقلُّبِ صوتٌ . والمَناقِع : جمع المِنْقَعِ والمِنْقَعةِ ، وهى القُدُور الصِّغار ، وقيل هى الأَتْوار[5] الصغيرة . وقيل المَناقِعُ واحِدُها مُنْقَعٌ ، وأصلُه ما يُنْقَعُ فيه الشيء ، فاستعارَه للقُدُورِ . فأمّا قولُهم مُنْقَعُ البُرَمِ فقد قيل فيه ما ذَكَرْنا وغيرُهُ . وقد رُوِىَ مِنْقَعُ البُرَمِ ، بكسر الميم ، وفُسِّرَ على وعاء القِدْر[6] . وذِكْرُ الباعِ مَثَلٌ ، والمراد الكرَمُ . فعلى الطريقة الأولى يكون معنى البيت : يُسْمَعُ لِقَطْعِ اللِّحام بأيدينا دَهْدَقةٌ ، لِقلّةِ رِفْقنا فيه ، وسوء حِذْقِنا به ، كما قال الآخر[7] :

(١) بعده : كأبى براقش كل يو * م لونه يتخيل
(٢) التبريزى : « ومن روى : الباغ ، بالغين منقوطة أراد الباغى ، فحذف الياء » .
(٣) التبريزى : « ندهدق : نغلى . والدهدقة : الصوت » .
(٤) البضعة بالفتح ، قال فى اللسان : « وأخواتها بالكسر مثل القطعة ، والفلذة ، والفدرة ، والكسفة ، والخرقة ، وغير ذلك مما لا يحصى » .
(٥) التور بفتح التاء : إناء من صفر أو حجارة كالإجانة .
(٦) هذا ما فى م . وفى الأصل : « دعاء القدر » .
(٧) هو شقران مولى سلامان . انظر الحماسية ٦٩٨ وشروح سقط الزند ٥٩١ . وعند الجاحظ فى البيان (٣ : ٣٠٩) أنه ثروان مولى بنى عذرة .

جُفاةُ المَحزِّ لا يُصيبون مَفْصِلاً ولا يأكُلون اللَّحْمَ إلاّ تَخَذُّما[١]

وعلى الطريقة الثانية يكون المعنى : تَغْلِى قدُورُنا بِقدَرِ اللَّحم ، فإذا قلَّبناها فيها إقامةً لخدمة الضَّيْفِ ، واكتِساباً للحَمْد ، ورَغْبةً فى ابتناء المَجْدِ ، تَقَلَّبَتْ ولها صَوْتٌ ، لِعِظَمِها واتِّساع قدورها[٢] وبعضُ الناس — وهذا تعريضٌ بالغَيْرِ — تَغْلِى قدورُه التى كأنَّها مناقِعُ فى الصِّغَرِ بذمٍّ الناس له . فقولُه « بذمٍّ » فى موضِع الحالِ ، تقديره : تَغْلِى مذمومةً .

٦— ويَحْلُبُ ضِرْسَ الضَّيْفِ فينا إذا شَتَا سَدِيفَ السَّنَامِ تَسْتَرِيهِ أصابِعُهْ

يُرْوَى « ضِرْسُ الضَّيْفِ » بالرفع على أن يكون فاعلاً ، وسديفَ بالنَّصْبِ على أن يكون مفعولاً ، وهو الجَيِّدُ . وبعضهم يَنْصِبُ الضِّرْسَ ويرفعُ سَديفَ السَّنامِ ، والمعنى لا يَلْتَبِس فى الوجْهَيْن . يقول : وإذا اشتدَّ الزَّمان ، وأَسْنَتَ الناسُ ، فإنّ الضيفَ فينا يأكلُ سَدِيفَ السَّنام ، من الإبلِ السِّمان ، على ما تختاره أصابعُهُ فى الجِفَانِ . والسَّدِيفُ : قِطَعُ السَّنامِ . وقيل هو شَحْمُ السَّنامِ . ومعنى إذا شَتَا ، إذا أَمْحَل . وذِكْرُ الحَلَبِ كنايةٌ عن الأَكْلِ . والمعنى : إنّا لا نَرْضَى بنحرِ الكسيرات المهزولات ، بل نَعْتَبِط خِيارَ الإبلِ وكرائمها عند حُلول الضِّيفان . وتَسْتَرِيهِ : تختارُه ، يقالُ استَسْرِيت[٣] الشىءَ أيضاً . والسَّرِىُّ : الخِيَارُ من كلِّ شىء . وموضِعُ تَسْتَرِيه نَصْبٌ على الحال

(١) التخذم : قطع اللحم بالسكين . فى الأصل : « تجذما » وفى م : « تخدما » كلاهما محرف عما أثبتنا . يقول : هم سادة نشئوا على السيادة ، وعودوا أن يكونوا مخدومين لا خادمين ، فليس لهم بصر بجزر الإبل وتفصيل أعضائها . والعرب تعد الجهل بجزر الإبل مدحا والمعرفة به ذما . انظر شروح سقط الزند .

(٢) م : « قدورنا » . والمؤدى واحد .

(٣) فى الأصل : « استريت » ، والوجه ، ما أثبتنا من م .

للسَّديفِ ، والعاملُ فيه يَحْلُبُ ، كأنه قال تَحْلُبُهُ الضِّرْسُ[(١)] مختاراً بالأصابع .

٧ — مَنَعْنا حِمَانا واستباحَتْ رِماحُنَا ‏ حِمَى كلِّ قومٍ مُسْتَجِيرٍ مَرَاتِعُهْ[(٢)]

يقول : إذا أَحْمَيْنَا[(٣)] مكاناً ذَبَبْنَا أعداءنا عنـه ، ولا يَجْسُرُ أحدٌ منهم على دخولِهِ ، ومتى شئنا استبحنا أَحْمِيَةَ الناس لعِزِّنا وفَضْل قُوَّتِنا ، ولاستسلام القبائل لنا ، وإن كانت الأحميةُ مستجيرةَ المراتع . وقولُه « مُسْتَجِيرٍ مَرَاتِعُهْ » الهاء يرجع إلى حِمَى كل قومٍ ، والمعنى الحِمَى الذى قد استجار مراتعُه بالممتنِـع القوىِّ ، وتعزَّزَ بالظَّهْرِ الظَّهير . وهذا إشارةٌ إلى إيلاف الجِوَار ، كأنها تَجْمَعُ بين جِوَارَيْن فى حَيِّهَا وحَىِّ غيرها ، تَستظهِرُ بأحَدِهما على الآخَر . وجَعَل الفِعْل للمراتع مجازاً ، أى تَسْتَبيحُ الحِمَى الذى هـذا صِفَتُه . ويجوز أن يكون أراد الحِمَى الذى قد أدخَلَ على قومِه[(٤)] الضعفاء من الأجانب فى الجِوَار . ويقالُ : استجار ، إذا تَضَمَّنَ الإجارَةَ وطَلَبَ من غيره المجاورة ، واستجار أيضاً إذا طَلَبَ أن يُدْخَل فى الجِوَار ويُحامَى عليـه . ويقالُ استجَرْتُ فُلاناً وبفلانٍ ، والمفعول محذوف .

---

(١) الضرس مذكر ، ويؤنث كما ورد هنا . وأنكر الأصمعى تأنيثه ، وقال فى قول دكين : * فَفَقَأَتْ عين وطنت ضرس *
« إنما هو : وطن الضرس ، فلم يفهمه الذى سمعه » .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية « مستحير » بالحاء المهملة ، قال : « وكأنه يريد التفاف العشب من الكثرة وفرط الحماية له » .

(٣) كذا فى الأصل . وفى م : « حمينا » ، وهما لغتان . وفى إصلاح المنطق ٢٥٣ : « حميت المكان وأحميته : جعلته حمى لا يقرب ومنعت الناس منه » .

(٤) فى النسختين « عن قومه » .

١٧١

وقال أيضاً :

١ — لَعَمْرُكَ ما أُلَيَّاءُ بنُ عَمْرٍو بذِى لَوْنَيْنِ مُخْتَلِفِ الفَعَالِ[1]

وصَفَهُ بأنه ثابتُ القدَمِ بحُسْنِ الوفاء ، محافِظٌ على الذِّمار ، باقٍ على طريقةٍ واحدةٍ فى الشِّدَّة واللِّيان . فيقول : و بقائك ما هُوَ بذى لَوْنَيْن[2] يخالفُ باطِنُه ظاهِرَه ، ولا يوافِقُ مَقالُه فَعالَه ، يتنقّل فى الأهواء ، ويَتلوّن تلوُّن الأوقات ، فهو على أن يُجيبَ كلَّ ناعِقٍ ، ويَتْبَعَ كلَّ قائدٍ وسائقٍ ، إنْ ضَمِنَ لم يَفِ ، وإن وَعَدَ لم يُنْجِز .

٢ — غَداةَ أتاهُ جَبّارٌ بإدٍّ مُعَضِّلَةٍ وحادَ عن القِتالِ[3]

جَبّارٌ : رجل . والإدّ : المُنكَر من الأمْر الشديدُ . وفى القرآن : ﴿ لقد جِئْتُمْ شيئاً إدًّا ﴾ . وقد أُفرِدَ ها هنا عن موصوفِهِ فأُجْرِيَ مُجْرَى أسماء الدَّواهِي . والمُعَضِّلةَ : الداهيةُ العَسِرَةُ الضَّيِّقةُ . ومنه قولُهم : هو عُضْلَةٌ من العُضَل ، وداءٌ عُضَالٌ : الذى غَلَبَ وأعْيا . وقوله « غداةَ أتاهُ » ظَرْفٌ لِلفِعْلِ الذى دلّ عليه قولُه « بذى لونين مختلِف الفَعال » ، كأنه جَلَبَ عليه هذا الرَّجُلُ أمراً مُنكَراً ، ضيِّقاً عَسِراً ، ثم خَلّاه يَصْلَى بنارِه ويقاسى مَكْرُوهه ، و يماصِعُ خُصَماءَهُ فيه ويجاذبهم ، وهَرَبَ هو .

---

(١) وكذا رواية ابن جنى . وانفرد التبريزى برواية : « ألياء بن عبد » .

(٢) م : « بذى وجهين » .

(٣) التبريزى : « ويروى : غداة أتاه جَبّارٌ بعبدٍ مُغَفَّلَهْ . ومعناه أن جباراً جاءه بعبد مغفله ، كأنه يستغفله ، وحاد هو عن القتال نقتله ألياء . ويروى : جبّار بن عَبدِ مغفّلَه . كأنه استغفله لما أتى جبار ألياء » .

٣— فَفَضَّ مَجامِعَ الكَتِفَيْنِ مِنْهُ بأبْيَضَ ما يُغِبُّ عن الصِّقالِ

الفضُّ : الكَسْرُ والتّفريق ، ويقال انفضَّ القَوْمُ ، إذا تفرّقوا . يقول : فَصَلَ مَجْمَعَ كتِفَيه بضربةٍ من سَيْفٍ يُحادَثُ بالصَّقْلِ ، ولا يتغافَلُ عَنْهُ . والإغبابُ : أن تَرِدَ الإبلُ الماء غِبًّا . ويقالُ أغبَّ القَوْمُ ، إذا صارت إبلهم كذلك . وليس يريدُ بنَفْى الإغْباب أن يَدُلَّ على صَقْلِ السَّيْفِ كلَّ يَوْم ؛ ولكنَّ المُرادَ أنه لا يُهْمَلُ صقلُهُ زمانًا ممتداً ؛ إذ كان صاحِبُهُ يستعمِلُه كل يوم . وعلى هذا ذِكْرُ الغِبِّ فى المَثَل السائر : « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » .

٤— فلَوْ أنَّا شَهِدْنا كُمْ نَصَرْنا بذى لَجَبٍ أزَبَّ من العَوالى

يقول : لو حَضَرْنا كم لنصَرْنا كم وجاهَدْنا معكم بجَيْشٍ لَهُ جَلَبَةٌ وصوتٌ ، أزبَّ لكثْرة الرِّماحِ فيه . أى تُشْبه كثْرةُ الرماح فيه والتفافُها كثْرَةَ شعر الأَزَبِّ . وهذا على طريق الاستعارة ، لأنَّ أصْلَ الزَّبَب فى الشَّعْرِ . وفى المَثَل : « كلُّ أَزَبَّ نَفُورٌ » ، يعنى البعير الكثير الشَّعر على الوجه والعُثْنُون ، لأن ما حَوالَىْ عَيْنَيْهِ من الشعر يُخَيِّلُ إليه المَناظِرَ على خلاف ما تكون عليه فينفِرُ . والعوالى : جمع عالية ، ويُرادُ بها جِنْسٌ من الرماحِ .

٥— وَلكِنّا نأيْنا وا كْتَفَيْتُم ولا يَنْأَى الحَفِىُّ عن السُّؤالِ

يُرْوَى « وا كْتَفَيْنا » . يقول : بَعُدْنا عنكم فاستقللتُم بأنفسكم واستغنيتم عَمَّنْ يعاضِدُكم فى كلِّ ما يدهَمُكم ، فلم تدعُكم حاجَة إلى مجاورتنا ، ولا ألجأتكم الضَّرورة إلى التكثُّرِ بنا . والرَّجُل اللطيف البارُّ بصاحِبِهِ لا يَبْعُدُ عن تَنَسُّم الأخبار واستنشائها لمن يُهِمُّهُ أمْرُهُ ، وإن بَعُدَ بنَفْسِهِ ومكانه . ومن رَوَى « وا كْتَفَيْنا » كان المعنى اكْتفَيْنا فى البُعْدِ عَنكُم فلم نَحْتَجْ إليكم . والقَصْدُ

فى الرِّوايتين أنه لم يَكُنْ بإحدى الجنبتين افتقارٌ إلى الأخرى ، فصار ذلك سَبَباً فى التنائى ، وعُذْرًا بيِّنًا[١] فى التَّأخُّرِ عن المعاونَةِ والمكانفَة . ودلَّ بقوله : « ولا يَنأى الحَفِىُّ » على أنَّ القلوبَ فى التَّعطُّفِ والخلوص ، على ما يُوجبه الوِدادُ لم يغيِّرْها البعاد . ويقال فلانٌ حَفِىٌّ بفلان ظاهرُ الحِفْوَة ، أى البِرّ .

١٧٢

وقال حسَّان بن عُلبَة[٢] :

١ — إذا كنتَ مِن سَعْدٍ وأُمُّكَ منهُمُ غَرِيباً فلا يَغْرُرْكَ خالُكَ من سَعْدِ

يقول : إذا كنتَ بعيداً عن وطَنِك وذَوِيك من قِبَل أبيكَ ، وحاصِلاً فى بنى خالِك ، ضارباً فيهم بسهمِ الخُؤُولةِ ، لِكَونِ أمِّك منهم ، فلا تغترَّ بهم ، ولا تعتمد على قرابتك فيهم ، فإنَّ التشابُكَ الموثوقَ به المُسْتَصْلَحَ لإعْدادِه ، إذا كان الالتحام بالأُبُوَّةِ لا بالأُمومةِ . فأما الخؤولة فمُشابِهَةٌ للغُرْبَةِ ، بعيدةٌ من القُرْبَى والقُرْبةِ ، والمكانفَةِ والنُّصْرَةِ . وهذا المعنى قد كَشَفَهُ غيرُهُ فقال :

بَنُونا بَنُو أبنائِنا وبَناتُنا بَنُوهُنَّ أبناءُ الرِّجالِ الأباعِدِ[٣]

(١) فى الأصل و م والتيمورية : « بينا » .

(٢) كذا فى النسختين . وعند التبريزى وابن جنى فى كتابيه : « غسان بن وعلة » . وقال التبريزى فيه : « أحد بنى مرة بن عباد » وفى محاضرات الراغب (١ : ١٧٧) : « حسان بن وعلة » . ونسب الجاحظ الشعر فى الحيوان (٣ : ١٣٧) إلى النمر بن تولب . قال ابن جنى : « غسان : علم مرتجل . ويجوز أن يكون من أحد شيئين إما من قولهم فلان غس ، أى ضعيف . . . فإن كان من الغس فهو فعلان ، وإن كان من الغسن وهو خصل العرف فهو فعال . وينبغى أن يكون فعلانا لامتناعهم من صرفه » .

(٣) قال العينى : « هذا البيت استشهد به النحاة على جواز تقديم الخبر ، والفرضيون على دخول أبناء الأبناء فى الميراث ، والفقهاء كذلك فى الوصية ، وأهل المعانى والبيان فى التشبيه . ولم أر أحدا منهم عزاه إلى قائله » . وفى الخزانة (١ : ٢١٣ — ٢١٤) أن قائله الفرزدق .

قَوْلُهُ « فى سَعْدٍ » يجوز أن يكونَ خبراً ، ويُجْعَلَ غريبا مُنْتَصِباً على الحالِ ، ويكونُ العامِلُ فيه كُنْتُ ، أو العامِلَ فى الظّرف . ويجوز أن يُجعل فى سَعْدٍ لَغْواً ، ويُجْعَلَ غريبا خَبَر كان . وقولُه « فلا يَغْرُرْكَ » جَعَل النَّهْىَ فى اللفظ للخال ، والمعنى لا تغترَّ بخالك من سَعْدٍ ، لأنَّ المَنهِىَّ هو المُخاطَب . ومِثْل هذا قولهم : لا أرَيَنَّك ها هنا . وقول الآخَرِ[١] :

* إنَّ الرِّياضَةَ لا تُنْصِبْكَ للشَّيبِ[٢] *

٢ — فإنّ ابنَ أُختِ القَوْمِ مُصْغًى إناؤُهُ إذا لم يُزاحِمْ خالَهُ بأبٍ جَلْدِ

يقول : ابن أخت القوم منحوس الحظّ ، منقوص الشِّرْب ، مُمال الإناء والحَوْضِ مَتَى لم تنجِدْه أُبُوّةٌ يَشْتَدُّ بها أمومته ، وعُمومَةٌ يتأيَّدُ بها خؤولته[٣] . وهذه الأمثال مضروبةٌ للهضيمة تَلْحَقُ فلا يتحرَّكُ لدفْعِها الأخوال وإن كان بين ظهرانيهم ، ولأنَّ الحَمِيَّةَ إنما يبعثها ترافُدُ بنى الأعمام ، أو المنتسبين إلى الآباء . وجَواب إذا لم يُزاحِمْ مقدَّمٌ ، وهو ظَرْفٌ لإصغاء الإناء . واستعارة الإناء ها هنا كما قال زهير :

وَمَنْ لا يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ يُهَدَّمْ وَمَن لا يَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

ومن هذه الطريقة قولُه :

يا جَفْنَةً كَنَضِيحِ الحَوْضِ قد كُفِئَتْ بِثِنْيِ صِفِّينَ يعلو فوقَها القَتَرُ

وإنْ كان فى الكَفْءِ ما لَيْسَ فى الإصْغاء ، فاعلَمْهُ .

---

(١) هو الجميح الأسدى . المفضليات (١ : ٣٢) .

(٢) فى الأصل : « لا تنضيك » ، وصوابه فى م والمفضليات والخزانة (٤ : ٢٩٦) . وصدره : * ولو أصابت لقالت وهى صادقة *

(٣) م : « تشيد » و « تؤيد » بدل « يشتد » و « يتأيد » .

١٧٣

وقال بَعْضُ بنى جُهَيْنَةَ(١) :

١ — أَلَاهَلْ أَتَى الأَنْصَارَ أَنَّ ابْنَ بَحْدَلٍ حُمَيْداً شَفَى كَلْباً فَقَرَّتْ عُيُونُهَا(٢)

هذا الاستفهامُ طريقُهُ طريقُ التمنِّى وإظهارِ المَيْلِ إلى أن يَكونَ الأنصارُ شَرِكُوهُ فى العِلْمِ بالحالة التى يقتصُّها . ويجوز أن يكون أخْرَجَ الكلام على هذا لِيُبْلَغُوا . فيقول : هل تَأَدَّى خَبَرُ حُمَيْد بن بَحْدَلٍ فيما كان من نَصرِهِ كَلْباً على قَيْسٍ ، وإقرارِهِ عُيُونَهُم منهم ، وشفائه قلوبَهم مما كان تَدَاخَلَهَا من عَدَاوَتِهِم ، واهتاج فيها من نار حُقُودِهِم .

٢ — وأَنزَلَ قَيْسًا بالهوانِ ولم تَكُنْ لِتُقْلِعَ إلّا عِنْدَ أَمْرٍ يُهِينُهَا

يقول : وأَحَلَّ حُمَيْدٌ قبيلةَ قَيْسٍ بمَحَلِّ الذُّلِّ والامتهان ، والهَضْمِ والهَوَان ، حتَّى كَفُّوا عن مجاذَبةِ كَلْبٍ والتعرُّض لهم بالسُّوء . ثم قال : ولم تَكُنْ قَيسٌ تَنزَجِر وترتدع إلّا عند ما يُسقِطُها ، ويُنزِلُها بدار الرَّغْمِ ويُسْخِطُها ، لفَرْطِ لجاجِها ، وتأَبِّيها وجِماحِها . واللامُ من « لِتُقْلِعَ » لام الجحود .

---

(١) المبهج : « فى وقعة لكلب مع فزارة . جهينة اسم مرتجل من الجهن ، وهو غلظ الوجه ، وكأنه تحقير جهنة أو نحوها . والفزارة : أم البر» . وفزارة ، بنو ذبيان بن بغيض ابن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان . وكلب ، بنو وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاعة . وجهينة ، بنو زيد بن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة .

(٢) التبريزى : « ويروى : الأشراف . والأمصار » . لما كانت فتنة ابن الزبير ، وكان عبد الملك بن مروان يقاتل مصعب بن الزبير ، وكانت قيس زبيرية ، كان أبناء القيسيات من بنى أمية يفخرون على أبناء الكلبيات بما تفعل بهم قيس فى البدو والحضر ، فبحث خالد ابن يزيد بن معاوية عن رجل من الكلبيين ليمحو ذلك العار ، فانتدب لذلك حميد بن بحدل خال يزيد بن معاوية ، وكتب له خالد بن يزيد عهدا على لسان عبد الملك بن مروان بأخذ الصدقة من قيس حتى يتمكن من النكاية . وقد استغل حميد هذا السلطان فأوغل فى النكاية بقيس — ولا سيما بنى فزارة — إيغالا سجله هذا الشعر .

٣ — فَقَدْ تَرَكَتْ قَتْلَى حُمَيْدِ بنِ بَحْدَلٍ كثيراً ضَوَاحِيها قليلاً دَفِينُها[(١)]

هذا بيانٌ لِمَا حَلَّ بقَيْسٍ . يقُولُ : تُرِكت القتلى الذين أبادهم حُميد ابن بَحْدَل بالعَرَاء ، فقد كَثُر بوارزُهم للشَّمس ، وقلَّ دفائنهم فى الأرض . وإنما يُفظِّعُ بما يَصِفُ ما دُفِعَ إليه قَيْسٌ وابْتُلِيَ به . والضَّوَاحِي : جمع ضاحِيَة ، وهى الظَّوَاهِرُ ، والفِعل منه ضَحِيَ يَضْحَى عند الكوفيين ، ولُغَةٌ أُخرى ضَحَى يَضْحَى ، وهذا أفْصحُ . وفى القرآن : ﴿ وأنَّكَ لا تَظْمَأُ فيها ولا تَضْحَى ﴾ . وأضافَ قَتْلَى إلى حُميد لأنه المُوقِعُ بهم ، القاتِل لهم .

٤ — فإنَّا وكَلْبًا كاليدَيْنِ مَتَى تقَعْ شِمالُكَ فى الهيجا تُعِنْكَ يَمِينُها

هذا الكلامُ تحَمُّد[(٢)] وتنبيه على أنّ ما يجمعهم وكَلْبًا فى نهاية القوّة والاستحكام ، فلا يَعْرِضُ فيه فُتُورٌ ، ولا يتسلَّطُ عليه كَلَّةٌ ولا قُصُورٌ ، فهم كاليدين إذا دُفِعت إحداهما إلى شِدَّةٍ أعانتها الأُخْرَى . وجَعَل الفَضْلَى من اليدين — وهى اليمين — مَثَلاً لأنفسِهم .

١٧٤

وقال المُنَخَّلُ اليَشْكُرِيُّ[(٣)] :

١ — إن كُنتِ عاذِلَتِي فَسِيرِي نَحْوَ العِراقِ ولا تَحُورِي[(٤)]

(١) التبريزى : « قوله قليلا ، لم يرد أن القليل منهم دفنوا ، أراد أنه لم يدفن منهم أحد . ومثله :
قليلا على ظهر المطيـة ظله سوى ما نفى عنه الرداء المحبر » .

(٢) هذا ما فى م . وفى الأصل : « تحمل » .

(٣) هو المنخل بن مسعود بن عامر بن ربيعة بن عمرو اليشكرى . وهو قديم جاهلى . وكان يشبب بهند أخت عمرو بن هند ، وكان يتهم بامرأته أيضا ، كما كان يتهم بالمتجردة امرأة النعمان بن المنذر . وكان للنعمان منها ولدان كان الناس يقولون إنهما من المنخل . ولما قال النابغة قصيدته فى وصف المتجردة قال المنخل : ما يعرف هذا إلا من جرب . فكانت تلك السعاية سببا فى هرب النابغة ولحاقه بآل جفنة الغسانيين . انظر الأغانى (١٨ : ١٥٢ — ١٥٦) والمؤتلف ١٧٨ والشعراء ٣٦٤ — ٣٦٦ .

(٤) التبريزى : « إنما قال ذلك لأن النعمان بن المنذر كان يكرمه ويقربه ، ودار النعمان بالحيرة ، والحيرة من العراق » .

يَسْتَعْفِي من لوْمِها وتقريعِها في تبذير المال وإتلافه ، وترْكِ الادّخار منه ليومِه وغدِه ؛ فيقولُ : إن كان دأبُكِ إدمانَ عذْلِي ، والاستمرارَ في توبيخي ، ففارقيني وخُذِي طريقَ العراق لا ردَّكِ الله . قولُه « لا تحُورِي » دُعاء عليها ، من قولِك حارَ أي رجَع . ومنه قولُ الناس : « نعوذ بالله من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ » ، لأنّ النقصان تَراجُع . ويجوز أن يكون « سِيرِي » دُعاء أيضاً ، كأنه قال فسيَّركِ الله ولا ردَّكِ !

٢ — لا تسْألِي عن جُلِّ ما لِي وانظُرِي كرَمِي وخِيرِي[١]

قال الخليلُ : الخِيرُ : الهيْئةُ . يقولُ : اترُكِي البحثَ والفَحْص عن ذخائري ومَعاظِمِ مالي ، ولكن [اعلمي[٢]] شرَفي وكرَمِي وحُسْنَ هيْئتي وخُلُقِي . وقولُه « وانظُرِي » معناه واعلمي . وعلى هذا قولُه تعالى : ﴿ يُساقُونَ إلَى الموْتِ وهُمْ ينظُرُونَ ﴾ ، أي يعْلَمون ذلك ويتيقّنونه . والعربُ تضع عِبارات طُرُق العِلْم في موْضِع العِلْم . يقولون : سَمِعْتُ كذا ، بمعنى علِمْتُه . وعلى هذا قولُنا : سَمِعَ اللهُ لمن حَمِده . ويقولون : ذُقْتُ الشيءَ بمعنى علِمْتُه وخبَرْتُه . ويقال : شَمِمْتُ رائحةَ الفضْل من فُلانٍ ، أي علِمْتُه .

٣ — وفوارِسٍ كأُوارِ حَـرِّ النارِ أحْلاسِ الذُّكُورِ

يقولُ : ورُبَّ فُرْسانٍ يشتعِلون ليلاً ونهاراً ، ذكاءً وحَمِيّةً ، وبأساً ونَجْدَةً ، اشتعالَ النار ، ويلزمون ظهور الذُّكُور من الدوابِّ اللزومَ الشديد ، إذ كان ذلك شأنَهم ودأبَهم . وجَواب رُبَّ منتظَر . وقولُه « كأُوارِ حَرِّ النار » ، الأُوار : التوهُّج والالتهاب ، ولهذا أضافَه إلى الحَرِّ . ويقال وأرَتِ النارُ ، إذا

(١) في الأصل : « واسألي كرمي » . والتفسير بعده يقتضي ما أثبتنا من م والتبريزي .
(٢) التكملة من م .

توهّجَتْ ، ومنه الإرةُ . وإذا كان كذلك فالأصْلُ فى أُوَارٍ وُؤارٌ ، فإما أن يكون قد قُلب ، فقدم الهمزة ، وإما أن يكون لُيِّنَ الهمزة ثم أُبْدِلَ من الواو المضمومة التى هى فاء الفِعْل هَمْزةً ، كما فُعِل فى وُقِّتَ إذا قيل أُقِّتَ ، فصار أوارًا . وقولُه « أحْلاسِ الذكور » ، الحِلْس : كل شىء وَلِىَ الظَّهْرَ تحت الرَّحْل . وحَكى ثَعْلَبُ عن ابن الأعرابىّ أنّ الأحلاسَ البُسُطُ ، واحِدُها حِلْسٌ ، قال : ومنه الخبر : « إذا ظَهَرَت الفِتَنُ فـكُنْ حِلْسَ بيتِك » . وأَنْشَدَ :

نَوَّمْتُ عَنْهُنَّ غُلامًا جِبْسًا وقد تغطَّى فَرْوَةً وحِلْسًا

ومنه استَحْلَسَ الأرضُ بالنباتِ ، والأرضُ بالظلام . ولما أدّى الحِلْسُ معنى اللزوم صَحَّ الوَصْفُ به . وعلى هذا أسماء الأجناس إذا ضُمِّنَتْ مَعانىَ الأفعال .

٤ — شَدُّوا دَوابِرَ بَيْضِهِمْ فى كلِّ مُحْـكَمَةِ القَتِيرِ

٥ — واسْتَلْأَمُوا وتَلَبَّبُوا إنَّ التَّلَبُّبَ للمُغـــيرِ

قولُه « شَـدُّوا دوابِرَ » ، هو جَوابُ رُبَّ . والمعنى : رُبَّ فرسانٍ هذا صفتهم استَعَدُّوا . والمعنى استَعَدّوا مَعِى أُولِى مغيرينَ أو مُدافِعِينَ ، بأن شَدُّوا مآخير المَغافِرِ فى جيوب دُرُوعٍ مُحْـكَمَةٍ رءوسِ المسامير ، ضَيِّقَةِ السَّرْدِ . والدوابر ، واحِدَتُها دابِرَةٌ وهى المآخير ، وتُستعمل أيضًا فى الحوافر والمخالب . ومنه قَطَعَ الله دابِرَتَهم ، لأنَّ سِباعَ الطُّيور إذا قُطِعَتْ دوابِرُها تَعطَّلت عن الـكَسْب . و « استَلْأَموا » ، أى لَبِسُوا اللُّؤَم ، وهى جَمْعُ لَأْمَةٍ . وفَعْلَةٌ وفُعَلٌ قليل ، ومِثْلُهُ نَوْبَةٌ ونُوَب . وهى من الملاءمة المطلوبة فى نَظْم الحَلَق وسَرْدِها . ولمّا كان الواو العاطفة لا تُوجِبُ شيئًا من الترتيب لم يبال بتأخير واستَلْأَمُوا ، وإن كان لُبس الدروع مُقَدَّمًا على لُبْسِ البَيْض ، وشَدُّوا دوابِرَها

فيها . وقولُه « إنّ التلبُّبَ للمُغير » يَجْرِى مَجْرَى الالتفات . والتلبُّب : التحزُّم ، وقيل هو الانتطاق والتجرُّد . ويمكن الاستشهاد بهذا على أنّ الفوارسَ المَوْصوفين كانوا مُغيرين .

٦ — وعلى الجيادِ المُضْمَرا ت فَوارسٌ مِثْلُ الصُّقُورِ [(١)]

الواو من قوله « وعلى الجياد المُضْمَرات فوارسٌ » واوُ الحال ، كأنّه قال شَدُّوا دوابِرَ بَيْضِهِم والحال ذا . يُريدُ : رُبَّ فُرْسانٍ تَشَمَّرُوا واستَعَدُّوا مَعِى للغارَةِ أو الدِّفاع للمغيرين ، وبإزائها خَيْلٌ هكذا . يقول : وعلى الجيادِ العِتاقِ المُسَوَّمَةِ المصنوعة ، فُرْسانٌ كأنّهم فى حِدّةِ نَظَرِهم وارتفاع ناظِرِهم وطموحهم ، صُقُورٌ فى حالِ ما تُخَلَّى للصَّيْدِ . وسَمِعْتُ من يَقُولُ : إنّ جَوابَ ربَّ لم يَجِئْ بَعْد ، وإنما أعادَ ذِكْرَ الجياد لتباعُد رُبَّ عنه بما حالَ بينهما ، وجوابُه أقْرَرْتُ عَيْنِى من أولئك . وهذا البيت لم يَدخُل فى الاختيار ، أعْنِى أقْرَرْتُ عَيْنِى [(٢)]

٧ — وإذا الرِّياحُ تَناوَحَتْ بجَوانبِ البيتِ الكَسيرِ

٨ — أَلْفَيْتَنِى هَشَّ اليَدَيْنِ بمَرْىِ قِدْحِى أَوْ شَجِيرِى

أخذ يتبجَّحُ بالسَّخاء والتكرُّم ، كما يتبجَّحُ بالثَّبات والتشجُّع . وهذه الفصولُ تفسيرُ قولِه « وانظُرى كَرَمِى وخِيرِى » . فيقول : وإذا تقابلَتِ الرِّياحُ أوانَ الشِّتاء ، ووقتَ الجَدْبِ والإمحال ، حَتَّى زَعْزَعَتْ جَوانِبَ البيت العظيم

---

(١) بعده عند التبريزى :

يخرجْنَ من خَلَل الغبا رِ يَجِفْنَ بالنَّعم الكثيرِ
أقررتُ عينى من أولـ ئكَ والفوائح بالعبيرِ

وقال : « يقال وجف يجف ، إذا أسرع ، وجيفا . وأوجف إيجافا كذلك » .

(٢) نص التبريزى : « وليس فى المختار ، وهو يروى بعد قوله : يخرجن » .

الكسور والأركان ، ألفيتنى هكذا . ويُقالُ بَيْتٌ كَسِيرٌ إذا كانَ عَظِيم الكَسْر ، كما يُقال رَجُلٌ جَسِيمٌ بدينٌ ، إذا كان عظيم الجسم والبَدَن . وكَسْرُ البَيْتِ وكِسْرُهُ بالفَتْحِ والكَسْرِ : جانِبُهُ . وتفسير الكَسْر على هذا أبلغ وأحْسَنُ من أن يُجْعَل فى مَعنى المُهدَّم والمكسور . وعلى ما بِهِ فقد يُفسَّرُ عليه. وقوله « ألفَيْتَنِي » جوابُ إذا . يَقولُ : تَجِدُنى فى ذلك الوقت خفيفَ اليد بمَسْحِ القِدَاح ، وعند حُضُور الأيْسَار ، نَشِيطاً فى إجالتِها ، حريصاً على فوْزِها وتحمُّلِ الكُلَف فى إدارَتِها . وقوله « أو شَجِيرى » الشجير : الغريب . ويقال : نزَلَ بينهم شجيراً ، أى غريبا . وإنما يَعْنِي قِدْحاً يَتَبرَّكُ به ، فيستعار من الغَيْر ، فإذا أجَالَهُ الياسِرُ مع قِدَاحِه كان كالشَّجِير فيما بينها والدَّخِيل . والهَشّ : الخفيف . ويُقال استهَشَّنِي الشيء ، أى استَخَفَّنِي . ومنه : هُوَ يَهَشُّ إلى إخوانه .

٩ — ولقد دَخَلْتُ على الفتا ةِ الخِدْرَ فى اليومِ المَطِيرِ

١٠ — الكاعِبِ الحَسْنَاء تَرْ فُلُ فى الدِّمَقْسِ وفى الحَرِيرِ

ذكر أنّ أوقاتَهُ منقسمةٌ[1] بين الجِدّ والهَزْل ، وأموالَهُ[2] متوزَّعة بين لوازم الحقوق ، ولواحِقِ الفضول ، فيقول : ولقد أعطيتُ الصِّبَى حَقَّهُ ، وأقمتُ للهوى رَسْمَه ، وسَعيتُ فى البطَالةِ أوقاتَها ، وأعطيتُ الخسارةَ مَقاوِدَها ، فدخلتُ على الفتاةِ المخدَّرةِ فى أطيب أوقاتِ اللذّة ، وهو ما أشار إليه بقوله « فى اليوم المطير » . ثمّ وَصَفَ الفتاة فقال : كانت ناهِدَةَ الثَّديين ، حَسَنَةَ الخِلْقة ، موفَّرةَ الحظّ من النَّعْمَةِ والنِّعْمة ، فهى تتبختر فى مَلابس الحرير [المتلوّنة على أجناسها المختلفة . والدِّمَقْس : الحرير[3]] الأبيض ، ولهذا قال امرؤ القَيْس :

(١) م : « مقتسمة » .

(٢) كذا على الصواب فى م . وفى الأصل : « وأقواله » .

(٣) هذه التكملة من م .

* وشَحْمٍ كهُدّابِ الدِّمَقْسِ المُفتَّلِ(١) *

وإذا كان كذلك فقولُه « وفى الحرير » يَنصرف إلى سائر الألوان ، ويشتمل على جميع الأجناس ، فكأنَّهُ قال : تَرْفُل فى أجناس الحرير ، الأبيضِ منها وغيرِ الأبيض ، يُريدُ أنّ مَعارِضَها من تلك الأجناس .

١١ — فَدَفعْتُهـــا فتدافَعَتْ مَشْىَ القَطاةِ إلى الغَدِيرِ

١٢ — ولَثمْتُهـــا فتنفَّسَتْ كتَنفُّسِ الظَّبْيِ العَقِيرِ(٢)

قوله « فتدافعت » هو مطاوَعةُ دافعت ، ومُطاوَعةُ دفعت اندفَعَتْ ، إلاّ أنه يوضَعُ كلٌّ موضِعَ صاحبه . فيقول : هززتُها لمُساعَدَتى ، وبَعثتها لتَسعَى مَعِى ، فانبعثت وأسمَحَتْ وهى تمشى مَشْىَ القَطاةِ إذا وَقَعتْ على الغدير ، ومَشَت نحو الماء . وهذه المِشْيَةُ فيما يقال أحسَنُ المَشْى ، لأَمْنِها وسرورِها بالورود ، وعُجْبِها بالخَلاء . وانتصَبَ « مَشْىَ » على أنه مَصْدَرٌ من غير لَفْظِه لأن معنى تدافَعَتْ مَشَت ، والقَصْدُ إلى التشبيه لأنّ المعنى مَشَتْ مِشْيَةً تُشْبِه تلك المِشْيَةَ . وسيبويه يُضْمِر فى مثل هذا الموضِـع فِعلاً من لَفظِ المَصْدر إنْ وَجَدَهُ ، وإلاّ قَدَّرَه ، ويَجعَلُ الظاهرَ دليلاً عليـه . وقولُه « ولثمتها(٣) » يُريدُ : وقبَّلتُها فتنفَّست . ومنه اللثام ، لأنّه فى الفم كاللِّفام فى الأنفِ . والمعنى أنِّى لَثِمْتُها فلَحِقَها من ذلك تَعب ، فتنفَّست له تنفُّسًا كتنفُّس الظَّبْى إذا عُقِر . ويقال إنه فى تلك الحالة يتنفَّسُ تنفُّسًا ممتدًّا طويلا ؛ فشَبَّهَ تنهُّدَها به . ويُروَى : « كتنفُّسِ الظَّبْى

(١) صدره : * فظل العذارى يرتمين بلحمها *

(٢) هذه رواية م . وهى ما يتساوق مع التفسير التالى . وفى الأصل : « البهير » . وهى رواية كذلك . على أن الرواية التى اعتمدها التبريزى فى متن الحماسة : « الغرير » ونبه على الروايتين الأخريين ، فهن ثلاث روايات .

(٣) فى الأصل : « فلثمتها » وهو مخالف لنص البيت . والوجه ما أثبتنا من م .

البهير » ، والمعنى قريبٌ ، لأنّ البُهْرَ : النَّفَس العالى . وفى طريقة قوله « ولثمتها فتنفّسَت » قولُ طَرَفَةَ العَبْدِىّ[١] :

تَحْسِبُ الطَّرْفَ عليها نَجْدَةً   يا لَقَوْمٍ للشَّبابِ المُسبَكِرْ

لأنّ المعنى فى الموضعين التنبيهُ على تناهى الموصوف فى النَّعمة والرِّقَّة .

١٣ — فَدَنَت وقالت يا مُنَـخَّلُ ما بجسمِكَ مِن حَرُورِ[٢]

١٤ — ما شَفَّ جسمى غيرُ حُـبِّكِ فاهْدَئى عَنِّى وسِيرِى

١٥ — وأُحِبُّهـا وتُحِبُّنى ويُحِبُّ ناقَتَها بَعِـيرِى[٣]

(١) كذا جاءت نسبة طرفة فى النسختين ، ولعله سهو ، فإن المعروف فى نسبة طرفة « البكرى » لا « العبدى » . على أن الكلمة ساقطة من التيمورية .

(٢) التبريزى : « ويروى : من غرور ، وقيل هو قلة اللحم » .

(٣) روى التبريزى بعده خمسة أبيات ، ضمن تفسير الأول منها بيتا سادسا لم يرو فى الحماسة وهى :

١٦ — ولقد شربتُ من المدا   مةِ بالصَّغيرِ وبالكبيرِ

١٧ — فإذا انتشيتُ فإنّنى   ربُّ الخورنقِ والسَّديرِ

١٨ — وإذا صحوتُ فإنّنى   ربُّ الشُّويهةِ والبعيرِ

١٩ — يا هندُ مَن لمتيَّمٍ   يا هندُ للعانى الأسيرِ

٢٠ — يعكُفنَ مثل أساود الـ   تَّنُّومِ لم تُعكَفْ بزورِ

وقال فى تفسير البيت ١٦ : « يعنى بصغير ماله وكبيره ، ولم يرد إناء صغيرا وإناء كبيرا . والذى يحقق هذا قوله :

وشربتُ بالخيلِ الإنا   ثِ وبالمطهَّمةِ الذُّكورِ

وهذا مثل قول الآخر :

شربت بقيراط وأسكرت صحبتى   ورحت ولى عند التجار حساب

قيراط : اسم ناقته . وقيل : أراد بالصغير الدرهم ، وبالكبير الدينار » .

ثم فسر البيت ١٩ بقوله : « هى هند بنت المنذر بن ماء السماء ، وهى عمة النعمان =

قوله « فَدَنَتْ » أراد به دُنُوَّ الشفقة ، والتقرّبَ بحسْنِ العَطْفَةِ ، لا قُرْبَ المَسافةِ . والمعنى : تأمّلَتْ تغيُّرَ لونى ونُحُولى ، فاعتقدتْ أنّهُ من مُلازمة تَبذُّل ، ومُقاساةِ تَعمُّلٍ ، فأعارتْنِي شفقتها وقالَتْ : ما الذى بجسمك من حَرُورٍ ، أى من أثَرِ الحَرُور . وقد اختُلِف فى السَّمُوم والحَرُور ، فمنهم من جَعَل السَّمُوم بالنَّهار والحَرُور بالليل ، ومنهم من يقول على العَكْسِ مما ذكرتُ . وقال الخليل : السَّمُوم الرِّيح الحارّة ، ليْلاً هبَّتْ أو نهاراً . والحَرُور : حرُّ الشمس . وقوله « ما شَفَّ جِسْمِى » يقول : أجَبْتُها مُبْطِلاً اعتقادَها ، ومُكَذِّباً ظَنَّها ، وراجعاً بالعَتْبِ عليها ، وقلتُ : ما أنْحلَ جِسْمِى ولا أثَّرَ فى لَوْنى إلا حبُّك ، فاسْكُنِى عنِّى وسيرِى . ومعنى سيرِى هَوِّنى عليك الأمْرَ . وعلى نَحْوٍ من هذا يُحْمَلُ قول الله تعالى : ﴿ وانْطَلَقَ المَلَأُ مِنْهُمْ أنِ امْشُوا واصْبِرُوا على آلهتكم ﴾ إذ لم يَكُن [ثَمَّ(١)] مَشْىٌ ولا انطلاقٌ . ويجوز أن يكون سِيرِى أمْرًا بالسَّيْر ، فقد قال فيما تقدم :

—

= ابن المنذر ، وكان المنخل يتهم بالمتجردة امرأة النعمان ، وكانت فاجرة ، وكانت ولدت له غلامين يقال إنهما ابنا المنخل . فذكر بعض من يحدث أن النعمان كان له يوم يركب فيه فيطيل ، وله إبان يعرف فيه مجيئه ، وأن المنخل كان يأتيها فيكون عندها حتى إذا جاء النعمان أخرجته ، فجاءها ذات يوم وقد ركب النعمان ، فلاعبته بقيد جعلته فى رجله ورجلها ، فهما على حالهما تلك إذ دخل النعمان قبل إبانه الذى كان يجيء فيه ، فوجدهما على حالهما ، فأخذه فدفعه إلى عكب صاحب سجنه — رجل من لخم ، صاحب القرات — ليعذبه » .

وقال فى تفسير البيت ٢٠ : « يقع فى بعض النسخ . يجوز أن يكون فى صفة النساء ، فيكون من قولهم . عكفت المرأة شعرها وعكّفته ، أى ألزمت بعضه بعضا وجعلته ضفائر . وإذا كان كذلك احتمل أساود التنوم وجهين : أحدهما أن يكون أراد هذا الشجر لأنه يسود كله ، والآخر يريد بالأساود جمع الأسود من الحيات ، لأن غدائر النساء تشبه بها . هذا إذا وقع هذا البيت عند وصفه النساء ، وإن وقع عند وصفه الخيل فمعناه أن الخيل تجيء بالفوارس فكأنها تعكفها كعكف الشعر ، وهى يعنى مذكرات ، فهو محمول على الجماعات ، ويكون قد وصف الرجال بالأساود من الحيات ، لأن الرجل قد يوصف بأنه كالحية ، إذا كان شجاعا مخشى الشر » .

(١) هذه من م والتيمورية .

فَدَفَعْتُها فَتَدافَعَتْ مَشْىَ القَطاةِ إلى الغَدِيرِ

وقوله : وأحبُها وتُحِبُّنى ، هو بيان تَطاوُلِ الألفة بينهما ، وتَواصُلِ الصُّحبة فى أيامهما ، حتى صارت لامتداد الملازمةِ كما حصَلَ التحابُّ بينهما حصَلَ التألُّف بين بعيرَيهما ، فإذا اتفَقَ التباعُدُ والافتراق ، وتَسلَّطَ على كلٍّ واحدٍ منهما الاشتياق ، أقبلَ البعيران يتحابَّانِ ، ويتجاذبان الوَجْدَ والنزاع كما يفعل المتحابان .

١٧٥

وقال بَاعِثُ بن صُرَيْمٍ(١) :

١ — سَائِلْ أُسَيِّدَ هَلْ ثَأَرْتُ بِوائِلٍ أَمْ هَلْ شَفَيْتُ النَّفْسَ من بَلْبَالِهَا

٢ — إذْ أَرْسَلُونى مائحًا بِدِلائِهِمْ فَمَلَأْتُهَا عَلَقًا إلى أَسْبالِهَا

أُسَيِّدُ أراد به قبيلةً(٢) ، ولذلك مَنَعَهُ الصَّرْف . وهذا الاستشهاد هو تصويرٌ للحال ، وتطرُّقٌ إلى الإخبار . وإنَّما يفتخر بأنَّه قتَلَ قاتِلَ وائل ، وأدرك ثأره ، لمَّا اعتمَد فى طَلَب دَمِهِ ، واعتقَد أنَّ إدراكَ شفاء النفوس من جهته وبِهِ . والبَلْبالُ : الحزن . وقوله « أمْ هل » الاستفهام بأمْ دون هَلْ ، لأنَّ أمْ هذه هى المنقطعة ، ولا يجوز أن يكون(٣) العاطفةَ ، لأن تِلكَ تجىء عَدِيلةَ الألف . وقوله « شَفَيْتُ النَّفسَ » يجوز أن يريدَ به نفسَهُ ، ويجوز أن يُرِيدَ به الكثرةَ والجنس ، كأنَّهُ يريد أنه شَفَى الموتورِين فيه ، وأزالَ ما خامَرَهم من لَذْعِ المصيبة ، وألَمِ الفجيعة . وقولُه « إذْ أرسلونى » إذْ ظَرْفٌ لقوله ثأرْتُ ،

(١) شاعر جاهلى ، ساق التبريزى نسبه : باعث بن صريم بن أسد بن تميم بن ثعلبة بن عمر ابن حبيب بن كعب بن يشكر . وانظر ما سيأتى من خبره فى الشرح .

(٢) هم أسيد بن عمرو بن تميم . الاشتقاق ١٢٣ والمعارف ٣٧ ومختلف القبائل ومؤتلفها ٤٥ .

(٣) كذا بالياء فى النسخ بالنظر إلى الحرف . ونحوه كثير فى كلام المرزوقى .

أو لقوله شَفَيْتُ . والمائح : الذى يدخل البئرَ فيملأ الدَّلْوَ عند قلّة الماء فيها ، والحاجةِ إلى الغَرْف من قَعرِها . وإنّما جَعَلَ نَفْسَهُ مائحًا لينبِّه على أنّ طلبَ دمِ الواترين كان متعسِّرًا متعذِّرًا ، كما أنّ الاستقاء على الوجه الذى ذَكَرَهُ يكونُ شاقًّا مُتعِبا . فهذا وَجْه عُدوله عن المَتْحِ إلى المَيْح . وقوله « فملأتها عَلَقًا إلى أسبالِها » ، انتصبَ عَلَقًا على التمييز . وأسبالُها : أعاليها ، ومثلُه[1] الأَصْبار ، وسَبَلَةُ الرَّجُل منه . واختار بعضُهم أن يرويه « إلى إسبالِها » بكسر الهمزة ، مصدر أَسْبَل ، وليس بشىء . والمعنى : ملأتُ دِلاءَهم من دمِ واتِرِيهم[2] . وجعلَ[3] لهم دلاءً لاشتراكهم فى الدم وطلبِه ، ولنيابتِه عن كُلٍّ أوليائه . ولما استعارَ الدِّلاء والمَيْح لما ذكرته كَنَى عن فِعْلِهِ وتصرُّفه بالمَلْء .

وذكر بعضهم أنّ وائلًا المقتول هو وائل بن صُرَيم الغُبَرِى أخو باعِثٍ الشاعِر ، وله قِصّة . وهى أنّ عمرو بن هِنْدٍ بَعَثَهُ ساعِيًا على بنى تميم ، فكان جالسًا على شَفِيرِ بئْرٍ يَجْمَع الصَّدَقَات[4] ، فدفعوا فى صَدْرِه وأسقطُوهُ فى البئر ، ثم رَجَمُوه بالحجارةِ حتّى قَتَلوه ، وأخذوا يرتجزون على طريق التهكُّمِ والاستهزاء :

* يا أيُّها المائحُ دَلْوِى دُونَكا[5] *

فاتَّصَلَ خَبَرُهُ بأخيه باعِثٍ ، فَسَارَ فى بنى غُبَرَ وآلَى أنه لا يُمْسِكُ عن مقاتلتهم حتّى يملأ دَلْوًا من دماء بنى تميم ! ففعل[6] ، حتّى كانت المرأة تقولُ :

(١) فى الأصل والتيمورية : « ومنه » ، صوابه فى م .

(٢) م : « واترهم » .

(٣) هذا الصواب من م . وفى الأصل : « وجعلت » .

(٤) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « لجمع الصدقات » .

(٥) البيت من شواهد الخزانة (٣ : ١٥ — ١٨) . وروى البغدادى عن ابن الشجرى فى أماليه أن الرجز لرؤبة . وبعده :

* إنى رأيت الناس يحمد ونكا *

(٦) التبريزى : « فقتل ثمانين رجلا وأسر جماعة وقتل رجلا منهم يقال له ثمامة فذبحه ، حتى ألقى دلوه فخرجت ملأى دما » .

« تَعِسْتِ غُبَرُ ، ولا سُقِّيتِ المَطَر ، ولا لُقِّيتِ الظَّفَر[١] » . قال : فهذا معنى « إذْ أرْسَلُونى ماتحًا بدلائهم » ، وهـذا حَسَنٌ ، والأوّل محمولٌ على طُرُقِهم وعاداتهم . ومثله قول الآخر :

مَخَضْتُ بِدَلْوِهِ حتّى تحَسَّى ذَنُوبَ الشَّرِّ ملأى أو قُرَابَا

٣ — إنّى وَمَنْ سَمَكَ السَّماءَ مكانَها والبَدْرَ لَيْلَةَ نِصْفِها وهِلالَها

٤ — آلَيْتُ أُثْقِفُ منهم ذا لِحْيَةٍ أبداً فتنظرُ عَيْنُــه فى مالِها

أقسَمَ بمن سمك السماء ، وهو الله عزّ وجلّ . ومعنى سَمَكَ رَفَع ، ومنه سُمِّى عَمُودُ البيت المِسْماكَ . وجواب القَسَم فى آلَيْتُ أُثقِفُ ، وهو خبرُ إنّ أيْضًا . وقوله « ليلةَ نِصْفِها » أضاف النِّصف إلى السماء لَمّا كان استكمال البَدْرِ عند انتصاف الشهر فى السّماء ، فلاجتماعهما فى ظهور البَدْرِ كاملاً فى السماء ساغَتِ الإضافةُ بينهما ، على عادتهم فى إضافة الشىء إلى الشّىء لأدْنى مناسبةٍ تَحْصُل بينهما . وعلى هذا قول الآخر :

* ضَـوْءُ بَرْقٍ ووابِـلُهْ *

إذْ كان أضافَ الوابِلَ إلى البَرْق لاصطحابهما . وأبْعَدُ منه قول الآخر :

نَحْنُ صَبَحْنَا عامِراً فى دارِهَا عَشِــيَّةَ الهِلاَل أو سِرَارِها[٢]

وأضافَ السِّرَار إلى العشِيّة لاعتقاده أنّ استسرار القَمَر فى العشيّات ، كما أنّ طُلُوعَهُ فيها . وعلى هذا الكلام فى إضافةِ قولِهِ « وهِلالها » وإن كان إضافة الهِلاَل إلى السماء أبْيَنَ أمرًا ، وأقْرَبَ مُتَصَوَّراً . فالتقدير ليلةَ كمالِه فى نِصفِ الشّهْرِ ، وليله إهْلالِهِ . و « مكانَها » انتصَبَ على الظَرْف ، والمَعْنى حَلَفْتُ بالله

(١) بعده عند التبريزى : « وعدمت النفر » .

(٢) بين الشطرين فى المقاييس (سر) واللسان (سرر) :

* جردا تعادى طرفى نهارها *

الذى رفعَ السماء فى مكانها بلا عَمَدٍ — وجعَل البَدْرَ فيها كاملاً عند انتصاف الشَّهرِ ، وهِلالاً عند أوّلِه فى لَيلتَيْهما — إنى لا أثقَفُ من هؤلاء القوْمِ مُلتحيا أبَدًا ناظِراً عينُه فى مَالِه ، وراجِعًا من مَقْصِدِه إلى أهْلِهِ ودَارِه . أى إذا ثقِفتُه قَتَلتُه حتَّى لم تنظر عَيْنُهُ فى ماله ، ولم يستقرّ بعده فى دارِه وقَرَارِه . وقوْلُه « أثقَفُ » هو الجواب ، وحُذِف مَعَهُ لا لأنّه أمِنَ التباسه بالواجِب ، إذْ لوْ أراد الواجِبَ لقَالَ لأثقفنَّ ، فلما كانت صيغةَ الواجِب بما يَلزَمُها من اللام وإحْدَى النونين الثقيلة أو الخفيفة لم يُبالِ بحذْف حَرْف النفْى . ومِثْلُه قول الآخر[١] :

فقلت يَمينُ اللهِ أبْرَحُ قاعِداً   وإن ضَرَبوا . . . . .[٢]

لأن المُراد لا أبْرَحُ . فإن قيل : إذا كان القَسَم يتناول ما ذَكَرتَ من قوله لا أثقَفُ فما معنى قوله آلَيْتُ ؟ وهل يَصِحُّ أن يُقالَ إنى حلَفْتُ واللهِ لا أفعل كذا ؟ قُلْتَ إنّ قولَه آليْتُ دَخَلَ مؤكّداً للقَسَمِ على أحَدِ وجهين : (أحدُهما) أنَّه لمّا تطاول الكلام باليمين وبَعُدَ ما بَيْنَ إنّ وخبرِه ذكر آليْتُ ، ثم أتى بما هُوَ الجواب ، ليكون كالمُعيدِ لليمين ، والمُجدِّدِ لما خافَ من دروس رَسْمِها . و (الثانى) أنه لما كان آليتُ لو اكْتفَى به مُغْنيًا عن ذِكْرِ المُقْسَمِ بِهِ صار كتكرار اليمين ، فجَرَى مَجْرَى قولِه [لو قال[٣]] واللهِ واللهِ ، وما أشْبَهه . فأما قَوْلُه « فتنظر عينُه فى مالها » فلفظُه لَفظُ الجواب ، والمعنى معنى الحال ، والصِّفةِ للنَّكِرةِ التى قبْلَه ، كأنه قال : لا أظفَرُ أبدًا بذى لحيةٍ إلاَّ لم تنظُرُ عينُه فى مالِه . ومِثْلُهُ من أبياتِ الكتاب[٤] قولُ الفرزدق :

(١) هو امرؤ القيس . ديوانه ٥٨ .
(٢) وإن ضربوا ، لم ترد فى م . والمشهور فى رواية العجز :
* ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى *
(٣) هذه من م .
(٤) كتاب سيبويه (١ : ٤٢٠) والخزانة (٣ : ٦٠٧) .

وما قامَ مِنَّــــا قائمٌ في نَدِيِّنَا فينطقُ إلا بالذى هو أعْرَفُ

لأنَّ المعنى ناطِقاً . فإن قيل : هَلْ يجوز أن يكونَ جوَاباً ؟ قُلتَ لا ، وذاك أنَّ المَعْنَى يَفْسُدُ وينْعَكِسُ ، لأنَّ التقدير حينئذٍ يكون لا أُثقِفه ، فكيف يَنظُرُ ؟ أى لَوْ ثَقِفتُهُ لنَظَرَ ، لأنَّ في وَجْهِ الجواب يَتعلَّقُ وقوعُ الثانى بوُقُوعِ الأول ، ويمتنع بامتِناعه ، وفى هذا خروجٌ عمّا يَقْصِدُهُ المتكلِّمُ . ومثْلُه فى باب الواو :

لا تنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتأْتِىَ مِثْلَهُ [عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيم[(١)]]

لأنَّ المعنى آتِياً مِثْلَهُ .

٥ — وخِمَارِ غَانِيَةٍ عقَدتُ برأسِها أُصُلاً وكان مُنَشَّرًا بِشِمالِهَا[(٢)]

تبَجَّحَ في هذا البيت بأنه يغيث المذعورين فيُؤمِنهم . والغانيةُ : التى تَسْتَغنِى بجمالِها عن الحَلْى ، وقد مَضَى القَوْلُ مُسْتَقْصًى فيه . ومعنى البيت : رُبَّ امرأةٍ تَبَرَّجَت متبرِّزَةً من خِدْرِها حاسِرَةَ الرأس ، مُطَارَةَ القِناع ، منشورةَ الخِمار ، لِمَا استَولَى عليها من الخوفِ ، وامتَلَكَها من الرَّوْع والغارةِ الطالِعَة ، والخيل العادِيَة ، حتَّى كأنَّ خِمارَها طُولَ نهارِها منشورٌ على شِمالِها ، وهى لا تَشْعُرُ أنِّى أنا آمنتُها وحَفِظْتُ عليها صِيَانةَ نَفْسِها[(٣)] ، رَدَدْتُ إليها عازِبَ عقلِها حتَّى اختمرت وأمِنَتْ ما كانت تقلَقُ لها ، وستَرَتْ وَجْهَها . وإنَّما قال أُصُلاً ، لأنَّ الغارةَ كأنَّها وقَعَتْ أوَّل النهار ، ولُحُوقُه للإغاثة والتَّدارُك بعقِبها ، فحَصَل الأَمْنُ عَشِيَّةً . وفى طريقته لعنترة :

(١) التكملة من م . والبيت لأبى الأسود الدؤلى . انظر شرح شواهد المغنى ١٩٤ . وروى بعض أبيات القصيدة للمتوكل الليثى . حماسة البحترى ١٧٣ .

(٢) التبريزى : « يقول : إنها سبيت فلحقها عشيا بعد أن يئست لأن الغارة تكون بالغداة ، فلما رأته اطمأنت فلاثت خمارها برأسها . ومعلوم أن باعثا لم يل عقد الخمار ، وإنما كان السبب فى أن عقدت المرأة » .

(٣) م والتيمورية : « وأذكرتها صيانة نفسها » .

ومُرْقِصةٍ دفَعْتُ الخيلَ عنها وقد هَمَّتْ بإلقاء الزِّمَامِ[1]

٦ — وعَقيلةٍ يَسْعَى عليها قَيِّمٌ مُتَغطرِسٌ أبْدَيْتُ عن خَلْخالِها

لما قدَّم في البيت الأوّل ما قدَّم أتَى في الثاني بما يُضادُّه ، ليُرِيَ أنه كما يَدْفعُ الشَّرَّ والبَلاءَ يوقِعُه أيضا ، حتَّى يكُونَ جامعاً للضَّرِّ والنَّفْع ، كافياً في الدِّفاع والوِقَاع ، فيقولُ : وربَّ كريمة حَيٍّ ، بَعْلُها أو ذو مَحْرَمِها القائمُ بأمْرِها متكبِّرٌ أنِفٌ ، يَرَى صيانتَها عن التَّكشُّفِ دِيناً ، وحِفْظَها عنِ التبذُّل كَرماً ، أنا أخْرَجْتُها من خِدْرِها ، وأحْوَجْتُها إلى العَدْوِ وطَلَبِ التَّملُّسِ[2] مُشَمِّرَةً عن ساقِها ، مُبْدِيةً خَلْخالَها ، مُذِيلةً مَصُونَها . أي كما آمَنْتُ خَوَّفْتُ ، وكما سَكَّنْتُ أقْلقْتُ .

٧ — وكَتِيبةٍ سُفْعِ الوُجُوهِ بَوَاسِلٍ كالأُسْدِ حِينَ تَذُبُّ عَنْ أشْبالِها

٨ — قَدْ قُدْتُ أوَّلَ عُنْفُوانِ رَعِيلِها فلفَفْتُها بكَتيبـــةٍ أمْثالِها

يَذْكر أنه يَجْمع بين الجيشين العظيمين مدبِّراً لهما ، ومُرْسِلاً أحدَهما على الآخَر ، وأنه على ذلك يكون المتقدِّمَ والمشاهِدَ ، والمُرتِّبَ والمُصادِمَ . فيقولُ : رُبَّ كتيبةٍ قد تعوَّدَتِ الغاراتِ والصَّبْرَ على الإبْعادِ فيها ، فاسْوَدَّتْ ألوانُها بما تقاسيه من التَّعَب ، وتَدِيمُ لُبْسَهُ من الأسلحة ، وكأنها في بأسها ونَجْدَتِها ، وما تأْوِي إليه من قُوَّتِها وشِدَّتِها ، الأُسْدُ إذا ذَبَّتْ عن جِرائِها ، ودفَعَتْ عن خِيسِها[3] ، أنا قُدْتُ أوائلَها فخَلَطْتُها بأمْثالِها ، وقابَلْتُها بنظائرِها من أولى العَدَدِ والعُدَّة ، والجَلَدِ والشِّدَّة . فإنْ قيل : لِمَ قَالَ « أوَّلَ عُنْفُوان رعيلِها » والعُنْفُوان هو

(١) هذا ما في م والتيمورية . وفي الأصل : « ومرفضة » .

(٢) هذا الصواب من التيمورية . والتملس : التملص والتفلت . وفي الأصل : « التماسر » وفي م : « التلمس » كلاهما محرف .

(٣) الخيس ، بكسر الخاء : أجمة الأسد . وهذا الصواب من التيمورية . وفي الأصل وم : « جنسها » .

الأوّل ، على ذلك قولهم فعلتُ كذا فى عُنفُوانِ الشَّباب ؟ قلت : كأنَّهُ أراد قُدتُ سوابِقَ أوائلِها ؛ فأضافَ الأوّلَ إلى العُنْفُوان لذلك . وكما قاد الأوائل والسَّوابق فقد قاد الأواخِرَ واللَّواحِق ، ولكن جَعَلَ القَوْدَ لِمَنْ وَلِيَه ، وجَعَل ما بَعدهم كالتَّابِع . يُرِيدُ أنَّهُ تقدَّمَ ووَطِئَ عقبةُ الأعيانُ والأفراد ، ثم احتفَّ بهم غيرهم . وحقيقة العنفوان اعتنفتُ الشيء ، أى استأنفتُهُ . والرَّعيلُ من الخيل والرِّماح : أوائلُها . وقَوْلُه « بكتيبةٍ أمثالِها » ، لَوْ قال مِثْلِها لجاز ، ولكنَّه جمع على معنى طوائف الكتيبة ، لاختلافها .

١٧٦

وقال الفِنْدُ الزِّمّانيّ (١) :

١ — يا طَعْنَــةَ ما شَيْخٍ كبيـرٍ يَفَــنٍ بالِ

٢ — تُقِيم المأتَمَ الأعْـلَى على جُهْــدٍ وإعْوالِ

ما مِنْ قولهِ « ما شَيْخٍ » زائدةٌ ، أراد طَعْنةَ شَيْخٍ ، وهـذا اللفظ لفظ النداء ، والمعنَى معنى التعجُّب والتفخيم ، كأنه أراد : ما أهْولَها من طعْنَةٍ ، ويالها من طَعْنةٍ بدَرَت من شيخ كبيرِ السِّنِّ ، فانِي القُوَى ، بالِي الجسم . واليَفَنُ : الشيخُ الهرِم . [قال الأعشى (٢)] :

وما إنْ أرَى الموت فيما خَلاَ يُغادِرُ من شارخٍ أو يَفَنْ

ويجوز فى قولهِ يا طَعْنَةَ ما شيخٍ ، أن يكونَ المُنادَى محذوفاً ، فيكون التنبيه بـ « يا » متناولاً غير الطعنة ، وينتصب على هذا طَعْنَةَ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ ، كأنه أراد : يا قَوْمِ أذكرُ طَعْنَةَ شيخٍ . كما قال :

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية الثانية بالقسم الأول .
(٢) التكملة من م والتيمورية .

فياشاعِرًا لا شاعِرَ اليومَ مِثْلُهُ جريرٌ ولكنْ فى كُلَيبٍ تَواضُعُ[(١)]

وقولُه « تُقِيمُ المأتمَ الأعْلَى » من وَصْفِ الطعنةِ ، فكأنّه كان تناوَلَ بها رئيسًا ، فلذلك وَصفَ المأتمَ بالأعْلَى. والمأتمُ أصْلُه أن يَقعَ على النساء يجتمعْن فى الخير والشرّ ، واشتقاقُه من الأَتْمِ ، وهو الضَّمُّ والجَمْع ، ومنه الأَتُومُ وهى [المرأة[(٢)]] التى صارَ مَسْلَكاها مَسْلَكًا واحدًا ، وأراد بالمأتمِ هُنا الاجتماع للرَّزِيئة ، وهو ببِنْيتِهِ مَصْدَرٌ وُصِفَ به. ويجوز أن يُرادَ به أهْلُ المأتمِ ، فحُذِفَ المُضافُ كما يقال جاء المَجْلِسُ ، والمُرادُ أهل المجلس . وقوله « الأعْلَى » يرادُ به الأفظع شأنًا . وَوَصفَ الطعنة بأنها تقيمُ الجَمْعَ على مُجاهَدَةٍ وبلاءٍ ، وإسرافٍ فى الصِّياح والعُوَاء ، أى تُدِيمُ ذلك لهُ . والعَوِيل والعَوْلةُ : صوتُ الصَّدْر .

٣ — ولولا نَبلُ عَوْضٍ فى خُضَمّاتى وَأَوْصالى[(٣)]

٤ — لَطَاعَنْتُ صُدُورَ الخَيْلِ طَعْنًا ليس بالآلى

يعتذِرُ من رِضا نفْسِه بتلك الطعنة الواحدة . وعَوْضُ اسمٌ للدهرِ معرفةٌ مبنىٌّ ، وكما يُبْنَى على الفتحِ فقد يُبنى على الضمّ ، والضمُّ فيه حكاه الكوفيّون[(٤)] . ويقال لا أفعلُه عَوْضَ العائضين . وإنما بُنِى لتضمُّنه معنى الألِفِ واللام . والخُضُمَّةُ : ما غَلُظَ من الساعد والذِّراع ، ويُبْدَلُ من ميمه الباء ، فيقالُ خُضُبَّةٌ . وقد رُوِى هذا البيت ، وهو :

(١) البيت للصلتان العبدى . انظر الخزانة (١ : ٣٠٤ — ٣٠٨) .

(٢) هذه من م والتيمورية .

(٣) وقع فى متن التبريزى : « فى حظباى » لكنه فى التفسير يفسر « خضماتى » ثم يعقب على ذلك بالتنبيه على رواية « حظباى » . التبريزى : « وقوله حظباى ، أى جسمى . ويقال إن الحظبى عرق فى الظهر » .

(٤) ويروى بالكسر أيضا كما فى اللسان . وكلمة « عوض » فى متن البيت ضبطت فى الأصل والتيمورية بالفتح ، وبكسرتين تغييرا لأجل الشعر فى م . والفتح أعلى لغة فى اللغات الثلاث .

يُذْرِى بإرْعاشٍ يمينَ المُؤْتَلِى خُضُمَّةَ الذِّراعِ هَذَّ المُخْتَلِى[١]

بالميم من « خُضُمَّة » والباء جميعاً . ويعنى بنَبْل الدهر تأثيره فى مفاصل الشيوخ . وعلى هذا قول الآخر :

رَمَتْنى بَنَاتُ الدهرِ من حيثُ لا أرَى فكيفَ بمَنْ يُرْمَى وليس بِرَامِ[٢]

ومعنى البيت الأوّل : لولا رَمَيَاتُ الدهرِ فى مَفاصِلى ومجامعِ أعضائى ، ومُسْتَغْلَظِ عَضُدى وذِراعى ، لكان تأثيرى وبلائى فى الحرْبِ أكثر مما كان ، ولشَفَعْتُ تلك الطعنةَ ولم أتركْها وِتْرًا . وقولُه « لطاعَنْتُ صُدُورَ الخيْلِ » أراد بالخيل الفُرسان . أى لولا ما قدّمْتُ من العُذْرِ لدافعْتُ بالطَّعْنِ أوائلَ الخيْل ، طعناً لا تقصيرَ فيه ولا قُصُورَ . وخَصَّ الأوائل منهم لتقدُّمِه . ويجوز أن يُرِيدَ بالصدور الرؤساء والأكابر . وهم يتبجَّحُون بمجاذَبة العِلْيَةِ . ألا تَرَى قول الآخر[٣] :

من عَهْدِ عادٍ كان معروفاً لنا أسْرُ الملوكِ وقَتْلُها وقِتالُها

وكما استعملوا الصُّدُورَ فى الأماثل والجِلّةِ استعملوا فى الأراذِلِ والسَّفِلَةِ الأعجازَ . وهذا كما قالوا : الرُّءوس والأذناب ، وكما قال :

* ومن يُسَوِّى بأنْفِ الناقةِ الذَّنَبا[٤] *

---

(١) للعجاج فى ديوانه ٥٢ — ٥٣ واللسان (خضم) . والهذ : سرعة القطع . وفى النسختين واللسان : « هذا » ، صوابه فى الديوان والتيمورية . وفى اللسان : « المختلا » تحريف .

(٢) البيت لعمرو بن قميئة . المعمرين ٦٢ ، ٨٩ ومعجم المرزبانى ٢٠٠ والخزانة (١ : ٣٣٨) . والمقاييس (٢ : ٣٠٦) . وفى الأصل : « وعشى بنات » ، صوابه فى م والتيمورية والمراجع السابقة :

(٣) هو بشامة بن حزن . انظر الحماسية ١٣٤ .

(٤) البيت من مشهور شعر الحطيئة . وصدره :

* قوم هم الأنف والأذناب غيرهم *

ويقال : أَلَوْتُ فى الأمرِ آلو ، أى قصّرتُ . وجَعَل التقصير للطَّعْنِ على المَجاز .

٥ — تَرَى الخَيْلَ على آثا رِ مُهْرِى فى السَّنَا العالى[١]

٦ — ولا تُبْقِى صُرُوفُ الدَّهْـرِ إنسـانًا على حالِ

قوله « على آثار مُهْرِى » موضِعُهُ نصبٌ على الحال ، والمعنى : تابعين لى . و « فى السَّنَا » فى موضِع المفعول الثانى لِتَرَى ، ومَعنى فى السَّنَا قال بعضهم : النُّورُ العالى : يُرِيد به بريقَ السِّلاح ، كأنهم يقدِّمونه ويتَّقُون به . وهذا مَعْنًى ، وأجْوَدُ منه وأعلى أن يكون المعنى : تَرَى الفُرسانَ إذا تَبِعَتْ أثَرِى ووطئت عَقِبِى ، فى مَجْدٍ عالٍ قاهرٍ ، له نورٌ يستضاء به . ويكون هـذا فى طريقة بيت الأعشى :

* كلٌّ سيَرْضَى بأن يُلْقَى له تَبَعًا[٢] *

وشَرْحُهُ بأنهم يَرْضَوْن برياستى عليهم ، ويَعُدُّون اتّباعهم لمراسمى ، واحتذاءهم لآثارى مما يَعْلو به سَنَاهُم ، ويَسْمو به عُلاهُم . وقوله « ولا تُبْقِى صُرُوفُ الدَّهْرِ » تَسْلِيَةٌ لنفسه فيما صار إليه من ضَعْفٍ بعد قوّةٍ ، وهَرَمٍ بعد شَبِيبَةٍ ، حتى رَضِىَ بأدْنَى المنزلتَيْن فى مُمارَسةِ الحَرْب ، ووقفَ عند أقْصَرِ السَّعْيَيْنِ فى مُلابَسةِ الضَّرْبِ والطَّعْنِ . وقولُه « على حال » فى موضع الصِّفَةِ لإنسانًا ، وتَعَلَّق عَلَى بمُضْمَر ، كأنّه قال : لا تُبْقِى حوادِثُ الدَّهْرِ إنْسانًا قائمًا أو ثابتًا على حالٍ ، بل تُبَدِّلُ وتُحَوِّلُ ، وكما تُعْطِى تَرْتَجِـعُ .

---

(١) التبريزى : « ويروى : فى الثبا العالى . والأصل العالية ، ولكن ذكره على اللفظ لأن ثبا مثل زلم ، وهى جمع ثبة وهى الجماعة . وقال بعضهم : الثبا ها هنا : مجالس الأشراف » .

(٢) صدره فى ديوان الأعشى ٨٦ :

* تلقى له سادة الأقوام تابعة *

٧ — تفتَّيْتُ بهَا إِذْ كَ ... رِهَ الشّكَّةَ أَمْثَالِى[1]

٨ — كَجَيْبِ الدِّفنسِ الوَرْهَا ... ءِ رِيعَتْ بَعْدَ إِجْفَالِ

الشّكّةُ : ما يُلْبَسُ من السّلاح ، وقد شَكَّ الرّجُلُ فى السلاح ، إذا لَبِسَهُ يَشُكُ شَكاً ، وهو شَاكٌّ . يقول : تكَلّفتُ بهذه الطَّعْنَةِ وإحداثِها فعْلَ الفِتْيانِ وأبلَيْتُ بها بلاء الشُّبّان ، فى وَقْتٍ يَكرَهُ فيه حَمْلَ السّلاح أمْثالِى من الرِّجال الشُّيوخ ، فكيف استعمالُهَا . ومِثْلُ تفَتّيْتُ : تَشَجَّعْتُ وتَكَيَّسْتُ . وقوله « كجيبِ الدِّفِنْس » شَبّهَ اتّساعَ الطَّعْنَةِ وسُرْعَةَ خروج الدّم منها باتّساع جيبِ المرأة الحمقاء ، ونَزْوِها فى رَوْعِهَا ، واضطرابِها فى متخرِّق قميصها . والدِّفْنِسُ : الحَمْقَاء . والوَرْهَاء : المتساقِطَةُ العقْل ، الضعيفة التّماسُك ، ومعنى ريعَتْ أُفْزِعَتْ بَعْدَ استعجالٍ فى العَدْوِ ، وإسراعٍ فى السّعْى . وخَصَّ جَيْبَ الوَرْهَاء لأنّ عَادَةَ مِثْلِهَا أن تُخرِجَ اليَدَ مِنْه ، فيتّسع [خرقه[2]] . وجعَلَها مُرَوَّعةً لتندَفِعَ فى الإجفال وتنزُوَ . والإجفَالُ والجَفْلُ واحِدٌ ، وكلُّ هاربٍ من شىء مُسْرِعٍ مُجْفِلٌ وجافِلٌ . ومنه جاء جُفَالَةٌ من الناس ، أى جماعةٌ كثيرةٌ مُسْرِعَةٌ . ويُشْبِه هذا قولَ الآخر[3] :

مُسْتَنّةٍ سَنَنَ الفَلُوِّ مُرِشّةٍ ... تَنْفِى التُّراب بقاحِزٍ مُعْرَورِف[4]

لأنّ نَزْوَ الدّمِ من الطَّعنةِ شَبّهَهُ هذا بنَزْوِ المُهرِ واستِنانِه ، كما شَبّهَهُ ذلك

---

(١) التبريزى : « ويروى : الشكة — أى بالفتح — وعنى بها طعنة انتظم بها رجلين على فرس فى حرب البسوس » .

(٢) التكملة من م والتيمورية .

(٣) هو أبو كبير الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١١٠) واللسان ، « رشش ، قحز ، عرف » .

(٤) فى الأصل : «مغرورق» ، صوابه فى م والتيمورية والمراجع السابقة .

بِعَدْوِ المجنونةِ عَنْ ذُعْرٍ . وقد سَلَكَ آخَرُ هذا المَسْلَكَ فقال فى معنى هذا ولفظه :

كجَيْبِ الدِّفْنِسِ الوَرْهَا ءِ رِيعَتْ وهى تَسْتَفْلِي(١)

ومَعْنَى تَسْتَفْلِي تَطْلُبُ فَلْيَ شَعَرِهَا ، وقد أَخْرَجَتْ يَدَهَا من جيبها فذُعِرَتْ فى تلك الحالة ، فلم تَصْبِرْ لتَرُدَّ اليَدَ إلى جَوْفِها ، ولم تَرْفُق بجَيْبِها فمَزَّقَتْهُ ووسَّعَتْهُ . وهذا كأنَّهُ لَمَّا قَصَدَ بيَانَ سَعَةِ الطَّعنةِ جعل التَّشبيهَ بالجَيْبِ فى حَالةِ إخْراجِ الحمقاء يَدَهَا منه مُسْتَفْلِيَةً ، فزادَ على الأَوَّل هذه الزِّيادة الغامضة المَأْخَذِ اللَّطيفةَ الموقِعِ ، وإن كان قَوْلُه « بَعْدَ إجْفَالِ » قد اختَصَّ بما اختَصَّ . ويُشْبِهُ هذا فى الزِّيادة على المعنى وقد استقرَّ قولَ امرئ القيس :

أَوْ تَيْسِ أَظْبٍ بِبَطْنِ وَادٍ يَعْدُو وقد أَفْرَدَ الغَزالُ

لأَنَّه زاد فيه إفرادَ الغَزال ، فدَلَّ على شِدَّة الخوف وخِفَّة العَدْوِ . فأما قولُ أَوْسٍ :

وفى صَدْرِهِ مِثْلُ جَيْبِ الفَتَا ةِ تَفْهَقُ حِينًا وحينًا تَهِرْ

فهُوَ وإنْ زادَ التقسيمُ قاصِرٌ عَنْهُما .

١٧٧

وقال رَبيعة بن مَقْرُومٍ(٢) :

١ — أَخُوكَ أَخُوكَ مَنْ يَدْنُو وتَرْجُو مَوَدَّتَهُ وَإِنْ دُعِيَ اسْتَجابَا

قولُه أَخُوكَ مبتدأً ، وكَرَّرَهُ على وجْهِ التأكيد(٣) ، ومن يَدْنُو فى موضع

(١) للفند الزمانى ، أو امرئ القيس بن عابس الكندى . اللسان (دفنس)

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية التاسعة .

(٣) ابن جنى : « وإن شئت جعلت الثانى خبراً عن الأول . . . ثم أبدل من يدنو وترجو مودته ، من أخوك الثانى » .

الخبر . ومعنى البيت : مخالصك فى الأخوة والود من يقرب مكانه منك[١] ، ويحسن شفقته عليك ، وتطمع فى إثمار وده لك ، وإن استغثت[٢] به لملمة تنزل ، أو نائبة تطرق ، أغاثك باذلاً مقدوره فى نصرته لك . ويجوز أن يكون قوله ، « من يدنو » أراد به قرب النصح والشفقة ، لا تقارب الدار والمسافة ، كما يقال فلان أدنى إليك من فلان .

٢ — إذا حاربت حارب من تعادى وزاد سلاحه منك اقترابا

يجوز أن يكون هذا الكلام متصلا بما قبله ، والضمير فى حارب لأخوك ، ومن تعادى فى موضع المفعول من حاربت ، ويكون المعنى : إذا حاربت من تعادى حارب هذا المواخى لك معك ، وزاد نصرته وعدته منك قربا ما دمت محاربا . ويجوز أن يكون منقطعا مما قبله ، ويكون مثلا مضروبا ، فيقول : إذا كاشفت عدوك وأبديت صفحة ما تضمره من السوء له بعثه ذلك على مكاشفتك ، وازداد عدته من الكيد وغيره منك دنوا . وإذا جاملته وداجيته بقى على ما ينطوى عليه مسارا لا مجاهرا .

٣ — وكنت إذا قرينى جاذبته حبالى مات أو تبع الجذابا

هذا مثل قول عمرو بن كلثوم :

متى نعقد قرينتنا بحبل نجذ الحبل أو نقص القرينا

وجعل الجذاب للحبال على المجاز . وقوله « أو تبع الجذاب » يريد أو انجذب وترك الطماح والإباء . ومعنى البيت : إذا جاذبنى قرين لى حبلا بينى وبينه ،

(١) نظر له التبريزى بقول الأعشى :

فإن القريب من يقرب نفسه لعمر أبيك الخير لا من تنسبا

(٢) م : « استعنت » .

فإمّا أنْ ينقطع دون شأْوِى فى الجِذاب فيهْلِكَ ، وإما أن يَتَّبِـعَ صاغرًا فينقادَ. وخبرُ كان فى إذا أو جَوابِه .

٤ — فإنْ أهْلِكْ فذِى حَنَقٍ لَظَاهُ عَلَىَّ يَكادُ يَلْتَهِبُ الْتِهابَا[1]

هذا الـكلامُ تَسَلٍّ عن العَيْش بعْدَ قضاء حاجَتِهِ ، وإدراك ثأره ، وإرغام عَدُوِّهِ ، ولولا ما تَيَسَّرَ له من ذلك وتَسَهَّلَ لـكان لا يَسهُلُ عليـه انقطاعُ العُمْرِ ، ولو مَاتَ مَاتَ بغُصَّةٍ . فيقول : إن أَمُتْ فرُبَّ رجلٍ ذى غيظٍ وغضبٍ تـكادُ نار عداوتِهِ تتوقّدُ توقُّدًا ، أنا فَعلْتُ به كذا . وقولُه « لظاهُ » فى موضع المبتـدأ ، و« يكاد يلتهِبُ » فى مَوْضِـعِ الخبَر ، والجملة فى موضِـع الصفة لذى حَنَقٍ ، والجرّ ذى حَنَقٍ بإضمار رُبَّ ، والمجرور برُبَّ يَقع موصوفًا فى الأكثر ، وجواب رُبَّ فيما بعده ، والفـاء من قوْلِهِ « فذِى حَنَقٍ » مع ما بَعْدَهُ جوابُ الجزاء . فإن قيلَ : إنّ الفاء فى جَوابِ الجزاء إنّما يجىء إذا خَالَفَ الجملةُ التى تكونُ جزاء الجملةَ التى تكون شرْطًا بأن تكون مبتدأً وخَبَراً ، فـكيف يكون تقديرُهما بعـد الفاء ها هنا ؟ قُلْتَ : يكون التقدير : إنْ أهْلِكْ فالأمْرُ والشّأنُ

---

(١) ابن جنى : « ذى مجرورة برب مضمرة ، أى فرب ذى حنق ، وحذفها للعلم بموضعها كقول الآخر :

رسم دار وقفت فى طلله كدت أقضى الغداة من جلله

أى رب رسم دار . وهذا يدفع قول أبى العباس أن الواو فى نحو قوله :

* وبلد تحسبه مكسوحا *

هى التى جرت بلد لما خلفت رب وكانت عوضاً منها . ألا ترى أنه قال : فذى حنق ، أى فرب ذى حنق . ولا يقول أحد إن الفاء عوض من رب . وكذلك قول الهذلى :

نحور قد لهوت بهن عين نواعم فى المروط وفى الرياط

وقال الآخر :

* بل بلد ملء الفجاج قتمه *

ولا أحد يدعى أن بل عوض من رب . فإذا صح هـذا وثبت فى الفاء وبل كانت الواو محمولة على حكمه » .

رُبَّ ذِى حَنَقٍ بهذه الصِّفَةِ فعلْتُ به كذا . فقوله « رُبَّ ذِى حَنَق » خبرٌ للمبتدأ الذى أظهرناه .

٥ — مَخَضتُ بِدَلْوِهِ حتَّى تحَسَّى ذَنُوبَ الشَّرِّ مَلْأَى أو قِرَابَا[1]

هذا جوابُ رُبَّ . فيقولُ : رُبَّ إنسانٍ هكذا ، أنا حرَّكْتُ بِدلوِه التى أدْلاها فى الأمْرِ الذى خُضْنا فيه ، حتَّى ملأتُها . وجعَلَ الدَّلْوَ كنايةً عن السَّبب الذى جاذَبَهُ فيه ، والطَّمَع الذى جرَّأه عليه ، قال : فتَحَسَّى دَلْوَ الشَّرِّ مملوءةً أو قريبةً من الامتلاء . وقُرابُ المَلْء : أن يُقارِبَ الامتلاء ، ويقال قِرابٌ بكسر القاف وقُرَابٌ بضمّها . والمعنى : جعَلْتُ شِرْبَهُ من الشَّرِّ شِرْباً مُرْوِيا .

وقد استعمل أبو تمَّام الدَّلْوَ على الطَّريقة التى استَعْمَلَها ربيعةُ فقال :

أَلْقَوْا دِلاَءً فى بُحُورِكَ أَسْلَمَتْ تَرِعَاتِها الأَكْرَابُ والأوذامُ[2]

واسْتَعْمَلَ غيره دَلَوْتُ فى معنى الاستخراج فقال :

(١) روى التبريزى بعده ثلاثة أبيات ، وهى :

٦ — بمِثْلِى فاشهَدِ النَّجوىَ وعالِنْ بىَ الأعداءَ والقومَ الغضابا

٧ — فإنَّ المُوعِدِىَّ يرونَ دونِى أُسودَ خَفِيَّـــةَ الغُلْبَ الرِّقَابا

٨ — كأنَّ على سواعِدِهنَّ وَرْساً عَلاَ لونَ الأشاجعِ أو خضـــابا

وقال فى تفسير الأول : « أى جاهر بمثلى الأعـداء وكاشفهم ليكفوا عنك ، فمثلى يصلح لدفع المكاره ، وكشف النوائب » . وقال فى تفسير الثانى : « يريد الغلب رقابا ، وانتصابه على التشبيه بالضارب الرجل » . وقال فى الثالث : « أى كأن على سواعد هذه الأسود الورس أو الخضاب ، من كثرة ما افترست الفرائس . والأشاجع : عروق ظاهر الـكف ، والواحد أشجع » .

(٢) الترعات : الممتلئات . وفى الأصل وديوان أبى تمام ٢٨١ : « نزعاتها » ، تحريف . وفى الأصل : « والأوذاما » ، صوابه فى م والتيمورية والديوان . والبيت من قصيدة له فى مدح المأمون ، مطلعها :

دمن ألم بها فقال ســلام كم حل عقدة صبره الإلمام

فقد جعلتُ إذا ما حاجتي نَزَلَتْ ... بباب دارك أَدْلُوها بأقوامِ[١]

فكأنّ المُراد أنّ هذا المُعادِيَ الممتلئ غيظاً لمّا أَلْقَى دَلْوَه يَسْتَقِي بها الماء من بِئْرِي مَلَأْتُها شرًّا وجعلتُه سُقْيَاه[٢].

١٧٨

وقال سَلْمَى بن رَبِيعَة[٣]:

١ — حَلَّتْ تُماضِرُ غَرْبَةً فاحْتَلَّتِ ... فَلْجًا وأَهْلُكَ باللِّوَى فالحِلَّتِ[٤]

تُماضِرُ: امرأتُه وكانت قد فارقَتْه عاتِبَةً عليه في استهلاكِه المال، وتعريضِه النَّفْسَ للمَعاطِب فلحِقَتْ بقومِها، وأَخَذَ هو يَتَلَهَّفُ عليها ويتحسَّرُ في أَثَرِها وأَثَرِ أولاده منها، فيقول: نَزَلَتْ هذه المرأةُ بعيدةً منكَ، فاحْتَلَّتْ فَلْجًا وأَهْلُكَ نازِلونَ بين هذين الموضعين. وهذا الكلام تَوَجُّعٌ. وفَلْجٌ على طريقِ البَصْرَةِ، والحِلَّة: مَوْضِعٌ من الحَزْنِ ببلاد ضَبَّة، واللِّوَى: رَمْلٌ متَّصِلٌ به

---

(١) البيت لهمام الرقاشي، كما في البيان (٢: ٣/٣١٦: ٢٠٢/٤: ٦٥) برواية: «حتى جعلت».

(٢) في الأصل: «أو جعلتها معناه»، صوابه في م والتيمورية.

(٣) سلمى، بفتح السين والميم، كذا في الأصل والتيمورية، وورد مهمل الضبط في م. وكذلك ضبطه القالي في الأمالي (١: ٨٢) وكذا ضبط في نوادر أبي زيد ١٢٠ قال: «وقال سلمان بن ربيعة الضبي، أو سلمى» قال أبو الحسن: «هكذا وقع في كتابي: سَلْمَى، وحفظي سُلْمِيّ». وقال البكري في اللآلي ٢٦٧: «هكذا رواه أبو علي: سَلمى، ولم يختلف الرواة أنه سُلْمِيّ. وهو سلمى بن ربيعة بن زبان بن عامر، من بني ضبة، شاعر جاهلي». التبريزي وابن جني في التنبيه: «من بني السيد بن ضبة». والأبيات في الخزانة (٣: ٤٠٢) ونوادر أبي زيد والأمالي. ونسبها الأصمعي في الأصمعيات ١٨ لعلباء بن أرقم. ويفهم من صنيع الجاحظ في الحيوان (٥: ٧٤) أنها لعمرو بن قميئة.

(٤) كذا رسمت بالتاء المبسوطة في الأصل والتبريزي ومعظم المراجع. وكتبت في م والتيمورية بالتاء المعقودة ورسم إلى جوارها تاء مبسوطة. وضبطت في م والنوادر والتنبيه لابن جني بكسر الحاء.

رَقيقٌ . و بين المواضع الذى ذَكَرها تباعُدٌ . إن قيل لِمَ قالَ حَلّتْ ، ثم قال احتَلّتْ ، وهلاّ اكتفى بأحدهما ؟ قُلْتَ : نبّهَ بالأول أنها اختارتِ البُعْدَ منْهُ والتغرُّب(١) عنه ، و بالثانى الاستقرار ، فكأنّهُ قالَ : نَزَلَتْ فى هذه الغَرْبَةِ فاستوطَنَتْ فَلَجًا . وفَلَجٌ بفتح اللام : مَوْضعٌ . وفَلْج بسكون اللام : ماءٌ .

٢ – وكأنّ فى العينَيْن حَبَّ قَرَنْفُلٍ أَوْ سُنْبُلاً كُحِلَتْ به فانْهَلّتِ

يقول : أَلِفتُ البكاء لتباعُدِها ، فساعدتِ العَيْنان وجادتا(٢) بإسالةِ دَمْعِهما غزيراً متحلّبا ، واكِفاً مُنْهمِلاً ، فكأنّ فى عَيْنَىَّ أَحَدَ هذين المهيِّجَيْن الحالبين للعيونِ . وقوله « كُحِلَتْ » إخبارٌ عن إحدى العَيْنَيْنِ ، وسَاغَ ذلكَ لما فى العِلْمِ من أنّ حالتَيْهما لا تفترقان . وعلى العَكْسِ من هذا قول امرئ القَيْس :

وعَيْنٌ لَهَا حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ شُقّتْ مآقيهما من أُخُرْ(٣)

لأن امرأ القيس وَحّدَ فى الابتداء ثم ثَنّى عند رَدّ الضّمير ، على أنّهُ متى اجتمع شيئان فى أمْرٍ لا يفترقان فيه اجتزِئ بذِكْرِ أحدِهما عن الآخَر . وفى طريقة هذا البيت قول ابن هَرْمة :

وكأنّما اشْتَمَلَتْ مَوَاقِى عَيْنِه يَوْمَ الفِراقِ على يَبِيسِ الحِمْخِمِ(٤)

٣ – زَعَمَتْ تُماضِرُ أنّنى إمّا أَمُتْ يَسْدُدْ أُبَيْنُوهَا الأَصَاغِرُ خَلّتى

زَعَمَ يتردّدُ بين الشّكّ واليقين ، وهاهنا يريدُ بِهِ الظّنّ . وأنّنِى مع الجزاء

(١) هذا الصواب من م والتيمورية . وفى الأصل : « والتقرب » .
(٢) فى الأصل : « وجالتا » ، صوابه فى م والتيمورية .
(٣) كذا فى النسخ ، على الخرم فى أول العجز . ورواية الديوان ١٦ والتبريزى : « فشقت » على الإتمام .
(٤) المواقى : جمع الماقى ، وهى لغة فى موق العين ، وهو حرفها الذى يلى الأنف . وفى م : « مآقى » وهذه جمع مؤق ومأق . اللسان (مأق) .

والجواب نائبٌ عن مفعولَيْه . يقول : ظَنَّتْ هذه المرأةُ أنَّهُ إن نزَل بى حادِث قضاء الله عزَّ وجلّ ، سَدَّ مكانى ورَمَّ ما يتشعَّثُ من حالِها بزَوالِى أبناؤها الأصاغِرُ . ويريد بهذا الكلام التوصُّلَ إلى الإبانة عن محَلِّه ، وأنه لا يُغنِى غَناءَهُ من النَّاسِ إلّا القليل . وقوْلُه « أُبَيْنُوها » تصغير أبناء مقصوراً عند أصحابنا البصريِّين[١] ، وهو اسمٌ صيغ للجَمْعِ كأرْوَى[٢] ، وأثْأَبٍ[٣] ، وأضْحًى[٤] فهو على أفْعَل بفتح العين . وعند الكوفيين هو تصغير أبْنٍ ، مِثْل أدْلٍ على أفْعُلٍ بضم العين . ويقال : سَدَّ فُلانٌ مَسدَّ فلانٍ ، وسَدَّ خَلَّتَه ، وناب مَنابَهُ ، وشَغَل [مكانَه[٥]] بمَعْنًى . فإن قيل : كيف سَاغَ أن يقول يَسْدُدْ خَلَّتِى ، وإذا مات لم تَكُنْ له خَلَّةٌ . قُلتَ : أضافها إلى نفسه لمّا كان يَسُدُّها أيّامَ حياته ، فكأنه قال : الخلّة التى كنت أسُدُّها . وهذا من إضافة الشَّىء إلى الشىء على المعتاد فيهما . ومثْلُه قولهم : شِهاب القَذْفِ ، فأضيفَ الشِّهاب إلى القَذْفِ لمَّا كان من رَمْى الرامى . ووجوهُ الإضافاتِ واسعةٌ كثيرة ، وكذلك متعلّقاتُها[٦] .

٤ — تَرِبَتْ يداكِ وهَلْ رأيتِ لقومِهِ مِثْلِى عَلَى يُسْرِى وحِينَ تَعِلَّتِى

أقبلَ عليها يوبِّخُها ويخطِّئُ رأيَها ، ويكذِّب ظَنَّها ، ويقبِّح اختيارها ، فى إفاتة نفسها الحظَّ منه ، ويدعو عليها بالفقْر والبأْساء ، والخيبة فى الرَّجاء ، فيقول :

(١) ابن جنى : « ذهب سيبويه إلى أن الواحد المكسر من هذا الجمع أبنى على وزن أفعل مفتوح العين ، بوزن أعمى ، ثم حقر فصار أبين كأعيم ، ثم جمع بالواو والنون » ، وساق بعد ذلك كلاماً مسهباً .

(٢) الأروى : اسم جمع للأروية ، وهى الأنثى من الوعول . قال ابن برى : « أروى تنون ولا تنون . فن نونها احتمل أن يكون أفعلا مثل أرنب ... وأما أروى فيمن لا ينون فوزنها فعلى » .

(٣) الأثأب : جمع أثأبة ، وهو ضرب من عظام الشجر .

(٤) أضحى هذه بالتنوين : جمع أضحاة ، وهى لغة فى الضحية .

(٥) التكملة من م والتيمورية .

(٦) وكذلك متعلقاتها ، ساقطة من م .

صار فى يَدِكَ التُّراب ، وهل رأيت لقومه مَن يُماثلنى فى حالَتَى السَّرّاء والضرّاء واليُسْر والعُسْر ، والغِنَى والفقْر ، حتَّى تُعلِّق منكِ رجاءكِ فِيَّ بغيرى إذا أخليْتُ مكانى . وتَرِب يُستعمل فى الفقر والخيبة لا غير ، وأتْرَب يُستعمل فى الغِنَى والفقر جميعاً ، فإذا أُريدَ به الغِنَى فالمعنى صار له من المال بِعَدَدِ التُراب ، وإذا أُريد به الفَقر فالمعنى صار فى التُراب ، كما يُقال أسْهَلَ إذا صارَ فى السَّهْلِ . وقد يجوز أن يكون مثل أقلّ ، والمعنَى : صار مالُكِ قليلاً من المالِ . وأضاقَ : صارَ فى حالِ ضِيقٍ . وقوله « حِين تَعلَّتِى » المعنَى وحينَ اعتَمدتُ على إقامة العلّة بحصول الفقر . وعلى هذا قوله :

* قليلُ ادّخارِ المالِ إلّا تَعِلّةً *

أى قَدْرَ ما يُقامُ به العِلّةُ . وقوله « لقَوْمِهِ » أضمر قبل الذّكْر ، لأنَّ الكلام يحتمل نِيّة التقديم ونيّة التأخير .

٥ – رَجُلاً إذا ما النائباتُ غَشِينَهُ أَكْفَى لمُعْضِلَةٍ وإنْ هِيَ جَلَّتِ

انتَصبَ « رَجُلاً » على أنه بدلٌ من مِثْلِى ، كأنه قال : هل رَأَيْتِ لقومِهِ رَجُلاً أكْفَى للشدائد وإن عَظُمَتْ عند طُروق النَّوائب وغِشْيان الحوادِث مِنّى . فحذفَ مِنّى لأنَّ المُراد مفهومٌ . ويُرْوَى « أكْفَى لمُعْضِلَةٍ » ، وهى الدّاهيةُ الشديدة ، يقال أعْضَلَ الأمْرُ إذا اشتدَّ . ويُرْوَى « لمُضْلِعَةٍ » وهى التى تَضُمُّ الأضلاعَ بالزّفَراتِ وتَنَفُّسِ الصُّعَداء حتّى تكادُ تَحْطِمُها .

٦ – ومُناخِ نازِلَةٍ كَفَيْتُ وفارِسٍ نَهِلَتْ قَنَاتِي من مَطاهُ وعَلَّتِ

أخذ يُعدِّدُ ما كانت كِفايتُهُ مقسومةً فيه ، ومصروفةً إليه . وقوله « ومُناخِ » مَصْدر أنختُ . وكَفَيْتُ يتعدَّى إلى مفعولين وقد حذفَهُما ، كأنَّه قال : كَفيتُه

العشيرة . يقولُ : وربَّ نازلةٍ أناخَتْ ، أنا دفَعْتُ الشرَّ فيها(١) ، وكَفَيْتُ قَوْمى الاهتمامَ بها ؛ وربَّ فارسٍ سقيتُ رمحى من دم ظهره العَلَلَ بعد النَّهل . وخصَّ الظَّهر ليُعْلَم أنه قد ولَّى وأدْبَرَ(٢) .

٧ — وإذا العَذارَى بالدُّخانِ تقنَّعَتْ واستَعْجلَتْ نَصْبَ القُدُورِ فَمَلَّتِ

أقْبَلَ يَعُدُّ خِصالَ الخيرِ المجموعَةَ فيه ، بعد أن نبَّهَ على أنه لا يقُومُ مَقامَهُ أحَدٌ ، فكيف من طَمِعَ(٣) فى نيابتِهِ عنه بعدهُ . والعذارى : جمع عَذْرَاء ، وأصلُه العَذارِىُّ بتشديد الياء ، فالياء الأولى مُبْدَلَةٌ من المَدَّةِ قَبْلَ الهمزة ، كما تُبْدَلُ فى سِرْبالٍ إذا قُلْتَ سرابيلُ ، فلما انقلبت المَدَّة ياءً لانكسار ما قبلها وكان الأصلُ فى همزة التأنيث ألفا عاد إلى أصْلِها لزوال الألف قبلها ، فأبْدِلَ مِنْهُ ياءً ثم أُدْغِمَ الأولى فى الثانية فقيل عذارِىُّ ، وكذلك فى صحراء صحارِىُّ ، ثم حُذِفَتْ إحدى الياءين تخفيفاً فقيل عَذارِى وصَحارِى ، ثم فرُّوا من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقَلَبَتْ ألِفاً فقيل عذارَى وصحارَى . ويقال : عَذَرَ المرأة وأعْذَرَها ، إذا ذَهب بعُذْرَتها ، وهو أبو عُذْرِها وأبو عُذْرَتِها . فيقول الشاعِرُ : وإذا أبكار النِّساء صَبَرَتْ على دُخانِ النّار حتّى صار كالقِناع لوجهها ، لتأثير البَرْد فيها ، ولم تَصبِرْ على إدراك القُدُور بعد تهيئتها ونَصْبها ، فَشَوَتْ فى المَلَّةِ قَدْرَ ما تُعَلِّلُ به نَفْسَها من اللحم ، لتمكُّنِ الحاجةِ والضُّرِّ منها ، ولإجداب الزَّمان واشتداد السَّنَةِ على أهلها أحسَنْتُ . وجوابُ إذا فى البيت بَعْدَه . وخَصَّ العَذارَى بالذِّكرِ لفرْط حيائهِنَّ وشِدَّةِ انقباضهن ، وانصوُنِهِنَّ عن كثيرٍ مما يَتَبذَّل فيه

(١) م والتيمورية : « أنا دفعت شرها » .
(٢) م والتيمورية : « أنه أدبر عنه وولى » .
(٣) م والتيمورية : « طمعت » .

غيرُهُنَّ . وجعل نَصْبَ القُدُورِ مفعول استَعْجَلَتْ على المجازِ والسَّعَةِ . ويجوز أن يكون المرادُ استعجلَتْ غيرَها بنصب القُدُورِ وفى نَصْبِها ، فحذف .

٨ – دارَتْ بأرزاقِ العُفاةِ مَغالِقٌ بِيَدَىَّ من قَمَعِ العِشارِ الجِلَّهِ

قولُه « أرزاق العُفَاة » كلامٌ شريفٌ ، وتقدير البيت : دارَتْ بيدىَّ مغالِقُ بأرزاق العُفاة من قَمَعِ العشار الجِلَّةِ ، فَفَصَلَ بالفاعِلِ بين الأرزاق وبَيْنَ من قَمَعِ العِشار . والعُفَاة : جمع العافِى ، والجمعُ على فُعَلَةٍ يختصُّ بالمُعْتَلِّ دون الصحيح . يقول : وإذا صارَ الزَّمانُ كذا دارَتِ القِداحُ فى المَيْسِرِ بيَدَىَّ لإقامة أرزاق الطُّلَّابِ من أسنِمَةِ النوقِ المَسانِّ الكبار الحوامل ، التى قَرُبَ عهدها بوضْع الحمل ، وكلُّ ذلك يُضَنُّ بها ، ويُتَنافَسُ فيها ، وإنما سُمِّيت القِداح مَغالِقَ لأن الجُزُرَ تَغْلَقُ عندها وتَهلِك بها . والقمع : قِطَعُ السَّنام ، الواحدةُ قَمَعَةٌ : والقَمِيعُ : ما فوق السَّناسِنِ من السَّنام . وبعيرٌ قَمِعٌ : عظيم القَمَع . ويقال سَنامٌ قَمِعٌ ، أى عَظِيمٌ قد تمكَّنَ فيه الشَّحْمُ . والعِشارُ : جَمْع عُشَراء ، وهى التى قد أتى عليها من حَمْلِها عَشَرَةُ أشهرٍ ، وتستصحِب هذا الاسم فتُسَمَّى به بعدَ وضعها الحملَ بأشهرٍ . كأنَّهُ نبَّهَ على أنه يعتبِطُ صِحاحَ الإبل وخِيارَها ، لا كسيرَها وهزلاها .

٩ – ولقد رَأَبْتُ ثَأَى العَشِيرَةِ بَيْنَها وكَفَيْتُ جانِيَها اللُّتَيَّا والَّتى

الثَّأَى : الفَسادُ . يقالُ ثَأَى الجُرْحُ يَثْأَى ثَأًى . والرَّأْبُ : الشَّعْبُ والإصلاح . يقول : وكما ظهرَ غَنائى فى تلك الأبواب فلقد سَعَيْتُ فى إصلاح ذات البَيْنِ من العَشِيرةِ ، ورَدِّ التعطُّف الذاهب عنها إليها ، ولَمِّ شَعَثِها ، وضَمِّ نَشَرِها ، وكَفَيْتُ مَنْ جَنَى منها الجنايةَ الصَّغيرةَ والكبيرة ، بالمال والنَّفس ، والجاهِ والعِزِّ . وقولُه « جانِيها » إن فتحْتَ الياء كان واحدًا وإن أدَّى معنى

الجمع ، وإن سَكَّنْتَ الياء جاز أن يكون جمعا سالما وأن يكونَ واحدًا قد حُذِفَ فتحتُها . وقولُه « اللَّتَيَّا » تصغير التى ، فجعلهما اسمين للكبيرة من الدّواهى والصغيرة ، ولهذا استغنيا عن الصِّلةِ وانتقلا عن كونهما مُوصَلتَيْن . ويذهبُ بعضُهم إلى أنّ صلتيهما محذوفتان لدلالة الحال عليهما .

١٠ — وصَفَحْتُ عن ذى جَهْلِها ورَفَدْتُها نُصْحى ولَمْ تُصِبِ العَشِيرةَ زَلّتى

١١ — وكَفَيْتُ مَوْلاىَ الأَحَمَّ جَرِيرَتى وحَبَسْتُ سائمتى على ذى الخَلّةِ

قوله « وصَفَحتُ عن ذى جَهْلِها » ، يصِفُ نفسَه بالحِلْم معهم ، وكَظْم الغيظ فيهم ، ومَنْع سُفهائهم . يقول : وعَفَوْتُ عن جاهِلِها فلم أُؤاخِذْهُ بما بَدَرَ منه من هَفْوةٍ أو زَلّةٍ ، ثم بَذَلْتُ نُصْحى لعشيرتى ، وحَسّنْتُ لهم عِشرَتى مِقدارَ جُهدِى ، ولم أُجَرَّ عليهم جَريرتى ، ولم أوسِعْهم زَلاّتى . وقد ألَمَّ فى هذا بقول الآخَر[1] :

* إذا المَرْءُ لم يحمِلْ على النَّفْسِ ضَيْمَها[2] *

وفى طريقته قول الآخَر :

ولو شاء قومى كان حِلْمِىَ فيهِمُ وكان على جُهّالِ أعدائهم جَهْلِى

وقوله « وكَفَيْتُ مَوْلاىَ الأحَمَّ جريرتى » ، أى لم يؤاخَذُوا بجرائرى ، بل كنتُ المُداوِى لها والخارجَ منها . ويروى : « الأحَمَّ إضاقَتى » فيكونُ مِثْلَ قولِ الآخَر[3] :

أَبُو مالِكٍ قاصِرٌ فَقْرَهُ على نفْسِهِ ومُشِيعٌ غِناهُ

(١) هو السموءل بن عاديا . الحماسية ١٥ .
(٢) عجزه : * فليس إلى حسن الثناء سبيل *
(٣) هو المتنخل الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ٣٠) .

والشاعرُ يقول : وكما لم يَشْمَل أباعِدَ ذوِىَّ ورَهْطِى زَلاَّتى ، كذلك لم يَنَلْ الأَدَانِىَ جِناياتى ؛ ثم إذا نِلْتُ خيرًا أشرَكْتُ ذوِى الحاجةِ منهم فيه ، وحَبَسْتُ مالى الرَّاعِيَـةَ عليهم ، حتى لا يَتميَّزُوا عنِّى فى التصرُّف والتناول . وقولُه « الأَحَمّ » ، يريد الأخصّ والأمسّ ، وهو أفعَلُ من الحميم ، ولهذا قال الشاعر وإن كان فى ضِدّ هذا المعْنَى :

* ومَوْلاكَ الأَحَمُّ لهُ سُعَارُ[1] *

أى لَهَبُ الجُوع ، ومنه قولهم : كيفَ السَّامَّةُ والحامَّةُ .

١٧٩

وقال أُبَىُّ بن رَبِيعةَ[2] :

١ — وخَيْلٍ تلافيْتُ رَيْعَانَها بِعِجْلِزَةٍ جَمْزَى المُدَّخَـرْ

رَيْعان كُلِّ شىْء : أوّلُه ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ فى الشَّباب والخَيل . والرَّيْعُ فَضْلُ كلّ شىء ، ومنه رَيعُ الحِنطة إذا زَكَتْ ، ورَيْعُ الدُّروع : فُضُولُ أكمامِها على الأنامِل . والعِجْلِزَةُ : الفرس الشديدة الخَلْقِ ، ورُبَّما وُصِفَتْ به النَّاقةُ . وبعضُهم يَحْكِي فيها : عَجْلَزَةٌ ، بفتح العين واللام . يقول : رُبَّ خيلٍ مُغِيرةٍ تَدارَكْتُ أوائِلَها طارِدًا للوَسَائِق ، وأنا على فرسٍ صُلْبَةٍ تَجْمِزُ فيما تَدَّخِرُ من جَرْيِها . ومن عادةِ عِتاق الخَيْل أن تُبْقِىَ من عَدْوِها بقيّةً لوقت الحاجة إليها ، فمتى استُحِثَّتْ بعد الكَدِّ والعمل أعطَتْها . ولذلك قال كَلْحَبَةُ العُرَيْنِىُّ :

---

(١) صدره فى اللسان (سعر) :

* تسمنها بأخثر حلبتيها *

(٢) التبريزى : « أبي بن سلمى بن ربيعة بن زبان الضبى » وقد سبقت ترجمة أبيه فى الحماسية السابقة .

فَأَدْرَكَ إبْقَاءَ العَرَادَةِ ظَلْعُها   وقَدْ جَعَلَتْنِي من حَزِيمَةَ إصْبَعَا[(١)]

فقوله إبقاء العرادة كقوله هاهنا « المُدَّخَرْ » . وجَمْزَى مِثْلُهُ وكَرَى وهو صِفَةٌ . وجَعَلَ الجَمْزَ لِمَذخورِ الجرْى على المجاز ، لأنَّ الجمْزَ ومَذْخُورَ الجرْى جميعا للفرس . والحقيقة أنها تَجْمِزُ فى مُدَّخَرِ الجرْى . وليس هذا كقولهم هو حَسَنُ الوجه ، وكريمُ الأب ، إذا كانَ الحُسْنُ والكَرَمُ فى الحقيقة للأبِ والوَجْهِ ، ولكن هو كما يُقالُ فُلَانٌ ثَبْتُ الغدرِ ، نَزِقُ المَجالِ ، قَمُوصُ الخبارِ ، وما أشْبَهَهُ .

٢ — جَمُومِ الجِراء إذَا عُوقِبَتْ   وإنْ نُوزِقَتْ بَرَّزَتْ بالحُضُرْ

يقال بِئْرٌ جَمُومٌ ، إذا كان ماؤها ينقطع ويعود سريعًا . ومعنى قوله « جَمُومِ الجِرَاء إذا عُوقِبَتْ » أى جَرْيُهُ يمتدُّ ولا ينقطع إن طُلِبَ عَقْبُها لمسابقتها[(٢)] فيه ، فكأنَّه لا آخِرَ لجَرْيِها ، كالبئر الجَمُوم . و « إن نُوزِقَتْ » أى إن غُولِبَتْ فيما يُسْتَنْزَقُ من سيرِها سَبَقَتْ بعَدْوِها . وكما سُمِّىَ آخرُ الجرْى العَقْبَ سُمِّىَ آخرُ الشهر به ، فقيل جئْتُ فى عُقُبِ الشَّهر ، إذا جئْتَ بعد ما مَضَى ، وجئْتَ فى عَقْبِه وعَقِبِه ، إذا جئْتَ وقد بَقِيَتْ منه بقيَّةٌ . ويُقالُ : عاقبْتُ الفرَسَ ونازَقْتُهُ ، كما يُقالُ طاوَلْتُ زَيْدًا وفاضَلْتُهُ ، وذلك إذا غالَبْتَهُ فى الطَّوْلِ والفَضْلِ . ومعنى بَرَّزَتْ : تقدَّمَتْ . والحُضْرُ : العَدْوُ . ويُرْوَى « عُوفِيَتْ[(٣)] » أى إنْ طُلِبَ عَفْوُها ، وليس بجَيِّدٍ . ألا تَرَى أنه قيل : « أوَّلُ الجرْى نَزْقَةٌ ، وآخِرُهُ عَقْبَةٌ » .

---

(١) فى الأصل : « من جرعة » صوابه فى م والتيمورية والمفضليات (١ : ٣٠) .

(٢) م : والتيمورية « بمسابقتها » .

(٣) لم يذكر التبريزى هذه الرواية .

٣ — سَبُوحٍ إذا اعتزمَتْ في العِنانِ مَرُوحٍ مُلَمْلَمَةٍ كالحجرْ[١]

أراد بها أنها تَسْبَحُ في جريها إذا اعتزمَتْ في العِنانِ، أي انتحَتْ في العَدْوِ وهي مُلْجَمَةٌ كثيرة النَّشاط، مجتمعةُ الخَلْقِ صُلْبَةٌ كأنها حَجَرٌ. والاعتزام: لُزُوم القَصْدِ في الحُضْرِ وغيره وتَرْكُ الانثناء. وقد اعتزَمْتُ الطريق. ويقال اعْتزَمَ الفرَسُ على الجَرْيِ إذا مَرَّ جامحاً. وقولُهُ «في العِنان» في موضع الحال، كما يُقال: جاء فُلانٌ في جُبَّةٍ، أي وعليه جُبَّةٌ. واللَّمْلَمَةُ: جَمْعُكَ الشيء، وهو مِثْل اللَّمِّ في المعنى وإن لم يَكُنْ من لفظِهِ عندنا. ورواه بَعْضُهُم «إذا اعترمَتْ[٢]» بالراء غير مُعْجَمةٍ، وجعَلَهُ من العُرَام؛ وليس بشيء.

٤ — دُفِعْنَ على نَعَمٍ بالبِرَا قِ مِنْ حَيْثُ أَفْضَى به ذُو شَمِرْ

هذا جَوَابُ رُبَّ إذا جَعَلْتَ قوله «تَلَافَيْتُ رَيْعَانَها» من صِفَةِ «وخَيْلٍ» حَمْلاً على ما يجيء عليه المجرور بِرُبَّ في الأكثر، من لُزُوم الوَصْفِ له؛ وقد جاء غير موصوفٍ وإنْ قَلَّ. وعلى هذا يكون تلافَيْتُ الجوابَ ودُفِعْنَ من صِفَةِ الخَيْلِ. والمعنى دُفِعَتْ هذه الخيلُ وأُرسِلَتْ على إبلٍ واقفةٍ بالبِرَاق من حيث أدّاهُ إلى الفضاء ذُو شَمِرٍ، وهو مكانٌ[٣]. قولُه «أفْضَى به» الضميرُ للنَّعَم، وهو يُذَكَّرُ، يُقال هذا نَعَمٌ واردٌ. والبِرَاق: جمع بُرْقَةٍ، وهو موضع فيه حجارةٌ بيضٌ وسُودٌ؛ ومثلُه جَبَلٌ أَبْرَق. أي لمَّا حَصَل بالفضاء تُلُقِّيَتْ[٤] بالخَيْل وشُنَّتِ الغَارة عليه.

(١) ضبطت الكلمات بالرفع في الأصل على القطع، وبالجر على الإتباع في م والتيمورية.
(٢) رواية التبريزي: «إذا اعترضت».
(٣) ذكره البكري في معجم ما استعجم. وروى البيت وأخطأ في نسبته إلى سلمى ابن ربيعة.
(٤) كذا في النسختين. وفي التيمورية: «فلقيت».

٥ — فَلَوْ طَارَ ذُو حَافِرٍ قَبْلَها لَطَارَتْ ولكِنَّهُ لم يَطِرْ

رَجَعَ إلى صِفَةِ الفرس لمّا رَكَضها فى إثرِ الخيلِ المُغِيرةِ على النَّعَم الذى وصَفَه ، يقول : لو أنَّ ذوات الحوافر[١] جُعِل فى قدرتِها الطَّيرانُ بآلةٍ تَخُصُّها لطارتْ هذه الفرس ، وكانت الأَوْلَى بذلك ، لما فيها من النَّجابة والعِتق ، ولكنَّ الطَّيَرانَ خُصَّ به ذو الجَناح .

٦ — فمَا سَوْذَنِيقٌ على مَرْبَإٍ خَفيفُ الفُؤادِ حَدِيدُ النَّظَرْ

٧ — رأَى أَرْنَبًا سَنَحَتْ بالفضاء فبادرَها وَلَجاتِ الخَمَرْ

يقولُ : ما شاهِينٌ واقِعٌ على مَحْرَسَةٍ ذَكِىٌّ شَهْمُ النَّفس ، بعيدُ النَّظر حَدِيدُ العَيْن ، سريعُ الإِدْراك ، رأى أَرْنبًا سَنَحَتْ . ومعنى سَنَحَتْ عَرَضَتْ ، يُقالُ منه سَنَحَت الحاجةُ . والأَرْنَبُ : الأُنْثَى من الأرانِب . والذَّكَرُ خُزَزٌ . والكلام بعدُ مشغولٌ بصفة السَّوْذَنِيقِ . أى رأى أرنبًا انفقَتْ بالعَراء واعترضَتْ فسابقها إلى مَداخِلِ الخَمَر ، ثم رَجَع عليها فى طريقِها لئلّا تفوتَهُ — بأسْرعَ من فَرَسِى . والوَلَجاتُ : جَمْعُ وَلَجَةٍ ، وهى موضِع الوُلُوج ، وموضِع ولجاتِ نَصْبٌ على أن يكونَ مفعولَ بادرَها . والخَمَر : ماوَارَاكَ من الشَّجَر[٢] . ويقال : بادرْتُ مَكانَ كَذَا ، وإلى مَكانِ كذا .

٨ — بأَسْرَعَ مِنْهَا ولا مِنْزَعٌ يُقَمِّصُهُ رَكْضُهُ بالوَتَرْ

قولُه « بأسْرَعَ » خبرُ « ما » . يقولُ : ما سَوْذَنِيقٌ هذا وصفُه بأسرعَ من فَرَسِى ، ولا سَهْمٌ يَنْزِيه رَكْضُ الوَتَرِ به . والمِنْزَعُ : السَّهْمُ . ويقالُ : نَزَعْتُ فى القوسِ نَزْعًا ، وانتزعْتُ له بِمِنْزَعٍ ، ونَزَعْتُ ، أى بسَهْمٍ . وفى المَثَلِ :

(١) فى الأصل : « الجناح » صوابه فى م . وفى التيمورية : « الحافر » .
(٢) م والتيمورية : « من شجر » .

« عادَ السَّهْمُ إلى النَّزَعَةِ » فى معنى رجعَ الحقُّ إلى أهْلِهِ . ويُقمِّصُ ، أى يُحرِّكُ . ويُقالُ قَمَصَ البَحْرُ بالسفينة ، إذا حرَّكها بالمَوْج ، حتَّى كأنَّها بعيرٌ يَقْمِصُ . قال :

* يُقمِّصُ بالبُوصِيِّ مُعْرَوْرِفٌ وَرْدُ[1] *

وإنما جَعَلَ الرَّكْضَ للوَتَرِ لأنه هو الذى يَزُجُّ بالسَّهم ويَدْفعُه ، فكأنَّه يرْكُضُه[2] ، وهذا يُشْبِهُ القَلْبَ ، لأنَّ الرَّكْضَ للوَتَرِ وقد جعلَه للسَّهم ، فهو كقولِ الآخَرِ :

* ما أَمْسَكَ الحَبْلَ حافِرُهْ *

وما أشْبَهَهُ . ويُمْكِنُ أن يُتْرَكَ على ظاهِرِه ، فيجعل السَّهْمَ راكِضاً من حيثُ كان راكِباً للوَتَر . والرَّكْض : تحريك الفارسِ رِجلَيه على الفرَس عند الاستحْثاثِ ، وإذا كان كذلك فكأنَّ السهمَ هو الذى يَرْكُضُ الوتَرَ وإن كان الحفْزُ للوتَر .

١٨٠

وقال زَيْدُ الفوارِسِ[3] :

١ — تَأَلَّى ابنُ أَوْسٍ حَلْفَةً لِيَرُدَّنى عَلَى نِسْوَةٍ كأنَّهُنَّ مَفائِدُ

(١) للحطيئة فى ديوانه ١٩ . وصدره :

* وهند أتى من دونها ذو غوارب *

(٢) هذا الصواب من م والتيمورية . وفى الأصل : « يرفضه » .

(٣) شاعر جاهلى . وهو زيد الفوارس بن حصين بن ضرار الضبى ، كما هو عند التبريزى . ذكره الآمدى فى المؤتلف ، ولم يرفع نسبه . وله ذكر فى يوم بزاخة ، وشهد يوم القرنتين ومعه ثمانية عشر من ولده يقاتلون معه وهو فارسهم ، ولهذا قيل له زيد الفوارس ، وكان يقال له أيضاً « فارس الرباب » ، ويقال له « الرديم » أيضاً ، لأنه كان إذا وقف فى الحرب ردم ناحيته ، أى سدها . انظر الخزانة (١ : ٥١٧) وبلوغ الأرب للآلوسى (٢ : ١٣٧ — ١٣٨ ، ١٨٩) .

آلَى الرَّجُل وائتَلَى وتَألَّى بمعْنًى واحد . وهذه الأبنية من الأَلِيَّةِ ، وهى اليمين . و « حَلْفَةً » انتصبَ على أنه مَصْدَرٌ من غير لَفْظِهِ . وقولُهُ « لَيَرُدُّنِى » يُروَى بفتح اللامِ وضمِّ الدَّالِ ، على أن يَكُونَ اللامُ لامَ اليمين . وذكر سيبويْهِ أنّ لامَ القَسَمِ يَلْزَمُهَا إحْدَى النونين الثقيلة أو الخفيفة ، وقال أيضًا : وقد يُحذَفُ النُّونُ فى الشِّعْرِ . وهذا المَوْضِعُ بالروايةِ الثانية جاء على ما سوّغه . وقد جاء أعْجَبُ من هـذا وأبْعَدُ فى الاستعمال ، وهى حَذْفُ اللامِ وإثبات النون . قال :

وقَتيلَ مُرَّةَ أثأرَنَّ فإنهُ فِرْغٌ وإنّ أخاهُمُ لم يُقْصَدِ (١)

والمفائد : جمع المِفْأَد ، وهى المَساعير والسَّفافيدُ . والفَأْدُ فى اللغةِ : التحريك ، وقيل إنّ الفؤادَ منه اشتُقَّ ، لأنه يَنبِضُ . ومعنى البيت : حَلَفَ الرجُلُ حَلْفَةً ليأسِرَنَّنِى ثم يَمُنَّ علىَّ فيَرُدُّنِى على نِسْوَةٍ كأنهنَّ مساعير ، لاحتراقهن وَجْدًا بى وغمًّا علىَّ ، ففعلْتُ أنا به مِثْلَ ماهمَّ به فِىَّ . وقد قيل : إنّ ابن أَوْسٍ كان مأسورًا فحلَفَ أنه يُنجّيه زَيْدُ الفوارِسِ ويَفُكُّ أَسْرَه ، ويَرُدُّه على نِساءٍ هُنَّ من الوَجْدِ به بهذا المَحَلِّ ، فاقتصَّ ابنُ أوْسٍ قِصَّتَه فيما كان يرجوه من جِهَتِه . ثم ذكر أنه كان عنـد الظنِّ به ، وأنه حقَّق أمَلَهُ . ويمكن الاستشهادُ للخبرَيْنِ والمعنيَيْن على اختلافهما مما يَشْتمِلُ عليه الأبياتُ التى بعدَهُ . وقد قيل فى الوَجْهِ الأوّل أنه أرادَ بالنِّسوةِ حُرَمَ ابنِ أوسٍ ، وأنه شَبّهَهُنَّ بالسفافيد لسوء أحوالِهِنَّ ، وتأثير الضُرِّ والجَهْدِ فيهن ، وعلى هـذا يكون هَجْوًا وتعييرًا لابن أوْسٍ ، وأنّ أهْلَهُ وأولادَهُ من الفقرِ بهذا المَحَلِّ . فأمّا من رَوَى « لِيَرُدَّنى » فالمعنى حَلَفَ

(١) البيت لعامر بن الطفيل فى ديوانه ١٤٥ ، وهو من شواهد الخزانة (٤ : ٢١٦) . وقتيل ، يروى بالأوجه الثلاثة . وقتيل مرة هو أخوه حنظلة بن الطفيل ، كما فى شرح الديوان . ويروى « فرع » بفتح الفاء وآخره عين مهملة .

لهذا الأمر، وجوابُ القَسَم يكون محذوفاً مقدَّرًا، ويُستدَلُّ عليه بما ذكَرَهُ. وقال بعض المتقدِّمين: تقولُ حَلَفَ ليَفعَلَنَّ، فإذا حَذَفْتَ النون كسَرْتَ اللام وأعمَلْتَها إعمالَ لام كَيْ، والموْضِعُ موْضِعُ القَسَم والمعنى مَعْناه. وأنشدَ:

إذا قُلْتُ قَدْنِي قال بالله حَلْفَةً ... لِتُغْنِيَ عَنِّي ذا إنائِكَ أجْمَعا(١)

وقيل مِثل تألَّى ليرُدَّنِّى: أرادَ ليفعَلَ كذا. وفى القرآن: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾، كأنَّ الفِعْلَ دَلَّ على المَصْدَر، واللام مع الاسم المجرور به فى موضِعِ الخبَر لذلك المصدَر المبتدإ، كأنه إرادتى كذا.

٢ — قَصَرْتُ له مِنْ صَدْرِ شَوْلَةَ إنَّمَا ... يُنَجِّى من الموْتِ الكَرِيمُ المُناجِدُ

أخذ يَذْكُرُ أنه كَذَبَ نفسَه فيما حَدَّثَها به، وأنه استعمَلَ البَغْىَ فنُصِرَ عليه، فقال: قَصَرْتُ عليه فرَمِى شَوْلةَ وأسَرْتُه، لأنَّ الكريمَ يُنجِّى نفسَه، ويُنْهِضُ حِيلتَهُ إذا جَدَّ جِدُّهُ(٢) وكاد عَدُوُّه يَغلِبُه وتعلو عليه يدُهُ. هذا إذا جعلت ابن أوْسٍ هو الذى حَدَّثَ نفْسَه وأكَّدَ طَمَعَه ويمينَهُ بأنه سيَأْسِرُ الشاعرُ. فأمّا إذا جعلْتَ ابن أوْسٍ أسيراً وراجيًا أنه سيفُكُّ زَيْدُ الفوارسِ إسارَهُ، ويَحُلُّ عِقاله، فالمعنى فى «قَصَرْتُ له من صَدْرِ شَوْلَةَ» أنه بيَّنَ كيف حقَّقَ رجاءَه، ومن أين يوصَلُ إلى تخليصه. وفى قوله «إنما يُنَجِّى من الموْتِ الكريمُ» أنه خَلَّصَ نفسَه لمّا علَّقَ الرَّجاء به، وجعَل يَحلِفُ أنَّ خَلاصَهُ بسَعْيِه وتعطُّفِه، لأنه بعَثَه ذلك على أن يكون عند ظنِّه به.

٣ — دَعَانِي ابْنُ مَرْهُوبٍ عَلَى شَنْءِ بَيْنِنَا ... فَقُلْتُ له إنَّ الرِّماحَ مَصَايِدُ

حوَّل كلامَهُ إلى قِصَّةٍ أُخْرَى فقال: استغاثَ بى هذا الرَّجُلُ على ما بيننا من عَداوةٍ وبَغْضاء، فأجَبْتُهُ بعد أن هَوَّنْتُ عليه ما خافَهُ أوَّلاً، وصَغَّرْتُ فى

(١) من قصيدة لحريث بن عناب، فى مجالس ثعلب ٦٠٤ — ٦٠٧، والخزانة (٤: ٥٨٣).
(٢) فى الأصل: «جاء جده»، صوابه فى م والتيمورية.

هاجِسِه ما أَكبرَهُ ثانياً ، وبيَّنتُ أن الرِّماحَ حبائلُ الرِّجال الكِرام فى الحَرْبِ ومصايِدُهُم ، فلا تبالِ بالمَوْتِ إذا كانَ على وجْهٍ لا يتعقَّبُهُ عارٌ ، ولا يصحَبُهُ هوان . وكما جعَلَ هذا الشاعر الرُّمْحَ آلةً فى صَيْدِ الأبطالِ ، جعَلَ غيرُهُ الصَّيْدَ له لا به ، فقال :

وإنِّى لَمِنْ قَوْمٍ تَصيد رِماحُهُمْ غَداةَ الصَّباح ذا الحُدُورةِ والخَرْدِ

وقوله « على شَنْءٍ بَيْنِنا » فى موضع الحال ، يقال شَنِئْتُهُ أَشْنَؤُهُ شَنْئاً ومَشْنَأَةً وشَنَآنا .

٤ – وقُلتُ لَهُ كُنْ عن شِمالِى فإنَّنى سأَكْفِيكَ إنْ ذادَ المَنِيَّةَ ذائِدُ

يقول : تَعَطَّفْتُ عليه وأَخَذْتُ بالفضل مَعَهُ بعد استنصاره ، وإظْهارِ حاجَتِهِ وإذْعانِهِ ، ورسمْتُ له الكَوْنَ فى الجانب الأيسرِ مِنِّى ، واثِقاً بحسنِ مُحافظتى ، وجميل مُدافعتى ، ومُعْتَمِداً من جهتى على أنى سأَكفيه المحذورَ إن دَفَعَ الموتَ دافعٌ . والمُرادُ : إنْ فعَلَ أحدٌ من الناسِ ما لا يُطاقُ من دفع المحتومِ فعلتُهُ أنا مَعَكَ ، اعتناءً بأمْرِكَ ، وإيثاراً لصيانتك ، وتحرِّياً للمحاماةِ عليكَ . وإنما قال « كُنْ عن شِمالِى » لأنه موضعُ المُعانِ المَنْصُورِ ، واليمينُ مَوْضِعُ النَّاصِرِ . يقالُ : أنا على يمينك وعن يمينك ، أىْ ناصِرُك .

١٨١

وقال الوَقَّادُ بْنُ المُنْذِرِ (١) :

١ – لقَدْ عَلِمَتْ عَوْذٌ وبُهْثَةُ أنَّنى بِوادِى حُمامٍ لا أُحاوِلُ مَغْنَما

(١) كذا فى النسخ . وعند التبريزى وابن جنى : « الرُّقاد بن المنذر بن ضرار الضبى » . قال ابن جنى : « هذا فى الأصل مصدر رقد يرقد رقاداً ، ودخول اللام عليه وهو علم يمكن فيه حال الصفة كالحارث والطفيل . وهذا إنما هو على جريان المصدر صفة نحو قولهم هذا رجل رقاد ، أى راقد ، كقولهم هذا رجل عدل ، أى عادل » . والظاهر أنه شاعر جاهلى .

بُهْثَةُ من سُلَيْمٍ ، بَطْنٌ مِنهم ، والبُهْثَةُ فى اللغةِ : وَلَدُ البَغِيِّ . والبَهْثُ البِشْرُ وحُسْنُ اللِّقاء . والحُمامُ ، بضمّ الحاء : حُمَّى الإبل والدَّواب . وفى طريقةِ هذا البيت قولُ عنترة :

يُخبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقيعَـةَ أنَّنى أَغْشَى الوَغَى وأَعِفُّ عِند المَغْنَمِ

المعنى : واللهِ قد عَلِمَ هاتانِ القبيلتان أنى فى هذه الوَقْعةِ الواقِعةِ بهذا الوادِى لم أشتَغِلْ باجترار المَنافع(١) ، واحتِواء المغانِم ، وإنما قَصَرتُ سعيى على طَلَب الثّار ، وإدراكِ الأوتار .

٢ — ولكنَّ أصحابِى الَّذِينَ لَقِيتُهُمْ تَعادَوْا سِراعًا واتَّقَوْا بابن أَزْنَما

أرادَ بالأصحاب من لاقاهُ من الأعْداء . ومعنى تعادَوْا سِراعًا : تبادَرُوا مُسْرِعِين وتسابَقُوا ، وهذا من العَدْوِ . ويجوز أن يكونَ من عادَى بَيْنَهما ، أى وَالَى ، فيكون المعنى تَوالَوْا . ومن هذا قولهم : تعادَى القومُ ، أى مات بعضُهم فى إثرِ البعضِ . وقوله « واتقَوا بابن أَزْنَما » ، يريدُ جَعَلُوهُ بيْنِى وبينَهُم ، وهذا الرجل الذى استَجَنُّوا به كأنّه كانَ مِدْرَةَ الكتيبة . وإنّما ثَبَتَ فى وجهِ القومِ يشْغَلُهم ليَسْلَمَ أصحابه ، ويأخُذُوا المُهْلَةَ فى الفِرار . وفى الحديث : « كُنّا إذا احمرَّ البَأْسُ اتَّقَيْنا برَسُولِ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّمَ » .

٣ — فرَكَّبْتُ فيه إذْ عَرَفْتُ مَكانَهُ بمُنْقَطَعِ الطَّرْفاء لَدْنًا مُقَوَّمَا

يقول : طعنتُهُ لَمَّا عرَفْتُ مَحلَّهُ من أصحابِه ، وموضِعَهُ من البَلاء والمُحاماةِ فيهم ، برمحٍ لَيِّنٍ مُثَقَّفٍ ، عند مُنقطَعِ الطَّرْفاء . والطَّرْفاء : شجرٌ . ومُنْقطَعُه : المكان الذى يَخْلُو منه على اتِّصالِه بمنابته . وقال الأصمعىُّ : واحِدُ الطَّرفاء طَرَفَةٌ

(١) فى الأصل : « باحتراز » ، صوابه فى م والتيمورية .

كقَصَبةٍ وقَصْباء . والباء من قولِه « بمنقطِع » يتعلّقُ بقولِه « رَكَبْتُ » على ما فسَّرْناهُ . وكان لا يمتنع أن يكون معنَى قولِهِ عَرَفْتُ مكانَهُ ، عرفْتُ مَوضِعَهُ ومَقامَهُ ، لأنَّ الرئيس يُخْفِي مكانَهُ ويُخْمِل نفسه كثيرا ، وحينئذٍ يتعلّقُ الباء من قولِهِ بمنقطَعِ الطَّرْفاء بقولِهِ مكانَهُ ، ولكنَّ قولَهُ « واتقَوْا بابن أزْنما » يأْبَى إلَّا القوْلَ الأوَّل .

٤— وَلَوْ أَنَّ رُمْحِي لم يَخُنِّي انْكِسارُهُ جَعَلْتُ لَهُ من صَالِحِي القَوْمِ توْءَمَا[1]

نِسْبَةُ الخيانة إلى الرُّمْحِ لَمَّا انكسر كَنِسْبةِ العَجْزِ إلى الحبلِ إذا لم يَصِلْ ، من قوْلِهِمْ حَبْلٌ عاجِزٌ . والتَّوْءَمُ ، زِنَتُهُ فَوْعَلٌ ، واشتقاقه من الوَأْمِ ، والتاء فيه مبدلَةٌ من الواو ، وكأنَّ الوَلَد واءَمَ فى الإتيان غيرَه ، أى وافق . وكما توسَّعوا فيه ها هنا فأُخرِج إلى باب غير باب الولد والوِلادة ، تُوُسِّعَ فيه فى قوله :

قالت لنا ودمْعُها تُؤَامُ كالدُّرِّ إذْ أَسْلَمَهُ النِّظامُ[2]

وقد أحكمتُ القولَ فيه وفى تصريفه وجَمْعِهِ فى شَرْحِ كتاب الفَصيح .

فيقول : لولا أنَّ رُمْحِي خانَنِي حين أَعْمَلْتُه فى هذا الرَّجُل فانكسر ، لجعلتُ له نَظِيرًا من أشرافِ القَوْمِ وزُعمائِهم حتَّى يصير معه كتَوْءَمَيْنِ . وخَصَّ الصَّالحينَ منهم لأنهم يتبجَّحُون بقتل الملوك والرُّؤساء . فإن قيل : لِمَ ذَمَّ الإجْرارَ فى الطَّعْنِ وهم يحمدونَهُ حتَّى عَدَّ انكسارَ الرُّمْحِ خيانةً منه ؟ قالَ : الإجرار فِعْل الطاعن ، وهو محمودٌ ، وإنما ذَمَّ من الرُّمْحِ ضَعْفَهُ وقِلَّةَ ثباتِه فى العمل ؛ وليس ذلك من الإجْرارِ فى شىء .

---

(١) التبريزى : « من صالح القوم » .

(٢) الرجز فى إصلاح المنطق ٣٤٥ واللسان (تأم) بدون نسبة .

٥ — ولَوْ أنَّ فى يُمْنَى الكَتِيبَةِ شِدَّتى إذَا قامَت العَوْجَاء تبْعَثُ مأْتَما

كأنّه خَفِىَ عليه مكانُ واتِرِه فلم يعلَم أهو فى المَيْمَنةِ أم فى المَيْسَرَة ، فأخَذَ يتلهَّفُ على ما فاتَهُ منه . والشِّدَّةُ : الحمْلَة ، فيقول : لو اتفقتْ حَمْلَتِى فى يُمْناها بدَلًا من يُسْرَاها ، لقامَتْ أمُّهُ وقد ثَكِلَتْهُ تَهِيجُ المأْتَم ، وتبْعَثُ على النَّوْحِ عليه النَّوائح ، ولَكِنْ ذَهابُ مَقامِه عن عِلْمِى هو الذى نَجَّاهُ مِنِّى . وجعَلَها عَوْجاء إمّا على طريق السَّبِّ ، كما قال :

كَمْ عَمَّةٍ لكَ يا جَرِيرُ وخالَةٍ فَدْعاءَ قد حَلَبَتْ علىَّ عِشَارِى (١)

فيكون العَوَجُ فى تِلك لتفاوُت خِلْقَتِها ، وزوالها عن سَنَنِ الاستقامة ، كالفَدَعِ فى هَذِه . و إما أن يكونَ أراد أنها مَضرُورةٌ مَجْهُودةٌ مُعْوَجَّةُ الوَجْهِ ، مهزولةٌ . و إمَّا أن يكونَ العَوْجاء لَقَبًا لهَا ، والمأْتَم : أصْلُهُ فى الضمِّ والجَمْع .

١٨٢

وقال أيضًا :

١ — إذا المُهْرَةُ الشَّقْراءُ أُرْكِبَ ظَهْرُها فَشَبَّ الإلٰهُ الحرْبَ بينَ القبائلِ

رُوِى « أُرْكِبَ ظَهْرُها » . ويقال أرْكَبَ المُهْرُ ، إذا حان أن يُرْكَبَ واسْتَصْلِحَ للإسراج والإلجام . وجَعَلَ الفِعلَ للظَّهرِ على التَّوَسُّع إذْ كانَ موضعَ الرُّكوبِ ، ويكونُ أُرْكِبَ كما يُقالُ أجَزَّ الخضرُ ، وأحْصَدَ الزَّرْعُ . ويُرْوَى : « أدْرَكَ ظَهْرُها » والمَعْنَى بَلَغَ حَدَّ الرُّكوبِ والانتفاع به ، وهذا كما يُقالُ أدْرَكَ الثَّمرُ ، إذا أمْكَنَ الانتفاعُ به . فيقولُ : إذا بَلَغَ فرَسِى هذا الحدَّ فهَيَّجَ اللهُ نارَ الحرب ، وأقامَ سُوقَ التَّغاوُر بين القبائلِ ، حتّى أتوصَّلَ بها إلى ما كنتُ

(١) البيت للفرزدق يهجو جريراً ، فى ديوانه ٤٥١ .

أُرِيدُه وأنتَظِرُه . وارتفاعُ المُهْرَةِ بفِعْلٍ مُضْمَرٍ بعد إذا ، يكونُ الظاهرُ تفسيرَهُ .

٢ — وَأَوْقَدَ ناراً بينهم بِضِرَامِهَا لَهَا وَهَجٌ للمُصْطَلِي غيرُ طائِلِ

هذا من جملة الدُّعاء . والكلامُ يَدُلُّ على استعجالِه بحصول الحالة المُتَمنَّاة فيقول : وأَجَّج بينهم نار الشَّرِّ بما يلهبُها حتَّى يصيرَ لها وَهَجٌ لا خيْرَ فيه لمن يدنو منه ويَصْطَلِي به . وخَصَّ الضِّرام لأنَّهُ يُسْرِعُ ذَهابُ النَّار فيه فيعلو لَهَبُها . إن قِيلَ : لِمَ كَرَّر طلبَ اتِّقاد النَّار في البيت الأوّل والثاني ؟ قلتَ : الأوّلُ أراد به نارَ الحربِ ، والثاني أراد به نار الخلافِ والشَّرِّ المُنْتَتِج عن النَّمائم والوشايات ، حتَّى أنَّ من دَخَلَ فيهم طَالِباً لإيقاعِ صُلْحٍ وصَلاحٍ بينهم لم يَقْدِرْ على إزالَتِه ، وكان خَلِيقاً بأن يَشْقَى شَقاوتَهُمْ ، ويدخُلَ مَداخلَهُم . وقد مَرَّ القولُ في طائلٍ ، وأنه من الطَّوْلِ . ويقال : ما حَلِيتُ من هذا الأمرِ بطائِلٍ .

٣ — إذَا حَمَلَتْنِي والسِّلاحَ مُشِيحَةٌ إلى الرَّوْعِ لَمْ أُصْبِحْ على سِلْمِ وائِلِ

المُشِيحُ والشائحُ والشِّيحُ واحِدٌ . قال :

* مُشِيحٌ فَوْقَ شَيْحَانِ (١) *

يعنى رَجُلاً على فَرَسٍ . وقال :

* وشَايَحْتَ قَبْلَ القَوْمِ إنَّكَ شِيحُ (٢) *

فيقُولُ : إذا جَالَ تَحْتِي وعلىَّ سِلاحِي قاصداً إلى الحربِ فَرَسٌ جَادَّةٌ ، لم أُصالِحْ وائِلاً ، ولم أرضَ منها إلَّا بالشِّفاء والاشتفاء . والمُشَايَحَةُ : المُحاذَرَةُ . والمُشِيحُ : الحازِمُ .

---

(١) عجزه في اللسان (شيح) :

* يدر كأنه كلب *

(٢) لأبي ذؤيب الهذلي في ديوان الهذليين (١ : ١١٦) واللسان (شيح) . وصدره :

* بدرت إلى أولاهم فسبقتهم *

٤ — فِدًى لِفَتًى أَلْقَى إِلَيَّ بِرَأْسِهَا تِلَادِي وأَهْلِي من صَدِيقٍ وجَامِلِ

قوله « أَلقَى إلىّ برأسها » أى وَهَبَها لِي ومكّننى من قيادِها بنفسِه . وذِكْرُ الرأس كما يُقالُ : هو يرتبط كذا رَأْساً وكذا ظهراً . وذِكْرُ الإلقاء كما يُقالُ : أَلقَى إليه مقاليدَ الأمور . والمعنى : أفدِى بمالِي القديم وأهلِي المُصادِقين فَتًى مكّنَنِي من هذه المُهْرَةِ وملّكَنيها . وقوله « من صَدِيقٍ وجامِلٍ » دخل مِن علَى طريق التبيين ، فالصَّدِيقُ تفسيرُ الأَهْلِ ، والجامِلُ تفسيرُ التِّلاد . وكأنّ هذا الرجُلَ ينتظر إمكانَ الفُرصَةِ من أعدائِه لِينتهزَها فى وقته ، ويَتمنَّى اهتياجَ الشرِّ فى النّاسِ وتداعِي القبائِلِ بالأَوتارِ ، وتناهُضَهُم للقِتال عند تكامُلِ عُدَّتِه ليجدَ طريقاً إلى مكاشَفَةِ مَن يُرِيدُ مُكاشفَته ، وتسبُّباً إلى إدراكِ ما يُرِيدُ إدراكَهُ ، فلهذا علَّقَ الدُّعاء بإِركاب المُهْرِ ، وأجّلَ الزَّمانَ فى ابتغاء المطلوب . وخَصَّ الصَّدِيقَ من أقاربِه وذَوِيهِ لأنَّ النَّفْسَ أَضَنُّ بهم ، كما خَصَّ الجامِلَ وهو ذكورُ الإبل وإناثها لأنّها هى المالُ المُختارُ من الأزواج الثّمانية . ويُروَى : « من صَدِيقٍ وحَامِلِ » بالحاء ، فيكون من تفسير الأَهْلِ خاصّةً ، كأنّهُ يُرِيدُ وأهلِي من مُصادِقٍ لى وبارٍّ بى . ويقال : حَمَلهُ على كذا مَرْكَباً ، إذا أعطاهُ . كأنّه قال : كلٌّ من حَمَلَنِي على فرسٍ من أهلى فهو فداءٌ لمن حَمَلَنِي على هذا المُهْرِ ؛ لأنّهُ يَقَعُ دونَهُ فى القَدْرِ والمكانة .

١٨٣

وقال شَمْعَلَةُ بنُ الأَخْضَرِ (١) :

١ — ويَوْمَ شَقِيقَةِ الحَسَنَيْنِ لاقَتْ بَنُو شَيْبَانَ آجالاً قِصَارا

(١) هو شمعلة بن الأخضر بن هبيرة بن المنذر بن ضرار الضبى . شاعر فارس وأبوه الأخضر أحد سادات ضبة وفرسانها وشعرائها . المؤتلف ١٤١ . والأبيات التالية رواها الآمدى فى كتابه .

الشقيقةُ : رملةٌ تُشَقُّ من معاظِمِ الرَّمْل ، وهى فى الأصل صفةٌ فجُعِلَتْ اسمًا وأُلحِقَ به الهاء . وقد قيل فيها إنها رَمْلةٌ بين رملَتَيْن ، والحَسنانِ قيل هُما رَمْلتانِ ببِلاد بنى تَميمٍ ، وقيل حَسَنٌ كَثيبٌ ضُمَّ إليه قِطْعَةُ أرْضٍ تقربُ منه فقيل حَسَنانِ ، كقولِهم الكوفَتان والحيرتان . وهذه الأبيات فى مقتل بِسْطامِ بن قيْسٍ ، قِيلَتْ عَلَى طريق التَّشَفِّى وإظهار الشَّماتة . يُريدُ : لاقَى بنو شَيْبانَ يومَ اجتماعِنا بهذا المكان آجالاً غير مُمتَدَّةٍ ، متقاصِرةً عن الغايةِ التى كانت آمالُهم تَنزِعُ إليها ، ويَعِدُهُم اغترارُهم بها .

٢ — شَكَكْنا بالرِّماحِ وهُنَّ زُورٌ   صِماخَىْ كَبْشِهِم حتى استدارا[(١)]

الشَّكُّ : النَّظْم . يقول : انتظَمْنا بالرِّماحِ والخَيْلُ مُنحرِفةٌ للطعن صِماخَىْ رئيسِهم — يَعْنِى بِسطامًا — حتى دِيرَ به فسَقَط . وكان بِسطامٌ أغارَ فى بنى شَيبان على بنى ضَبَّةَ ، واستاقَ إبلَها ، وكان رجالُ الحىِّ غائبين ، فلمَّا أحَسُّوا بذلك رَكِبُوا إثرَهُ ، فلما لَحِقُوه أخَذَ بِسطامٌ يُعرقِبُ الإبلَ ، فقالوا : يا بسطام ما هذا السَّفَهُ ، إمّا أن تكونَ لنا أو لك ! ثم أُصِيبَ صِماخه — والصِّماخُ هو الخَرْقُ الباطِنُ الذى يُفْضِى إلى الرَّأْسِ — وقاتِلُ بِسطامٍ هو عاصم ابن خليفة الضَّبِّىُّ ، ويقال إنه كان مضعوفاً ، وفى ذلك اليوم رَأَتْهُ أُمُّهُ يَسُنُّ سِنَانَ رُمحِهِ فقالت : ما تُرِيدُ بهذا ؟ قال : أُرِيدُ أن أقتلَ به بِسطاما ! فقالت الأُمُّ متعجِّبَةً ومُستنكِرةً : « اُسْتُ أُمِّكَ أضيَقُ من ذاك ! » . وحُكِىَ أنه أدْرَكَ الإسلام وأسْلَمَ ، فكان إذا وَرَدَ باب عمر رضىَ اللهُ عنه يقول : عاصِمُ بن

(١) بين هذا البيت وتاليه عند الآمدى :

تَرَى الشَّقراء تَرفُل فى سَلاها   وقد صار الدِّماء لها إزارا
كما رفَلَتْ وطاف بها العذارَى   فتاةُ الحىِّ بُردا مستعارا

خليفةَ ، قاتِلُ بسطامِ بن قيسٍ بالباب ! مُفتخِرًا . ومعنى «استدارَ» ، أخذهُ دُوارُ الموْتِ . وقوله « شَكَكْنا بالرِّماح » والشَّكُّ كان من واحدٍ منهم و برُمْحٍ ، على عادتِهم فى نسبة الفِعل إلى القبيل و إن كان من أحدِهم ، لاشتراكِهم فى الرِّضا به ، وتجمُّعِهم لإيقاعِه . على ذلك قولُ الله تعالى : ﴿ فعقرُوا الناقةَ ﴾ وما أشبهه .

٣ — فخَرَّ على الألاءةِ لمْ يُوَسَّدْ وقدْ كان الدِّماء له خِمارا

الألاءة : شجرةٌ حسنة المَرْأى ، قبيحةُ المُخْتَبَر ، ولهذا شُبِّه به كلُّ مَن قصُرَ مَخْبَرُه عن مَنْظَرِه . قال :

فإنَّكمْ ومَدْحَكُمْ بُجَيْرًا أبا لَجَإٍ كما امتدحَ الألاءُ[١]
يَرَاهُ الناسُ أخْضَرَ من بَعيدٍ وتَمْنَعُه المَرارةُ والإباءُ

ومعنى خَرَّ على الألاءةِ ، أى مالَ عليها لمَّا أُصِيبَ . والمرادُ بالبيتِ : سَقَطَ بِسطامٌ لمَّا طُعِنَ على الألاءةِ وهوغيرُ مُوَسَّدٍ ، قد غُشِّىَ رأْسُه ووجْهُه بالدم . قوله « لم يُوَسَّد » فى موْضِع الحال ، وهو بَيانٌ لِكوْنِه مقتولاً ، وأنَّ خُرُورَهُ كان لذلك . وعلى هذا قولُه تعالى : ﴿ خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ وما أشْبهَهُ . والخمَرُ والخِمارُ : كلُّ ما غطَّاكَ .

١٨٤

وقال حُسَيْلُ بن سَجِيحٍ[٢] :

١ — لَقَدْ عَلِمَ الحىُّ المُصبَّحُ أنَّنِى غَداةَ لَقِينا بالشُّرَيْفِ الأَحَامِسَا

يقول : صَبَّحْتُهُ مُشدَّدًا ومُخفَّفًا ، إذا قصدتَه للغارة صباحا . وفى المَثَل :

---

(١) لبشر بن أبى خازم ، كما فى اللسان (ألا) .

(٢) التبريزى : « حسيل بن سجيح الضبى » . وحسيل بالتصغير كما فى النسخ والمبهج وشرح التبريزى . وأما سجيح فضبط فى النسخ بفتح السين ، وفى المبهج وشرح التبريزى بهيئة التصغير . قال التبريزى : « كان بنو ضبة انتجعوا أرض بنى عامر بالشريف ، فطلبتهم بنو عامر ، فسار حسيل فى أخريات بنى ضبة فمنع بنى عامر من النيل منهم » .

« صَبَحْنَاهمْ فغدَوْا شأمَةً(١) »

والأحَامِسُ لقبٌ لبنى عامرٍ ، وجُمِعَ جمعَ الأسماء وإن كان صفةً فى الأصل فهو كالأبْطَح والأجْدَلِ وأشباههما ؛ وقد تقدَّمَ القولُ فيه . والشاعر يقول : تيقَّنَ الحىُّ المُغارُ عليهم صَباحاً أننى غداةَ لَقِينا بَنى عامرٍ بالشُّرَيف — وهو مَوْضِعٌ بِنَجْدٍ ، وكذلك الشَّرَفُ — أبْلَيْتُ . وهذا الكلامُ منه استشهادٌ بمن دَافَعَ عنهم . وخبرُ أنَّ فيما بَعْدَهُ ، وهو قولُه « جعلْتُ لَبانَ الجَوْنِ » . وغداةَ لَقِينا ظَرْفٌ له . فإن قيل : هَلّا جعلته ظَرْفاً لعَلِمَ أو لِلَقِينا ؛ قلتَ : لا يجوز أن يكونَ ظَرْفاً لعَلِمَ ، لأنه إذا جُعِلَ كذلك صَارَ أجنبياً مما دَخَلَ فى صِلةِ أنَّ ، وحائلاً بينه وبين خبَرِه ، والفَصْلُ بين الموصول وما فى صلته بالأجنبى منه غير جائزٍ . ولا يجوز أن يكون ظَرْفاً لِلَقِينا ، لأنه مضافٌ إليه ، والمُضاف لا يجوز أن يكون عاملاً فى المُضاف .

٢ — جَعلْتُ لَبانَ الجَوْنِ للقوْمِ غايةً من الطَّعْنِ حتى آضَ أحْمرَ وَارِسَا(٢)

جَعلتُ هاهنا تعدى إلى مفعولين لأنه بمعنى صَيَّرْتُ . واللَّبانُ : الصَّدر من الفَرَس . والوَرْسُ : صِبْغٌ أحمر معروف . وثوبٌ وَرِسٌ ووارِسٌ . وأوْرَسَ الرِّمْثُ ، إذا اصفرَّ ثمرُه ، فهو وارِسٌ ، وهو أحد الحروف التى جاءت على أفعل فهو فاعِلٌ ؛ ولا يقال مُورِسٌ . ورُبَّما(٣) فُسِّرَ الوَرْسُ على الزَّعْفران . يقول : ثَبَتُّ فى وجوه القوم فصيَّرْتُ صَدْرَ فرَسى مَدًى للطَّعْنِ ومَوقِعاً ، حتى صار لسَيَلان الدَّمِ عليه أحمرَ كالوَرْس .

---

(١) المثل عند الميدانى (١ : ٣٦٧) .

(٢) التبريزى : « وروى : غابة . أى صار كالأجمة من كثرة ما انكسر من الرماح فيه » .

(٣) فى الأصل : « وإنما » ، صوابه فى م والتيمورية .

٣—وَأَرْهَبْتُ أُولَى القَوْمِ حَتَّى تَنَهْنَهُوا كَمَا ذُدتَ يَوْمَ الوِرْدِ هِيمًا خَوَامِسَا

يقول : خَوَّفْتُ أوائِلَهُم حتّى كَفُّوا وتَنَكَّسُوا ، كما تَكُفُّ إبلًا عِطاشًا وردَتْ لِخِمْسٍ ، فازْدَحَمَتْ على الماء يَوْمَ الوُرُودِ . والهِيم : التى بها الهُيام ، وهو داءٌ يصحبه العطشُ الشديدُ . جعلَ أوائلهم تتبادَر وتزدحم حرصًا على القِتال ، مبادرة الهيم وازدحامها على الماء وقد وَرَدَتْ لِخِمْسٍ . وهذا التَّشبيه من باب التصوير ، وقد تَقَدَّمَ القَوْلُ فى شَرْحِهِ . وقوله : « تَنَهْنَهوا كما ذُدتَ » يجوز أن يكون أراد حتّى ذُدْتُهُمْ كما ذُدت ، فوضَع تَنَهْنَهوا بدله ودالًّا عليه . ويجوز أن يكون أراد : كما نَهْنَهْتَ يَوْمَ الوِرْد إذا ذُدتَ هِيما ، فوضع ذُدتَ موضعَهُ . ويجوز أن يكون المراد : أرْهَبْتُهُمْ كما أرهبتَ ، فوضع ذُدت مَوْضِعَ أرْهَبْتَ ، وهذا أقرب .

٤—بِمُطَّرِدٍ لَدْنٍ صِحَاحٍ كُعُوبُهُ وَذِى رَوْنَقٍ عَضْبٍ يَقُدُّ القَوَانِسَا

٥—وَبَيْضَاءَ من نَسْجِ ابْنِ دَاوُدَ نَثْرَةٍ تَخَيَّرْتُهَا يَوْمَ اللِّقَـاءِ المَلَابِسَا

الباء من قوله « بمُطَّرِدٍ » تعلّقَ بقوله أرْهَبْتُ . فيقول : خَوَّفْتُهُم بالبُرُوزِ لهم ، ومعالَنَةِ ذوى الحِشمةِ بالتَّنَكُّرِ معهم ، والشَّدِّ عليهم برُمحٍ مسوًّى لَيِّنٍ صحيح الكُعُوبِ والأنابيب ، وسيفٍ ذى ماء ، قاطِعٍ نافِذٍ فى القَوانِسِ ، لا يَنْبُو ولا يَرْتَدِع . ومعنَى الاطِّراد فى الرُّمحِ تقوُّمُه وتوافُقُ أنابيبه عند الهزِّ . والقَوانِس : أعْلَى البَيْضِ ؛ وقَوْنَسُ الفَرَسِ منه ، وهو العَظْمُ الذى تَحْتَهُ العُصفوران . هكذا قال أبو عبيدة . وقال الأصمعىُّ : هو والعُصْفورانِ سَواء ، والقَدُّ : القَطْعُ طُولاً ، فإنْ كان عَرْضاً فهو القَطُّ . وقولُه « وبيضاء من نسج ابن داوُدَ » فإنّهُ عَنَى به دِرْعًا ، والمُرادُ تَمْدادُ عُدَّتِه واحِدًا واحِدًا . أى أرهبتُهُمْ بدِرعٍ نقيّة اللّون من الصَّدَأ داوُدِيَّةٍ واسِعَةٍ ، اخترتُها من الملابِسِ يومَ

اللقاء . وإنما قال « من نَسْجِ ابن دَاوُد » كما قال الآخر[١] :

* ونَسْجُ سُلَيْمٍ كلَّ قَضَّاء ذائِلِ[٢] *

وللعَرَبِ عادةٌ معروفةٌ فى إقامةِ الأبِ مَقامَ الابنِ ، والابنِ مقامَ الأبِ ، وتسميةِ الشَّىء باسم غيره إذا كان من سَبَبِه . والأعلامُ لا يدخلها المجازُ ، ولكن تُستَعارُ إذا حصل بها القصدُ وأُمِنَ معها اللبْسُ عند الذِّكر . وانتَصبَ الملابِس على المفعول ، لأنَّ الفِعلَ بعد انحذافِ حرفِ الجرّ منه وَصلَ إليه فنصبه . وأصْلُها تخيَّرتُها يومَ اللّقاء من الملابِس . ومثله قولُه تعالى : ﴿ واخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ﴾ . والمُرادُ : اختار موسى من قومه ، ومثلُ هذا من الحذف لا ينقاس .

٦ — وحِرْمِيَّةٍ مَنسُوبَةٍ وسَلَاجِمٍ خِفَافٍ تَرَى عَنْ حَدِّهَا السَّمَّ قالِسا

يريدُ : وبقَوْسٍ مُتَّخَذَةٍ من شَجَرِ الحِرْمِ[٣] ، لها نَسَبٌ لجودَتِها وعِتقِ نِجارِها ، حتّى يُقالُ فيها : مَلَكها فُلانٌ ، وورِثها فلانٌ ، واتخذها فلان ، وهى القوْسُ التى من شأنها كَيْتَ وكَيْتَ ، وبِنِصالٍ طِوالٍ خِفافٍ تَقلِسُ حُدُودُها السَّمَّ وتَرْشَحُهُ ، لأنَّها أُمْهِيَتْ به وشُرِّبَتْهُ . والقَلْسُ : القَىْء ، يقالُ قَلَس قَلْسا ، ثم يقال للدَّسْعَةِ تخرجُ إلى الفمِ القَلَسُ ، بتحريك اللام . والسَّلَاجِمُ : الطِّوال ، وأرادَ بها النَّبْلَ كما هِيَ ، ويقال حِرْمٌ وحَرَمٌ . وانتصبَ قالِسًا على الحال للسَّمّ ، كأنَّه قال : تَرَى السَّمَّ ذا قَلْسٍ ، أى مَمْجُوجًا بِهِ مُلْقًى من جوانِبِ حُدودِها .

---

(١) هو النابغة الذبيانى . ديوانه ٦٤ واللسان (قضض ، ذيل) .

(٢) صدره : * وكل صموت نثلة تبعية *

(٣) ياقوت : الحرم : أحد الحِرمين ، وهما واديان ينبتان السدر والسلم يصبان فى بطن الليث فى أرض اليمن .

٧ - فما زِلتُ حتّى جَنّني اللّيلُ عنهُمُ   أُطَرِّفُ عَنّى فارِسًا ثم فارِسا

يُروَى « أطرِّف فُرْسانًا وأُلحِقُ فارِسا » . يقول : لم أزَلْ بياضَ ذلك اليومِ أدفعُ في جوانبِ مجالي وأطرافِ أرضِى ، الفارسَ بعد الفارسِ ، إلى أن تغشّانى الظّلامُ فحالَ بيني وبينهم ، وسترَ كلًّا مِنّا عَنْ صاحِبه . ومعْنَى أطرِّفُ أجعلُه منّى فى طرَف ، وموضِعُهُ من الإعْراب نَصْبٌ على أن يكون خبَر ما زال . وأراد بقوله « فارِسًا ثم فارسا » المداومةَ والاتّصال . أى لم أفْتُرْ عَنْ دِفاعِهِمْ وقتًا واحِدًا بعد واحِدٍ . وهذا كما يُقال : جاءنى بنو تميم واحدًا فواحدًا ، أى توالَوْا أفرادًا . ومن روى « أطرِّفُ فُرْسانًا وأُلحِقُ فارِسًا » فالمعنى أسُوقُ فُرسانًا وأذُودُهُم عنّى ، وقد أُلحِقُ فى الطَّرْدِ الواحد بعدَ الواحد فأصيبه .

٨ - ولا يَحْمَدُ القومُ الكِرامُ أخاهُمُ الـ   ـعَتِيدَ السِّلاحِ عَنْهُمُ أَنْ يُمارِسا

هـذا الكلامُ تبرُّؤٌ من التحمّد بما فعَلَ إلى الناس ، وترْكٌ للتبجُّح بالدِّفاع حينَ دافع ، وإظهارٌ لأنّ مَذْهبَ الكرام ذلك ، وأنّ الواجب فى اعتقادِهِم ألّا يُحْمَدَ الواحدُ منهم إذا قاتلَ دُونَهم ، أو مارسَ الشّدّةَ فيهم ولَهُمْ ، متَى كان تامَّ السِّلاحِ ، مُزاحَ العِلَلِ ، إذْ كان ذلك دأْبَهم ودينَهُمْ ، وإذْ كان سبيلُه فيما يأتيه كمَن يُؤدِّى الفرضَ الذى لا يحتمل التّضجيع ، والحَتْمَ الذى لا يَسُوغُ التجوُّزُ فيـه والتأويلُ . وقوله « عنْهُم » يتعلّق بالعتيـدِ السِّلاحِ ، ولا يجوز أن يَتعلّق بيمارِس ، لأنه لو كان كذلك لكانَ فى صِلَةِ أنْ ، فلم يجُزْ تقدُّمُهُ عليه . ويكونُ المعنى : أخاهُمُ المُعدَّ السِّلاحِ عنهم ، النائبَ منابَهُمْ . ومعنى أخاهُمُ الواحِد منهم ، كما يقالُ : يا أخا بَكْرٍ أو تميمٍ .

١٨٥

وقال مُحْرِزُ بن المُكَعْبَرِ(١) :

١ – نَجَّى ابنَ نُعْمَانَ عوْفًا من أَسِنَّتِنا   إِيغَالُهُ الرَّكْضَ لَمَّا شَالَتِ الجِذَمُ

قال الخليلُ : الإيغالُ : الإمعانُ فى السَّيْرِ مع دُخُولٍ فيما بين جِبالٍ أو فى أرضِ العَدُوِّ . وقال غيره : هو الإسراعُ فى إبْعادٍ . يقول : أَنْقَذَ هذا الرَّجُلَ من رماحِنا استعجالُهُ فرسَهُ ، واستحثاثُه بالرَّكْضِ إيَّاهُ ، لمَّا رُفِعَتْ بَقايا السَّوْطِ تُخَوِّفُ بها الخَيْلُ ، ويُسْتَدَرُّ منها العَدْوُ . وهذه إشارةٌ إلى وقت الانهزام وجِدِّ الطَّالبين فى اللَّحاقِ . والرَّكْضُ ينتصبُ على أنّه مفعولٌ من الإيغال ، كما يُقالُ أبْعَدَ السَّيْرَ ، وأسْرَعَ السَّيْرَ . ويجوز أن يكون مصدرًا فى موضِعِ الحال ، كأنّه قال إيغالُه راكِضًا . وأدْخِلَ الألف واللام على حَدِّ دخولِهِما فى قوله :

* فأرْسَلَها العِراكَ(٢) *

و : * أوْرَدَها التَّقريبَ والشَّدَّ مَنْهَلا *

وما أشبهه . وجِذْمُ كلِّ شىء : أصْلُه ؛ يقالُ جذَمْتُ الشَّىء ، إذا قطعتَه . والجِذْمَةُ : القِطْعةُ من الحَبْل وغيرِه .

---

(١) هو محرز بن المكعبر الضبي ، من ولد بكر بن ربيعة بن كعب بن ثعلبة بن سعد بن ضبة بن أدبن طابخة بن الياس بن مضر . قال الأنبارى : « ولم يلحق يوم الكلاب » وفى العقد فى يوم الكلاب الثانى : « وقال محرز بن المكعبر الضبي ولم يشهدها » . والمكعبر ضبط فى أصول شرح المفضليات بكسر الباء ، ويؤيده ما فى اللسان : « ويقال كعبره بالسيف ، أى قطعه . ومنه سمى المكعبر الضبي ، لأنه ضرب قوماً بالسيف » . وأجاز التبريزى تبعاً لابن جنى فتح الباء وكسرها منه . وانظر المفضلية رقم ٦٠ .

(١) قطعة من بيت للبيد فى ديوانه ١٢١ واللسان والمقاييس (عرك) . وهو بتمامه :

فأوردها العراك ولم يذدها   ولم يشفق على نغص الدخال

٢ — حتَّى أتى عَلَمَ الدَّهْنَا يُوَاعِسُهُ وَاللهُ يَعْلَمُ بالصَّمَّانِ ما جَشِمُوا

الدَّهْنَا ببلاد تَمِيمٍ . وقال الخليلُ : الدَّهْنَا موضعٌ رَمْلٌ كُلُّه ، والنَّسَبُ إليه دَهْنَاوِيٌّ . ومعنَى يُوَاعِسُه يَسِيرُ فى وَعْسَائِهِ ، وهى الرَّمْلةُ اللَّيِّنَةُ ، والسَّيْر فيها يَصْعُب . ويقالُ : وَعَسْتُ المكانَ وَعْسًا ، إذا وَطِئْتَهُ وطْأً شديدًا ، ويُسَمَّى الأَثَرُ الوَعْسَ . وسُمِّيَ ضربٌ مِن سَيْرِ الإبلِ المُوَاعَسَةَ من هذا . وحقيقةُ قولِه « يُوَاعِسُهُ » يُوَاعِسُ إليه أو فيه ، أى يَمُدُّ سَيْرَهُ إليه وفيه . والصَّمَّانُ : الأرضُ الصُّلْبَةُ ، واحِدَتُهُ صَمَّانَةٌ ، وموضِعُ ما من قولِهِ ما جَشِمُوا نَصْبٌ على المفعول مِن جَشِموا ، فيقول : أوغَلَ الرَّكْضَ حتَّى بَلَغَ جِبالَ الدَّهْنَا ، مُوَاعِسًا فى رَمْلِهِ ، واللهُ يَعْلَمُ أىَّ شىءٍ تَكَلَّفَهُ هو وأصحابُه من السَّيْرِ فى الصَّمَّان . وموضِعُ يُوَاعِسُهُ نَصْبٌ على الحال ، ويجوز أن يكون مَوْضِعُ ما مِنْ قولِهِ ما جَشِمُوا نصْبًا على المفعول من فِعْلٍ دَلَّ عليه ، واللهُ أعْلَمُ . ومثلُهُ فى القرآن : ﴿ اللهُ أعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالاتِهِ[1] ﴾ . وقد تقدَّم القول فيه .

٣ — حتَّى انتَهَوْا لِمياهِ الجَوْفِ ظاهِرَةً ما لَمْ يَسِرْ قَبْلَهُمْ عادٌ ولا إرَمُ[2]

الجَوْفُ وادٍ . وظاهِرَةً انتَصَبَ على أنه ظَرْفٌ ، ويقال : وَرَدَ الماءَ ظاهِرَةً ، إذ وَرَدَ نِصفَ النَّهار ؛ واشتقاقُه من الظَّهيرة . وأَظْهَرْنا : صِرنا فى الظَّهيرة . وقد جُعِلَ اسْمًا لهذا الظِّمْء . وقوله « ما لَمْ يَسِرْ » أراد سيرًا لم يَسِرْهُ قَبْلَهُمْ أحدٌ ، أو انتهاءً لم يقدر عليه إنسانٌ . وعلى هذا يكونُ ما فى موضع

(١) هـذا ما فى م والتيمورية ، وهو الوجه . انظر ما سبق فى ص ٤٤١ س ١٢ . وبدلها فى الأصل : « هو أعلم بمن يضل عن سبيله » .

(٢) وضعت نقطتان فوق الحرف الأول من « يسر » ونقطتان تحته ليقرأ بالتاء والياء ، وذلك فى نسخة الأصل . وأما فى م والتيمورية والتبريزى فالرواية « تسر » بالتاء . التبريزى : « أبو هلال : عاد وارم واحد فجعلهما اثنين . وظاهرة ، أى مظهرة . ويجوز أن يجعل ظاهرة حالا للمياه » .

النَّصْب على أنه مصدرٌ مما دَلَّ عليه حتَّى انْتَهَوْا ، وتلخيص الكلام : حتَّى ساروا إلى مياهِ هذا الوادِى نِصفَ النَّهارِ سَيْرًا لم يَسِرْ مِثْلَهُ واحِدَةٌ من هاتين الأُمَّتين ، والمعنى أنَّهم حَمَلَهم الرُّعْبُ الذى تَداخلَهم ، والاجتهادُ فى الخَلاص من الهزيمة المستولية عليهم ، على أن يقطعوا ما بين المكانَيْن المذكورين فى يَوْمٍ وليلةٍ ، لأنَّهم كانوا فى اليوم الأوَّل بالصَّمان ، وفى اليَوْم الثانى بالدَّهْنا ، وذلك شاقٌّ مُسْتَبْعَدٌ وُقُوعُه .

١٨٦

وقال عامرُ بن شَقيقٍ [١] :

١ — فإنَّكِ لو رأيتِ ولَنْ تَرَيْه أَكُفَّ القَوْمِ تَخرقُ بالقَنِينا [٢]

يخاطِبُ امرأَةً مُفَظِّعًا للشأن الذى مُنُوا به ، ومُهَوِّلاً للأمرِ الذى دُفِعوا إليه ، فيقول : لو رأيتِ ولا أراكِ اللهُ مِثْلَه مَشْهَدَ القومِ وأَكُفَّهم تُخْرَقُ بالرِّماحِ لرأيتِ أمرًا هائلاً . وجوابُ لو محذوفٌ ، كما يقال : لو رأيتَ زيدًا وفى يده السَّيف . وقد مرَّ القولُ فى أنَّ تَبقِيَةَ الإبهام فى مثل هذا المكان بترك الجواب أبلغ فى الإفهام . وقوله « ولَنْ تَرَيْهِ » دعاء ، وأكثرُ ما يقعُ الدُّعاء يقعُ بلا ، وبلَنْ يجىء قليلاً ، تقولُ : لن يُبارِكَ اللهُ فى كذا وتريدُ الدعاء ، كما تقولُ لا بارَكَ اللهُ . وفسَّرَ قُطرُبٌ قولَ الله تعالى : ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ

(١) ابن جنى فى التنبيه : « عامر بن شقيق الضبى » . التبريزى : « عامر بن شقيق ، من بنى كوز بن كعب بن بجالة بن ذهل بن مالك » .

(٢) روى التبريزى قبل هذا البيت :

أَلا حَلَّتْ هنيدةُ بطنَ قَوٍّ بأقواعِ المَصامة فالعُيونا

وقال : « قو : موضع . وأقواع : جمع قاع . والمصامة : موضع » . ونبه التبريزى على أنه يروى : « تخرق بالقلينا » ، وهو جمع قلة .

أكُونَ ظَهِيرًا للمُجْرِمِينَ» على أنَّهُ دعاء . ويجوز أن يكون قوله «ولَنْ تَرَيْهِ» إخبارًا بأنها وقد فاتَها رُؤْيَة ذلك فيما مضى لا ترى مثله فى المستأنَفِ فظاعةً وشَناعةً ، وأنّ الخَطْبَ بلغ حَدًّا خَرَجَ به عن المعتاد المستجاز . وقوله «تُخْرَقُ بالقُنِينا» أى تُثْقَب ، ومنه خَرَقْتُ الأرضَ واخترقتها ، وريحٌ خَرِيقٌ . ويُروَى : «تَخْرُقُ» بفتح التاء وضمّ الراء ، وله وجْهان : أحدُهما أن يكون من الخُرْقِ : ضدّ الرِّفق ، كأنّ الأكُفّ كانت تَخْرُقُ فى الطَّعْنِ ولا تَرْفُقُ ، لشدّة الأمر ؛ وهذا حَسَنٌ . والثانى : أن يكون من الخَرْقِ ، كأنها تُشَقِّقُ بالطعنِ مُلتئِم الأحوالِ ومتواصِلَها وتُمزِّقُها ، كما قال : ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ . وهذا الوجه أغْرَبُ ، ويكون المفعولُ محذوفاً ، لأنّ الكلام يدلُّ عليه . ومن روى «تُخْرَقُ» فالمعنى تُنْظَمُ . وإن جعلتَ الفِعْل للفاعل فروَيتَ «تَخْرُقُ» جاز أيضاً على أن يكون المفعولُ محذوفاً ، والمرادُ كأنها تَنْظِمُ مطعونِين فى شَدَّةٍ وَحَمْلَةٍ . والقُنِين : جمعٌ سالمٌ ، وهو نادِرٌ ، وأكثر ما يجىء مِثْلُه فى المنقوص كَظُبَةٍ وظُبِين ، وثُبَةٍ وثُبِين ، كأنه يجعل هذا البناء فى جَمْعِه جَبْرًا له[1] مما نُقِصَ منه . ويجىء أيضاً كثيرًا فى أسماء الدّواهى ، كالذّرَبِين ، والأقْوَرِين ، والفِتَكْرِين[2] ؛ كأنه بلَغَ بها رتبةَ الناطقِين تهويلاً . وقد حُكِىَ كسْرُ القاف من القِنين وحينئذ يكونُ كَعَصًا وعِصِىٍّ ، ويكونُ وَزْنُه فُعُولاً والنونُ بدلٌ من لام الفِعْل . ويُحْمَلُ على هذا الوجه سِنِينَ فى جَمْع سَنَةٍ .

٢ — بذِى فِرْقَيْنِ يومَ بَنُو حُبَيْبٍ نُيُوبَهُمُ علينـــا يَحْرُقُونا

قوله «بذى فرقين» يجوز أن يتعلّق بقوله لو رأيْتِ ، ويجوز أن يتعلق بقوله تُخْرَقُ بالقُنِين ، كذلك قولُه «يومَ بنو حُبَيْبٍ» يجوز أن يكون ظرْفاً

(١) م والتيمورية : «جبراناً له» . (٢) الفتكرين ، بكسر الفاء وضمها .

لكلٍّ واحدٍ من الفعلين لأنهما ظَرْفان : أحدهما للمكان والآخر للزمان . وأضاف اليومَ إلى الكلمة التى بعدَهُ لأنّ الأزمنة تضافُ إلى الجُمَل من الابتداء والخبر ، والفِعل والفاعل ، تبييناً لها . ويقال : هو يَحرِقُ أنيابَه ، إذا حَكَّ بعضَها ببعضٍ تهديداً . ويقالُ أيضاً : هو يَحرُقُ عليه الأُرَّم ، ويَعلُكُ علىَّ الأُرَّم ، أى يصرِفُ بأنيابه تغيُّظا . وحَكَى فيه الأُزَّم بالزاء أيضاً . والأَزْمُ : العضُّ . ويقالُ حرَقَه بالمِبرَدِ ، إذا بَرَدَه . وحَكَى أبو حاتم : فُلانٌ يَحرُق نابُه علىَّ ، برفع الناب . قال : لأنه هو الذى يَحرُقُ . وبيتُ زهير[1] يَشهَدُ لذلك . وأنشد :

أَبَى الضَّيْمَ والنُّعمانُ يَحرِقُ نابُهُ عليه فأَفضَى والسُّيوفُ مَعاقِلُه

٣ — كَفاكِ النَّأْىُ مِمَّنْ لَمْ تَرَيْهِ ورجَّيْتِ العَواقِبَ لِلبَنِينـــا

كأنه وَكَّنَها إلى الاعتبار بعد ما فاتَها من مشاهدة الحال ، ودَعاها إلى الاستدلال ، والاكتفاء فيه بما آل إليه أمرُها فى أعِزَّتِه مع غَيبَتِهم عنها . فيقول : أغناكِ بُعدُكِ إذا نَظَرْتِ واعتَبرتِ عن الاستكشاف والسؤال ، وإنْ تلَهَّفتِ لما لم تُدرِكيه من مساقِطِهم ، ولم تُشارِفيه من مصارِعهم ، وحالُكِ أنكِ عَلَّقتِ رجاءَكِ بالأولادِ ، وبأن يُحسِنَ اللهُ العُقْبى لهم إذا بلغوا طَلَبَ الأوتار ، ورأوا السعىَ فى دَرْكِ الثَّار ، وقَطَعتِ طمعَكِ فى الآباء ومَلَكَكِ اليأسُ منهم . وقولهُ « ورجَّيْتِ » قد معَهُ مُضْمرةٌ ، لأنّ الماضى بتقدير قد معه يقع موقع الحال . وضَعَّفَ عينَه للتكثير ، كأنها كانت تكرِّرُ الرَّجاءَ وتُجَدِّدُه مع كلِّ حادثةٍ ، وعند كل مُهِمَّة .

---

(١) م : « وبيت النابغة » . وليس كذلك . والبيت التالى فى ديوان زهير ١٤٣ .

١٨٧

وقال أبو ثُمامَةَ بن عارِمٍ[(١)]:

١ — رَدَدْتُ لِضَبَّةَ أمْوَاهَهَا وكادَتْ بلادُهُمُ تُسْتَلَبْ

يقول: اعتنيتُ بضَبَّةَ، فأعَنْتُها على مُجاذِبِها ومُنازِعِها، وحَفِظْتُ لها وعليها مياهَها و بلادَها، ومراعيَها ومَرادَها، بعد أن شارَفوا التسليم والاستسلام، والمُلاينَةَ والانقياد، حتى كادوا يُغلَبون عليها، ويُمنَعُون من حقوقِهم فيها، لما يَظهرُ على صفحات أحوالهم من التخاذُلِ، ويَبنُون أمورَهم عليه فى التهاوُنِ والتَّواكُل.

٢ — بِكَرِّ المَطِيِّ وإتْعابِهِ وبالكُورِ أرْكَبُهُ والقَتَبْ

الباء من قوله «بكرِّ» تعلَّقَ برددتُ. ويُرْوَى: «بكَرِّي المَطِيَّ»؛ وساغ الوجهان لأنَّ المصدر يضاف إلى المفعول كما يضاف إلى الفاعل. ومُرادُه أن يُبيِّن كيفَ كانت نيابتُهُ عنهم، ومُدافعته دُونهم، وكيفَ جاذَبَ أعداءَهُم وجادَلَ عنهم، حتَّى توصَّلَ إلى قمعهم، ونزع أيديهم عمَّا أنشَبُوها فيه من أملاكهم، وردَّهم دونَ ما سوَّغوهُ من اهتضامهم. والقتَبُ أخفُّ من الكُور. وإنَّما ذَكَرَ هذه المراكبَ ليُبيِّنَ تطاوُلَ الأَمَدِ بينه وبينهم، وتَحَمُّلَ أنواعِ المشاقِّ اللاحقة فى نزاعهم، وليدُلَّ على كثرة مناقلاتهم[(٢)]، واختلافِ التَّردُّدِ فى مجالسهم وأماكنِهِم.

---

(١) التبريزى: «أبو ثمامة بن عازب الضبى». ثم قال: «وقيل ابن عارم، وقيل ابن غارب».

(٢) هذا ما فى م. وفى الأصل: «ملاقاتهم» وفى التيمورية: «مناولاتهم» وهذه محرفة عما فى م.

٣ — أُخَاصِمُهُمْ مَرَّةً قائِمًا وأَجْثُو إذا ما جَثَوْا للرُّكَبْ

انتصب قائمًا على الحال ، ونبّهَ بما أوْرَدَهُ على امتداد المجاذبة ، وتكرُّرِ المُحاجَّةِ ، وعلى اختلاف الهيئات وتغيُّرِ الأوقات ، وكلُّ ذلك بحسب اشتداد سَوْرَةِ الخصام ولينها ؛ وأنَّهُ تَكفَّلَ بالأمر معهم تكفُّلَ من تعيَّنَ عليه الفرضُ فى مُرادَّتِهِمْ ، فابتذَلَ نفسَهُ معهم ، ووطَّنها على مُصابرَتِهم[1] ، فإن قاموا قامَ معهم ، وإن بركوا باراهم فى بُرُوكِهِمْ ، لئلاَّ يكونَ مُخِلاًّ بمعرَضٍ يخرجون فيه ، أو تاركًا لشىء من نصبهم . ويقال : جثا لرُكْبَتِهِ ، إذا سقطَ .

٤ — وإنْ مَنْطِقٌ زَلَّ عن صاحِبِى تَعَقَّبْتُ آخَرَ ذا مُعْتَقَبْ[2]

فصَلَ بَيْنَ إنْ والفِعْل بقوله « مَنْطِقٌ » ، ولو ظهر تأثيرُهُ بالجزم لم يَجُزْ ذلك فيه . وارتفع بِفِعْلٍ هذا الظاهر تفسيرُهُ . فإن قيل : فإنْ فى أىِّ الفِعْلَيْنِ عَمِل ؟ وهل تقولُ إنَّهُ عَمِلَ فيهما جميعًا ؟ قُلْتَ : أمَّا عمله فيهما فغير سائغ ، لأنَّ أداةً واحِدَةً لا تجزِمُ شرطين فى حالةٍ واحدةٍ ، لكنَّ الفِعْلَ المُضْمَرَ لما لم يَظهر صار فى حُكم ما لم يُعتدَّ به ، وإن كان الاسمُ يرتفع به ، حتى صار التقدير : وإن زَلَّ مَنطِقٌ زَلَّ عن صاحبى . وقد رُوِى « تَعَقَّبْتُ » و « تَعَرقَبْتُ » ، ومعنى تعقَّبْتُ تتبَّعْتُ وطلَبْتُ عَقِبَه ؛ ومثلُه اعتقبْتُ . وقيل المُعتقَبُ أخْذُ عُقْبَةِ الشىء ، وهى آخِرُهُ . ومعنى تعرقبْتُ : عَدَلْتُ عنه وأخَذْتُ فى غيرِهِ . ويقال تعرقبتُ الفرسَ ، إذا رَكِبْتَها من خَلْفِها . وعراقيبُ الأمور : التباساتُها وطَلَبُ الحِيَل والحُجَجِ فيها ، وأنْشِدْتُ :

(١) فى الأصل والتيمورية : « مصارهم » ، صوابه فى م .

(٢) التبريزى : « ومن روى : معتتب ، جعله من العتبة وهى الدرجة ، أى آخذ فى طريق فيه درج أعتتب فيها حتى أغلب . أى آخذ بحجة بعد حجة ، كما يرتقى فى الدرجة عتبة بعد عتبة » .

فلا يَعْدَمْكَ عُرْقوبٌ للأْى   إذا لم يُعْطِكَ النَّصَفَ الخَصِيمُ[(١)]

والمعنى: لا يَعْدَمْكَ حِيلةٌ لالتواءِ خَصْمٍ عليك. وقال آخرُ:

* إذا حبا قُفٌّ له تَعَرْقَبا *

أى عَدَلَ عنه فالتوى. ومِثْلُ تعقَّبتُ فى إفادتِه طَلَبْتُ عَقْبَهُ وعُقباهُ: تفقَّدْتُ الشىءَ وتَعَهَّدْتُه؛ لأن المعنى طلبتُ فَقْدَهُ وعَهْدَه، أى نظَرْتُ هل فقدتُه وهل بَقِىَ على عهدِه. ومعنى البيت: إن بَدَرتْ من واحدٍ منهم كلمةٌ لم يوفَّقْ فيها للصواب، أو خِفتُ عَوْدَها بغيرِ صلاحٍ عَدَلْتُ عنها وطَلَبْتُ مكانَها أخرى ذاتَ مُتتبَّعٍ، فأعقبْتُها بها.

٥ — أَفِرُّ من الشَّرِّ فى رِخْوِهِ   فكيف الفِرارُ إذا ما اقتربْ

قولُه فى «رِخْوِهِ» أى تَراخِيه. وهو رِخْوٌ، أى مُسترخٍ. كأنه أرادَ: أهرُبُ منه ما لم يتشدَّدْ. ونبَّه بهذا الكلام على أنه يتفادى من الشَّرِّ ما أمكن، وأنه لا يستعمِلُ البغْىَ ولا يبتدئُ الخَصْمَ، فإن جاء منه ما لا مَعدِلَ عن اقتحامِه وركوبِ البلوى فيه، ولا مُعوَّلَ إلا على الصبرِ على شدائدِه وتوسُّطِ الأذى العارضِ له خاصَّةً[(٢)] مُتلقِّيًا لمكارهِه بعُدَّتِه، مُجاذِبًا للمنازِعين بأقصى ما فى طوقِه وقوَّتِه، إلى أن يتحصَّلَ له الفَلَجُ والظَّفَرُ، أو يتحصَّنَ عن لَوْمِ اللائمين بما يُقيمُه من العُذْرِ فى المُجاهدةِ والتثبُّت. ومثلُه قول هُدْبَةَ ابن خَشْرَمٍ:

ولا أَتمنَّى الشَّرَّ والشَّرُّ تاركِى   ولكنْ متى أُحْمَلْ على الشَّرِّ أرْكَبِ

---

(١) رواية اللسان (عرقب): «لوأى» بدل «للأى».

(٢) فى جميع النسخ: «خاصة»، تحريف.

١٨٨

وقالَ أبو ثُمَامَةَ أيضًا :

١ — قُلتُ لمُحْرِزٍ لما التَقَيْنا   تَنَكَّبْ لا يُقَطِّرْكَ الزِّحَامُ

نَكَبَ وتنَكَّبَ بمعنًى واحدٍ . ويقال هو أنكَبُ عن الحقِّ ، ومنه الرِّيح النَّكْباء ، لعُدولها عن مهابِّ الرِّياح الأربع . وهذا الكلام تهكُّمٌ واستهزاء ، كأنَّه يرميه بأنه لم يُباشِر الشَّدائد ، ولم يُدفع إلى مضايِق المجامع . فيقول : انحرِفْ مُتماسِكًا لا يُسقِطْك تزاحُم الناس . والتَّقطير : الإلقاء على أحد القُطْرين ، وهما الجانبان ، كأنَّه يَخاف عليه أن يُداس بالقوائم ، كما يُخاف على الصِّبيان والنِّساء ، لقلَّة غَنائه ، وضَعْف ثباته . وهذا فى بابه أبلَغ ما مرَّ بى . وفى طريقته قول حَجْلِ بن نَضْلَةَ :

جاءَ شَقِيقٌ عارِضاً رُمْحَهُ   إنَّ بنى عَمِّكَ فيهِمْ رِمَاحْ

وقول سَبْرَةَ بن عَمْرٍو الفَقْعَسِىِّ :

لَا شىءَ يَعْدِلُهَا ولكِنْ دُونَها   خَرْطُ القَتَادِ تَهَابُ شوكَتَها اليَدُ

وفى هذا تعريضٌ أيضًا . ومن التَّعريض ما أنشدتُه عن اليَزيدى [قال[1]]: أنشدنى الأصمعىُّ :

فَدَعْ شَوْكَ السَّيَالِ فلا تَطَأْهُ   وخُضْ إنْ خُضْتَ ماءً غيرَ غَمْرِ

وقول الآخر :

فأَرْضَكَ أرْضَكَ إنْ تَأْتِنَا   تَنَمْ نَوْمَةً ليس فيها حُلُمْ

(١) هذه من م والتيمورية .

٢ – أَتَسْأَلُنِي السَّوِيَّةَ وَسْطَ زَيْدٍ ... أَلَا إِنَّ السَّوِيَّةَ أَنْ تُضَامُوا

يُخاطِبُه مُقرِّرًا ومتوعِّدًا . والتقرير بألف الاستفهام ولا حرفَ نَفْيٍ مَعَهُ يكون فيما لا يُثْبَتُ ولا يُستَجازُ كَوْنُهُ . والسَّوِيَّةُ : الإنْصافُ ؛ وهى من الاستِواء كالجَرِيمةِ والدَّنِيَّةِ والخطيئة . وزَيْدٌ : قَبِيلةُ المُخاطَب . فيقول على وجه الإنكار والهُزْءِ : أتَسْأَلُ إنصافَكَ وأنت وسطَ رَهطِك وفيما بين عشيرتك ومحلِّ عِزِّكَ . ثم قال : إنَّ من السَّوِيَّةِ اهتضامَكُمْ وضَيْمَكُم ، وهذا من باب إبدالِ الشَّىء من الشَّىء . كقول الآخر[1] :

* تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ[2] *

والضَّرْبُ لا يكون تحيَّةً . والمعنى : أنهم يُعطَون بدَلَ الإنصافِ الظُّلْمَ ، لأنهم لا يستحقُّون غيرَهُ ، ولأنَّ النَّصَفَةَ لا تُصْلِحُهُم ولا توافِقُهُم .

٣ – فَجَارُكَ عِنْدَ بَيْتِكَ لَحْمُ ظَبْيٍ ... وَجَارِى عِنْدَ بَيْتِى لا يُرَامُ

يَصِفُهُم بسُوء الوفاء ، وقلّة المحافظة على عَقْدِ الجِوار ، فيقول : جارُكَ كالصَّيْدِ لمن يَطْلُبُهُ ، وبِعَرَضِ الأكل والاستباحة لمن يريدُهُ ، وهذا وهو فى فنائِكَ ، وغيرُ مُفارِقٍ لدارِكَ ، لضَعْفِ حِشمتك[3] وسقوطِ هِمَّتِكَ ، واستسخاف النّاس لِقَدْرِكَ ووزنِكَ ؛ وجارى لا يُطْلَبُ ولا يُطْمَعُ فيه لتَحَصُّنِ مكانِهِ فى فِنائى ، وتعزُّزِهِ بى ، ما دامَ مُتَمَسِّكاً بحَبْلِى ، أو مُعْتَصِماً بحِلْفِى . وإنما قال ذلك لأنَّ النِّزاعَ بينهما كان بسبب جارٍ . وإضافةُ اللَّحْمِ إلى الظَّبْىِ فى نهاية الموافقة للمعنى الذى يَقْصِدُهُ ، والغَرَضِ الذى كان يَرْمِيه . وقد جاء اللَّحْمُ غيرَ مُضافٍ إلى اسم الصَّيد فى الكناية عن الذُّلِّ والاهتضام . على هذا قولُهُم : هُوَ

(١) هو عمرو بن معديكرب الزبيدى . الخزانة (٤ : ٥٣) .
(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *
(٣) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « جسمك » .

لَحْمٌ مُوَضَّعٌ ، وهو لَحْمٌ على وَضَمٍ . وقد استُعْمِلَ الشَّحْمُ فى مثل ذلك ، على هذا قولُه :

* لِمَنْ كُنْتُ فِيهِ شَحْمُهُ وأطايِبُهْ *

وقولُ الآخر :

فَلَا تَحْسَبَنِّى يا ابْنَ أَزْنَمَ شَحْمَةً ... تَزَرَّدَهَا طَاهِى شِوَاءٍ مُلَهْوَجِ

وقد قال آخر سالكاً هذه الطريقة فى الكناية :

* ولَسْتُ خَلَاةً لِمَنْ أَوْعَدَنْ[1] *

وقالوا فى الذَّلِيلِ : هو قَقْعٌ ، وهو قَقْعٌ بِقَرْقَرٍ ، وهو بَيْضَةُ البَلَد .

١٨٩

وقال عبدُ الله بن عَنَمَة[2] :

١ — أَبْلِغْ بَنِى الحارثِ المَرْجُوَّ نَصْرُهُمُ ... والدَّهْرُ يُحْدِثُ بَعْدَ المِرَّةِ الحَالَا

قَوْلُهُ « والدَّهْرُ يُحْدِثُ » اعتراضٌ حَصَلَ بينَ أَبْلِغْ بنى الحَرْثِ و بين مفعولِه الثانى : وهو قَوْلُه ، « إِنَّا تَرَكْنا فَلَمْ نَأْخُذْ بِهِ بَدَلًا » .

ومِثْلُهُ مِمَّا قد دَخَلَ الاعتراضُ بينَهُ و بين المفعول قول أبى النَّجْم :

وبُدِّلَتْ والدَّهْــرُ ذو تَبَدُّلِ ... هَيْفًـا دَبُورًا بالصَّبَا والشَّمْأَلِ

وفى القرآن قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ يَـكُنْ بينَـكُمْ وَبَيْنَهُ

---

(١) للأعشى فى ديوانه ص ٢٢ . وصدره :

* وحولى بكر وأشياعها *

(٢) التبريزى : « عبد الله بن عنمة الضبى ، وهو من بنى غيظ بن السيد » . وعبد الله هذا من شعراء المفضليات ، له المفضلية ١١٤ ، ١١٥ . وهو عبد الله بن عنمة بن حرثان بن ثعلبة بن ذؤيب بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة بن أد بن طابخة بن الياس ابن مضر . هكذا ساق البغدادى نسبه فى الخزانة (٣ : ٥٨٠) ولعل فيما ذكر البغدادى خطأ أو نقصاً . وهو شاعر إسلامى مخضرم شهد القادسية . انظر الإصابة ٦٣٣٤ .

مَوَدَّةٌ يا ليتنى كنتُ معهم فأفوزَ فوزًا عظيمًا ﴾ ، لأنَّ قولَهُ يا ليتنى مفعولُ لِيَقُولَنَّ ، وكأنْ لم يكن اعتراضٌ . وكذلك الدَّهْرُ ذو تبدُّلٍ اعتراضٌ .
وقوله « المَرْجُوَّ نصرُهُمْ » فيه تعنيفٌ وتقريعٌ كما أنَّه[1] فى قولِهِ « والدهرُ يُحْدِثُ بعد المِرَّةِ الحالَا » هُزْؤٌ وسُخْرِيٌّ . وهؤلاء القوم كانوا تركوا عشيرتَهم وانتقلوا عنهم لِلُوثَةٍ حصَلَتْ بينهم إلى بنى الحارث طمعًا فى نيلِ ما يفوتُهُمْ مِنْهُمْ من جهتِهم ، فلمّا لم يجدوهم عند الظَّنِّ بِهِمْ تندَّموا ، فأخذَ هذا الشاعرُ منهم يَرْثِى بهذا الكلام مُعيِّرًا ومُتَلَهِّفًا ، فيقولُ : أبلغْ هؤلاء القومَ الذين رُجِيَ مَعُونتُهم وطُمِعَ في نُصْرَتِهم وذَبِّهم — والدَّهْرُ ذو غِيَرٍ وتلوُّنٍ ، فيتعقَّبُ فيه الشِّدَّةَ لِينٌ ، والقُوَّةَ ضَعْفٌ ، والعِزَّةَ ذلٌّ — رِسالتى إليهم . وإنما تُبيِّنَ من قولِهِ الحالَ ، وإن كان واحدَ الأحوال ، الضَّعْفُ ، والمعنى الذى ذكَرْتُه لقولِهِ يُحْدِثُ بعْدَ المِرَّةِ . وحكى بعضُهم أنَّ هذا كما يُقال تركْتُهُ بحالٍ ، للمُشْرِف على الشَّرِّ أو الهلاكِ ، والمراد بحالِ سوْء ، فكذلك هنا يُريدُ والدَّهْرُ يُحْدِثُ الحالَةَ المُنكَرَةَ بعد المِرَّةِ . وقيل أيضًا الحال : التُّرابُ اللَّيِّنُ والحَمْأَةُ ، فاستعارَهُ للضَّعْفِ واللِّينِ .

٢ — إنَّا تركْنا فلَمْ نأخُذْ بِهِ بَدَلَا عِزًّا عزيزًا وأعمامًا وأخْوالَا

يَقُولُ : أدِّ إليهم أنّا بمفارقةِ قوْمِنا تركْنا أقاربَ من جهة الآباء والأمَّهات ، متناصِرَةً على دِفاع حوادثِ الدَّهْرِ متعاوِنةً ، وظَهْرًا ظَهيرًا ، وعِزًّا مُتناهِيًا قويًّا ، ولم نعتَضْ مِنْهُمْ ما فيه طائلٌ . قولُه « وأعمامًا وأخوالًا » أى تركْناهم وهم من البِرِّ والشفقة على ما يكونُ عليه الأعمامُ والأخْوال ، وفيما يُرْجى من الوُفُورِ بهم والتأبُّدِ بمكانِهم . وقولُه « عِزًّا عزيزًا » ، من شأنِهم أن يشتقُّوا

(١) فى النسخ « أن » ، ولا يستقيم إعراب العبارة .

من لَفظ الشيء الذى يُريدون المُبالغةَ فى وصفِهِ بِناء يُتْبِعُونَهُ به تأكيداً وتَنْبِيهاً على تَناهِيهِ فى مَعْناهُ . على ذلك قولُهُمْ : ظِلٌّ ظَلِيلٌ ، وداهِيَةٌ دهْياء ، وشِعْرٌ شاعِرٌ .

٣ — قد كُنْتُ آخذُ حَقِّى غيرَ مُهْتَضَمٍ وَسْطَ الرِّبَابِ إذا الوادِى بِهِم سَالاَ

هذا الكلامُ توجُّعٌ وتَلَهُّفٌ فى إثْرِ مافاتَهُ من قومِهِ ، بما حَصَل من فسادِ ذاتِ بينِهم ، حتَّى صاروا إلى التَّبايُنِ ، والتمايُزِ بالأبدانِ والتهاجُرِ . فيقول : كُنْتُ أتقاضَى بحُقُوقى بينَ ظَهْرانَيْهم فأقتضيها وأستوفيها غير مهضومٍ ولا مَهِينٍ إذا جاءوا مُحْتَفِلِينَ تمتلئُ منهم الطُّرُق والفِجاجُ ، وتَسِيلُ بهم المَذانِبُ والتِّلاعُ . ومِثْلُ قولِهِ « إذا الوادى بِهِم سَالاَ » ، قولُ الآخرِ (١) :

* وسَالَتْ بأعْناقِ المَطِيِّ الأباطحُ (٢) *

٤ — لا تَجْعَلُونا إلى مَوْلًى يَحُلُّ بِنا عَقْدَ الحِزامِ إذا ما لِبْدُهُ مَالاَ

المَوْلَى فى البيتِ : النَّاصِرُ أو الوَلِيُّ لاغيرُ . وكأنَّه أقبلَ على قومِهِ يستعطِفُهُم ، ويشكُو إليهم ما لاقوهُ من غيرِهِمِ . فيقولُ : تلافَوْا أمْرَنا ولا تَكِلُوهُ إلى ناصرٍ يُؤْثِرُ صلاحَ حالِهِ وإنْ فَسَدَ حالُنا ، ويَرُومُ انتعاشَهُ وإن سَقَطْنا ، ويُسَوِّى لِبْدَهُ إذا اعْوجَّ وزالَ عن مَقَرِّه بِنا . وهذا تَعْرِيضٌ لمن كانوا انتقلوا إليهم ، كأنهم كانوا يُؤْثِّمهم ما يختصُّ بأنفسِهِمْ ، ثم لا يَحْفِلُونَ بما يَخْتَلُّ من شأنِ هؤلاء أو يَنْحَلُّ من عَقْدِهِم .

وفى هذه الطريقة قول الآخر :

(١) هو كثير عزة ، أو يزيد بن الطثرية ، أو عقبة بن كعب بن زهير . معاهد التنصيص فى (شواهد الاستعارة) .

(٢) صدره : * أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا *

وكُنَّا فوارِسَ يومَ الهرِيرِ ... إذا مالَ سَرْجُكَ فاستَقْدِمَا[١]

وأفصَحُ من هذا قول ابنِ أحمر :

فَإِمَّا زَالَ سَرْجٌ عَنْ مَعَدٍّ ... وأَجْدِرْ بالحوادِثِ أنْ تَكُونَا

١٩٠

وقال ابن عَنَمَةَ أيضًا :

١ — مَا إنْ تَرَى السَّيِّدُ زَيْدًا فى نفُوسِهِمِ ... كَمَا يَرَاهُ بَنُو كُوزٍ ومَرْهُوبُ[٢]

السَّيِّدُ : قَبِيلَةٌ ، وكذلك كُوزٌ ومَرْهُوبٌ . وقولُه « ما إنْ » إنْ زِيدَتْ لتأكيد النَّفى . وذَكَرَ سِيبوَيْهِ أنَّ ما الحجازيَّةَ إذا قُرِنَ بإنْ هذه يبطل عملُه ، يقولُ : بنو السَّيِّدِ لا يَقْسِمُونَ لِزَيدٍ من التَّعظيم ، ولا يُوجِبُونَ له فى نفُوسِهِم من الحُرْمَةِ والتَّبْجِيلِ ، ما يُوجِبُهُ ويقْسِمُهُ بَنُو كُوزٍ ومَرْهُوبٌ . والضَّمِيرُ على هذا من قوله « فى نفُوسِهِم » يكونُ للسَّيِّدِ . ولا يمتنعُ أن يكونَ الضَّميرُ لِزَيدٍ لأنَّه قَبيلةٌ أيضًا . وهذا كَمَا يُقالُ : لَكَ فى نَفْسِكَ حَقٌّ ومَنزلةٌ . كأنَّ زَيْدًا كان له إذا راجع نَفْسَهُ من التَّوجيهِ والإدْلال ، والتَّخَصُّص والاعتزاز فى بنى كوزٍ ومَرْهُوبٍ ، ما لا يكادُ يجِدُهُ فى بنى السَّيِّد .

٢ — إنْ تَسْأَلُوا الحَقَّ نُعْطِ الحَقَّ سائِلَهُ ... والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ والسَّيفُ مَقْرُوبُ

يقول : إنْ وَقَفتم عند ما يَثبت من حَقِّكم ، ورضيتم بما لا نَجْحَدُهُ من واجبِكمُ ، ولم يُخَيِّلْ [إليكم[٣]] أنَّ طَلَبَ ما فَوْقَه أعْوَدُ عليكم ، خَرجْنا منه

(١) للربيع بن زياد العبسى . الحماسية ١٦٣ .
(٢) هذه الأبيات هى المفضلية رقم ١١٥ ، وانظر الخزانة (٣ : ٥٧٦ — ٥٨٠) .
(٣) التكملة من م والتيمورية .

إليكم من غيرِ إباء ولا امتناع ، ولا احتِيَاجِ حَرْبٍ أو إعْمالِ سِلَاحٍ . وقوله « والدِّرْعُ مُحْقَبَةٌ » أى مشدودةٌ فى الحقائبِ ، لأنه أرادَ بالدِّرْعِ الجِنْس . والاحتقاب والاستحقاب : شَدُّ الحقيبة من خَلْفٍ . وكذلك قولهُ « والسَّيْفُ مَقْرُوبُ » أى متروكةٌ فى قُرُبِها ؛ لأنَّه أرادَ السُّيُوف . ويقال : قَرَبْتُ السَّيْفَ وأقربتُهُ ، وغَمَدتُه وأغمدتُه . وقال أبو زيدٍ : القِرَابُ : غِشاء يكون السَّيفُ مُغْمَداً فيه . واحتجَّ بقوله :

يا رَبَّةَ البَيْتِ قُومِى غَيْرَ صَاغِرَةٍ ضُمِّى إليكِ رِحالَ القومِ والقُرُبا[1]

٣ — وإنْ أبَيْتُمْ فإنَّا مَعْشَرٌ أُنُفٌ لا نَطْعَمُ الخَسْفَ إنَّ السُّمَّ مَشْرُوبُ[2]

يقول : إنْ عدوتُمْ طَوْرَكُمْ ، وتجاوزتُم فى الطَّلب حَقَّكُم إلى ما ليس لكُم ، فإنَّ أنفتنا تمنعُ من احتمالِكُم ، والتزام شهواتِكُمْ ، وحَمِيَّتَنا تأبى الرِّضَا بالتَّحكُّم ، والصَّبْرَ على الاقتسار والتهضُّم ، فلا نَطْعَمُ الخسفَ وإن شربنا السُّمَّ . والخَسْفُ : أن يحمِّلكَ إنسانٌ ما تكرهُهُ . ومن الصَّنعة الحسنةِ مقابلته الطَّعْمَ بالشُّرْبِ ، واستعارتُه إيَّاهما فى تَجرُّعِ الغُصَّةِ ، وتوطين النَّفسِ على المَشَقَّةِ ، عند إزالة المَذَلَّةِ ، وردِّ الكريهة . وأُنُفٌ : جمع أَنُوفٍ . والمَعْشَرُ : الجماعة أمرُهُم واحِدٌ ، ويقال : جاء القَوْمُ مَعْشَرَ مَعْشَرَ ، أى عَشَرَةً عَشَرَةً .

٤ — فَازجُرْ حِمارَكَ لا يَرْتَعْ بِرَوْضَتِنَا إذًا يُرَدُّ وقَيْدُ العَيْرِ مَكْرُوبُ[3]

هذا مَثَلٌ . والمعنى : انقَبِضْ عَنِ التعرُّض لنا ، والدُّخول فى حُرْمَتِنا ،

---

(١) لمرة بن محكان . الحماسية ٦٧٥ .

(٢) المفضليات : « لا نطعم الذل » .

(٣) التبريزى عن أبى محمد الأعرابى : « إنما معنى قوله ازجر حمارك ، يعنى به فرس زيد الفوارس ، واسمه عرقوب ، فكنى عنه بالحمار على سبيل التهكم والهزء . وقوله : وقيد العير مكروب ، أى إنهم يعقرونه ، والعقر أضيق القيود » ، وانظر لإعراب هذا البيت الخزانة (٣ : ٥٧٦) وسيبويه (١ : ٤١١) .

ورَعْيِ سَوَامِكَ روضَنا ؛ فإنَّكَ إن لم تفعلْ ذلكَ ذَممتَ عاقبةَ أمرِك ، وعُدْتَ خاسِرَ الصَّفْقةِ وخيمَ الرِّتْعةِ . جعَلَ إرسالَ الحمارِ في حِماهُمْ كِنايةً عن التَّحكُّكِ بهم ، والتَّعرُّضِ لمساءَتِهم . ولا حِمارَ ثَمَّ ولا رَوْضَ[(١)] . وقال ابن الأعرابي : أراد اكْفُفْ لِسانكَ . قوله « إذاً » قال سيبويه : هو جوابٌ وجزاءٌ ، فالابتداء الذي هو جزاؤه محذوفٌ مُستدَلٌّ عليه بما في كلامِهِ ، كأنَّهُ قال فإنَّهُ إنْ رَتَعَ رَجَعَ إليك وقد ضُيِّقَ قيدُهُ ، أي مُلِئَ قَيْدُهُ فَتْلاً حَتَّى لا يَمْشِيَ إلّا بِتَعَبٍ ، كأنَّهُ يُضْرَبُ أو يُسْتَعْمَلُ حتى يَرِمَ جِسْمُه ويؤدِّي الوَجَع منه إلى موضِعِ حافِرِه فيضيق عليه القَيْدُ .

٥ — إنْ تدْعُ زَيْدُ بَنِي ذُهْلٍ لِمَغْضَبَةٍ نَغْضَبْ لِزُرْعَةَ إنَّ الفَضْلَ مَحْسُوبُ

يقول : إن غَضِبَ بنو ذُهْلٍ لِزَيْدٍ وامْتَعَضُوا من ضَيْمٍ يَرْكَبُها ، وأغاثُوها إذا استجارَتْ بهم ، غَضِبْنا لِزُرْعَةَ ، وانْتَقَمْنا له مِمَّن يهتضِمُهُ ، إنَّ الفَضْلَ معدود . فالمعنى : إنَّه لا فَضْلَ لكم علينا فقد عددنا مالَكم ، فلم نَجِدْ زِيادَةً لكم ، ولا استظهارًا يوجِبُ لكم التَّعلِّيَ والتَّغلُّب . وإذا كان الأمر بيننا على التساوي فلا استبداد ولا احتكام . ويُرْوَى : « إنَّ القَبْصَ مَحْسُوبُ[(٢)] » ، وهو العَدَدُ الكثير ، ويكون الكلام مَثَلًا . ويقال إنَّهم لفي قِبْصِ العَدَدِ وفي قِبْصِ الحَصَى ، أي في أكثر ما يُستطاع عَدُّهُ من كَثْرَتِهِ ، والمرادُ : إنَّ الأعداد الكثيرة تُضْبَطُ وتُحْصَرُ ، فكيفَ ما بيننا من تفاوُتٍ[(٣)] وتفاضُلٍ ، أو تَساوٍ وتعادُلٍ .

٦ — ولا يَكُونَنْ كَمُجْرَى داحِسٍ لكُمُ في غَطَفَانَ غَداةَ الشِّعْبِ عُرْقُوبُ

كان التَّنازُعُ بينهم في رِهانٍ وَقَعَ على عُرْقُوبٍ ، وهو فَرَسٌ لهم . فيقول :

---

(١) انظر ما سبق في الحواشي . (٢) وهذه هي رواية المفضليات .

(٣) في جميع النسخ : « تقارب » .

لا يكُونَنْ جرَىُ عُرْقوبٍ عليكم في الشُّؤم كجَرْيِ داحسٍ في غطفان غَداة شِعْب الحَيْسِ. فقوله «عُرْقوب» ارتفع على أنَّهُ اسمُ لا يكونَنْ، وقد حَذف المُضافَ وأقامَ المضافَ إليه مقامَه، لأنَّ المراد: ولا يكونَنْ مجرى عُرْقوبٍ كمجرى داحسٍ. وقوله «غَداةَ الشِّعب» ظَرْفٌ لقوله كمُجرى. وجعَل النَّهيَ في اللَّفظ لعُرْقوبٍ وهو في المعنى لهم. حَذَّرَهُم استعمالَ اللَّجاج لئلاَّ يتأدَّى الأمرُ إلى مثلِ ما تأدَّى في رِهانِ داحسٍ والغَبْراء. ومثْلُ هذا من النَّهي قولهم: لا أُرَيَنَّكَ ها هنا.

١٩١

وقال الأخضَر بن هُبيرةَ[١]:

١ – ألاَ أيُّهذَا النابحُ السَّيدَ إنَّنِي   على نأْيِها مُسْتَبْسِلٌ من ورائِها[٢]

وَصْفُ أيٍّ بذا غيرُ جارٍ على سَنَنِ ما يُجلَبُ له الصِّفاتُ، لأنَّ الصِّفَةَ شرحُ الكلامِ وتبيينُه، ومُزِيلُ اللَّبْسِ عنهُ، وإذا كانَ أيٌّ وذا مُبهمَينِ فالانشراح غيرُ حاصلٍ بهما، لكنَّهُ لمَّا كان المُعوَّل على ما يَتْبَعُه من المُعرَّفِ بالألف واللام صار ذا كأنَّه لا اعتدادَ به في الشَّرحِ. فيقول: أيها المتعرِّض لبنى السَّيدِ والمُتنقِّصُ لهم، والناحِتُ أَثْلتَهم، إنني على بُعْدِها منِّى مُدافعٌ عنها وذابٌّ، مع تغيُّبهم دُونها، قضاءً لحقِّ الشَّرفِ، وذهابًا مع النَّصَفةِ. ويقال بَسَلَ واستَبسَلَ وتبَسَّلَ بمعنًى. وقال الخليل: استَبْسَلَ الرَّجُل، إذا وطَّنَ نفسه على الموت

(١) هو الأخضر بن هبيرة بن المنذر بن ضرار بن عمرو بن مالك بن كعب بن بجالة بن ذهل ابن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة، والمقطوعة رواها التبريزى لولده الفضل بن الأخضر، ثم نقل عن أبي هلال أنها للأخضر، وانظر للأخضر المؤتلف ٣٤.

(٢) التبريزى عن أبي هلال: «من عادة كلاب الأعراب أن تنبح السحاب لأنه يؤذيها بعطره، وإذا رأت القمر ظنته قطعة سحاب فنبحته أيضاً، وليست تضره، فجعل هذا مثلا للذى ينال من الشريف ويقع فيه ولا يضره».

واستَيْقَنَ به[١] . وقد استعار أبو ذُؤَيبٍ النُّبَاحَ للتعرُّضِ والإيذاء ، كما فعل هذا ، فقال :

ولا هَرَّها كَلْبِى لِيُبْعِدَ نَفْرَها ولو نَبَحَتْنِى بالشَّكَاةِ كِلابُها

وقوله « على نَأْيِها » موضِعُه نَصْبٌ على الحال ، لأنَّ المعنى أستبسِلُ من ورائها بعيدةً .

٢ — دَعِ السَّيِّدَ إنَّ السَّيِّدَ كانتْ قَبِيلَةً تُقَاتِلُ يَوْمَ الرَّوْعِ دون نِسائها

يقول : اترُكْ ذكر هؤلاء القَوْم ولا تَطْلُبْ عَيْبَهم ، فإنَّها قبيلةٌ ذاتُ أنَفٍ وإباء ، فما لَحِقَهم منذ كانوا عارٌ فى حُرْمَةٍ ، ولا أصابَهم سِباءٌ عند غارة ، بل كانت تَحْفَظُ على عِلّاتِها نِساءَها ، وتَبتذِلُ عند الفزع مَصُوناتِ نفُوسها ، وهذا تَعْرِيضٌ بالمُخَاطَبين وأنَّهم بخلاف ذلك .

٣ — عَلَى ذَاكَ وَدُّوا أنَّنى فى رَكِيَّةٍ تُجَذُّ قُوَى أسْبَابِها دُونَ مَائِها

ذاكَ من مِثْل هذا الموضع لا يُثَنَّى ولا يُجْمَعُ ولا يُؤَنَّثُ[٢] ، ويشار به إلى المُقتَصِّ من الحال . يقول : وعلى ما ذكرتُه فيهم ، ومَعَ مُحافَظتِى على ما يجبُ عَلَىَّ لهم ، ليسوا إلىَّ بأوِدّاء ، بل يتمنَّون أنِّى فى بِئْرٍ تُقْطَع طاقاتُ حِبالها دونَ الوصول إلى مائها ، لبُعْدِ قَعْرِها . وهذا الكلام إعلامٌ بأن تَعَصُّبه لهم ، ليس عن مُصادقةٍ بينهم توجب إعارةَ الشهادة فيهم ، أو مواخاةً تؤلِّفهم وتَعْطِفُ أواصرَهُم عليهم ، لكنَّه رأى حَقًّا فقاله ، وتَحمَّل صِدقًا فأدّاه . وقوله « دون مائها » فى موضع الحالِ لأنَّ دونَ للقاصر عن الشىء . والتقدير : تُجَذُّ القُوَى قاصِرةً عن الماء .

(١) فى الأصل : « إذا وطن على الموت واستيقن » والتكملتان من م والتيمورية .

(٢) الحق أن هذا أحد المذاهب فى استعمال كاف الخطاب المصاحبة لأسماء الإشارة ، ومنهم من يستعملها استعمال الكاف الاسمية فتطابق أحوال المخاطب من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث . انظر همع الهوامع (١ : ٧٦) وشرح المفصل (٣ : ١٣٥) .

١٩٢

وقال سِنانُ بن الفَحلِ [١] :

١ — وَقالُوا قَدْ جُنِنْتَ فَقُلْتُ كَلَّا ... وَرَبِّى ما جُنِنْتُ ولا انْتَشَيْتُ [٢]

كانَ الواجبُ أن يَقُول قالُوا جُنِنْتَ أو سَكِرْتَ ، فاكتفى بذكر أحدِهما لأنّ النفى الذى يَتعقَّبُ فى الجوابِ يَنْظِمهما . ومِثْلُ هذا قول الآخر [٣] :

فما أدرِى إذا يمَّمْتُ وَجْهًا ... أُرِيدُ الخَيْرَ أيُّهما يَلِينى

لأنّ المُرادَ أُريدُ الخيرَ وأجتنبُ الشَّرَّ أيُّهما يلينى ، فاكتفى بذكر أحدِهما لأنّ ما بعده يُبيِّنُهما : ولِـكَلَّا موضعان : أحدُهما أن يكون للرَّدْع والزَّجْرِ ، وحينئذ يصحُّ الاكتفاء به والوَقْفُ عليه . والثانى أن يكون للتنبيه كألاَ ، وحينئذ يحتاج ما بَعْدَهُ إلى ما يتم به . وسيبويه قَصرَ تفسيره على أنّه للرَّدْع والزَّجر . والشَّاعرُ أراد قال النَّاس فِيَّ لمّا أظهرْتُ إنكارى ، وتشدّدت فى إبائى ، وتَحَفَّظْتُ عند ما عُرِضَ وجُشِّمَ ، واستنكفتُ مِمّا سِيمَ وكُلِّفَ : إنّه قد جُنَّ أو سَكِرَ . فزجرْتُهم وردعتهم ، وحَلفتُ باللهِ نافياً لما نُسِبْتُ إليه ووُسِمْتُ به من الجنون والسُّكْر جميعاً . ثم أخذَ يبيِّنُ كيف استَنْـكَرَ ما دُفِعَ إليه ، واشمأزَّ مِمّا عُرِضَ عليه حتى قيل فيه ما قيل . والانتشاء والنَّشْوَةُ : [السُّكْر [٤]]

---

(١) التبريزى : « سنان بن الفحل أخو بنى أم الكهف ، من طيء » . وفى الخزانة (٢ : ٥١٣) : « سنان بن الفحل شاعر إسلامى فى الدولة المروانية » .

(٢) الخزانة : « قال أمين الدين الطبرسى فى شرح الحماسة : قد عيب على أبى تمام إيراد مثل هذه الأبيات فى باب الحماسة ، والبكاء على الظلم ضعف وعجز . والوجه فيه أن بكاءه كان لمطالبتهم ما ليس لهم ولا سبيل له على الاعتناف والمغالبة فعل أهل الجاهلية ؛ إذ لا يراقب دين ولا يرهب سلطان » .

(٣) هو المثقب العبدى . المفضليات (٢ : ٩٢) .

(٤) التكملة من م والتيمورية .

٢ـ ولكنّى ظُلِمْتُ فكدتُ أبْكِى   من الظُّلْمِ المُبيَّنِ أو بكَيْتُ

لكن استدراكٌ بعدَ نفى . وهذا الكلامُ بيانُ ما أنكرَ منه حتى قيل إنه جُنّ . وذكر البكاء ليُرِىَ أنفتَهُ وامتعاضَهُ ، وإنكارَه لِما أُريدَ ظُلْمُهُ فيه واغتياظَه . فأمّا العربُ فإنها تَنْسُبُ أنفسَها إلى القَساوةِ ، وتُعَيِّرُ من يبكى لذلك . [قال مهلهل (١)] :

يُبْكَى علينا ولا نَبْكِى على أحَدٍ   لَنَحْنُ أغْلَظُ أكبادًا من الإبِلِ

يقول : لكنْ عُرِضَ عَلَىَّ ضَيْمٌ لم آلَفْه ، واستنزِلْتُ عن حَقٍّ لِى طالَ مُلازَمَتِى له ، فشارفْتُ البكاءَ أو بكَيْتُ . كل ذلك لاستِنكافى ممّا نَدَبُونى إليه وتعجُّبِى مِمّا راوَدُونى عليه .

٣ — فإنَّ الماءَ ماءُ أبِى وجَدِّى   وبِئْرِى ذو حَفَرْتُ وذو طَوَيْتُ

صرّح بما أُريدَ غَصْبُه عليه فقال : هو ماءٌ موروثٌ عن الأسلافِ وحِمًى معروفٌ بى وبهم ، سلّمَهُ النّاسُ لنا على مَرِّ الأيّامِ ، وبِئْرٌ تولّيْتُ استحداثَها وحَفْرَها وطَيَّها . وقوله « ذو حَفَرْتُ » ذو لُغةٌ طائيّةٌ فى معنى الذى . يقولون : هذا ذُو قال ذلك ، ورأيْتُ ذُو قال ذَلكَ ، ومررْتُ بِذُو قال ذلك ، فيحتاجُ من الصِّلَةِ إلى مِثْلِ ما يحتاجُ إليه الذى ، لكنّها تَقَعُ فى لُغَتِهِم للمُذَكَّرِ والمؤنّث ولهذا صَلُحَ أن يقولَ « وبِئْرِى ذو حَفَرْتُ » ، والبِئْرُ مؤنّثَةٌ .

٤ — وقبلَكَ رُبَّ خَصْمٍ قد تَمالَوْا   عَلَىَّ فما هَلِعْتُ ولا دَعَوْتُ

نبّهَ على حُسْنِ ثَباتِه فى وجْه الخصوم ، وتمرُّنِه بمجاذبتهم قديمًا وحديثًا ، وتحكُّكِه بهم على احتفالٍ منهم فى مناوأته سالفًا وآنفًا ، فيقول : وقد بُليتُ قبلكَ بقوم لُدٍّ تألّبُوا علَىَّ وتعاونوا ، فلم أجْزَعْ لِمَا مُنِيتُ بهم جزَعًا فاحشًا ،

---

(١) التكملة من م والتيمورية .

ولا استَنصرتُ عليهم غيرى عند دِفاعِهم استنصارًا مكروهًا . والهَلَعُ : أفحش الجزَع . وتمَالوْا ، هو تفاعَلُوا من قولهم هو مَلِيٌ بكذا . فإن قيل : كيف قال هَلِعْتُ ، وقد قال فيما قبلَهُ : «فكِدْتُ أبكى من الظُّلْمِ المُبَيَّنِ أو بكَيْتُ» وهل الهَلَعُ إلا البكاء والجزَع ؟ قلتُ : إنّ الهَلَع هو الجزَع الفاحش الذى يظهر فيه الخضوعُ والانقياد ، فهذا هو الذى انتضَح منه[1] ، وزعَم أنه لا يَظْهر عليه . والبكاء الذى ذَكر أنه شارَفَه أو كاد يشارِفُه قد بَيَّنّا أنه كان منه على طريق الاستنكاف والامتِعاض ؛ فإذا كان كذلك فإنه لم يكُنْ عن تخشّعٍ وتذلُّلٍ ، ولا انقيادٍ واستسلامٍ ، وسَلِمَ الكلامُ من التناقُضِ والفَساد .

٥ — ولكنّى نَصَبْتُ لَهُمْ جَبِينى وَأَلَّةَ فارِسٍ حتى قَرَيْتُ

يقول : ولكنّى صَبَرْتُ لهم ، وانتصَبْتُ فى وجوههم ، وهيّأتُ عُدّتى وسِلاحى لدفْعِهم ، دارِئًا فى نُحُورِهم ، مُحلِّئًا لهم عن وُرُودِهم ، فِعْلَ الفارسِ الذابِّ المانع يوم الحِفاظ ، [حتّى[2]] خلَّصْتُ من غَصْبِهم حَقّى ، وقَرَيْتُ الماء من دُونِهم فى حوضِى . والأَلَّةُ : الحربة ، وجمعها إلالٌ ، وأصْلُه البَرِيقُ واللَّمَعانُ . والقَرْىُ : الجَمْعُ .

١٩٣

وقال جابر بن حَرِيشٍ[3] :

١ — ولقد أرانا يا سُمَىَّ بحائلٍ نَرْعَى القُرَىَّ فكامِسًا فالأصْفَرا

(١) انتضح من الأمر ، بالضاد المعجمة : أظهر البراءة منه ، وفى جميع النسخ : « انتصح » تحريف .

(٢) التكملة من م والتيمورية .

(٣) الظاهر أنه شاعر طائى .

٢ - فالجِزْعُ بَيْنَ ضُباعةٍ فرُصافةٍ ... فعُوارِضٍ جوِّ البسابسِ مُقْفِرا (١)

٣ - لا أرضَ أكْثَرُ منكِ بَيْضَ نعامةٍ ... ومذانِبًا تَنْدَى وروضًا أخضرا (٢)

٤ - ومُغَيَّبًا يَحْمِى الصِّوارَ كأنَّه ... مُتَخَمِّطٌ قَطِمٌ إذا ما بَرْبَرا (٣)

٥ - إذْ لا يخافُ حُدُوجَنا قَذَفُ النَّوَى ... قَبْلَ الفَسادِ إقامةً وتَدَيُّرا

قولُه « أرانا » حكايةُ الحال ، وما يستمِرُّ ويتَّصل من الأفعالِ إذا أُرِيدَ فيه الإخبارُ عن الماضِى قد يُؤتى بلفظِ المُستَقْبَل فيُوضَع مَوْضِعَ بناء الماضِى . على ذلك قوْلُه :

ولقَدْ أمُرُّ على اللئيمِ يَسُبُّنِى ... فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لا يَعْنِينِى (٤)

ألا تَرى أنَّه قال أمُرُّ ، ثم قال فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ . كذلك هذا قال ولقد أرانا ، ثم جاء فى آخرِ الأبيات فقال : إذ لا يخافُ حُدُوجَنا قَذَفَ النَّوَى . فإنْ قيل : كيف جاز أن يقول أرانى وأرانا ، وأنت لا تقولُ أضرِبُنا ولا أضرِبُنِى ؟ قلتَ : أفعالُ الشَّكِّ واليقين يجوز ذلك فيها وإن امتنَع فى غيْرِها ، لأنَّ تأثيراتِها فى المفعول الثانى من المفعولَيْن ، إذْ كان الشَّكُّ واليقين يتعلَّقان به لا بالأوّل ، فصار لذلك المفعول الأوّل كأنّه غير الثانى ، وكاللغو الذى لا تأثِيرَ لَهُ فى حُصُولِ الفائدة ، فجرَى الثّانى من الأوّل لذلك مَجْرَى الأجنبِىّ . وإذا قُلْتَ أضرِبُنِى أو أضْرِبُنا لم يَصِرْ أحَدُ الضّميرَين كالأجنبىّ من الأوّل لا لفظًا ولا معْنًى ، والمُعتادُ فى الفاعِلِ والمَفعول مغايَرةُ الثّانى للأوّل ، فلما كانَ الأَمْرُ على ذلك لم

(١) التبريزى : « ويروى : رضافة ، بالضاد منقوطة » ، وأشار أيضاً إلى رواية : « حو البسابس » ، قال : « والحو : جمع أحوى ، وهو الأسود ، والمراد به النبت » .

(٢) م : « لا روض » .

(٣) التبريزى : « ويروى : مغبياً ، أى ثوراً له غبب » . م : « يحمى الصوار » .

(٤) لرجل من بنى سلول ، كما فى الخزانة (١ : ١٧٣) .

يَجُزْ فيه ما جاز فى الأوّل . يُبيِّنُ هذا أنك لو قُلْتَ ضَرَبْتُ نَفْسى أو أضربُ نَفْسى لَصَلُحَ ، للتَّغايُرِ الحاصِلِ فى اللفظ ، فاعْلَمْهُ .

وقولُه حائل : اسم وادٍ . والقَرِيُّ : مجرى الماء إلى الرَّوضةِ ، وكامِسٌ والأصْفَرُ : مكانانِ . وضُبَاعَةُ ورُصَافَةُ : جَبَلان ، وكذلك عُوارِضُ[1] . وجوَّ البَسابِسِ أى داخِلَ البَسابِسِ ، وهى المفاوز الواسعة الخالية . والجَوُّ : الهواء بين السَّماء والأرضِ أيضاً . والمُقْفِرُ : الصائرُ فى القَفْرِ ، وهو المكان الخالِى . وانتَصَبَ جوَّ على الظَّرْفِ ، ومُقْفِراً على الحال .

ومعنى الأبيات : كُنَّا نَرَى أنفسَنا يا سُمَيَّةَ بهذا الوادى ، ونحن ننتقل فى هذه المراتع التى ذكرتُها ، ونَتَحوَّلُ[2] بين هذه المناجع التى عددتها الحاصلةِ [فى] جوَّ الأرضِينَ المستوية ، وفى أثناء الأرضين المُقْفِرة ، ولا أرضَ أكْثَرَ خِصْبًا من أرضِكِ وخَيْرًا ، وأندى مذانِبَ وتِلاعًا ، وأحْوَى لبيضِ النَّعام ، وأجمعُ لخضر الرياض التى يستوطِنها الوحوش من البقر وغيرِها ؛ وثَوْرُهَا يحفظ قطيعَهُ وكأنه لنشاطه إذا جَأَرَ فَحْلٌ هائج متغضِّبٌ أيّامَ أمِنَّا عادِيَةَ النَّوَى ، وبائقة الدَّهرِ والأذى ، ولم تخَفْ نِساؤُنا من تَرامِى الغُرْبَةِ ، وتقاذُفِ الشُّقَّةِ ، ولم يَقَعْ بين العشائرِ حَرْبُ الفَسادِ ، وضرر التَّهاجُرِ والبِعاد ، ونحن مُتَدَيِّرُون ومقيمون ، وفى أنواع النِّعْمَةِ والنَّعْمَةِ متردّدون ، ولدار السَّلامة والخَفْض مستوطنون .

وهذا الكلام تحسُّرٌ فى إثْرِ أيَّام السَّلامَةِ ، وتَشَكٍّ من أيام الفِتْنَة .

وقولُه « إذْ لا يخافُ » ظرفٌ لقولِهِ ولقد أرانا . وقولُه « قَبْلَ الفَسادِ » بَدَلٌ منه ، والمَذانِبُ : مسايلُ المياه . ومَعنَى « أكْثَرُ منك بَيْضَ نعامةٍ » أكْثَرُ من أرضِك ، فحذَفَ المُضاف ، وانتصَبَ « بيْضَ » على التمييز . وقولُه

(١) التبريزى : « وعوارض : جبل عليه قبر حاتم الطائى » .
(٢) تنحول ، بالحاء المهملة فى جميع النسخ .

« ومذانِباً » انتَصَبَ على أنّه معطوفٌ على بيض نَعامَةٍ ، وتَنْدَى فى موضع الصفة للمذانب ، أى نَدِيةً ، وكذلك « ورَوْضًا » و « معيّناً » . والمُعَيَّنُ : الثّور الكبير العين . والصُّوار : القطيع ، واشتقاقه من صُرْتُه أى قطعته . والحُدُوج : المراكب ، ونَسَبَ الخوفَ إليها مجازاً ، لأنَّ المرادَ بها النِّساء ، وقولُه « متخمِّطٌ » شبَّهَ الثّور بفحلٍ له سَوْرَةٌ وجَلَبَةٌ ، لاهتياجِه وغَضَبِه ، ومنه قيل للبحر إذا التطَمَتْ أمواجُه : هو خَمِطُ التّيّار . والقَطِمُ : الهائج . وبَرْبَرَ : صوّت . وقَذْفُ النّوَى : رَمْيُه . وقوله « قَبْلَ الفَسادِ » يريدُ قبلَ حربِ الفَسادِ ، وإنّما سمّيت بهذا الاسم لأنَّ بَعْضَهم كان يَشربُ فى قِحْفِ رأسِ صاحِبه إذا قَتَله ، ويخصِفُ نعلَهُ بأذُنه ، إظهاراً للتّشفّى . وانتَصَبَ « إقامةً » على أنّه مصدر لِعلّةٍ ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال ، فتقديرُ الأوّل : لا تَخافُ قَذْفَ النّوَى لإقامَتِنا وتديُّرنا ، وتقدير الثانى : لا تخافه مقيمين ومتديِّرين . ويقال ما بالدار ديّارٌ ، ودارِيٌّ ، ومنه قوله :

* لَبِثْ قليلاً يَلْحَقِ الدارِيُّون[1] *

والأصل فى تَديَّرَ الواو ولكنّه بَنَوْهُ على ديّارٍ ، لإلْفِهِمْ له بكثرة تَرَدُّدِه فى كلامهم .

١٩٤

وقال إياس بن مالكٍ[2] :

١ — سَمَوْنا إلى جَيْشِ الحَرُورِىّ بَعْدَما تَناذَرَهُ أعْرابُهم والمُهاجِرُ

(١) الرجز فى المقاييس واللسان (دور) . وقد فسر الدارى بأنه رب النعم والمال ، سمى بذلك لأنه مقيم فى داره .

(٢) هو إياس بن مالك بن عبد الله بن خيبرى المعنى الطائى ، شاعر من شعراء صدر =

يقولُ : سَمَتْ أبصارُنا ونفوسُنا ، وارتفعتْ هِمّاتُنا إلى محاربةِ الحَرُوريّةِ — وهم فِرقةٌ من الخوارج — بعد اشتداد شَوْكتِهم وتكاثُفِ عَدَدِهم ، وحين تحامَى جيشَهم بادِي الناس وحاضِرُهم ، وحَذِرَ ناحيتَهم وقَصْدَهم عربيُّهم ومُهاجِرُهم . وأراد بالمهاجِرِ من تَرَكَ البَدْوَ وانتقلَ إلى الأمْصارِ .

٢ — بجَمْعٍ تَظَلُّ الأُكْمُ ساجِدَةً لهم وأعْلامُ سَلْمَى والهِضابُ النَّوادِرُ[(١)]

الباء من قوله « بجَمعٍ » تعلّقَ بِسَمَوْنا ، يُرِيد : قَصَدناهم بجيشٍ كثيفٍ يُلحِقُ الحَزْنَ بالسَّهل ، ويُسَوِّى الهِضابَ بالأرض إذا سارَ عليها لِكَثْرته . وهذا كما قالَ الآخر :

* تَرَى الأُكْمَ مِنهُ سُجَّداً للحوافرِ[(٢)] *

وأصل السُّجود الخضوع ، كأنها تَصِيرُ لها تُراباً . والأُكْمُ : جَمْعٌ ، يقالُ أَكَمَةٌ وأَكَمٌ ، وإِكامٌ وأُكُمٌ[(٣)] . وسَلْمَى : أحدُ جبلَىْ طَيِّئٍ . والهِضابُ : جَمعُ هَضْبَةٍ ، وهى ما انبسَط على الأرضِ من الجبال . والنَّوادرُ : المرتفِعةُ ، وكلُّ شىءٍ زالَ عن مكانِهِ فقد نَدَرَ ؛ ومنه نَوادِرُ الكلام . وجَعلَ لِسَلْمَى أعلاماً لامتدادِهِ واتِّصال جبالٍ به .

٣ — فلَمّا ادَّرَكْناهُمْ وقد قَلَّصَتْ بِهِمْ إلى الحىِّ خُوصٌ كالحَنِيِّ ضَوامِرُ

ادَّرَكَ : افْتَعلَ من الإدراك ، وهو فى معنى أَدْرَكَ . وقَلَّصَتْ : ارتفعتْ .

= الإسلام . وكان من خبر الشعر أن جيشاً لنجدة الحرورى عليهم رجل يقال له أبو عمرو كان يغير على العرب ، وفعل ذلك ببنى أسد وطيئ حتى مر ببنى معن ففعلوا ذلك بهم ومضوا ، ثم إن بنى معن تذامروا ، وحرض بعضهم بعضاً على القتال ، وأقبلوا فى أثرهم ومعهم كتاب من النبى صلى الله عليه وسلم فأخرجوه واستقبلوا القبلة وحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، فذلك حيث يقول إياس هـذه الأبيات . وقد زعموا أن قائل هذه الأبيات مروان بن عبد الله ابن حى . والأبيات ٥ — ٧ فى اللسان (قدر) منسوبة إلى إياس .

(١) م والتيمورية والتبريزى : « ساجدة له » .

(٢) أنشد هذا العجز فى اللسان (سجد) . (٣) يقال بضم الكاف وسكونها .

وقد كُنِيَ عن طول القوائم بالتَّقليص فقيل في وصفِ الفَرَس مُقَلَّصٌ ، والمُرادُ ذلك . ويقال للمُشمِّر : هو مُقَلِّصُ أسفَلِ السِّربالِ ، كما قيل هو مَشقوقُ ذيل القميصِ . والحَنِيُّ : القِسِيُّ ، سُمِّيتْ بذلك لانحنائها ؛ فهو فَعِيلٌ بمعنى مفعول ، فيقولُ : حين لِحَقْناهمْ كانت خَفَّتْ بهم وشَمَّرَتْ إلى الحيِّ خَيْلٌ غائرةُ العيونِ ، لاحِقةُ البطونِ ، كأنَّها في ارتفاع جنوبها قِسِيٌّ مأطُورةٌ . ولمّا يقتضي جَوابًا ، وهو فيما يجيء من بَعْدُ . والواو من قَوْلِهِ « وقَدْ قَلَّصَتْ بهم » واو الحال .

٤ — أَنَخْنَا إليهِمْ مِثْلَهُنَّ وزَادُنا جِيادُ السُّيُوفِ والرِّماحُ الخَواطِرُ

يجوز أن يكون معنى إليهم عندهم ، فقد حُكِيَ : لا تذكُرْ فلانًا إليَّ بسوء ، أي عندي . ويجوز أن يكون معناه الانتهاء ، ويكون المراد : أنخنا إلى فِنائهم وبإزائِهم . وأنَخْنا هو جوابُ لمّا . يقول : لمّا أدركناهم ثمَّ ساميْنا جيشَهم بمثلِهِ عَدَدًا وعُدَّةً ، وجازَيناهم بأشباههم فُرسانا ورَجَّالةً ، وزادُنا سُيُوفٌ مُنْتَخَلَةٌ[1] ورِماحٌ لَدْنَةٌ مُثقَّفةٌ . وإنّما قال « أنَخْنا » لِمَا استمرّت به عادتُهم من ركوبِ الإبلِ وقَوْدِ الخَيْلِ إلى المُغارِ ، إبقاءً عليها ، وإعدادًا لوقت الحاجة إليها . والخواطِر من الخطر ، وأصلُه التحرُّك .

٥ — كِلا ثَقَلَيْنا طامِعٌ بغنيمةٍ وقد قَدَّرَ الرحمٰنُ ما هُوَ قادِرُ

« كِلا ثَقَلَيْنا » أي كلُّ واحدٍ من جماعتَيْنا . والثَّقَلُ : الجماعة . والثَّقَلان : الجنُّ والإنس . وقال الخليلُ : ثَقَلُ الرَّجُل : حَشَمُه ومتاعه . وقوله « بغنيمةٍ » ، أي بسبب غنيمةٍ . والمعنى : كلُّ واحدٍ من الغارَيْنِ[2] طَمِعَ في اغتنام صاحبه ،

---

(١) في الأصل : « منتحلة » وفي م : « منتحلة » ، صوابه ما أثبتنا من التيمورية . والمنتخلة : المختارة ، ومنه قول يزيد بن عمرو بن الصعق ، في اللسان (فرش) :

نعـلوهم بقضب منتخـله لم تعد أن أفرش عنها الصقله

(٢) الغار : الجمع الكثير من الناس ، وقيل الجيش الكثير . ومنه قول الأحنف : « وما أصنع به إن كان جمع بين غارين من الناس » .

أى يَعدُّه غنيمةً ، لِثِقَتِه ببأسه ونَجْدَتِه . والله عزَّ وجلَّ قد قَدَّرَ مِن الإظفار وإعطاء الفَلَج والغَلَبَةِ ما قدَّرَه ، لا رادَّ لحكمه ، ولا مُعقِّب لأمرِه . ويقال قَدرتُ من التَّقدير ، قَدْراً وقَدَراً . و « ما هو قادِرُ » إن شئتَ جعلتَ ما موصولاً بمعنى الذى ، و إن شئتَ جعلتَه موصوفاً بمعنى شيئاً . وعلى الوجهين وجَبَ أن يَقُولَ ما هو قادِرُهُ ، فحذَفَ الضَّمير تخفيفا .

٦ — فلم أرَ يومًا كانَ أكْثرَ سالِبًا ومُسْتَلَبًا سِرْبالَه لا يُناكِرُ

قوله « كان أكثَرَ سالِباً » من صِفَةِ اليومِ ، والمُفَضَّل محذوفُ الذِّكر ، كأنه قال مِن ذلك اليوْم . وانتَصبَ « سرباله » على أنّه مفعول ثانٍ من مُسْتَلَباً . و « لا يناكِرُ » فى موضع الصِّفة له ، كأنّه قال وأكثرَ مستلَباً ذا صفته . ومعنى لا يناكِر : لا يَقْدِرُ على الامتناع . يُقالُ ناكَرَنِى ، أى دافَعَنِى ومانَعَنِى . يقول : ما رأيتُ يوماً حَصلَ فيه من السَّالبِينَ والمسلوبِينَ مثلَ ما اجتمع فى ذلك اليوم ولا وقْعَةً أظهرَ حالاً وأكْشَفَ أمراً فى قُوَّةِ غالِبِها وضَعْفِ مغلوبِها ، واستسلام المقهور المسلوب واستعلاء القاهر السالب ، من تلك الوقْعَة .

٧ — وأكْثرَ مِنّا يافِعاً يَبْتَغِى العُلَى يُضارِبُ قِرْنًا دارِعًا وهو حاسِرُ

فى هذا أيضاً حذفٌ وإيجازٌ كما كان فى البيت الأوّل ، كأنه قال : ولم أرَ قوْمًا كان أكثرَ شابًّا يطلُبُ الصِّيتَ والذِّكر ، ويعِفُّ عن الغنيمة فى الرَّوْع ، فيضارِبُ نَظِيراً له فى البأس مستلئِماً ، وهو ينازِلُه حاسِراً متجرِّداً — من قومِنا . وقولُه « وهو حاسِرُ » حالٌ للمُضمَرِ فى يُضارب ، ويُضارِب ويبتغى جميعاً صفتان لقوله يافِعاً ، وعلى هذا قد حَذَفَ حرْفَ العطف من قولِه يُضارِبُ ، لأنَّ الجُمَلَ حقُّها إذا وُصِفَ بها النَّكِراتُ أن يُنْسَقَ بعضُها على بعض بحرف

العطف . ويجوز أن يكون يُضارِبُ في موضِع الحال مما في يبتغى . واليافع : الشابُّ المُتناهِي الشَّباب ، والفِعْل منه أَيْفَعَ الغُلَامُ وَتَيَفَّع . وبابُ يَفَع مقصودٌ على الارتفاع والإشراف في الجَبَل والأرضِ وغيرهما . ويقالُ غُلَامٌ يَفَاعٌ ويَفَعَةٌ ويافِعٌ ، ولا يُقالُ مُوفِعٌ . وجَعَلَ القِرْنَ دَارِعاً وصاحِبَه حاسِراً ، تفضيلاً له عليه . وقد يوصَفُ الممدوح بلبس الدِّرْع ويُرادُ به حَزَامَتُه وتحرُّزُه ، كما يُوصَفُ بضِدِّه ويُرادُ إقدامه وجُرْأته .

٨ — فما كَلَّتِ الأيدى ولا انْأَطَرَ القَنَا ولا عَثَرَتْ مِنَّا الجُدودُ العَوَاثِرُ

نبَّهَ بهذا الكلام على تَساعُد أحوالِهم فيما تردَّدوا فيه ، وتَناصُرِ أسبابهم عند ما لابَسوه ونَهَضُوا له . وإمكانُ الفرصِ فيما يُقرِّب التمكُّنَ من العَدُوِّ ، وارتفاعُ العِلل من مُوجِبات القهرِ والعُلُوّ . فيقول : قَوِيَتْ أيدى المقاتلين منّا فلم يَمسَّها لُغُوبٌ ، ووَفَتِ الأسلحة بمواعيدها من البقاء فلم يَخُنْ رُمْحٌ [منها[1]] بانكسارٍ وفُتورٍ ، ولا سَيْفٌ بنُبُوٍّ وكُلُول ، ولا خَذَلَتْنا جدودُنا فمالَتْ إلى تَعثُّرٍ أو سُقُوطٍ . وإذا توازرت هذه الأسبابُ وتعاوَنَتْ ، فحصَلَ الجِدُّ والجَدُّ ، وانزاحت العِلَلُ في الدَّواعى والآلات ، كان الكَمالُ في نَيْلِ المُرادِ . وقوله « انأطر » في معنى انعطف وتَثَنَّى . يُقال أطَرْتُه فانْأَطَرَ ، ومنه إطار[2] الباب والمُنْخُل . وقوله « ولا عَثَرَتْ منا الجُدود العوائر » ، مثل قول الآخرِ[3] :

* ولا ترَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرْ[4] *

لأنه لم يُثْبِتْ لأنفسِهم جدوداً من شأنها أن تَزِلَّ وتَعثُرَ ثم نَفَى ذلك عنها

---

(١) هذه من م والتيمورية .

(٢) في الأصل : « إطارات » وأثبتنا ما في م والتيمورية .

(٣) هو ابن أحمر . الخزانة (٤ : ٢٧٣) .

(٤) صدره : * لا تفزع الأرنب أهوالها *

فى ذلك اليوم ، بل أراد أنهم لا جدودَ لهم بهذه الصفة ، كما أنَّ الشاعر الآخَرَ أراد لا ضَبٌّ فينجحر . ومعنَى الكلام : كان الغَلَبُ لنا وتعثَّرت جدودُ غيرِنا .

١٩٥

وقال الأخْرَمُ السِّنْبِسِىّ[١] :

١ — ألَا إنَّ قرْطاً على آلَةٍ ألَا إنَّنِي كَيْدَهُ ما أَكِيدُ[٢]

يقال : فلانٌ لى على حالةٍ وعلى آلَةٍ ، إذا تَنكَّرَ وتَغيَّرَ عما كان يُعْهَدُ عليه من قَبْلُ . وهذا يَجْرى مَجْرَى الكِنايات . ويُقال أيضا : حَصَلَ فُلانٌ لنا على لَوْنٍ ، يُرادُ على لونٍ مذمومٍ . فيقول : إنّ هذا الرجل تحوّلَ عما كان يجرى عليه مَعِى ، إلى أمرٍ أُنكِرُهُ ولا أعرِفُهُ ، ألَا إنى أكِيدُ كَيْدَهُ ، أى أقابِلُ كَيْدَهُ لى بكَيدٍ مثله . وما زائدةٌ ، وتلخيصه : أكيدُه كَيْداً يُماثِل كَيْدَه لى . وهذا كما يُقال ضربَه ضَرْبَ غريبةِ الإبل . والمعنى : أقتدِى به فيما ينطوى لى عليه ويعامِلُنِى به ، لا أبتدئه بمَساءةٍ ، ولا أعاجِلُهُ بمَكْرٍ وخِيانةٍ ، بل أُقلِّدُه البَغْىَ ، وأنتظر من جهتِهِ الحُؤول والنَّكْثَ ، ثم أجازيه كَيْلَ الصَّاعِ بالصَّاعِ .

٢ — بَعِيدُ الوَلاءِ بَعِيدُ المَحَلِّ مَنْ يَنأَ عَنْكَ فذاكَ السَّعِيدُ

يَذُمُّ قُرْطاً فيقول : هو بعيدُ النُّصْرةِ والمُوالاة ، أى بطيئُها ، بعيد الدار والمَسْكَن ؛ يعنى تنائيها . ثم قال : مَن بَعُدَ عنك فقد سَعِدَ جَدُّهُ . نقَلَ الكلامَ عن الإخبارِ إلى الخِطابِ على عادتِهم فى افتنانهم ، وكأنّه التفت إليه يُرِيه الزَّهادة

(١) الأخرم ، بالخاء المعجمة بعدها راء مهملة . وفى الأصل والتيمورية : « الأحزم » ، وأثبتنا ما فى م والتبريزى . التبريزى : « قال أبو هلال : إن سنبس امرأة عمرو بن الغوث بن طيئ ولدت له ثعل ونبهان ، فهم يسمون بها » ، وفى القاموس إن سنبس بن معاوية بن جرول ، أبو حى من طيئ .

(٢) التبريزى : « قرط : رجل من سبنس » .

فى مجاوَرَته ، والاستغناء عن معونَتِهِ ، واكتفاءهم بأنفسهم دونه ، فقال ذلك بعد ما أخَذَ فى وصفِه .

٣ — وعِزٌّ المَحَلّ لَنَا بَائنٌ بَنَاهُ الإلٰـهُ ومَجْـدٌ تَلِيدُ

الهاء من قولِهِ « بَنَاهُ الإلٰـهُ » يجوز أن يكون للعزّ ، ويجوز أن يكون للمحلّ . فإذا جعلته للعِزّ فالأجْوَدُ أن ينعطف مَجْدٌ على الإلٰـه ، كأنّ العِزّ حَصَل للمَحلّ بالله تعالى وبمجْدِ الآباء . وإذا جَعَلْتَهُ للمحلّ يجوز أن يرتَفِع ومَجْدٌ بالابتداء ، ويكونُ الكلام مُنْقَطِعاً والخبرُ محذوفاً ، كأنّه قالَ : ولنا مَجْدٌ تَليدٌ . وبناهُ الإلٰهُ فى موضع الحال للمحلّ ، والأجود أن يُضْمر مَعَهُ قَدْ . وإنما يفتخر بأنّ بلادهم حصينَةٌ ، وديارهم عزيزةٌ . وذلك أن بِلاد طيّئ بكتَنِفها جبلاهُمْ أجَأٌ وسلْمَى ، فلا تَستَطرِفُهم الغارَات ، ولا تهجُمُ عليهم سوابق الفَلَتات والنَّزَوات . فيقول : عِزُّنا فى دارِنا ظاهِرٌ للناس غيرُ خافٍ ، آثرَنا الله تعالَى به ، ولنا مَجْدٌ مُتوارَثٌ . وأصْلُ المَجْدِ الكَثْرةُ . والتَّالِدُ والتَّليد : القديم .

٤ — ومَأثُرَةُ المَجْدِ كانَتْ لَنَا وأوْرَثَنَاهَا أبُونا لَبِيـدُ(١)

مَأثُرَةٌ : مَفْعُلَةٌ من أثَرْتُ الحديثَ ، إذا رَفَعْته ونَسَبْتَهُ . يريد : أنّ العِزّ اجتمع لهم مُكْتَسَباً وموروثاً ، وتالداً وطريفاً ، ومُخَوَّلاً من عند الله تعالى تَخْويلاً ، فلهم بذلك صِيتٌ فى النّاس يُؤثَر ، وذِكْرٌ على مَرّ الأيّام يُخَلَّد ، وثناؤه يَتّصِل ولا ينقطِع ، وسَنَاؤه يستمرّ ولا يَقِفُ ، كما كان لأبيهم لَبيد .

٥ — لَنَا بَاحَةٌ ضَبِسٌ نَابُها يَهُونُ على حَامِيَها الوَعِيدُ

البَاحَةُ : السّاحةُ . والضَّبِسُ : الشديد . ويقال هو ضَبِسٌ شَرِسٌ ، فى الحريص

---

(١) هو لبيد بن سنبس بن معاوية بن جرول بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيئ . نهاية الأرب (٢ : ٣٠٠) والأغانى (١٤ : ٩٠) .

الشديد . والنّابُ : سيِّد القوم . وأراد بالحاميَيْن جَبَلَىْ طَيِّئ[١] ، والضميرُ منها يعودُ إلى السّاحةِ . ويجوز أن يريدَ بالناب واحد الأنياب ، وجَعَلَهُ مَثَلاً للشِّدَّة . وذَكَرَ الباحةَ والمُرادُ أهلها ، كما قال الآخر[٢] :

وإنْ مُقْرَمٌ مِنّا ذَرَا حَدُّ نابِهِ   تَخَمَّطَ فِينا نابُ آخَرَ مُقْرَمِ

يقول : لنا ساحةُ دارٍ رئيسُها والمُدافِعُ عنها شَكِسُ الخُلق ، شديد الإباء على الأعداء ، يَهُونُ وعيدُ المتوعِّدين على النّازلين فى جوانب جبلَيْها ، المانِعين مِنْهَا . وقَوْلُه « على حامِيَيْها » حذف المُضاف وأقام المضاف إليه مقامَهُ .

٦ — بِهَا قُضُبٌ هِنْدُوانِيَّةٌ   وعِيصٌ تَزَاءرُ فيه الأسودُ

٧ — ثمانونَ ألفًا ولم أُحْصِهِمْ   وقد بَلَغتْ رَجْمَها أو تَزيدُ

نَبَّهَ بهذا الكلام على أنّ ديارَهُم تَحْوِى العَدَدَ والعُدَّة ، فرجالُهم أُسُودٌ فى مأسَدَتِها تَزْئِرُ فيها[٣] ، وسلاحهم الهِنْدُوانيّةُ يستعملونها[٤] . والعِيصُ : الأصل الكريم ، ومَنَابتُ كرائم الأشجار الملتفّة ، ومنه قولُهم « أعْياصُ قُرَيْشٍ » لِكِرامِهم . وقولُه « ثمانونَ ألفًا » هو تبيين كَمِّيّة ما أشار إليه ، وتفصيلُ ثَرْوتِهم بعد الإجمال ، فقال : هو ثمانون ألفاً ، ولستُ أقول هذا عن إحصاء وعَدٍّ ، أو ضَبْطٍ بعد حَصْرٍ ، لكنَّهُ رَجْمٌ مِنِّى وحَدْسٌ ، فهم يَبْلُغونه أو يزيدون عليه . وتحقيق قولِهِ « لم أُحْصِها » ، لم أَضْبط كَثْرتَها . والحَصاةُ تُستعمل فى الكَثْرة والعَقْلِ . وقَوْلُه « وقد بَلَغَتْ رَجْمَها » ، أى رَجْمِى لها ، أُضِيفَ المَصْدر إلى المفعول .

(١) التبريزى : « وقيل حامياها : جانباها الأمنعان منها مثل حوامى الحصن ، وهى البروج . وقيل : حامياها : الخيل والسلاح » .
(٢) هو أوس بن حجر . ديوانه ص ٢٧ .
(٣) يقال هذا الفعل من باب ضرب ومنع وسمع .
(٤) الهندوانية بضم الهاء وكسرها ، مع ضم الدال : منسوبة إلى الهند على غير قياس .

١٩٦

وقال عبد الرحمٰن المَعْنِيُّ(١) :

١ — قد قارَعَتْ مَعْنٌ قِرَاعاً صُلْبَا
٢ — قِرَاعَ قَوْمٍ يُحسِنُونَ الضَّرْبَا
٣ — تَرَى مع الرَّوْعِ الغُلامَ الشَّطْبَا
٤ — إذا أحَسَّ وَجَعَـــا أو كَرْبَا
٥ — دَنَا فمـــا يَزْدَادُ إلا قُرْبَا
٦ — تَعرُّسَ الجَرْباءِ لاقَتْ جُرْبَا

أصلُ القَرْعِ الضَّربُ على الشَّىء الصُّلب . ومَعْنٌ : قَبِيلة . يريدُ أنَّها ضَارَبَتْ أعداءها ضِرَاباً شَدِيدا ، ودافعَتْهُمْ دِفاعاً مَرْضِيًّا ، ضِرَابَ قَوْمٍ لهم نِيقَةٌ(٢) حسنةٌ فى القتال ، وأَخْذَةٌ عجيبةٌ فى اللِّقاء ، يهتدُون للغِلاَب والاعتلاء أحسنَ اهتداء ، ويتأنَّوْن للقِراع من أقْرَب غايةٍ وإلى أبعدِ انتهاء ؛ تَرَى عند اهتياج الفَزَعِ الغلامَ التامَّ القامةِ منهم ، القليلَ اللَّحم ، المتطاولَ عند مبارزة الخصم متى أدْرَكَ وَجَعًا ، أو أحسَّ شِدَّةً وضيقاً ، يُقْدِمُ ولا يُحْجِمُ ، بل يَزْدَاد على حَدِّ الجِذَاب مُصَادَمَة ، وعلى طول المِرَاس مكافَحةً ومكافَأةً ، فيحتكّ بالأبطالِ فى المواقِفِ احتكاكَ الإبِلِ الجَرْبَى فى المعاطِنِ .

(١) شاعر إسلامى ، قال هذه الأرجوزة فى لقاء بنى معن الحرورية ، كما نص التبريزى . وانظر أول الحماسية السابقة . التبريزى : « قال أبو هلال : هـذا الشاعر يعرف بمرقس — بفتح الميم والقاف ، والسين غير معجمة — أحد بنى معن بن عتود ، ثم أحد بنى حى بن معن » .

(٢) النيقة ، بالكسر : اسم من التنوق بمعنى التأنق . وهو التجود والمبالغة .

قوله « ترى مع الرَّوْع » أى عند حصول الرَّوع لا يتأخّر عنه ، فهو معه يَقُومُ بقيامه ، ويهتاج باهتياجه .

وقوله « إذا أحسَّ » ظَرْفٌ لقولِه دَنَا . وانتصَبَ « تحكُّك[1] » على أنه مَصْدَرٌ من فِعْلٍ دلَّ عليه قولُه « فما يزدادُ إلاَّ قُرْبا » .

وقوله « لاقَتْ جَرْبَى » يجوز أن يكون جمعَ أجْرب وجَرِبٍ كأَحْمَق وحَمِقٍ وحمقَى . ويجوز أن يكون مقصوراً من جَرْباء ، وللشاعِرِ أن يَقْصُرَ الممدود . أى تحكُّكَ الجَرْباء لاقَتْ جَرباء مِثلَها . ويجوز أن يُرْوى « جُرْبَا » بضمّ الجيم ، فيكون كأَسْوَدَ وسُودٍ ، وأقْلَفَ وقُلْف .

١٩٧

وقال عَبيدُ بن مَاوِيّةَ[2] :

١ — أَلا حيِّ لَيْلَى وأَطْلالَهَا   ورَمْلَةَ رَيًّا وأَجْبَالَهَا

يخاطبُ نَفسَهُ مُظهِراً للتَّجلُّد ، ومتبجِّحًا بأنَّ الشدائد لا تُنْسِيه الأحِبةَ ولا تغتاقُه عن التَّسليم عليها ، والوقوف على منازِلِها ومساءلتِها[3] ، وأنَّهُ متى مُنِيَ بها أهمَّهُ أمرُها أشدَّ مما كان قبلُ ، ولم يَلْهُ عَنْها ؛ فيقول : سَلِّمْ على هذه المرأة وعلى ديارها ، وعلى رِمالِ رَيًّا والجبال المحيطة بها ، وإن طَرَقَكَ من الحوادِثِ ما يَشْغَلُ عن مِثْله .

٢ — وأَنْعِمْ بما أرْسَلَتْ بالَهَا   ونَالَ التَّحِيَّةَ مَنْ نَالَهَا

قوله « بما أَرْسَلَتْ » أى بَدَلاً مما أَرْسَلَتْ . وما مع الفِعْل فى تقدير مصدر ، يعنى بإرْسَالِها . وتقول العَرَبُ : هذا بذاك ، أى عِوَضٌ منه ، وهذا لك من ذاك

(١) كذا فى جميع النسخ . والوجه « تمرس » كما هو نص الشعر فى جميعها .
(٢) عبيد ، ضبط بفتح العين وكسر الباء فى الأصل . وضبط بالتصغير فى م والتبريزى .
(٣) هذه الكلمة من م والتيمورية .

فى معناه . وعلى هذا قول الشَّاعر[١] :

لَيْتَ لَنَا مِن مَاءِ زَمْزَمَ شَرْبَةً مُبَرَّدَةً بَاتَتْ عَلَى الطَّهَيانِ

أى عِوَضاً من ماء زَمْزَم . والبَالُ والخَلَدُ يُستعملان على طريقة واحدة ، يقولون : وَقَعَ فى خَلَدِى كذا ، وسَقَطَ على بالى وخطر ببَالِى . والمعنى : قل أنعَمَ الله بالَها ، جوَاباً لتحيَّتِها ، وجزاءً على مُرَاسلتِها . وقولُه « ونَالَ التحيّةَ مَنْ نالها » يحتمل وجهين . يجوز أن يكون المعنى : وأصاب المُلكَ من أصابَ هذه المرأة . وهذا الكلام تفخيمٌ لشأن المرأة وتعظيم لخطْبِها . ويقال نِلتُ كذا أنالُ نيلاً . والتَّحِيَّةُ : المُلْكُ ، ومنه التَّحيات لله . وقيل فى قول الشاعر[٢] :

ولَكُلُّ ما نالَ الفتى قد نِلتُهُ إلا التَّحيّهْ

إنّه أراد به تحيّة المَلِك ، وهو قولهم فى مخاطبته : أبيتَ اللَّعْن ، والمَعنَى معنًى واحدٌ . ويجوز أن يكون نال بمعنَى أنالَ . قال أبو زيد : يقال نُلتُه أنُولُه[٣] نَوْلاً ونَوَالاً ، أى أعطَيْتُهُ . وعلى هذا يكون الكلامُ [دعاء . والمعنى : أنالَ اللهُ التَّحيَّةَ[٤]] من أنالَ هذه المرأة تحيّتى . كأنّه يدعو نَفْسها إلى إهداء التحيّة إليها على بُعدِها . وفى الوجه الأوّل يجوز أن تكون المرأة قريبةً .

٣ – فإنّى لَذُو مِرَّةٍ مُرَّةٍ إذا رَكِبَتْ حَالَةٌ حَالَها

المِرّة : القوّة والفَتْل ، ومنه قولهم : استمرّت مَرِيرَتُه ، واستمرّ عِذارُه ، فى الإباء والتَّمنُّع . ولم يَرْضَ بأن جعَل لِنَفسِهِ مِرّةً حتَّى وصفَها بأنها مُرّةٌ ، يعنى فى فم ذائقها ، وعند تجربة مُزاوِلها . وهذ التَّجنيس حَسَنُ المَوْرِدِ . والضميرُ من

(١) هو الأحول الكندى ، أو يعلى بن الأحول . انظر اللسان (مطا ، طهى) ومعجم البلدان (طهيان) والخزانة (٢ : ٤٠٤) وشروح سقط الزند ٤٠ .

(٢) هو زهير بن جناب الكلبى . انظر المعمرين ٢٦ .

(٣) فى الأصل والتيمورية : « أناله » ، صوابه فى م .

(٤) التكملة من م والتيمورية .

قولِه « حالَهَا » يعودُ إلى الحالة ، كأنّهُ أضافهُ إليها لما كانت تَليها ، وجعَلَها مَركوبَها . فيقول : افعَلْ ذلك واصرِفْ همّك إليها ، وإلى الدُّعاء لها ، وطَلَب السُّقْيا لديارها ، ولا تُبالِ بما يَعِنُّ ويَعرِض من مزاحمة عَدوٍّ ، أو مراغَمَة حَسودٍ ، فإنّي لَذو قوّة لا تَستَحْلِبها الفِرقُ المنابِذَةُ ، إذا تراكمت الأمورُ ، وتراكبَت الأحوالُ والوجوهُ ، فخَفِيَتْ موارِدُها ومَصادِرُها ، والتَبسَتْ فُصُولُها ووُصولُها .

٤ — أُقدِّمُ بالزَّجْرِ قَبْلَ الوَعيدِ لِتَنهَى القبائلُ جُهّالَهَا

يجوز أن يكون أُقدّم بمعنى أتقدّم ، ويكون الباء من « بالزَّجْرِ » في موضِعِه . ومثله نبّهَ بمعنى تَنَبَّهَ ، ووجّهَ بمعنى توجّه ، ونكّبَ بمعنى تنكّبَ . ويجوز أن يكون قدّمَ ضِدّ أخّرَ ، ووجَبَ أن يَقولَ : أُقدِّم الزَّجْرَ ، فجعَلَ الباء زائِدةً للتأكيد ، كما جاء في قولِهِ : ﴿ تُنبِتُ(١) بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكِلِينَ ﴾ لذلك . ومثلُه قول الشاعر(٢) :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقرَأْنَ بالسُّوَرِ(٣) *

ومعنى البيت : أزجُرُ المُتعرِّض لي قَبلَ أن أتوعّده ، وأعظُه بالنَّهيِ والتحذير قبل تخشين الجانب له ، لكي ينهَى حُكَماءُ القبائل سُفهاءَها ، وليكون منّي تدرُّجٌ في مؤاخذَتِهم ؛ فأبتَدِئُ بالزَّجْرِ ، ثم أرتَقِي إلى الوعيدِ ، ثم إلى الإيقاع .

(١) هذا رسم نسخة الأصل والتيمورية . وهي مهملة الضبط فيهم . وهذه القراءة هي التي يصح الاستشهاد بها على زيادة الباء ، وهي قراءة ابن كثير ، وأبي عمرو ، وسلام ، وسهل ، ورويس ، والجحدري . وقرأ الجمهور : « تنبت » بفتح التاء وضم الباء . انظر تفسير أبي حيان .

(٢) هو الراعي النميري ، أو القتال الكلابي . الخزانة (٣ : ٦٦٧) .

(٣) صدره : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

٥ — وقافِيَةٍ مِثْلِ حَدِّ السِّنانِ   تَبْقَى ويَذْهَبُ من قالَها

٦ — تجودتُ فى مَجْلِسٍ واحدٍ   قِرَاها وتِسْعِينَ أمْثَالَها

القافية : آخر البيت المشتمل على ما يجب على الشّاعر مراعاته وإعادتُه فى كل بيتٍ ، سُمّى بذلك لأنّه يَقْفُو ما قَبْلَه . وهم يُسمُّون البيت بأسْرِه قافِيَةً ، لاشتماله على القافية ، والقصيدةَ بأبياتها قافية ، لاشتمالها على الأبيات المقفّاة . وهذا توسُّعٌ منهم ، كما يسمُّون القصيدة كلمةً ؛ والحقيقةُ ما قدَّمْتُه . والأَوْلَى بهذا الشاعر عندى أن يريد بالقافية البيت ، لأنَّ نَظْمَ تسعين بيتاً غيرُ مستنكَرٍ فى العُرف والعادةِ من المقتدِرين ، المجيدين المُنْطلِقين ، ذوى البَداهة العجيبة ، والخواطر السَّريعة ، ولو أرادَ القصيدة لبَعُدَ عن المعتاد . فيقول : رُبَّ قافيةٍ تَنفُذُ نَفاذَ السِّنان ، وتَرْويه لجودَتِها[1] الرّواةُ فلا تَخْلُقُ على مَرِّ الأيّام ، ولا تُبْليه[2] السُّنونَ والأعوام ، بل تَبْقَى مع اللّيل والنّهار بقاء الظُّلَم والأنوار ، وإنْ دَرَجَ قارِضُها ، ومَضَى مُنْشِئُها ، أنا تَجوَّدْتُها فى مَجْلِسٍ واحدٍ مع تسعينَ من نظائرها . يُريدُ أنّه لسانُ قومِه ، ومِدْرَه عشيرتِه . ومعنَى تجوَّدتُ : اخترتُ عند الجمع جَيِّدَها . وهذا كما يقال : تَنَقَّيْتُ الشىء وتخيَّرْتُه . وقوله « وتسعين » أراد مع تسعين ، فيكونُ انتصابُه على أنّه مفعول معه كقولِه تعالى : ﴿ فأَجْمِعُوا أمْرَكُم وشركاءَكُمْ ﴾ ، لأنَّ المرادَ مع شركائكم . ويجوز أن تكون الواو عاطِفَةً منه ، كأنه قال : قِراها وقِرَى تسعين تُماثِلُها . وقِرَى يجوز أن يكونَ من قَرَيْتُ الماء فى الحوضِ ، ويجوز أن يكون من قَرَوْتُ الأرضَ إذا تَتَبَّعْتَه . ويجوز أن يَكُونَ القِرَى ما يُطْعَمُ الضَّيْفَ ، فاستعاره كما قال :

(١) فى الأصل : « وترويه بجودتها » وأثبتنا ما فى م والتيمورية .
(٢) كذا فى جميع النسخ . وكأن المرزوقى أجرى الضمير مرة على الشعر ومرة على القصيدة .

* قِرَى الهمّ إذ ضافَ الزَّماعَ *

كأنّ القوافىَ لمّا تواردَتْ أحسنَ القيامِ بها ، وجوّدَ القِرَى لها .

١٩٨

وقال ابن رَالانَ السِّنْبِسىّ[١] :

١ – لمّا رأتْ مَعْشَرًا قَلّتْ حَمُولَتُهُمْ قالتْ سُعادُ أهذا مالُكُمْ بَجَلاَ

الحمولة : الإبل التى يُحْمَلُ عليها . والحُمُولة بالضمّ : الأحمال . يقول : حين رأتْ هذه المرأةُ فقرَنا وقِلّةَ إبلنا قالت مُنْكِرةً ومُتَعَجِّبةً : أهذا مالُكم فحَسْبُ . و « بَجَلاَ » فى موضع الحال ، والمعنى أهذا مالُكم مُكْتَفًى به . والأصلُ فى بَجَلْ البناء على السكون ، ودعَتِ الضرورةُ إلى تحريكه فحرّكه بالفتح ، وكان الواجب إذا حُرِّكَ الكسْرَ فيه . ومِثْلُه قول الآخر[٢] :

* ونَعَمْ إن قُلْتُمُ نَعَمَا[٣] *

لأنّ نَعَمْ أيضًا مبنىٌّ على السكون فحرَّكَ آخره للضرورة بالفتح كما ترَى . وقد يُضافُ بَجَلْ لكونِه اسمًا كما يضافُ قد إذا كان بمعنى حَسْب . قال .

* بَجَلِى الآنَ من العيشِ بَجَلْ[٤] *

---

(١) رالان بترك الهمز فى النسخ . وهو جابر بن رالان ، سبقت له الحماسية ٥٩ ص ٢٣٤ .

(٢) هو الطائى الكبير ، كما ذكر ابن جنى فى التنبيه ، يعنى بالكبير أبا تمام . والبيت التالى فى ديوانه ٣٠٥ .

(٣) تمامه :

تقول إن قلتم لا لا مسلمة لأمركم ونعم أن قلتم نعما

وقبله :

فخرا بنى مصعب فالمكرمات بكم عادت رعانا وكانت قبلكم أكما

(٤) للبيد ، كما فى اللسان والمقاييس (بجل) . وصدره :

* فتى أهلك فلا أحفله *

وفى قَدْ جاء :

* قَدْنِىَ من نصرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِى [١] *

والمالُ عندهمُ الإبل ، ولهذا يطلِقون فيقولون : المالُ فى الرَّعى [٢] ، لاشتهار لفظة المال عندهم بها .

٢ — إمّا تَرَى مالَنا أضحَى به خَلَلٌ   فقد يكونُ قديمًا يَرْتُقُ الخَلَلا

الخَلَلُ الأوّل النَّقصُ ، والخَلَلُ الثانى الفُرْجَةُ بين الشيئين حتى يصحّ الرَّتق معه . وفى الكلام اختصارٌ ، لأنّ المعنى أجْبْنَاها بأنْ قُلنا : إن كُنتِ ترَيْنَ اختلالَ حالنا وانتقاصَ مالنا ، وظهورَ الفاقة والفقرِ على [صفحات [٣]] ظواهرِنا ، فقديمًا كان يَسُدُّ الخَلَلُ بمالِنا ، وتُرْتَقُ الفُتُوقُ بها ، وتُرَدُّ عاديةُ الشَّرّ بتفريقها . وقوله « فقد يكون » جَعَلَ اللفظ مستقبلاً وإن أراد المُضِىّ ، لاستمرار الحال على طريقةٍ واحدة ؛ وقد مَضَى مِثلُهُ . ويجوز أن يكون حكَى الحالَ ، كقوله تعالى : ﴿ وكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بالوَصِيدِ ﴾ .

٣ — قد يَعلَمُ القومُ أنّا يَوْمَ نَجْدَتِهِم   لا نَتَّقِى بالكَمِىِّ الحارِدِ الأسَلا

قولُه « قد يعلمُ القومُ » الكلامُ فى استعمال لفظ المستقبل هو على ما قدمناه فى قوله « فقد يكون قديما » من البيت الذى قبله . فيقول : قد اشتهر من شأننا يومَ البأسِ والشِّدَّة ، ووقتَ احتماء الوطيس والتهاب النائرة ، أنّا لا نُحجم فنتّقى رِماحَ الأعداء بالشُّجعان ، ولكن غيرُنا يتّقى بنا فنتقدّم إذا تأخّر ، ونستبسلُ

(١) لحميد الأرقط . الخزانة (٢ : ٤٥٣) . والخبيبان هما عبد الله ومصعب ابنا الزبير . وهو تغليب سماعى ، إذ أن عبد الله بن الزبير يكنى أبا خبيب باسم ولده . ويروى : «الخبيبين» بصيغة الجمع كالأشعرين ، يراد به عبد الله بن الزبير وأصحابه .

(٢) الرعى ، فعل بمعنى مفعول ، وهو ما يرعى .

(٣) هذه من م والتيمورية .

إذا تحرَّز . والحارد : المجتمِعُ الخلقِ الشَّدِيدُ المَهيبُ ، الذى يُحْسَبُ من عِزِّه غضْبانَ .

٤ — لكنْ ترى رَجُلاً فى إثْرِهِ رجُلٌ قد غادرَا رَجُلاً بالقاعِ مُنْجَدِلاَ

هـذا تصويرٌ لما أثبتَ من أفعالِهم فى الإقْدام ، لمَّا نَفَى عن أنفُسِهم الإحجامَ ، فيقولُ مُخاطِباً واحداً من النّاسِ : لكنّا نتهافت ونتتابع[1] حِرْصًا على القتالِ ، حتَّى تَرانا من بين طاردٍ وقاتِل ، وكارٍّ وفارٍّ ، وطالبٍ ومطلوبٍ . وقد تركا صريعاً ساقطاً على الأرض ، كأنَّ أحدهما صَرَع قتيلًا والآخر يَتْبعه ليناَل منه . ويجوز أن يكون معنى « قد غادَرَا » قد غادر كلٌّ واحدٍ منهما رَجُلاً مصروعًا ، كما يقال : كَسانَا الأمير حُلَّةً ، والمعنى كسا كلَّ واحدٍ منّا . وكقول الله تعالى : ﴿ فاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً ﴾ . وفى هذه الطريقة قول الآخر[2] :

وهَلْ غَمَراتُ الموتِ إلا نِزالُكَ الـ كَمِيَّ على لحمِ الكَمِيِّ المُقطَّرِ

والقاعُ : المستوِى من الأرض . والمُنْجَدِلُ : المصروع . والجَدَالَةُ : الأرضُ ، كأنّ معنَى جدَلْتُهُ : أصَبْتُ الجدالَةَ به .

١٩٩

وقال قَبِيصَةُ بن النَّصْرانِىّ الجَرْمِى[3] :

١ — لَمْ أرَ خَيْلاً مِثْلَها يَوْمَ أدْرَكتْ بَنِى شَمَجَى خَلفَ اللُّهَيْمِ على ظَهْرِ[4]

أراد بالخَيْلِ الفُرسانَ لا الأفراس ، كما رُوِى : « يا خيلَ اللهِ ارْكَبى » .

(١) كذا فى جميع النسخ بالياء .

(٢) هو شريح بن قرواش العبسى . الحماسية ١٤٠ .

(٣) التبريزى : « قبيصة بن النصرانى الجرمى من طيئ » .

(٤) شمجى ، بفتحات ، من بنى الغوث بن طيئ . الاشتقاق ٢٣٥ .

وقَوْلُهُ « على ظَهْرٍ » فى موضع الصِّفة لقوله « خَيْلاً » ، كأنه قال لم أرَ فُرْسانًا تُماثِلُها على ظَهْرٍ يومَ أدرَكتْ هذه القبيلة خَلْفَ هـذا الجبل . وقوله « على ظَهْرٍ » يحتمل وجهين : أحدُهما أن يكون المعنَى لم أر خَيْلاً على ظَهْرِ الأرض ، كما جاء فى التَّنزيل : ﴿ ما تَرَكَ على ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ ﴾ . والثانى أن يكون المعنَى : لم أرَ خَيْلاً على ظهورِ الدَّوابِّ ، لـكنّه قصَدَ الجِنْس فوَحَّدَ ، كما يُقال هو يرْتبط كذا رأساً من الدواب ، وكذا ظَهْرًا منها . وذكَرَ بعضُهم أنّ ظَهْرًا اسم ماء ، كأنه قال خَلْفَ هذا الجبل على هذا الماء . وهذا إذا ثَبَتَ يُسَلَّمُ للسَّماع . وذكَرَ بعضُ أصحابِ المعانى أنّ قوله « على ظَهْرٍ » يجوز أن يكون فى موضع الحال للمُضمَر فى أدركَت ، أى يومَ أدركَتْهُمْ قاهِرَةً لَهُمْ ، وعلى قَهْرٍ وغَلَبةٍ فيهم ؛ من قولك ظَهَرتُ على فلانٍ ظُهورًا وظَهْرًا . وفى القرآن : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ .

٢ — أَبَرَّ بأيْمانٍ وأجْرأ مُقْدَمًا وأنْقضَ مِنَّا لِلّذى كان من وِتْرِ

لمّا أراد بالخيلِ أصحابَهُ وفُرْسانَ جَيْشِه ساغَ أن يقولَ « وأنْقَضَ مِنَّا » . ويشْبه هذا ما يجىء من صلة الذى فى مثل قولِه :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[1] *

فقال سَمَّتْنِ والوَجْهُ سَمَّتْهُ . وباب[2] الصِّلاتِ والصِّفات تتداخل وتتشابه . فيقولُ : لم أرَ أَوْفَى بالنذور والأقسام إذا عقَدْناها والتزمناها ، وأجرأ إقدامًا وثباتاً فى وجوه الأعداء إذا ناصَبْناها وكاشَفْناها ، وأسْعَى فى نَقْضِ الأوتار وإدراكِ الذحولِ بعد إبْرامِها وتَعقُّدِها مِنّا . ونَقْضُ الوِتْرِ هو حَلُّ عَقْدِهِ باشتفاء

(١) لعلى بن طالب ، كما سبق فى ص ٤٠٧ وحواشى ص ١١٠ .

(٢) كذا فى جميع النسخ ، وهو جائز فى العربية .

النَّفْس من الواتر الذى يُبْرِمُه . وكان الشَّريفُ الأَنِفُ منهم إذا أُصِيبَ وَوُتِرَ يَنْذُرُ أنَّهُ لا يَشْرَبُ خَمْرًا ولا يَقْرَبُ امرأةً ، أو لا يَغسل رأسًا ، وما يَجْرى هذا المَجْرَى مما يَكْرُثُ النَّفْسَ إذا أَخلَّتْ به ، حَتَّى ينال الوِتْرَ . لهذا قال امرؤ القيس بعد تأثيرِهِ فى بنى أَسَدٍ ونَيْلِهِ مُنَى النَّفْسِ فيهم :

حَلَّتْ لِيَ الخَمْرُ وكُنْتُ امرأً ... عَنْ شُرْبِهَا فى شُغُلٍ شَاغِلِ
فَالْيَوْمَ أُسْقَى غَيْرَ مُسْتَحْقِبٍ ... إِثْمًا مِنَ اللهِ وَلا وَاغِلِ

فأمَّا قَوْلُ الأَعْشَى :

فَأَظْعَنْتَ وِتْرَكَ فى دَارِهِمْ ... وَوِتْرُكَ مِن قَبلِهِم لم يُقِمْ[1]

فهو فى طريقة قوله نَقَضْتُ الوِتْرَ منه .

٣ – عَشِيَّةَ قَطَّعْنَا قرائنَ بَيْنِنَا ... بأَسْيافِنَا والشاهِدُونَ بَنُو بَدْرِ

أضافَ القرائنَ إلى بيننا لأنَّه جعلَهُ اسمًا ونقله من باب الظُّروف . وعلى هذا قراءةُ من قرأ : ﴿ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنُكُمْ[2] ﴾ بالرَّفع ، والمعنى وَصْلُكُمْ . ولكَ أن تروِى « قرائنَ بَيْنَنَا » فلا تُضِيفَ وتترُكَ بيننا فى بابه ظَرْفًا ، كما قد قُرِئ : ﴿ لقد تقطَّعَ بينَكُمْ ﴾ بالنَّصب . ويَعْنِى بالقرائنِ الأرْحامَ والأواصِرَ . وانتصَبَ « عَشِيَّةَ » على أنَّهُ بَدَلٌ من قَوْلِهِ « يَوْمَ أدركْتُ بنى شَمَجَى » ، فيقول : لم أرَ خيلاً تماثِلُها عَشِيَّةَ أرسلْنا دوابَّنا على أعدائِنا ، وأَوْقَعْنا أَنْفُسَنَا عليهم ، فقطعنا باستعمال السّيوفِ الوُصَلَ الجامعةَ لنا ، والأسبابَ النّاظمةَ لشَتاتِنا ، و بنو بَدْرٍ حاضِرُونَ لنَا ، ومتوسِّطُون لما نُثيرُهُ بَيْنَنَا ، والمشاهدون لبلائنا ، والمصدِّقُونَ لِمَا نَدَّعِيه من فِعلِنا .

(١) فى الديوان ص ٣٠ :

فأظعنت وترك من دارهم ... ووترك فى دارهم لم يقم

(٢) هذه هى قراءة جمهور القراء . وقرأ نافع والكسائى وحفص : « بينكم » بالفتح على البناء أو على النصب . تفسير أبى حيان (٤ : ١٨٢) فى سورة الأنعام .

٤ — فَأَصْبَحْتُ قَدْ حَلَّتْ يَمِينِي وأدْرَكَتْ بَنُو ثُعَلٍ تَبْلِي وَرَاجَعَنِي شِعْرِي

يقولُ : أتى عَلَيَّ الصَّباحُ ثانِيَ ذلك اليوم ، وقَدْ حَلَّ نَذْرِي ، وأَدْرَكَ قَوْمِي ذَحْلِي ، وانْطَلَق بالفخرِ لِسانِي ، فصِرْتُ خَفِيفَ الظَّهْرِ بعد أن كُنتُ مُثْقَلاً بِعِبْءِ الوِتْرِ ، وكانَ الشِّعرُ هاجَرَنِي وفارقَنِي مُدَّةَ السَّعْيِ في نَيْلِ المطلوب من إمكان فُرْصَةٍ أنتَهِزُها ، ثم رَاجَعَنِي . وهذا ضِدُّ قولِ الآخر(١) :

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أنْطَقَتْنِي رِمَاحُهُمْ نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّماحَ أَجَرَّتِ

٢٠٠

وقال أَدْهَمُ بن أبي الزَّعْرَاء(٢) :

١ — قد صَبَّحَتْ مَعْنُ بِجَمْعٍ ذِي لَجَبْ

٢ — قَيْسـًا وعُبْدَانَهُمُ بالمُنْتَهَبْ

٣ — وأَسَـدًا بِغارَةٍ ذاتِ حَدَبْ

٤ — رَجْرَاجَةٍ لم تَكُ مِمَّا يُؤْتَشَبْ

٥ — إلاَّ صَمِيماً عَرَبًا إلى عَرَبْ

٦ — تَبْكِي عَوَالِيهمْ إذا لم تَخْتَضِبْ

٧ — من ثُغَرِ اللَّبَّاتِ يَوْمًا والحُجُبْ

(١) هو عمرو بن معد يكرب . الحماسية ٢٩ .

(٢) شاعر طائي معني من شعراء مخضرمي الدولتين ، وأبوه سويد بن مسعود بن جعفر بن عبد الله بن طريف بن حي بن عمرو بن سلسلة بن غنم بن ثوب بن عتود . المؤتلف ٣١ . يقول هذه الحماسية في وقعة « المنتهب » ، وهي قرية في طرف سلمى أحد جبلي طيء ، كانت عندها وقعة بين طيء وحلفائهم بني بدر بن فزارة بقيادة معدان بن عبيد بن عدي ، وبين قيس وأسد بقيادة أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، فهزم القيسيون أقبح هزيمة .

يُرْوَى : « الأبابِ » .

قوله « قد صَبَّحَتْ مَعْنٍ بجمْعٍ » ، الجَمْعُ : المُجتمعون ، والجُمَّاعُ : المُتفرِّقُونَ . ومَعْنَى صَبَّحَتْ ، أى أتَتْ قَيْسًا صَبَاحًا بكَتيبةٍ لها جَلَبَةٌ وصَوْتٌ ، لِكَثْرتِها ، والعُبْدَانُ يُكسَرُ أوَّلُه ويُضَمُّ ، وهو جمعُ عَبْدٍ ، يُقَالُ عَبْدٌ وأَعْبُدٌ وعَبِيدٌ وعِبادٌ وعِبِدَّى ومَعْبُودَاءُ وعُبُدٌ ، فَعِبْدَانُ جمع عَبِيدٍ . والمُنْتَهَبُ ، قيل هو اسْمُ مكانٍ ، ويجوز أن يكونَ المرادُ به الانتهاب أو مَوْضِعِ الانتهاب . ومعنى البيت أغَارَتْ هذه القبيلةُ وقصدتْ بجَيْشٍ عظيمٍ ، بنى قَيْسٍ وعَبيدَهُمْ بهذا المَوْضِعِ . ويَعْنِى بالعَبيدِ الرُّعَاةَ والعُسَفاءَ الذين يكونونَ مع الإبِلِ . كأنَّهُم فى أخْوِيَتِهِمْ ، وفى مَوْضِعٍ كانَتْ أمْوالُهُمْ حاضِرَةً ، غير عازِبَةٍ ولا غائبةٍ .

وقولُه « وأسَداً بغَارَةٍ » ، يَقُولُ : وصَبَّحَتْ أسداً بخَيْلٍ ذاتِ اعتلاءٍ ومَوَجانٍ ، تتدافَعُ فى سَيْرِها ولا تستقيم ، لِكَثْرتِها ، ولم يكونوا أشاباتٍ وفِرَقاً جُمِعتْ من شىءٍ إلى شىءٍ . وقوله « ذاتِ حَدَبْ » يجوز أن يكونَ مصدر الأحْدَبِ ، ويكون وَصَفَ الغارةَ بالحَدَبِ كما قيلَ آلَةٌ حَدْباءُ ، وعِزَّةٌ قَعْساءُ ، كأنَّهُ يَنْبُو ظَهْرُها عَمَّنْ يُرِيدُ رُكُوبَها واقتِسارَها . ويجوز أن يراد به الارتفاع والكَثْرة . وقال الخليلُ : الحَدَبُ حَدُورٌ فى صَبَبٍ ، يعنى العَقَبَةَ . قال : ومنه حَدَبُ الرِّيحِ وحَدَبُ الرَّمْلِ . وفى القُرآنِ : ﴿ وهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ . فأمّا قوله « بغارَةٍ » فالعَرَبُ تُسَمِّى الخَيْلَ غارَةً لأنَّها مِنْ قِبَلِها تَكُون ، وهذا من باب تسميةِ الشىء بما يكونُ من سببه . والغَارُ بلا هاء يستعملُ فى الجمع الكثير ، وفى الحديث : « ما ظَنُّكَ بِرَجُلٍ جَمَعَ بَيْنَ هٰذَيْنِ الغَارَيْنِ[1] » .

وقولُه : « رَجْرَاجَةٍ » ، يقال كَتيبةٌ رَجراجةٌ ، أى تَضْطَرِبُ وتَمُوجُ من

(١) فى اللسان (غور) : « ومنه قول الأحنف فى انصراف الزبير عن وقعة الجمل : وما أصنع به إن كان جمع بين غارين من الناس ثم تركهم وذهب » .

كثرتِها . وامرأةٌ رَجْرَاجَةٌ ، أى تترجرجُ من بُدْنِها و نَعْمَتِها[1] . وقوله « مما يؤتَشَبْ » يقال أشَبْتُهُ وائتشَبْتُهُ ، أى جَمَعْتُهُ من وجوهٍ مختلفة لا خَيْرَ فيها . وأصل الأَشَبِ الالتفافُ . ويقال غَيْضَةٌ أَشِبَةٌ . وتوسّعوا فيه فقالوا : عِنْدَ فلانٍ أُشَابَةٌ من المال ، أى مِمّا كَسَبَهُ من الحرام وما لا خَيْرَ فيه .

وقوله « إلاّ صميماً » ، يقال هو من صميم قَوْمِهِ ، إذا كان من خالصتهم ومَحْضِ أصلِهم ؛ ومنه قولُهم : صميمُ الرّأس والسّاق ، للعظمْ الذى به قِوَامُ العُضو . وتوسّعوا فقالوا : جاء فى صميم الصّيف أو الشّتاء . وانتصب صميماً على أنّه استثناء خارجٌ . وجَعَلَ قولَه « عرباً إلى عربْ » بَدَلاً منه . ومعنى إلى عربْ : مع عربْ ، كما يقولون : هذا إلى ذاك .

وقوله « تبكِى عوالِيهمْ إذا لم تختضبْ » فعاليةُ الرُّمح وغيره أعلاهُ ، وقيل العاليةُ القناةُ المستقيمة . وقولُهُ « إذا لم تختضبْ » يقال خضبَ الرّجلُ شعْرَهُ ، واختضبَ . ولا يُذكَرُ الشّعرُ معه ، وقد يكون اختضبَ فى مطاوعة خَضَبَ . ومعنى البيت : لكنّهم كانوا خُلّصاً عرباً مع عربٍ ، عوّدوا رِماحَهم أن تُسْقَى دِماءَ الصُّدُور والقُلوب ، فإذا انقطعَ شِرْبُها عنها تَبْكِى تحسّراً عليه ، ووَجْداً به . وهذا مَثَل .

ويَعْنِي بثُغَرِ اللَّبّاتِ : هَزَماتِ التَّراقِي وحُجُبَ الأفئدة . ويقالُ لَبَبٌ ولَبّةٌ ، ولذلك رُوِيَ : « مِنْ ثُغرِ الألباب » و « اللبات » . والمعنى أنّهم بُصَرَاءُ بالطّعْنِ فلا يصيبون إلاّ المَقْتَل .

---

(١) البدن ، بضم الباء وفتحها : البدانة ، وهى السمن والجسامة .

٢٠١

وقالَ بُرْجُ بنُ مُسْهِرٍ الطائِيُّ(١) :

١ — إلى اللهِ أشكُو مِنْ خليلٍ أوَدُّهُ ثَلاثَ خِلالٍ كُلُّها لِي غائِضُ

جَعَلَ شَكْواهُ إلى الله عزّ وجلّ ، ليأسه من معونة المخلوقين فيما يتألَّمُ منه ويتضجَّرُ به . يقولُ : أشكو ثلاثَ خِلالٍ من صديقٍ لى أميلُ إليه ، وأُخلِصُ الوُدَّ له ، وكلُّ واحدة من تلكَ الخِلالِ يهزِلُنى ويَنقُصُ من لحمى ، ويَكسِرُ من نشاطِى . ويُقالُ غاضَ الماءُ وغِضتُه أنا ، وفى القرآن : ﴿ وغِيضَ الماءُ ﴾ فهى من باب فعَلتُ الشىءَ ففعَل(٢) . قال الشاعر :

﴿ فلا راكِدٌ يجرِى ولا هو غائضُ ﴾

٢ — فمِنهنّ ألاّ تجمَعَ الدّهرَ تَلعةٌ بُيوتاً لَنا يا تَلعَ سَيلُكِ غامِضُ

يجوز أن يُروَى « تجمع » بالنَّصبِ والرَّفع ، فإذا نصبتَ فلأنّ أنْ قبلَه هى الناصبةُ للفِعل ، وإذا رُفع فأنْ تكونُ مخفَّفةً من الثَّقيلة ، أرادَ أنّه لاتجمعُ ، والهاء ضميرُ الأمرِ والشأنِ . ومِثلُه فى القرآن : ﴿ أفلا يَرَوْنَ ألاّ يَرجِعُ إليهم قَوْلاً ﴾ ، قُرِئَ يرجع بالرّفع والنَّصب ، حَمْلاً على الوجهين المذكورين . والتَّلعةُ : أرضٌ مرتفعة يتردَّدُ فيها السَّيلُ إلى بطن الوادى . ويقال : فُلانٌ لا يوثَق

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٢٢ . قال أبو رياش : « كان سبب هذه الأبيات أن البرج بن مسهر بن جُلاس بن الأرت الطائى — واسم الأرت خالد — كان هو وعمه أبو جابر يشربان ، وكانت امرأة أبى جابر جالسة ، فانتهى البرج فقبلها ، ثم رأى عمه وقد رآه فاستحيا وكف وقال : « ياعمى غلبنى الشراب ! قال : أو لم أرك حين رأيتنى كففت واستحييت ، ولو كان الشراب غلبك لم تستحى ! اذهب فوالله لا تجمعنى وإياك محلة ولا غزوة ، ولا نجتمع فى بلد ، ولا أكلمك أبداً . فقال هذه الأبيات » .

(٢) هذا . وقال ابن جنى فى التنبيه : « أى ناقص لى ونائل منى . من غضت الماء أى نقصته . وقيل فى غائض : إنه أراد غائظ فأبدل الظاء ضادا » .

بسَيْلِ تَلْعَتِه ، إذا كانَ غيرَ صَدُوقٍ فى أخبارِه . وبابُ التَّلع كله يدُورُ على الإشرافِ والارتفاع . وقولُه « يا تَلْعَ سَيْلُكِ غامِضُ » يسمَّى نُقَّادُ الكلام مثلَهُ التفاتاً ، فهو مثلُ قول جرير فيما حُكِيَ عن الأصمعيّ :

مَتَى كانَ الخيامُ بذى طُلُوحٍ سُقِيتِ الغَيْثَ أيَّتُها الخِيامُ

وصَلَح ترخيمُ تَلْعَةٍ وإن كانَ نكِرة ، لأنه قَصَدَ بها فى النِّداء إلى واحدةٍ بعينِها . ومعنى البيت : من تلك الخِلالِ التى أتألَّمُ منها أنِّى وإيّاهُ لا نَجْتمعُ طول الدَّهرِ فى مكانٍ ، ولا يَحوى بُيوتَنا تَلْعَةٌ من التِّلاع . ثم التفتَ مُظْهِرًا التَّضجُّر ، ومُبْدِيًا التوجُّع إلى التَّلْعَةِ ، فقال : لا جرى فيكِ سَيْلٌ ، ولاظهَرَ بِكِ خِصْبٌ ، ولاسُقِيَ لَكِ عَهْدٌ . وهذا كأنّه عدَّ للموضِعِ الذى لا يتَّفق له مع صديقِهِ المذكورِ فيه التقاء على قُرْبِه وجَوازِ كون ذلك فيه — ذَنْبًا ، فأقبلَ يدْعو عليه تضَجُّرًا به . ومن عادة الناسِ النَّظرَ فى الدِّيار وما يَسْنَحُ فيها من اجتماع الأحِبَّةِ أو افتراقِهم ، وانتظام شَمْلِهم فيها أو انبتاته . وقد وَرَدَ الخبرُ بمثل ذلك أيضاً .

٣ — ومنهنَّ ألاَّ أستطيعَ كلامَهُ ولا وُدَّهُ حتّى يَزُولَ عُوارِضُ

يجوز أن يُروَى « أستطيعُ » بالرَّفع والنَّصب على ما تقدّم فى البيت قبله . وقولُه « ولا وُدَّهُ » إنْ قيل كيف قال لا أستطيعُ وُدَّهُ ، وقد قال فى البيت الأول من خليلٍ أوَدُّهُ ، فأثبتَ الوُدَّ ؟ قلتَ : إنما يعنى لا أستطيعُ مُقتَضَى وُدِّهِ ومُوجبَهُ ، فحذَفَ المضاف . وقوله « حتى يَزولَ عُوارِضُ » ، معناهُ حتى كان ما لا يكونُ . والمرادُ بالبيت : ومن تلك الخِلال ما عرَضَ بينى وبينه من إعراضٍ مُتَّصِلٍ وهَجْرٍ دائم ، فلا أقدِرُ على مفاوَضتِهِ فيما يَعِنُّ من خيرٍ وشرٍّ ، ولا أُطِيقُ مُباثَّتَهُ ما يَنتقِل فيه من محبوبٍ أو مكروهٍ ، ولا أستطيعُ مُوادَّتَهُ

ومخالصته بحسب الأحوال المتشابكة بيننا ، ما ثبتت عوارضُ — وهو جبلٌ — ودامَ للدّهر مُتّصلُ .

٤ — ومنهنّ ألا يجمعَ الغزوُ بيننا وفى الغزوِ ما يُلقى العدوُّ المباغضُ

وجهُ جوازِ الرّفع فى يجمعُ والنصب على ما تقدّم . وقد رتّبَ الشّاعرُ فى هذه الأبيات مسبّبات المودّة ونتائجها ، وما يوجِبُه غِراسُ المِقةِ وآثارُها ، أحسنَ ترتيبٍ ، فابتدأ عند ذكر انتفائها وامتناعها بتعذّر الاجتماع بالأبدان فى المجالسِ والمحالّ ، لأنّهُ الأوّل والأصلُ فى انعقادِ الوِداد ، ثم أتبعَهُ بما يصحَبُ الاجتماعَ للتألّفِ ، حتّى لا ينفكَّ منه من التّوانُسِ والتّساؤل ، والمُخالقةِ والإلطافِ ، لأنّه تِلوُ الأوّل وثانيه . ثم أردفَ المقدّمتين بنتيجتهما من التّعاوُن والتّساعُد ، والاهتمام والشّفقة عند ما يحدُثُ ويتجدّد من صغيرٍ وكبيرٍ ، ومَرْدودٍ ومقبول ، فيقولُ : ومن تلك الأحوال أنّ التّشارُكَ فى جوالب الدّهر بيننا رُفِضَ ، والتألّبَ على الأعداء من مقاصِدِنا سقطَ ، فلا يُؤلِّفُ بيننا مراعاةُ عزٍّ ، ولا عمارةُ وُدٍّ ، ولا ينظِمُ نوانا اجتذابُ مَحْمدَةٍ ، ولا دِفاعُ مَظْلمةٍ . ثم قال : « وفى الغزوِ ما يُلقَى العدوُّ » ماصِلَةٌ ، والمعنى : وفى العِزّ يُحتاج إلى الصّديقِ المُخالِص ، إذْ كان إنّما يُلقَى فيه العدوُّ المباغِض . فهذا وجهٌ . ويجوز أن يكون المعنى : وفى الغزوِ قد يُلقى العدوُّ المباغِضُ فكيف الصديقُ المُوادّ . والأوّل أشبَهُ وأجودُ .

٥ — ويتركُ ذا البأوِ الشّديدِ كأنّهُ من الذُّلّ والبغضاء شهباءُ ماخضُ

أخذَ يُبيّنُ مَساسَ الحاجة فى الغزوِ إلى ائتلاف الأوِدّاء ، وتعاوُنَ الأشدّاء ، فيقول : وإذ كان الغزوُ يتركُ المتكبّرَ الذاهبَ بنفسه مذاهِبَ ذوى الجبريّةِ والعِزّ ، وكأنّهُ مما لزِمَهُ من الذّلّ والبُغضِ للخلاف والحرب ، وتنامى الاعتلاء والقهر ، ناقةٌ شهباءُ أثّرَ وجعُ الولادة فيها فضعُفَتْ وسقطتْ . وإنّما

خصَّ الشَّهباء بالذِّكر لأنها أنعمُ الإبِل وأرقها ، وأقلها صبرًا وأضعفُها .

والمَخاضُ : وجع الوِلادة ، ويستعمل فى أنواع الحيوان . والطَّلْقُ لا يكونُ إلَّا فى النِّساء .

٦ – فسائِلْ هَداكَ اللهُ أىُّ بَنِى أبٍ   من النَّاسِ يَسْعَى سَعْيَنا ويُقارِضُ

أخذ يستعطِفُ الصَّديق الذى شكاهُ ، ويستميلُ بِقَلبِه ، فقال : سَلْ أرشَدكَ الله للخَيْرِ وصِلَة الرَّحِمِ ، وعدَلَ بكَ عن سبيل الضلال والقطيعة : أىُّ قومٍ من النَّاسِ يسعَى فى مَنع قُوَى التَّشابُك من الانبتات ، وصَونِ عُرَى التَّواصُلِ عن الانفصام ، سَعْيَنا ؛ أو يُقارِضُ ذوى القرابات ، وإخوانَ الوداد والمصافاة ، فى حالَتَى السرَّاء والضرَّاء ، مُقارَضَتَنا ؛ ثم توفَّرْ علينا بمثل ما يقتضيه الخِبرةُ والمَعرِفَةُ ، وعلى ما يَبْعَثُ عليه البَحْثُ والمُساءلة .

٧ – نُقارِضُكَ الأموالَ والوُدَّ بيْننا   كأنَّ القُلُوبَ راضَها لكَ رائِضُ

فى الكلام إلمامٌ بالعَتْبِ[1] ، وإظهارٌ للاستجفاء ؛ لأنَّه أخذ يُبيِّنُ تمام ميلهم إليه ، وحُسْنَ احتمالهم منه ، وأنَّهم على جفائِهِ لا يمنعونه مالًا ، ولا يَمْذُقُونَ لَهُ وُدًّا ، وكأنَّ قلوبَهُم جُبِلَتْ على حُبِّه ، وأُشرِبَتْ مودَّتَه ، فمَتَى رامتْ سَلْوَةً أو نُبُوًّا أُدِيرت إلى عادته[2] الأُولَى ، وعُطِفَتْ على مَحبَّتِهِ القُدْمَى .

٨ – كَفَى بالقُبُورِ صارِمًا لو رَعَيْتَهُ   ولَكِنَّ ما أعْلَنْتَ بادٍ وخافِضُ

قوله « بالقبور » فى موضع الرفع على أن يكون فاعِلَ كَفَى ، وانتصب « صارِمًا » على الحال أو التمييز . ولما كان القَصْدُ بذِكْر القُبُور إلى ما يُؤدِّى

(١) م : « بالعيب » .

(٢) هذا الصواب من م والتيمورية . وفى الأصل : « إعادته » .

إليها ، وهو الأجَلُ المضروب ، صَلَحَ أن يقولَ « صارِمًا لو رَعيْتَهُ » . ويقالُ رَعيْتُ النُّجُومَ وراعيْتُها ، إذا راقبْتها . وقولُه « وخافضُ » أراد به مُنْخَفِضٌ لـكنه أخرجَهُ مَخْرَج النسبة كأنه قال وذو خَفْضٍ[1] . يقول : لو انتظرتَ الموتَ ، وصبَرْتَ على المُجاملة مُدّةَ العَيْشِ ، لكان يكفيك عند حُصُولِه ما تَعجَّلْتَه من الصُّرْمِ ، ولـكنّ ما أظهرتَهُ من البُغْضِ تمكّنَ من نَفْسِك وقلبِكَ ، واستولَى على فِعْلِك وقولِك فلمْ تَملِكْ معهُ صَبْرًا ، ولم تُطِقْ بما يجمعنا رِفقًا ، فهو باطنٌ ظاهرٌ ، مُسَرٌّ مُعلَنٌ . وإنما قال هذا لأنّ الإنسان قد يُظْهِرُ خِلافَ ما ينطوى عليه أو دُونه ، ما دامَ يَملِكُ زمامَ تجمُّلِهِ وتَستُّرِه ، وصارَ الغَلَبةُ لِعَقْلِهِ وإرادته . فإذا كان ما يَنْبَعُ منه عن مَعِينٍ[2] فى القَلْبِ كَنِينٍ ، وعريقٍ مَكِينٍ ، قد امتلكَ النَّفْسَ وغَلَبَ المُسْكَةَ والصَّبْرَ ، فذلك النِّهايةُ لا يُقْدَرُ على سَتْرِه ، ولا يُهتدَى إلى دفعِه . وفى القرآن ما فيه هذا المعنى قولُه تعالى : ﴿ قد بَدَتِ البَغْضاءُ من أفواهِهِمْ وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ .

٢٠٢

وقال قَبيصة بن النّصرانىّ[3] :

١ — أَلمْ تَرَ أنّ الوِرْدَ عَرَّدَ صَدْرُهُ   وحادَ عن الدَّعْوَى وضَوْءِ البَوارِقِ[4]

---

(١) ساق التبريزى هذه العبارة بدون نسبة على غالب عادته ، ثم قال : « هكذا ذكره بعضهم . والجيد ماذكره أبو العلاء ، وهو أنه لم يذكر خافضا مقابلا به قوله باد ، ولـكنه خبر معطوف على خبر ، كما يقال إن فلاناً مكرم لك وكثير المال . يريد : إن هذا الذى بدا منك خافض لنا عند الناس ، أى ناقص منزلتنا فى الشرف والعز » .

(٢) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « معي » ، محرف .

(٣) سبقت له الحماسية ١٩٩ . لـكن ذكر أبو محمد الأعرابى أن هذه الأبيات للأعرج المعنى . وكان من قصة الشعر أن الأعرج المعنى حاد به فرسه يوم قتلت بنو جديلة سبعة إخوة له يوم ناصفة ، وهو قوله :

وأخرجنى من فتية لم أرد لهم   فراقا وهم فى مأزق متضايق

(٤) التبريزى : « وروى : عَرّدَ بصدره . وهو أجود الروايتين » .

التَّعريدُ: تَرْكُ القصدِ وسُرعةُ الانهزام[١]. والمُرادُ بالدَّعْوَى قولُ الكُماةِ مَن يُبارِزُ! وخُذْها وأنا فُلانٌ! وأنا الذى من شأنِه كذا! وأشباهه. والبَوارِقُ، جمع بارِقَة: السُّيوف وسائر الأسلحة.

وقائل هـذه الأبيات يعتذر من إحْجامٍ اتفق، وتأخُّرٍ عن الزَّحْفِ ظهرَ للناسِ من فِعْلِه، فأخذ يُورِّكُ بالذَّنْبِ على فرسِه[٢]، وإنَّ نَفْرَتَهُ كانت السَّببَ فى نُكُوصه، فقال على طريق التَّلهُّف والتَّوجُّع: أما تعلم أن فرسِى الوَرْدَ انحرَف عن القَصْدِ صَدْرُه، وتولَّى إلى غير الوجهة التى أُريدُها وجهُهُ، لنُفُورِهِ عن تداعى الأبطال، ونُكُولِهِ عن لمعانِ السُّيوف والرِّماح.

٢ – وأخْرَجَنِى من فِتْيَةٍ لم أُرِدْ لَهُمْ فِراقًا وهُمْ فى مَأْزِقٍ مُتضايِقِ

قوله «وأخْرَجَنِى» معطوفٌ على ما اعتلَّ بهِ من نُفُور الفَرَس، ومَعْدُودٌ فيما أمَّلَهُ من جنايتِه عليه. والواو من قوله «وهم فى مَأْزِق» واوُ الحال، والأزْقُ: الضِّيقُ فى الحربِ، ومأْزِقٌ مَفْعِلٌ منه. وقال «مُتَضايِق» لأنَّ ضِيقَ المَكَرِّ فى المعارِكِ يحصلُ شيئاً بعد شىء. فيقولُ: فرَّقَ بينى وبين فِتْيان أحْبَبْتُ الكونَ معهم، وأوْجَبْتُ على نفسى مُمالأتَهم ومساعدتَهم، فى وقتٍ كُنتُ خَليقاً بالثَّباتِ معَهُم، وإظهار البلاء فى نُصْرَتِهِم، وكانوا مدفوعين منه إلى ضَنْكِ مَجالٍ مِثْلِى يُستَدْعَى له، ويُسْتَنْهَضُ للإعانةِ[٣] فيه.

٣ – وعَضَّ على فَأْسِ اللِّجامِ وعَزَّنِى عَلَى أمْرِهِ إذْ رَدَّ أهْلُ الحَقائقِ

هذا بيانُ جِماحِ فرسِه وتأبِّيه عليه، فيقولُ: رَكِبَ رأسَهُ وغَلَبنِى على أمْرِه،

(١) التبريزى: «وقوله عرد صدره، أى عرد هو، كما تقول ولى وجهه. والتعريد: العدو، ومنه سميت العرادة لأنها ترمى بالحجر المرمى البعيد».

(٢) فى اللسان: «ورك فلان ذنبه على غيره توريكا، إذا أضافه إليه وقرفه به».

(٣) م: «للإغاثة».

فلمَّا كرَّ أهلُ الحقائق لم أَقْدِرْ على الكرِّ معهم(١) ، ولا ملكْتُ رَدَّ فرسِي مع رَدِّهم . وأَهْلُ الحقائق هم الذين يَبْلُغون فيما يَلُونَه ما يَحِقُّ ويجِبُ . ويُقالُ حَقَقْتُ العقدةَ ، إذا شَدَدْتَها .

٤ — فقُلْتُ له لمَّا بَلَوْتُ بَلاءَهُ وأنَّى بِمَتْعٍ من خليلٍ مُفارِقِ

يُروى : « وأَبْنا تمتَّعْ » . وله ، الضمير للفرس . كأنَّه كان يخاطبه متحسِّراً ويُباثُّه مُتلهِّفا ، ويقول بعد أن مُنِيَ منه بما مُنِيَ ، وابْتُلِيَ من نَفْرتِهِ وركوب رأسِهِ بما ابْتُلِيَ : من أينَ لِي الاستمتاع من خليل فارَقْتُه ، وكيف أساعِدُهُ وأَحْمِلُ عنه ثِقْلاً وقد باعدتُ بيني وبينَه . فقولُهُ « وأنى بِمَتْعٍ » فى موضع المفعول لِقُلْتُ . ويقالُ مَتَعَ بكذا واستَمتَع ، ومَتَّعَهُ الله به وأَمْتَعَهُ . ومن رَوَى : « وأَبْنا تمتَّعْ » يدخل وأَبْنا فى جملة ما اتَّصلَ بلمَّا ، ويكون المعنى : ولمَّا بَلَوْتُ بلاءَهُ وأكْرَهَنِي على مرادِه ، فانصرَفْنا من مَقْصِدِنا ، قُلْتُ له مُقرِّعاً ومتوجِّعاً : الآنَ تمتَّعْ من أجلِ خليلٍ بَعَّدْتَ بينى وبينه . كأنَّ تفجُّعَهُ امتدَّ أوَّلا وآخِراً ، وقبل الأوبةِ وبَعْدَها . وجوابُ لمَّا فى الوجهين قوله فقلتُ بما اتصلَ به .

٥ — أُحَدِّثُ مَنْ لاقَيْتُ يَوْماً بلاءَهُ وهُمْ يَحْسِبُونَ أنَّنِي غيرُ صادقِ

يقال حَدَّثْتُهُ كذا وبكذا ، فيُحمَلُ على خَبَّرْتُهُ كذا وبكذا ، ونبَّأْتُه كذا وبكذا . قال الهُذَلِيُّ :

* ولكن خَبَّرُوا قومِي بَلائِي *

وقال الآخر :

* وأُنْبِئْتُه أنَّ الفِرارَ خَزايَةٌ *

يقولُ : أَبُثُّ فى النَّاسِ قِصَّتِي وقصةَ فرسِي ، وأُخْبِرُ كُلَّ من لاقيتُهُ بجنايتِهِ

---

(١) التبريزى : « ولم أقدر على الكر إذ رد أهل الحقائق خيلهم إلى القنا طائعة إذ عصانى » .

علَيَّ وبلائِهِ مَعِي ، وهم بحسَدِهم وسوء رأيِهِم يُوَجِّهُونَ الظِّنَّةَ إلَيَّ ، ويُسَلِّطُونَ التُّهَمَةَ علَيَّ ، فأنا بَيْنَ تكذيبٍ وتعييرٍ معهم وفيهم .

٢٠٣

وقال أيضًا[(١)] :

١ – هَاجَرتِنِى يا ابْنَةَ آلِ سَعْدِ

٢ – أَأَنْ حَلَبْتُ لِقْحَةً لِلْوِرْدِ

يُرْوَى « هَاجَرْتِنِى » على الخطابِ ، والكلامُ به ظاهر الاستقامةِ ، ويُرْوَى «هَاجِرَتِى» ، والمعنى أنتِ هاجِرَتِى[(٢)] . وقوله «يا ابنةَ آلِ سَعْد» يجوز أن يريد يا ابنة سعد فزادَ الآلَ كما يُزَادُ لَفْظَةُ حَيّ وذُو . ومِثْلُه قول الآخر ، أنشدَهُ ابن الأعرابى :

إنّ ابْنَ آلِ ضِرَار حِينَ أَنْدُبُهُ زَيْدًا سَعَى لِى سَعْيًا غيرَ مَكْفُورِ

أراد إنّ ابن ضِرار . وهذا بابٌ واسعٌ مُخْتَلِفٌ . ويجوز أن يكون جَعَلَها ابنةَ الآلِ إعظاماً لها ، كما يقال يا ابنة القوم ، وقد تقدم القول فى الآل وحَقِيقَتِهِ . واللِّقحةُ : النّاقةُ الحلوب ؛ ولا يُوصَف به ، لا يُقالُ ناقةٌ لِقْحةٌ ، بل يَجرِى مجرى الأسماء . يقولُ : صارَمْتِنِى أيَّتُها المرأةُ حين آثَرْتُ فرَسى الوَرْدَ بِلَبَنِ لَقُوحِى ، فأَخْرَجَ قولَه « أأنْ حَلَبْتُ » مَخْرَجَ التقريع والتوبيخ ، وإن كان لَفْظُهُ لَفظَ الاستفهام ، لأنّ المُرادَ به : أَلِأَنْ حَلَبْتُ ، أى أَلِهذا الشّأنِ كان مِنْكِ الهِجْرانُ لِى .

٣ – جَهِلْتِ مِن عِنَانِهِ المُمْتَدِّ

٤ – ونَظَرِى فى عِطْفِهِ الأَلَدِّ

---

(١) كذا فى نسخة الأصل والتبريزى . وفى م : « وقال خفاف بن ندبة » .

(٢) كذا . والأوفق أن يكون المعنى : ياهاجرتى .

٥ — إذا جِيادُ الخَيْلِ جاءتْ تَرْدِى

٦ — مَمْلُوءةً من غضَبٍ وحَرْدِ

قولُه « جَهِلْتِ من عِنانِهِ » يجوز على مذهب أبى الحسن الأخفش أن يكون زاد « مِنْ » فى الواجبِ، أراد جهِلْتِ عِنانَهُ، ويكونُ قولُه، « ونَظَرِى » فى موضِعِ النَّصْبِ عَطْفاً عليـه إن شِئْتَ . ومِمّـا حَكاهُ من الحُجّةِ لَهُ قولُ بعضِهِم : « قَدْ كانَ من مَطَرٍ » ، « قد كان من شَىْءٍ فَخَلِّ عَنِّى » . وعلى مذهب سيبويه يكون فيه وَجْهان : أحدُهما أن يكونَ الكلامُ مَحْمُولاً على المعنى، لأنَّ الجهلَ نَفْىُ العِلْمِ ، كأنّه قال بَدَلَ جهِلْتِ : ما عَلِمْتِ وما عَرَفْتِ . والثانى أن يكون حَذَفَ مفعول جَهِلْتِ كأنّهُ قال جهِلْتِ من عِنانِهِ الطَّويلِ مَدْلولَه من العِتْقِ والنَّجابة ، لأنَّ الذى جهِلْتهُ ذلك ، إذْ كانَ امتدادُ عُنُقِه يُدْرِكُ مُشاهَدَةً . والشّاعِرُ أقبلَ يُبَيِّنُ عُذْرَها فيما أنكرتْه وعذْرَ نفسِهِ فى تَفَقُّدِهِ فرسَهُ فقال : جهِلْتِ ما أعْرِفُه من كرمِهِ ونَجابَتِهِ ، وما أتبيَّنُه وأستدِلُّ عليه من امتداد عنقه ولجاج جانبه ، واعتراضِهِ فى مَشْيِهِ ، فلذلك اسْتَعْظَمْتِ إيثارِى إيّاه . وذكَرَ العِنانَ والقَصْدُ العُنُقُ لأنَّ طوله بطولها ، واللَّدَدُ أصلُهُ فى الخصومَةِ ، يقال خَصْمٌ ألَدُّ . وقوله « إذا جِيادُ الخَيْلِ » إذا ظرفٌ لِمـا دَلَّ عليه قولُه « فى عِطْفِهِ الألَدِّ » . وقوله « تَرْدِى » فى موضع الحال ، والعامل فيـه جاءت . والرَّدَيان : ضَرْبٌ من المشى . قولُه « مملوءةً » فى موضع الحال ، والعامل فيه تَرْدِى . والحَرْدُ : القَصْد ، وفى القرآن : ﴿ عَلَى حَرْدٍ قادرِينَ ﴾ ، أى على جِدٍّ من أمْرِهم ، والمعنى : إذا جاءت الخيلُ العِتاقُ قد حَمِيَتْ ونَشِطَتْ فامتلأتْ غَضَباً ، وصار مَشْيُها رَدَياناً ، كان فى عِطْفِ هذا لَدَدٌ واعتراضٌ ، وفى مَشْيِه

اقتسار والتواء . والعِطْفُ من كل شيء : جانِبُهُ من لَدُنْ رأسِه إلى وَرِكه . ويقال : ثَنَى عِطْفَهُ ، إذا أعْرَضَ وجفَا .

٢٠٤

وقال آخرُ[١] :

١ — لَعَمْرُ أَخِيكَ لا يَنفَكُّ مِنَّا أَخُو ثِقَةٍ يُعاشُ به مَتِينُ[٢]

قوله « لَعَمْرُ أخيك » يجوز أن يُرِيدَ بأخيك نَفْسَهُ ، كأنه قال لَعَمْرِي . وجعَلَ نَفْسَه أخاهُ على طريق الاستعطاف وتلطيف الحالِ . ويجوز أن يَكُونَ المُخاطَبُ كانَ لَهُ أخٌ يَعِزُّ عليه ويُقْسِمُ بحياتِهِ ، فاقْتدى به فى ذلِك إعظاماً لهُ وللمُقْسَمِ بِهِ . ولَعَمْرُ مُبْتَدَأٌ وخبَرُهُ محذوفٌ ، كأنَّهُ قال لعَمْرُ أخِيكَ قَسَمِى أوما أُقْسِمُ به . ومعنى لا يَنفَكُّ : لا يَزالُ . والمَتِينُ : كلُّ صُلْبٍ شديدٍ ، والمصدرُ المتانةُ ، وماتَنْتُ الرَّجُلَ مُماتَنَةً ، إذا حاكَيْتَهُ ففعَلْتَ مثل ما يفعله من الشِّدَّة . يقولُ : وبقاءِ أخيكَ لا يزال منّا أخٌ يوثَقُ بوُدِّهِ ، ويُحْسَنُ الظَّنَّ بنيابَتِهِ ، ويُعاشُ به وفى ظِلِّهِ ، جَلْدٌ قَوىٌّ عزيزٌ .

٢ — مُفِيدٌ مُهْلِكٌ ولِزازُ خَصْمٍ على المِيزانِ ذُو زِنَةٍ رَزِينُ[٣]

قوله « مُفِيدٌ مُهْلِكٌ » مثل قول الآخر :

* مُفِيدٌ مُفِيتٌ[٤] *

ويكون أفادَ متعدِّيًا إلى مفعولين ، وقد حَذَفَهُما ، وكذلك مُفِيتٌ . ويجوز

---

(١) التبريزى : « وقال أيضاً » . فتكون الحماسية على هذا لقبيصة بن النصرانى .

(٢) رواه التبريزى : « لعمر أبيك » ، ثم قال : « إذا روى لعمر أخيك فإنه يجوز أن يريد بأخيه نفسه » . (٣) هذا البيت وشرحه الذى يليه ساقط من م .

(٤) لكعب بن سعد الغنوى فى أمالى القالى (٢ : ١٤٨) . وتمامه :

مفيد مفيت العائدات معود لفعل الندى والمكرمات كسوب

أن يكون أفاد بمعنى استفاد ، فيكون معنى مُفيدٌ مُهلِكٌ : كَسُوبٌ بالغَزْوِ مِنْفاقٌ . والأوّل أصلَحُ فى هذا . وقوله « لِزَازُ خَصْمٍ » لِزَازٌ كالسِّنادِ والعِمادِ وما أشبههما . واللَّزُّ أصله اللُّزوم والثَّبات . على ذلك قولهم لِزَازُ الباب(١) . ثم توسّعوا فقيل هو مِلَزٌّ فى الخصومة ولِزَازٌ ؛ وهو مُلَزَّزُ الخَلْقِ ، أى مُجْتَمِعُه . يقول : يفيدُ أولياءَه الخيرَ والغُنْمَ ويُهلِكُ أعداءَه ، ثم يَلزَمُ خَصْمَه فلا يفارقُه أو يَغلِبَه . وإذا وُزِنَ بغيرِه رَجَحَ عليه فى السَّبْرِ والاختبار ، فإذا استُخِفَّ ذلك كان هو وقورًا رزينًا . ويقال رزينٌ بيِّنُ الرَّزانة ، وامرأةٌ رَزانٌ .

٣ — يَزِيدُ نَبالَةً عن كلِّ شىءٍ ونافِلَةً وبعضُ القَوْمِ دُونُ

نَبالةٌ مصدر نَبُلَ . والنَّافلةُ : الفَضْل . ودونَ ، حقيقتُه القاصِرُ عن الشىء . ويقال هو دُونَكَ فى الحَسَب على التوسُّع ، هذا إذا كان ظَرْفًا . ويقال هو دونٌ فى الرِّجال ، وما هو بدونٍ ، فيُجْعَلُ اسمًا ، والذى فى البيت هو على هذا . يقول : ومع اجتماع هذه الخِصال فيه سَرْوٌ ونُبْلٌ ، وحَمِيَّةٌ وعِزٌّ ، فيَفْضُلُ على كلِّ نَبيلٍ ، ويَعلُو على كلِّ ذى شأنٍ نَبيهٍ ، وبَعْضُ القَوْمِ ساقِطٌ قاصِرٌ ، متأخِّرٌ ناقِصٌ .

٢٠٥

وقال خُفافُ بن نُدْبَةَ(٢) :

١ — أَعبّاسُ إنّ الذى بيْننا أَبَى أن يُجاوِزَهُ أَرْبَعُ

المخاطَبُ عبّاس بن مِرْداس ، ومراد الشاعر أن يقول : يا عبّاسُ ، إنّ

(١) هى الخشبة التى يلز بها .
(٢) هو خفاف بن عمير بن الحارث بن الشريد السلمى . وأمه ندبة سوداء ، وإليها ينسب=

الحُرُماتُ الأربع التى تجمعنى وإياك ، مَنَعَت أن يتخطّاها ما بيننا من الشرّ ، فهو يَقِفُ دونها ، ويَقْصُرُ عن تجاوُزِها . وظاهِرُ الكلام فيه قَلْبٌ ، لأنه جعَل الفعلَ الذى هو المجاوزة للأربع ، والأربع هى الآبِيَةُ من أن يجاوِزَها ما حَدَثَ بينهما . وصَلَحَ ذلك لأنّ المراد لا يَلتبسُ من الكلام . وعلى هذا قول الآخر :

* كما أسلَمَتْ وحْشِيَّةٌ وَهَقا *

لأنّ الوَهَقَ يُسْلِمُ الوَحْشِيَّةَ . ويمكن أن يقال : إذا تعدّى أحدُ الشيئين صاحِبَهُ فقد صار الآخَر كأنّهُ تعدّاهُ ، وإذا كان كذلك ساغ أن يُجعَل لكلّ واحد منهما المجاوزةُ .

٢— عَلائقُ مِنْ حَسَبٍ داخِلٍ مع الإلّ والنَّسَبُ الأرْفَعُ

٣— وأنّ ثَنِيَّةَ رأسِ الهِجا ءِ بَيْنى وبَيْنَكَ لا تُطْلَعُ

هذا تفسير الخِصَالِ الأربع التى أجْمَلَها . والعلائق ، جمع عِلاقة ، وهو ما يُتعلّق به من الشىء أو يُعلّقُ به الشىء . وقوله « من حَسَبٍ داخِلٍ مع الإلّ » ، فالحَسَبُ : الشَّرَف . والإلّ : العَهْدُ . ومعنى داخلٍ مَعَهُ ، أى مختلطٌ به . والنَّسَبُ الأرفَع يجوز أن يكون يَعْنِى به النَّسَبَ من قِبَل الأب ، لأنه أرفع النسبين ، ويجوز أن يَعنىَ النسبَ الرفيع العَلِىّ . وقد حصَل إلى هذه الغاية

= ومى بفتح النون وضمها . وهو أحد غربان العرب ، ثانيهم عنترة ، وثالثهم السليك بن السلكة كل منهم أمه سوداء . وهو ابن عم خنساء بنت عمرو بن الشريد ، ويكنى أبا خراشة ، وله يقول عباس بن مرداس :

أبا خراشة أما كنت ذا نفر فإن قومى لم تأ كلهم الضبع

وقد أسلم خفاف وبقى إلى زمان عمر . انظر الإصابة ، وأسد الغابة ، والأغانى (١٦ : ١٣٤ — ١٣٩) والخزانة (٢ : ٤٧٠ — ٤٧٥) والاشتقاق ١٧٢ ، ١٨٨ والشعر والشعراء ٣٠٠ .

من العلائق ثلاثٌ : حَسَبٌ ، ونَسَبٌ ، وعَهْدٌ بينهما ، والعلاقة الباقية هى مذكورةٌ فى البيت الذى يليه ، وهو قوله :

وأنّ ثَنِيّةَ رأْسِ الهِجا • بنى وبينكَ لا تُطْلَعُ

كأنهما كانا تعاقدَا أن لا يهجو أحدُهما صاحِبَه ، ولا يذكُرَه فى الشِّعْرِ ناحتًا أثْلتَهُ . وجعَل لرأس الهجاء عَقَبةً تَثْنِى بشُقّتها من يريدُ قَطْعَها . ويقال طَلَعَ الثَّنِيّةَ واطَّلَعَها ، إذا أشرَفَ عليها . فإن قيل : وما الفصل بين الحَسَب والنَّسب ؟ قلت : إنّ الحَسَب ما يُعَدّ من الخِصال الكريمة ، وترى الحسيبَ يوجِبُ للحسيب ويَعرِف له بحَسَبِه مَحلاً وقَدْرًا ، وإنْ لم يكُن بينهما قُرْبَى ولا قرابةٌ . والنَّسَبُ يريد به الرَّحم والقرابة . فإنْ قيل : فما معنى الإلّ ، وما الفَرْقُ بينه وبين الخَصْلةِ الرابعة ، وهى التعاقُدُ على تركِ الهجاء واطِّراحه ؟ قلتَ : الإلّ : العَهدُ ، بذلك فَسّرَه أبو عُبيدةَ فى قولِهِ تعالى : ﴿ لا يَرْقُبُونَ فى مُؤْمِنٍ إلاًّ ولاَ ذِمّةً ﴾ . كأنهما كانا تواثقَا على أن لا يُدبِّرَ كلٌّ واحدٍ منهما على صاحبه ، ولا يَسْعَى فى نَصْب المكايد له — فهذا ميثاقٌ بينهما — ثم اتّفقا أيضًا على أن لا يتهاجَيا . وإذا كان كذلك فالفصل بين الأمرين ظاهر ، كما ظهر بين الحسب والنَّسب .

٤ — وأَبغِضْ إلىَّ بإتْيَانِها • إذا أنا لم أنْسَها أدْفَعُ[(١)]

قولُه «وأبغِضْ إلىَّ بإتْيانِها» استُعِيرَ فيه بناء الأمر للخبَر ، لأنّ معناه التعجُّب ، والتعجّب خَبَرٌ ، وهم يستعيرون المبانى للمعانى ، كما يستعيرون الجُمَل والمفردات . وهذا كما يُستعارُ بناء الخَبَرِ للأمر كقوله : ﴿ والمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ ﴾ . وموضع بإتيانها رَفْعٌ على أنّه فاعلٌ ، كأنه قال بَغُضَ إتيانُها إلىَّ جِدًّا . يقول : ما أَبغضَ

(١) التبريزى : « لم آتها » .

إتيان عَقَبةِ الهجاء واطّلاعَها إلىّ ، لأنى أربأ بنفسى عنه وقَدْرى ، وأصونُ منه دينى وعِرْضى ، وأتناسَى فعْلَ ذلك فلا يكون من هَمِّى . ولو لم أترُكْها تأثُّمًا وتكرُّمًا ثم أردتُ مناقضتك ومقاذعتك ، لكان ما تعاقَدْنا عليه من ترْكِهِ يدفعُنى عنه ، ويمنعُنى منه . فإذا ظَرْفٌ لقولِهِ أدْفعُ(١) .

٢٠٦

وقال بعضُ اللُّصُوصِ من طَيِّئٍ(٢) :

١– ولما أنْ رأيتُ ابْنَىْ شُمَيْطٍ بسِكَّةِ طَيِّئٍ والبابُ دُونى
٢– تَجلَّلتُ العَصَا وعلمْتُ أنِّى رَهِينُ مُخَيَّسٍ إنْ أدْرَكونى

الشِّعْرُ لبعض المتلصِّصة ، وكان أُنْهِىَ حالُه إلى أمير المؤمنين علىّ عليه السلام وهو بالكوفة ، فوجّه فى طَلَبِه ابنَىْ شُمَيْطَ ، فأحسّ بذلك وركِبَ فرَسَه

(١) روى التبريزى بعد هذه الحماسية مقطوعة أخرى لمعبد بن علقمة . ونصها :

غُيِّبْتُ عن قَتل الحُتات وليتنى شهدتُ حُتاتًا حينَ ضُرِّج بالدمِ
وفى الكفّ منى صارمٌ ذو حقيقةٍ متى ما يُقدِّمْ فى الضريبة يُقدمِ
فيعلمَ حيَّا مالكٍ ولفيفُها بأنْ لستُ عن قتل الحُتاتِ بمحرِمِ
فقل لزهير إن شتمتَ سَرَاتَنا فلسنا بشتّامين للمتشتِّمِ
ولكننا نأبى الظَّلامَ ونعتصى بكلِّ رقيق الشفرتين مصمِّمِ
وتجهلُ أيدينا ويحلُمُ رأينا ونشتمُ بالأفعال لا بالتكلّمِ
وإن التَّمادى فى الذى كان بيننا بكفَّيك فاستأخِرْ له أو تقدّمِ

وقد روى ابن جنى فى التنبيه منها البيت الأول .

(٢) هو شبيب بن عمرو بن كريب الطائى ، كان يصيب الطريق فى خلافة على بن أبى طالب ، فبعث إليه أحمر بن شميط العجلى وأخاه فى فوارس ، فأحس شبيب بذلك ، وركب فرسه العصا فنجا به . انظر البيان (٣ : ٨٥) وشرح التبريزى للحماسة .

العصا فنجا به ، وذكر قصّته فى هذه الأبيات . وقوله « والبابُ دونى » يعنى بابَ البَلَد والمَسالِح[1] . وقوله « تجلَّلْتُ العصا » جوابُ لمّا ، أى رَكِبْتُه على جُلِه ولم أتلوَّمْ لإسراجِهِ ، خوفاً على نفسى ، وعِلْماً أنّى إن توقّفت أُودِعتُ السجن مُرْتَهناً بما كسبَتْ يَدِى . و « مُخَيَّس » : اسمُ سِجْنٍ بناهُ أمير المؤمنين عليه السلام . والتّخييسُ : التذليل ، وأصْلُه فى الكدِّ والإعمال . على هذا قال النابغة :

وخَيِّسِ الجنَّ إنى قد أذِنتُ لهم يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفّاح والعَمَدِ

ويقال فى الشتم : خُيِّسَ أنفه فيما يكره ، كما يقالُ أُرْغِمَ أنفُه .

٣— ولَوْ أنّى لَبِثْتُ لهم قليلاً لَجَرُّونى إلى شَيْخٍ بَطِينِ[2]

٤— شَدِيدِ مَجَامِعِ الكَتِفَيْنِ باقٍ على الحَدَثانِ مُخْتلِفِ الشُّئُونِ[3]

قوله « قليلا » يجوز أن يكون ظَرْفاً ، يريد زماناً قليلا ، ويجوز أن يكون صفةً لمَصْدَرٍ محذوفٍ ، يريدُ لَبثاً قليلا . فيقول : لم أُمكِّنْ للطالبين لمّا عرَفْتُ الحال ، ولم أتباطأ معرِّجًا على إعداد شىء ، ولو ظَفِروا بى لجرُّونى إلى حضرةِ رجلٍ عظيم البطنِ شَيْخٍ ، وذلك صفةُ أمير المؤمنين عليه السلام . ولقد رُوى عن النبيّ صلوات الله عليه فى عِظَم بَطْنه أنه قال : « هو لكثرة عِلْمِه » . وقوله « شديدِ مجامع الكتفيْن » من صفتِه إلى آخر البيت . يريد أنه شديد الظّهر ، قوىّ المَتْن ، مجتمع الخَلْق ، وذلك خِلْقةُ الأسد . وقوله « باقٍ على الحَدَثان » يعنى صَبْرَهُ فى حوادث الدّهر ، وانتصابه فى وجوه بُغاة الجَوْر ، لا يأخُذه فى

(١) م : « أو المسالح » .

(٢) رواية الجاحظ :

ولو أنظرتهم شيئاً قليلا لساقونى الى شيخ بطين

(٣) رواية الجاحظ : « شديد مجالز الكتفين صلب » .

طلب الحقِّ وإمضائه لومةُ لائم ، واعتراضُ ممانِع [١] ، ولا يَلفِتُه عن هَدْيِه وسَنَنِه كراهةُ كارهٍ ، وقَعْدَةُ خاذلٍ . وقوله « مختلفِ الشئون » يعنى طرائقه فى زُهدِه وعِلمِه وورَعِه ، وبأسِه وإقدامِه فى ذات الله ، وجُبْنِه عن محارِمِ الله ، وتعفُّفِه عن احتجاز المطامع ، وابتناء المصانع ، مع قلّة الاحتفال باكتساب رِضا خَلْقِه ، إذا أدّاهُ إلى سَخَط ربِّه ، إلى ما لا يكاد يجتمع إلا فى مِثلِه ، ويطولُ الكلامُ بعدِّه وضَبْطِه . وفى هذه الطريقة وإن اختلَف الوَصْفان والموصوفان قول الآخر [٢] :

قليلُ التشكّى للمُهِمِّ يُصيبُهُ كثيرُ الهَوَى شتّى النَّوَى والمَسالِكِ

٢٠٧

وقال حُرَيْثُ بن عَنّابٍ [٣] :

١ — لَمّا رأيتُ العبدَ نَبْهانَ تارِكى بِلَمّاعةٍ فيها الحوادثُ تَخطِرُ

٢ — نَصِرْتُ بمَنْصُورٍ وبابْنَىْ مُعَرِّضٍ وسَعْدٍ وجَبّارٍ بل اللهُ يَنصُرُ

٣ — ولله أعطانى المَوَدَّةَ مِنهُمُ وثَبَّتَ ساقى بعد ما كِدتُ أعثُرُ

لمّا عَلَمٌ للظَّرْفِ ، وهو لوقوع الشيء لوقوع غيره ، وجوابُه نَصِرْتُ . وأراد بنى نَبْهانَ فذَكَرَ الجدَّ والمرادُ القومُ ، وسَمّى نَبْهانَ العَبْدَ تهجيناً له ، ورَمْيًا إيّاهُ باللؤم . واللّمّاعة : المَفازةُ يلمعُ فيها السَّرابُ . وجعَلها مَخُوفةً لا تؤمن فيها نوائبُ الدَّهرِ ، وحوادثُ الموتِ . ومعنى تَخطِرُ تَحدُثُ وتعترض . ويقال رُمْحٌ خَطّارٌ ، أى شديد الاهتزاز ، ومنه خَطَرانُ الفَحْلِ بذَنَبِه عند الصِّيال .

---

(١) فى الأصل والتيمورية : « وإعراض ممانع » وفى م : « وإعراض اعتراض ممانع » ، والوجه ما أثبتنا .

(٢) هو تأبط شراً . انظر الحماسة ١٣ ص ٩٤ .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسة ٦٩ ص ٢٥٥ .

فيقول : لمّا وجدتُهم متخلفين عنّى وتاركين لى بمَفَازةٍ هذه صفتها ، استنصرْتُ غيرَهم فنصرنى اللهُ بالأقوام الذين ذكرْتُهم . ولا يمتنع أن يكون اللّماعة كناية عن الأمر الشديدِ والداهية المُنكَرة . ويكون قولُه « تاركى بلَمّاعةٍ » كما يقال تركْتُه بحالة سَوْء ، وبآخِرِ رَمَق ، وما يجرى مَجْراهُ . وقولُه « فيها الحوادثُ تخطِرُ » جَعَلهُ مَثلاً لما لم يكُن يأمَنُهُ من فنون الحوادث ، وصُروف المَتالف . ثم أخذ يشكر الله على ما عطَفَ عليه من مَيْلِ الأقوام الذين أغاثُوه ، وثَنى إليه من نصْرِهم ، وعلى تثبيت قدمه بعد ما كادت تَزِلُّ به ، وتلافيهِ بحُسْنِ الاستمساك ، عند ما ظَنّ من إشراف الهَلاك .

٤ — إذا ركِبَ النّاسُ الطريقَ رأيتَهُمْ   لهُمْ قائدٌ أعمى وآخرُ مُبْصِرُ

الضمير من قوله « لهم قائد » يجوز أن يكون لناصِريه ، وهم الذين سمّاهم ، ويكون الكلام مَدْحاً وما بعد هذا البيت يتلوه فى ذلك ويَتْبَع . ويجوز أن يكون لخاذِليه بنى نَبْهان ، ويكون الكلام ذمًّا ، وما بعده يطّرِدُ معه ويذهب . ووجه المدح أن يكون المراد بقولِهِ « إذا ركِبَ النّاسُ الطريقَ » إذا انتوَى النّاس نِيأتهم ، فسلَكوا فى مَناجِعهم ومزالِفهم (١) ، ومتصرّفاتهم ومَناقِلهم ، طرائقهمُ الآمنة ، رأيتَ هؤلاء القومَ لعزِّهم ومَنَعَتِهِمْ يسيِّرهم اللّيلُ والنّهار ، ويقودُهم الظُّلَم والأنوارُ ، لا يَحْذرون مَنِيعاً ، ولا يخافون مُغيراً ، ولا ينأى عنهم اسْتِباحةُ حِمًى ، ولا يَعرِض لهم حيثُما توجّهُوا أذًى . فالقائد الأعمى هو اللّيل ، والآخَر المبصِر هو النّهار . ووجه الذمّ أنّهم لجهلهم وسوء تأتّيهم ، إذا أبْصرَ النّاسُ مراشِدَهُم واستَبْصَروا فيما يُقْدِمُون عليه أو يُحْجِمون عنه وجدتَ هؤلاء القومَ يستَضيئون برأيِ كلّ أحدٍ ، ويستشيرون كلّ ذى نِحْلَةٍ ومَذْهَب ، فيُرشِدُهم جماعة ويُغْوِيهم آخرون ، على حسب اختلاف الآراء والمقاصِد ، لا بصيرة

(١) المزالف : القرى التى بين الريف والبر .

تُمْسِكُهُم ، ولا عزيمةَ تَغلِبهم وتَجْذِبهم ، فهم تَبَعٌ لـكلِّ ناعِقٍ ، وجوابٌ لـكل نادِبٍ .

٥—لهم مَنْطِقانِ يفرِقُ الناسُ مِنْهُمَا   ولَحْنانِ مَعْرُوفٌ وآخرُ مُنْكَرُ

إذا جُعِل الـكلامُ مَدْحاً على ما قدَّمْتُهُ ورتّبته يكون معنى « لهم مَنْطِقان » أنّهم خطباء شعراء ، فالنّاسُ يرْهَبون نَظْمَهم ونَثْرَهُم ، ويهابُونَ ألسنَتَهم وأقوالَهُمْ فى مجالِسِ المُلوكِ ، وأنديةِ الاحتفال . ومعنى « ولَحنان معروفٌ وآخَرُ مُنْكَرُ » أنّ لهم اصطناعاً لمُوَالِيهم فَلَحْنُهم فيه لحن معروفٌ حَسَنٌ مَرْجُوٌّ ، واستئصالاً لمُعَادِيهم فلَحْنُهم فيه لحن مُنْكَرٌ مَخُوفٌ . وفى طريقة هذا الوجه قول نُصَيْب :

يُحَيّونَ بَسَّامِينَ طَوراً وتارةً   يُحَيّونَ عَبَّاسِينَ شُوسَ الحواجبِ

واللَّحْنُ : المَعَارِيض ، وفى القرآن : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ القَوْلِ ﴾ . وأصله العُدول والميلُ عن الظاهر . وإذا جُعِلَ ذَمًّا لأولئك القَوْم يكون المعنَى أنّهم ذوو وجوهٍ فى لقاء النّاس مختلفةٍ ، وأقوالٍ غيرِ صادقةٍ ، فلـكل منهم مَنْطِقان : أحدُهما فى التقوُّل والتنفُّق ، والآخر فى البُهْتِ والتخرُّص ، عَرَفهما النّاسُ فهم يَفرقون منهما . ولهم تعريضان بعدَهما : أحدُهما يَعْتَادُونَهُ عند نكْثِ العهود ونقض العُقود ، وقد عَرَفه الناس فهو مشهور من أفعالِهِم ؛ والآخر يتعاطَوْنَه عند إعمال حيلةٍ ، وإمضاء غِيلةٍ ، فهو خافٍ بَعْدُ مَنْـكُور .

٦—لـكلِّ بنى عَمْرو بن عَوْفٍ رِباعَةٌ   وخَيْرُهم فى الخير والشَّرِّ بُحْتُرُ

قوله « لـكل بنى عمرو بن عوف رِباعَةٌ » ، أى لـكلٍّ واحد منهم أمرٌ مستقيمٌ ، وتدبيرٌ مرضىٌ[1] ، وأفضَلُهُمْ فى السَّرَّاء والضَّرَّاء بُحْتُرُ بن عَتُود .

(١) كذا فى م والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « مضى » أى مضىء .

ويُقال : ما فى بنى فلانٍ أحدٌ يَضْبِط رِباعَتَهم[1] غيرُ فُلانٍ ، أى أمْرَهم وشأنَهم . والناس على رَبِعاتِهم[2] ورِباعَتِهم ، أى على استقامتهم . وحُكِيَ : تركْناهم على سَكِناتِهم ورَبِعاتهم ، أى على حالِهم الحسنة . ولا يُقال ذلك فى غير الحسَن . وحُكِيَ أيضاً : هو على رِباعَةِ قوْمِه ، وهو ذُو رِباعةِ قومه ، أى سيِّدهم ومُدبِّرهم . فعلى هذا يجوز أن يكون المعنى لِكلِّهم ذو رِباعةٍ ، فحذَفَ المُضافَ . ويؤيِّد هذا قوْلُه « وخيْرهمُ فى الخير والشرِّ بُحْتُرُ » . وقد حُكى[3] فى هذه الأبيات معانٍ غريبةٌ فتفهَّمْها[4] .

٢٠٨

وقال أبانُ بن عَبْدَة [بن العيَّار[5]] :

١ — إذا الدِّينُ أوْدَى بالفَسادِ فقُلْ له يَدَعْنا ورَأْسًا من مَعَدٍّ نُصادِمُهْ

الدِّين يجوز أن يرادَ به الطاعة والائتلاف هاهنا . ومعنى أوْدَى بالفساد : هلَكَ بفسادِ ذات البَيْنِ . ويجوز أن يرادَ به دينُ الإسلام ، ومعنى أوْدَى بالفَسادِ أوقَعَ[6] بما ظهَرَ من وُلاةِ الأمر ، جعلوا الخلافة مُلْكاً ، وفَىْءَ المسلمين مِلْكاً . وقيل أراد بالفَسادِ الحربَ المعروفةَ بحرب الفَساد ، وسُمِّيت بذلك لتناهى الشرِّ والحِقدِ بين أهْلِها ، ويقالُ إنّ الواحد منهم كان يَخْصِفُ نَعْلَهُ بأُذُنِ مقتوله ويشرب الماءَ فى قِحْفِ رأسِه . ويكونُ المرادُ بالدِّين فى هذا الوجه الائتلافَ

(١) الرباعة ، بفتح الراء وتكسر .
(٢) الربعة ، بالتحريك ، وبفتح فكسر ، وبكسر ففتح .
(٣) م والتيمورية : « جرى » .
(٤) التبريزى : « وقال ابن الخياط : يقول : لكل هؤلاء أمر وشأن ، وخيرهم بحتر ، ولا يصلح للرياسة والسياسة ، لأنه لئيم دنىء » .
(٥) التكملة من التيمورية . وذكر التبريزى أنه فى إحدى النسخ « أبان بن عبيدة » ثم قال : « عبدة بن عيار ابن مسعود بن جابر بن عمرو بن جزء » .
(٦) كذا فى جميع النسخ .

العشـيرة ، لأنّ هذه الحربَ كانت فى أحياء طَيِّئ . والرَّأسُ : الجماعة الـكثيرة . قال :

وَرَأْسِ أعْداء شَـــدِيدٍ أَضَمُهْ ... سِرْنَا إليه إذْ غَزَانَا أعْظَمُـهْ[1]

وقولُه « نُصَادِمُه » أى نُدَافِعُـه ونُصَاكُّه . فيقول : إذا ارتفعت دعوةُ الاتِّفاق والائتلاف من بين العشائر ، وبَطَلَت طاعةُ بعضهم للبَعْضِ ، وسَقَط التعاوُنُ والتجمُّع [منهم[2]] بما يعُمُّهم من المُبَاينة ، ويَظهَرُ فيهم من أثَر العُقُوقِ والمُشَاقّةِ ، فقُلْ له ليتركْنا وجَيْشًا عظيما من قبائلِ مَعَدٍّ نُدَافِعُه ونحارِبُه . وإذا كان بيننا التّوازُر والتألُّف لم نُبالِ بقبائل مَعَدٍّ كلِّها . قولُه « نُصَادِمُه » فى موضِـع الحال ، أى مُصادِمِين له . وقولُه « يَدَعْنَا » إن شئتَ قلتَ الجزمَ بلامِ الأمر وقد حُذِف ، كأنّه قال : قل له ليدَعْنا . وإن شئتَ قلتَ الجزمَ على أن يكونَ جوابَ أمرٍ محذوفٍ ، كأنّه قال : قُلْ له دَعْهُمْ يَدَعْنا . وعلى هذا قولُه عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّـلاَةَ ﴾ ، كأنّه قال قل لهم افعلُوا يفعلوا .

٢— بِبِيضٍ خِفَافٍ مُرْهَفَاتٍ قَوَاطِـعٍ ... لداوُدَ فيهـــا أثْرُهُ وخَوَاتِمُهْ

الباء من قوله « بِبِيضٍ » تعلّق بنُصَادِمُه من البيت الأوّل . ويعنى بها السُّيوف . وجعلها خِفَافًا لسُرْعةِ الضاربين بها فى إعمالِها . والمُرْهَفاتُ : المُرَقَّقاتُ الحدِّ ، المَوَاضِى فى الضَّرائبِ . وقال : لداوُدَ فيها خواتِمُ ، يريدُ عِتقَها . وداوُد عليه السلام إنَّما سَرَدَ الدُّرُوعَ لمَّا ليَّنَ اللهُ الحديدَ له مُعجِزةً لا السُّيوف ، لـكن القَصْدَ إلى العِتْقِ والقِدَم ، لا إلى الطَّبْع والعَمَل . وقيل فيه إنَّهُ قَدَّرَ أنّ الأمْرَ

(١) الرجز للعجاج فى ديوانه ٦٤ .

(٢) هذه من م والتيمورية .

فى نسبة السُّيوف والدُّروع إلى داود على سَوَاه، بجَهْلِهِ. والأَثْرُ: فِرِنْدُ السَّيْف. وذِكْرُ الخواتِمِ مَثَلٌ، أى هى مما اتُّخِذَ فى أيّامِه، واستُعمل تحت خواتِمِه.

٣ — وَزُرْقٍ كَسَتْهَا رِيشَهَا مَضْرَحِيَّةٌ أَثِيثٌ خَوَافِي رِيشِهَا وقَوَادِمُهْ

٤ — بِجَيْشٍ تَضِلُّ البُلْقُ فى حَجَرَاتِهِ بِيَثْرِبَ أُخْرَاهُ وبالشَّأْمِ قَادِمُهْ[1]

يَعْنِى بالزُّرْقِ نِصالاً مجلوَّةً قُذِّذَتْ بريش صَقْرٍ. والمَضْرَحِيُّ: الكريمُ من الصُّقور، وقيل هو ما طال جَناحاهُ منها؛ وتُوُسِّع فيه فقيل للسَّيِّد السَّرِيِّ هو مَضْرَحِىٌّ. وقال «كَسَتْهَا رِيشَهَا مَضْرَحِيَّةٌ» على المجازِ، لمّا كان القُذَذُ من جناحِها. وجَعَل فى القَوادِمِ — وهى كِبار الرِّيش — وفى الخوافى — وهى صغارُه — أَثاثةً وجُثُولةً، نَفْيًا للحَرَقِ[2] والفَسادِ عنها. وذَكَّرَ أَثِيثًا لأنّه أجرى مَجْرَى الفعل، وتأنيثُ الخَوافى ليس بحقيقىّ. وقولُه «بجيشٍ تضِلُّ البُلْقُ فى حَجَراتِه» يصفه بالكثرة — ألا تَرَى أنّه جعَلَ له حَجَراتٍ، وهى النَّواحى، واحدتُها حَجْرةٌ. وفى المَثَل «يَرْبِضُ حَجْرَةً ويَرْتَعِى وسطًا» — وأنّ البُلْقَ من الخَيْل على شُهرتِها إذا ضَلَّتْ عن أربابها فذهبَتْ فى جوانبه لم يُهتَدَ إليها. وقولُه «بيَثْرِبَ أُخراهُ» يعنى مدينةَ الرسولِ عليه السلام. يريدُ أنّ جَيْشَهُ يأخُذُ من الأرضِ، لكثرتِه، ما بين المدينةِ إلى الشّأمِ.

٥ — إذا نحن سِرْنا بين شَرْقٍ ومَغْرِبٍ تَحَرَّكَ يَقْظانُ التُّرابِ ونائِمُهْ

لم يَرْضَ بما انتهى إليه من الوصفِ فى كَثْرتِه، فزاد وقال: إذا سِرْنا بين بين مشارقِ الأرض ومغارِبِها طَبَّقْنا الأرضَ بكَثْرتنا، فتزَلْزَلَ لنا الطريقُ المسلوكةُ وغيرُ المسلوكة. واليَقْظانُ: ما وُطِئَ بالأرجل وسُلِك، فكأنّ ترابَهُ

(١) كلمة «الشأم» كذا وردت بالهمز فى الأصل فقط.

(٢) الحرق، بالتحريك: النسل والتقطع.

مُنْتَبِهٌ . والنائم : الذى لم يُوطَأْ ولم يُسْلَكْ ، فكأنَّ تُرابَهُ نائمٌ . وقد أحسن ما شاء فى الاستعارة ، والطِّباقِ بالنَّوم واليقظة . فأمَّا قول زهير :

يُهَدُّ لَهُ ما دُونَ رَمْلَةِ عالِجٍ ومَنْ أهْلُهُ بالغَوْرِ زَالَتْ زَلَازِلُهْ[1]

فقد حَسَّنَه التقسيم وإن كان شأْوُه مقصورًا عن شأْوِ هذا .

٢٠٩

وقال أُنَيْفُ بنُ حَكِيمٍ النَّبْهانىُّ[2] :

١ — جَمَعْنا لهم من حَىِّ عَوْفٍ ومالِكٍ كتائبَ يُرْدِى المُقْرِفِينَ نَكالُها

٢ — لهم عَجُزٌ بالحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوَى وقد جاوَزَتْ حَيَّىْ جَدِيسٍ رِعالُها

قوله « من حىِّ عَوْفٍ ومالِكٍ » أراد من حَيَّىْ عوفٍ ومالكٍ فاكتفى بالتوحيد عن التثنية . ومثل هذا الاكتفاء قوله فى البيت الثانى « وقد جاوَزَتْ حَيَّىْ جَدِيسٍ رِعالُها » لأنَّ المراد حَيَّىْ طَسْمٍ وجَدِيسٍ فاكتفَى بذكر أحدِهما عن الآخر ، لتجاورهما فى الذِّكر ، واشتهارهما فى العُرْف . وقوله « يُرْدِى المُقْرِفِين نَكالُها » فالإقرافُ : هُجْنَةٌ تَلْحَقُ من قِبَل الفَحْل . وخَصَّهُم بالذِّكر لأنهم عنده لا يأنَفُون من التقصير فى الحرب والنُّكول ، ولا يمتعضون من الانهزام والنُّكوصِ ، فالبلاء إليهم أسبقُ ، والنَّكالُ فيهم أبْسَط . وقوله « لهم عَجُزٌ بالحَزْنِ فالرَّمْلِ فاللِّوَى » رَتَّبَ النَّسَق بالفاء لما يُفيدُه من التعقيب بلا مُهْلَة . وفى الأمرِ العامِّ يُقْطَعُ الحَزْنُ — وهو ما غَلُظَ من الأرض — إلى ما سَهُلَ

(١) ديوان زهير ١٤٤ .

(٢) هذه الحماسية تكرار للحماسية رقم ٣٣ ص ١٦٩ مع تخالف يسير فى الرواية . وهذا سهو من أبى تمام . ومن عجب أن التبريزى لم يتنبه أيضا إلى ذلك . وقد سبق اسم الشاعر « أنيف بن حكم » . لكن ما ورد هنا فى جميع النسخ يطابق ما فى التبريزى .

من الرَّمْل ، ويُقطَعُ الرَّمْلُ إلى اللَّوَى ، وهو مُسْتَرَقُه . وقوله « وقد جاوزت حيَّىْ جديس » فإنه يعنى بلاد حيَّىْ طَسْمٍ وجديسَ ، فحذفَ المُضافَ . والرِّعال : جمع الرَّعْلَةِ والرَّعيل ، وهما الجماعة المتقدِّمة من الجيش . والمراد أنهم لكثرتهم شَغَلوا ما بين هذه المواضع . ومثْلُه ما تقدَّم من قولِهِ :

* بيثْرِبَ أُخْراهُ وبالشَّأْمِ قادِمُهْ[١] *

٣ ـ وتحتَ نُحُورِ الخيلِ حَرْشَفُ رَجْلَةٍ تُتَاحُ لِغِرَّاتِ القُلُوبِ نِبالُها

الحَرْشَفُ : الجماعة من الرَّجَّالة . ويقال راجِلٌ ورَجْلٌ ورَجْلَةٌ ورَجَّالةٌ للمُشاةِ على أرجُلِهِم . وصَفَهم بأنَّ فيهم رُماةً وأنهم عند التَّعْبِيَةِ تتقدَّم الرَّجَّالة الرُّماة ، وخَلْفَهم الفُرسان كالسَّنَدِ لهم والإِيادِ[٢] ، يمنعونهم مما يُشَرِّدُهم أو يُغيِّر نَظْمَهم ؛ ثم وَصَفَهُم بأنَّ نِبالَهم تُقدَّر للقلوب الغارَّة ، لأنَّهم حُذَّاقٌ يصيبون المَقاتل . ومعْنَى « تُتاحُ » تُهيَّأُ . ويُقالُ تاحَ يتوحُ ويَتيحُ ، لغتان . وأتاحَ اللهُ له كذا . والغِرَّاتُ : جمع غِرَّة ، يقال جارية غِرَّةٌ : غَرِيرةٌ . ويُرْوَى « لِحَبَّاتِ القُلُوبِ » ، والمعنى ظاهر .

٤ — أبَى لَهُمُ أنْ يَعْرِفوا الضَّيْمَ أنَّهُمْ بَنُو ناتِقٍ كانت كثيراً عِيالُها

يقول : مَنَعَ لَهُمُ التزام الضَّيْمِ والرِّضا بالدَّنيَّة ، وفُورُ عَدَدِهِم ، وذلك أنّ العِزَّةَ فى الكثرة . ويقال نَتَقَتِ المرأة والنَّاقَةُ فهى تَنْتُقُ نُتُوقًا ، وهى كثْرة الوَلَد وسُرْعَةُ الحَمْلِ . وذَكَرَ العِيالَ استعارةً فى الأولاد ، واحِدُها عَيِّلٌ ، يقال عنده كذا عَيِّلًا . ويقال عَيَّلٌ وعَيايِلُ ، وهو مُعِيلٌ ومُعَيَّلٌ ، أى كثير العيال . وفاعِلُ أبَى قولُه « أنَّهُمْ بَنُو ناتِقٍ » ، وأنْ يَعْرِفوا فى مَوْضِع المفعول ، وباقى الأبيات قد تقدَّم بتفسيره[٣] .

---

(١) انظر الحماسية السابقة . (٢) الإياد : ما يؤيد به الشيء ويقوى .
(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ٣٣ ص ١٧١ — ١٧٣ .

٢١٠

وقال الكَروَّسُ بن زَيْد[١]:

١ — رأتني ومِنْ لُبْسى المَشِيبُ فأمَّلَتْ غَنائى فكوني آمِلًا خَيْرَ آمِلِ[٢]

يقول: رأتني هذه القبيلة، وقد قنّعني المشيب بخماره، ونجّذني الدّهرُ بأحداثه ومصائبه[٣]، فعلّقت رجاءها بغنائي وكفايتي، وشدّت أزرها لمّا تفرّست في نظري وشهامتي، فقوّيتُ أملها، وأكّدتُ طمعها، وقلتُ: كُوني آملًا خيرَ آمِلٍ. وهذا الكلام يجوز أن يكون معناهُ دُومى على أملكِ وكُوني خيرَ آمِلٍ، فسأصدّقُ ظنّكِ وأُحقّقُ طمعَكِ. ويجوز أن يكون دعاء لها، كأنّه قال: جعلكِ الله خيرَ آمِلٍ. وخير الآملين مَن يُبلّغهُ الله مأمولَهُ، ويُنيلُهُ طَلِبتَه وسُولَه. وإنّما قال «كوني آمِلًا» ولم يَقُلْ آملةً، لأنّ المُرادَ كُوني حيًّا آمِلًا، فلم يقصدْ قَصْدَها.

٢ — لَئِنْ فَرِحَتْ بى مَعْقِلٌ عِنْدَ شَيْبَتِي لَقَدْ فَرِحَتْ بى بينَ أيْدِى القَوابِلِ

٣ — أهَلَّ به لمّا استهَلَّ بِصَوْتِهِ حِسانُ الوُجُوهِ لَيِّناتُ الأنامِلِ

يقول: إن كانت هذه القبيلة سُرّتْ بى عند كِبْرَتى[٤]، واستِكمالِ رأْيِى

---

(١) شاعر إسلامى طائى. والكروس: الضخم الرأس: وهو الكروس بن زيد بن الأجذم بن مصاد بن معقل بن مالك بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء. قال يخاصم ابن عم له إلى مروان بن الحكم، وهو على المدينة:

قضى بيننا مروان أمس قضية فما زادنا مروان إلا تنائيا
فلو كنت بالأرض الفضاء لعفتها ولكن أتت أبوابه من ورائيا

وهو أول من جاء بخبر الحرة الكوفة. وفيه يقول عبد الله بن الزبير الأسدى:

لعمرى لقد جاء الكروس كاظما على نبأ للمؤمنين وجيع

انظر المؤتلف ٢٧١ ومعجم المرزبانى ٣٥٦ وشرح التبريزى.

(٢) م: «غناى».

(٣) م والتيمورية: «ومصايره».

(٤) م: «كبرى». وفى التيمورية «كربتى»، وهذه الأخيرة محرفة.

وتَجْرِبَتِي ، فَحُقَّ لها ذلك ، فقد استبْشَرَتْ بى عند وِلادتى ، وحين هَنَّأَتْ بقَدْمَتى . والقوابِلُ : جمعُ القابِلَةِ ، وهى التى تَقْبَلُ الوَلَدَ عند الوِلادة . واللام من قوله « لَئِنْ » دَخلَتْ مُوطِّئَةً للقَسَمِ ، وجَوابُ القسمِ المَنوىّ « لَقَدْ فَرِحَتْ » . وهذا خِلافُ قول الآخر[1] :

وهُنِّئَ بى قَوْمِى وَمَا إنْ هَنَأْتُهُمْ ... وأَصْبَحْتُ فى قَوْمِى ولَيْسُوا بِمَنْبِتِى[2]

وقولُه « أَهَلَّ به لَمَّا استَهَلَّ بصَوْتِهِ » نَقَلَ اللفظَ إلى الغَيْبَةِ بعد أن كان فى حديث نَفْسِهِ ، على عَادَتِهم فى تصاريفِهِم . يقول : تَبَاشَرَتْ نساء الحىّ عند ميلادِى ، فرَفَعْنَ أصواتَهُنَّ بالشُّكر لله والثَّناء عليه ، كما يُهِلُّ المُلَبِّى فى الحج ، والنَّاظِرُ إلى الهِلالِ ، حين وقفتُ عن أمّى[3] ، واستَهْلَلْتُ ببُكائى . وإنما وصَفَ النِّساء بحُسْنِ الوُجوه ولِينِ الأبدان ، ليدلَّ على أنهن ربائبُ نِعْمَةٍ وذواتُ نَعْمةٍ ، لم يُقاسِينَ شَقاءَ عَيْشٍ ، ولم يَكْتَسِينَ جلابِيبَ فَقْرٍ .

٢١١

وقال قَوَّالٌ[4] :

١ — قُولا لِهذا المَرْءِ ذو جاءَ ساعِيًا ... هَلُمَّ فإنَّ المَشْرَفِىَّ الفَرائِضُ

قوله « ذو جاء ساعِيًا » ذو بمعنى الذى ، وهى لفظةٌ طائيّةٌ تَجِىءُ بهذه الصُّورة فى كل حالٍ ولا تُغيَّرُ . وقوله « هَلُمَّ » لهم فيه طريقان : منهم

(١) هو الشنفرى الأزدى . المفضلية رقم ٢٠ .

(٢) رواية المفضليات : « وهنئ بى قوم » و « وأصبحت فى قوم » . وهى الرواية الصحيحة ؛ لأنه يريد بهؤلاء القوم بنى سلامان بن مفرج الذين أسروه . والمثبت : الأصل ، ويقع مصحفاً فى بعض الروايات : « بمنبتى » .

(٣) م : « من أمى » .

(٤) التبريزى : « قوال الطائى » . وهو شاعر إسلامى أدرك الدولة العباسية . وقد قال هذه الأبيات فى ساع جاء يطلب إبل الصدقة ، وهو أمية بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان . انظر الخزانة (٢ : ٢٩٦) وما سبق فى ترجمة أدهم بن أبى الزعراء . الحماسية ٢٠٠ .

من يجعلُه اسمًا للفعل فلا يغيِّرُه عن حالهِ فى المؤنث والتثنية والجمع ، وهم أهل الحجاز . وفى القرآن : ﴿ والقائلينَ لإخوانِهِمْ هَلُمَّ إلينَا ﴾ . ومنهم من يجعله هاء التنبيه وقد رُكِّبَ مع لمَّ وهو فِعْـلٌ ، فيثنّيه ويجمعُه ويؤنّثُه . وعلى الطريقتين جميعًا يكون ميمه مفتوحة ولا يُجْرِيه مَجْرَى رُدَّ وزُرَّ ، فيُكسَرُ آخِرُه ويُضَمُّ وإن كان فِعْلاً ، وذلك لأنَّ التركيب قد غَـيَّرَهُ فسُلِب بعضَ أحكامه . ومعنى البيت : أبْلِغا المرءَ الذى جاء واليًا للصَّدَقات ومُستوفيًا لها : أقبِلْ وتعَالَ ، فإنَّ الذى تعُطَى بَدَلاً من الفرائضِ السَّيْفُ . وهـذا فى جَعْلِهِ المَشْرَفِيَّ هو الفرائضَ مجازًا ، كما قال الآخر(١) :

* تحيَّةُ بينِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ(٢) *

والفرائضُ : الأسـنان التى تَصْلُحُ لأن تؤخَذَ فى الصَّدَقاتِ . والمَشْرَفِيّ : السَّيْفُ نُسِب إلى المشارف : قُرًى لهم كانت تُطْبَعُ السُّيوفَ فيها . وقد حُكِيَ فى المَرْء « الامْرُؤُ » وقد بقى ألفُ الوَصْـل مع دخول الألف واللام ، إلاّ أنّه قليل .

٢— وإنّ لنا حَمْضاً من الموتِ مُنْقَعًا وإنكَ مُخْتَلٌّ فهل أنت حامِضُ

العربُ تقولُ : « الخلّةُ خُبْزُ الإبل والحَمْضُ فاكِهَتُها » . ومعنى مُنقعًا ثابتاً ، يقالُ « أنقِعْ له الشرَّ حتى يَسْأَمَ » أى أدِمْهُ . والمُخْتَلُّ : راعِى الخُلّةِ ، وكانت الإبلُ إذا بَشِمَت الخُلّةَ(٣) وسئمته حتى اتَّخَمَتْ منه ، نَقَلوها إلى الحَمْضِ لتَشْتَهِيَ الخُلّةَ ثانيًا . وهذا مَثَلٌ ضَرَبَهُ لهذا الساعى . يقول : إنّكَ

(١) هو عمرو بن معد يكرب . الخزانة (٤ : ٥٣) .

(٢) صدره : * وخيل قد دلفت لها بخيل *

(٣) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « شبمت » ، تحريف . والمعروف فى « بشم » أن يتعدى بالحرف ، يقال بشم من الطعام ، أى اتخم منه ، وأبشمه الطعام .

مَلِلْتَ العافية والسلامة ، فهلُمَّ إلى البَلاء والشَّرِّ من الوِلاية .

٣— أظُنُّكَ دُونَ المالِ ذُو جِئْتَ تَبْتَغِى   سَتَلْقاكَ بِيضٌ للنُّفوسِ قوابِضُ

قوله « دُونَ المال » تعلّق بأظنُّك ، ولا يجوز أن يتعلق بقوله جئتَ ، ولا تبتغى ، لأن « ذو » يطلب من الصِّلة ما يطلبه « الذى » ، وإذا كان كذلك فما فى صِلَتِه لا يعمل فيما قبْلَهُ . وقال « ذو جئتَ » وكان الأجودُ أن يقول : ذو جاء يبتغى[١] ، لأنه أجرِى مَجْرى الذى ، فكما جُوِّزَ أن يقال أنت الذى فعلْتَ كذا ، و :

* أنا الذى سَمَّتْنِ أُمِّى حَيْدَرَهْ[٢] *

جُوِّزَ فى ذو أيضاً ، لأنَّ المُرادَ به المُخاطَب . والمالُ فى الأكثر يطلقونه على الإبل ، على هذا قوْلُهمْ : المال فى الرَّعْىِ . والشَّاعِرُ قَصْدُه فى الكلام إلى التهكم والسُّخرِيّة ، وقد خَلَطَ به التوعُّد والاستهانة ، لذلك قال أظُنُّكَ . وقولُه «ذوجئتَ» فى موضع المفعول الثانى[٣] وتبتغى فى موضع الحال ، ومفعولُهُ حُذِفَ . والمعنى أحْسِبُكَ الذى جاء دون المال تبتغى صَدَقاتِهِ ، سَتَرَى ما أُعِدَّ لك من سُيُوفٍ تنتزع الأرواحَ والمُهَج . فإن قيل : كيف استجاز تكرير معنًى واحدٍ فى بيتين على تقارُبٍ بينهما ، وهَلاَّ اكتَفَى بقوله « هَلُمَّ فإنَّ المشرَفِيَّ الفرائضُ » ؟ قلتَ : إنَّ قولَهُ أظُنُّكَ دونَ المال ذو جِئْتَ تبتغى ، بما دَخَلَهُ من التهكُّم والوعيد ، وتكشُّفَ فيه من الغرَض المقصود ، صار كأنَّهُ أدَّى غير ما أدَّاهُ قولُهُ « هَلُمَّ فإنَّ المَشْرَفِيَّ الفرائضُ » . ومثله قول علقمة بن عَبَدَة :

(١) لسنا ندرى كيف يكون هذا أجود ، أو كيف يصح . فإنه إنما يصح إذا كان « ذو » مفعولا ثانياً لأظنك ، فتكون العبارة : أظنك ذو جاه يبتغى . وليس كذلك ، بل هو صفة للفظ « المال » . وأما المفعول الثانى لأظن فهو جملة « ستلقاك » . فهذه زلة من زلات أبى على .

(٢) لعلى بن أبى طالب . انظر ٤٠٧ ، ٦١١ وحواشى ١١٥ .

(٣) هذا ما فهمه المرزوقى . والصواب أنه صفة للمال ، كما سبق التنبيه .

فإنْ تَسْألونى بالنساء فإننى بَصِيرٌ بأدواء النِّساء طَبِيبُ
إذا شابَ رأسُ المرء أو قلَّ مالُه فَلَيْسَ له فى وُدِّهِنَّ نَصِيبُ
يُرِدْنَ ثَرَاءَ المالِ حيثُ عَلِمْنَهُ وشَرْخُ الشَّبابِ عِندهُنَّ عجيبُ

ألا تَرَى أنه لم يَرَ المَعْنَى متكرِّراً فى البيتين ، لما كان أحدُهما يشتمل من الاستيفاء والبيان على ما لم يشتمل عليه الآخرُ .

٢١٢

وقال وَضّاحُ بنُ إسماعيل(١) :

١ — صَبَا قَلْبِى ومَالَ إليْكِ مَيْلاَ وأرَّقَنى خَيالُكِ يا أُثَيْلاَ
٢ — يمَانِيَةٌ تُلِمُّ بنا فتُبْدِى دَقيقَ مَحَاسِنٍ وتُكِنُّ غَيْلاَ

يقالُ صَبَا قَلْبى يَصبُو صَبْوًا وصُبُوًّا . والصَّبْوَةُ : جَهْلُ الفُتُوَّة . يقولُ : أسْهَرَنِى خَيالُكِ ، وانعدلَ قَلبى عن وَجهِه وطِيَّتِه ، ذَهاباً فيكِ ، ومَيْلاً إليك . ثمَّ أخذ يصف الخيال فقال : هى تأتينى من ناحية اليمن ، فتزورُ زيارةً خفيفةً لا لَبْثَ مَعَها ولا تمَكُّثَ فأتمتَّعَ بها ، وتُبْدِى لى فى إلمامِها ما دَقَّ من محاسنِها كالعينِ والأنْفِ والأسنان والفَم ، وتَسْتُرُ ما جَلَّ منها كالمِعصَم والساعد والساق

(١) وضاح : لقب غلب عليه لجماله وبهائه ، ويقال له أيضاً « وضاح اليمن » . وفى الأغانى : « كان وضاح اليمن ، والمقنع الكندى ، وأبو زبيد الطائى يردون مواسم العرب مقنعين يسترون وجوههم خوفا من العين ، وحذرا على أنفسهم من النساء ، لجمالهم » . واسمه عبد الرحمن ابن إسماعيل بن عبد كلال بن داذ بن أبى جمد ، وهو من شعراء الدولة الأموية . ويزعم الرواة أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان — وهى زوجة الوليد بن عبد الملك — كانت تعشقه وأنها أرسلت إليه وإلى كثير فى حجة لها أن ينسبا بها ، فأما كثير فهاب ذلك وامتنع ، وأما وضاح فنسب بها ، فبلغ ذلك الوليد فطلبه فقتله .

وهذه الحماسية التى يقولها وضاح هى من إحدى القصائد التى مدح بها الوليد بن عبد الملك قبل أن يجفوه الوليد . الأغانى (٦ : ٣٠ — ٤٤) .

والفَخِذ ، فأسْهَرَ . كأنه رآها فى المنام على ما كان يراها فى اليقظة خَرَادَةً[١] وحَيَاء . ويقال مِعْصَمٌ غَيْلٌ ، وساعِدٌ غَيْلٌ ، أى ممتلئ من اللحم غليظ . والمحاسِنُ قيل لا واحد لها ، ومِثْلُه فى ذلك المَسَاوى والمذاكير . وقال الخليل : واحدُها مَحْسِنٌ ، وهى المواضِعُ الحَسَنَةُ . يقال : امرأةٌ كثيرة المحاسن .

٣ — ذَرِينى ما أَمِنَ بَنَاتِ نَعْشٍ مِن الطَّيْفِ الذى يَنْتَابُ لَيْلاً[٢]

يستعفِي من خيالها لاشتغال قَلْبه بالغزْو . والاستعفاء فى الحقيقة من الحُبِّ الذى يصوِّرُها فى فكْرِه حتى يَحْلُمَ بها . وقوله « ما أَمِنَ » الضميرُ للخيل ولم يَجْرِ لها ذِكْرٌ ، ولكنَّ المرادَ مفهومٌ . وموضِعُ « ما أَمِنَ » نَصْبٌ على الظَّرْف ، أى مُدَّةَ أَمْنِها ، لأنَّ ما مع الفِعْلِ فى تقدير مصدرٍ حُذِف اسم الزَّمانِ معه . وبنات نَعْشٍ من الكواكب الشاميَّة ، وكان غَزْوُه نحوَ الروم . والمعنى : أعْفِينى من الصِّبا واللهو ، وشُغْلِ القَلْب بالحُبِّ والعِشق ، ما دمتُ فى هذا الوجه ، وقاصدًا نحو الغَزْو . وليْلاً ، انتصَبَ على الظَّرف ، كأنَّه كان يسير النهار ، فإذا نزَلَ ليلاً ونامَ أَرَّقهُ الخيال . ورَوَى بعضُهم : « يَأْتَابُ ليلاً » وهو يفتَعِلُ من الأَوْب ؛ ويَنْتابُ أوْجَه فى النَّقْدِ وأحْسَن .

٤ — ولكنْ إنْ أَرَدْتِ فهيِّجِينا إذا رَمَقَتْ بأعيُنِها سُهَيْلاَ

يقولُ : إن أردتِ تشويقَنا إليكِ ، وتذكيرَنا بكِ ، فليكن عند مُنصرَفِنا من الغَزْو ، وقُفُولِنا من هذا الصُّقْع ، وحين تَنظرُ خَيلُنا إلى سُهَيْل . وإنما قال ذلك لأنَّ سُهَيْلاً من الكواكب اليمانيَة . لذلك قال عمر بن أبى ربيعة :

أيُّها المُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عَمْرَكَ اللهَ كيفَ يَلْتقِيانِ[٣]

---

(١) المعروف أخردت إخراداً ، بمعنى استحييت .

(٢) التبريزى : « ما أممت » ولكن فى شرحه « ما أمن » كما هنا .

(٣) هذه تورية منه . والثريا هذه هى الثريا بنت عبد الله بن الحارث صاحبة عمر . وسهيل هذا ، هو سهيل بن عبد العزيز . الأغانى (١ : ٩٠) .

هى شاميَّةٌ إذا ما استقلَّتْ   وسُهيلٌ إذا استقلَّ يمانِ

ومثل قولِ وَضَّاحٍ ما قاله المتلمس ، وهو :

فلَتَتْرُكَنَّهُمُ بليلٍ ناقتى   تَدَعُ السِّماكَ وتقتدِى بالفرقدِ[(١)]

والسِّماكُ من قِبَل المَشرِق ، والفرقدُ من قِبَل الشام .

٥ — فإنكَ لو رأيتَ الخيلَ تعْدُو   عوابسَ يتخِذْنَ النَّقْعَ ذَيْلاَ

٦ — رأيتَ على مُتونِ الخيْلِ جِنًّا   تُفيدُ مَغانِمًا وتُفيتُ نَيْلاَ

يَصِفُ الغزْوَ وملاقاةَ العدوّ ، وأنَّه لا يحتمل التَّصابى والتبطُّل ، ولا يَصلح المُشتغِلِ به التشوُّقُ والتغزُّل ، فيقول : لو رأيتَ الدَّوابَّ عاديةً بفرسانِها وقد تكلَّحتْ لاشتداد الحال عليها ، وسحبت ذَيْلاً من الغُبار لتناهِى شدِّها ، لرأيتها كأنَّ عليها جِنًّا لا رِجالاً ، تستفيدُ المغانم من أعدائها . وتُفيتُهم نيلَ شىء منها . وهذا كما قيل « يَسْبِقُ إن طُلِبَ ، ويَلحقُ إن طَلَبَ » ، ويَشهدُ لأفادَ وأنه يكون بمعنى استفاد قولُ الآخر[(٢)] :

فلا أنا منه ما أفاد ذوُو الغِنَى   أفدتُ وأعْدانى فأتلفتُ ما عِندِى

٢١٣

وقال آخر[(٣)] :

١ — لا قُوَّتِى قوَّةُ الرَّاعى قلائصَهُ   يَأْوِى فيأوِى إليه الكلْبُ[(٤)] والرُّبَعُ

٢ — ولا العَسِيفَ الذى يَشْتَدُّ عُقْبتَهُ   حتى يَبيتَ وباقِى نَعْلِهِ قِطَعُ

(١) فى ديوان المتلمس ٦ مخطوطة الشنقيطى : « تذر السماك وتهتدى » .

(٢) هو بشار ، أو ابن الخياط ، أو أبو الريان . سمط اللآلى ٣١٠ . وقبله :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى   ولم أدر أن الجود من كفه يعدى

(٣) لم يعرفه شراح الحماسة . وهو وضاح اليمن ، صاحب الحماسية السابقة . انظر الحيوان (١ : ٢٦٥) وشروح سقط الزند ٢٠٦ .

(٤) رواية الجاحظ : « الراعى ركائبه » .

أخَذَ أبو تمّام هذا المأخَذَ فى قولِهِ :

والصَّبْرُ بالأرواحِ يُعرَفُ فَضلُهُ صَبْرُ المُلُوكِ وليسَ بالأجسادِ

يقولُ : ليس غَنائى فى الأمور وكِفايتى غَناء الرُّعاة الذين سَعْيُهم وكَدُّهم مقصوران على ضمِّ القِلاصِ وحِفْظِها فى مَراعيها عند سَرْحِها وإراحتِها ، فإذا أوَى إلى مَوْضِعٍ أوَى إليهِ كَلْبُهُ الذى يَحْرُسُ به ورُبَعُه . والرُّبَعُ : ما نُتِجَ فى الربيع . وقولُه « ولا العَسيفِ » انعطف على الرّاعى . يُريدُ : ولا قوّتى قوّة العسيفِ . فالعسيف : الأجيرُ والعبد المستهانُ به ، المُمتَهن فى العمل . يقال : كم أعسِفُ عليك ، أى كم أعْمَلُ لك . وقولُه « يشتَدُّ عُقْبَتَه » انتصب عقبتَهُ على الظَّرف ، أى وقت عقْبته ، كأنه يعاقب الرَّكوبَ غيرَه . يقال هما يتعاقبان للرُّكوب بينهما ، أو الأمْرُ يَرْكب هذا عُقْبةً وهذا عُقْبةً . والعُقْبةُ قيل فَرْسخان . ويَشْتَدُّ : يَفتَعِلُ من الشَّدّ : العَدْوِ . وبعضُهم يرويه « تَشْتَدُّ عُقْبتُه[1] » بالرَّفع ، ويجعل تَشْتَدُّ من الشِّدَّةِ ، أى تشتدُّ عُقْبتُهُ عليه ، والصوابُ ما قدَّمْتُه . والمعنى : ولا غَنائى أيضاً غَناء الأجير الذى يَعْدُو فى عُقْبتِهِ ووقْتَ عقْبتِهِ ، وليس يريدُ أنَّ له عُقْبةً فيترُكها ويَعْدو ، لكن المعنى إذا كان لغيره نَوْبَةٌ فى الرُّكوب لمعاقبتِهِ صاحبَه ، فنَوْبَتُه الشَّدُّ والخِدْمَةُ حتى يأتىَ عليه المساء وقد تَقطَّعَ ما بَقِىَ عليه من حذائه . وقولُه « وباقى نَعْلِهِ قِطَعُ » فى مَوْضِعِ خَبَرِ يَبيتُ ، تقديرُه : حتّى يبيتَ مُنْقطِعَ باقى النعل .

٣ — لا يَحْمِلُ العَبْدُ فينا فوْقَ طاقتِهِ ونَحْنُ نَحْمِلُ ما لا تَحْمِلُ القَلَعُ

يقول : العَبْدُ المُسْتَخْدَمُ فينا لا نُكلِّفُه إلّا دون ما يُطيقُه ، إبقاءً عليه ، وتَرْكاً لاستنفاد وُسْعِه ، ونحن نحتمل من مَشاقّ الأمور ، ومُثقلات الأعباء

(١) وهى رواية الجاحظ أيضا .

مالا تُطيقه الجبال . والقَلَعُ : جمع قَلَعة ، وهى الهضابُ العِظام ، وبها سُمّى الحِصْن المبنىّ على الجبل قَلَعة[1] . ويقال أقلَعَ فلانٌ قِلاعاً[2] ، إذا بناها ؛ وبها سُمّيت السَّحابُ العِظام قَلَعاً أيضاً .

٤ – مِنّا الأَناةُ وبَعْضُ القَوْمِ يَحْسِبُنا   أَنّا بِطاءٌ ، وفى إبْطائِنا سَرَعُ

الأناةُ : الرِّفْقُ . يقول : نستأنى فى الأمور فِعلَ الحازِم ذى الرأى السَّديد ، والتأمُّل اللَّطيف ، الذى يَنْظُرُ فيما له وعليه ، فيدرى كيف يُورِدُ ويُصْدِرُ ، ويُبْرِمُ وينقُض ، ولا نتهجَّمُ فيما نُزاوِلُه فِعلَ العَجُولِ الأخرق الذى لا يتتبَّع العواقب ، ولا يتجنَّب المقابح ، فلا يُبالى أيّاً يأخُذُ ويدَع . وكثيرٌ من الناس يظنُّ بنا تباطُؤاً فى المهمّات وتثاقُلا ، والذى يَعدُّونه بُطْئاً فهو سرعةٌ ، لأنّا نترُكُ كلَّ ما نتولّاه مفروغاً منه مُحكَماً ، لا تفاوُتَ فيه فيحتاجُ إلى استئناف تدبُّر ، واستحداثِ نَظَر وتتبُّع .

٢١٤

وقال عَمْرو بنُ مِخْلاةَ الكلبىُّ[3] :

١ – ويَوْمٍ تَرَى الرّاياتِ فيه كأنّها   حَوائمُ طَيْرٍ مُسْتديرٌ وواقِعُ

(١) يقال هذا بفتح اللام وإسكانها .

(٢) هذا ما فى الأصل والتيمورية . ونحوه فى التبريزى : « ويقال أقلع فلان قلعة إذا بناها » لكن فى م : « إقلاعا » . وفى اللسان : « وأقلعوا بهذه البلاد إقلاعا بنوها فجعلوها كالقلعة » .

(٣) التبريزى : « الكلابى » ، والصواب أنه كلبى ، من بنى تيم اللات بن رفيدة ابن كلب . الطبرى (٧ : ٤٢) والاشتقاق ٣١٤ والأغانى (١٧ : ١١٢) . ويقال له « ابن مخلاة الحمار » أيضا ، و « ابن مخلى » . وهو شاعر إسلامى جزرى ، كما ذكر المرزبانى فى معجمه ٢٤١ . وكان مداحا لبنى مروان . والشعر يقوله فى يوم مرج راهط وكان ذلك سنة ٦٥ . انظر معجم البلدان والأغانى (٩ : ٣٥ / ١٠ : ١٥٣ / ١٤ : ١١٦ ، ١١٨ / ١٧ : ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ / ١٩ : ١٠٩) والميدانى (٢ : ٣٦٧) وكتب التاريخ فى حوادث سنة ٦٥ . وأبيات هذه المقطوعة روى منها أبو الفرج ١ ، ٣ ، ٥ ، وزاد بيتين أحدهما بعد الأول ، وهو :

مضى أربع بعد اللقاء وأربع   وبالمرج باق من دم القوم ناقع =

٢ — أصابَتْ رِماحُ القومِ بِشْراً وثابِتاً ... وحَزْناً وكلٌّ للعشيرة فاجِعُ (١)

٣ — طَعنَّا زياداً فى اسْتِه وهو مُدْبِرٌ ... وثَوْرٌ أصابَتْهُ السيوفُ القواطِعُ (٢)

٤ — وأدرَكَ هَمَّاماً بأبيضَ صارمٍ ... فَتًى من بنى عَمْرٍو طُوالٌ مُشايِعُ (٣)

٥ — وقد شَهِدَ الصَّفَّيْنِ عَمْرُو بنُ مُحْرِزٍ ... فضَاقَ عليه المَرْجُ والمَرْجُ واسعُ (٤)

الرايات : الأعلام . والحوائم : جمع حائمة ، وهى العِطَاشُ من الطُّيور تَحُومُ حَولَ الماء . وحَوَمَانُها : دورانُها ؛ فكثُر استعمالُه حتَّى صار كلُّ عطشانَ حائماً . ويُروَى : «عوائفُ طَيْرٍ» . وقوله «مستديرٌ وواقعٌ» بدلٌ من حوائم ، وجعَلَ الرّاياتِ بعضُها جائلٌ فى الجوِّ دائرٌ ، وبعضُها ساقطٌ ، لأنَّ المنهزمين تَسقُط أعلامهم فتنخفض ، والظَّافِرِين تَثْبُتُ أعلامُهم فتَخْفُقُ . وقولُه «وكلٌّ للعشيرة فاجِعٌ» ، أى كل واحدٍ من المذكورِين رئيسُ عشيرةٍ قد فُجِعوا به . والشّاعر يَذْكُرُ وقعَةَ المَرْج مَرْجِ رَاهِطٍ — وراهِطٌ رَجُلٌ من قُضَاعَة فى الجاهليّة الأولى — واجتمَع به المَرْوانيَّةُ ، وهم الذين دَعَوْا إلى مَروانَ بنِ الحكَم ، وهم كلبٌ وعَبْسٌ وغيرهُم من قبائل اليمن . والزُّبيريّة ، وهم الذين دَعَوْا إلى ابن الزُّبير ،

= والآخر بعد الثالث ، وهو :

ونجى حبيشا ملهب ذو علالة ... وقد جد من يمنى يديه الأصابع

وروى المرزبانى البيت الخامس من هذه الحماسية فقط ، وزاد بعده :

فلن ينصب القيسى للناس راية ... من الدهر إلا وهو خزيان خاشع

(١) فى الأصل : «بالعشيرة» وأثبتنا ما فى م والتيمورية .

(٢) هو زياد بن عمرو العقيلى ، كما ذكر التبريزى ، وكما سيأتى . وأما ثور فهو ثور ابن يزيد السلمى ، كما ذكر الطبرى . وروى المرزبانى : «وهو هارب» .

(٣) التبريزى : «عمرو بن محرز من أشجع» وقال أيضا : «ووضع طوال مع مشايع ردىء فى صنعة الكلام ، لأن الطوال ليس من المشايعة بقريب» .

(٤) الصفين ، مثنى صف ، كما نص التبريزى ، وهى تطابق رواية م والتيمورية . وفى الأصل : «الصفين» بكسر الصاد والفاء المشددة ، على أنها صفين المكان المشهور . قال التبريزى «وهو تصحيف» .

وهم قَيْسٌ ومن تبِعهم ، فاقتتلوا قتالًا شديداً ، فـكانت الدَّبْرة[1] على القَيسيّة ورئيسُهم زُفَر بن الحارِث ، ومعهم الضَّحَّاكُ بن قَيْسٍ . ولهذا قال الشَّاعر :

فمَنْ يكُ قد لاقى من المَرْجِ غِبْطةً فـكان لقَيْسٍ فيه خاصٍ وجادِعُ[2]

وقولُه «طعنَّا زيادًا فى استِه» ، فهو زياد بن عمْرو العُقَيْلى . وقوله «وهومدبر» أى مُوَلٍّ منهزِمٌ . ويجوز أن يكون من الإدبار ، لترْكِهِ الرَّأيَ حتى بُلِيَ بما بُلِيَ . وعمْرو بن مُحْرِزٍ من أشْجَعَ[3] . وقال : ضَاقَ عليه المَرْجُ على سَعَته ، لأنه كان مَغلُوباً مَطْلوباً . ويقالُ ضَاقَ بفُلانٍ الفضَاء . والمُشَايِـع : المُقوِّى لأصحابه المُتابع لهم . وجعَلَه طُوَالاً لأنَّهم يستحبُّون تمام الخَلْق ، وامتدادَ القامة . وقولُه « وثَوْرٌ أصابَتْهُ السُّيُوفُ القواطِـعُ » ، رفعَ ثوْرًا لأنَّ الفِعْلَ بَعْدَهُ شُغِلَ عنه ، وإن نَصَبَهُ طَلَباً للمطابقة إذ كان فى الجملة التى قَبْلَه منصوبٌ كان أحْسَنَ .

٢١٥

وقال زُفَرُ بن الحارِث[4] :

١ — أفى اللهِ أمَّا بَحْدَلٌ وابنُ بَحْدَلٍ فيَحْيَا وأمَّا ابنُ الزُّبَيْرِ فيُقْتَلُ

كان معاويةُ بن أبى سفيان لمّـا جعل ابنَه يزيدَ وليَّ عَهْدِهِ بايعَهُ النَّاسُ

(١) الدبرة ، بالفتح : العاقبـة السيئة ، أى الهزيمة . فى الأصل : « الدعوة » ، صوابه فى م والتيموية .

(٢) جعل التبريزى هذا البيت من أبيات هذه الحماسية . لـكن نسخ المرزوقى تجعلها من الشواهد فحسب ، ولذلك لم يعلق عليه بشىء من التفسير أو التوضيح . والذى أوجب هذا اللبس عند التبريزى موافقة هذا البيت لسائر الأبيات فى الوزن والروى والموضوع . والخاصى : قاطع الخصيـة . والجادع : قاطع الأنف أو الأذن ونحوها . والمراد بذلك الإذلال والقهر .

(٣) فى الأصل : « من أشجع الناس » وكلمة « الناس » مقحمة ، والصواب فى م والتيمورية . وذكر التبريزى من أولاده زياد بن عمرو بن محرز الأشجعى . وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان .

(٤) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٨ .

إلّا الحيَّ(١) من قيسٍ، فإنّهم قالوا: واللهِ، ما نُبايِعُ ابنَ الكلبيّةِ — وذاك أنّ أمَّ يزيدَ مَيْسُونُ بنتُ مالكِ بن بَحْدَلٍ الكلبيّ — فصار في نفس يزيدَ لقيسٍ ذلك ضِغناً وحِقداً، وابتدأ الشرُّ بينهم وبين بني أميّة، فلما هلك يزيدُ استُخلِفَ ابنُهُ معاويةُ بن يزيد، وأمُّه كلبيّةٌ أيضاً، وصار حسّانُ بن مالكِ بن بَحْدَلٍ أخو مَيْسُونَ وخالُ يزيد بن معاويةَ كالمالكِ للأمرِ، فكانت خلافته أياماً قليلةً، وتحرَّكت فِتْنَةُ ابن الزُّبير، فاضطرب حسّانُ بن مالكٍ في الأمر اضطرابا شديدا، وصار يدعو النّاسَ إلى نفسه تارةً وإلى من يختارونه من بني أميّةَ أخرى، حتّى قال الشّاعر:

وما النّاسُ إلّا بَحْدَلِيٌّ على الهوى وإلّا زُبَيْرِيٌّ عَصى فتَزَبَّرَا

إلى أن وقع الاختيارُ على مروانَ بنِ الحكم، فلمّا قام بالدّعوة صارت البَحدَلِيّةُ معه، فسُمُّوا مَرْوانيّةً، وصار السّبب في حرب قيسٍ وتَغلِبَ أنْ صارت قَيْسٌ زُبَيْرِيّةً وتَغْلِبُ مروانيّةً، فيقول زُفَرُ بن الحارث وهو رئيس قَيْس «أفي الله» يريدُ: أفي ذاتِ الله ومَرضِيِّ حكمِه أن يُطْلَبَ حياةُ ابن بَحْدَل والمتعصّبَةِ لبني أميّةَ ومروانَ وعبد الملك ابنِه، ويُطْلَبَ قتلُ عبد الله بن الزُّبير مع فَضْلِهِ وشرفِه وسابِقَتِه. وهذا الكلامُ تقريعٌ للنّاس وإكبارٌ للأمْرِ. وقوله «أمّا بَحْدَلٌ» حُكْمُ أمّا أن يَنقطع عما قبله، ولهذا عُدَّ من حروف الابتداء، ولأنه يتضمَّن معنَى الجزاء والجزاءُ له صَدْرُ الكلام، إذا كان كذلك فكأنّه قال: أفي الله هذه القصّةُ وهذا الأمْرُ والشّأن. وقوله «فيَحْيَا» فأخبر عن أحد الاسمين لمّا عُلِمَ أنّ صاحِبَهُ في مِثلِ حالِه. وفي القرآن: ﴿ واللهُ وَرَسُولُه أَحَقُّ أن يُرْضُوه ﴾.

(١) وكذا في م والتيمورية. وعند التبريزي حيث نقل كلام المرزوقي بدون نسبة: «إلاهذا الحي».

٢ — كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللهِ لا تَقْتُلونَهُ ‌ ‌ ‌ ‌ وَلَمَّا يَكُنْ يَوْمٌ أَغَرُّ مُحَجَّلُ

إنّما قال « كذبتم » لأنّ الذى أنكره منهم وقرّعهم عليه كان خبرًا . ويجوز أن يكون المعنى : كَذَبْتُمْ أنفسكم حين حدّثتموها بما لا يَتِمُّ لكم . وقوله « لا تَقْتُلُونَهُ ولمّا يَكُنْ يَوْمٌ » ، يقول : لا تقدِرُون قبل أن يكون لنا عليكم يَوْمٌ مشهورٌ على قتله ، وإذا عَجَزْتُمْ قَبْلَهُ فَفِى مستقبلِ الزّمانِ بَعْدَهُ أَنْتُمْ أَعْجز ، وعن أُمْنِيَّتِكم وتَرْجِيمِ ظَنِّكم أَبْعَد .

٣ — ولَمَّا يَكُنْ لِلمَشْرَفِيَّةِ فَوْقَكُمْ ‌ ‌ ‌ ‌ شُعَاعٌ كَقَرْنِ الشَّمسِ حِينَ تَرَجَّلُ

قَرْنُ الشّمس : أوّل ما ظهرَ منها . والترجُّل ، قالوا : إذا ارتفعت الضُّحى وانبسطت الشّمس ولم يشتدَّ حرُّها فذاك الترجُّل . وقال ابن الأعرابىّ : الترجُّل قَبْلَ المُتوع ، والمُتوع قبل انتصاف النّهار . وأنشد لمُزرِّدٍ :

فأَصْبَحَ كالدُّهقانِ لَمَّا بدَا لهُ ‌ ‌ ‌ ‌ من الشَّمسِ إشراقٌ ولمَّا تَرَجَّلِ

وبيّنَ بالشّرط الثانى غَرَضَهُ فى تعجيزهم ، وأنّ الذى يريدونَهُ من قَتْلِهِ لا يتمُّ أبدًا لهم ، ولا يَدْخُلُ تحت مَقدُرتهم[١] .

٢١٦

وقال حَسَّانُ بن الجَعْدِ[٢] :

١ — أَبْلِغْ بَنِى خَازِمٍ أَنّى مفارِقُهُمْ ‌ ‌ ‌ ‌ وقائِلٌ لِجمالى غُـــدْوَةً بِينِى

٢ — إنّى امْرُؤٌ غَرِضٌ من كل مَنْزِلَةٍ ‌ ‌ ‌ ‌ لا شِدّتِى تُبْتَغَى فِيها ولا لِينِى

---

(١) هذا ما توقعه الشاعر ، ولكن أتت الأقدار بخلاف ما قدر ، فقد لقى عبد الله ابن الزبير حتفه بيد الحجاج ، إذ أسره وصلبه بمنى منكوسا سنة ٧٣ .

(٢) شاعر إسلامى كما يتضح من ذكر علاقته بعبد الله بن خازم . وكان عبد الله بن خازم أميرا لخراسان ، ولى إمرتها لبنى أمية ، فلما ظهر ابن الزبير كتب إليه ابن خازم بطاعته ، فأمره على خراسان ، ثم ثار به أهل خراسان فقتلوه وأرسلوا رأسه إلى عبد الملك ٧٢ .

هذا الشّاعر خرجَ إلى عبد الله بن خازم راغبا فى جوارِه والكَوْنِ فى جملته فلم يُحْمِدْهُ وانصرفَ عنه ، وقال : لِيُبْلغْ هـذا الرّجلُ وذَوُوه أنّى مرتَحِلٌ ونافِضٌ يَدِى منه ، وحامِلٌ إبلِى على مُفارَقة أرضِهِ ، ومُظْهِرٌ الزُّهْدَ فى صُحبته ، لأنّى أجتوِى كُلَّ مَنْزِلَةٍ لا تمسُّ حاجتُها إلى كَوْنِى بها ، وأنتوِى البُعْدَ عن كل جنْبَةٍ لا تشتد رغبتُها فى إقامتى فيها ، كما أنّى أضجرُ بجِوارِ كُلِّ من اعتقدَ الغِنَى عن رأيِى وغَنائى ، وخشونتى ولينى . ويقال : غَرِضْتُ من كذا ، إذا مَلِلْته ؛ وغَرِضْتُ إلى كذا ، إذا اشتقتُهُ . فهو كما يقال رَغِبْتُ فيه ورغبْتُ عنه .

٢١٧

وقال القتّالُ الكِلابِيُّ[١] :

١ — إذاهَمَّ هَمًّالم يرَ الليلَ غُمَّـةً عَلَيْهِ ولم تَصْعُبْ عليـه المراكِبُ[٢]

يصفه بالإقدام والتّشمير ، وحُسن النَّفاذِ فى الأمور ، وأنه متى ما وقَعَ فى نَفسِه أمرٌ فهَمَّ به اقتعَدَ الليلَ ولم يَعُدَّه حائلا دون مُراده ، ولا مانِعاً عن قَصْدِه ومَرَادِه ، حتى يَصِيرَ رُكُوبُهُ غُمَّـةً ، وما يُتَصَوَّرُ من هَوْلِه شِدّةً تَدفَعُ فى الصَّـدْرِ ، وتُحلِّئُ عن الوِرْدِ ، ولم يَشُقَّ عليه المراكب ، ولا يُستَكْرَهُ فيـه المصاعب . ويقال : هو فى غُمَّـةٍ من أمْرِهِ ، أى حَيْرةٍ وظُلْمَـةٍ . وأصل الغَمِّ[٣] التّغطية .

٢ — قَرَى الهَمَّ إذْ ضافَ الزَّماعَ فأصبحَتْ منازِلُهُ تَعْتَسُّ فيها الثّعالبُ

يقول : يجْعَـلُ قِرَى همِّهِ إذا اعتراه ، النَّفاذَ والعزيمة ، والإجماعَ فيـه

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٠٤ ص ٢٠١ .
(٢) هذا ما فى م والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « ولم يصعب » .
(٣) هذا الصواب من م والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « الغمة » .

والضَّرِيمة ، فترى مَنازِلَه تستبدلُ بسُكّانِها وَحْشاً تَعْتَسُّ فيها ، ويعتاضُ هو من الدَّعَةِ والخفضِ تعباً يمتطيه ، ودُءُوباً يستمرُّ فيه . والاعتساسُ : الاختلاف بالليل . ويقال : عَسَّ واعتَسَّ ، ومنه أُخِذَ العَسَسُ . وفى المَثَل الجارى « كَلْبٌ عَسَّ خيرٌ من أسدٍ رَبضَ » .

٣ — جَلِيدٌ كريمٌ خِيمُهُ وطِبَاعُهُ عَلَى خَيْرِ ما تُبْنَى عليه الضَّرائِبُ

يُقالُ هو جَلْدٌ وجليدٌ بمعنًى . والخِيمُ . الطبيعةُ ؛ وقال أبو عُبيدة : أصله فارسىٌّ مُعَرَّب . والطِّباعُ : ما طُبِع عليه الإنسان فى مَأْكلِه ومَشْرَبِهِ وسائر أحوالِه . والضَّرائبُ : جمعُ الضَّرِيبة ، وهى الخليقةُ . ويُقالُ : ليس لفلانٍ ضَرِيبٌ ، أى شبيه ، وهو كريمُ الضَّرِيبةِ . فيقول : هو قوىُّ الجأْشِ ، مَرضِىُّ الطَّبيعة ، وقد جُبِلَ فى كلِّ ما يُستَشَفُّ من أُمورِه على أحسنِ ما تُجْبَلُ عليه النُّفوس والأخلاق .

٤ — إذا جاعَ لم يَفْرَحْ بأَكْلةِ ساعَةٍ ولم يَبْتئِسْ من فَقْدِها وهو ساغِبُ

أحْسَنَ حاتمُ طيِّئٍ فى هذه الطَّرِيقة حين قال :

غَنِينا زَماناً بالتَّصعْلُكِ والغِنَى فكلتاهُما يَسقِى بكأْسَيْهِما الدَّهْرُ(١)

فما زادَنا بَغْياً على ذِى قَرابَةٍ غِنانا ولا أَزْرَى بأحْسابِنا الفقرُ(٢)

والشَّاعرُ يَصِفُ كَرَمَ نفسه وحُسْنَ صَبرِه على تقلُّب الأحوال ، فالشَّبْعةُ لا تُطْغِيه ، والجَوْعةُ لا تؤْيِسُه فتُرْدِيه . والسَّغَب : الجوع . وأضافَ الأكْلةَ إلى ساعَةٍ تقصيراً بها وإزراءً ، وإن كانَ ذلك وَقْتاً لها . وقولُه « من فَقْدِها »

(١) روى البيت فى بيتين من ديوان حاتم ١١٩ . وهما :

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى كما الدهر فى أيامه العسر واليسر
لبسنا صروف الدهر ليناً وغلظة وكلا سقاناه بكأسيهما الدهر

(٢) فى الديوان : « فما زادنا بأوا » والبأو : الفخر والكبر .

يريدُ من فقدِ لها ، والمَصْدرُ يضافُ إلى الفاعل والمفعول جميعاً ، على هذا قولُه تعالى:
﴿ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ ﴾ .

٥ — يَرَى أنّ بَعْدَ العُسْرِ يُسْرًا ولا يَرَى إذا كان يُسْرٌ أنّهُ الدَّهْرَ لازِبُ[(١)]

يُستحسَنُ لبشار فى هذه الطريقة قوله ، بل قد صار مَثَلاً :

خَلِيلَيَّ إنّ العُسْرَ سوفَ يُفِيقُ وإنّ يَسَارًا فى غَدٍ لَحَقِيقُ
وما أنا إلاّ كالزّمانِ ، إذا صَحَا صَحَوْتُ ، وإنْ ماقَ الزّمانُ أمُوقُ

يقولُ : يَعْلَمُ أنّ أسبابَ الدُّنيا وتصاريفَها مبنيّةٌ على التّغيُّر والتبدُّل ، فالعُسْر واليُسْر يتعاقبان ولا يَلزَمان ، فمتى استغْنَى كَرُمَ ولم يَبْطَرْ ، عِلْمًا بأنه يَفْنَى فلا يبقى ، وإذا افتقر عَفَّ ولم ييأس ، ثِقةً بأنه يزولُ ولا يدوم . وقولُه « يَرَى » من البيت يجرى مجراه من قولِه تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴾ ، لأنه بمعنى يظنونه ، وليس كذلك فى قوله ﴿ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴾ لأنه بمعنى نَعْلَمُهُ . وقد يُستعمَلُ العِلمُ فى موضعِ الظَّنِّ أيضاً ، لذلك قال :

وأَعْلَمُ عِلْمًا لَيسَ بالظَّنِّ أنّهُ إذا ذَلَّ مَوْلَى المَرْءِ فَهْوَ ذَليلُ[(٢)]

٢١٨

وقال أوْسُ بن حَبْنَاء[(٣)] :

١ — إذا المَرْءُ أوْلاكَ الهَوَانَ فأَوْلِهِ هَوَانًا وإن كانت قريبًا أَوَاصِرُهْ[(٤)]

---

(١) هذه رواية الأصل والتبريزى . وفى م : « إذا كان يسرا » ، والتيمورية : « إذا كان عسرا » .

(٢) لطرفة فى ديوانه ٥٢ والشعر والشعراء ١٤٧ . ونسب فى اللسان (حصى) إلى كعب بن سعد الغنوى .

(٣) الظاهر أنه شاعر إسلامى ، ولعله أخو المغيرة بن حبناء الشاعر الإسلامى ، الذى ترجم له البغدادى فى الخزانة (٣ : ٦٠١) . وذكر : أن « حبناء » أم المغيرة ، شهر بالنسبة إليها واسم أبيه حبين بن عمرو بن ربيعة الحنظلى التيمى ، لكن صاحب القاموس لم يذكره فى إخوة المغيرة . قال : « والحبناء : الضخمة البطن ، وأم المغيرة ، ويزيد ، وصخر ، الشعراء . وأبوهم عمرو بن ربيعة » .

(٤) روى الجاحظ هذه الأبيات فى البيان (٢ : ٣٥٧ / ٣ : ٦١) بدون نسبة .

حقيقة أَوْلاكَ كذا : جعلَهُ مما يَليك ، لـكنه اشتهَرَ فى الإحسانِ ، وقد يُستعمَلُ فى الإساءة ، كما فعلَهُ هذا الشاعر . ومثله بَشَّرْتُه فى معنى تناوُلِه الشرّ ، وإن كان اشتهارُه فى الخير . ألا ترى قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بعَذابٍ أَليمٍ ﴾ . يقول : قابِلْ مُعامِلَكَ بمثل ما يَرْصُدُه لك ، فإنّ الأفعالَ بين الناس قُرُوضٌ ، وشَرْطُ القُرُوض الوفاء بها ، والخروج من ذِمَمِها ، فمن أهانَكَ فأَهِنْهُ وإن قَرُبَتْ عَواطِفُ أرْحامِه ، وشوابِكُ أسبابه ، ولا تُوجِبْ له إلاّ مِثْلَ ما يوجِبُهُ لك . ويقال : بينى وبينه آصِرَةٌ ، أى عاطفةٌ ، والأَصْرُ : العَطْفُ . وقوله « قريبًا » خبر كان ، وقدَّمَه على اسمه ولم يؤنِّثه لأنه أراد النسبةَ فلم يَبْنِهِ على الفِعْل . ومثله قوله تعالى : ﴿ إنّ رَحْمَةَ اللهِ قَريبٌ من المُحْسِنين ﴾ .

٢ — فإنْ أنتَ لم تَقْدِرْ عَلَى أن تُهِينَهُ فَذَرْهُ إلى اليَوْمِ الذى أنت قادِرُهْ

يقول : إنْ أعجزَكَ مكافأتُهُ على إساءته إليك ، وأعْوَزَكَ إنالتُه مثلَ ما يُنيلُكَ فى الحال ، فأَنْظِرْه إلى الوقت المساعد لك من مستقبَلِ أيّامِك ، وانتظِرْ نوبتَك من الدّهر ، فإذا أمكنَتْك الفُرصةُ فانتهِزْها . وقوله « إلى اليوم الذى أنت قادِرُهْ » أراد أنت قادرٌ فيه ، فقدَّر الظَّرفَ تقديرَ المفعول الصحيح لأنَّ الظَّرفَ إذا أُضيف إليه يخرج من أن يكون ظَرْفًا كما يخرج منه إذا دَخل عليه حرف الجرّ . على هذا قولُهم :

* ياسارِقَ اللّيلةِ أهلَ الدارْ[1] *

وقولُه :

* طَبّاخِ ساعاتِ الـكَرَى زادَ الـكَسِلْ[2] *

(١) الخزانة : (١ : ٤٨٥) وسيبويه (١ : ٨٩) ، ولم ينسب فيهما .

(٢) مجالس ثعلب ١٥٢ والخزانة (٢ : ١٧٢) وسيبويه (١ : ٩٠) والكامل ١١٣ ليبسك . وقد نسب فى الكامل إلى الشماخ بن ضرار ، والصواب أنه لجبار بن جزء وهو ابن أخى الشماخ ، كما ذكر البغدادى . وقد ساق قصة الرجز مفصلة .

٣— وقارِبْ إذا ما لم تكُنْ لكَ حِيلةٌ وَصَمِّمْ إذاَ أيقَنْتَ أنكَ عاقِرُهْ

يقول : اجْرِ مع الدَّهر فى تصرُّفِه وتلوُّنه ، ودارِ عدوَّك وجامِلْه إن أعياكَ مكايَلَتُهُ ومحاسبَتُهُ ، فإذا انقضَتْ أيّامُه وتيسَّرَ لك بعد مُداجاتِكَ له عَقْرُه وإهلاكُه فاثبُتْ فى الأَزْم عليه ، والانتقام منه ، ثباتَ السَّيف القاطع فى ضريبتِهِ ، وإيّاكَ والغَفْلةَ عنه بعد إيقاظِكَ إيّاه ، واللِّينَ معه وقد خَشَّنْتَه .

٢١٩

وقال آخر[١] :

١— إنى إذا ما القَوْمُ كانوا أَنْجِيَهْ[٢]

٢— واضطَرَبَ القومُ اضطرابَ الأَرْشِيَهْ[٣]

٣— وشُــدَّ فَوْقَ بعضِهِمْ بالأَرْوِيَهْ

٤— هُنَاكِ أَوْصِينِى ولا تُوصِى بِيَهْ

قوله « إنى إذا ما القوم » خبر إنَّ فى قوله « أَوْصينى ولا تُوصِى بِيَهْ » . والمعنى : إنى أهْلٌ لأَنْ يوصَى إلىَّ حينئذ فى غيرى ، ولا يُوصَى غيرى بى . فتُبُيِّنَ هذا من الكلام وإن كان على لفظ الأمر والنَّهْى . وعلى هذا قول القائل زَيْدٌ قمْ إليه ، أى هو أهلٌ لأَن تقومَ إليه . فبهذا التقـدير وأمثالِه جاز أن يقع الأمر موضع الخبَر . وأنشد أبو زَيْدٍ :

(١) هو سحيم بن وثيل اليربوعى ، كما فى اللسان (نجا) . وسحيم شاعر مخضرم عاش فى الجاهلية أربعين سنة وفى الإسلام ستين سنة . انظر الخزانة (١ : ١٢٣ — ١٣٠) وابن سلام ١٢٩ والاشتقاق ١٣٨ والإصابة .

(٢) روى أيضا : « أنحيه » كما فى اللسان (نحا) ، وفسره بقوله : « أى انتحوا عن عمل يعملونه » .

(٣) ويروى أيضا : « واختلف القوم اختلاف » ، و « والتبس القوم التباس » و « واختلف القول » . انظر اللسان (٢٠ : ١٨٠) .

وكُونى بالمكارِمِ ذِكِّرينى ودَلِّى دَلَّ ماجِدةٍ صَنَاعِ (١)

وقال : أراد كونى تذَكِّرينى ، فوضع ذِكِّرينى موضع تذكِّرينى . ومرجِعُ هذا الذى قاله إلى مثـل ما بَيَّنَّاه . وكما أنَّ خبر إنّ فيما بيّناه فـكذلك جواب إذا ، فافهَمْه . وما من قوله « ما القومُ » زائدةٌ . وأنجيَـةٌ : جَمْع نَجِيّ ، والنَّجِيُّ يقع للواحد والجمع . وفى القرآن : ﴿ خلَصُوا نجِيًا ﴾ . ومعنى كانوا أنجيـةً ، أى صاروا فِرَقًا لِمَا حَزَبَهم من الشَّرّ ، ودهِمَهم من الخوف ، يتناجَوْن ويتشاوَرُون .

وقوله « واضطربَ القَوْمُ » أى أخذَهُم القيامُ والقعود ، وفارقَهم القَرَارُ والهُدُوّ ، فأقبلَ بعضُهم يمشى إلى بعضٍ ، متعاونِينَ فى التهيُّؤ والارتحال ، ومتساعِدِين على التيسُّر للانتقال . فَشبّهَ مَيَلانَهم وتَرَجُّحَهم فى اختلافهم ، بترجُّح الأرشِيَة عند الاستقاء عليها من الآبار البعيدة القَعْر ، ومَيَلانِها .

وقولُه « وشُـدَّ فوق بعضهم بالأرويَهْ » ، يعنى أنَّهم ركِبُوا اللَّيل وداوَموا السَّير ، فَغَلبَ النُّعـاس على طائفةٍ منهم حتَّى خِيفَ عليهم السُّقُوط ، لضعف استمساكهم ، فشُدَّت الحِبالُ فوقَهُم . والأروِيَة : جمع الرِّواء وهو الحبل الذى يُرْوَى به ، أى يُسْتَقَى . ومنه قيل الرَّاوية ، ويجوز أن يكون الاضطراب الذى ذكره لاِتِّصال التَّسيار وغلبةِ النوم ، للإخلال بالنُّزول والقرارِ أيضاً . وصَرْفُه إلى الأول أحسن .

وقولُه « هُنَاكِ أوْصِينى » هُنَاكِ يُشَارُ به إلى الزَّمان والمكان معاً ، وموضِعُه نصْبٌ على الظَّرف ، والـكاف منه كاف الخطاب ، والعامِل فيه أوصينى . والمعنى : فى ذلك الوقت يوجَد الغَنَاء والـكِفايةُ عندى ، ويحصُل الصَّبْرُ والمداومةُ منّى ،

(١) لرجل جاهلى من بنى نهشل . نوادر أبى زيد ٣٠ ، ٣٢ ، ٥٨ . وقبله

ألا يا أم فارع لا تلومى على شىء رفعت به سماعى

فاجعلى وصَاتَكِ إلىّ لا بى ، واعتمدى علىّ لا على غيرى . وقال بعضُ القدماء : معنى كانوا أنْجِيَةً ، يريد قوماً نامُوا على رواحِلِهِم فرأوا فى منامِهِم كأنَّهم يتناجَوْن . والصواب عندى ما قدَّمته .

٢٢٠

وقال المُتَلَمِّسُ[1] :

١ — أَلَمْ تَرَ أَنَّ المَرْءَ رَهْنُ مَنِيَّةٍ ... صَرِيعٌ لِعَافِى الطَّيْرِ أوسَوفَ يُرْمَسُ

٢ — فَلَا تَقبلَنْ ضَيْماً مَخافَةَ مِيتَةٍ ... ومُوتَنْ بها حُرًّا وجِلْدُكَ أَمْلَسُ

قال هذا فيما كان بين ضُبَيْعَةَ وبكْرِ بن وائل ، ومعنى أَلَمْ تَرَ اعْلَمْ . يقولُ : الإنسانُ مُرْتَهَنٌ بأجلِهِ ، فإمّا أن يموت حَتْفَ أنفِه فيُدفَنَ ، وإما أن يُقتَل فى معركةٍ فيُترَكَ لعَوافِى السِّباع والطَّير . وجَعَلَ « رَهْنُ مَنِيَّةٍ » و « صَرِيعٌ لِعافِى الطَّيْر » جميعا خبرَيْن لأنَّ ، ثمّ أتى بأوِ الإباحةِ . ويجوز أن ينتصبَ صريعٌ على الحال ، وفى رفعِهِ وجهٌ آخر ، وهو أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنه هو صَريعٌ . وإن جعلتَ أو التى تكون للشّكّ يكون الـكلامُ مبنيًّا على اليقين ثم يَعترض فيه الشَّكّ . والأصلح فى مثل هذا أن يُجْعَلَ بإمّا ، ليكونَ بِنْيَةُ الـكلامِ على الشّكّ ، إذْ كانَ واحِدٌ من الأمرين لا يُتَيَقَّن .

وقولُه « فلا تَقبلَنْ ضَيْماً » يقول : ادْفَعْ عن نفسِكَ خُطّةَ الضَّيْمِ والهَضِيمة ،

(١) التبريزى : « واسمه جرير بن عبد المسيح بن عبد الله بن زيد » . وهو من بنى ضبيعة ، وأخواله بنو يشكر ، وكان ينادم عمرو بن هند ملك الحيرة ، وهو الذى كتب له إلى عامل البحرين مع طرفة بقتله ، ويروون أنه دفع صحيفته إلى غلام بالحيرة ليقرأه ففطن لما أريد به ، فألقى بها فى الحيرة ونجا بنفسه . والمتلمس من أشعر المقلين فى الجاهلية . انظر الأغانى (٢١ : ١٢٥ — ١٢٧) والخزانة (١ : ٣/٤٤٦ : ٧٣) والشعر والشعراء ١٣١ — ١٣٦ .

ولا تلتزم العَارَ والدَّنيّة ، إشفاقاً من المنِيَّة . وانتَصَبَ « مخافةً » على أنّه مفعولٌ له . وقوله « وموتَنْ بها » ، الضمير من بها يرجع إلى المخافة ، أى مُتْ بتلك المخافة حُرًّا لم يَستعبدْكَ الخصْم ، ولم يَستوطِئكَ الظُّلم ، وجلْدُكَ نقِيٌّ من العيبِ ، سليمٌ من العار والشَّيْنِ . ويُرْوَى « واحْيَنْ بها حُرًّا وجلْدُكَ أمْلسُ » والرواية الأولى أحْسَنُ ، ويكون « واحيَنْ » أمراً بالحياةِ وقد أدخل عليه النُّونَ الخفيفة .

ومعنى يُرْمَسُ : يُدْفن . والرَّمْس : الدَّفْن . والرِّياح الروامِس منه ، وتوسَّعُوا فى الدَّفن فقيل ارْمُسْ هذا الحديث ، كما يقال ادْفِن . وعافى الطَّيْر : ما يعترِى منه . ويقال فلانٌ كثير العافية والعفاةِ ، ويُرادُ الزُّوَّار والمُجْتَدُونَ .

٣ — فَمِنْ طَلَبِ الأَوْتَارِ ماحَزَّ أنفَهُ   قَصِيرٌ وخَاضَ المَوْتَ بالسَّيفِ بَيْهَسُ

٤ — نَعَامَةُ لمَّا صَرَّعَ القَوْمُ رَهْطَهُ   تَبَيَّنَ فى أثوابِهِ كيفَ يَلْبَسُ

قصيرٌ : صاحب جَذِيمة الأبرَش . وقصّة جذيمة وزبّاء الرُّوميةِ مشهورة . وإنَّ قصيراً تَوَصَّلَ بأنْ جدَعَ أنفَ نفسِهِ ، إلى أن استَخْدَمَتْهُ زَبّاء ثم استخلصتْه حتى تمكّن فأدركَ ثأرَهُ منها . وَبيْهَسٌ هو الذى يلقَّبُ نَعَامَةَ ، وهو رَجلٌ من بنى غُراب بن فَزارة ، وكان يُحمَّق ، فقُتِـل له سبعةُ إخوة فجَعل يَلبَسُ القميصَ مكانَ السّراويل ، والسّراويلَ مكان القميص ، فإذا سُئِل عن ذلك قال :

الْبَسْ لـكلِّ عيشةٍ لَبُوسَها   إمّا نعيمَها وإمّا بُوسَها[1]

فتوَصَّل بما صَوَّرَه من حاله عنـد الناس إلى أن طَلَبَ بدماء إخوتِهِ . وحديثُه مشهور أيضاً . وكلام المتلمّس بَعْثٌ وتحضيضٌ على دفع الضَّيْم ، وركوبِ الإباء من التزام العار ، فلذلك أخذ يذكّرُ بحال من استُضْعِف . فلم يزَلْ يحتالُ حتّى أدرَكَ مَباغِيَهُ من أعدائه .

(١) يروى أيضا : « لـكل حالة » ، وهى رواية التبريزى .

وقوله : « ما حزَّ أنفهُ » ما زائدة . وارتفع « نَعامَةُ » على أنه بَدَلٌ من قوله يَبْهَسُ . وموضِع « كيفَ » نَصْبٌ على أنّه مفعول تَبَيَّنَ ، والعامِلُ فى كيفَ يَلْبَسُ تَبَيَّنَ . كأنه قال : تبيّن فى أثوابه يَلْبَسُ أىَّ لِبْسَةٍ .

٥ — وما الناسُ إلا ما رأَوْا وتحدَّثوا وما العجزُ إلا أن يُضَاموا فيَجْلِسُوا[١]

قولُه « ما رأَوْا » ما مع الفعل فى تقديرِ مصدرٍ ، كأنّه قال : وما النَّاس إلّا رُؤْيةٌ وتَحدُّث ، أى اعتبار بالمشاهدة أو بمـا يُروَى من أخبار الأممِ البائدة ؛ فهو كقولك : ما زيدٌ إلا أكْلٌ وشُرْب ، فيكون إمّا على حَذْف المضاف ، كأنَّه قال : ما زيدٌ إلا ذُو أكْلٍ وشُرْبٍ ؛ وإما أن يكون لكثرتهما منه ، وولوعه بهما ، كأنّه نَفْسُ الأكل والشُّرب . فيقول : ما الناس إلا ذَوُو الاعتبار بما يشاهدونَهُ أو يسمعونهُ من أخبار أسلافِهم ، فيتيقّنونَ بأنه لا بُدَّ من الفناء ، فلا ينبغى لأحد أن يحتمل ضَيْماً أو يصْبِر على مكروه ، وما العجزُ إلا أن يُظلَمُوا ويُسَامُوا الخسفَ فيرضَوْا به ، وينطوُوا عليه كاظمين وساكنين . ويجوز أن يريد بقوله « وما الناس » وما حزْمُ الناس ، فحذف المضاف ، ويكون حينئذ ما رأوا فى موضع الظَّرف ، كأنه أراد : ما حزْمُهم إلّا مدّةَ رؤيتهم وتحدُّثهم ، أى إذا اعتبَروا بالأمرين ، ويكون هـذا فى باب الإخبار كقولهم : الهلالُ اللَّيلةَ ، على تقديرِ حدوثُ الهلال أو طُلُوعُه اللّيلةَ . ويكون الدّلالة على هذا الوجه أنه طابَقَهُ بقوله « وما العجز » .

٦ — أَلَمْ تَرَ أنَّ الجَوْنَ أصْبَحَ راسِياً تُطِيفُ به الأيّامُ ما يتأيَّسُ

الجَوْنُ : حِصْنُ اليمـامةِ ، ويُقال إنه من مصانِع طَسْمٍ وجَدِيسَ . فيقول : لا توعِدُونا فإنَّ حصنَنا حصينٌ لا يُوصَلُ إليه ، ولا يُستباح حِماه . ومعنَى « تُطِيف

---

(١) التبريزى : قال أبو هلال : الرواية الجيدة ما رواه أبو عمرو :

وما البأس إلا حمل نفس على السرى وما العجز إلا نومة وتشمس

به الأيامُ » تُلِمُّ به الأحداث وتنوبه النّوائب فلا يُطيعُ . وقولُه « لا يتأيَّس » أي لا يلين . وأنشد الأصمعيّ :

إنْ تكُ جُلمُودَ صَخْرٍ لا أُؤيِّسُهُ أُوقِدْ عليه فأحْمِيه فينصدعُ(١)

ومَوْضِع « تطيفُ به الأيام » نصبٌ إن شئتَ على الصفة ، وإن شئتَ على أنّهُ خَبَرٌ بعْدَ خبَرٍ . وموضع « ما يتأيَّس » نصبٌ على الحال ، والعامل فيه تطِيفُ .

٧ — عَصَى تبَعًا أزمانَ أهلكَتِ القُرَى يُطَانُ عليه بالصفيحِ ويُكلَسُ

يُرْوَى :

... أيّامَ أهلَكَتِ القُرَى يُطَانُ على صُمِّ الصفيح ويُكلَسُ(٢)

يقول : إنّ تُبّعًا لما غزا القرى والمدنَ لم يصل إلى اليمامة للحصن . وذِكْرُه العصيانَ كما قال غيرُه : « تمرّد مارِد وعزّ الأبلَقُ(٣) » . وقوله « يُطَانُ عليه بالصَّفيح » أي يُجعَل بدل طِينِه فى الإصلاح والعمارة الكِلْس بالحجارة . ويجوز أن يكون « بالصفيح » فى موضِع الحال ، أي يُطانُ ويُكلَسُ بصفائحِه ، أي وهو مبنيٌّ بالحجارة .

٨ — هَلُمَّ إليها قد أُثيرَتْ زُرُوعُها وعادَتْ عليها المَنْجَنُونَ تَكَدَّسُ

يُخاطِبُ النُّعمان . و « إليها » أي إلى اليمامة . وهذا الكلام تهكُّمٌ وسخريّةٌ . يقول : إنْ قدَرْتَ عليها فاقصِدْها فإنها أخصبُ ما يكون ، مُزدرَعُها مُثارٌ

---

(١) نسب فى اللسان (٥ : ١٣٣) إلى عباس بن مرداس . وهو فى المخصص (١٠ : ٩٥) بدون نسبة . وانظر مقاييس اللغة (أيس) .

(٢) التبريزي : « ويروى : يطان على مثل الصفيح » .

(٣) قائله الزباء نفسها ، وكانت قصدت ماردا — وهو حصن دومة الجندل ، والأبلق — وهو حصن للسموأل بن عاديا بأرض تيماء ، فلم تقدر عليهما ، فقالت هذا القول ، فصار مثلا . مجمع الأمثال (١ : ١١٣) .

ودالِيَتُها تدور . ومعنى « تكدَّسُ » يركَبُ بعضُها بعضاً فى الدَّوَران . ويُستعملُ فى سَير الدَّوابِّ وغيرها . وقال ابن الأعرابىّ : التكدُّس أن يُحرِّكَ منكبيه إذا مَشَى . وقال الأصمعىّ : هى من مَشْى القِصار الغِلاظ . ويقال كَدَسَ به الأرضَ إذا ضَرَبَها به . وأُنشدت :

وخَيْلٍ تكدَّسُ بالدارِعيـــن نازَلْتَ بالسَّيفِ أبطالَها[1]

وروى بعضهم : « قد أُبيثَتْ زُروعها[2] » . والإبانة : الإثارة . وقوله « هَلُمَّ إليها » كما يقال أقبلْ إليها . وقد مضى القولُ فى هَلُمَّ[3] .

٩ — وذاكَ أوانَ العِرْضِ حىَّ ذُبابُهُ زَنابيرُهُ والأزْرَقُ المُتَلمِّسُ

يُروى « جُنَّ ذُبابُهُ » أى كثُر ونَشِط . والعِرضُ : وادٍ من أودية اليمامة ، فلكَ أن تجُرَّهُ بإضافة الأوانِ إليه وهو مرفوعٌ ، ولك أن تنصِبَ الأوانَ فترفعَ العِرْض بالابتداء ، واسم الزمان يضاف إلى الجمل من الابتداء والخبر ، والفِعْل والفاعِل ، وكأنّه قال : وهذا الذى ذكرتُ هو فى هـذا الأوانِ . وقوله « حىَّ ذُبابُه » أى عاشَ بالخِصْب فيه . و « زنابيرُه » يرتفع على أنه بَدلٌ من الذُّباب . وذُبابُ الرَّوضِ قد تُسمَّى الزَّنابير . وقوله «والأزرق المتلمِّس» إشارةٌ إلى جنسٍ آخرَ غيرِ الأوّل ، وهو ما كان أخضرَ ضخمًا . والمتلمِّس : الطالب ، ويقال إنّه سُمِّىَ المتلمِّسَ بهذا البيت ، واسمه جرير بن عبد العُزَّى[4] .

١٠ — يكونُ نَذيرٌ مِن ورائىَ جُنَّةً ويَنصُرُنى منهمْ جُلَىٌّ وأحْمَسُ

١١ — وجَمْعُ بنى قُرّانَ فاعرِضْ عليهمُ فإنْ يَقبَلوا هاتا التى نحنُ نُوبَسُ

---

(١) البيت للخنساء . ديوانها ص ٧٥ طبع ١٨٨٨ .

(٢) اللسان : « هلموا إليه قد أبيثت زروعه » .

(٣) انظر البيت الأول من الحماسية ٢١١ .

(٤) أو ابن عبد المسيح ، كما سبق فى ترجمته .

قوله « يكونُ نذيرٌ » قيل فيه هو نذير بن بُهْثَةَ بن وَهْب بن حَرْب . وقيل أراد بالنَّذير المُنذِر . والمعنى : إنى أرْصُد لهم من يُنْذِرُنى بهم فيخبرُنى بمجيئهم إذا همّوا به ، فأتّقِى وأستجِنُّ وأتحرَّزُ . وجُلَيٌّ وأحْمَسُ من ضُبَيْعة بن ربيعة بن نِزار يقول : وإذا جاء وقت التَّجاذُب والتدافُع قام بنَصرى هذان البَطْنان . وقوله « وجَمْعَ بنى قُرّانَ » النَّصْبُ فيه على إضمار فعل ، كأنه قال : سُمْ جَمْعَ بنى قُرّان ، ويكون الفعل الظاهر تفسير المضمر ؛ والرَّفع على الابتداء . ومعنى البيت : أجْرُونا مجرى نُظرائنا فإنّا نرْضَى بهم قُدْوةً ، واعرِضوا ما تَسُوموننا على بنى قُرّان ، فإنْ وجدتموهم يتلقّونه بالقبول ، ويوطِّنون أنفسهم عليه ، فلنا بهم أُسوةٌ ، وإلّا فالامتناع منه واجبٌ . وقوله « هاتا التى نحنُ نُوبَسُ » أى هذه الخُطّة التى نُكْرَه عليها . والأَبْس : القهر . وقال ابنُ الأعرابىّ : أبَسْتُ الرَّجلَ ، إذا لقيتَه بما يَكره ؛ وأبَسْتُ منه ، إذا وضَعْتَ منه باستخفافٍ به وإهانةٍ له . وجواب الجزاء لم يجئْ بَعْدُ .

١٢ — فإنْ يُقْبِلُوا بالوُدِّ نُقْبِلْ بمِثْلِهِ وإلّا فإنّا نحنُ آبَى وأَشْمَسُ

١٣ — وإن يَكُ عنّا فى حُبَيْبٍ تثاقُلٌ فقَدْ كانَ مِنّا مِقْنَبٌ ما يُعرِّسُ

قوله « فإن يُقبِلوا بالودّ » أعاد به الشَّرط ، وذلك أنّه قال فى البيت الذى قبله « فإن يَقبَلوا هاتا التى نحن نُوبَسُ » ، ولم يأتِ للشَّرط بجوابٍ ، ثم قال « فإن يَقبَلوا بالودِّ نُقبِلْ بمِثْلِهِ » ، فاكتفَى بجوابٍ واحد لاشتماله على ما يكون جوابًا لهما ، فكأنه قال : إن قَبِلوا ما نُوبَسُ نَقبَل مِثْلَه ، وإن أقْبَلوا بعد ذلك وادِّينَ ووامِقِين أقبلنا بمِثْلِهِ ، وإلّا فنحن أشدُّ إباءً ، وأبلغُ شِماسًا ، وأحمَى أنفا وأعزُّ جانبا . والشِّماس : الامتناع ، ومنه شِماسُ الدّابّة ، وهو أن لا يُمْكِنَ من الإسراج والإلجام . وكانت بنو ضُبَيْعَةَ حلفاء لبنى ذُهْل بن ثعلبة بن عُكابَةَ ،

فوقعَ بينهم نزاعٌ ، فعاتبهم المتلمِّسُ . وقولُه « وإنْ يكُ منّا فى حُبَيِّبٍ تثاقُلٌ » فإنّه أراد حُبَيِّبٍ فخفّف ، وهو حُبَيِّبُ بن كعب بن يشكر بن بكر بن وائل . يقول : إنْ تكاسَلَ بنو حُبَيِّب عن طلب دمائنا ، وتثاقلوا عن إدراكِ ثأرنا ، فقد كان منا من يدأبُ ويَسهرُ ، فلا يرَى[1] تعريسًا ولا تلوُّمًا وتعريجًا فى ذلك . والمِقْنَبُ : زُهاءِ ثلاثمائةٍ من الخيل . والتعريس : نزولٌ فى آخر الليل .

٢٢١

وقال سَعْدُ بنُ ناشِبٍ[2] :

١ — تُفَنِّدُنى فيما تَرَى مِنْ شَراسَتِى ... وشِدّةِ نَفْسِى أمُّ سَعْدٍ وما تَدْرِى

٢ - فقُلْتُ لها إنّ الحَلِيمَ وإنْ حَلَا ... لَيُلْفَى عَلَى حَالٍ أَمَرَّ من الصَّبْرِ[3]

تُفَنِّدُنى أى تُجهِّلنى . والفَنَد : إنكارُ العقل من هَرَمٍ . يقال شيخٌ مُفَنَّدٌ . وفى القرآن : ﴿لَوْلَا أنْ تُفَنِّدُونِ﴾ ، أى تجهِّلونى ، وفُسِّر على تُكذِّبونى أيضا . والشَّراسةُ : صُعوبةُ الخُلُقِ وخُشونة الجانب . فيقول : تُعَيِّبُنِى[4] هذه المرأةُ على ما ترَى من عُسرِ الخُلق وإباء النَّفسِ وفَظاظة القَلْب ، جاهلةً بأحوال الرِّجال ، والفَصْل بين أوقاتِ الجِدِّ والهزل ، والشِّدّة واللِّيان ، فأجبتُها وقلتُ : إنّ الرَّجُل الحليم وإن لانَ عِطفُه وسَهُل خُلُقُه فقد يُوجَدُ فى وقتِ الغِلظة وعند حالةِ القسوةِ أمرَّ مَرارةً من الصَّبِر ، وأشدَّ صلابةً من الحَجَر . وقولُه « وما تَدرِى » فى موضع الحال . وفى هذه الطريقة قولُ الآخر[5] :

(١) م : « ترى » . والمعنى يتجه بكل منهما .
(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٠ ص ٦٧ .
(٣) التبريزى : « إن الكريم » . وقد أشير فى هامش الأصل الى أنه كذلك فى نسخة .
(٤) م : « تفتنى » ، التيمورية : « تعتبنى » .
(٥) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات (١ : ١١٠) .

وإنِّي لَحُلْوٌ إنْ أُرِيدَتْ حَلَاوَتِي ومُرٌّ إذا نَفْسُ العَزُوفِ اقشعرَّتِ

٣ — وفى اللِّينِ ضَعْفٌ والشَّراسةُ هَيْبَةٌ وَمَنْ لا يُهَبْ يُحْمَلْ على مَرْكَبٍ وَعْرِ

الواو من قولِهِ « والشَّراسَةُ » عاطِفَةٌ لجملةٍ على جملةٍ ، ولا يجوز أن يُجَرَّ الشَّراسةُ على أن يكون معطوفاً على فى اللِّين ، لما فيهِ من العطف على عامِلَين بحرْفٍ واحدٍ(١) . ومعنى البيت أنَّ من استُلِين جانِبُه فى كلِّ حالٍ استُضْعِفَ واهتُضِم ، ومن استُخْشِنَ خُلُقُه هِيبَ وتُحُومِيَ .

٤ — وَمَا بِي عَلَى مَنْ لَانَ لِي من فَظَاظَةٍ ولكنَّنِي فَظٌّ أَبِيٌّ على القَسْرِ

فى هذه الطَّريقة قول الآخر(٢) :

أَبِيٌّ لما آبَى سريعٌ مَبَاءَتِي إلى كُلِّ نَفْسٍ تَنْتَحِي فى مَسَرَّتِي

يقولُ : أضعُ كلَّ واحدٍ من الفظاظة والسُّهولة ، والشَّراسة والسَّلامةِ ، فى موضِعه ، وأستعملُه مع من يستحقُّه ، فمن جرَى معى وانقاد لى لِنْتُ له ، وقابَلْتُه بمثل فِعْلِه ، ومَن تأبَّى علىَّ وطَلَبَ منِّى متابعَته والجْرىَ مع هَواه أبَيْتُ عليه ، وخالَفْتُه فيما يبتغيه . والقَسْر : القهر على الكُرْه ، ويقال قسَرْتُه واقتَسَرْتُه ، ومنه قيل للأسد قَسْوَرَةٌ .

٥ — أُقِيمُ صَغَا ذِي المَيْلِ حَتَّى أَرُدَّهُ وأَخْطِمُهُ حتَّى يَعُودَ إلى القَدْرِ

٦ — فإنْ تَعْذُلِينِي تَعْذُلِي بِي مُرَزَّأً كَرِيمَ نَثَا الإعْسَارِ مُشْتَرَكَ الْيُسْرِ

(١) أى العطف على معمولى عاملين بحرف واحد . والمسألة خلافية . قالوا : إذا لم يكن أحد العاملين حرف جر فإنه لا يجيز العطف نحوى إلا الأخفش ، وإذا كان أحدهما حرف جر مؤخرا نحو زيد فى الدار والحجرة عمرو ، أو وعمرو الحجرة فإنه لا يجيز العطف إلا الأخفش أيضا . وإن كان حرف جر مقدما ، كما فى نص هذا البيت فإن المنع مذهب سيبويه ، وبه قال المبرد وابن السراج وهشام ، وقد أجاز الأخفش هذا العطف ، وبه قال الكسائى والفراء والزجاج . انظر آخر باب العطف عند الأشمونى .

(٢) هو الشنفرى الأزدى . المفضليات (١ : ١١٠) .

قولُه « أقيم صَغَا ذِى المَيْل » ، تبجّجَ فيه بأنه عارفٌ بأسرار الرِّجال ، لطيفُ التوصُّل إلى إنزالهم مَنازلَهم ، بصيرٌ بمداواة أدوائهم ، لا يترُكُهم سُدًى ، ولا يُخلّيهم أهمالا . والصَّغَا : المَيْل والاعوجاج ، يقال صَغَا فؤاده يَصْغَى ويَصْغو ، أى مالَ . وصِغْوُكَ مع فلانٍ ، أى مَيْلُك . يقول : مَن مالَ عنّا فإنى أقوِّم اعوجاجه بما يُحوِج إليه من قولٍ وفعلٍ ، حتّى أرُدَّه إلى ما أريدُه ، فإن تبيَّنْتُ فيه تعدِّياً لطَورِه ، وذهاباً عن حَقّه وحَدِّه ، زَمَمْتُه بزمامِ مثلِه حتّى يَرْجِعَ إلى مَرْتبتِه وقَدْرِه .
وقولُه « فإن تَعْذُلِينى » يصِفُ نَفسَهُ بأنّه سَمْحٌ معطاء ، لا يُكفَّ عن البَذْل ، ولا يُرَدُّ عن الإعطاء والجود ، على تلوُّنِ الزّمان به ، وتَغيُّر الأحوالِ عليه . والمُرَزَّأ : المُصابُ فى مَالِه كثيراً . وقولُه « تَعْذُلِى بى مُرَزَّأً » ، أى رجلاً مرزَّأً ، وذلك الرّجلُ هُوَ هو كما يقال : لقيتُ بزيدٍ الأسدَ[1] . والنَّثا : الخبَر ، ويُستعمل فى الخير والشرّ ، والثناء لا يستعمل إلّا فى الخير ، يقول : إن لُمتِنى على ما هو دأبى من الإفضال ، لُمتِ بى رجلا لا يفكِّرُ فى عُقَبِ الدَّهْرِ ، وكُرورِهِ بالغِنَى والفقر ، فإن نَابَهُ العُسرُ حَسُنَ بلاؤه وكَرُمتْ أخبارُه فيه ، وإن نالَهُ اليُسْر أشركَ الأقاربَ والأجانبَ فى نفعه ، فعَمّتْ فواضلُهُ لديهم .

وقد أكثر الشُّعراء فى هذا المعنى . فمن ذلك قولُ الشَّمَرْدَل :

وَصُولٌ إذا استَغْنَى وإن كان مُقْتِرًا ⁂ من المالِ لم تُحْفِ الصَّديقَ مسائِلُهْ

وقولُ المَرّار :

إذا افتقَرَ المَرّارُ لم يُرَ فَقْرُهُ ⁂ وإن أيسَرَ المَرّارُ أيسر صاحِبُهْ

وأحسَنُ من الجميع قول الآخَر :

إذا افتقَرُوا عَضُّوا على الفَقْرِ حِسْبَةً ⁂ وإنْ أيْسَرُوا عادُوا سِرَاعاً إلى الفَقْرِ

(١) وهذا مايسميه البلاغيون « التجريد » .

٧— إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمَه ... وصمَّم تصميمَ السُّرَيجيِّ ذى الأثْر

يذكُر من نفسِه الصَّرامةَ والنَّفاذ، وفصْلَ الأمور، والصَّبر على ممارسة الخطوب. يقول: إذا عزَمَ على الأمر كان جميعَ الرَّأى، يجعلُ المهمومَ به نصْبَ عينَيه، حتَّى يخرُجَ منه، ونفَذَ نفاذَ السَّيف الخذِمِ لا يتوقَّف فى الضَّريبة، ولا يَكْهَم. والسُّرَيْجيُّ: منسوبٌ، ويجوز أن يكونَ وُصِف بذلك لكثرةِ مائه ورونقه، حتَّى كأنَّ فيه سراجاً؛ ومنه قيل: سرَّجَ اللهُ أمْرَك، أى حسَّنَه ونوَّرَه. والتَّصميم: المُضِىُّ فى الأمر، ويقال صمَّمَ فى عضِّه، إذا نيَّب. قال:

فأطْرَقَ إطْراقَ الشُّجاع ولو يرَى ... مَساغاً لنابيْهِ الشُّجاعُ لصمَّما[1]

والأثْر: الفِرِنْدُ والماء، ويقال أُثْرٌ بالضمِّ.

٢٢٢

وقال أيضا:

١ — لا توعِدنَّا يا بلالُ فإنَّنا ... وإنْ نحْنُ لم نَشْقُقْ عصا الدِّينِ أحْرارُ

يُخاطب بهذا الكلام بِلالاً الخارجىَّ، ويعيِّره خروجَه من طاعة السُّلطان وشقَّه عَصَا الإسلام، فيقول: اتْرُكْ توعُّدَنا فإنَّا وإن لم نفرِّقِ الجماعةَ تفريقَك، ولم نُخالِف المسلمين مخالفتَك فإنَّ فينا كرَماً وإباءً يحمينا من الانهضام، ويحرِّم علينا الصَّبرَ على المَذلَّة والعار، فلا طريق لك إلى تملُّكِنا والتحكُّم فينا. وقال الخليلُ: قولُهم شقَّ عصَا المسلمين، العصَا: الاجتماع والائتلاف. والأجوَدُ عِندى أن يكونَ مثَلاً كما يُقالُ للرَّفيق الحسَنِ السِّياسة: هو ليِّن العصَا، وفى ضِدِّه:

(١) للمتلمس فى ديوانه ٢ نسخة الشنقيطى. ويروى: «لناباه» شاهدا على إلزام الألف. شرح الأشمونى (١ : ٧٩).

هو صُلْبُ العَصا ، وكقولهم : قَشَرْتُ له العصا ، إذا أبنْتَ له ما فى نفسك ، وكما قيل : « عصا الجبان أطْوَل » . وقال بعضهم[1] يصف الخوارج :

رَجَوْا بالشِّقاقِ الأكلَ خَضْمًا فقد رَضُوا ... أخيرًا من اُكلِ الخَضْمِ أن يأكلوا قَضْما

فأتى بالشِّقاق وأصله من شقِّ العصا .

٢ - وإنّ لنا إمّا خَشِينَاكَ مَذْهبًا ... إلى حَيْثُ لا نَخْشاكَ والدَّهْرُ أطْوارُ

يتوعَّدُه بأنه إن أعياهُ مُقارَّتُه ولم يَفِ[2] بمدافعته ، فارَقَ أرضَه وتربَّصَ به مالا يُؤمَن من تغيُّر الزمان ، وتحوُّل الأحوال ، لأنّ فى سَعةِ الأرض مَذهبًا له ، وفى التباعُد عنه راحةً تؤمِنه . وقد أومأ بقولِه « والدَّهْرُ أطوارُ » إلى تصاريف الزمان ، وتلوُّنِه بالخير تارةً وبالشَّرِّ أُخرَى . ويقال الناسُ أطوارٌ ، أى أخيافٌ على حالاتٍ شتَّى . وفى القرآن : ﴿ وقد خَلَقَكُم أطْوارًا ﴾ . وقوله « إلى حيث لا نخشاك » أجرى حيث مجرَى الأسماء ، وجعَل لا نخشاك من تمامه ، وحذف الضمير منه تخفيفًا ، كأنّه قال إلى حيث لا نخشاك فيه ، أى إلى مكانِ الأمْنِ منك . ويروى « فإنّ لنا عنكم مَزاحًا ومَذهبًا » . والمَزاحُ : المَبْعَدُ ، يقال : زاحَ عَنِّى .

٣ - فلا تَحْمِلَنّا بَعْدَ سَمْعٍ وطاعةٍ ... على غايةٍ فيها الشِّقاقُ أوِ العارُ

يقول : لا تُلْجِئْنا بعد انقيادِنا لك فى كثيرٍ من الأمور ، ودخولِنا تحت هَواكَ ، وتلَقِّينا بالسَّمْع والطاعةِ أمْرَك ، إلى غايةٍ تُضَيِّقُ نِطاقَ صَبْرِنا ، وتُعجِزُ طاقتَنا وجُهْدَنا ، فتُفضِى بنا الحالُ إلى أحد شيئين ، إمّا مُشاقّتِك ومجاهَدتِك ، وركوبِ كلِّ صعبٍ وذَلُولٍ فى الخروج عنك وعليك ، وإمّا الرِّضا بالدَّنيّة

---

(١) هو أيمن بن خريم الأسدى ، يذكر أهل العراق حين ظهر عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير . اللسان (خضم ، قضم) . والرواية فى اللسان : « القضما » .

(٢) م : « ولم يقف » .

والدّخولِ تحت العار والهضيمة ، فلا حظّ لنا ولك في واحدةٍ منهما . وقد مَضَى القولُ في الشِّقاقِ وأصْلِه . ويقالُ هو يُشاقُّهم خِلافاً وعِنادا .

٤ – فإنّا إذا ما الحَرْبُ ألْقَت قِناعَها   بها حِينَ يَجْفُوها بَنُوها لَأَبْرَارُ

قوله « إذا » ظرفٌ لخبر إنّ ، وهو أبرارُ . وكذلك قوله « حين يجفوها » ، والتقدير : إنّا لأبرارٌ بالحربِ إذا ألقت قِناعَها وجفَاها أبناؤها . وقوله « ألقت قِناعَها » مَثَلٌ . يريد : إذا اشتدّت فتكشّفَت ، وزالت المساترَة بين أولادِها فتبرّجت ، في أقْبح زِيِّها وأفظع صورتها . وتشبيه الحربِ في ابتدائها بالفَتِيّةِ المُخَدَّرَةِ وتَستُّرِها ، وعند تفاقُمِها بالعجوز واطّراحها لقناعِها ، مشهور في عاداتِهم وطرائقِهم . وبِرُّ أبنائها بها : صبْرُهم على حرِّها ، وتهييجهم لنارِها . وجفاؤهم بها أن يكونوا على الضِّدِّ من ذلك .

٥ – ولَسْنَا بِمُحْتَلِّينَ دارَ هَضِيمَةٍ   مَخَافَةَ مَوْتٍ إنْ بِنَا نَبَتِ الدّارُ

هذا خِلافُ قول الآخر :

إذا ارتحلوا عن دارِ ضَيْمٍ تَعَاذَلُوا   عَلَيْهَا وردُّوا وَفْدَهم يَسْتَقِيلُها[١]

وانتصب « مَخافة » على أنّه مفعولٌ له ، والهَضِيمة والمَضِيمةُ واحد .

٢٢٣

وقالَ قُرادُ بن عَبّادٍ[٢] :

١ – إذا المَرْءُ لم يَغْضَبْ له حِينَ يَغْضَبُ   فَوارِسُ إنْ قِيلَ ارْكَبُوا المَوْتَ يَرْكَبُوا[٣]

(١) لعميرة بن جعل . المفضلية ٦٣ . وأنشده الجاحظ في البيان (٢ : ٣٤٧) .
(٢) التبريزي : قال أبو هلال : هكذا في الأصل ، وهو خطأ ، وإنما هو قراد بن العيار بن محرز بن خالد بن أرقم بن قسيم بن ناشرة بن سيار بن رزام ، وأبوه العيار أحد شياطين العرب » . ويؤيد ما قال أبو هلال أن الآمدي في المؤتلف ١٥٩ ذكر أباه « العيار » ثم قال : « وكان ابنه قراد بن العيار شاعرا منكرا شريرا بذيء اللسان ، وعمر دهرا طويلا ، وهلك في ولاية محمد بن سليمان الأولى وقد بلغ من السن أكثر من مائة سنة » . وانظر معجم المرزباني ٣٢٨ .
(٣) الآمدي : « معاشر » بدل « فوارس » .

٢— ولم يَحْبُهُ بالنَّصْرِ قومٌ أعِزَّةٌ مَقَاحِيمُ في الأمر الذي يُتَهَيَّبُ
٣— تَهَضَّمَهُ أدنَى العَدُوِّ ولم يزَلْ وإن كان عِضًا بالظُّلامةِ يُضْرَبُ

يُخْبِر بأنّ عِزّ الرجلِ بعشيرته، واعتلاءهُ بذويه وأقاربه، فإذا لم يتغضبْ له فُرسانٌ يَسخَطُون لسُخطِهِ ويمتَعِضُون من دُخول الضَّيْم عليه، فيركبُونَ حَدَّ الموتِ في هواه، ويقتحمون الشَّدائد في نُصرتِه، تَجاسَرَ عليه أضعفُ أعدائه، وأدْنَى مُخالفيه، وإن كان في نفسه منكراً داهِيَةً لا يُطاقُ، ولم يزَلْ مضروباً بالظُّلْم والهضيمة، مقهوراً بالإزراء والمَضيمةِ، وإن كان لا يُؤتى من حَدٍّ ومضاء. والعِضُّ: السَّيِّئُ الخُلُق، والمُنْكَرُ الشَّديد اللِّسان. ويقالُ هو عِضُّ مالٍ وعِضُّ سَفَرٍ وقِتال، إذا كان حَسَنَ الغَنَاء في جميعها. وجوابُ « إذا المرء » قولُه « تَهَضَّمَهُ »، وهو العاملُ فيه. والمقاحِيم: جمع المِقحام، وهو الذي يَخُوضُ قُحْمَةَ الشيء، أي معظمَه. ومعنى تَهَضَّمَه كَسَرَهُ وأذَلَّه. والحِباء: عطاءٌ بلا مَنٍّ ولاجزاء. ويقالُ: حَبَاهُ الله بكذا، وحباهُ كذا أيضاً. وخبرُ لم يَزَلْ « يُضْرَبُ ». وفي الجملة جوابُ « وإن كان عِضًا ».

٤— فآخِ لحالِ السِّلْمِ مَنْ شئتَ واعلَمَنْ بأنّ سِوَى مَوْلاكَ في الحَرْبِ أجْنَبُ
٥— ومَوْلاكَ مَوْلاكَ الذي إنْ دَعَوْتَهُ أجابَكَ طَوْعاً والدِّماءُ تَصَبَّبُ
٦— فلا تَخذُلِ المَوْلَى وإن كان ظالِماً فإنّ بهِ تُثْأَى الأُمُورُ وتُرْأَبُ

يحثّه على استصلاح [بنى[1]] الأعمام، وينبه على أنّهم المتمدون في الشَّدائد، فيقول: وَالِ لأيّام السلامة وأحوال المُوادعةِ والمُسالَمة من شئت، وإن لم يَجْمَعْكَ وإيّاه نَسَبٌ ولا سَبَبٌ، عالِماً بأنه لا يَصلُح للحرب ومجاذبة الأعداء إلّا قريبٌ، وأنّ من سِوَاهُ فيها غريب. وقولُه « ومولاكَ مولاكَ »

(١) التكملة من م والتيمورية.

تلاقَى به تحقيقَ ما قدَّمهُ ، وتأكيدَ ما أطلقه ، ونَفَى عنه تَسلُّطَ المجاز والاتّساع .
فيقول : مولاكَ فى الحقيقة هو ابن عمِّك الذى إن استغثتَ به أبْعَدَ ما كان منك أغاثكَ عن حنُوٍّ وشفقة ، وإن دعوتَه والكَلْمُ يَقطر وحبلُ الأُلفةِ يَنقطع ، أجابَكَ لا بتصنُّعٍ وتعمُّلٍ ، فأمّا من وَلاؤه بالاسم دون المعنى ، أو يكون مداجيًا لك يُجامِلُك بالغِشِّ وينطوِى لك على الضِّغْنِ ، يخذلُك أحْوجَ ما كنتَ إليه ، ويَبْعُدُ عنك أقربَ ما كنتَ فيه ، فلا معتَمَدَ عليه ، ولا استنامةَ إليه . وانتصب « طَوْعًا » لأنّه مصدرٌ فى موضع الحال . ومثل هذا قولُ الآخر :

أخُوكَ الذى إن تَدْعُهُ لِمُلِمَّةٍ يُجِبْكَ وإنْ تَغْضَبْ إلى السَّيفِ يَغْضَبِ

وقوله « ولا تخذُلِ المَوْلى وإن كان ظالما » يجوز أن يكون المعنى : لا تَخذُلْه وإن كان ظالِمًا لك ، ويجوز أن يكونَ على منهاجِ ما جاء فى الخبر : « انْصُرْ أخاكَ ظالمًا أو مَظلومًا » . يقول : طالِبْ نفسَكَ لمولاكَ بمِثْلِ ما تُطالِبُ به مولاكَ لنفسك ، وانصُرْهُ على كل حال .

وفى مثل طريقة البيتين الأوَّلَين من هذه المقطوعة قولُ الآخر[1] :

ومَنْ لا يَكُنْ ذا ناصرٍ يَوْمَ حقِّهِ يُغَلَّبْ عليه ذو النَّصِيرِ ويُضْهَدِ
وفى كثرة الأيدى لِذِى الظُّلم زاجرٌ إذا خطَرَتْ أيدى الرِّجال بمشهدِ

ومعنى « به تُنْأَى الأمور وتُرْأَبُ » يريد بالمولَى تُصْلَحُ الأمور وتُفسَدُ .
ويقال : رأبْتُ الثَّأى ، كما يقال رَقَعْتُ الخرْق .

(١) هو عدى بن زيد العبادى . حماسة البحترى ١٥٤ .

٢٢٤

وقال زاهرٌ أبو كِرامٍ التَّيْمِىُّ(١) :

١– لِلّٰهِ تَيْمٌ أىُّ رُمْحِ طِرَادِ لاقَى الحِمَامُ به ونَصْلِ جِلادِ

قوله « للّٰه تَيْمٌ » ، تيمٌ : رجلٌ من بنى يَشْكر ، بارزَ أبا كِرامٍ فقتله ، وكان أحدَ الفرسان ، فأخذ أبو كِرامٍ يُقيم أمرَه ويعظِّم شأنه ، لأنّ ثناءه عليه وإكبارَه لمكانه راجعٌ إليه ، إذ صار قَتيلَه . واللام من « للّٰهِ تيمٌ » دخلت للتخصيص ، والتعجُّبُ دخلَ فى الكلام أيضاً بقوله « أىُّ رُمْحِ طِراد » . وعلى هذا قولُهم : للّٰهِ دَرُّه . وهذا التخصيص باللام يجرى مجرى الإضافة فى قولهم : بَيْتُ الله ، وكعبةُ الله ، وإن كانت الأشياء كلُّها لله . وقوله « أىُّ رُمْحِ طِرادِ لاقَى الحِمَامَ به » الضميرُ فى به لتَيْمٍ ، والمعنى : لاقَى الموتَ بتيمٍ أىُّ رُمْحِ مُطارَدةٍ ، وأىُّ نَصْلِ مُجالدةٍ ، كأنّه كان رُمحًا ونَصلًا ، ومِحَشَّ حربٍ . ويجوز أن يكون المراد : لاقَى الموتَ به أىُّ سلاحٍ وعُدّة ، وأىُّ مقاتلٍ وبطل . ولك أن ترفع « الحِمام » ، والمعنى : لاقى الموتُ بتيم أىَّ رمح وأىَّ رامح ، وأىَّ سيفٍ وأىَّ سائف . ودلَّ على صاحب السيف والرُّمح قوله « ومِحَشَّ حربٍ » فى البيت الثانى .

٢– ومِحَشَّ حَرْبٍ مُقْدِمٍ مُتعرِّضٍ لِلْمَوْتِ غيرِ مُعَرِّدٍ حَيّـادِ

يقالُ : حَشَشْتُ النارَ ، إذا جمعتَ الحطَبَ إليها وهيَّجْتَها . كأنّه جعله آلةً فى حَشِّ نار الحرب ، لأنّ المِفْعَل والمِفْعال للآلات . والتَّعريدُ : تَرْكُ القصدِ وسرعةُ الانهزام . والحَيّادُ : الذى يَحِيدُ عن موضع القتال كثيرًا . يريدُ أنّه

(١) أبو كرام ، كذا ضبط فى النسخ بكسر الكاف وتخفيف الراء . و « التيمى » نسبة إلى تيم . وعند التبريزى « أبو كَرّام التيمى » ، ثم قال : « ويروى : كِدام » .

يُقدِم ولا يُحجِم . وانعطف « ومِحَشّ حربٍ » على « ونَصْلِ جِلادِ » .

٣ — كاللَّيْثِ لا يَثْنِيهِ عن إقْدامِهِ خَوْفُ الرَّدَى وقَعاقِعُ الإيعادِ
٤ — مَذِلٌ بمُهْجَتِهِ إذا ما كَذَّبَتْ خَوْفَ المَنِيَّةِ نَجْدَةُ الأنْجادِ

يقول : هو فى بأسِهِ وإقدامِهِ ، مِثْلُ اللَّيث لا يَصرفه عن الوجهِ الذى يؤُمُّهُ ، والأمرِ الذى يهُمُّهُ ، ما يستشعِرُه الجَبَانُ من خوفِ الموت ، وقعقعة الوعيد . والقعقعةُ : صوتُ الجِلْدِ اليابس والبَكْرَةِ ؛ وتوسَّعُوا فيه فقالوا : هالَ فلاناً قعقعةُ الوعيدِ . وقالوا : تقعقعَتْ مَفاصِلُه أيضاً .

وقولُه : « مَذِلٌ بمهجته » كأنه يطُولُ تعرُّضُه للشَّدائد ، ويدومُ ابتذالُه لما يَجِبُ صَونُه من كرائم النَّفس ، فِعلَ مَن ضَجِرَ بمهجتِهِ فاستقتل ، واستطابَ الموتَ فتَعجَّلَ . ويقال : مَذِلَ بسرِّه ، إذا باح به . والمُهْجَةُ : خالِصَةُ النَّفس ، ومنه الأُمْهُجَانُ فى اللَّبَنِ(١) . وانتصبَ « خَوْفَ المَنِيَّةِ » على أنَّه مفعول له ، وإذا ما كَذَّبَتْ نَجْدَةُ الأنْجادِ ، ظرفٌ لقوله مَذِل ، والمعنى : إذا خَانت شِدَّةُ الأشِدَّاء ، ولم تفِ بما تَعِدُ شجاعَةُ الشُّجْعَان ، لاستفحال الشَّأن ، فإنَّ هذا الرَّجلَ كان يمذُلُ بمهجتِه ، فكأنَّه يميلُ إلى انقطاع العُمر . والأنجادُ : جمع النَّجِدُ . والنَّجْدةُ : البأسُ . ويقال : هو صادِقُ البأس ، كما قيل كاذب البأس .

٥ — سَاقَيْتُهُ كأسَ الرَّدَى بأسِنَّةٍ ذُلُقٍ مُؤَلَّلَةِ الشِّفَارِ حِدادِ
٦ — فطعَنْتُهُ والخَيْلُ فى رَهَجِ الوَغَى نَجْلاءَ تَنْضَحُ مِثْلَ لَوْنِ الجادِى

أخذ يقتصُّ كيف قتَلَ تيماً . والمُسَاقاة تكون من اثنين ، ولذلك قال :

(١) يقال . لبن أمهجان ، إذا سكنت رغوته وخاص ولم يخثر .

« بأسِنَّةٍ ذُلُقٍ » فجمعَ ، وإنما كان سِنانانِ من رُمْحَيْن . ويجوز أن يكونَ جَمَعَ لأنه أراد الزُّجَّ والسِّنانَ من كلٍّ واحدٍ منهما . والذُّلُق : المُحَدَّدةُ . وذَلْقُ كل شيء : حَدُّهُ ، ومنه قيل ذَلِيقُ اللِّسانِ . والمُؤَلَّلةُ أيضا : المحدَّدةُ . والشِّفارُ ، أصلُه أن يستعمل فى السِّكِّين العريض . وكما جَعَلَ هذا الشَّفرةَ لِلرُّمْحِ جعله غيرُه للسَّيف فقال :

ويَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِن أن تَضِيمَهُ إذا لم يَكُنْ عن شَفْرَةِ السَّيْفِ مَزْحَلُ[1]

وقوله « فَطَعَنتُهُ والخيلُ » الواو واو الحال ، والرَّهَجُ : الغبارُ . وقوله : « نجلاء » أراد طَعَنْتُهُ طَعنةً نَجْلاء أى واسعة ، تَنْضَحُ أى تَرُشُّ . والنَّضْحُ بالحاء غير معجمة يستعمل فيما رَقَّ ، وبالخاء معجمةً فيما غَلُظَ . وقوله « مثلَ لونِ الجادِى » يَعنِى به دمًا ، أى لَوْنُهُ مثلُ لونِ الزَّعفران .

٧– فكأنَّما كانَتْ يَدِى مِنْ حَتْفِهِ لما انْثَنَيْتُ لَهُ على مِيعادِ

٨– فَهَوَى وجائشُها يَفُورُ بِمُزْبِدٍ من جَوْفِهِ مُتَدارِكِ الإِزْبادِ[2]

قوله « فكأنما كانت يدى من حَتْفِهِ » يريدُ أنّه سقط لأوّلِ طعنةٍ ، فكانت نفسُه فيها ، لأنها كانت جائفةً نافذةً إلى المقتل ، فكأنّ بين حَيْنِهِ وبين يدِى لَمَّا أَمْلَتُها للطَّعن مَوْعِدَةً أُنجِزَت ، وخَدْلَفَةً اختُطِفَت . وقوله « فَهَوَى وجائشُها يَفُور » يريدُ : سَقَطَ وما يَجِيشُ من نَجِيعِهِ يَسِيلُ وقد عَلاه الزَّبَدُ لِكثرته وقُوّته ، فهو يمورُ ولا يَرْقَأُ ولا يهدأُ . ومعنَى « متدارِكِ الإزباد » أى متتابِعِه ، أى إزْبادُه لا ينقطِعُ .

---

(١) البيت لمعن بن أوس . ديوانه ٣٧ ليبسك وأمالى القالى (٣ : ٢١٩) .
(٢) التبريزى : « متتابع الإزباد » .

٢٢٥

وقال عَمرُو القَنا(١) :

١ – القائِلِينَ إذا هُمْ بالقَنا خَرَجُوا مِنْ غَمْرَةِ المَوْتِ فى حَوْمَاتِها عُودُوا

الحَوْماتُ : جمع حومَةٍ ، وهى فى الأصْل أكثر موضِعٍ فى البَحر ماء ، وكذلك فى الحوضِ ، فاستعارها لشدّة الحرب . وإنَّما يَصِفُ حِرصَهم على القِتال ، وأنّه لَا يلحقُهُم السآمَةُ فيه والمَلال ، فمتى خرجُوا من غَمْرةٍ مَنِيَّةٍ ، وحَومةٍ كريهة ، مطاردِينَ الأعداء ، دَعَتْهُم أنفُسُهم إلى أن يتفادَوْا : عُودُوا ، فلا شِفاءَ نِلْنا ، ولا بَوَاءَ من الأعداء أصَبْنا . وقوله « بالقَنا خَرَجُوا » أى خَرَجوا ومعهم القَنا . وعُودُوا فى مَوْضِعِ المفعول من القائلين ، وهو حكايةُ ما قالوا .

٢ – عَادُوا فعَادُوا كِرَامًا لا تنابِلَةً عنـد اللِّقاء ولا رُعْشٌ رَعادِيدُ

قوله « لا تنابِلَةٌ عند اللِّقاء » مثلُه قول الهُذَلى(٢) :

قد ظَلِلْتُ فيها مَعِى شُعْثٌ كأنهمُ إذا يُشَبُّ سَعِيرُ الحرب أرمَاحُ

يَقُولُ : عادوا لاتفاق آرائِهم واجتماع كلماتِهم ، وهم كِرامُ الموافقةِ ، شِدادُ المُناصبةِ ، لا يتضاءلون عند اللِّقاء ، ولا يتقاصرُون فى جَهدِ البلاء ، ولا يرتَعِشُون فى الدِّفاع ، ولا يتخاضعون أوانَ الامتناع . والتنابلةُ : جمع التِّنبالِ ، وهو القصيرُ . والرَّعاديد : جمع رِعدِيدٍ ، وهو الذى لايتماسكُ جُبْنا وضَعفَ قلب .

٣ – لا قَومَ أكرَمُ منهم يَوْمَ قالَ لَهُمْ مُحرِّضُ المَوْتِ عن أحْسابِكُمْ ذُودُوا

(١) فى هامش التيمورية : « وهو أحد الفوارس الخوارج مع قطرى » . وانظر خبر حربه مع المهلب وابنه حبيب فى تاريخ الطبرى ، فى حوادث سنة ٦٥ . وهو غير عمرو القنا الجاهلى الذى ذكره لقيط بن يعمر فى قوله :

كمالك بن قنان أو كصاحبه عمرو القنا يوم لاقى الحارثين معا

(٢) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٥٠) .

دخل تحتَ قوله « أكْرَمُ مِنهُمْ » كلُّ خصلةٍ محمودةٍ ، لأنه إذا تناهى كَرَمُهم إذا دَعا الدَّاعِي وقتَ التحريض : أنِ ادفعُوا عن أحسابِكم ، فقد حصَّلوا كُلَّ مَنقَبةٍ شريفة ، وطَلَعُوا على كلِّ ثَنِيَّةٍ من ثنايا المجدِ مُنيفة ، واكتَسَبُوا من الأُحدوثةِ الجميلة بما يَظهرُ من بَلائِهم ما يَقصُرُ عنهُ كلُّ أُكرومةٍ نبيهةٍ .

٢٢٦

وقال الفَرَزْدَق[1] :

١ — إنْ تُنْصِفُونا يَالَ مَرْوَانَ نَقْتَرِبْ إليْكُمْ وإلَّا فأْذَنُوا بِبِعَادِ

يقولُ : إنْ حملتُمونا[2] فى مجاورتِنا لَكُم على السَّوَاء ، وتركتُم[3] البَغْىَ عَلَيْنا والعَلاء ، اختلطنا بكم ، وطلبنا موافقتَكُمْ ، وإلا فاعلَمُوا أنَّ البِعادَ منكم هَمُّنا وهِمَّتُنا ؛ لأنه إذا لم يكن لنا صَبْرٌ على الاهتضام ، ولا طريقٌ إلى الانتقام ، فلا ثالثَ لها إلَّا الانتقال . ويقال أذِنْتُ بكذا ، إذا عَلِمتَ به فاستعددتَ له ؛ وآذَنَنِي فُلانٌ ؛ ومنه الأَذان بالصلاة ، والفِعل منه أَذَّنَ .

٢ — فإنَّ لَنا عَنْكُمْ مَزَاحًا ومَذْهَبًا بِعِيسٍ إلى رِيحِ الفَلاةِ صَوادِ[4]

قولُه « مَزَاحًا » هو من زاحَ يَزِيحُ ، إذا ذَهَبَ ؛ ومنه أَزَحْتُ العِلَّةَ . والكلامُ خارجٌ على أنَّه تفسيرُ البِعادِ الذى ذَكَره وبيانُهُ . يقولُ : إن سُمْتُمُونا خَسْفًا ، وأذقتُمونا فى وِلايتِكُمْ عَسْفًا ، فإنَّ لنا عنكم فى الأرضِ مَبْعَدًا ومُنتأًى ،

(١) شهرة الفرزدق تغنى عن ترجمته . ولا يكاد مرجع من مراجع التراجم الأدبية يخلو منها . وذكر ياقوت فى معجم البلدان (٣ : ٣٠٤) أن الأبيات للبرج بن خنزير التميمى وكان الحجاج قد ألزمه البعث إلى المهلب لقتال الأزارقة ، فهرب منه إلى الشام . وذكر المبرد فى الكامل ٢٩٠ أن الأبيات لمالك بن الريب المازنى ، قالها حين هرب من الحجاج .

(٢) فى الأصل : « إن حكمتمونا » ، صوابه فى م والتيمورية .

(٣) فى الأصل : « وتركتمونا » ، صوابه فى م والتمورية .

(٤) رواية ياقوت : « مزاحا ومزحلا » .

بإبلٍ بيضٍ كِرامٍ ، أَلِفَتِ المفاوِزَ ، فهي للتَّلَكُّؤِ[1] عنها نوازِعُ دونها ، عَوَاطِشُ إلى رِيحِها . والصَّوَادِي : جمع صادِيَةٍ ؛ والصَّدَى : العَطَش .

٣ — مُخَيسَةٍ بُزْلٍ تَخَايَلُ فى البُرَى سَـوَارٍ على طُولِ الفَلاةِ غَوَادِ

التَّخْيِيس : حَبْسُ الإبل على الكدِّ والعَمَل ؛ ومنه قول النابغة :

* وخَيِّسِ الجِنَّ إنّى قد أَذِنْتُ لَهُمْ[2] *

أى احبِسْهُم واستعمِلْهُم ، وإنما وَصَفَ العِيسَ لِيُرِىَ أَنَّهُ متمكِّنٌ من مُرادِهِ فى التَّباعُدِ ، مستظْهِرٌ فى العُدَّةِ للسَّفَرِ إنِ اضْطُرَّ إليه . وجعَلَها بُزْلًا لتكونَ متناهيةً فى القُوَّةِ . وقوله « تَخَايَلُ فى البُرَى » أى تختال فى سَيْرِها وهى مُبْرَاةٌ تُطِيقُ وَصْلَ السَّيْرِ بالسُّرَى ، على امتداد الشُّقَّةِ وطول الوِجهةِ . وقولُه « فى البُرَى » فى موضع النَّصب على الحال .

٤ — وفى الأرضِ عن ذى الجَوْرِ مَنْأًى ومَذهبٌ وكلُّ بلادٍ أُوطِنَتْ كبِلادى

أظهر فى الكلام طِيبَ نَفْسه على السَّفر ، وسُلُوَّه عن بلدِه وموطنِه ، فقال : فى الأرض الواسعة مُنْتَزَحٌ ومتوَجَّه عن الجائرين ، وكلُّ مكانٍ اتخذته[3] وطنًا كان كمَسْقَطِ رأسى ، ومقرِّ نَشْئِى ، إذ لا قَرابةَ بين الدِّيار وسكّانها ولا مُشاكَلَة ، وإنما يُختارُ منها ما كان إلى السلامةِ أقرب ، وللعِزِّ أجلَب ، ومن المهانةِ والذُّلِّ أبعد .

٥ — وماذا عسَى الحَجّاجُ يَبْلُغُ جُهْدُهُ إذا نحنُ خَلَّفْنا حَفِيرَ زِيادِ[4]

كان شَكْوُه من الحجّاج بن يوسف ، وتأذِّيه بسوء معاملتِه ، فأخذ يستهين

---

(١) م والتيمورية : « للتأخر » .
(٢) عجزه : * يبنون تدمر بالصفاح والعمد *
(٣) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « أعدته » .
(٤) جهده ، بالنصب فى الأصل ، وبالرفع فى م والتيمورية والتبريزى .

به . يقولُ : إذا خرجتُ من مَلَكَتِه ، وفارقتُ أرضِي[1] مملكتِه ، وتباعدتُ عن حَومةِ سُلطانِه ، ودارِ أمرِه ونَهْيِه ، وخلّفتُ ورائى حَفيرَ زياد بن أبيه ، الذى هو حدُّ عَمَلِه ، فماذا تَراهُ يَقْدِر عليه منّى ، أو يستطيعُ اختيارَه من إيذائى وقَصْدى . وعسى من أفعال المقاربة ، والفِعْلُ بعده يَصْحبه أنْ فى الكلام . وفى القرآن : ﴿ وعَسَى أنْ تَكرَهُوا شيئاً وهو خيرٌ لكم وعَسَى أنْ تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ﴾ . إلا أنه فى الشعر قد يشبه تكادُ ، وهو نظيرُه فى أنه من أفعال المقاربةِ ، فيُنزَعُ منه أنْ ، لأنّ الفِعْلَ بعد كاد يكون بغيرِ أنْ . ومثْله فى ذلك قول الآخر :

* عَسَى اللهُ يُغْنِى عن بِلادِ ابن قادرِ *

ويَعْنِى بحَفيرِ زيادٍ نَهَرًا كان احتفرَه زياد .

٦ — فبِاُسْتِ أبى الحجّاجِ واُسْتِ عجُوزِهِ عُتَيِّدَ بَهْمٍ تَرْتَعِى بِوِهادِ

قوله « بِاُسْتِ أبى الحجّاج » قال أبو زيد : القَصْدُ بمثل هذا القول أن يبيِّنَ أنه يتجاسرُ على ذِكر السَّوْءةِ منه . والباء من قوله « بِاُسْتِ » متعلقةٌ بمُضمَرٍ ، كأنه لَحِقَ بِاسْتِ والِدَيه كلُّ خِزْيةٍ وعارٍ ، ومَنقَصةٍ وشَنار . وقولُه « عُتَيِّدَ بَهْمٍ » انتصبَ على الشَّتْمِ والاختصاص ، والعامِلُ فيه فعل مضمرٌ ، كأنه قال : أعْنِى وأذْكُرُ . وجَعْلُه بهذا الاسم أشهرُ وأعرَفُ منه بالعَلَمِ له ، والاسم الذى سُمِّىَ به . وهذا هو الغرَضُ فى كلّ ما يُنْصَبُ على المدح أو الذّمّ ، ولذلك كان أبلَغَ من الصفات التابعةِ لموصوفِها فى المعنى ، إذ كانت الصِّفة تجىء لشرح الاسم وإزالة اللَّبْسِ عنه ، وبابُ المَدْح والذّمّ يجىء للتنويه والرّفع

(٣) أرضى جمع أرض مضافا إلى ما بعده ، وأصله أرضون . وهذا ما فى الأصل والتيمورية . وفى م : « أرض » .

أو التَّهجين والحَطّ . والعُتَيِّد : تصغير عَتُود ، وهو ما رَعَى وقَوِىَ من أولادِ الغَنَم . والبَهْم : صغارُ أولادِ الغنم . وقولُه « تَرْتَعِى » موضِعُه جَرٌّ على أنه صفةٌ لقولِه بَهْم . والوِهاد : ضِدُّ النِّجاد . والمعنى : أنّه فى القِلّة والخِسّة رئيسُ أشباهٍ له هذا صِفَتُهُم فيما يَنالونه من دُنْياهُم ، فهو فيهم كعَتُودٍ من بَهْمٍ ذلك صفتُها .

٧— فلولا بنو مَرْوانَ كانَ ابنُ يوسُفٍ كما كانَ عَبْدًا من عَبيدِ إيادِ [(١)]

يقولُ : لولا تقدُّم الحجّاج ببنى مروان ، واستعمالُهم إيّاه ، وجَذْبُهُم بِضَبْعِه ورَفْعُهُم خَسِيسَتَه ، وإيطاؤهم الناسَ عَقِبَهُ لكان حديثًا كما كان قديمًا ذليلًا مُهينًا حقيرًا ، قَمِيًّا بين أمثالٍ له من إيادٍ .

٢٢٧

وقال آخر :

١— قد عَلِمَ المستأخِرُونَ فى الوَهَلْ

٢— إذا السُّيُوف عُرِّيَتْ من الخِلَلْ

٣— أنَّ الفِرارَ لا يَزِيدُ فى الأجَلْ

يقال استأخَرَ بمعنى تأخّر ، كما يقال استقدَمَ بمعنى تقدَّم . والوَهَل : الفزَع .

---

(١) روى بعده التبريزى :

زَمانَ هو العبدُ المقِرُّ بذلّةٍ يُراوِح صِبْيانَ القُرَى ويُغادِى

وقال فى تفسيره : « قال ذلك لأن الحجاج كان معلما بالطائف . وفى ذلك يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر

رغيف له فلكة ما ترى وآخر كالقمر الأزهر »

ثم قال : « وكان الحجاج فى صغره يسمى كليباً » .

والخِلَلُ : بَطائنُ جُفونِ السَّيف ، والواحدة خِلَّة ، والمراد بها هاهنا الجُفون . وقولُه « أنّ الفِرار » سَدّ مسدّ مفعولَىْ عَلِمَ . يقولُ : بانَ وظهر للّذين يتأخّرون عن الدِّفاع ، ويتحامَوْنَ المِصَاع ، مستشعرين أنّ الإحجام يَقِيهم[1] ويُبْقِيهم ، وظانّينَ أنّ الفِرارَ من الزُّحُوف إذا انقُضِيَتِ السيوفُ يزيد فى أعمارهم — أنّ الحَذَرَ لا يُغْنى من القَدَر ، وأنّ الهرَب لا يزيدُ فى الأَجَل . وهذا كلامُ مَن ابتَذَلَ نفْسَه فسَلِمَ وصار يُعَيِّرُ من كان بخلافِه .

٢٢٨

وقال شِبْلٌ الفَزَارِىُّ[2]

وحارَبَهُ بنو أخيه فقَتَلَهُم

١ — أيا لَهفِى علَى مَنْ كُنْتُ أدْعُو ... فَيكْفِينِى وساعِدُهُ الشَّديدُ[3]

يَتَندّم على ما أُجرِى إليه وجرّهُ القدرُ فيهم وفيه ، ويتذمّمُ من نكايتِه فى ذويه ويتحزّنُ على ما فاتهُ من تَلافيه ، ويتلهّفُ من فِقدانهِ إيّاهم على فاقتِه إليهم ، فقال : يا حَسْرَتاهُ على مَن كانَ مَفْزَعِى فى النّوائب ، ومُعْتَمَدِى فى الشّدائد ، أستنصِرُهم فينصرونَنِى ، واستكفيهم فتحْصُلُ منهم كفايتى ، والقُوّةُ لهم وبهم ، والنُّصْرَةُ مجتلَبَةٌ من جهتهم . وقولُه « وساعِدُهُ » الواو واو الحال ، أى يَكْفِينِى بقُوّةٍ وشِدّةِ بأس .

٢ — وما عَنْ ذِلّةٍ غُلِبُوا ، ولـكنْ ... كذاكَ الأُسْدُ تَفْرِسُها الأُسُودُ

بَيّنَ أنهم لم يُؤْتَوْا مِن ضَعفٍ ، ولم ينكِبُوا عن وَهْن ، ولـكنّ الأشدّاء إذا

(١) فى الأصل : « يغنيهم » ، صوابه فى م والتيمورية .
(٢) كذا فى جميع النسخ . وعند التبريزى : « شبيل » بالتصغير .
(٣) التبريزى : « بساعده . أى يكفينى الشديد بساعده » .

تلاقَوْا متدافِعينَ ومتجاذبين ، فلا بُدَّ من حُصُولِ الغَلَبِ فى أحَدِ جانبَيهم ، واحتجانِ القهرِ لأقربِ طائفتيهم . على ذلك الأسودُ تَـكْسِرُها الأسُود . وقوله : « كذاك الأُسْدُ » الأُسْدُ مرتفِع بالابتداء ، وتَفْرِسُها الأسود فى موضع الخبر ، وكذاك فى موضع الحال ، والتقدير : ولـكنّ الأُسْدَ تَفرِسُهَا الأُسدُ كذلك ، أى أمثالاً لمَنْ قَتَلَتْ ، ويجوز أن يكون أشار بذلك إلى الغَلبِ ، لأنّ غلبُوا يَدُلّ عليه ، ويجوز أن يكون ذلك خبراً مقدّماً للأُسد ، وتَفْرِسُها فى موضع الحال والتقدير : ولـكن كأمثالهم الأُسدُ إذا فرسَتْها الأُسد ، ومثل هذا قول الآخر :

قَوْمُنَا بَعْضُهُمْ يُقَتِّلُ بَعْضًا لا يَفُلُّ الحديدَ إلاّ الحَدِيدُ

ومن الأمثال : « النَّبع يَقْرَعُ بعضُه بعضاً » .

٣ – فَلَوْلَا أنّهمْ سَبَقَتْ إليهمْ سوابِقُ نَبْلِنَا وهُمُ بَعِيدُ

٤ – لَحَاسَوْنَا حِيَاضَ المَوْتِ حَتَّى تطايَرَ من جوانِبِنَا شَرِيدُ

هذا الـكلام اعترافٌ منه بقُوّتِهم وغَنَائِهم فى الحرب واستقلالِهم ، فيقول : لولا أنّا رَشَقناهُم بالنَّبْلِ على بُعدِهم عنّا ، وقبلَ تمـكُّنهم منّا ، لـكان الإتيانُ عليهم متعذِّرًا ، والفَرَاغُ من مُنَاوشتهم متصعِّباً ، لما فيهم من الثَّباتِ فى الدِّفاع والصَّبرِ على الوِقَاع ، ولأنّهم كانوا يُساقُوننا المَوتَ من حِياضِهِ إلى أن يتفرّقَ عنّا ، ويذهبَ مِن جوانبنا كلُّ مختلِطٍ بنا ، يَأساً منّا ، ونفوراً من حالِنا ، لما يستشنِعُه من جهْدِ بلائنا ، ويُبْشِمُهُ من عَسَرِ لِزامنا ، لـكنّهم شُغلوا بما دَهِمَهُم من ذلك . وقوله « وهُمُ بعيد » بعيدٌ مِثْلُ الصَّدِيقِ والرَّسول ، فى أنّه يَقَعُ للواحدِ والجمع . وقولُه « شرِيدُ » يُرادُ به الـكثرة ، وإنْ كان لفظُهُ واحداً . وقوله : « لَحَاسَوْنَا حِياضَ الموتِ » فيه توسُّعٌ ، لأنّ المَعْنَى ما فى الحِياض .

٢٢٩

وقال قَطَرِىُّ بن الفُجَاءة(١) :

١ – ألا أيها الباغِى البِرازَ تقرَّبَنْ أساقِكَ بالمَوْتِ الذُّعافَ المُقشَّبا

يخاطِبُ من طَلَبَ مبارزتَهُ . ومعنى « تقرَّبَنْ » أقبِلْ وهَلُمَّ . وقوله « أساقِكَ بالموت الذُّعافَ » يجوز أن يكون معناه أساقِكَ بسبب الموتِ ، ويجوز أن يكون على القَلْب أراد أساقِكَ الموتَ بالذُّعافِ ، والمعنَى بأن أفعَلَ بك ما يقوم مَقامَ سَقْىِ الذُّعافَ . ويَدُلُّ على هذا الوَجْه قوله فيما بَعْد : « فما فى تساقِى المَوْتِ فى الحَرْبِ سُبَّةٌ » . والذُّعاف : سَمٌّ ساعةٍ ، ويقال طعامٌ مَذْعُوفٌ . ومَوْتٌ ذُعافٌ أى وَحِىٌّ . والمُقَشَّبُ : الذى قد خُلِط به أدويةٌ تقوِّيه وتهيِّجه . وأصل القَشْب : الخلط ، حتَّى قيل رَجُلٌ مُقشَّبٌ ، أى مخلوط الحسب باللُّؤْم .

٢ – فما فى تَساقِى المَوْتِ فى الحَرْبِ سُبَّةٌ على شَارِبِيهِ فاسْقِنِى منه واشْرَبا(٢)

التَّساقى : أن يَسقِىَ بعضُهم بعضًا ، ولا يصحّ الأمرُ منه لواحِدٍ ، ولا يتعدَّى إليه . ومن هذا الوجه خالَفَ تفاعَلَ فاعَلَ ، وإن لم يَكُنْ فعلُهما إلَّا من اثنين فصاعِدًا . ألا ترَى أنك تقولُ يا زيدُ ضارِبْ عَمْرًا ، ولا تقول تضارَبْهُ . والمرادُ بالكلام إظهار طِيب النَّفْس بالموت ، والتَّسلِّى عن الحياةِ ، وأنّه لا يَدخلُ العارُ على من شَرِبَ كأسَ الرَّدَى ، ولا مَنْقَصَةَ على مُتنازِعِيها(٣) ، فهاتِها وخُذْها .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٠ ص ١٣٦ . وقد ضبط فى النسخ هنا بسكون الطاء والصواب فتحها كما سبق .

(٢) التيمورية : « على ساقييه » وفى هامشها إشارة إلى الرواية الأخرى .

(٣) كذا فى م والتيمورية ، وفى الأصل : « منازعيها » .

٢٣٠

وقال درّاجٌ حين طُعِن :

١ – شُدِّى عَلَىَّ العَصْبَ أُمَّ كَهْمَسْ

٢ – ولا تَهُــلْكِ أَذْرُعٌ وأَرْؤُسْ

٣ – مُقَطَّمــاتٌ ورِقَابٌ خُنَّسْ

٤ – فإنَّما نحن غَـدَاةَ الأَنْحُسْ

٥ – هِيمٌ بِهِيمٍ طُلِيَتْ تَمَرَّسْ

يقوِّى قلبها على أَسْوِ جراحِه ، وإحكام شدِّ عصائبِه ، ويقولُ : لا يَهُولَنَّكِ ما تَرَيْنَ من أذرُعٍ مُفصَّلةٍ ، وأرؤسٍ مقطَّمةٍ ، ورقابٍ مُقَصَّرَةٍ ، فإن المَوْتَ يأتى لحينِه وأوانِه ، وقَدْرِه وميقاتِه ، ولا يقرِّبُه شِدَّةُ الجِلادِ ، ولا فَظَاعَةُ الجِراحِ ، واعْلَمِى أنَّ الذى أدَّانا إلى ما تشاهدينَهُ تَناهِى العداواتِ والضَّغائن ، وانطواء الصدور على الحزَازَاتِ والسَّخَائم ، وأنَّ كُلًّا منّا كان يَكظِمُ غيظَهُ ، ويكتُمُ حِقدَهُ ، انتظارًا لِعُقَبِ الأيّام ، وفُرَصِ الإمهال ، فلمّا جَمَعَنا القَدَرُ لغداةِ الأنحُس ، كُنّا كإبِلٍ جَرْبَى طُلِيَتْ بالهِناء لاقتْ مِثْلَها فتحاكَّتْ متلذِّذَةً ، وتدافعت متشفِّية . الهِيمُ : الإبلُ العِطاش ، وإذا كانت جَرْبَى قد عَطِشَتْ وطُلِيَتْ كان حُمّاها أزيدَ ، وكَرْبُها أفظعَ ، وتحكُّكُها أشدّ . والخُنَّس : جمع خانس ، كشاهدٍ وشُهَّدٍ . والخُنُوس : الانقباض والانخفاض . والباء من قوله « بِهِيمٍ » يتعلّقُ بتمَرَّس ، وتمرَّس صِفَةُ الهيم الأوَّل ، وطُلِيت صفةٌ للثّانى .

٢٣١

وقال الأَرْقَطُ بن دِعْبِلٍ (١) بن كلبٍ العنبريُّ :

١ — إنِّى ونَجْمًا يومَ أَبْرَقِ مازنٍ على كَثْرَةِ الأَيْدِى لمُؤتسيانِ (٢)

لَقِيَ هذا الرَّجلُ وابنُه قومًا لُصُوصًا فقاتَلاهم وظَفِرا بهم ، فأخذ يقتصُّ الحال . ونَجْمٌ : اسمُ ابنِه . يقول : إنّى وابنى نَجْمًا فى يومِ الالتقاء مع المتلصِّصة بأَبْرَقِ مازِنٍ — والأَبْرَق مكانٌ فيه حجارةٌ سُودٌ و بيضٌ ، ومنه جَبَلٌ أَبْرَقُ ، إذا كان طاقاتُه ذاتَ لونَيْنِ سَوادٍ و بَياضٍ — على كثرتِهم وقِلّتِنا ، لمؤتَسِيَان ، أى يُوَاسِى كلٌّ منا صاحبَهُ على أمرِه ، ويساعِدُه على مِراسِه . وقوله « على كثرة الأيدى » فى موضع الحال .

٢ — يَلُوذُ أَمامِى لَوْذَةً بلِبانِه وتُرْهِبُ عَنّا نَبْعَةٌ ويَمَانِ

الضمير فى قوله يَلُوذُ لنَجْمٍ ابْنِه ، والباء فى بلبانِه يتعلّق بيلوذُ ، ولا يجوز أن يتعلّق بقولِه لَوْذَةً ، لأن الفعل والمصدر إذا اجتمعا فالفِعل بالعَمَلِ أولَى . والهاء ضميرُ الفَرَس ، ولم يَجْرِ ذِكْرُه ، ولكن المرادَ مفهومٌ ، وكان الأرقطُ فارسًا على مايدُلُّ الكلامُ عليه ، والابنُ راجِلًا . وكان لِياذُه من حرِّ الوِقاع فى الوقت بعدَ الوقتِ بأبيه ، على عادة مُزاوِلِى الحروب فى تَسانُدِ الرَّجّالة إلى الفُرسان ، ثم قال « وتُرْهِبُ عنّا نَبْعَةٌ ويَمَانِ » تنبيها على عُدَّتِهما واستظهارِهما بسلاحهما . ويَعنِى بالنَّبْعةِ قوسا .

٣ — ونَغْشَى فنُغْشَى ثمّ نُرْمَى فنَرْتَمِى ونَضْرِبُ ضَرْبًا ليس فيه تَوانِ

يقول : نَحْمِلُ عليهم فيحملون علينا ، ثم يَرْمُوننا من بَعْدُ فنرميهم . كأنهم

---

(١) كذا فى جميع النسخ . وعند التبريزى : « رعبل » .

(٢) أنشده ياقوت هذا البيت فى (أبرق مازن) مسبوقا بقوله : « وقال الأرقط » .

طارَدُوا أوّلًا ثم ناضلوا وأخَّرُوا الجِلَاد . فقال : ونَضْرِبُ ضَرْبًا لا فتُورَ فيه ولا تقصير ، وهذا كما قال الآخر[1] :

* عَنًّا طِعَانٌ وضَرْبٌ غيرُ تَذْبِيبِ[2] *

فالتَّذبيبُ المنفِيُّ كالتَّوانى .

٢٣٢

وقال وَدّاكُ بن نُمَيْلٍ المازِنىُّ[3] :

١ — نَفْسِى فِدَاءٌ لبنى مازِنٍ   من شُمُسٍ فى الحَرْبِ أبطالِ

يقول : أَفْدِى من كلِّ سوءٍ بنفسى بنى مازِنٍ ، من فُرسانٍ يَنفِرون من الضَّيْم ، ويَشْمُسون إذا التقَوْا مع الأعداء فى الحرب ، شِمَاسًا لا يُخَصِّلهُم[4] على طَمَعٍ مُتِيح ، ولا يؤدِّيهم إلى يَأْسٍ مُرِيح ، بل يتردَّدون فى الجِذاب ، فلا يزالون معهم على مِرَاسِ إتعابٍ لا ينقطع ، ولِزام شَرٍّ لا يُقْلِع ، وهكذا يكونُ شُمُوس الخيل فى الإباء والانقياد . وقال لقيطٌ[5] فبيَّنَ المعنى وأوضحه :

جَرَّتْ لِمَا بَيْنَنا حَبْلَ الشَّمُوسِ فلا   يأسًا مُبِينًا نَرَى منها ولا طَمَعَا

وفى طريقة بيت وَدّاكٍ قولُ عبد الرحمن بن حسّان :

وإنّي من قومٍ كِرامٍ يَزِيدُهم   شِمَاسًا وصَبْرًا شِدَّةُ الحَدَثانِ

---

(١) هو سلامة بن جندل . المفضليات (١ : ١٢٠) .

(٢) صدره : * همت معد بنا هما فنهنهها *

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٧ ص ١٢٧ . وكذا تكررت « نميل » هنا بالنون . وانظر ما سبق . وعند التبريزى : « ثميل » بالثاء .

(٤) هذا ضبط م . وضبط فى الأصل : « يحصلهم » بفتح الحاء وتشديد الصاد ، وكلاهما مما لم يرد فى المعاجم .

(٥) لقيط بن يعمر الإيادى . وقصيدته أول مختارات ابن الشجرى .

٢ — هِيمٌ إلى الموْتِ إذا خُيِّروا ... بَيْنَ تِبَـاعاتٍ وتَقْتالِ

الهِيمُ : العِطاش ، والتِّباعةُ والتَّبِعَةُ بمعنًى . يقول : إذا خُـيِّرَ بنو مازنٍ فيما يزاولُونه بين الصـبر على القِتال و بين الرِّضا فيما يَلحَقُهم معه تَبِعاتُ العارِ ، وُجِدُوا يُؤْثِرُونَ فوْتَ الرُّوح على التِزام الهَضم ، إيثارَ العطاشانِ الماء .

٣ — حَمَوْا حِماهُمْ وسَمَا بَيْنَهُمْ ... في باذِخاتِ الشَّرَفِ العالى

يقول : مَنَعوا حِماهُم ممن يُرِيدُ دُخولَه ، ويرومُ إباحَتَهُ ، فَسَـلِمَ على مَرِّ الأيّام ، وصار بينَهم من يَفَاعِ الشرف العالى فى أعلى مَنزِلةٍ ، فلا يَرْتَقِي إليـه هِمّةُ حاسد ، ولا ينالُه أُمْنِيَّةُ مُنازِعٍ . والباذِخ : الجَبَـل الطويل ؛ ومنه البَذَخ : الـكِبْرُ .

٢٣٣

وقال سَوّارٌ[(١)] :

١ أَجَنُوبُ إنَّكِ لو رأيْتِ فَوارِسى ... بالسَّيفِ حِينَ تبادَرَ الأشرارُ

٢ — سَعَةَ الطَّرِيقِ مَخافةً أن يُؤْسَرُوا ... والخَيْــلُ تَتبعُهُمْ وهُمْ فُرّارُ

هذا الكلام تلهُّف وتحسُّر ، وإخبار بحُسْنِ بَلائهِ و بلاء فُرسانهِ فيما مُنُوا به وتحمُّـدٌ . فيقول : لو شاهَدْتِ فُرسانى يا جَنُوبُ بالسَّيف — وهو شاطئُ البَحْر — حين تَسابق شِرارُ الرِّجال وجُبناؤهم إلى مُتَّسَـع الطريق ، خارجِينَ من مَنافذِ المَضِيق ، خوفاً من الإسارِ ، هائمين على وجوهِهم ، والخيلُ فى طَلَبِهم وهم يستغيثون بى عنـد احمِرارِ البَاسِ ، واشتدادِ المِراس ، على عادتهم مَعِى فى الـكرائهِ ، لرأيْتِ أمراً مُنكَراً . حَذَفَ جواب الأمر ، وإبهامُ الحال فى مثل

(١) سبقت ترجمة سوار بن المضرب فى الحماسة ١٨ ص ١٣٠ .

هــذا الكلام أبلغُ من بيانِها ، وقد مضَى القولُ فى مثله ، فيما تقــدَّم . وسَمَةَ الطريق : مفعولُ تبادَرَ ، ومَخَافةَ انتصَبَ على أنه مفعولٌ له ، وأنْ يُؤْسَرُوا مفعولٌ من المَخافةِ .

٣ — يَدْعُونَ سَوَّارًا إذا احْمرَّ القنَا   ولِـكلِّ يومِ كَرِيهـةٍ سَوَّارِ

احمرارُ القنا إنَّما يكونُ من الدَّمِ السَّائل عليه ، لِـكثرةِ الطَّعْنِ . وقد قيلَ : موتٌ أحْمرُ ، ومَنِيَّةٌ حمراء ، يُرادُ الشِّدَّةُ ، حتَّى قيلَ سَنةٌ حمراء ، وقالوا : « الحُسْنُ أحْمرُ » أى يُتجشَّمُ فى طَلَبِ الجمال الشَّدائدُ . وقوله « ولِـكلِّ يومِ كريهةٍ سَوَّارُ » أراد أنْ يُبيِّنَ أنَّ ذلك دأْبُهم عند الـكريهةِ فى دُعائِى ودأْبى فى الإجابةِ ، وأنَّه لم يَكُنْ بِدْعًا منهم ومِنِّى ولا نُـكْرا .

٢٣٤

وقالَ أبُو حَزَابَة[١] [التميمىُّ] :

١ — مَنْ كانَ أحْجَمَ أوخامَتْ حقيقتُه   عِنْدَ الحِفَاظِ فلم يُقْدِمْ على القُحَمِ

٢ — فعُقْبُبَةُ بْنُ زُهَيْرٍ يومَ نازَلَهُ   جَمْعٌ مِنَ التُّرْكِ لم يُحْجِمْ ولم يَخِمِ

هذا الـكلام يجرى مجرى التعريض لما يَشْتمل عليه من التعيير . وقولُه « فعُقْبُبَةُ » مبتدأٌ وخبرُه لم يُحْجِمْ . فيقول : من كان كَفَّ فى اللِّقاء عن الإقدام وقتَ الحاجة ، وأغْنَى نفسَهُ من الاقتحام أوانَ المحافظة ، راضيًا بالقُصُورِ والتقصير ، والانخزال والفتور ، أوْ سقطتْ هِمَّتُه ، وتَخَتَّرَتْ حقيقتُه[٢] ، فلم تبعَثْهُ أنفَةٌ ، ولم

(١) اسمه الوليد بن حنيفة ، أحد بنى ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . شاعر من شعراء الدولة الأموية بدوى ، حضر وسكن البصرة ثم اكتتب فى الديوان ، وضرب عليه البعث إلى سجستان فـكان بها مدة ، وعاد إلى البصرة ، وخرج مع ابن الأشعث لما خرج على عبد الملك ، قال أبو الفرج : وأظنه قتل معه . الأغانى (١٩ : ١٥٢) . التبريزى : « وقال أخو حزابة ، أو بن حزابة » . والتكملة بعده من التيمورية .

(٢) التخثر : الفتر والاسترخاء . فى الأصل : « وتحيرت » ، صوابه فى م والتيمورية .

يهيِّجْه امتعاضٌ وأبْيَةٌ ، فعُقبةُ بن زهيرٍ يومَ منازَلته للأتراك لم يتوقّف فى المُدافعة ، ولم يتلبَّثْ فيها دون أبعدِ الغاية . والإحجامُ : ضِدُّ الإقدام . وقد مضى القولُ فى موضوعه . وحقيقةُ الرّجُل : ما يَحِقُّ عليه الدَّفعُ عنه من ذَويهِ وحسبه ، كما أنّ حقيقةَ الأمر ما يُتيَقَّنُ من وُجوبِه . واستعارةُ النَّومِ فيها حَسَنٌ ، فهو كما يُقال نامَ الثَّوبُ إذا أخلَق . وقُحَمُ الأمور والطُّرُق : ماصعُبَ منها . وقوله «لم يَخِمْ» يقال خام عن قِرْنِه ، إذا نَكَلَ ونَكَصَ على عقبه . ويقالُ أيضا : خامَ فى مكيدَتِه يخيمُ ، إذا لم يَظفرْ فيها بخَيرٍ . وقوله « فعُقْبَةُ » جوابُ من كان أحْجَمَ .

٣ — مُشَمِّرٌ للمنايا عَنْ شَوَاهُ إذا ما الوَغْدُ أسْبَلَ ثَوْبَيْهِ على القَدَمِ

يقول : كَشَفَ فى المُجاهَدةِ عن ساقِه ، وتَشمَّرَ للبَلاء عند سِياقِه ، إذا الدَّنِئُ من الرِّجال أرخَى ذَيلَه ، فلا يَتشمَّرُ لتَلَقّى المُهِمّة ، وتغشَّى غِطاءَ عَجْزِه ، فلا ينبعثُ لِدفعِ المُلِمَّة ، ولا يتحرَّكُ لِمَنْعِ المَظلَمة . والشَّوَى : الأطراف . والوَغْد من قولك : وَغَدْتُ القومَ ، إذا خدمتَهم . وقوله « إذا ما الوَغْد » ما زائدة ، وإذا ظَرْفٌ لما دَلّ عليه قوله « مُشمِّرٌ » وهو جوابه . وفى خِلاف قولِه قولُ الآخر[1] :

وكُنْتُ إذا جارِى دعَا لِمَضُوفَةٍ أُشَمِّرُ حتى يَنْصُفَ السّاقَ مِئْزَرِى

٤ — خاضَ الرَّدَى فى العِدَى قِدْمًا بمُنْصُلِهِ والخَيْلُ تَعْلُكُ ثِنْىَ المَوْتِ باللُّجُمِ

يقول : دَخَل قديمًا فى مكاشَفَةِ أعدائِه الهلاكَ بسيفه ، لا يَنْقَبِضُ ولا يُحجِمِ ، والخيلُ عَواضٌ على لُجُمِها ، تعلُكُها فى أثناء الموت . والعَلْكُ : المَضغ ، ويقال : فى لِسانه عَوْلَكٌ ، أى يَمْضَغُه[2] . فعلى هذا يكون « ثِنَى المَوْتِ »

(١) هو أبو جندب الهذلى . اللسان (نصف) ، وقد سبق فى ص ٢٩ .

(٢) فى الأصل « مضغة » تحريف ، صوابه فى التيمورية . وفى القاموس أن العولك لجلجة فى اللسان . وفى مقاييس اللغة : « ويقولون : فى لسانه عولك ، إذا كان يمضغه ويعلكه » .

ظرفا، كما يقال جعلتهُ ثِنَى كذا. ويجوز أن يكون مفعولًا من تَعْلُكُ. ويقال: ثَنَيْتُ الشىء ثَنْيا، ثم يُسمَّى المَثْنِىُّ ثِنْيا. ويكونُ «باللُّجُم» فى موضع الحال، كأنه قال: والخيل تَمْضَغ مُثْنَى الموتِ، أى مضاعَفه، مُلْجَمة. وهذا حسَنٌ. وبعضهم روَى «والخَيْلُ تَعْلُكُ ثِنَّ الموت»، والثِّنُّ: حُطامُ اليَبَسِ، والمختار ما قدَّمْتُه. وفى هذه الطَّريقة قول الآخر:

خُضْنَا إليـهِ الموتَ فى أيمانِنا ... حُمْرُ الشِّفَارِ جُفُونُهُنَّ الأرؤُسُ

٥ — وهُمْ مِئُونَ أُلوفًا وَهْوَ فى نفَرٍ ... شُمِّ العَرَانِينِ ضَرَّابِينَ لِلْبُهَمِ

يقولُ: وَاقعَ الأعداء ونَاجزَهم، على كثرة عددهم، وهو فى رِجالٍ كِرامٍ يَسْتَنْكِفُونَ من تَقبُّل العار، قتَّالِينَ لبُهَم الرِّجال. وقوله «مِئُون» جمع مائة وهى من الأسماء المنقوصة إذْ كانت لامُها محذوفةً، بدلالة قولهم: أمْأَيْتُ، ولذلك جُمِع على السَّلامة. وإنما أشار إلى جِنْس التُّرْك كُلِّهِ فعدَّهُم أعداءه، لا أنَّه حَارَبَ مِئِينَ أُلوفًا منهم. والبُهَمُ: جمع بُهْمَةٍ، وهم الشُّجعان الذين لا يُدْرَى كيف يُؤْتَونَ، لاستِبهامِ أحوالِهِم.

٢٣٥

وقال أَوْسُ بن ثَعْلَبَة[١]:

١ — جَذَّامُ حَبْلِ الهَوَى مَاضٍ إذا جَعَلَتْ ... هَوَاجِسُ الهَمِّ بَعْدَ النَّوْمِ تَعْتَكِرُ

يَصِفُه بالنَّفاذ فى الأمور، واجتماع الرَّأى فى الخطوب، والمُضِىّ فيما يَعرِضُ،

(١) هو أوس بن ثعلبة بن زفر بن وديعة بن مالك بن تيم الله بن ثعلبة بن عكابة. وكان سيد قومه وأحد فرسان بكر بن وائل بخراسان، وولى خراسان أيام الدولة الأموية. وهو صاحب «قصر أوس»، وفيه يقول ابن أبى عيينة:

فيا حسن ذاك القصر قصراً ونزهة ... ويا فيح سهل غير وعر ولا ضنك
كأن قصور القوم ينظرن حوله ... الى ملك موف على قنة الملك =

وتَرْكِ التّباطؤ عمّا يعنّ ويحدُث ، وأنّهُ لا يمنعه من ركوبِ الأسفار وتجشّم المشاقّ ما يدفَعُ فى صدرِ العزمِ ، ويَثْنِي من حَدّ القصْدِ ، بل يقطَع علائق الهوى ، ويُبْعِدُ عن نفسِه عوائقَ المُنَى ، فيَمضِى قدُمًا إذا أقْبلَتْ عوارِضُ الهموم باللّيل ، تتردّدُ بين القلب والخاطر ، وتجولُ بين الفِعْل والفاعل . والجَذْمُ : القَطعُ . وحَبْلُ الهوى : الوُصلَةُ التى بينهُ و بينَ النّفْس . وعَكَرَ واعتكَرَ : عطَفَ . [والهاجس : ما وَقعَ فى خلَدِك . وأنشد :

فطأطأْتُ النّعامةَ من قريبٍ وقد وقَرتُ هاجسَها بهجسى [1]

النّعامة : اسم فرسه [2]] .

٢ — وَمَا تجَهّمَنِى لَيْلٌ ولا بَلَدٌ ولا تَكَاءدَنِى عن حَاجَتِى سَفَرُ

قوله « وما تجهّمَنِى لَيْلٌ » فيه قَلْبٌ ؛ لأنّ المعنى : ما تجَهّمْتُ ليلًا ولا بلدًا . ويقال تجَهّمْتُ فُلَانًا ولِفُلَانٍ ، إذا استقبلته بوَجهٍ كريهٍ . وأسَدٌ جَهْمُ الوَجهِ . فيقول : لا أتكرّهُ زمنًا ، ولا استصعِبُ مَرْكَبًا ، ولا استبعِدُ بَلدًا إذا سَنَحَ أمرٌ أوجبَ نُهوضًا ، أو سفرٌ اقتضى لِبُعدِه صبرًا جميلًا . و يقالُ تكاءدَنِي كذا ، وتَصَعّدَنِي كذا ، إذا شَقّ عليك .

٢٣٦

وقال آخر [3] :

١ — أقولُ وسَيْفِي فى مَفَارِقِ أغْلبٍ وقَدْ خَرّ كالجِذْعِ السّحُوقِ المُشذّبِ

مفعول « أقول » أول البيت الذى بعدَه ، وهو قولُه « بكَ الوَجْبةُ » .

= وهو زوج أم الظباء السدوسية ، التى اشترت بشار بن برد بدينارين ثم أعتقته . معجم البلدان (٧ : ٩٩) والأغانى (٣ : ٢١) .

(١) أنشده فى اللسان (هجس) .

(٢) التكملة من م والتيمورية .

(٣) التبريزى : « وقال آخر وقد أوقعت مازن بقوم من بنى عجل فقتلوا منهم ، فعدت بنو عجل على جار لبنى مازن فقتلوه » .

وقال « فى مَفارِقِ » لأنَّهُ جمعَهُ على ما حوْلَه ، كما يقال بَعِيرٌ ضَخْمُ العَثانِين ، كأنَّهُ جَعَلَ كُلَّ قِطعةٍ ممّا يلِي المَفْرِقَ مفرِقًا فجمَعه . ومعنى خرَّ سقط ، ومصدرُه الخرور . والسَّحُوق من النَّخل والحُمُر : الطويل . يقال : أتانٌ سَحُوقٌ ، ونخلةٌ سَحوق . يقول : لمّا تمكّنْتُ من أغلبَ قنعْته بسَيْفى فسقط ، فقلتُ متشفِّيا ومُستهيِنًا : أناختِ الوَجْبةُ بِكَ لا بمن كنْتَ تطلُبه لها[1] ، وهذا كما يقال : لليدين وللفمِ . وقوله « كالجِذْع » فى موضع الحال ، والعامل فيه خرَّ ، وتشبيهُهُ إيّاهُ بالجِذْع من قديم التّشبيه ، وفى القرآن : ﴿ كأنّهُمْ أعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَة[2] ﴾ . وجعَلَهُ مُشَذَّبًا ليكون طوله أظهرَ .

٢– بِكَ الوَجْبةُ العُظْمى أناختْ ولم تُنِخْ   بِشُعْبَةَ فابعَدْ من صَرِيعٍ مُلحَّبِ

أراد بالوَجبةِ العُظمى المنِيَّةَ . وفى القرآن : ﴿ فإذا وجبَتْ جُنُوبُها ﴾ . أى نَزَل بك المكروه الأعظم ، والبلاء الأفظع ، لا بِشُعْبة . كأنَّ هذا المصروعَ كان يَتوعَّدُ شُعْبةَ بالقتلِ ، أو يريدُه له ويتمنّاه ، فما ائتمرَه[3] به أصابه وحَقَّ عليه . وقوله « فابعد » دُعاءٌ عليه على طريق الاستهانةِ بما حَلَّ بهِ . والمُلحَّبُ : المذلَّلُ ، ومنه طريقٌ لاحِبٌ أى واضحٌ . ويجوز أن يكون معنى مُلحَّبٌ مجروحٌ مُتقطِّع . يقالُ لحبْتُ اللّحم إذا قطعْتَهُ طولا .

٣– سقاهُ الرَّدى سَيْفٌ إذا سُلَّ أومضَتْ   إليه ثنايا المَوْتِ من كُلِّ مَرْقَبِ

هذا مثل قول تأبّط شرًّا :

إذا هزّهُ فى عظمِ قِرْنٍ تهلّلتْ   نواجِذُ أفْواهِ المَنايا الضَّواحِكِ[4]

وإن كان هذا أبْلغ ؛ لأنه جَعَل ضَحِكَ الموتِ تألُّقَ السَّيْفِ إذا جُرِّدَ من

---

(١) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « تظالمه لها » .
(٢) الآية ٧ من سورة الحاقة . وفى الآية ٢٠ من سورة القمر : « كأنهم أعجاز نخل منقعر » .
(٣) ائتمر به : هم به .
(٤) البيت ٨ من الحماسية ١٣ .

الغِمدِ سُرُوراً به ، وذلك جَعلَهُ إلى المضروب به ثِقَةً بكونهِ له . ويقالُ أَوْمَضَ ووَمَضَ ، إذا لَمعَ . ورواه بعضهم : « أَوْمَضَتْ إليــه مَنَايَا المَوْتِ » ، وهو تصحيف .

٤ — وَيَا عِجْلُ عِجْلَ القاتلينَ بِذَحْلِهِمْ غَرِيباً لَدَيْنَا من قبائلِ يَحْصُبِ[(١)]

٥ — جَنَيْتُمْ وجُرْتُمْ إذْ أخذْتُم بحقِّكُمْ زَعَمْتُمْ غريباً مُرْمِلاً غيرَ مُذْنبِ[(٢)]

قوله « عِجْلَ القاتلين » هو إضافةُ البعضِ إلى الكلِّ ، وكرّره توكيداً . ولكَ أن تضُمَّ عِجْلَ الأوّل وتنصِبَ الثانى على البدلِ ، أو على عَطفِ البيَان . وبَنُو عِجْلٍ كانوا مَوْتُورِينَ بما ارتكب منهم قبيلةُ الشّاعر ، وهم بَنُو مازنٍ ، فلَمْ يطلبُوا ذَحلَهُمْ من وجهِهِ ، ولا أدرَكوا الثّأر من كاسِبِه ، لكنهم أخذوا غريباً كان جاوَرَ بنى مازن فقتلوه ، فقال هذا الشّاعر فى مخاطبتهم معيِّراً ، وهازئاً متهكِّماً : يا عِجْلَ القاتلين بوترِهم غريباً كان عندنا من بنى يَحْصُبَ ، لم يَسْعَ فى اكتساب الثّأر الذى تدّعونه ، ولا أعْمَلَ فيــه يدَهُ وسِنانه حتّى جَنَيْتُم وعدَلْتُم عن طريق الرّشاد ، إذ أخذتم بحقكم — على زُعمِكُم — غيرِ واتِرِكم . فقوله « إذ أخذتُم بحقكم زَعَمْتُم » يجوز أن يُضَعَّف بالزُّعْم دعواهُمُ الحقَّ المشارَ إليه ، ويجوز أن يضعِّفَ ما توَهّموه من دَرْكِ الثّأر بما فعلوه . ويجوز أن يضعِّف الأمرينِ جميعاً ، وهو الأشبه . فإن قيل : أين مفعول زعمتم ، وكيف ساغ حذفهما ؟ قلت : الحذفُ هنا كالحذفِ فى قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونْ ﴾ . وكالحذفِ فى قول الكُميت :

بأىِّ كتابٍ أمْ بأيّةِ سُنَّةٍ ترى حُبَّهُمْ عاراً عليك وتَحْسِبُ[(٣)] .

---

(١) التبريزى : « فيا عجل » .

(٢) التبريزى : « غريبا زعمتم » .

(٣) كذا فى جميع النسخ ، وعند التبريزى كذلك . ومشهور الرواية كما فى الهاشميات ٣٨ : « عاراً على » .

فكما حُذِفَ مفعولا تَحْسِبُ فى بيت الكُمَيْت ، ومفعولا تزعمون فى الآية، كذلك حذف مفعولا زعمتم من هـذا البيت ، ويكون التقدير : إذْ أخذتم بحقِّكم — زَعَمْتُمُوه مأخوذاً — رجلًا هـذا صِفَتُه ، وبحقِّكم زعمتموه ثانيا ، فحَذَفَ ذِكْرَ الحقّ لِمَا تقدَّمَ من ذِكْرِه ، ولمَّا حذف المفعول الأوّل جاز حذْفُ الثانى ، وهذا كما يُحذَف المبتدأ والخبر من مسألة الكِتاب[١] ، وهى متى ظننت أو قُلْتَ زيْدًا مُنْطَلِقاً . إذا أعملتَ الفِعلَ الأوّلَ ساغ ذلك ، لأنّ الفعل الثانى نقيضُهما ، وقد حصلَ فى الكلام ذِكْرُهما . فاعلَمْه . والمُرْمِل : الفقير .

٦ — وما قَتْلُ جارٍ غائبٍ عن نَصيرِه   لطالبِ أوتارٍ بمَسْلَكِ مَطْلَبِ

٧ — فلَمْ تدْرِكوا ذَحْلًا ولم تَذْهَبوا بما   فعلتُمْ بنى عِجْلٍ إلى وجْهِ مَذْهَبِ[٢]

يقول : الوِتْرُ مقيمٌ فى موضعِه ثابتٌ على حاله ، لم تزِيلُوه ولم تُظْعِنوه عن مَحلّه ، لأنّ قَتْلَ جارٍ للواتر غائبٍ عن نُصّارِه ، بعيدٍ عن أرضه ودياره ، لطالبِ الثأر ليس بطريقٍ يؤدّيه إلى نيلِ مُرادٍ ، ولا بسببٍ يوصِلُه إلى اشتفاء من داء ، فأنتم لم تُصيبوا نُجْحًا فى فعلكم ، ولا سَلِمتم فيما أتيتم من عار يَلحقكم .

٨ — ولكنّكم خِفْتُم أسِنَّةَ مازنٍ   فنَكَّبْتُمُ عنها إلى غَيْرِ مَنْكِبِ

٩ — وقد ذُقْتُمونا مَرّةً بعد مَرّةٍ   وعِلْمُ بَيانِ المَرْءِ عِنْدَ المُجرِّبِ

يقال نَكَّبَ بمعنى تنكّب ، ومثله قدَّم بمعنى تَقَدَّم ، ومعناه انحرفَ . ويقال هو أنكَبُ عن الحق ومِنْكَابٌ عنه ، إذا جانبَه فيصيرُ منه فى شِقّ . يقول : هِبتمُ أعداءكم عند ما هَمَمتم به من طَلَب وِتْرِكم ، واستشعرتم منهم جُبنًا ، فحذِرْتُموهم ، ثم عَدَلتم عنهم إلى غيرِ مَعدِلٍ فقَبُحَتْ صورتُكم ، واخترتمْ ذلك

(١) كتاب سيبويه (١ : ٤١) . ونصه : « وقد يجوز ضربت وضربنى زيدا ، لأن بعضهم قد يقول : متى رأيت أو قلت زيداً منطلقاً . والوجه متى رأيت أو قلت زيد منطلق » .

(٢) كذا فى م والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « فلم تدركوا ثأرا » .

لأنكمْ خبَرْتمونا حالةً بعد أُخرى ، والمرْء يتبيَّنُ الشئ ، ويَعرِف الخَصْمَ عند تجربته .

٢٣٧

وقال بغثر بن لَقيطٍ الأسديّ[١] :

١– أمَّا حكيمٌ فالتمَسْتُ دِماغَهُ ... ومَقِيلَ هامَتِهِ بحَدِّ المُنْصُلِ

٢– وإذا حُمِلتُ على الكَريهةِ لَمْ أقُلْ ... بَعْدَ العزيمةِ ليْتَنى لَمْ أفْعلِ

قولُه « أمّا » يتضمّن معنى الجزاء ، وأكثرُ ما يجىء مكرّرًا ، وقد جاء هنا غير مكرّر . فيقول : مهما كان من شىء فقد طَلَبْتُ دِماغَ هذا الرجُلِ بسيفى ، فأصَبْتُه غيرَ مُتندِّمٍ على ما فعَلْتُ ، ولا متذمِّمٍ منه ، لأنى إذا حُمِلْتُ على خُطَّة صعبةٍ فوطَّنْتُ نفسى عليها ، وقرَّرْتُ عزمى فى تجشُّمِها لم أقُلْ بعد الدخول فيها والخروج منها بِوُدِّى ألاّ أكونَ لابَسْتُها . وأراد بالمَقِيلِ المَقَرَّ . والهامَةُ : رأس كلِّ حيوان ، والجميع الهام . والمُنْصُلُ ، من أسماء السيف . ويقال : مالَهُ عزيمةٌ أى لا يَثْبُتُ على ما يَعزِم عليه . ورأيُهُ ذو عَزيمٍ . والعَزْمُ : توطينُ النَّفس على المراد .

٢٣٨

وقال رجلٌ من بنى نمير[٢] :

١– أنا ابنُ الرّابعينَ مِنَ آلِ عَمْرٍو ... وفُرْسانِ المَنابِرِ من جَنابِ[٣]

٢– نُعرِّضُ للسُّيوفِ إذا التَقَيْنا ... وُجُوهًا لا تُعرَّضُ للسِّبابِ

(١) ذكر فى القاموس (بغثر) أنه شاعر جاهلى .

(٢) نسب المبرد فى الكامل ٦٧ لبيدك بيتين شبيهين بالأول والثانى إلى القتال الكلابى .

(٣) رواية المبرد للبيتين الشبيهين :

أنا ابن الأكرمين بنى قشير ... وأخوالى الكرام بنو كلاب

نعرض للطعان إذا التقينا ... وجوها لا تعرض للسباب

٣ــ فآبائى سَرَاةُ بنى نُمَيْرٍ وأَخْوالى سَرَاةُ بنى كِلَابِ

يفتخرُ بأنّ آباءه رؤساء خطباء . والرابعُ : الرئيس الذى كان يأخُذُ رُبع الغنيمة فى الغزْو . ويقالُ رَبَعَ فُلانٌ فى الجاهليّـة وخَمَسَ فى الإسلام . وذكر عَمْرًا وجَنابًا ليُرِىَ أنه كريم الطَّرَفين ، يدلّ على هذا قولُه فيما بَعْـدَه :

فآبائى سَرَاةُ بنى نُمَيْرٍ وأخوالى سراةُ بنى كِلاب[١]

وقولُه « نُعرِّض للطِّعان إذا التَقَيْنا » يَصِفُ تكرُّمَهم وتصوُّنَهم فى السّلم ، وتبذُّلَهم فى الحرب . ويُشْبِهُ هذا قولُ الراعى :

ويَبتذِلُ النّفسَ المصُونةَ نفْسُهُ إذا ما رأى حقًّا عليـه ابتذالَها[٢]

وقولُ الآخر[٣] :

نُعرِّضُ للسُّيوفِ إذا التَقَيْنا وُجُوهًا لا تُعرَّضُ لِلطِّامِ

وسَرَاةُ القومِ : خِيارُهم . وقال الخليلُ : السَّرْوُ : سخاءٌ فى مُرُوَّةٍ . وفَعَلَةٌ فى جمع المعتلّ نادرٌ ، لأنه يختصّ بالصحيح ، نحو الفَجَرَة والكَفَرة ، وبإزائه من المعتلّ فُعَلَةٌ نحو قُضاةٍ وغُزَاة .

٢٣٩

وقال الهُذْلُول بن كَعْبٍ العَنْبَرِىّ[٤]

حين رأته امرأتُه يَطْحَن للأضياف ، فقالت : أهذا بعلى[٥] ؟!

(١) نمير وكلاب أخوان ، أبوهما عامر بن صعصعة ، فأبناؤهما أبناء عمومة .

(٢) سبق البيت بدون نسبة فى الحماسية ٢١ .

(٣) هو الحريش بن هلال القريعى . انظر الحماسية ٢١ .

(٤) ذكره المرزبانى فى المعجم ٤٩١ وقال : « ويقال الذهلول » ، أى بتقديم الذال .

(٥) المبرد فى الكامل ٢٣ : « ومما يستحسن ويستجاد قول أعرابى من بنى سـعد بن زيد مناة بن تميم وكان مملكا ، فنزل به أضياف فقام إلى الرحا فطحن لهم ، فمرت به زوجته فى نسوة فقالت لهن : أهذا بعلى؟! فأعلم بذلك فقال ... » . مملكا ، من الإملاك ، وهو عقد النكاح .

١ — تَقُولُ وَدَقَّتْ صَدْرَهَا بيمينها أبَعْلِيَ هذا بالرَّحَا المتَقاعِسُ(١)

حَكى ما قالته امرأته وهى تدقُّ صَدْرَها بيمينها ، مستنكرةً لما رأتْهُ من طَحنِهِ لضيفِه ، ومستفظِعَةً لما شاهَدَتْ من تَخَفُّفِهِ وتبذُّلِهِ ، وهو قوله : أبَعْلِي هذا المتقاعِسُ بالرَّحَا . فإنها استشنعت هيئَتَه وامتهانَه نفسَه فيما يُمتهَن فيه الخدم(٢) ، ويأنَفُ من تولِّيه ذوُو(٣) الرَّزانة والعِزّة . وإنما ابتدأ كلامَه بتقول لأنَّ القولَ يُحكَى به ما كان كلاماً ، ويُعْمَلُ فيما كان قولاً . والمتقاعِسُ : بناءٌ لما يُفعل تكلُّفا . على هذا قولهم تَخازَرَ وتعامَى . والقَعَسُ : دخولُ الظَّهرِ وخروج الصَّدر . وقوله « أبعَلِي » موضعُه رفعٌ بالابتداء ، والألف لفظُه لفظ الاستفهام ، ومعناه الإنكار والتقريع . وقولُه « هذا » يكون فى موضع الخبر ، والمتقاعِسُ يتْبعه على أنه عطْف البيان له . وإن شئتَ جعلتَ هذا صفةً لبَعْلِي والمتقاعِسُ خبراً . وقولُه « بالرَّحا » لا يجوز أن يتعلق بالمتقاعس ، لأنَّه فى تعلُّقِه به يصير من صِلَة الألف واللام ، وما فى الصِّلَةِ لا يتقدَّم على الموصول ، ولكن تجعله تبييناً وتتصوَّرُ « المتقاعِسُ » اسماً تامًّا ، ويصيرُ موقعُ بالرَّحا بعده موقعَ بِكَ بَعْدَ مَرْحبًا ، ولَكَ بعْد سَقْيًا وحَمْداً . وإذا كان كذلك جاز تقديمُه عليه ، كما جاز أن تقول : بِكَ مَرْحبًا ، ولَكَ سَقْيًا . وللمازنىّ فى مثل هذا طريقةٌ أخرى : وهو أن يجعل الألف واللام من المتقاعِسِ للتعريف فقَطْ ، ولا يؤدِّى معنى الذى ، كما تقولُ نِعْمَ القائمُ زيدٌ ، وبئسَ الرَّجُل عَمْرو ، وإذا كان كذلك لم يحتجْ إلى الصلة ،

(١) التبريزى والمبرد : « تقول وصكت » . وعند التبريزى أيضاً « نحرها » موضع « صدرها » .

(٢) كذا فى م والتيمورية وفى الأصل : « يمتهن الخدم » .

(٣) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « ذو » بالإفراد .

فجاز وقوع بالرّحا مُقدَّماً عليه ومؤخّراً بعده . وموقعُ الجملة التى حكاها من كلام المرأة نَصْبٌ على أنه مفعول لتقول . فأمّا ما يَعمل فى لفظِهِ « قالَ » ومتصرَّفاته فهو ما يكونُ قولاً ووصفاً للجُمَل ، كقولِك قلتَ حقًّا أو باطِلاً ، أو قُلتَ صدقاً أو كذِباً وما أشْبَهَهُ . والبعلُ يقالُ للرَّجُل والمرأة ، وقيل بَعْلَةٌ أيضاً ، والفعلُ منــه بَعُلَ بَعَالَةً وبُعُولَةً . والبِعالُ : ملاعبَةُ الرجلِ أهْلَهُ . ويقال بنو فلانٍ لا يُباعِلُون ، أى لا يُتزوَّج إليهم ولا يُزَوِّجون .

٢ — فقُلْتُ لها لا تَعْجَلِى وتَبيَّنِى   بَلاَئى إذا التَفَّتْ علَىَّ الفوارسُ

حَـكَى ما جعلَهُ جواباً للمرأة : كما حـكَى كلامَها ، وهو قولُه « لا تعْجَلِى » مع ما يَتْبَعُه . ومعنى البيت : لا تُسرِعِى إنكارَكِ ، بل تثبَّتِى فى حكمِك ، وتبيَّنِى بَراعَتِى فى فَعَالِى ، وغَنَائى عند الشدائد وبلائى ، إذا اجتمع عَلَىَّ فى حَوْمَةِ الحربِ الفُرسانُ ، وأحاط فى مَضايِقها بِىَ الأقرانُ ، فإنَّ نَجْدَةَ الأبطالِ تظهر فى مثل تلك الحال . واعْلَمِى أنَّ ما يُستنكَفُ منه هو التَّخلُّف عن الـكِفاح ، والرِّضا عن النَّفس بما لا يَحْفِلُه الـكريمُ منه ببالٍ ، فأمّا خِدمةُ الضَّيفِ وامتهانُ النَّفسِ فى الاحتفال له ، فمقبولٌ من أخلاقِ الـكِرام ، محمودٌ عند تجاربِ الرِّجال .

وقدَّمَ القوْلُ فى شذوذ فوارِسَ وحُـكْمِه[١] .

٣ — ألَسْتُ أرُدُّ القِرْنَ يَرْكَبُ رَدْعَهُ   وفيه سِنانٌ ذُو غِرارَيْنِ يابسُ[٢]

أقبلَ يُقرِّرُ المرأةَ على زَكِىِّ أفعالِه ، ورضِىِّ أخلاقِه . وألف الاستفهام إذا

(١) انظر ما سبق فى ص ٣٩ — ٤٠ .

(٢) هــذه رواية جميع النسخ والـكامل ومعجم المرزبانى . وانفرد التبريزى برواية « نائس » ولـكنه فى الشرح اعترف بالرواية الأولى ضمناً قال : « ويقولون حديد يابس ، وبارد ، يعنون الصلب . والنائس : المضطرب » . وقد روى فى اللسان (ردع) هذا البيت برواية « نائس » منسوباً إلى نعيم بن الحارث بن يزيد السعدى .

اتَّصَلَ بحرف النفى تقرَّر به فيما كان واجباً واقعاً ، و إذا انفرَدَ عن حرفِ النَّفى تَقرَّر به فيما كان منفيًّا مدفوعاً . يقول القائل مقرِّراً : أفعَلْتَ هذا ؟ إذا لم يكن فعَلَهُ فأنكرَهُ . وألم أفعلْ كذا ؟ إذا كان قد أتاه واكتسبَهُ . والقِرْنُ : النَّظير فى البأس . وموضِع « يركَبُ رَدْعَه » [نصبٌ على الحال ، أى راكباً رَدْعَه[(١)]] . والرَّدْع : الدَّفْع والكَفّ . وتحقيق الكلام : أدفعُ القِرن وقد ركِبَ رَدْعِي إيَّاه فَسقطَ . وقال الخليلُ : رَكِبَ رَدْعَهُ ورَدِيعَهُ[(٢)] ، أى خرَّ صريعاً لوَجْهِهِ . وذِكْرُ الرُّكوبِ مَثَلٌ . ويجوز أن يكونَ المُرادُ بالرَّدْع ما تلطَّخ به من الدَّم ؛ ويقال ثوبٌ مَرْدوع ، إذا كان قد لُطِخَ بالزعفران[(٣)] أو غيرِه . وذكر بعضُ أصحاب المعاني أنَّ معنى « ركبَ رَدْعَهُ » أى إذا كُفَّ لم يَرْتدِعْ ومَضَى لوجهِه ، كأنَّهُ يتلقَّى الرَّدْع بالرُّكوب . وقال أبو العباس المُبرِّد : « هو مِن ارتدَعَ السَّهْمُ ، إذا رَجعَ النَّصْلُ فى سِنْخِهِ متجاوزاً[(٤)] » . قال : « ويقال رَكِبَ البعيرُ رَدْعَهُ ، إذا سَقَط فدخل عُنُقُه فى جوْفِه . ومنه ارتدَعَ فلانٌ عن دينِه[(٥)] » . والذى قاله تحصيلُه ما أوردتُه وكشفتُهُ . وقولُه « وفيه سِنَانٌ » يريدُ أنه مطعونٌ بسِنانٍ ذى حدَّينِ صُلبٍ . وموضع « وفيه » موضع الحال ، والعامِلُ فيه يركَبُ ، كما أن يركَبُ فى موضع الحالِ والعامِلُ فيه أرُدُّ .

٤ — وَأَحْتَمِلُ الأَوْقَ الثَّقِيلَ وأَمْتَرِى خُلُوفَ المَنَايَا حِينَ فَرَّ المُغَامِسُ

قولُه « وأحتَمِلُ » ينعطف على خبر ليس ، وهو أرُدُّ ، ويكون من جملةِ

---

(١) التكملة من م والتيمورية .
(٢) لم يذكر فى اللسان والقاموس بهذا المعنى ، وذكر بدله فى القاموس الرداع ، كغراب .
(٣) م والتيمورية : « إذا كان به لطخ من الزعفران » .
(٤) نص الكامل ٢٣ — ٢٤ عند تفسير هذا البيت : « إذا رجع النصل متأخراً فى السنخ » .
(٥) هذه الجملة الأخيرة لم ترد فى الكامل .

ماقرَّرها به[١]. والأَوْقُ : الثِّقْلُ . ومعنى « أمْتَرِى » أى أَمْسَحُ . والخُلُوفُ : جمع الخِلْف ، وهو ما يَقْبِضُ عليه الحالبُ . وقولُه « حينَ فرَّ المَعَامِسُ » يُروَى « المُغَامِسُ » بالغين معجمةً . فمعنى « المُعَامِسِ » بالعين الذى يدخل فى الشّدائد ويُدْخِلُ غيرَهُ فيها . ويقالُ : يَوْمٌ عَماسٌ ، أى شديدٌ . ويكون المُعامِسُ كقولهم المُغَامِرِ ، وهو الذى يَدْخُل فى الغَمَرَاتِ ويُدْخِلُ غيره فيها . وقال بعضهم : العَمَاسُ : الحربُ الشّديدة وكلُّ مالا يُقامُ لهُ . ويجوز أن يكون المُعَامِسُ من قولِهم عَمَسْتُ الأمْرَ ، أى أخفيْتُه . ورجلٌ عَموسٌ : يتعَسَّفُ الأشياء بجَهْلِهِ . فيكون المعنى : الذى يَرْكَبُ رأسَهُ ولا يُبالِي أُصِيبَ أو أصابَ . ومعنى « المُغَامِس » بالغين معجمةً : الذى ينغمس فى الشرّ والبلاء ، ويَغمِسُ غيرَهُ فيهما . ومعنى البيتِ : ألستُ المتحمِّلَ للأعباء الثّقيلة ، والمُستخرِجَ من ضُروع المنايا وأخْلافِها الشّرَّ ، فى الوقت الذى يَزِلُّ فيه المُعامِسُ أو المُغامِس ، فلا يَثْبُت . وجعَلَ مَرْىَ الخُلوفِ مثلًا لتهييج الشرّ ، واستدرار الموت ، كأنّه يستزيدُ من البلاء ولا يَمَلُّهُ ، إذا لم يَثْبُتْ له من ذلك صِفَتُه .

٥ — وأَقْرِى الهُمُومَ الطّارقاتِ حَزامَةً إذا كَثُرَتْ للطّارقاتِ الوَساوِسِ

يقالُ : قَرَيْتُ الضّيفَ ، إذا أحسنتَ إليه وأعددتَ له قِراهُ . يقول : ألستُ أقرِى طوارقَ الهمّ ، وعوائقَ البثّ ، حزمًا ورأيًا ، وجلدًا ونفاذًا ، إذا ازدحمَتِ الوساوِسُ على القُلوب ، واعتلجت بناتُ الصُّدور ، فارتبكت الآراء ، وذَهبَ من الرِّجال الغَناء .

٦ — إذا خامَ أقوامٌ تقحَّمْتُ غَمْرَةً يَهابُ حُمَيّاها الألَدُّ المُدَاعِس[٢]

(١) كذا فى م والتيمورية على الصواب . وفى الأصل : « من جملة أقررها به » .
(٢) رواية المبرد :
إذا هاب أقوام تجشمت هول ما يهـاب حمياه الألد المداعس

خامَ عن قِرْنِه يخيمُ : هابَ الإقدامَ عليه . ويقال خامَ الرّجلُ ، إذا رَجَعَ عليه كيدُه ، فضرَّهُ ؛ فيجرى مجرى خابَ وإن كان يختصّ بالكيد . فيقولُ : إذا ضَعُفَ الأقوامُ عن التدبير ، وعَيُّوا بالأمور فلم يعرِفوا مصادِرَها ومواردَها ، توسَّطْتُ قُحْمَةَ كلِّ شرٍّ يهابُ سَوْرَتَها الرّجُلُ الخصيمُ اللَّجُوج ، المُدافِعُ للأقران . قوله « حُمَيَّاها » مُصغَّر لا مُكَبَّر له . والدَّعْس : الطعن والدَّفع وشدَّة الوَطْء . ويقال : طريقٌ مِدْعاس ، أى مُذَلَّلٌ .

٧— لَعَمْرُ أبيكِ الخيرِ إنّى لخادِمٌ   لضَيْفِى وإنّى إن رَكِبْتُ لَفارِسُ

قوله « لعَمْرُ أبيكِ » استعطافٌ لها ، إذ أقسمَ بحياةِ أبيها لِما جرى فى العادة من إعظام المُقْسَم به ، وإكبارِ موقعِه . والعَمْرُ والعُمْرُ لغتان ، ولا يُستعمل فى القَسَم إلّا بفتح العين . وإضافةَ الأبِ إلى الخيرِ ، كما يقالُ هو فَتَى صِدْقٍ ، وهو رجلُ كَرَمٍ . وقولُه « إنّى لخادِمٌ لضَيْفى » اعترافٌ بما عَدَّتْهُ ذنبًا ، وبيانُ أنّ التبجُّح فيما أنكرته ، وأنّ التوفُّر على الضَّيفِ وإكرامَه فى قِرانِ الفروسيَّة ، ومن الخصال المحمودة .

٨— وإنّى لأَشْرِى الحَمْدَ أبغِى رَباحَهُ   وأَتْرُكُ قِرْنِى وهْوَ خَزْيانُ ناعِسُ

هذا من جملة ما أقسمَ عليه ، فيقول : إنى لأشترى الحمدَ طالبًا رِبْحَه ، ومُجتنِيًا [ثمرَهُ . و(١)] ثمرةُ الإحسانِ الشُّكْرُ ، ويجلِبُ الشُّكْرُ الثَّناء الجميل والأحدوثةَ الحسَنةَ من كلّ من يسمعُ بالصَّنيع . ولمّا استعملَ الشَّرَى فى اكتساب الحمدِ مجليًا للمعنى ، استعْمل الرِّبْح فيما يَتَسَبَّبُ منه ويَنتَتِجُ ، على ما يُتَعَوَّدُ فى المتاجِرِ ، ويُتطلَّبُ من البياعات . وقوله « وأتْرُكُ قِرْنى وهْوَ خَزْيانُ » أى أُهينُه وأكسِرُه ، حتّى يَبقَى مُطرِقًا خجِلًا مغضوضَ الطَّرْفِ

(١) التكملة من م والتيمورية .

مُتَنَدِّمًا ، كَمَنْ غَلَبَهُ النُّعاسُ . وقِيل فى « نَاعِسُ » المرادُ به أنّهُ مُشرِفٌ على الموتِ . قال : ويقال طَعَنْتُ صاحبى فأنمتُه ، أى قتلْتُه . وطعنْتُ صاحبى فأنعسْتُه ، أى رَنَّحْتُه . والرَّبَاحُ : مصـدرٌ كالرِّبْح . ويقال للفائز بالخيرِ : هو رَابحُ الصَّفْقة .

٢٤٠

وقال كَنْزَةُ أمُّ شَمْلَةَ بن بُرْدٍ المِنْقرِيِّ[1] :

١ — إنْ يَكُ ظَنِّى صادِقًا وهْوَ صادِقٍ ... بِشَمْلَةَ يَحْبِسْهُمْ بها مَحْبِسًا أَزْلا

قد مضى الكلام فى حذف النُّون من « يَكُ » فى غير موضعٍ . ومرادُ كَنْزَةَ من الكلام أن تجعَلَ التَّقَصِّىَ فى مجاهَدَةِ القَوْمِ ، وبُلوغَ أبعدِ الغاياتِ فى طَلَبِ الثَّأر من ابنها بِبالٍ ، فأقبلَتْ تقولُ : ظَنِّى بابنى كَيْتَ وكَيْتَ ، مذكِّرةً ومُوصِيَةً . والذى زَعَمَتْ أنَّه فى ظنها ، ومن أحاديثِ نَفْسِها ، هو ما تقترحُه على ابنِها ، وتتمنَّى أن يحتفظ به من وَصَاتِها . وقولُه « وهو » يجوز أن يكونَ للظنِّ ، والمعنى : إن كُنْتُ أُلمِيًا[2] ، فظَنِّى بشَمْلَةَ يَصْدُقُنى لا محالةَ ، فإنه يفْعَلُ كذا . والباء من قوله « بِشَمْلَةَ » يجوز أن يكون متعلقًا بصادِقٍ ، أى وهو يَصْدُقُنى بسبب شَمْلَةَ ، وإن شئْتَ يتعلَّقُ بظَنِّى . ويجوز أن يكونَ « هو » ضمير ابنِه[3] شَمْلَةَ ، والمعنى : وهوفيما أتفرّسُ فيه وأعتقِدُهُ من غَنائِه ، يَصْدُقُنى — ويكون « بِشَمْلَةَ » تبيينًا لا صِلَةَ ، كما يكونُ بكَ بَعْدَ مَرْحَبًا تبيينًا — يَحْبِسِ القَوْمَ بتلك المعركة

(١) التبريزى : « من ولد قيس ، وكانت أمة لبنى منقر اشتراها برد » . ويعنى بقيس قيس بن عاصم المنقرى . وقيس بن عاصم صحابى مخضرم .

(٢) الوجه : « إن كنت ألمعية » . ولكن المرزوقى قصد جنس « الشاعر » .

(٣) الوجه : « ابنها » أيضاً .

مَحْبِسًا ضيِّقًا . ويقال أزَلُوا مالَهُم يأزِلُونَها[1] أزْلًا ، إذا حبسُوها فى المرعَى ، مخافةَ الأعداء عليها : فالأزْلُ مَصدرٌ وُصف به .

٢ — فيَا شَمْلَ شَمِّرْ واطْلُبِ القَوْمَ بالّذى أُصِبْتَ ولا تَقْبَلْ قِصاصًا ولا عَقْلَا

هذا يدل على ما قدّمناه فى البيت قَبْلَه ، فإنّها رجَعَتْ إلى مخاطبَةِ ابنها بعد ما ذَكَرت هواجِسَ ظُنونِها ، وجرّدَتِ القولَ له بمُرادِها منه ، وأمَرَتْهُ بالتَّشمير فى طلب القوم كلِّهم بمَن أصيبَ به ، واطِّراحِ التقصيرِ فيما جُعِلَ له من سُلطانه فى حقِّه ، وبأن لا يَقْبَلَ الدِّيَةَ وإن غالَوْا بها ، ولا يَرْضَى بالقِصاص منهم وإن مَكَّنُوا من الجانى عليه أيضًا ، بل يَعُمُّ القومَ كلَّهم بالقتل ، فإنه حينئذ يكون مدرِكًا تَبْلَه ، وناقِضًا وِتْرَهُ ، وقاضِيًا حقَّ صاحِبه . والقِصاصُ : أخذ الشَّىء بالشىء ، وأصلُه من القَصِّ : القَطْع .

٢٤١

وقالت أيْضًا :

١ — لَهْفِي عَلَى القَوْمِ الذين تَجَمَّعُوا بِذِى السَّيدِ لم يَلْقَوْا عليًّا ولا عَمْرَا

٢ — فإن يَكُ ظَنِّي صادِقًا وهو صادِقِي بِشَمْلَةَ يَحْبِسْهُمْ بها مَحْبِسًا وَعْرَا

قد تقدَّمَ القولُ فى لَهْفِي ، وما يجوز فيه من نِيَّة الإفراد والإضافة[2] .
وإنّما تحسَّرتِ الشَّاعرةُ على ما فات عَلِيًّا وعَمْرًا من مُلاقاة القومِ المجتمعين بذى السَّيد المتخلِّفين للقِتال . وإنما تلهّفَتْ لِما كانت تؤمِّل من تأثيرِها فيهم . وموضع « لم يَلْقَوْا » نَصْبٌ على الحال ، والعامل فيه تجمّعوا . ثم قالت كالمستدرك برَجائه : إن كنتُ صادِقَةَ الظَّنِّ بابنى شَمْلَةَ — وهو يَصدُقُنى

(١) كذا فى جميع النسخ ، استعمل المال استعمال الإبل .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٤٤ .

لا محالة — فإنَّه يحبسُ القومَ بتلك المعركة مَحْبِسًا صعبًا . تُرِيدُ أنَّ ما فات المذكورَيْنِ سيتلافاه ، فيما يَعِدُها به ظَنُّها وأمَلُها فيه . والقولُ فى « إن يَكُ ظنى صادقا » على ما تقدَّم . والصِّدْقُ والكذِب أصلهما فى الكلام ، وتُوُسِّعَ فيهما فقيل بَرْدٌ صادِقٌ ، والفَجْر الصادق والكاذب ، وهو فَتى صِدْق ، وصدَقُوهم القِتالَ . ويقالُ : طريقٌ وعْرٌ : بيِّن الوُعورة والوَعارة ، أى غليظٌ . وقد توَعَّرَ ووَعَرَ .

٢٤٢

وقال شُبْرُمَةُ بن الطُّفَيْل(١) :

١ — لعمْرِى لَرَيمٌ عند باب ابْنِ مُحْرِزٍ أَغَنُّ عليه اليارَقَانِ مَشُوفُ(٢)

٢ — أحبُّ إلَيْنا من بُيُوتٍ عِمادُها سُيُوفٌ وأَرْماحٌ لهُنَّ حَفِيفُ(٣)

الأصل فى الرِّئم : الظَّبْىُ الخالص البياض . وهذا الكلام يَخُصّ به الشاعرُ واحدًا مُعَيَّنًا كان يُقصِّرُ فى طلب الوِتْر ، ويشتغل عنه بالصِّبا واللَّهْوِ ، ويؤْثِرُ المُقامَ بأطيبِ المنزلَيْنِ من البَدْو والحضَر ، لا يُهِمُّهُ إلا الرَّفاعةُ والخَلاعةُ ، خاليَيْنِ من التَّعَب والنَّصَب ، فأخذ يُعَرِّضُ به ويقول على وجه التهكم والسُّخرِيَةِ منه : ويقال ، لَلِقاء امرأةٍ كأنها ظَبْيَةٌ مَسكَنُها فى جِوارِ هذا الرَّجُل فى صَوْتها غُنَّةٌ ، مُحلاةٍ بيارَقَيْنِ ، مَجْلوَّةِ الوَجْه ، أَحَبُّ إلينا من

---

(١) لم نعثر له على ترجمة . ولكن « ابن محرز » الذى ذكره ، من مشهورى المغنين أيام الدولة العباسية . وهو مسلم بن محرز ، مولى بنى مخزوم . الأغانى (١ : ١٤٥ — ١٤٧) .

(٢) فى اللسان (يرق) : « لعمرى لظبي » .

(٣) التبريزى واللسان : « أحب إليكم » . والكلام تهكم كما سيأتى فى التفسير .

الأُوِىِّ إلى بيوتٍ مستحدَثةٍ بُنِيَتْ على عَمَدٍ مُتّخذةٍ من رِماحٍ وسُيوفٍ. وهذه البيوت للغُزاة والمتصيِّدة أكثرَ ما تكونُ . ألا ترى قول امرئ القيس بعد فراغِه من الصيد :

ورُحْنا إلى بَيْتٍ بِعَلْياءَ مُرْدَحٍ ... سَماوَتُهُ من أتْحمِىٍّ مُشَرْعَبِ
وأَوْتادُهُ ماذِيّةٌ وعِمادُهُ ... رُدَيْنيَّةٌ فيها أسِنّةُ قَعضَبِ [(١)]

وفى هذه الطريقة قول الآخر :

واللهِ لَلنَّوْمُ على الديباجِ ... على الحشايا وسريرِ العاجِ
مع الفَتاةِ الطَّفْلَةِ المِغْناجِ ... أهْوَنُ يا عَمْرُو من الإدلاجِ
وزَفَراتِ البازِلِ العَجْعاجِ [(٢)]

وقوله « مَشُوفُ » من الشَّوْفِ، وهو التَّجْلية ، يقال تَشَوَّفَتِ المرأة ، إذا تزيَّنَتْ وطرَّت [(٣)] ، وشُفْتُها وهى مَشُوفةٌ [(٤)] . وقوله « لهُنّ حَفِيفُ » ، فالحفيفُ : صوتُ طَيَرانِ الطائر وصوت الرَّمْيَة .

٣ — أقولُ لِفِتْيانٍ ضِرارٌ أبُوهُمُ ... ونحن بصَحْراءِ الطِّعانِ وقُوفُ
٤ — أقيمُوا صُدورَ الخيْلِ إنّ نُفوسَكم ... لِمِيقاتِ يوْمٍ ما لهُنّ خُلُوفُ

قوله « أقيموا صدور الخيْلِ » فى موضع المفعول لأقُولُ ، والواو من قوله

---

(١) قعضب : رجل كان يعمل الأسنة فى الجاهلية .

(٢) أنشد هذا الرجز الإسكافى فى مبادئ اللغة ٤٨ والتبريزى فى شرحه .

(٣) كذا على الصواب فى م . وطرت : صارت طريرة . والطرير : ذو الرواء والمنظر . وفى الأصل والتيمورية : « وظهرت » .

(٤) لم يفسر المرزوقى « البارق » . قال التبريزى : « فارسى معرب ، أصله باره ، وهو السوار » . وقيده استينجاس فى المعجم الفارسى الإنجليزى بأنه سوار عريض : (Broad bracelet) .

« ونحن بصحراء الطِّعان » واو الحال . ويقال أقمتُه فقام بمعنى قوَّمْتُه فتقوَّم ، فيتعدَّى . وأقمت بالمكان إذا ثبتَّ فيه إقامةً ، وأقمتُ من المكان إذا ارتحلْتَ عنه . قال امرؤ القيس :

* وفيمن أقامَ من الحىِّ هِرّ[1] *

فأما قول الشاعر :

أقولُ لأمِّ زِنْباعٍ أَقِيمى صُدورَ الخَيْلِ شَطْرَ بنى تَمِيمِ

فمعناه اقْصِدى وتوجَّهِى بِعِيسِكِ نحوَهم . والشاعر أخذ يُبيِّن ما يأخذ به نفسَه من حَثِّ القومِ على القتال ، وتشجيعهم على اقتحامِ الأهوال ، ويُرى أنّه مع تقصير مَن قدَّم التعريض به ، وعَلَّقَ التقريعَ بإهماله وتعذيره ، وعيَّره اشتغالَه بما لا يشتغلُ الموتورُ به ، لا يدَع أن يقولَ مُحَضِّضاً لهؤلاء الفِتيان وقد وَقَعوا فى مَيدانِ الطِّعانِ وعَرْصَةِ الطِّراد : اثْبُتوا فى وجوهِ أعدائكم ، وانْصِبوا صدورَ خيلكم لهم ، واستبدِلوا بالانحراف تقحُّمًا ، وبالازْوِرارِ تهجُّمًا ، ودَعُوا الذَّهابَ إلى ما يأمرُكم به الفشَل ، ويدعوكم إليه التهاوُنُ والكَسَل ، مستشعِرين الخوفَ من الموتِ ، فإنّ لكلِّ نفسٍ أجَلا لا يؤخِّره الإحجامُ والنُّكوصُ ، ولا يقدِّمه الإقدام والنُّهوضُ . وقوله « ما لهُنّ خُلوف » ، أى ليس للنفوس تخلُّف عن الأمد المسمَّى ، ولا تراجُعٌ عن الحَيْنِ المُوحَّى . والميقاتُ يُستعمل فى الزَّمانِ والمكانِ ، لأنَّ الوقتَ الحدُّ . ألا ترى أنهم يقولون ميقاتُ أهلِ المشرِق ، يريدون الموضع الذى يُقبَلُ له الحجّ إذا ابتُدِئ بالمسير إليه منه .

(١) عجزه : * أم الظاعنون بها فى الشطر *

٢٤٣

وقال قبيصةُ بن جابرٍ[١] :

١ — بِثِنْيَىْ هِضَيمٍ جَدُّ نَمَانِى بَطِيًّا بالمحَاولةِ احتِيَالى[٢]

رواه بعضهم « بُنَيَّىْ هَيْصَمٍ هو جَد تَمَانى » و « أوجد تمانى » ، وليس بشىء ، لأنه يصير المعنى : يا بُنَيَّىْ هَيْصَمٍ أوجدتُمانى بطىء الحيلة بالمحاولة ؟ يريد : إنى سريعُ الحيلة . وهذا كلامٌ مُتَبَّجٌ مُختَلٌّ[٣] . وعلى روايتنا يقول : نَمانِيَ جَدٌّ عالٍ بِثِنْيَىْ هذا المكان . والثِّنْىُ : ما انثَنَى من الوادى ، أى انعطَف . ويقالُ : ثَنَيْتُه ثَنْيًا ، ثم يُسمَّى المثنىُّ ثِنْيًا ، وما ثُنِيَ به أيضاً ثِنْيًا . على هذا قولُ طَرَفَةَ :

* لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ باليَدِ[٤] *

وقوله « بَطِيًّا بالمحاولة احتيالى » انتصَب بَطِيًّا على الحال ، فالعامل فيه نَمَانِي . و « احتيالى » فى موضـع الرَّفع على أنه فاعِل بَطِىء ، وقد أضافَ

---

(١) هو أبو العلاء قبيصة بن جابر بن وهب بن مالك بن عميرة الأسدى الكوفى ، له إدراك وصحب عمر بن الخطاب ، وهو من فقهاء أهل الكوفة ، وكان أخا معاوية من الرضاع سأله معاوية يوما عن الوليد بن عقبة : ما كان شأنك وشأن الوليد ؟ قال : خيرا يا أمير المؤمنين فى أول وصل الرحم وأحسن الكلام ، فلا تسأل عن الشكر وحسن الثناء ، ثم غضب على الناس وغضبوا عليه وكنا منهم ، فإما ظالمون فنستغفر الله ، وإما مظلومون فغفر الله له ، وخذ فى غير هذا يا أمير المؤمنين فإن الحديث ينسى القديم . قال : ولم ؟ فوالله لقد أحسن السيرة وبسط الخير وكف الشر . قال : فأنت أقدر على ذلك يا أمير المؤمنين منه فافعل . قال : اسكت لأسكت . فسكت وسكت القوم . قال له : مالك لا تتحدث ؟ قال : نهيتنى عما كنت أحب فسكت عما أكره . الإصابة ٧٢٧٠ والأغانى (٤ : ١٨٥) .

(٢) رواية الأصل هذه نص عليها التبريزى فى شرحه ، وهى رواية ياقوت فى معجم البلدان (٨ : ٤٦٨) . ورواية م والتبريزى : « بُنَيَّىْ هَيْصَمٍ هوَجَدْتُمانِى » ، ورواية التيمورية : « بثنى هضيم هوجدتمانى » .

(٣) المتبج ، من التتبيج ، وهو التخليط .

(٤) صدره : * لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى *

المصدرَ إلى المفعول ، لأنّ المعنى : يبطؤُ احتيالُ الناس علىّ إذا حاولوهُ . والمعنى يتعذّر وقوعُ ذلك منهم ، لفرْطِ حزامتى ، واستحكام تجربتى . ومثل هذه الإضافة قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ انتصَرَ بعد ظُلْمِه ﴾ ، لأنّ المعنى بعد ظُلم الظالم له . هِضَيْمٌ : فِعَيْلٌ من الهَضْمِ ، مِثْل حِذْيَمٍ ، وهو اسمٌ لمكانٍ ضَيِّقٍ . وقيل فَرَسٌ أهْضَمُ ، إذا كان ضَيِّقَ الجَوْف .

٢ — وعاجَمْتُ الأُمورَ وعاجَمَتْنى كأنّى كنتُ فى الأُمَمِ الخَوالى

العَجْمُ : العَضّ فى الأصل ، ويستعمل فى الامتحان ، لأنّ الناظر فى الشىء هل هو صُلْبٌ أو لا يَعْجُمُه ويَعضُّ عليه . ويقال عَجَمَتْنى الخطوب ، أى ابتليتُ بها . وفيما حُكِىَ عن الحجّاج[1] : « إنّ أمير المؤمنين نثَرَ كِنانَتَهُ فعَجَمَ عِيدانَها عُودًا عُودًا » . وإنما استُعمِل فى معاناة الشدائد ومزاولتِها كما استُعمِل المُحاكّة والاحتكاك فيهما . فيقول : إنى مُجرَّبٌ مُدرَّبٌ ، زاوَلتُ النّوائب ، وعاركتُ الأهوال والعجائب ، فلَزِمتُها ولزِمَتْنى ، وأزمْتُ بها وأزمَت بى ، وصِرتُ لطول تَجارِبى وامتداد أيّامِ مُحاكّتى نِقابًا مُحدَّثًا[2] ، أبلُغُ بظَنّى ما يَبلغُ غيرى بمشاهدتِه . هذا على قُرب مِيلادى ، وحَداثةِ سِنّى ، حتى كأنى كنتُ فى الأُمَمِ الماضين ، وأحدَ الرّجال المعمَّرين ، فأدرِكُ الشىء قبل حصولِه ، وأتصوّرُه ولم يَجِئْ ، بصورةِ ما فُرِغ منه وقُضِىَ ، فظَنّى عِيانٌ ، ويومى دهرٌ .

٣ — فلَسْنَا من بَنى جَدّاءَ بِكْرٍ ولكِنّا بنُو جَدٍّ النّقالِ

الجَدّاء : المقطوعة الثّدى . والبِكْر : الباقية على حالتها الأولى . ويقال

(١) انظر البيان (٢ : ٣٠٩) والكامل ٢١٥ والعقد (٤ : ١١٩) والطبرى (٧ : ٢١٠) وصبح الأعشى (١ : ٢١٨) وعيون الأخبار (٢ : ٢٤٣) وابن الأثير (٤ : ١٥٦) .

(٢) النقاب ، بالكسر : العلامة الفطن المبحث . والمحدث ، بفتح الدال المشددة : الملهم الصادق الظن .

رَحِمٌ جدّاء ، إذا كانت غير موصولة . والشاعر جعَل الجدّاء البِكْر كِناية عن الضّعيفة الشرّ ، القليلة الأهلِ ، على عادتهم فى جعْلِ النِّتاج لها ، والوِلادِ والرَّضاع والفِطام إذا فظّموا حالها[1] . فيقول : لسنا أبناء الحرب القليلة الدَّرّ ، اليسيرة الأذى والشرّ ، التى لم يتكثّر موقِدُوها ، ولم يتشمّر لها خُطّابُها ومُوَلِّدُوها ولكنّا بنو المُناقَلاتِ الشديدة الهِياج ، والوَقَعاتِ الصّعبة المِراس ، التى كثُر دَرُّها ، وتكرّر القِتال حالاً بعدَ حالٍ من أهلِها . وقولُه « بَنُو جِدِّ النِّقال » يريد : بنو النِّقال البليغ المتناهى ، الذى لا مُساهَلةَ فيه ولا مُياسَرة . ويجوز أن يكون المعنى : لسنا أصحابَ حربٍ بِكْرٍ ، ولكنّا بنو حربٍ عَوانٍ . كأنه جعَلَ النِّقال فى الوِلاد .

وقد اضطرب بعضُ المفسِّرين فى هذا البيت ، فأتى بما يَمُجّه السَّمْع ، ولا يَعيه القلب ، فقال : المعنى لسنا بعُقمٍ لم يكثُر أولادُنا ، بل فينا الكثرةُ والعِزّ . وقولُه « بَنُو جِدِّ النِّقال » يعنى به المُناقَلة فى الكلام ، يريدُ أنهم خُطباء . قال : فالمِصراع الثانى ليس من الأول فى شىء ، وإذا كان كذلك فكأنّ أبا تمّامٍ ذَكَر البيت على رداءته ليُتجنَّب قولُ مِثلِه ، ولِينبِّه على المُترذِّلِ منه ، كما نبّه على المختار المستحسَن بغيره .

وهذا القائلُ لم يَرْضَ بذَهابِه عن الصواب ، حتّى ظنَّ بأبى تمّامٍ ما لم يَخطُرْ له ببالٍ .

٤ — تفرَّى بَيْضُها عنّا فكُنّا بَنِى الأجْلادِ مِنْها والرِّمالِ[2]

تبجّح فيما مضى بما أعطاه الله من الظَّفَر بالأعداء ، وتوحّده به من الفطنة والذَّكاء ، والنَّكارة والدَّهاء ، وبحسن الصّبر على مدارسة العَوْصاء ، ومداوَسة

(١) فى جميع النسخ : « قطعوا حالها » . (٢) م : « بنى الأجبال » .

الغمَّاء، وبمجانبة الهيِّن من الحروب، واقتحام أصعب الخطوب. وأقبلَ الآن يفتخر بالكثرة، إذ كان العزّ فيها، فقال: «نفرّى بَيضُها عنا». والضمير فى بيضها للأرض، كما يقال: مِن الأرض خُلقنا وإليها عَودُنا. وفى القرآن: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا. أحياءً وأمواتًا﴾: وساغ ذلك وإن لم يجرِ لها ذِكْرٌ لمَّا لم يَلْتَبِس، لدلالة الكلام عليه. والمعنى: تشقّق بيضُ الأرض عنَّا، فنحن بنو حُزُونها وسهولها. وإنما يعنى كثرتَهم واتّساعَ ديارِهم، إذ كان الأرضُ لا تنقسم إلّا إليها. والأجلاد: جمع الجَلَد، وهو الصُّلْب من الأرض، وذِكْرُ البَيْض مَثَلٌ، وقد تقدّم القولُ فى بيضةِ البَلَد.

٥ — لنَا الحِصْنَانِ مِنْ أَجَإٍ وسَلْمَى وشَرْقِيَّاهُما غَيْرَ انْتِحَالِ

٦ — وتَيْماءُ الَّتى مِنْ عَهْدِ عَادٍ حَمَيْنَاهَا بِأَطْرَافِ العَوَالِى

هذا كالبيان لما تقدّم، والكشفِ عما أجمل، لأنه أتبعَ ما وصف من أخلاقهم وعزّهم، بتحصُّن بلادهم وتمنّع جبالِهِم، فقال: لنا جبلا طيِّئٍ أجأٌ وسَلْمَى، ونواحى الشّرقِ منهما، دعْوَى صحيحةً لا يضعّفها انتحالٌ، ولا يُوَهِّنُها كِذَابٌ. ويقال انتحلتُ الشّىء، إذا ادّعيته ولم يكن من شانِك. على هذا قال الأعشى:

فكيف أنا وانتحالى القوَا فِ بعدَ المَشِيبِ كَفَى ذاكَ عارا[1]

ونَحِلَ الشّاعرُ قصيدةً، إذا رُوِيت عنه ولم تكن من قِبلِهِ. وانتصب «غير» على أنّه مصدر أُكِّدَ به ما قبله، وعلى قولهم: هذا زيد حقًّا، وغيرَ شكٍّ. وقولُه «وتيماء» أراد ولنا تيماء التى هذا صفتها وحظُّها من عِنايتنا بها.

(١) ديوان الأعشى ٤١ واللسان والمقاييس (نحل). والقواف، هى القوافى، مثل ما جاء فى قول الله: (وجفان كالجواب)، أى كالجوابى. وفى الديوان: «فما أنا أم ما انتحالى القواف».

وهى بلدةٌ بناحية يَثْرِب . وقوله « من عَهْدِ عادٍ » جعل مِنْ بدل مُنذُ ، لأنَّ مُنذ فى الأزمنة بمنزلة مِنْ فى الأمكنة ، فهو فى موضع الظّرف ، والعامل فيه حميناها . وقد ذكر امرؤ القيس [تيماء[1]] فقال :

وتَيماءَ لم يَترُكْ بها جِذْعَ نَخلَةٍ ولا أُجُمًا إلا مَشِيداً بجَنْدَلِ[2]

٢٤٤

وقال سالم بن وابصَةَ[3] :

١ — عليكَ بالقصدِ فيما أنتَ فاعِلُه إنّ التَّخلُّقَ يأتى دونَهُ الخُلُقُ

قوله « عليكَ » مما أُغرِىَ به وحُضِّضَ ، وصار بذلك من أسماء الأفعال . ويقال عليك كذا وعليك بكذا . والمعنى الزَمْه وخُذْ نَفْسَكَ به . والقَصدُ : واسطة الأمور ، فما تعدّاه سَرَفٌ وما انحطّ عنه قصورٌ . ولذلك قيل لمن ليس بجَسيم ولا ضئيلٍ ، وليس بقصيرٍ ولا طويلٍ : هو قَصْدٌ ومقتصِدٌ . ومعنى البيت : عليكَ باستقامة الطريقة وملازَمة الأعدلِ فى القضيّة مما تُلَابِسُهُ وتفعلُه ، واترُكْ تكلّفَ ما ليس من شيمتك وسجيّتك ، فإنك إن تجشمتَهُ صابرًا على البَلوى فيه نَزَعَتْ نفسُكَ قريبًا عنه ، وعُدْتَ إلى مذهبِك الأوّل فلحقك الذمُّ له .

٢ — ومَوقِفٍ مِثْلِ حَدِّ السَّيفِ قمتُ به أَحمِى الذِّمارَ وتَرْمِينى بهِ الحَدَقُ

يقال للمكان النّابى بصاحبه ولا يمكنه الاستقرارُ به تشبيهًا : هو مثل حَدِّ

(١) التكملة من م والتيمورية .

(٢) الأجم ، بالجيم : الحصن . والرواية المشهورة : « ولا أطما » والأطم كالأجم وزنًا ومعنى .

(٣) سالم بن وابصة بن معبد الأسدى : شاعر فارس من شعراء عبد الملك بن مروان ، وهو تابعى كان غلامًا شابا فى خلافة عثمان ، وأبوه وابصة صحابى جليل ، وفد على الرسول سنة تسع . الإصابة ٣٠٤٤ ، ٩٠٨٦ والمؤتلف ١٩٧ وشرح شواهد المغنى للسيوطى ١٤٣ . ونسبة الشعر الى سالم هى كذلك فى المؤتلف ونوادر أبى زيد ١٩١ والبيان (١ : ٢٣٣) . ونسب فى الحيوان (٣ : ١٢٧) والعقد (٢ : ٢٤) وزهر الآداب (١ : ٧٧) والشعراء ٥٥٧ إلى العرجى . ونسب فى حماسة البحترى ٣٠٨ إلى ذى الإصبع . وبدون نسبة فى مجالس ثعلب ٣٠٠ .

السيف ، وكقَرْنِ الأعْفرِ ، وحدّ السّنان . وذِمارُ الرّجُل : ما يجب عليه حفظُه . ورجُلٌ ذِمِرٌّ[١] وذَمِيرٌ ، إذا كان مُنكَرًا داهية . ويقال ذَمَّرْتُ الرجُلَ إذا حَضَضْتَه ، وتذامَرَ القومُ فى كذا إذا تحاضُّوا . والمعنى : رُبَّ مكانٍ ضيّقٍ دقيق ، لا تَثْبُتُ عليه الأقدامُ ، أنا قمتُ به حاميًا لما يَحِقُّ علىَّ حِمايتُه ، والعيونُ تَرمُقُنى والنُّفوسُ تتطلّع إلى ما يكونُ منّى ، وتتنسّم أخبارى فيه وبَلائى . وقولُه « وترمينى به الحَدَقُ » جعل الفعلَ على التوسُّع للحَدَق ، وإنما هو للناظرين بها . ألا ترى أنه يقالُ رمانى القومُ بأبصارِهم . وموضع « أحمِى الذِّمارَ » موضعُ الحال .

٣ — فما زَلِقْتُ ولا أَبْلَيْتُ فاحشةً إذا الرِّجالُ على أمثالِها زَلِقُوا[٢]

يقول : استقمتُ فى فعلى ، وتثبّتُّ فى موقفِى ، ولم أتعثّر فيما صرّفتُ القولَ فيه ، ولم أزلَقْ عند ما حاضَرتُ به ودافعتُ عنه ، ولم أقدِم على ما يُعَدُّ سَقْطَةً منّى أو يَشِينُنى ، إذا تُحُدِّثَ به عنّى فى وقتٍ تكثُر زلّاتُ الرّجالِ فى مطالعة أمثالِهِ من المواقف ، وتبطُل دعاوِيهم المتقدِّمة لما يَظهرُ من عجزِهم ، وسُوء استمساكهم[٣] . وجوابُ إذا فيما تقدَّم . والمعنى : إذا زَلِقَ الرّجالُ فى أمثالِه من المقامات ثبَتُّ أنا .

٢٤٥

وقال آخر[٤] :

١ — إنْ أكُ قَصْدًا فى الرِّجال فإنّنى إذَا حَلَّ أمْرٌ ساحَتِى لَجَسِيمُ

(١) ويقال أيضا ذمِر بفتح فكسر ، وذِمِر بكسرتين مع تشديد الراء .
(٢) يقال أبلاه جهده ونائله ، إذا أداه إليه . ورواية التبريزى : « ولا أبديت فاحشة » .
(٣) كذا فى م والتيمورية . وفى الأصل : « ونبو استمساكهم » .
(٤) لم يرو التبريزى هذه الحماسية ذات البيت الواحد . والبيت فى عيون الأخبار (٤ : ٥٤) مع نسبته إلى « أوفى بن موله » ، ولعل صوابه « أوفى بن مَوألة » فهو المعروف فى أعلامهم .

قد تقدّم القول فى حذف النون من أكُ . ومعنى البيت إن كان فى خِلقتى اقتصادٌ فلم أبْلغ غايات الجِسام ، فإن غَنائى فى النوائِب إذا نابت ، واهتدائى لوجوه الخروج منها إذا حزَبتْ ، يَحْكُمان لى بجزالة الرأى وجسامَةِ النفس ؛ لأنّ الرجُل بقلبِه ولسانِه ، لا بجسْمِه وجثمانِه . وفى هذه الطريقة قولُه :

إذا كنتُ فى القومِ الطِّوال أصَبْتُهُمْ ... بِعارِفَةٍ حتى يُقالَ طَويلُ[1]

والسَّاحَةُ : فضاء بين دور الحىّ ، وكما قيل على التوسُّع نَزَلَ بساحَتِهِ أمْرٌ ، قيل أيضًا نَزَلَتْ بعَقْوَتِهِ خُطُوبٌ .

٢٤٦

وقال عامرُ بن الطفيلِ[2] :

١ — قَضَى اللهُ فى بعضِ المَكارِهِ لِلْفَتَى ... بِرُشْدٍ وفى بَعْضِ الهَوَى ما يُحاذِرُ

٢ — أَلَمْ تَعْلَمِى أَنِّى إذا الإِلْفُ قادَنِى ... إلى الجَوْرِ لا أنْقادُ والإلْفُ جائِرُ

معنى هذا يماثل قول الله تعالى : ﴿ عَسَى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ﴾ . وفى مثله قال غيره :

كم فَرْحَةٍ مَطْوِيَّةٍ ... لَكَ تحتَ أثْناءِ النَّوائبْ

ومَساءَةٍ قد أقْبَلَتْ ... من حَيْثُ تَنْتَظِرُ المَواهِبْ

ويقال قضاهُ وقضَى به . وقولُه « وفى بعض الهوى » أراد به : وقَضَى له فى بعض المَحابِّ ما يُحاذِر ؛ فوضع الهوى موضع المَحابِّ لأنَّ كلَّ محبوبٍ يصحبُه الهوى ، كما أنّ قولَه « ما يحاذِرُ » موضوعٌ موضِعَ الغَوايَة لكونِه فى مقابلة

(١) سيأتى البيت فى حماسية فى (باب الأدب) منسوبة إلى أحد الفزاريين . وأنشده الجاحظ فى البيان (٣ : ٢٤٤) بدون نسبة . التبريزى : « وصلتهم بعارفة » . الجاحظ : « فضلتهم » .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ٢٧ .

الرُّشْدِ ، إذْ كان الغَىُّ مِن حقه أن يُحاذَرُ . وقوله « ألم تَعْلَمى » تنبيهٌ على مكانِه من الرَّأى ، وأنَّ ظنَّه يقومُ مقامَ عِيانِ غيرِه . وألف الاستفهام إذا اقترن بحرف النَّفى يقرِّرُ به فيما يَجِبُ ويَحِقُّ ، فيقولُ : أمَا عرفْتِ من دأْبى وطبيعتى ، أنِّى لا أتبع الغَير ، ولا أنقادُ لما يُجانِبُ المدلَ ، فمتى سامَنى أليفى مطاوعتَهُ فيما لا أستوفِقُهُ أبَيتُ عليه ، وتركتُه وما يختارُ من الاعتساف وركوب الجورِ والضَّلالِ . وكان يجب أن يقول : لا أنْقادُ وهو جائرٌ ، فوضَع الظاهر موضع المضمَر .

٢٤٧

غزا مُجَمَّعُ بن هِلالٍ

ابنِ خالدِ بن مالكِ بن هلال بن الحارث بن تَيم الله[(١)] ، يريدُ بنى سَعْدِ بن زَيْدِ مَنَاةَ ، فلم يَغْنَم ورجَع من غَزاتِه تلك ، فمرَّ بماء لبنى تميمٍ عليه ناسٌ من مُجاشِعٍ ، فقَتل فيهم وأسر ، فقال فى ذلك :

١ — إنْ أمْسِ ما شَيْخاً كبيرًا فطالَما عَمِرْتُ ولكن لا أرَى العُمْرَ يَنْفَعُ

قوله « ما شيخاً » ، ما زائدة للتأكيد . يقول : إن صرتُ شيخاً طاعناً فى السِّنِّ ، ضارِعًا لنائبة الدهر ، مُهدَفاً لِسهامِه ، مُقرَّعًا بلياليه وأيامِه ، فحقٌّ ذلك واجبٌ ، لأنَّ من يَعِشْ يَكْبَرْ ومن يكبر يَهْرَم ، وطولُ العمر لا يُجْدِى إذا كان مؤدّاهُ إلى الضَّعف ، وقُصاراه الموت . وقوله « طال ما عَمِرْتُ » يجوز أن يكون ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، ويكون حينئذ حرفاً عند سيبويه ، والتقدير :

(١) زاد السجستانى بعده فى المعمرين ٣٢ : « بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن على ابن بكر بن وائل . وذكر السجستانى أنه عاش مائة سنة وتسع عشرة سنة فقال هذا الشعر . وانظر الخزانة (٤ : ٣٦٠ — ٣٦١) .

فقد طال عمرى . وعلى هذا يُكتبُ طال مُنفصِلاً من ما . ويجوز أن يكون ما كافةً للفعل عن العمل ، ومُخرِجًا له من بابِه ، ولذلك جاز وقوع الفِعل بعدَهُ ، وإن كان الفِعْلُ لا يدخُل على الفِعْل ، وعلى ذلك يُكتب طالَ متصلاً بما لأنّه منه ومن تمامه . ومعنى عَمِرْت : بَقِيتُ وحَيِيتُ . والعُمْر ، قال الخليل : هو الحياةُ والبقاء ، ومنه لعَمْرُ الله . وقولُ الشاعر[1] :

وعَمِرْتُ حَرْسًا قَبْلَ مَجْرَى دَاحِسٍ لَوْ كَانَ لِلنَّفْسِ اللَّجُوجِ خُلُودُ

يشهد لذلك . وقوله « لا أرى العُمْرَ » أراد اتّصال العمر وطولَهُ ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامَه . وذكر بعضهم أنّ أبا تمّام أخطأَ فى قولِهِ :

ما لامرئٍ خاضَ فى بَحْرِ الهَوَى عُمُرٌ إلاّ وللبَيْنِ منه السَّهلُ والجَبَلُ

لأنّ العُمُرَ اسمُ مُدّةِ الحياة بأسرِها لا يتبعّض ، فكما لا يُقال ما لزيدٍ رأسٌ إلاّ وفيه شجّةٌ ، كذلك لا يقالُ ماله عُمْرٌ إلاّ وهو قصير . قال : وليس قولهم : ما لَهُ عَيْشٌ إلاّ مُنغّصٌ ، ولا حياةٌ إلاّ مكدَّرةٌ ، مثلَ قولك ما لَهُ عُمْرٌ إلاّ قصير ، لو قُلْتَه ، لأنّ عيشَ الإنسان ليس هو مُدّةَ حياتِه بأسرِها . ألا ترى أنك تقولُ : كان عَيْشى بالعِراق طيّبًا ، وكانت حياتى[2] بمصرَ لذيذةً ، ولا تقول كان عُمْرى . والذى قالهُ هـذا المعترض على أبى تمّام يبطله ما حكيتُه عن الخليل فى تفسير العُمْر ، والبيتُ الذى أنشدتُه . ألا ترى أنّ قوله « عَمِرْتُ حَرْسًا قبلَ مَجْرَى داحِسٍ » يقتضى تبعيضَ عمره ، إذ كان ما بعدَهُ من عُمْره قد أفردَه عما قبْلَه ، وإذا كان الأمر على هذا جاز أن يقال : كان عُمْرى قبلَ مَجْرَى داحسٍ أطيبَ من عُمْرى بعدَه . وفى القرآن : ﴿ فقد لَبِثْتُ فِيكُم عُمُرًا ﴾ أى بعض عُمْرى ، فحذف المضاف .

(١) هو لبيد ، كما فى المعمرين ٦٣ .
(٢) هذا ما فى م والتيمورية . وفى الأصل : « وكان عيشى » .

٢ - مَضَتْ مِائَةٌ من مَوْلِدِى فنَضَوْتُها ... وخَمْسٌ تِبَاعٌ بَعْدَ ذاكَ وأَرْبَعُ(١)

هذا تفصيلٌ لما أجمله من كِبْرته . يقول : أتت عَلَىَّ مائة سنةٍ من ميلادى فألغيتُها(٢) ورائى ، كأنى لبستُها ثم خلعتُها واستتبعتُ بعدها تِسعًا توالتْ ، فلِى عُذر فى ضعف يظهر ، أو كَسَلٍ يلحق ، إذ كنتُ غابرَ لِداتٍ فنَوا ، ومتعرِّقَ أعوامٍ بادَ أهلُها فنُسُوا . قوله « فنضيتُها » يُروَى « فنضوتُها » . ويقال نضا ثوبَه ينضُو وينضِى إذا نزَعه ، لغتان . على هذا قول امرئ القيس :

* فجئتُ وقد نضَتْ لنومٍ ثيابَها(٣) *

ويقال نضَى سيفَهُ وانتضَى بمعنًى . وقوله « بعد ذاكَ » إن قيل لِمَ لَمْ يقُلْ بعد تلك ، والإشارة إلى قوله مائةٌ ؟ قلت : لم يُراعِ تأنيثَ المذكورِ وتذكيرَه ، بل أراد ما ذكرتُ . على ذلك قول ذى الرُّمَّة :

ومَيَّةُ أحسنُ الثَّقَلَيْنِ خَدًّا ... وسالِفَةً وأحسنُهُ قَذالا

ألا ترى أنه لم يقُلْ وأحسنهما . وقوله « وخَمْسٌ تِبَاعٌ » يقال تبِعَ تِباعًا ، فهو مصدرٌ وُصِفَ به . ويقال أيضاً رميتُه بسهمين تِباعًا ، أى وِلاءً ، وتابعَ بينهما فلانٌ تِباعًا .

٣ - وخَيْلٍ كأسْرابِ القَطَا قد وَزَعْتُها ... لها سَبَلٌ فيه المَنِيَّةُ تَلْمَعُ(٤)

تذكَّرَ بما كان منه عند تعالِى سِنِّه وتناهِى عُمرِه ، ما كان منه فى رَيْعان شبابه ، وعند استكمالِ قوَّتِه وترامِى الأحداثِ به ، فيقولُ : رُبَّ خيلٍ تمتد

(١) رواية المعمرين : « وعشر وخمس بعد ذاك » . وهذا يوافق ما زعموا أنه عاش ١١٩ سنة .

(٢) فألغيتها ، بالغين المعجمة ، كذا وردت فى جميع النسخ . وفى الخزانة حيث نقل عن المرزوق « فألفيتها » بالفاء . ولعلها « فألقيتها » .

(٣) عجزه : * لدى الستر إلا لبسة المتفضل *

(٤) السجستانى : « فيارب خيل كالقطا » .

وتتوالَى مبادِرةً إلى المُلتقَى ، وتسترسل استرسالَ فِرَق القَطا عند اندفاعِها للورْد ، أنا بعثْتُها وهيَّجْتُها ، ولها عارِضٌ يمطر بالموتِ ويَلمعُ . والسَّبَل : المَطَر . ورواه بعضهم : « لها أسَلٌ » وهى الرِّماح . وقولُه « قد وزَعْتُها » يجوز أن يكون معناهُ كففْتُها عن التعجُّل ، ويجوز أن يكون قسَّمتُها للتعبئة أو الغارة ، لأنه يُقال وزَعْتُ الشىء ووزَّعتُه جميعاً ؛ وعنده أوزاعٌ من الناس ، أى فِرَقٌ ، وعلى الوجهين فتدبيرُها كان إليه . وقولُه « قد وزَعْتُها » من صفة الخيل ، لأنَّ جواب رُبَّ فيما بعدَهُ ، ولها سَبَلٌ فى موْضع الحال . وقولُه « فيه المنيّة » من صفة السَّبَل ، ويَلْمعُ فى موضع الحال للمنيّة ، والعامل ما يدلُّ عليه الظرف .

٤ — شَهِدتُ وغُنْمٍ قد حَوَيْتُ ولذَّةٍ أَتَيْتُ وما ذا العَيْشُ إلّا التمتُّعُ (١)

قوله « شهدتُ » جواب ربّ ، فيقول : رُبَّ خيلٍ على هذه الصِّفة حضَرتها مُدَبِّراً لها ، وربَّ غنيمةٍ تغنَّمْتُها وتولَّيتُ قسمتها ، ورُبَّ لذَّةٍ أتيتها ونِلتُ منالى منها . ثم أقبلَ كالمتلفِّت إلى غيرِه ، فقال : وما العَيشُ إلا التمتّع بهذه الأشياء . ارتفع « العَيْشُ » على أنَّه عطفُ البيان لِذَا ، لأنه جعل العيش كالحاضر ، فأشار به إليه وإن كان القصدُ إلى الجنس . والتمتُّع : الانتفاع بالشىء زماناً طويلا . ومنه متَع النَّهار : ارتفع ، واستمتعتُ وامْتتَعتُ وتمتَّعت بمعنًى .

٥ — وعارِةٍ يوْمَ الهَيْجَا رَأَيْتُها وقدْ ضَمَّها من داخل الحُلْبِ مَجْزَعُ (٢)

يقول : ورب امرأةٍ فى هـذا اليوم لتمكُّن الخوفِ منها ، وتملُّكِ الجزَعِ قلبها ، رأيتُها تعثُرُ لوجهها ولا تستقيم فى مشيها ، مخافةَ السِّباء لها ، وقد ضمَّها مَجْزَعٌ ، أى استولَى عليها الحزنُ والقلقُ ، حتى صار يضمُّها إليه ولا يدعُها لغيرِه .

---

(١) السجستانى : « أصبت وماذا العيش إلا تمتع » .

(٢) ياقوت : « الهيجا : اسم موضع كانت فيه وقعة لبنى تيم الله بن ثعلبة بن عكابة ، على بنى مجاشع » . وأنشد هذا البيت والبيتين ٧ ، ٨ .

وقولُه « من داخِلِ الخِلْبِ » بَيَّنَ به منشأ الجزَع ومقرَّه ، والخِلْبُ : حجاب القلبِ ، ومنه قولهم : خَلَبَتِ المرأةُ فلانًا ، أى أصابت خِلْبَه بلطفِها وخدعَتْه ، خَلْبًا . ثم يقال : هو خِلْبُ نساء ، كما يقال هو زِيرُ نساء . وهذا على طريقتهم فى النَّقْضِ والنَّقض وما أشبهه .

٦ — لَهَا غَلَلٌ فى الصَّدْرِ لَيْسَ بِبَارِحٍ شَجًى نَشِبٌ والعَيْنُ بالماء تَدْمَعُ

يجوز أن يكون قولُه « لها غَلَلٌ » فى موضع الجرّ على أن يكون صفة لعاثِرَةٍ ، ويجوز أن يكون فى موضع المفعول الثانى لقولِهِ رأيتُها . وأصل الغَلَلِ هو الماء يجرِى بين الشجر ، فاستعاره لما تداخلها من الشَّجَى . وقال الخليل : الغَلَلُ : تغلغُل الماء بين الشجر ، والغَلْغَلَةُ : سُرْعة السير ؛ ومنه رسالَةٌ مُغلغلَة أى محمولة من بلَدٍ إلى بلَدٍ . ورواه بعضهم[(١)] « لها غُلَلٌ » بضمّ الغين ، جمع غُلّةٍ . ولو كان كذا لقال ليست ببارِحَةٍ[(٢)] . ومعنى « ليس ببارحٍ » أى ليس بزائلٍ ، وموضع قوله « شجًى نَشِبٌ » رفعٌ على البدل من غَلَل . ويريدُ بنَشِب أنه عَلِقَ به كما ينشَبُ الصَّيدُ فى الحِبالة . وفى الكلام المروىّ : نَشِبَ فلانٌ مَنْشَبَ سوء ، أى وَقَعَ فيما لا يتخلّص منه . وقولُه « والعين بالماء تدْمَعُ » فى موضع الحال ، ولا بُدَّ من الواو فيه ليتعلّق بذى الحال ، والعامل فيه قولُه شَجًى نَشِبٌ . ولو كان فى الجُمْلَةِ ضمير لـكُنتَ فى دخول الواو وسقوطه بالخيار ، إذْ كان الضمير يُعَلِّقُ من الحال ما يُعَلِّقُه الواو .

٧ — تقولُ وقد أفْرَدْتُها من حَلِيلِها تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَنِى يا مُجَمِّعُ

قوله « تقول » جواب رُبَّ . والمُرَادُ : رُبَّ عاثِرة هذه صفتُها فى يوم الهَيْجَا

(١) هو أبو هلال كما نص التبريزى .

(٢) التبريزى بعد أن ساق هذه الرواية « ليس ببارح ، أى بارحة ، فذكر لأن المؤنث غير حقيق » .

قالت لى بعد أن سَبَيْتُها وفرّقتُ بينها و بين زوجها بالقتل : سقطْتَ لوجهك ، ولا انتعشْتَ من عثْرتك يا مُجمّع ، ولحقك الانكسار والنّكْس كما ألحقتهما بى. وسُمّى الزّوجُ حليلا والمرأة حليلةً لأنّ كلّ واحدٍ منهما يَحُلُّ مع صاحبه .

٨ – فَقُلْتُ لَهَا بَلْ تَعْسَ أُخْتِ مُجَاشِعٍ وَقَوْمِكِ حَتَّى خَدُّكِ الْيَوْمَ أَضْرَعُ

يقول : أجبْتها بأن قلت بل التّعْسُ لك ولقومك حين ضيّعوكِ ، وفعلوا ما أدّى وبالُه إلى أن صار خدُّك اليومَ ضارعاً ، وجدُّك سافلاً . وقوله « بل تعْسَ أختِ مجاشعٍ » تداركَ ببلْ دعاءها عليه فنقله إليها ، لأنّ بلْ للإضراب عن الأوّل والإثباتِ للثانى . وأجْرى تعْساً فى الإضافةِ مجرى وَيْكَ ، وذاك أنّ المصادر التى قد اشتُقّ الأفعال منها إذا دُعِىَ بها تُستعملُ باللام لا غير ، تقول : تبٌّ لزيدٍ وخسْرٌ لعمرو . وما لم يُشتقّ الفعلُ منه وهو وَيْلٌ ووَيْحٌ ووَيْسٌ إذا كان معها اللام رُفِعتْ وصارت باللام جُملاً ، و إذا أفرِدَت عن اللام أُضِيفَتْ ونُصبت . تقولُ وَيْلٌ لزيدٍ ووَيْحٌ لعمرٍو فترفعُ ، وويلَ زيدٍ وويْحَ عمْرٍو فتنصِبُ . وهذا الشاعر قال : « بل تعْسَ أخْتِ مُجاشعٍ » فأجراه مجرى وَيْلَ والفِعْلُ يُشتقّ منه . ومُجاشع : قبيلة . فقال أخْتَ مجاشعٍ كما يقالُ يا أخا بكْرٍ ويا أخا تميمٍ ، و « أضْرعُ » بمعنى ضارعٍ . ويُقال خدُّهُ ضارعٌ ، وجَنْبُهُ ضارعٌ . والضّراعة : الاستِفالُ فى خضوعٍ . قال الهذلى[(١)] :

* لشانِئكَ الضّراعةُ والكُلولُ[(٢)] *

٩ – عَبَأْتُ له رُمْحًا طويلا وأَلّةً كأنّ قَبَسٍ يُعْلَى بها حين تُشْرَعُ

أخذ يبيّن كيف تمكّن من قتْل زوجها ، وماذا أعدّ من السلاح له . ويقال :

(١) هو ساعدة بن جؤية . ديوان الهذليين (١ : ٢١١) .
(٢) صدره : * ألا قالت أمامة إذ رأتنى *

عَبأتُ الخيلَ وعبّأتُها، إذا هيّأتَها للحرب، وعَبّيتُها أيضاً. وعبأتُ الطيبَ والمتاعَ لا غير. والمراد: هيّأتُ له رُمحاً طويلا، وسِناناً لمّاعاً برّاقاً، كأنما يُغلَى به نار إذا أُشرِعَ للطعن. والألّةُ: تُستعمل فى الحربة وتشتهر بها. وأصل الأليل البريق. والمراد بها هاهنا السِّنانُ كما ذكرت. وقوله «كأنْ قبَس» يجوز فيه الرّفع والنصب والجرّ، فإذا رفعتَ فعَلى الضمير، يريدُ كأنها قبَس يُغلَى بها حين أُشرِعَتْ. والقبَسُ: النار. ومن نصبَ فلأنّه أعملَ كأنْ مُخففةً عملَها مثقّلة. يريدُ: كأنّ قبَساً يُغلَى بها، ويكون الخبرُ يُغلَى بها. ومن جرَّ فقال كأنْ قبسٍ، جعل أنْ زائدة وأعملَ الكافَ كما زِيدَ فى قولِه: لمّا أن جاء زَيْدٌ أعطيتُه، وفى قولِه: واللهِ أنْ لو جِئْتَنى لأكرمْتُكَ، يريد واللهِ لو جئتَنى.

١٠— وكائنْ تركْتُ مِن كريمةِ مَعْشَرٍ عليها الخُمُوشُ ذاتِ حُزْنٍ تفجَّعُ

نبّه بهذا الكلام على أنّ ما حكاهُ من حديث العاثرةِ يوم الهُيَيْمَا، واقتصَّه من شأن بَعْلِها، لم يكنْ بِدْعاً منه ولا عجبًا، بل ذلك دَأْبُه مع أمثالِها قبلها وبعدَها. وقولُه «وكائنْ» لغةٌ فى كأيِّنْ، وهما جميعًا بمعنى كَمْ، وهو للتكثير. فيقول: وكم امرأةٍ كانت كريمةَ عشيرتِها تركتُها وهى تَخْمِشُ وجهَها، وتتفجّعُ جزَعًا على قيِّمِها من بَعْلٍ أو أخٍ أو ابن. والمعنى: كان ذلك منّى كثيرًا. وقولُه «عليها الخُمُوش» الخَمْشُ فى الوجه وفى سائر البدَن مثل الخَدْش. ومعنى عليها ركِبَها وعلاها[1] كما يقال على فُلانٍ دَيْنٌ أى ركِبَه وعَلاه.

---

(١) هذا ما فى م والتيمورية. وفى الأصل: «ومعنى عليها ومعنى علاها». والكلام من مبدأ «كم، وهو للتكثير» إلى «فى ضده» من شرح البيت الأول من الحماسية التالية ساقط من م.

٢٤٨

وقال الأَخْنَسُ بن شهاب(١) :

١ — فَمَنْ يَكُ أَمْسَى فى بِلَادٍ مُقَامُهُ ... يُسائِلُ أَطْلَالًا لَهَا لا تُجَاوِبُ(٢)

يُرْوَى « فى بلادٍ مُقامُه » والمُراد : من أَمْسَى مُقامُه فى بلادٍ مسائلاً أطلالاً لتلك البلاد . فمُقامه اسمُ أمسَى ، وخبره فى بلادٍ . ويُرْوَى « فى بلادِ مُقامةٍ » على الإضافة ، ويكون اسم أمْسَى ضميرَ « مَنْ » المُستكِنَّ فيه . والمُقامَةُ : الإقامَةُ ، والمرادُ : مَن أمسى فى بلادِ إقامةٍ ، أى بلاد مُستصلَحةٍ للإقامة مستوطَنةٍ . و « يُسائلُ » على الروايتين فى موضع الحال . وكما يُقال هو بَلَدُ مُقامةٍ ، يقالُ فى ضِدّه هو بَلَدُ قُلْعَةٍ . والبِلادُ : جمع بَلَدٍ ، وهو القِطْعة من الأرض اختُطَّ فيها أو لم يختطّ . يشهد لهذا قول الراجز :

* قد تَرَكَ البِرْنِىُّ فاهُ بَلَدَا *

أى لا أسنانَ فيه . وقولُ الآخر(٣) :

عَرَفَ الدِّيارَ تَوَهُّمًا فاعتادَها ... من بَعْدِ ما شَمِلَ البِلَى أَبْلَادَها

ومعنى البيت : مَن كان الوقوفُ على ديار الأحبّة من همّه ، فأمْسَى مُقامُه فى بلادٍ مُسائلاً أطلالًا فيها لا تجاوِبُه ، فأمرِى كَيْتَ وكَيْتَ(٤) . وجواب الجزاء فيما بعده . وقد مرّ القول فى حذف النون من يَكُ .

---

(١) هو الأخنس بن شهاب بن شريق بن ثمامة بن أرقم بن غنم بن حزابة بن الحارث ابن نمير بن أسامة بن بكر بن معاوية بن تغلب بن وائل . وهو فارس « العصا » ، والعصا فرسه . وانظر الاشتقاق ٢٠٣ والأمالى (٣ : ١٨٥) ، وهو شاعر جاهلى قبل الإسلام بدهر . شرح الأنبارى للمفضليات ٤١٠ والخزانة (٣ : ١٦٩) . وقصيدة هذه المقطوعة برقم ٤١ فى المفضليات .

(٢) هذا البيت لم يروه المفضل . (٣) هو عدى بن الرقاع . اللسان (بلد) .

(٤) الكلام بعده إلى أول شرح البيتين الأخيرين من الحماسية ٢٤٩ ساقط من م . ومن هنا تبدأ المعارضة على نسخة (لاله لى) التى أشرنا إليها بالرمز (ل) .

٢ — فَلِابْنَةِ حِطَّانَ بنِ قَيْسٍ مَنازِلٌ كَما نَمَّقَ العُنْوانَ فى الرَّقِّ كاتِبُ[١]

الفاء مع ما بعدَهُ إلى صدر البيت الذى يليه جواب الجزاء ، كأنه قال : فلهذه المرأة منازلُ أنا وقفْتُ بها ، وقضَيْتُ حقَّ الهَوَى فيها . والمعنى : مَن كان الوقوف على الدّيار من دينِهِ فى الهوى ومذهبِهِ ، حتّى صار يُسائل ما لا يُجيب ، فَلِى فى الوقوف على ديار ابنةِ حِطّانَ ما يَزِيدُ على كلِ مذهبٍ ، ويَعْفى على كل عادةٍ . وقولُه « كما نَمَّقَ العُنوانَ » من صفةِ المنازل ، ويروى « العُنيانَ » و « العُلْوان » . فأما العُلْوان فهو فعْوال من عَلَنَ الأمرُ ، أى ظهر . وأمّا عُنوانٌ فهو فُعْوالٌ أيضاً من عَنَّ له كذا ، أى عَرَضَ . وأمّا عُنْيان فهو فُعْلانٌ من عَناهُ كذا يَعْنِيه . وفى هذا القدر من الكلام فى هذا الموضع كفايةٌ إذ كُنّا قد بَسَطْنا القولَ فى شرح كتاب الفصيح . وكان الواجب أن يقول كعُنْوانٍ نَمَّقَه كاتبٌ ، وتشبيه آثار الديار بالكتابة مألوفٌ فى طرائقهم ، لكنه طوَّلَ الكلامَ تحقيقاً للتشبيه ، فصار ظاهِرُه كأنه شبَّه الآثارَ بتنميقِ الكاتب خطَّه إذا عَنْوَنَ كتاباً . ومثله قول الهُذَلى[٢] :

هَبَطْنَ بَطْنَ رُهَاطٍ واعْتَصَبْنَ كما يَسْقِى الجُذوعَ خِلالَ الدُّورِ نَضّاحُ

ألا تَرى أنّ المرادَ تشبيه الإبل وقد دخلَتْ فى السَّراب بجُذوع نَخْلٍ مسقيّةٍ فى أصولها الماء ، فجاء ظاهِرُه كأنّه شبّه الإبل بسَقْى النَّضّاح للجذوع ؛ لأنّ معنى كما يَسْقِى كَسَقْى ، كما أنّ معنى كما نَمَّقَ كتنميق .

٣ — وَقَفْتُ بِها أَبْكِى وأُشْعَرُ سُخْنَةً كما اعتادَ مَحْمُومًا بخَيْبَرَ صالِبُ[٣]

(١) المفضليات : « لابنة حطان بن عوف » .

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٤٦) .

(٣) بعده عند التبريزى ، ولم يرو فى المفضليات :

خليلَىَّ عُوجا من نَجاءِ شِمِلَّةٍ عليها فتًى كالسَّيف أروعُ شاحبُ

يقول : وقفتُ بهذه الأطلال مقيما بها رَسْمَ من ثبتَ عَهْدُه فى الهوَى ، ولم يغيّره تقاذُفُ الأحبّة والنَّوى ، ومظهِرًا التلهُّف والتحسُّر فى إثْر ما تقادَمَ من أيام الوصال بالبُكا ، وقد أُبطِنتُ جَوًى اعتادنى منه حُمّى سَخُنَت منها بَشَرَتى ، وحُمّت لها روحى ومُهجتى ، كما يعتاد الصالبُ — وهى الحمّى التى معها صُداع — محمومًا بخَيبر . وإنما قال ذلك لأنّ خيبر محمّة ، وحُمّاها موصوفة بالشدّة . ويقال فى المثل : « صالبٍ أشدُّ من نافِضٍ » . وحكى الأصمعىّ أنّ أعرابيًا ثَقُلَت عليه مُؤَنُ عيالِه لكثرتِهم ، فحدّثته نفسُه بأنه لو نقلَهم إلى خَيبر لنَقَصَهم وباؤه ، وأثّر فيهم بالتقليل صالبُه ، وأوْرَدهم خيبر ، وأنشأ يقول :

وَيْحَكِ حُمَّى خَيبرَ استعِدِّى ... هاكِ عِيالى فاذْهَبى وجِدِّى

وباكِرى بصالبٍ ووِردِ ... أعانَكِ اللهُ على ذا الجُندِ

فحُمُّوا بأجمعِهم وسَلِموا ، ثمّ تَلِف هو من بينهم .

وقوله « وأُشْعِرُ سُخنةً » يُرْوى بضم السين وكسرها . فالسُّخْنةُ كالحُمْرة ، والسِّخنةُ كالجِلْسةِ . ومعنى أُشْعَرُ جُعِل شِعارى . والشِّعار : ما يَلِى الجسدَ من الثِّياب ، وتُوُسِّعَ فيه فقيل أُشْعِرَ قلبى همًّا . ويقال شَعَرْتُ المرأةَ ، أى نِمْتُ معها فى شِعارها .

٤ — خَليلاى هَوْجاءُ النَّجاءِ شِمِلّةٌ ... وذُو شُطَبٍ لا يَجْتَويهِ المُصاحِبُ

مَوْضِعُ قولِه « خليلاى » مع خبَرِه نَصْبٌ على الحال من قولِه « وقفتُ بها » ، واستُغْنِى بالضمير فيه عن إدخال الواو العاطفة لأنه يُعلِّقُ من الحال بالأوّل ما يعلّقه الواو . ومعنى قوله « هَوْجاءُ النَّجاءِ » ناقةٌ فى نَجائها وسرعة مَرِّها هَوَجٌ واضطراب . ويقال نجاءٌ أهْوَجُ ، كما يقالُ عَدْوٌ والِهٌ (١) . وقد

---

(١) من شواهده قول تأبط شراً فى المفضلية الأولى :

حتى نجوت ولما ينزعوا سلبى ... بواله من قبيض الشد غيداق

تجاوزوا هذا الحدّ حتى قالوا غبارٌ مجنونٌ ، وزِمامٌ سَفيه . والشَّمِلَّةُ : الخفيفة . وقوله « وذو شُطَبٍ » أراد به سيفاً ذا طرائق . « لا يجتويه » أى لا يكرهُه متحمِّلُه لجودتِه وهذا الكلام إشارةٌ إلى أنّ أصحابَه خذَلوه ولم يروا مساعدتَه فى الوقوف على الدار .

٥ – وقد عِشْتُ دَهْرًا والغُواةُ صَحابتى أُولئكَ خُلْصانى الذين أصاحِبُ

٦ – قَرينَةَ مَن أسْفَى وقُلِّدَ حَبْلَهُ وحاذَرَ جَرّاهُ الصَّديقُ الأقاربُ(١)

يذكر ما تعاطاه من البطالةِ أيّامَ صِباه ، فيقول : بقيت زماناً فيما مَضَى من عُمرى طويلا مُتباعِدَ الأطرافِ ، والذين أُصاحِبهم وأُوثِرُ معاشرتَهم أهلُ الغَوايةِ ، وأربابُ البَطالةِ والخَسارة ، لا أُواخِى غيرَهم ، ولا أُصالِحُ سِواهم . والصَّحابةُ مصدرٌ فى الأصل [وُصِفَ به . والخُلْصان أيضاً مصدرٌ كالكُفران والشُّكْرانِ فى الأصل(٢)] ، ولذلك صَلَحَ أن يَقع للواحد والجميع . يقالُ فلانٌ خالِصَتى وخُلْصانى ، إذا خَلَصَت مودّتُه . قال :

* وعاش صافيـةً لله خُلْصانا *

ويقال : هؤلاء خُلصانى ، أى أخِلاّئى . وقوله « الذين أُصاحِبُ » أراد أُصاحِبُهم ، وحذفَ الضميرَ استطالةً للاسم بصلتِه . وقوله « قرينةَ من أسْفَى » فالقرينة أُلحِقَتِ الهاء به لأنه جُعِل اسمًا ، فهو كالبَنِيّةِ والذَّبيحةِ . ومعنى أسْفَى : دخَل فى السَّفَاء . والسَّفَاء ممدود : السَّفَهُ ، والرَّجُل سَفِىٌّ . ومعنى « قُلِّدَ حَبْلَهُ » خُلِّىَ واختيارَه ، وأصلُه فى البعيرِ إذا أُرسِلَ فى المرعَى وجُعِل زِمامُه على عُنقِه ليتصرّفَ كما يشاء ، ثم نُقِل إلى من وُعِظ كثيرًا حتى أُهمِل أمرُه تبرُّمًا به . ويقال أيضاً : أُلقِىَ حبلُه على غاربِه ، فى هـذا المعنى . ومعنى « وحاذَرَ جَرّاه

(١) هذا البيت لم يرد فى المفضليات . (٢) التكملة من ل والتيمورية .

الصديقُ الأقاربُ » ، أي تبرءوا منه خوفاً من جرائرِه التي يجنيها عليهم . وكانوا يُسمُّون مثلَه الخَليع . وعلى هذا قولُ الشَّنفرَى في صفة نفسِه :

طَرِيدُ جِناياتٍ تيَاسَرْنَ لَحْمَه　　عَقِيرتُه لِأيِّها حُمَّ أوَّلُ

ومعنى تيَاسَرْنَ [لحمه[1]] اقتسَمْنَ « لحمَهُ » ، من الميسِر[2] . وهذا من فصيح الكلام . والصديق يوصَفُ به الواحدُ والجمع . والبيت الثاني شَرْحٌ لقولِه « والغُواةُ صحابتى » ، ويُفيدُ من نهاياتِ الغَيِّ ما لا يُستفادُ من ظاهرِه ومُطْلَقِه .

٧ — فأدَّيْتُ عَنِّي ما استعَرتُ من الصِّبَا　　فلِلمالِ عِنْدي اليومَ راعٍ وكاسِبُ

٨ — ترَى رائداتِ الخَيْلِ حَوْلَ بُيُوتِنا　　كمِعْزَى الحِجازِ أعْوَزَتْها الزَّرائبُ

يقول : رفضْتُ الآنَ ما كنت أقْصُرُ وقتي عليه ، وأصرِف همي إليه ، من سُلوكِ طرائق الجهل ، والجري في ميادين اللهو ، واستبصَرْتُ حتَّى عرَفتُ من الرَّشاد ما حمَلني على رَدِّ مستعار الغيّ ، واطِّراحِ[3] مستعادِ البُطْل ، فصِرْتُ أحفظ من المال ما كنتُ أضيِّعه ، وأصْحبُ من الحزْم ما صِرْتُ أخلُفه ، وأجمع من العُدّة للحوادث ما بَقِيتُ أُهمِله وأفرِّقه . وقوله « أدَّيتُ عَنّي » حَقّق بدخول عن أنَّ المؤدِّي وجبَ عليه . ألا ترَى أنَّه لو قال أدَّيتُ كذا من دون عن لجاز أن يكون لنفسِه أدَّى ما أدَّى ، ولجاز أن يكون لغيره . ولأنَّ معنى أدّيت عنى نَحَّيْتُ عن نفسى . وقوله « فلِلمال عندي اليومَ راعٍ وكاسب » نَبَّهَ به على أنَّه جامعٌ لهُ وحافظٌ . ولم يُشِرْ بقوله « اليومَ » إلى وقتٍ مُعيَّنٍ ، لأنه أراد حاضِرَ الأزمان ومؤتنفَها . فأما قولُه « ترَى رائدات الخَيْل » فالرَّائدات

(١) التكملة من ل .
(٢) كذا في ل والتيمورية . وفي الأصل : « من اليسر » .
(٣) كذا في ل والتيمورية . وفي الأصل : « واطراد » .

المختلفات ، ومنه المَثَل : « الرَّائد لا يَكْذِبُ أهْلَهُ » . والمُراد أنّ الذى يرتبطونه من المال ويقتنونهُ الخيلُ ، لا الإبل والغنم ، وأنَّها تختلف فيما بين بيوتهم لكثرتها ، لأنَّهم غزّاءون وأربابُ غاراتٍ ، فخيولهم مربوطة بالأفنية لئلا تبعُدَ عنهم أوانَ الحاجة لِقَصْدٍ أو مَنْعٍ ؛ وهى فى اختلافها وكثرتها وتردُّدِها بين البيوت كمِعْزَى الحجازِ وقد ضاق عنها محابِسُها وسارِبُها . وقوله « كمِعْزَى الحجاز » ، فى موضع الحال من تَرَى ، وأعْوَزَتْها فى موضع الحالِ مما دَلّ عليه الكاف من قوله كمِعْزَى . والأجود أن يُضْمَرَ معها قد ليَقْرُبَ بناء الماضى من الحال . والتقدير تراها مشابِهَةً لمعزى الحجاز وقد عَدِمَتْ محابسَها ، فهى تَرُودُ . وفى هذه الطريقة قول سَلَمة بن الخُرْشُب :

يَسُدُّون أبوابَ القِبَاب بضُمَّرٍ إلى عُنَنٍ مستوثِقاتِ الأواصرِ

والزَّرْب والزَّرِيبةُ واحد ، ويقال أعْوَزَهُ الدَّهرُ : أفقرَهُ . وأعوزَ الرَّجل : ساءت حالُه .

٩ — فَيَغْبَقْنَ أخْلَاباً ويُصْبَحْنَ مِثْلَها فَهُنَّ من التَّعْداءِ قُبٌّ شَوَازِبُ

يُقالُ غَبَقْتُهُ إذا سَقيتَهُ غَبُوقاً ، وصَبَحْتُهُ إذا سقيتَهُ صَبُوحاً . والصَّبُوح والغَبُوق : ما يُشرَب بالغداةِ والعشىّ ، لأنّهما كالفطور والذَّرُور والسَّحُور . فيجوز أن يريدَ أنها تُعدَى فى القَرْنَيْن[1] ، ويكون « أحلاباً » بمعنى أشْوَاطٍ وأطْلاق . يقال احلُبْ فرسك قَرْناً أو قَرْنَين ، واحْلُبْها أحْلاباً وحلَباتٍ . ويشهدُ لهذا قوله « فهنَّ من التَّعْداء قُبٌّ شوازِبُ » وتحقيق الكلام أنه جُعِل صَبُوحهُنّ وغَبُوقهُنّ أن أُعدِيَتْ فى أوّل النَّهار وآخرِه لتَضْمُرَ ، كما قال أبو تمّام :

* تعليقها الإسراجُ والإلجامُ[2] *

(١) القرنان : الغداة والعشى ، وذلك لما فيهما من البرد .

(٢) صدره : * بسوابح لحق الأياطل شزب *

وكما قال غيرُه(١) :

* فإنّ المُندّى رِحْلَةٌ فرُكوبُ(٢) *

والتّندية : أن تُرعى فى الورْد بعد السّقى شيئاً ليُعْرَض عليها الماء ثانيةً . ويجوز أن يريد أنّها تُسقَى اللّبنَ غُدُوًّا وعشِيًّا ، كما قال :

* نُطْعِمها اللّحمَ إذا عزّ الشّجرْ(٣) *

يريدُ باللّحمِ اللبن ، وكما قال الآخر(٤) :

* يُعطَى دَوَاءً قَفِيَّ السَّكْنِ مَرْبُوبِ(٥) *

ويكونُ الأحلابُ جمعَ حَلَب ، مصدر حَلَبْتُ ، والمراد به المَحلوبُ فجمعه لاختلافها . ويكون قوله « فَهُنّ من التّعداء » كلاماً مستأنفاً ، والمعنى أنّها تُصْنَعُ وتُضَمَّرُ ، فتُتَفقَّدُ بكلّ ما يُصلِحُها ويُقوِّيها ويعوِّدُها الجِرَاء . والقُبُّ : جمع أقبّ وقبّاء . والشوازب : الضّوامر .

١٠ — فوارِسُها من تَغْلِبَ ابْنَةِ وائلٍ   حُماةٌ كُماةٌ لَيْسَ فيهم أشائِبُ

قوله « من تَغْلِبَ ابْنَةِ وائلٍ » أخبرَ به أنّهم لم يتكثّروا بغيرهم ، فليس فيهم خُلَطاء من سواهم ولا غُرَباء ، وإنما هُم من أصلٍ واحد . وهذا كما قال سَلَمَة ابن الخُرْشُبِ :

وأمْسَوْا حِلَالًا ما يُفرِّقُ بَيْنَهُمْ   على كلّ ماءٍ بَيْنَ فَيْدَ وساجِرِ

وهو خلاف قول الآخر وهو يهجو :

---

(١) هو علقمة بن عبدة الفحل . المفضلية ١١٩ .

(٢) صدره :   * تراد على دمن الحياض فإن تعف *

(٣) أنشده فى اللسان (لحم) . وأنشد بعده :

* والخيل فى إطعامها اللحم ضرر *

(٤) هو سلامة بن جندل السعدى . المفضلية ٢٢ .

(٥) صدره :   * ليس بأسفى ولا أقنى ولا سغل *

ولمّا أن رأيتُ بنى جُوَيْنٍ جُلوسًا ليس بينهم جَليسُ[(١)]

إذا ماقُلْتُ أيُّهُـمُ لِأَىٍّ تشابَهتِ المناكِبُ والرُّءوسُ

لأنّ هـذا يصف أهل بَيْتٍ بأنّهم لا يُرَى فيهم نديم ولا مُعَاشِرٌ ، ولا يَغْشَى فِناءَهُم جليسٌ ولا مُخالِطٌ ، ولا يَقصِدُهُم عافٍ ولا مُجْتَدٍ ، ولا يَؤُمُّهُمْ راجٍ ولا مُعْتَفٍ ، إنّما اكْتفَى كُلٌّ منهم بصاحبِه ، وانفردَ كلُّ ذى بَيْتٍ بِنَسِيبِه . وعلى هذا الذى فسّرنا يكون « من تَغلِبَ ابنَةِ وائلٍ » خبرًا ، وحُماةٌ خبرًا ثانيا . والتقدير : فوارِسُها تغلبيُّون حُماةٌ . ويجوز أن يكون من تَغلِبَ ابنةِ وائلٍ فى موضع الحال ، وحُماةٌ الخبر ، والتقدير : فوارسُها وهم من بنى تَغْلِبَ حُماة . وحُماةٌ : جمع حامٍ . وكُماةٌ : جمع كَمِيٍّ . وهذا البناء من الجموع لا يكون إلّا فى المعتلّ . والأشائبُ : جَمْعُ أُشابَةٍ ، وهم الذين جُمِعُوا من شىء إلى شىء ، على رداءةٍ فيهم وهُجنةٍ تَشُوبُهم .

١١ـ فَهُمْ يَضرِبُونَ الكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ على وجْهِـهِ من الدِّماء سبائبُ

١٢ـ وإن قَصُرتْ أسيافُنا كان وَصْلُها خُطَانا إلى أعْـدائِنا فَنُضارِبُ

وصَفَهم بأنّهم يطلبون الرُّؤساء فى الحربِ بالقتل والنِّكاية ، دونَ الأوساط والعَجَزَة والسُّقّاطِ ، فهو كقولِ الآخَر[(٢)] :

من عَهْـدِ عادٍ كانَ معروفًا لنا أَسْرُ المُلُوكِ وقَتْلُها وقِتـالُها

وقوله « يَبْرُقُ بَيْضُه » فى موضع الحال من يَضربون ، و « على وجهه من الدِّماء سبائبُ » فى موضع الحال أيضا من قولِه يَبْرُق بيضه . والسَّبائبُ :

(١) فى الأصل : « بنى جرين » وأثبتنا ما فى ل والتيمورية .
(٢) هو بشامة بن الغدير . الحماسية ١٣٤ .

الطُّرَق(١) ، الواحدة سَبِيبَةٌ ، وقولُه « وإن قَصُرَتْ أسيافُنا » مثل قول الآخر(٢) :

* نَصِلُ السُّيوفَ إذا قَصُرْنَ بخَطْوِنا(٣) *

وفى طريقته قول الآخر(٤) :

إذا الكُماةُ تنحَّوْا أنْ يَنالَهُمُ حَدُّ الظُّبَاتِ وَصَلْنَاها بأيدينا

١٣ — فلِلّهِ قَوْمٌ مِثْلُ قَوْمِى عِصَابَةً إذا حَفَلَتْ عند المُلُوكِ العَصَائِبُ

قوله « فلِلّهِ قَوْمٌ » تعجُّبٌ وتحضيضٌ . والكلام فى مثله قد تقدَّم مشروحًا(٥) . وانتصب «عصابةً» على أنه تمييز . ويجوز أن يكون حالاً أيضًا . وقولُه « إذا حَفَلَتْ » أى اجتمعت . وإذا ظَرْفٌ لما دَلَّ عليه قولُه « لله قَوْمٌ مِثْلُ قَوْمِى » ، أى ناهِيكَ بهم من قومٍ فى ذلك الوقت . والمعنى أنه يَظْهَرَ من عِزِّهم وفَخْرِهم فى مجالس المُلوك ما يُسْتَحَقُّ به التعجُّبُ منهم .

١٤ — أرَى كُلَّ قَوْمٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهم ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ

يصف عِزَّهم وكرمَهم وعِظَمَ حِشْمتهم فى قلوب مَن سواهم ، وأنَّ أحدًا لا يتجاسَرُ على التعرُّض لأسبابهم ، والتبسُّط فى أحميتهم ، فمالُهم وإن عَزَبَتْ فى مراعيها محميَّةٌ ، وسُرُوبُهم آمنةٌ ، وإذا كانت الأقوامُ غيرهم يُقَيِّدُ فحولَها تقييدًا مُقارَبًا ، وتُحفَظُ مَراعيها حِفظًا مُلاحَظًا ، مخافةَ أن تَسْرُبَ فى المَرْتَع ، وتَبعدَ عن المَجْمَع ، وتتبعَها الإناثُ فتقرُبَ من المُغِيرِ عليها ، وتمكِّن الطامع

(١) الطرق : جمع طرقة بالضم ، مثل غرفة وغرف ، وهى الطرائق .
(٢) هو كعب بن مالك . البيان (٣ : ٢٦) .
(٣) عجزه : * قدما ونلحقها إذا لم تلحق *
(٤) هو بشامة بن حزن النهشلى . الحماسية ١٤ .
(٥) انظر ما سبق فى ص ٦٧٢ .

فيها ، رأيتنا لا نبالى بشىء من ذلك ، فَتُخَلِّيها وذَهابَها حيثُ شاءت ، وأنَّ اختلفَتْ وتصرَّفَتْ ، لأمْننا عليها ، وعلمِنا بأنَّ عِزَّنا يحميها ويذُبُّ عنها ، ويقصُرُ الأيدىَ دونها . والساربُ : الذَّاهب فى الأرض ، حتى قيل سَرَبَ الماء وانسربَ ، ومنه اشتقاق السَّرَاب .

٢٤٩

وقال العُدَيْلُ بن الفَرْخ العِجْلِىُّ[١] :

١ — ألاَ يا اسلَمِى ذاتَ الدَّماليجِ والعِقْدِ وذاتَ الثَّنايا الغُرِّ والفاحِمِ الجَعْدِ[٢]

قوله « يا اسلمى » يراد به يا هذه اسلمى ، فحذفَ المنادَى . ومعنى اسلمى : دُومى سالمةً . وانتصبَ « ذاتَ الدَّماليج » على أنه نداء ثانٍ ، ويجوز أن يكون انتصابُه على إضمار فِعل ، كأنه قال : أذكُرُ ذاتَ الدماليج . وهذا يجرى مجرى الكناية لمَا كَرِه التَّنبيه على اسمِها . والدماليج : جمع الدُّمْلوج ، وهى المِعضَد . وقال الخليل : يقال دَملجتُ الشىء ، إذا سوَّيْتَ صيغتَه ، كما يُصاغُ الدُّملُجُ . وقوله « وذات الثنايا » كان وجهُ الكلام أن يقول : والثنايا الغرّ ، لكنّه أعاد لفظ ذات ليكونَ الخطابُ به أفخمَ وأجلَّ قدْرًا ، ولشدّة اتصال المضاف

---

(١) العديل بهيئة التصغير ، بن الفرخ بفتح الفاء ، وقيده فى الخزانة (٢ : ٣٦٨) بضمها . ولقبه « العباب » كشداد ، وكان العباب كلباً له ، وهو شاعر إسلامى فى الدولة المروانية ، كان قد هجا الحجاج وهرب منه إلى قيصر ملك الروم ، فبعث إليه : لترسلن به أو لاجهزن إليك خيلا يكون أولها عندك وآخرها عندى . فبعث به إليه وجرى بينهما حديث انتهى بالعفو عنه . الخزانة والأغانى (٢٠ : ١١ — ١٩) والاشتقاق ٢٠٨ والشعر والشعراء ٣٧٥ — ٣٧٧ .

(٢) قال أبو رياش : ليست هذه الأبيات للعديل ، وهى قصيدة طويلة لأبى الأخيل العجلى قالها فى آخر أيام بنى أمية ، ووفد على عمر بن هبيرة الفزارى فقيل له : إن أبا الأخيل العجلى بالباب يستأذن . فقال : « إذن والله لا يأذن له غيرى » . فقام من مجلسه حتى أتاه على الباب فأخذ بيده وأقعده معه على بساطه ثم قال : أنشدنى منصفتك . فأنشده إياها ، فكساه وأعطاه ثلاثين ألفا . المنصفة : القصيدة ينصف فيها الشاعر عدوه . انظر ما سبق فى ٤٤٠ .

بالمضاف إليه ، كأنه عدَّهما اسمًا واحدًا لا مَحِلَّ بالحذفِ عليـه . ويجرى هذا المجرى قولُه تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . والَّذِين هُمْ ﴾ ، ﴿ والذين هم ﴾ . وقول الشاعر (١) :

أما والذى أَبْكَى وأَضحَكَ والذى أَماتَ وأحيَا والذى أَمْرُهُ الأَمْرُ

والعِقْد : القِلادة ، يقال عقَدتُ عَقْـدًا ، ثم يُسمَّى المعقود عِقْدًا ، فهُما كالنَّقْض والنِّقْض . والفاحم : الشَّعر الأسوَد الحسَن (٢) وقد فَحَمَ فُحُومًا .

٣ — وذاتَ اللِّثاتِ الحُمِّ والعارضِ الذى به أَبْرَقَتْ عَمْدًا بأَبْيَضَ كالشُّهْدِ

اللِّثاتُ : مَغارِزُ الأسنان . والحُمُّ : جمع أَحَمَّ وحَمَّاء ، وهو الأسوَد من كلّ شىء . ويُروَى « الحُوّ » وهو جمع أَحْوَى وحَوّاء . والحُوَّةُ : حُمْرةٌ تَضرِبُ إلى سوادٍ . والعارضُ : ما يَظهرُ من الثَّغرِ عند النُّطق من الجانبين . ومعنى أَبْرَقَتْ به : أطلَعَتِ البَرْقَ . والبَرْقُ : وَميضُ السَّحابِ أصلُه . ويقال : بَرَقَ السَّحابُ بَرْقًا وبَرِيقًا ، وأبرق لغةٌ فيه ، كذلك قال الخليل . وقولُه « عَمْدًا » مصدرٌ فى موضع الحال ، أى أَبْرَقَتْ عامدةً . ويريدُ بالأبيض رُضابَ الفم . والتشبيه بالشُّهْدِ قُصِدَ به إلى العذوبة .

٣ — كأنَّ ثَناياها اغتَبَقْنَ مُدامةً ثَوَتْ حِجَجًا فى رأسِ ذى قُنَّةٍ فَرْدِ

الاغتباق : شُرْبُ العَشِىِّ ، وخَصَّهُ بالذِّكر لأنَّ القصدَ إلى أنها عند السَّحَر يَطيبُ نكهتُها ، فإذا تغيَّرتِ الأفواه وخَلَفَت كانت هذه كأنها مغتبِقة خَمْرًا بقيَتْ سنينَ فى رأسِ جَبَلٍ انفرَدَ عن الجبال ورءوسِها ، بحصانتِه وتَمنُّعِه . وهذا منه إشارةٌ إلى قَلْعةٍ فى قُلَّةِ جَبَـلٍ شاهِق ، أو قَصْرٍ أو حِصْنٍ شَبَّهَـه بجبل هذه صِفتُه .

(١) هو أبو صخر الهذلى . أمالى القالى (١ : ١٤٩) .
(٢) كذا فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « الشعر الأسوه الأسود » ، تحريف .

٤ — لَعَمْرِى لقد مَرَّتْ لىَ الطَّيْرُ آنِفاً بما لم يَكُنْ إذ مَرَّتِ الطيرُ مِن بُدِّ

كانَ زَجّارًا[1] فلذلك قال ما قال. وخبرُ «لعَمْرى» محذوفٌ، كأنه قال لعمرِى قَسَمِى. ولقد جوابُ القَسَم مع ما بعدَه. والقسمُ كما يقعُ بالمفرد يقع بالجملة. وأنّث الطيرَ لأنه أراد الجماعة، فلذلك قال مَرَّتْ. وآنِفاً انتصب على الظَّرف، والمعنى فيما ائتُنِفَ من الوقت، وإنما عافَ هذه العيافةَ التى أشار إليها فيما دار بين قومِه من الشَّرّ، وكأنه آمَنَ بما أوجبه مُرورُ الطيرِ فى حُلمِه، فلذلك قال بما لم يَكُنْ من بُدٍّ. ومن بُدٍّ موضِعُه اسم لم يكُنْ، وخبرُه محذوف، لأنّ التقدير بما لم يكن بُدٌّ من وقوعِه إذ مَرَّتِ الطيرُ. وهذا كما يقالُ ما جاءنى من رجل فى اللَّفظِ، وإن كان التقديران مختلفين. ومعنى قولِ القائل لا بُدَّ من كذا: لا اتّساعَ فى الاستغناء عنه. ويقال رجُلٌ أبَدُّ وامرأةٌ بَدّاء، إذا تباعَدَ إحدى فخذيه عن الأخرى، وبَدَدتُ الشىءَ أبُدُّه، إذا جزّأته أجزاءً فى القَسْمِ. ويقال هاتِ بِدَّتى، أى نصيبى، ومنه يقال استبَدَّ فلانٌ بكذا إذا اختصّ.

٥ — ظَلَلْتُ أُساقِى الهَمَّ إخوَتِىَ الأُولَى أبوهُمْ أبِى عِنـد المِزَاح وفى الجِدِّ

يقال: ظَلَّ يفعلُ كذا، إذا فعلَهُ نهاراً، ثم يتوسّعون فيه، ويجرى مجرى صار يفعل كذا. يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأُنْثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا ﴾. ألا ترى أنّ البِشارة بالأنثى تتّفِقُ كلَّ وقتٍ من ليلٍ ونهارٍ. وقولُه «أساقِى الهَمّ» يجوز أن يريدَ به الغَمّ، كأنه كان يُباثُّ إخوانَه وأصفياءه، لما كان يدور عليه أمرُ عشيرته من الخِلاف المؤدّى إلى التّقالى والتحزُّب، وما كان يَخافُه من التّفانِى عليهم عند التحارُب. والأُولَى فى معنى الذين، والجملة التى بعده من صِلتِه. وقولُه «أبوهُمْ أبى عند المِزاحِ وفى الجِدّ» يجرى مجرى التّأكيد للأُخُوّةِ، والتّحقيق للتّشابُكِ، والممازجةِ بالنِّسبة، والمعنى: على كلّ

(١) كذا فهم المرزوق، وليس هذا بلازم.

حالٍ ؛ إذ لا ثالثَ لهما . ووَضَع المُزاحَ موضعَ الهزلِ . ومثل هـذا فى معنى التأكيد ، وإن كان لفظُه لفظَ البدل قولهم : جاءنى بنُو تميمٍ صغيرُهم وكبيرهم ، صريحُهم وهجينُهم ، وما أشبهه . ويجوز أن يريدَ بالهمِّ مصدرَ همَمتُ بالشىء ، كأنَّه اجتمع مع إخوتِه ليوافِقَهم على رأيٍ يَبْنُونَ أمرَهم عليه مَعَ الفسادِ[1] الظاهر له بين ذَوِيه وفصيلته . ويروى « المُزاح » بضم الميم فيكون اسماً ، والمِزاحُ بكسر الميم فيكون مصدرَ مازَحْتُ .

٦ — كِلانا يُنادِى يا نِزارُ وبيننا قَنًا من قنا الخَطِّىِّ أو من قَنَا الهِنْدِ

كِلاَ اسم مفردٌ يؤكَّد به المثنَّى ، كما أن كُلًّا اسم مُفْرَدٌ يؤكَّدُ به المجموع . والمراد به هنا كلُّ واحدٍ منّا ، لذلك قال ينادى . والمعنى إنَّ اعتزاء كلِّ واحد من طائفتينا إلى أبٍ واحد ، والشَّرُّ إذا وقع بين الأقارب كان فى عُقول ساداتهم أشدَّ تأثيراً ، وأبلغَ عنـد الاشتغال به تحذيراً ، إذْ كان مُفاسَدةُ النَّسيبِ لنَسِيبه أفظعَ ، وكان التَّقاطع حيث يجب التَّواصـل أشنعَ ، ولأنَّ عزَّ السَّيِّد بتابِعيه ، وليس الأقارب منهم كالأجانب . وقوله « وبَيْنَنا قَنًا من قنـا الخطِّىِّ » الواو واو الحال ، وقد حَذَفَ المضاف وأقام المُضافَ إليه مَقامَه . والمراد : وبيننا اختلافُ قَنًا خَطِّيَّةٍ بالطَّعْنِ ، أى بَلَغَ جَهْدُ البـلاء بينهم هذا المبلغَ وانتهى إلى هـذه الحالة . وقال « من قنا الخَطِّىِّ » والمرادُ من قَنا الموضعِ الخطِّىِّ أو المكانِ ، فأقام الصِّفَةَ مقامَ الموصوف[2] . يدلُّ على هذا أنَّه قال بعدَه « أو مِن قَنا الهِنْد » . ويجب أن يكونَ القنا الأوّل وإن كان جمعَ قَناةٍ مُتناوِلاً لما هو أقلُّ مما يتناولُه القَنا الثانى حتى يحصُلَ معنى التبعيض[3] بمِنْ . والخطُّ : جزيرةُ

(١) هذا ما فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « من الفساد » .

(٢) فى التنبيه : « وإن شئت قلت : أراد من قنا الخط ، فزاد ياء النسب لغير حقيقة الإضافة ، كقولهم فى الصفة أشقر وأشقرى ، وأحمر وأحمرى » .

(٣) كذا على الصواب فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « مع التبعيض » .

عُمَان . ويقال فى الرِّماح هى الخطيّةُ ، كأنّه اسمٌ لها .

٧ — قُرُومٌ تَسامَى من نِزارٍ عليهمِ مُضاعَفَةٌ من نَسْجِ داوُدَ والسُّغْدِ(١)

القُرُوم فى الأصل : الفُحُول المَصاعبُ التى أُعفيتْ من الحمل عليها وتُركت للفِحلة . ويقال أقرَمْتُ البعير فاستَقرمَ . وعنى بها هاهنا الأبطالَ الكِرام . وتَسامَى ، أى تتعالى فى التَّبارِى(٢) والتَّمارِى . والأصلُ فى تَسامَى تتَسامَى فحُذِفَ إحدَى التاءين استثقالاً لاجتماعهما . وقوله « من نِزَارٍ » فى موضع الصِّفةِ لقُروم ، والتقديرُ قرومٌ نِزاريةٌ تتَسامَى ، وقوله « عليهم مضاعَفَةٌ » فى موضع الحال والعاملُ فيه تَسامَى . ومعنَى المُضاعَفةِ : التى نُسِجت حلقتين حلقتين ، و « من نَسْجِ داوُدَ » فى موضع الصِّفة المُضاعَفةِ ، أراد مضاعَفَةً داوُديةً وسُغْدِيةً . وارتفعَ مُضاعَفَةٌ بالظرفِ فى المذهبين جميعا لوقوع الظرف فى موضع الصفة . ومثلُه من مسائل الكتابِ : مررتُ برجُلٍ مَعَهُ صَقْرٌ صائدًا به غدًا(٣) .

٨ — إذا ما حَمَلْنَا حَمْلَةً ثَبَتُوا لنا بِمُرْهَفَةٍ تُذْرِى السَّواعِدَ من صُعْدِ

٩ — وإنْ نحْنُ نازَلْناهمُ بصوارمٍ رَدَوْا فى سَرابيلِ الحديدِ كما نَرْدِى

أمّا البيت الأوّل فقد ألمّ فيه بمعنى قولِ الآخر(٤) :

فلمَّا قَرَعْنا النَّبْعَ بالنَّبعِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ أبَتْ عِيدانُه أن تَكَسَّرَا

والمُرْهَفَةُ : السُّيوفُ المُرَقّقَةُ الحدّ ، وسيفٌ رهيفٌ ، وقد رَهُفَ رَهافَةً . ومعنى تُذْرِى تُسْقِطُ ، وهو فى موضع الصِّفَة لمُرْهَفةٍ . ومعنى « مِنْ صُعْدِ » من أعْلَى . وهذا كما قال غيره :

---

(١) لم يفسر هو ولا التبريزى السغد ، وهو بضم السين ويقال بالصاد المضمومة : جيل من الناس بلادهم بين بخارى وسمرقند .

(٢) كذا فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « فى التمادى » .

(٣) انظر كتاب سيبويه (١ : ٢٤١ — ٢٤٣) .

(٤) هو زفر بن الحارث الكلابى . الحماسية ٢٨ .

يُذْرِى بإرعاشٍ يمينَ المُؤتَلِى خُضُمَّةَ الذّراعِ هـذَ المُختَلِى

وقوله « وإن نحن نازلناهم » فالنّزال يأتُونَ به ويركبُونَه فى المَضايق حيث لا يَتّسع المجال للخَيْل ، وإذا كان كذلك فالبيت الأوّل من صفة الفُرسان ، والثانى من نعتِ الرَّجّالة . وقوله « رَدَوْا فى سرابيل الحديدِ كما تَرْدِى » ، الرَّدَيان فى الأصْلِ عَدْو الحمار بين آرِيِّه ومُتمعَّكِه ، ولم يَقْصِدْ تفضيلا لأحد الفريقين على الآخر إمّا لقَصْدِهِ إلى الإنصاف فى اقتصاص ما يَجْرِى من الأحوال ، وإمّا لأنّ الفرقتين كانتا من أصلٍ واحدٍ جَمَعَهما على سَواء من البَلاء .

١٠ — كَفَى حَزَنًا ألّا أزالَ أرى القَنا يَمُجُّ نَجِيعًا من ذِراعِى ومن عَضُدِى

لكَ أن ترْفعَ « أزالُ » على أن يكون أنْ مُخفَّفَةً من الثقيلة ، والمُرادُ أنّى لا أزال . ولكَ أن تنصبَهُ على أن يكونَ أنْ هى النّاصبة للفعل . وموْضِعُ أنْ لا أزالَ على الوجهين جميعًا رَفْعٌ بكَفَى . وحَزَنًا انْتَصَبَ على التمييز . والمعنى : كَفَى من حزَنٍ أنّى لا أزال أرى الرِّماحَ تَصُبُّ دمًا من ذِراعى ومن عَضُدِى ، أى مِن قَومٍ بهم أبْطِشُ وأعتزُّ ، فهُمْ منّى بمنزلة الذّراع والعَضُد . وهـذا فى الاستعارة لمَنْ يَقْوى به الرّجُلُ ويَعتَضِدُ أبْلَغُ وأشبع وإنْ تَساوَتْ الطريقتان — من قول الآخر(١) :

فإنْ أكُ قدْ بَرَدتْ بِهِمْ غَلِيلِى فَلَمْ أقطَعْ بِهِمْ إلّا بَنَـانِى

وقد قيل « أخُ الرَّجُلِ عَضُدُه » . والمَجُّ : إخراجُ الماء من الفم ، وتوسَّعُوا فقالوا المطَرُ : هو مُجاجُ السَّحابِ . والنَّجِيعُ : دمُ الجوف . ويقال تَنَجَّعَ الرَّجُل ، إذا تلطَّخَ به .

١١ — لَعَمْرِى لَئِنْ رُمْتُ الخروجَ عَلَيْهِمُ بِقَيْسٍ عَلَى قَيْسٍ وعَوْفٍ عَلَى سَعْدِ

(١) هو قيس بن زهير . الحماسية ٤٤ ص ٢٠٣ .

١٢ـ وضَيَّعْتُ عَمْرًا والرِّبَابَ ودارِمًا وعَدْوَانَ وَدٍّ كَيْفَ أَصْبِرُ عن وَدِّ(١)

١٣ـ لَكُنْتُ كَمُهْرِيقِ الَّذِى فى سِقَائِهِ لِرَقْرَاقِ آلٍ فَوْقَ رابِيَةٍ صَلْدِ

نَبَّهَ بهذا الكلام على قُرب القرابةِ بينهم ، وتأكُّد الالتحام فيهم ، وأنّ تمازُجَ الأنساب ، وتواشُجَ الأسباب ، يُوجبان أنّ طوائفَ هؤلاء الجموعِ كطوائف تلك ، فإنْ أخذ يطلبُ الخروج عليهم ، والنِّكاية فيهم ، احتاج أن يخرُج بقيسٍ على قيس ، و بسَعْدٍ على سعد ، لأنّ عوْفًا هو ابن سعد . واحتاج أن يُراغِمَ عَمْرًا والرِّبابَ ودارِمًا ووَدًّا ، وأن يضيِّع حظوظَهم وحقوقَهم ، ويُفيتَ نفسه وذَوِيه مأمولَ الخيرِ من جهتهم ، والتكثُّرَ والتعزُّز بمكانهم ، وذلك أيسرُ نتائج التَّقاطع والتدابر ، والتنازُع والتنابذ ، والتجاذُب والتحارُب ؛ هذا إلى مافيه من مجانَبةِ الرَّشاد ، والتباعُد فى طُرق الضلال والفَساد . وقوله « كيف أصبرُ عن وَدّ » هو الذى يُسمِّيه النُّقادُ والبُصَراء بصنعةِ الشِّعر وتمييزِ البديع فيه « الالتفات » . كأنه لمّا ذَكر وَدًّا والخلافَ عليه ، ونفْضَ اليدِ مما يجمعه و إيّاه ، وكشْفَ الرَّأسِ بالمُعاداةِ معه ، رَقَّ للرَّحِم قلبُه ، وضاق بالحال المتصوَّرةِ صدرُه ، والتفتَ إلى من بحضرتِه فقال : كيف يكون صبرى عن مِثْلِه . ثم أخذ يمثِّل نفسه فيما يأتيه ، ويصوِّر نفسه إن أخذ فيه ، فقال : لَعَمْرِى إنّ صورتى إذا ركبتُ هذه الخُطّةَ مَعَهم ، ومَثَلى فيما أختارُه من مُفاسَدةِ الأقارب مع هذا التحقُّق والتَّدانى ، والاستنامة إلى آمالٍ متخيَّلةٍ فى الأجانب ، مَثَلُ رجل قد أعدَّ ماء فَمِه لوقتِ حاجته ، وهو فى مَفازةٍ متنائيةِ الأرجاء ، فترقرقَ له السَّراب من مكان يُتَوصَّل إليه بمشقّةٍ تُتكلَّف ، وزيادةِ تعبٍ تُتجشَّم ، فَصَبَّ ما قد استَصْحبَه من الماء ، وتيقَّن النَّجاةَ به ، اغترارًا بما تراءى له وتظنّاه ، وهو لا يَدرى هل يقدِرُ على الوصول إليه ، وإذا جاءه هل يجد له حقيقةً أوْ لا .

(١) رواية التبريزى : « وعمرو بن أد كيف أصبر عن أد » .

وقد ضَرب الله المَثَل بالسَّراب لأعمال الكُفّار واغترارهم بها فقال: ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسِبُه الظَّمْآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يَجِدْه شيئاً(١) ﴾. والرابيَةُ: المكان المرتفع. والصَّلْد: الصُّلب الذى لا يُنبِتُ شيئاً. والرَّقْراق: ما تَرقرقَ(٢) فيما يَتَخيّل للعين ولَمَع، ويوصَفُ به الدَّمْعُ والماء والجارية الرائقة. يدلّ على ذلك قولُه:

* رَقارِقَ لا زُرْقَ العُيونِ ولا رُمْدَا *

ولامرئ القَيْس يصف الدمع:

* أو الدُّرِّ رَقْراقُه المُنْحَدِرْ(٣) *

وقوله «لكنتُ كمُهَريق الذى» جوابُ القَسَم، وبعضهم رواه: «فكنتُ كمُهْريقٍ» وعلى هذا يكون الجواب محذوفاً. وقد حَمَل الكلام على المعنى لظُهورِ المراد منه دون اللَّفظ، والأوّل أكشفُ.

١٤ — كمُرْضِعةٍ أوْلادَ أُخْرى وضَيَّعتْ بَنِى بَطْنِها هذا الضَّلالُ عن القَصْدِ

يجوز أن يكونَ المُرْضِعةُ امرأةً فعلَت ذلك فضُرِبَ المثلُ بهذا، ويَشهدُ لذلك قولُ الآخر(٤):

كمُرْضِعةٍ أولادَ أُخرى وضَيَّعَت بَنِيها فلم تَرْقَعْ بذلك مَرْقَعا(٥)

ويقال: النَّعامُ تفعل ذلك لسوء هدايتها، فتتركُ الواحدةُ منها بيضَ نفسِها

(١) وردت «يحسبه» فى نسخة الأصل و ل، على قراءة كسر السين. وكسر السين فى هذا المضارع لغة أهل الحجاز، وفتحها لغة تميم. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بفتح السين حيث وقعت فى المصحف، وقرأ باقى السبعة بكسرها. تفسير أبى حيان (٢: ٣٢٨).

(٢) كذا فى التيمورية. وفى سائر النسخ: «ترقق» وكتب إزاءها فى ل «ترقرق».

(٣) صدره: * فأسبل دمعى كفض الجمان *

(٤) هو ابن جذل الطعان الكنانى، كما فى الحيوان (١: ١٩٧) وحماسة البحترى ١٧٠.

(٥) فى ثمار القلوب ٣١٣: «فلم تحسن بما فعلت صنعا».

وتَسُومُ فى المَرعَى ، فإذا أرادت العَودَ إليها لم تَهتد ، فتَجثِمُ على بيض غيرِها .
ويَشهد لهذا الوجه قولُ الآخر[١] :

فإنّى وتركى ندى الأكرمينَ وقَدحِى بكَفِّىَ زَندًا شَحاحَا
كتاركةٍ بَيضَها بالعَراء ومُلبِسةٍ بَيضَ أُخرى جَناحا

وقوله « هذا الضَّلالُ عن القصد » يَجرِى مجرى قوله « كيف أصبِر عن وَدٍّ[٢] » ، فى أنه من باب الالتفات . ومثلهما قول جرير :

مَتَى كان الخِيامُ بِذِى طُلُوحٍ سُقِيتِ الغَيثَ أيَّتُها الخِيامُ

والشاعر لم يُقنعه التشبيه الأوّلُ ولم يكتفِ به ، لأنّ الثانى أدلُّ على الحال فيما يرومُ تصويرَه ، وأشبهُ بقصّته إذا فعل فَعلتَه . والقَصْد : الطريق المستقيم ، وهو المقصود .

١٥ - فأوصيكُما يا ابنَىْ نِزارٍ فتابِعا وَصِيَّةَ مُفضِى النُّصحِ والصِّدقِ والوُدِّ
١٦ - فلا تَعلَمَنَّ الحَربَ فى الهامِ هامَتِى ولا تَرمِيا بالنَّبلِ ويحكُما بَعدِى[٣]

جَعل وَصاتَه شاملةً لقبائل ربيعةَ ومُضَر ، وهما ابنا نزار بن مَعَدٍّ ، فيقول : أبذُل نُصحِى لكم ، وأبسطُ وصيّتِى إيّاكم فيكم ، فتابعوها واعملوا بحسَبِها ، فإنّها ممحوضةٌ لكم عن قَلبِ رجلٍ سليمِ الغَيبِ ، نقىّ الجَيب ، صائب الرّأى ، صادِق الوُدّ . وقولُه « مُفضِى النُّصحِ » أى واصِلٍ نُصحُهُ إليكم ، وصائرٍ فى فَضاء وسَعَة . والمعنى انكشافُه وخلُوصُه . وفى القرآن : ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ . وقولُه « فلا تعلمَنَّ الحَربَ فى الهام هامَتِى » هذا صريحُ الوصيّة

(١) هو ابن هرمة . الحيوان (١ : ١٩٩) . وانظر ثمار القلوب ٣٥٣ والدميرى (٢ : ٥٠٢) والموشح ٢٣٧ .
(٢) فى البيت ١١ من هذه الحماسة .
(٣) ويروى : « فلا تُعلِمُنَّ الحربَ » ، كما أشار التبريزى .

التى دعا إليها ، وسامهمُ ارتسامَها وحِفظَها . وجعلَ النَّهىَ لهامتِه والمُخاطَبون هم المنهيُّون ، فهو كقولك : لا أرينَّك هاهنا ، والمُراد : لا تكن هاهنا فأراك . وتحقيق قوله « فلا تَعلَقنَّ الحربَ فى الهام هامتِى » : لا تتحاربوا بعدِى فتعلمَ هامتِى بين الهام الحربَ بينكُم ، أى عليكم بالتَّواصُل والتَّعاضُد ، وإيّاكم والتقاطُعَ والتَّدابر ، فإنَّ ذلك يؤدِّى إلى ضَعفِكُم ، واجتراء الخصم عليكم ، إنْ لم يُؤدِّ إلى التَّفانى والتَّهالُك . وكانت العرب تقول : إن عِظامَ الموتَى تَصيرُ هامًا فتطيرُ وتتنسَّم أخبار الأحياء . وقوله « ولا ترْمِيا بالنَّبلِ ويْحكُما بعْدِى » ، يقول : دعوا التَّفاخُرَ والتنافُرَ ، والتَّجاذُبَ والتَّحارُب ، فإنَّ ذلك من آكدِ أسباب التَّقالى والتَّهاجُر . وهم يجعلون المُناضَلة مثَلًا للمُفاخرةِ . على هذا قولُ لبيد :

فانتَضَلْنَا وابْنُ سَلْمَى قاعِدٌ كعَتيقِ الطَّيْرِ يُغْضِى ويُجَلّْ

ثم قال :

فرَمَيْتُ القَوْمَ رِشْقًا صائبًا لَيْسَ بالعُصْلِ ولا بالمُفْتَعِلْ

١٧ — أمَا ترْهَبانِ النَّارَ فى ابْنَىْ أبيكما ولا ترْجُوانِ اللهَ فى جَنَّةِ الخُلْدِ

١٨ — فمَا ترْبُ أثْرَى لوجَمَعْتَ تُرابَها بأكْثَرَ من اِبْنَىْ نِزارٍ على العَدِّ

١٩ — هُما كَنَفا الأرضِ اللَّذا لوتزَعْزَعا تزَعْزَعَ ما بَيْنَ الجَنُوبِ إلى السَّدِّ

ذَكَّرَهُم بما فى صلة الرَّحِم من الأجرِ ، وبما فى قطيعته من الإثم ، فأخذَ يُرَغِّبُهُم ويُحَذِّرُهم ، فيقولُ : أمَا تخافُونَ أن يحِقَّ عليكم العَذابُ إذا استهَنتُم بالوعيدِ الوارد فى القَطيعة واستعمالِ البَغى ، وتعرَّضْتُم لسَخَطِ الله عزَّ وجلَّ فى تجاوُزِ مأمورِه ، وأما ترْجُونَ أن يحلَّ الثَّوابُ الكريم فى الصِّلَةِ واستعطاف

أولى المحارمِ والقُرْبَةِ[١]، إذا رعَيتُم أمرَه، والتزمتم حتمَهُ، واستنجزتم موعودَه.
وإنما أخرجَ الخطابَ بلفظ التثنية، وإن كان الوعظُ متوجِّهاً إلى جميعهم، لأنه قال «فأوصيكما يا ابنَىْ نزارٍ».

وقوله «فما تُربُ أثْرَى» أثرَى والثَّرَى يُجعلان اسمين للأرضِ، إلّا أنّ أثرَى جُعِل كالعلَمَ لها، ولذلك لم يُصرَف. والثَّرَى: النَّدَى. وفى المَثَل «التقى الثَّرَيانِ». وفسَّرَ قوله «وما تحت الثَّرَى» على ما تحت الأرض. ويُقال: ثَرِىَ ثَرًى، فيُرادُ به التُّراب النَدِىُّ. وفى الاستكثار قيل: هم أكثَرُ من الثَّرَى. والشاعر وَصفَ ابنَىْ نزارٍ بالكثرة، لأنّ فيهما العزَّ والغلبة، ثم لم يَرْضَ بذلك حتَّى قال «هُما كنَفَا الأرض». ومعنى «لو جَمَعْتَ تُرابَها» لو أحطتَ علماً به وضبطتَه. ومعنى «بأكثَرَ من ابنَىْ نِزارٍ على العَدّ» بأكثر منهما معدودَين؛ فوضِع على العَدِّ موضع الحال. وقَطَع همزةَ ابنَىْ نزارٍ ضرورةً، كما قال الآخر[٢]:

إذَا جاوزَ الاثنَيْنِ سِرٌّ فإنّهُ [بنَثٍّ وإكثارِ الوُشاةِ قَمِينُ][٣]

ويركبون هذه الضَّرورةَ فى الأكثرِ الأعمِّ إذا كانت الألفُ فى اسمٍ، وذلك أنَّ ألِفاتِ الوصل بابُها الأفعال دون الأسماء حتَّى يُمكِنُ حَصْرُها[٤] إذا لم تكن فى مصدرٍ، فإذا كان كذلك فالمعتادُ فى ألِفات الأسماء القطْع، فعلى ذلك يُستحسَنُ قطعها فيها، وإن كانت فى الوصل للضَّرورة.

وقوله «هما كَنَفَا الأرض» فالكَنَفُ: الجانبُ والنَّاحيةُ. ومنه تكنَّفَهُ بنُو فلانٍ. والمعنى أنَّهم مُحْدِقون بالأرض. وقولُه «اللَّذَا لو تَزَعْزَعَا» حذف

(١) القربة، بضم وبضمتين: القرابة، ومثلها القرب والقربى.
(٢) هو قيس بن الخطيم. ديوانه ص ٢٨. واللسان (نثث).
(٣) التكملة من ل. وبدلها فى التيمورية كلمة: «البيت». وفى الديوان: «وتكثير الحديث»، وفى اللسان: «وتكثير الوشاة».
(٤) أى يمكن حصر ألفات الوصل فى الأسماء، وهى الأسماء العشرة.

النون استطالةً للاسم بصلتِهِ . وعلى هذا قولُه :

أبنِي كُلَيْبٍ إنَّ عَمَّىَّ اللَّذَا قتَلا الملوكَ وفكَّكا الأغلالا[1]

والزَّعْزعةُ : التحريك ، ومنها ريحٌ زعْزاعٌ . وقولُه « ما بينَ الجَنُوبِ إلى السُّدِّ » يريدُ ما بين مَهَبِّ الجَنُوبِ إلى سدِّ يأجوج . ويقال سَدٌّ وسُدٌّ لُغتان ، وقيل السَّدُّ ما يفعله الآدميّون ، والسُّدُّ بالضم ما لا صُنْعَ للآدمى فيه . ومُراد الشّاعر أن مِساكَ الأرض وجوانبها بابْنَىْ نزارٍ ، فإن تزعزعا تزلزلت الأرض . وهذا الكلامُ نهايةٌ فى بابه .

٢٠ — وإنّى وإن عَادَيْتُهُمْ وجَفَوتُهُمْ لَتألَمُ مما عَضَّ أكبادَهم كَبْدِى

٢١ — لأنَّ أبِى عِندَ الحِفاظِ أبُوهُمُ وخَالُهُمُ خَالِى وجَدُّهُمُ جَدِّى

يقولُ : أنا وإن كنتُ متنكِّرًا لهم مُستجفِيًا ، وجافيًا معهم معاديًا ، ومتحامِلاً عليهم مُناصِبًا ، فللعلائق الجامعة بينى وبينهم ، والأواصرِ العاطفةِ ضميرى عليهم ، ولأنّى أرى أطرافى من السَّبَب والنَّسب تظأَرُنى وتأبَى إلّا التَّحنُّنَ لهم ، وتضمَّنى فتمنع من الانحراف عنهم — يَسوؤُنى ما يَسُوؤُهم ، وأشتكى لشكواهم ، وأتألَّم مما ينالُهم ، وبحسب ذلك أختارُ لهم ما أختارُه لنفسى ، وأريد بهم ما أريدُ بمن لا يَتميَّزُ عنّى ، فذلك هو الذى يَدعُونى إلى استصلاحِهم ، والوَصاةِ بما يُؤدِّى إلى مصالحتِهم ، فِعْلَ الأمَسِّ سُهْمَةً ، والأخصِّ نُسبةً . وكيف لا أكون كذلك ، وإذا حافَظْنا الحُقوق ، وراعَينا الوسائل والحظوظ[2] تَناسَقَتِ الأبُوّةُ بيننا والأمومة ، وتلاحَظت البُنوّةُ والأُخوّة .

---

(١) البيت للأخطل فى ديوانه ٤٤ والخزانة (٢ : ٤٩٩ — ٥٠١) . وقد ذكر فى الخزانة خلافاً شديداً فى تعيين اسمى عميه .

(٢) فى الأصل : « والخصوص » ، صوابه فى سائر النسخ .

٢٥٠

وقالت عاتكةُ بنتُ عبد المطّلِب[١] :

١– سائلْ بنا فى قَوْمِنا وليَكْفِ من شَرٍّ سَماعُهْ[٢]

٢– قَيْسًا وما جَمَعوا لنا فى مَجْمَعٍ باقٍ شَناعُهْ

هذه الأبيات تناسب ما قبلها وتؤدِّى إلى مِثْل مؤدّاها ، لذلك قالت « سائلْ بنا فى قومنا » لأنّ ما تألّمتْ منه كان فى عشيرتها وذويها ، وكأنّ الخَطْبَ كان عظيما ، والشرَّ كان مُستفحِلاً شديدًا ، فأخذت تَبعَث على التَّسآلِ[٣] عنهم فى قومهم ، إذ كان البلاء لم يَعْدُهم . ويجوز أن يُرِيد : سائلْ بنا وعن حالِنا فيما بين قومِنا ، كأنّه يَدَّعِى أنّ لهم شأنًا فى قومهم ليس لغيرِهم . وقولها « وليكْفِ من شرٍّ سَماعُه » توجُّعٌ مما نالهم ، واستفظاعٌ لما أَجْرَوا إليه فيما أداروا أنفسَهم عليه[٤] . وظاهِر لفظ الأمر للسّماع ، وهو فى الحقيقة للمخاطَب ، لأنّ المراد : وا كْتَفِ إذا

(١) هى عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم ، عمة النبي صلى الله عليه وسلم ، اختلف فى إسلامها . الإصابة ٦٩٥ من قسم النساء .

(٢) التبريزى : « قال أبو هلال : لما قتل البراض بن قيس عروة بن عتبة الجعفرى كانت قريش بعكاظ ، فاحتملوا نحو مكة ، وأتى هوازن قتل البراض عروة فأتبعوهم فأدركوهم بنخلة ، فاقتتلوا حتى دخلت قريش الحرم وجن عليهم الليل ، فكفت عنهم هوازن ، فقال خداش ابن زهير :

يا شدة ما شددنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحرم

وللنبى فى ذلك الوقت عشرون سنة ولأبى طالب ستون سنة ، فقال البراض فى ذلك :

نقمت على المرء الكلابى فخره وكنت قديماً لا أقر فخارا

علوت بنصل السيف فلة رأسه فأسمع أهل الواديين جؤارا

والإشارة بعكاظ فى البيت الرابع إلى ما كان فى أيام الفجار الآخر وكلها فى عكاظ أو فى مواضع قريبة منها . وكان مصرع عروة فى أيام الفجار الآخر . انظر العقد (٥ : ٢٥٤) ، والأغانى (١٩ : ٧٥) .

(٣) هذا ما فى ل ، م والتيمورية . وفى الأصل : « التسائل » .

(٤) أداروا ، بتقديم الدال ، كما فى جميع الأصول . وقد سبق نحوه فى ص ٤٥ .

سألْتَ من الشرِّ بالسَّماع دون العِيان ، فهو فى باب الأمر — أعنى ليكْفِ — كقولهم فى باب النَّهْى : لا أرينَّكَ هاهنا ، إذ كان المراد : لا تكن هاهنا فأراك . فإن قيل : لِمَ نكَّر قولَه من شرٍّ ، والذى يومِئُ إليه يجب أن يكون معروفاً مشهوراً ؟ قلت : إنّ فائدة المُنكَّرِ مثل فائدة المعرَّف فى مثل هذا المكان ، ألا ترى أنكَ تقول : فلانٌ يلبسُ خزًّا وقزًّا ، والخزَّ والقزَّ ، فلا يختلف المفهوم منهما ؟ وقوله « قيْسًا وما جمعُوا لنا » انتصب قيسًا على إضمار فعلٍ ، كأنه قال : سائل قيسًا والجيش الذى جمعوه لنا فى مَحْفِل أخبارُه تتحمّل وتُنشَر على مَرِّ الأحقاب والأيّام ، وشناعتُه تُستفظَع وتُذكر فى المَشاهِد والأقوام . والشَّنَعُ والشَّناعة والشَّناع والشُّنُوع : قُبْح الشىء الذى يطيرُ خبرُه ويَعْلو . ومنه شَنَعَ النَّجْم ، إذا ارتفع فى السماء . والشَّنَاعُ : الناقة الخفيفة . وتشنَّعت : تَشمّرت فى السَّيْر وجدّت . وإنما قالت « وما جمعوا لنا » لأنها أشارت بما إلى الجنس . ويجوز أن تريد : والذى جمعوا من أنواع المَلامات والجرائم . وإذا فَسدَ ذاتُ البَيْن من قومٍ أخذوا يتجرَّمون ويعدّدون ما لا يكونُ جِنايةً جِناية .

٣— فيه السَّنوَّرُ والقنا والكَبْشُ مُلْتمِعًا قِناعُهْ[١]

أشار بقوله « فيه السَّنوَّر » إلى ما اشتمل عليه ذلك المَشهدُ من العدَد والعُدّة . وموضع « فيه السَّنوَّر » من الإعراب جرٌّ على أنه صفة لمَجْمَع . والمراد بالسَّنوَّر والقنا والكَبْش أجناسُها . والسَّنوَّر : الدِّرع ، وقيل هو جماعة الأسلحة . والكَبْش : الرئيس . ومعنى « مُلتمِعًا قِناعُه » بارِقًا ، أى عليهم البَيضُ . وانتصب ملتمِعًا على الحال . ويجوز أن يُنْوَى الاستئنافُ بقولِهِ « والكَبْشُ » ، وحينئذ يُروَى « ملتمِعٌ » بالرَّفع ، فيكونُ خبرًا عنه ، وموضع الجملة يكونُ

(١) م والتبريزى : « ملتمع » ، وهما روايتان .

نَصْبًا على الحال ، وقد سُمِّيت البَيضةُ يَلْمَعًا لبريقه[1] ، كما سُمِّى السَّرابُ يَلْمَعًا . وفى المثل السائر « أَكْذَبُ من يَلْمَع » .

٤ — بعُكَاظَ يُعْشِى الناظِريـــنَ إذا هُمُ لَمَحُوا شُعاعَهْ

٥ — فيــه قَتَلْنا مالِكًا قَسْرًا وأَسْلَمَهُ رَعَاعُهْ

٦ — ومُجَــدَّلاً غادَرْنَهُ بالقَاعِ تَنْهَسُهُ ضِبَاعُهْ

قوله « بعُكَاظَ » الباء منه تَعَلَّقَ بقولهِ فى مَجْمَع ، ويجوز أن يتعلق بمُلتمِعًا . وشُعاعُه يرتفِع بيُغشِى ، والضميرُ منهُ يجوز أن يعودَ إلى عُكاظَ لكونِ الشُّعاع به ، ويجوز أن يعودَ إلى القِناع لأنَّ اللمعانَ له . ويقالُ أشعَّت الشمسُ ، أى انتشر شُعاعُها . ويقالُ لَمَحَهُ ببصَرِه ولَمَحَ البصرُ ، ولَمَحَ البَرْقُ ، وبرق لَمّاحٌ . وقولها « فيه قتَلنا مالِكًا » الضميرُ يعود إلى المَجْمَع ، ويجوز أن يعودَ إلى عُكَاظ . ومعنى قتَلناه قَسْرًا ، أى قَصْدًا ، لا اتِّفاقًا . والقَسْرُ : القَهْرُ على كُرْهٍ . ويقالُ قَسَرْتُه واقتسرتُه . وقولها « وأسْلَمَهُ رَعاعُه » ، إشارةٌ إلى لفائفَ انضمُّوا إليه فخذَلوه ولم يَفُوا له . والرَّعاعُ : سَفِلَةُ الناس وسُقَّاطُهم . وقال الخليل : الرَّعاعةُ : الرَّجُل الذى لا فؤادَ له ، ومنه رَعَاعُ الناس . و « مُجدَّلاً » انتصب بفعلٍ ما بعدَه تفسيرُه ، كأنه قال : وغادَرْنَ مُجدَّلاً غادَرْنَه . والضميرُ فى الفِعْل للخَيْل . والمُجَدَّل : المصروع على الجَدَالةِ ، وهى الأرض . والقاعُ : المُستوِى من الأرض . وموضع « تَنْهَسُه » نَصْب على الحال ، والعامل فيه غادَرْن . والنَّهْس : أخْذُ الشىء بمقدَّم فيك . ويُروَى : « تَنْهَشُه » بالشين معجمةً . وكان الأصمعىُّ يقول : النَّهْسُ والنَّهش سواء ، وهو أخْذ اللَّحم بالفمِ . وخالفه

(١) كذا فى جميع النسخ ، أى لبريق البيض .

أبو زيدٍ فقال: النَّهْس بالسِّين أخْذُك الشيء بمقدَّم فمِك. والضميرُ فى قولِه «ضباعُه» يعودُ إلى القاع.

٢٥١

وقال عبد القَيْس بن خُفَاف[(١)]

أحد بنى حنظلة بن مالك، البُرْجُمىّ[(٢)]:

١ — صَحَوْتُ وزايَلَنى باطِلِى … لَعَمْرُ أبِيكَ زِيالاً طَوِيلا

يقولُ: وبَقاء أبيكَ لقد أفَقْتُ من سُكْر البَطَالةِ، وفارَقَنى ما كنتُ أتعاطاه من الصِّبَا والجَهالة، فِراقاً ممتدًّا لا ينقطع بمُعاوَدةٍ تَعرِضُ دُونَه، أو بمواصَلةٍ تُبطِلُه وتُزِيلُه. فإن قيل: كيف وَصَفَ الزِّيالَ بالطُّول؟ قلتُ: الطول فى الحقيقة لوقتِ الزِّيال لا لَهُ، لكنَّهُ وصَفه به على طريق التوسُّع. وهم يستعملون الطُّولَ والعَرَض على ضَرْبين: أحدهما فى المُجَسَّمات، وذلك وصْفٌ لذهابها فى الجهتين. والثانى أن يرادَ بهما الاتساع للشىء، أو امتدادُ الوقتِ به. وهذا الوجه قد يُستعمل فى المُجَسَّم وغير المُجَسم. وأكثرُ ما يُستعمل منه العَرَض من دون الطُّول. على هذا قولُهم: نِعمةٌ عريضةٌ وجاهٌ عريض[(٣)]. وقال الله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰواتُ والأرْضُ﴾ وقال: ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾. وربما جَمَعوا

(١) شاعر جاهلى من شعراء المفضليات، قال أبو الفرج فى الأغانى (٧ : ١٤٥): «وأما عبد قيس بن خفاف البرجمى فإنى لم أجد له خبراً أذكره إلا ما أخبرنى به جعفر بن قدامة»، فذكر قصة فى أنه حمل دماء عن قومه فأسلموه فيها، وأنه أتى حاتما الطائى ومدحه، فحملها عنه. انظر للقصة أيضاً أمالى القالى (٣ : ٢١)، وقد أشار إليها المرزبانى فى معجمه ٣٢٥.

(٢) البرجمى: نسبة إلى البراجم، وهم خمسة من أولاد حنظلة بن مالك بن عمرو بن تميم: عمرو، وقيس، وغالب، وكلفة، وظليم، تحالفوا على أن يكونوا كبراجم الأصابع فى الاجتماع. والبراجم: ما ينشز من الأصابع إذا قبضت اليد.

(٣) الأبيات هى المفضلية رقم ١١٧.

بينهما فقد قالوا : عِشْنا زمناً طويلاً عريضاً . والدَّهرُ العريضُ الطويلُ ، يراد به الكمالُ والاتساع ، وقد قال كُثَيِّر :

بِطَاحِىٌّ له نَسَبٌ مُصَفًّى وأخلاقٌ لها عَرْضٌ وطُولُ

فهذا على التَّشبيه بالمُجسَّمات ، والقَصْدُ إلى السعة ، لأنَّ الأخلاقَ تُوصَفُ بالسَّعَةِ والضِّيق . وقد عِيبَ على أبي تمَّامٍ قولُه :

* بيَوْمٍ كطُولِ الدَّهرِ فى عَرْضِ مِثْلِهِ[1] *

وقيل جعَلَ للزَّمانِ عَرْضاً مع أنَّه لا حاجةَ به إليه ، إذْ كانَ بذِكْرِ الطول قد استوفَى المعنى المقصود . وهـذا من قائله ظلمٌ صريحٌ لأنَّه سلَكَ مثلَ طريقةِ كُثَيِّرٍ من التَّشبيه بالمُجسَّم ، فكما قال فى الأخلاق لها عرضٌ وطولٌ ، كذلك قال فى الزَّمان لَهُ طُولٌ كذا فى عَرْضِ مِثْلِهِ ، ولا فَصْل . وقوله « وزَايَلَنِي بَاطِلِي » قال سيبويه : يقال زايَلْتُ بمعنى بارَحْتُ ، ومنه قولهم ما زالَ يفعل كذا ، لأنَّ معناهُ ما بَرِحَ ، ويقالُ زالَ الشىءَ من الشىءِ يَزِيله زَيْلاً ، إذا مَازَهُ منه ، وزالَ الشىءُ يَزُولُ زَوالاً ، إذا فارَقَ . وجَواب القَسَم مُقدَّمٌ عليه .

٢— وَأَصْبَحْتُ لا نَزِقاً لِلِّحاءِ ولا لِلُحُومِ صَدِيقٍ أَكُولا[2]

٣— ولا سابِقِى كاشِحٌ نازِحٌ بِذَحْلٍ إذا ما طَلَبْتُ الذُّحُولا

أجرَى أصْبَحْتُ مُجْرَى صِرْتُ . والنَّزِقُ : الطَّيَّاشُ الخفيف العَقل . ويقال نَزِقَ يَنْزَقُ نَزَقاً ، ومنه نَزَّقْتُ الفرَسَ ، إذا ضَرَبْتَهُ حتى يَنْزَق . واللِّحاء : المُشاتَمَةُ . يقول : استَبْدَلْتُ من الخِفَّةِ وقاراً ؛ ومن العجلة أناة وسُكوناً ، فلا يستخِفُّنى النَّزَقُ لِمُلاحاة الرجال ، وثَلْبِ أعراض الأصدقاء بالاغتياب . ويقال

(١) من قصيدة له فى ديوانه ٢٤٤ يمدح بها أبا المستهل الطائى . وعجزه :
* ووجدى من هذا وهذاك أطول *

(٢) المفضليات : « لانزقا باللحاء » .

للمُغتاب: هو أكُولٌ لِلحُومِ النَّاس، كالسَّبُعِ الضَّارِى. وللنَّمَّام: هو أضْرَبُ من مَشَّى بِشَفَةٍ، من قوله عَزّ وَجَلّ: ﴿ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾. وفى القرآن: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾. وقوله « صديق » أراد به الكثرة لا الواحد.

وقولُه « ولا سَابِقِى كاشِحٌ نازِحٌ » فالكاشِحُ: العدوُّ الباطِنُ العَداوة. والنازح: البعيد الدَّار أو النَّسَب. وفى البيت يحتمل الوجهين. يقول: إذا سعيتُ فى طلب إصابةِ الأوتار، لم يَفُتْنِى العدوُّ البعيد الدار، لأنّ المسافات لا تمنعنى عن الطَّلَبِ وإن شَقَّت وثَقُلَتْ.

٤— وَأَصْبَحْتُ أَعْدَدْتُ للنَّائباتِ عِرْضًا بَرِيئًا وَعَضْبًا صَقِيلَا

٥— وَوَقْعَ لِسانٍ كَحَدِّ السِّنانِ وَرُمْحًا طَوِيلَ القَناةِ عَسُولَا[1]

يقولُ: وصِرْتُ كما استنكفتُ[2] من مَساوِى الأخلاقِ، وأخذتُ أتعطَّف على مكارِمِها، أعددتُ أيضاً لحوادث الدَّهر نفسًا نَقِيَّةً من الدَّنِيَّات، رافضة للمُنكَراتِ، وسَيفًا قاطعًا مصقولًا. كأنَّهُ فى وقت مساعَدَةِ الأحوالِ له وإقبالِ الزَّمان عليه، يَعلَمُ أنَّ المقدورَ كما يُعْطِى يرتَجِعُ، فيَسعَى فيما تَسلَمُ معه النَّفس ويَطِيبُ به النَّشر. وإنَّما قَرَنَ بذِكْرِ العِرضِ المُعَدِّ أسلحتَهُ لِيُرِىَ اكتفاءه بها إذا نابَتِ النائبات، كما قال غيرُه[3]:

فلمَّا نَأَتْ عنَّا العشيرةُ كُلُّها أَنَخْنَا فحالَفْنَا السُّيُوفَ على الدَّهْرِ

فَمَا أَسْلَمَتْنَا عِندَ يومِ كريهةٍ ولا نَحْنُ أَغْضَيْنَا الجُفُونَ على وِتْرِ

وقولُه « ووَقْعَ لِسانٍ » يجوز أن يكونَ من وقَعْتُ الحديدةَ بالمِطْرَقةِ، إذا

(١) ابن جنى فى التنبيه: « فى هذا دلالة على أن القناة غير الرمح ».
(٢) فى الأصل: « استنكف » والوجه ما أثبتنا من ل، م والتيمورية.
(٣) هو يحيى بن منصور الحنفى، فى الحماسية ١٠٨ ص ٣٢٦.

ضَربتَها ؛ ومنه حافِرٌ وَقِيعٌ ، إذا أثَّرت فيه الحجارة . ويجوز أن يكونَ من وقَعْتُ بهم وأوْقَعْتُ ؛ ومنه وقَعاتُ الدَّهرِ ووقائعُه . يقولُ : وأعددتُ لها لِسانًا مؤثِّرًا تأثيرًا شديدًا ، إذا اعترَزَ فى رِكاب القولِ نافذًا حديدًا ، نَفاذَ السِّنانِ . وهذا كما قال :

وِلساناً صَــيْرَفِيًّا صارِمًا كحُسامِ السَّيفِ ما مَسَّ قَطَعْ(١)

وقد قيل : « المرْءُ بأصغرَيْهِ قلبِه ولسانِه » . وإذا تَنقَّت الأعراضُ طالت الألسنةُ . وكانت الشُّعراء والخطباء عُدّةً للقبائل كالرِّجال والأموال ، بل كان الانتفاع بمكانِهم ، والدِّفاعُ بألسنتهم أتمَّ وأكمل . وقوله « ورُمحًا » أى وأعددتُ رُمحًا ، وجعَلَه طويلَ الخَشَبَةِ لأنَّ مُستعمِلَه طويلاً أفرسُ . والعَسُول : الشديدُ الاهتزاز ؛ ومنه عَسَلانُ الذِّئب ، وقولهم : عَسَلَ الدَّليلُ فى الطَّريق .

٦ — وسابغةً من جِيادِ الدُّرُوع تَسْمَعُ للسيفِ فيها صَلِيلاَ

٧ — كمَتْنِ الغَديرِ زَهَتْهُ الدَّبُورُ يَجُرُّ المُدَجَّجُ منها فُضُولاَ(٢)

يقول : وأعددتُ لها أيضاً دِرعًا واسعةً من خيرِ أجناسِها ، يَنبُو عنها السيف فلا يَعملُ فيها ، لاستحكامِها وجَوْدةِ سَرْدِها ، إلاَّ ما تَسمَعُ من صليلها عند إصابتِها به ، صافيةً كأنها صَفحةُ الماء من غَديرٍ هَبّت عليه ريحُ الدَّبُور ، فحرَّكتْهُ واستخفَّته ، فصار على ظواهِرِه حَبابٌ يتدافَع . وإذا لَبِسها المتدجِّجُ فى السِّلاح ، المستعدُّ للكِفاح ، فَضَلَ عنه منها فواضِلُ يَجُرُّها . وهذا كما قال الآخر(٣) :

* تُغشِّى بَنانَ المرْءِ والكَفَّ والقدمْ(٤) *

(١) البيت لسويد بن أبى كاهل اليشكرى فى المفضلية ١٩٩ .
(٢) رواية المفضليات : « زفته » بمعنى طردته ودفعته .
(٣) هو راشد بن شهاب اليشكرى فى المفضلية رقم ٨٦ .
(٤) صدره : * مضاعفة جدلاء أو حطمية *

والقَصْدُ فى هذا إلى صفةِ الدِّرعِ وجودتِها . ولو قَصَدَ مَدْحَ لابِسِها لكان يجعلها صِدَارًا أو بَدَنة . على أن كُثَيِّرًا لما أنشد عبد الملك قولَه فيه :

على ابنِ أبى العاصى دِلاَصٌ حَصِينَةٌ أجادَ المُسَدِّى سَرْدَها وأذَالَها

قال له : قولُ الأعشى لقيس بن معديكرِبَ أحسنُ من قولك :

وإذا تَجىءُ كتيبةٌ ملمومةٌ خَرْساءُ يَخْشَى الذائدُون نِهالَها
كنتَ المُقَدَّمَ غيرَ لابِسِ جُنَّةٍ بالسيفِ تَضْرِبُ مُعْلِمًا أبطالَها

فقال كثيِّر : يا أمير المؤمنين وصفتُك بالحزْم ، ووصَفَ الأعشى صاحبَه بالخُرْق .

ولقائلٍ أن يقول : إنّ المُبالَغَةَ فى الشِّعر أحسنُ من الاقتصاد ، والأعشى أعطَى المبالغة حقَّها ، فهو أعذرُ[1] ، وطريقتُه أسْلَمُ .

٢٥٢

وقالت امرأةٌ من بنى عامرٍ[2] :

١ — وحَرْبٍ يَضِجُّ القومُ من نَفَيانِها ضَجِيجَ الجِمالِ الجِلّةِ الدَّبِراتِ

انعطَفَ قوله « وحَرْبٍ » على مجرورٍ تَقَدَّمَه ، وليس على إضمار رُبَّ ، بدِلالةِ قولِها « سيَتْرُكُها قومٌ » . كأنه غَلَبَ على ظنها لما رأت من أماراتِ الشرِّ بين قومِها باستعمالهم البَغْىَ ، واستيطائهم الظُّلْمَ ، واستبدالهم بالتَّحابِّ تباغُضاً وبالتَّعاطُفِ تدابُرًا ، وبالتَّناصُر تخاذُلا ، وهم من جُرْثومةٍ واحدةٍ ، أنّه سيَحْدُثُ فى مُؤتَنَفِ الأحوال منهم أحداثٌ ، وتَظهر على مرور الأيام لدواعى الهُلكِ آياتٌ من كذا وكذا ، وحَرْبٍ يتشاكَوْن من اشتمالها لهم ، وتناوُلِها بالمشارَكةِ مَنْ

(١) كذا فى ل والتيمورية والتبريزى . وفى الأصل : « أغرز » ، وفى م : « أعذب » .
(٢) التبريزى : « وقال أبو رياش : هى من بنى قشير » .

عِدَاهم معهم ، وتجاوزُ القُرَباء بعد ذلك إلى البُعَداء فيهم . وهذا المعنى اقتضاه قوله « من نَفَيانِها » لأنَّ أصلَهُ أن يُستعمَل فيما يتطاير من القطْرِ عند سيلانِ الماء من أعلَى إلى أسفَل فى جوانِبِ المَصَبِّ ، فشبَّهَ ما يتدافع وينتشِرُ من أذى الحربِ فى جوانب القوم به . والجِلّة : المَسَانُّ من الإبل . وتعنِى التى مع السِّنِّ أضرَّ بها الكَدُّ ، وجَهَدَها الاستعمال ، وأزمَنَها الدَّبَرُ ، فقالت : تَضِجُّ العَشيرةُ لما يقاسُونَه من هذا الحرب ضجيجَ تلك الإبل عند ما تُقاسِى من العمل . وهذا التشبيه الصائب المتناهِى فى الدَّلالة على حالة المُشبَّه . وقد قال الراجز فى هذه الطريقة يَصِفُ حَرْبًا :

وأغْشَتِ الناسَ الضَّجاجَ الأضْجَجَا ... وصاحَ خاشِى شَرِّها وهَجْهَجَا[1]

٢ — سَيَتْرُكُها قَوْمٌ ويَصْلَى بِحَرِّها ... بَنُو نِسْوَةٍ لِلثُّكْلِ مُصْطَبِرَاتِ

نَبَّهَتْ بهذا إلى استفحال الحرب التى توعَّدَتْ بها وتفاقُمِ الخَطْبِ ، فقالت : تَضجَر بها فِرقةٌ منهم فينفضُون الأيدىَ منها تفاديًا من مُلابستِها ، ويعتزلون عنها طلبًا للسَّلامة من عُقباها ، وحَذرًا من امتدادِها إلى غايةٍ لا تُملَكُ فيها الاستقالةُ منها ؛ ويَصبِر فيها أُخرى ، وهم المنهمكون فى إيقاد نارها ، والاصطلاء بحرِّها ، المعنُون فى إثارةِ كامِنِها ، وإذاعة واقفها[2] ، الذين لا يبالُون بما يفعلونه أو يفعل بهم ، وقد تعوَّدَ الثُّكْلَ أمهاتُهم فلا يَجزَعنَ لقتلهم ، وألِفَ الأَيْمَةَ نساؤهم فلا يحزنَّ لموتهم . ومعنى « للثُّكْلِ » أى من أجْلِه ، وهذه اللام فى هذا الموضع قد تؤدّى معنى علَى ، فاعلَمْه .

٣ — فإنْ يَكُ ظَنِّى صادِقًا وَهْوَ صادِقِى ... بِكُمْ وبأحْلامٍ لَكُمْ صَفِرَاتِ

٤ — تَعِدْ فِيكُم جَزْرَ الجَزُورِ رِماحُنا ... ويُمْسِكْنَ بالأكْبادِ مُنْكَسِرَاتِ

(١) من أرجوزة للعجاج فى ديوانه ص ١٠ .

(٢) كذا فى جميع النسخ . والإذاعة : الإنشاء والإظهار . ويقال أذاع به ، أى ذهب به .

قولُها « فإن يكُ ظنِّى صادِقاً » يجرى منها مجرى التّحذير والوعيد ، وفيه بعض الاستفاءةِ ، لأنّها إذا رهِبَت من القطيعةِ وآفاتها ، فَقَد رَغِبَتْ فى الصلةِ وآياتِها . وقد تقدّمَ القولُ فى صادِقاً وصادِقٍ ، وفى حَذْف النُّون من يكُ فى الجَزْم مشروحا . وقولُها « وبأحْلام لـكم صفِراتِ » ، أى لا خَيْرَ فيها ، وقد زالت المُسْكَةُ[1] عنها . ويقالُ صَفِرَ الإناء وغيرُه صُفُورًا ، وإناءٌ صِفرٌ وصَفِرٌ . وقال الخليل : هو صَفِرٌ صَحِرٌ على الإتباع ، أى خالٍ . وقولها « تُعِدْ فيكم جَزْرَ الجزور » جواب الجزاء من قولِها ، فإن يك ظَنِّى صادقاً ، كأنّها ذَكَّرَتْهم حالة مُنكرة تقدمتْ لهم ، فلذلك قالت : تُعِدْ فيكم . والجَزْر : القطع . وقيل الجَزُورُ لأنها تُقْطَعُ وتُقْسَم . والجَزَرَةُ : الشاةُ تُذْبح . ويقال . تُرِكَ بَنُو فلانٍ جزَرَ الرِّماح ، أى قُتِلُوا واجتزرَتْهم السِّباع . وجعَل الإعادَة للرِّماح على الاتِّساع . وقوله « ويُمسكن بالأكبادِ » يروى بفتح السِّين ، أى يُضْبَطْنَ ؛ ويروى بكسر السِّين : وهو ظاهرُ المعنى . وانتصب « منكسراتِ » على الحال والمُرَادُ أنهُمْ يَجُرُّونَ الرُّمْحَ عند الطَّعْنِ ويصيبون المَقاتل .

٢٥٣

وقال مَعْبَد بن عَلْقَمة[2] :

١ — غُيِّبْتُ عن قتْلِ الحُتَاتِ ولَيْتَنِى شَهِدْتُ حُتَاتاً يومَ ضُرِّجَ بالدَّمِ[3]

(١) فى الأصل : « المسْلة » ، صوابه فى سائر النسخ.

(٢) روى التبريزى هـذه الحماسية متقدمة على هذا الموضع ، أى بعد الحماسية ٢٠٥ كما سبق التنبيه فى ص ٦٢٩ . ومعبد بن علقمة ، هو معبد بن أخضر المازنى ، وأخضر زوج أمه فنسب إليه هو وأخوه عباد الذى ندبه عبيد الله بن زياد لقتال الخوارج ، وقد قتل أخوه عباد فى حربهم تلك ، فتقدم للأخذ بثأره فى جماعة من المازنيين ، فحاربوا الخوارج حتى قتلوهم جميعاً لم ينج منهم إلا عبيدة بن هلال . وفى ذلك يقول معبد بن علقمة :

سأحمى دماء الأخضريين إنه أبى الناس إلا أن يقولوا ابن أخضرا

الـكامل ٥٩١ — ٥٩٢ .

(٣) انظر اللآلى ٣٤٣ . والحتات هـذا ، هو الحتات بن يزيد المجاشعى وقد ذكر الجاحظ فى البيان (٢ : ٢٣٧) إلى أن بنى مازن — وهم رهط معبد — هم الذين ضربوه .

٢ - وفى الكفّ مِنّى صارمٌ ذو حقيقةٍ ... متى ما يُقدِّمْ فى الضَّرِيبةِ يُقدِمِ
٣ - فيَعْلَمَ حيًّا مالكٍ ولفيفُها ... بأنْ لستُ عن قتلِ الحُتاتِ بمُحْرِمِ

إنما قال هذا لأنه كان يُستبعَدُ وقوعُ قتلِه من جهته، إذ كان منه ذا رحمٍ مَحرَمٍ. فجمع فى كلامه هذا بين تلهُّفٍ على فائتةٍ، وتمنٍّ على شرطٍ عقَدَه به له، فيقول: أُخِّرْتُ عن قتلِ هذا الرَّجلِ يومَ أُصيبَ ولُطِّخَ بالدَّم، فذهبتْ نفسُه فيه وتغيَّبْتُ، وكنتُ أوَدُّ وأتمنَّى أن أكون حاضره، ومشاهِدًا وقتَهُ وحَيْنَه، ومعى سيفٌ قاطع يَنفُذُ فى الضَّرِيبة إذا أُعمِلَ بحقِّه من المَضاء وحقيقته، ويأتى على المضروبِ بحَدِّه وصرامته، فيتيقَّنَ الجيشان ومن لف لِفَّهُم[1] وانضاف إليهم من أوباشٍ تجمَّعُوا لهم، وقُماش تكثَّروا بهم، بأنّى لست عن قتل هذا الرَّجلِ بذاهب ولا مُمتنِع حتَّى كأنِّى فى حرَمٍ. وقوله «يومَ ضُرِّجَ» فهو من الضَّرَجِ[2]، وهو الحمرة. والإضريج: ضَرْبٌ من الخز أحمر. ويقال: ضرَّجْتُ الثَّوبَ، إذا صبغته بالحمرة خاصَّةً، وتضرَّجَ الخدُّ عند الخَجَل. وقوله «ذو حقيقةٍ» فالحقيقة ما يصير إليه حَقُّ الأمر ووجُوبه، وتوسَّعوا فقيل: حاقَقْتُ الرجلَ، إذا جاذبته حقًّا بينكما. ويقال «هو نَزِقُ الحِقاقِ»، إذا جاذَبَ فى صغار الأمور. وقوله «بمُحْرِمٍ» يقال: أحرَمَ الرجلُ، إذا دَخل فى الحرَم، أو فى الشهر الحرَامِ. وفسَّرَ قول الرَّاعى:

* قَتَلُوا ابنَ عفَّانَ الخَليفَةَ مُحْرِمًا[3] *

---

(١) لفهم، وردت فى الأصل، ل، م بكسر اللام، وهى صحيحة. يقال: جاء بنو فلان ومن لف لفهم ولفهم، بفتح اللام وكسرها، وفى لغة قليلة بضم اللام، كما فى اللسان، وقد عبر عن هذه اللغة القليلة بقوله «وإن شئت رفعت»، أى ضممت.

(٢) لم ترد هذه الكلمة فى المعاجم المتداولة. وقد ضبطت فى نسخة الأصل بسكون الراء، وفى ل، م بفتحها.

(٣) عجزه كما فى جمهرة أشعار العرب ١٧٦ والخزانة (١ : ٥٠٣) واللسان والمقاييس (حرم):

* ودعا فلم أر مثله مقتولا *

على أنهُ كان له حرمةُ الإمامةِ والبلدِ والشهر ، لأنهُ قُتِل رضى الله عنه فى ذى الحِجّة . وانتصبَ « فَيعلمَ » على أنه جواب التمنّى .

٤ — فقلْ لِزُهَيرٍ إن شتمْتَ سَرَاتَنا فَلَسْنا بِشَتَّامِينَ للمُتَشَتِّمِ (١)

٥ — ولكنّنا نأبَى الظِّلامَ ونَعْتَصِى بكلِّ رقيقِ الشَّفْرَتَينِ مُصَمِّمِ

يقولُ : أبْلِغْ هذا الرَّجُلَ أنّك إن اعتمدتَ على رُكوبِ السَّفَه معنا ، وتعمَّدتَ فى مجاذبتِنا سَبَّ خِيارِنا ، وثَلْبَ أعراضِنا ، فإنّا نَرْبأُ بأنفسنا عن مجاراتِك فى هذا المَيدان ، ومكايلتِكَ بمِكيال السِّباب . والمتشتِّمُ : المُتحكِّكُ بالشَّتم والمتعرِّضُ له . ويصلُحُ أن يكون للجِنْس فيدخُل فيه زُهَيرٌ وغَيْرُهُ ، ويَصْلُح أن يُراد به زُهَيْرٌ خاصَّةً . وقوله « ولكِنّنا نأبَى الظِّلامَ » يريد : لا نرضَى بالدَّنِيّات ، ونمتنع من التزام الظُّلامات ، ونُدافع عن أحسابِنا بكُلِّ سيفٍ رقيق الحدَّينِ ، نافذٍ فى الضَّريبةِ . والظُّلامُ والظُّلامةُ والمَظلِمةُ واحدٌ ، وهو ما تظالَمَ النّاسُ بسببها بينهم . ويُروَى : « الظِّلام » بكسر الظاء ، مصدر ظالمتُه مُظالَمةً وظِلامًا . وقوله « ونَعْتَصِى » يُقال عَصِيتُ [بالسَّيف (١)] ، واعْتَصَيْتُ وعَصَوْتُ بالعَصَا . ومَرَّ يعتصِى على العصا ، أى يتوكّأ عليها . والتصميم : المضىُّ فى الأمر . ويُقال صَمَّمَ فى عضّته ، إذا نَيَّبَ .

٦ — وَتَجهلُ أيدِينا ويَحلُمُ رأيُنا ونَشْتِمُ بالأفعالِ لا بالتَّكلُّمِ (٢)

٧ — وإنّ التَّمادِى فى الذى كان بيْنَنا بِكفَّيْكَ فاستأخِرْ لهُ أو تقدَّمِ

أفعال جُملةِ الإنسان تُنْسَبُ إلى جوارِحهم على المجاز والسَّعَة ، فلذلك

---

(١) التكملة من سائر النسخ .

(٢) نشتِم ، بكسر التاء فى جميع النسخ . ويقال أيضا « نشتُم » بضم التاء .

نَسَبَ الجَهْلَ إلى الأَيدِى . والمعنَى أنَّ ما يُذَمُّ من أفعالِ القُلوب لا نكتسبه بوَجْهٍ ، بل فينا الرأىُ الثّاقب ، والوقار الغالِب ، والأَناةُ والحِلْمُ ، والسَّكينة والعِلْمُ ؛ فأمَّا اليدُ فإذا بَطَشنا بها بطشنا جَبّارين . أى نحْلُمُ بجَهدِنا ومقدار طاقتنا فإذا أُحرِجنا فخَرَجنا عن العادة كانت أفعالُ أيدينا أفعالَ الجُهّال الذين لا رِعَةَ تَردَعُهم ، ولا رقّة تضبِطُهم . وقولُه « ونَشتِمُ بالأفعال » ، يقول : نجعل جزاء الشَّتْمِ والمَنْقَصةِ والثَّلْبِ الفِعلَ لا القَول ، إذْ كان القولُ يَذهب أدراجَ الرِّياح ، والفِعلُ يَبقَى أثرُه على مرِّ الأيّام . وقولُه « وإن التَّمادِى فى الذى كان بيننا بكفَّيْك » ، توعُّدٌ . يقول : أمرُ اللَّجاج والاستمرارِ فيما يزيدُ ما بيننا فسادًا أنت قادرٌ عليه ، ومتمكِّنٌ من اختياره ، فإنْ شئتَ فتقدَّمْ فيه ، وإن شئتَ فتأخَّرْ عنه . ويقالُ استأخَرَ واستقدم ، وتَقدَّم وتأخَّرَ ، بمعنًى واحدٍ .

٢٥٤

وقال أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلْتِ (١) :

١ — غَذَوْتُكَ مَوْلُودًا وعُلْتُكَ يافِعًا ... تُعَلُّ بما أُدْنِى إليكَ وتُنْهَلُ (٢)

٢ — إذا لَيْلةٌ نابَتْكَ بالشَّكْوِ لم أَبِتْ ... لِشَكْوِكَ إلا ساهِرًا أتَمَلْمَلُ

٣ — كأنّى أنا المَطْرُوقُ دُونَكَ بالذى ... طُرِقْتَ بهِ دُونِى وعَيْنِىَ تَهْمُلُ

(١) أمية بن أبى الصلت ، وأبو الصلت هو عبدالله بن أبى ربيعة بن عوف الثقفى ، شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام ولم يسلم . ولما أنشد النبى صلى الله عليه وسلم شعره قال : آمن لسانه وكفر قلبه . وكان فى الجاهلية ممن نظر فى الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً ، وفى الإسلام كان يحرض قريشاً بعد وقعة بدر ، ويرثى قتلى المشركين ، وتوفى سنة تسع من الهجرة . الإصابة والخزانة (١ : ١١٩ — ١٢٢) وابن سلام ٦٦ — ٦٨ والاشتقاق ١٨٤ والأغانى (٣ : ١٧٩ — ١٦/١٨٥ : ٦٩ — ٧٦) وابن قتيبة ٤٢٩ — ٤٣٣ .

(٢) هذه الحماسية اختلف فى قائلها . قال التبريزى . « وتروى لابن عبد الأعلى ، وقيل هى لأبى العباس الأعمى ، قال أبو هلال : أوردها أبو عبيدة فى أخبار العققة والبررة » . وأبو العباس الأعمى شاعر أموى ترجم له فى الأغانى (١٥ : ٥٧) . واسمه السائب بن فروخ .

اعتَدَّ عليه بما تَجشَّمه فيه بعد أن كان السَّبَبَ فى إبدائه وإنشائه ، وبما أعَدَّ له وتكفَّلَ به ، من ابتداء الطُّفولة إلى انتهاء الشَّباب واستكمال القُوَّة ، إذ كان جارِحَهُ ومربِّيَه[(١)] ، والقائم بمؤنه على اختلاف سِنِيه[(٢)] . ويقال غذوتُك غذْوًا . والغِذاء : الطَّعام والشَّراب . ويقال غلامٌ يافعٌ ويَفاعٌ ويَفَعٌ ، وقد أيفَعَ . وأصلُه الارتفاع ، ومنه اليَفاعُ من الأرض والجَبل . وقولُه «عُلْتُكَ» أى أنفقتُ عليك . يقول : ربَّيتُك لما وُلِدتَ ، ومُنتُك حين أيفعتَ ، وفى تلك المدَّة تُسقَى العَلَلَ والنَّهَل ، وتُطعَم الحارَّ والبارد ، وتُكسَى اللَّيِّن والخَشِن ، كُلٌّ ذلك مما أجمعُه لك ، وأُدْنِيه منك ، وبعدَ أن أقِيكَ من المَحاذر ، وأحفظك دون المَتالف ، شفقةً عليك ، واهتماما بشأنِك ، فإن طرقَتْكَ ليلةٌ بشكاةٍ تؤذيك ، أو عارض يُضْنِيك ، سهرتُ طولَ تلك اللَّيلة لا أهدأ قلقا ، ولا أستنهضُ لدفع ما أجدُه سَكَنًا[(٣)] ، ولا أستلينُ مِهادًا ، ولا أثنى لمقرِّ رأسى وِسادًا ، بل أتلوَّى وأضطربُ ، وأتملمَلُ على فِراشى وأتقلَّبُ ، حتَّى كأنِّى المختصُّ بما أشكاكَ ، والمَدْهِىُّ بما دَهاك ، لا يجِفُّ مَدمَعِى ، ولا يَوْطُؤُ مضجعى . وقولُه « تَعلُّ بما أُدْنِي » يجوز أن يكونَ موضع تُعلُّ صِفةً لقوله يافعًا ، أى مَعْلُولًا ؛ ويجوز أن يكونَ خبر مبتدإ محذوف ، كأنه قال : وأنت تُعَلُّ وتُنهَلُ بما أُدْنِيه . وقوله « لم أبِتْ لِشَكْوِكَ » فالشَّكْوُ والشَّكوَى والشَّكاةُ واحِدٌ . والتَّملمُل : القلق وتركُ الهُدُوِّ . ويُروَى « تُعلُّ بما أجْنِي عليكَ » والمعنى أجْنِي لكَ . وهذا كما يقالُ : سَعَى فلانٌ على ذَوِيهِ ، إذا سَعَى لهم فى مصالِحِهم : ويقالُ جَنَى الثَّمرَ يَجْنِي جَنْيًا وجِنايةً . قال الأخْطلُ :

* دَانِى الجِنايَةِ مُونِـعُ الأثْمارِ[(٤)] *

(١) الجارح : الكاسب . (٢) فى نسخة الأصل : « سنه » .

(٣) السكن : كل ما سكنت إليه واطمأننت ، من أهل وغيره .

(٤) صدره فى ديوان الأخطل ٧٧ :

* وكأن ظعن الحى حائش قرية *

٤ — فلمّا بلغتَ السِّنَّ والغايةَ التى إليها مَدَى ما كنتُ فيك أؤَمِّلُ
٥ — جعلتَ جزائى منكَ جبهًا وغِلظةً كأنكَ أنتَ المُنعِمُ المُتَفَضِّلُ

يقول: فلمّا تكامَلَ منك الشبابُ، وتعلّقتْ بك الآمالُ، وبلغتَ المدى المنتظَرَ للانتفاع بك، والاستظهار بمكانك، والاضطلاع بكفايتك، وصلَحتَ لأنْ تكونَ عُدّةً وعددًا، وبأسًا مَخوفًا، وطمعًا مَرجوًّا، أقبلتَ تُجازِينى بإحسانى إساءةً، وبما استسلفتَ من جانبى غِلظةً، وبما ترفرفَ عليك من رحمتى ورِقّتى نُبُوًّا وقسوةً، حتّى كأنّ ما سالَ عليك من نِعمتى[1] كان لكَ، وما أسبَلَ عليك من فضلِى وإفضالِى كان منك؛ لا مُراجعةَ فى الأوّل تَرُدُّكَ، ولا مُلاحظةَ لعُقباكَ تَفِىءُ بكَ.

والجَبْهُ: مقابلةُ الإنسان بما يكرهه.

٦ — فليتَكَ إذ لم ترعَ حقَّ أبوّتِى فعلتَ كما الجارُ المجاورُ يفعلُ[2]
٧ — تراهُ مُعِدًّا للخِلافِ كأنّهُ بِردٍّ على أهلِ الصّوابِ مُوكَّلُ

يقول: وَدِدتُ أنك إذ لم تُبالِنى إكبارَ الآباء، ولم تَرْعَ منّى حقوقَ الوِلادِ والإنشاء، سِرْتَ معى بسيرةِ المُجاورِ لجارِه، والمُرافقِ لرفيقِه؛ فإنّ ذلك إذا عُدَّ درجاتُ المَبارِّ، ومُدَّتْ علائقُ التّحابِّ، وتُؤُمِّلَ ذِممُ القرابةِ، وحُرَمُ الصداقة، أضعفُ الأواخى، وأدونُ المَراقِى. ثم أخذَ يُنبِّهُ على سُوءِ اختياره، وتمادِى لَجاجِه، وتناهِى جهلِه والتوائه، فقال: «تراه مُعِدًّا للخِلاف» أى جعلَ الخِلافَ على ذوى الرّأى وأربابِ العقلِ، وأولى الحَزامةِ والحِلمِ، عُدّةً.

(١) ل والتيمورية: «نعمى».
(٢) أنشد التبريزى بين هذا البيت وتاليه:

وسمّيتنى باسم المُفنَّدِ رأيُه وفى رأيكَ التّفنيدُ لو كنتَ تعقِلُ

فكأنه وكل بردّ صوابهم ، واستقباح المُحسَّنِ عندهم . فإن قيل : بماذا دخل هذه الأبياتُ وما يتلوها — وهو فى معناها — فى باب الحماسة ؟ قلتَ : دخلت فيه بالمشاكلةِ التى بيْنها و بين ما تقدَّمها من الأبيات ، المُنْبِئةِ عن المُفاسدةِ بين العشائر ، وما يتولَّدُ فيها من الإحَنِ والضغائن ، المُنْسِيَةِ للتَّواشُج والتَّناسُب ، المُنْشِئةِ لهتكِ المَحارم ، المبيحةِ لسفكِ الدِّماء وقَطْعِ العِصَم ؛ إذ كان عُقوقُ البنين للآباء ، وتناسِى الحُرَم ، فيه مثلُ ذلك . وهو ظاهرٌ بيِّنٌ .

٢٥٥

وقالت امرأةٌ من بنى هِزّان(١)

يقال لها « أمُّ ثَواب » فى ابنٍ لها عقَّها :

١ — رَبَّيْتُه وهو مِثْلُ الفرخِ أعظمُهُ أمُّ الطَّعامِ تَرَى فى جِلْدِهِ زَغَبا

٢ — حتى إذا آضَ كالفُحّالِ شَذَّبَهُ أبَّارُهُ ونَفَى عن مَتْنِهِ الكَرَبا

٣ — أنشا يُمزِّقُ أثوابى يؤدِّبُنى أبَعْدَ شَيْبِى عندى تبتغى الأدَبا(٢)

يقال رَبَبْتُه وربَّيْتُه بمعنًى . ومعنى البيت : كانَ ابنى حين ولدتُه فى ضَعْفِه وصِغَرِه ، وتَساقُطِ قوَّته ، وتَخَلْخُلِ بِنْيَتِهِ ، ورخاوة مفاصله ، كفَرْخِ القَطاة لم يَستبدِلْ بَعدُ بزَغَبِه شَكِيرًا ، ولا بانحلال عَقْدِهِ تماسُكًا ، فأقبلتُ أربِّيه وأعظمُ شىء فيه بطنُهُ ، وأرقِّيه فى مَدارجِ النَّشْء والترشيح وهو لا يميِّز ما ينفعه مما يضرُّه ، متردِّدًا فى الأحوال التى تَجْرى إليه ، وتتغيَّرُ عليه ، بين صيانةٍ كاملةٍ ، وشفقةٍ بارعةٍ ، وحِفظٍ مُتَّصِلٍ ، و إشفاقٍ مُطَّرِدٍ . وتَسْمِيَتُه البطنَ

(١) هم بنو هزان بن صباح بن عتيك بن أسلم بن يذكر بن عنزة بن أسد بن ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان . الاشتقاق ١٩٤ .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية : « أبعد ستين » .

بأمِّ الطعام ، كما قيل للجلدة الرقيقة المُلْبَسةِ الدماغَ أمُّ الدماغ ، وكما سُمِّيَ المَجَرَّةُ أمَّ النجوم ، وكلُّ ذلك لما في المضاف والمضاف إليه من الانضمام والاحتواء . وقد سَمَّى الشَّنْفَرى تأبَّطَ شرًّا بأمِّ عِيالٍ ، فقال :

وأمِّ عِيالٍ قد شَهِدْتُ تَقُوتُهم إذا أطعمَتْهم أوْتَحَتْ وأقلَّتِ

لِمَا كان يَجمع من أمر أصحابه ويتكفَّل به لهم ويُدبِّره . وقولها « حتى إذا آضَ كالفُحّالِ » حتى وُضِعَ للغايةِ ، وأُضيفَ إلى إذا وما بعده من الجُملة التى انشرَحَ إذا بها . والمعنى إلى هذا الوقت . وموضع « كالفُحّالِ » نَصْبٌ على الحال(١) . يقول : لم أزلْ أجرى معه فى تربيته وتفقُّدِه ، إلى أن استكمل شَبابَه ، وبَرَعَ نَباتُه ، وامتدَّ قَوامُه ، فصار كفحلِ النَّخْل وقد قَطَعَ مُتعهِّدُه منه شَذَبَه(٢) ، وألقى عن ظهره كَرَبَه ، ليَكمُلَ طولُه ، ويتِمَّ غِراسُه . والكَرَب : أُصول الأعذاق تُترَك كالأوتادِ ليُرْتَقى بها فى النَّخْل . والفُحّال : فَحْل النَّخْل خاصّةً ، ولا يقال لغير فَحْلِها فُحّال . والأَبّارُ والمُؤَبِّرُ : المُلقِّحُ للنَّخْل . والفُحّال لا يُؤَبِّرُ ، ولكن لمّا كان يُؤَبَّرُ به النَّخْل أضاف الأَبّار إلى ضميره ، على عادتهم فى إضافةِ الشىء إلى غيرِه لأدْنى تعلُّق بينهما . ألا تَرى إلى قوله تعالى : ﴿ فإذا جاء أَجَلُهُمْ ﴾ وفى موضع آخر : ﴿ فإنّ أجَلَ الله ﴾ . ومعنى آضَ ، قال الخليل : الأَيْضُ صَيرورةُ الشىء شيئاً غيرَه وتحوُّلُه عن حاله . وقولُه « أنشا يُمزِّقُ أثوابى » هو جوابُ قوله حتى إذا آضَ كالفُحّال ، وهو العاملُ فى إذا ، أعْنِى أنشأ . ويقالُ أنشأ اللهُ الخَلْقَ ، ونَشَأَ فلانٌ حديثاً ، ثم يقال : أنشا يفعل كذا ويقول كذا . يقول : لمّا بَلَغَ هذا المبلغَ ابتدأ يضربُنى ويُخرِّقُ ثيابى ، مُرْشِدًا

(١) هذا مذهب لبعض النحاة . وبعضهم يراه خبراً لآض ، إذ يعدون « آض » فى الأفعال العشرة الملحقة بصار فى العمل ، وهو مذهب ابن مالك . همع الهوامع (١ : ٢ ١١) .

(٢) الشذب ، بالتحريك : قشر الشجر وقطعه .

ومؤدِّبًا . ثم قالت وكأنَّها أقبلت على إنسانٍ غيرِه بحضرتِها تخاطِبُه مُنكِرةً ومتعجِّبةً : أبعدَ المَشيبِ يطلُبُ تأديبي . وهذا الكلام منها كالإشارة إلى المَثل المضروب السائر فى الأمَم : « من العَناء رياضةُ الهَرِمِ » ، وهو مع ذلك يجرِى مجرى الالتفات .

٤ — إنِّى لأَبصِرُ فى تَرْجيلِ لِمَّتِهِ وخَطِّ لِحْيَتِه فى خَدِّهِ عَجَبا
٥ — قالت له عِرْسُه يومًا لتُسْمِعَنى مَهْلاً فإنَّ لنا فى أُمِّنا أرَبا
٦ — ولو رَأتْنىَ فى نارٍ مُسَعَّرَةٍ ثم استطاعت لزادت فوقَها حطَبا

قولها « إنى لأَبصِرُ » ، يقال أبصرتُ الشىءَ وبَصُرتُ به . والبَصَر : العَينُ ونَفاذُ القلبِ . وحُكِىَ أنَّ معاوية قال لابن عباسٍ وقد كُفَّ بَصرُه : ما لكم يا بنى هاشمٍ تُصابون بأبصاركم إذا أسنَنْتُم ؟ فقال : كما تصابون ببصائركم عنده !! والترجيل : غَسل الشَّعر ومَشْطه . وعَجَبًا مفعول أبصِرُ . ويقالُ أمرٌ عَجَبٌ وعجيبٌ وعُجابٌ ، إذا تجاوزَ حدَّ العَجب . والاستعجاب : شدّة التعجُّب . تقول : أرَى بَعْدَ ما شاهدتُه من طفولتِه وضعف حَرَاكِه وتنقُّلِ الأحوال به وقتًا بعد وقت ، ونَشْئًا بعد نَشْءٍ ، عَجَبًا فى لِمَّتِه ولِحْيَتِه المختطّة[1] . أى أتعجّب كيف تحوّلَ عن تلك الحالة إلى ما أجِدُه عليه الساعةَ . ثم قالت حاكيةً عن زوجتِه ما كانت تتفوّه به سُمعةً ورياءً ، وتقيمُ به سُوقَها حِيلةً ونِفاقًا ، إظهارًا لخلافِ ما ينطوى عليه قلبُها ، ويَشتمل عليه ضميرُها : كُفَّ عن إيذاء أمِّنا فإنّا لا نستغنى عنها ، ولا تتمشّى أمورُنا إلّا بها وبحياتِها . ومعنى مَهْلاً رِفقًا لا تَعجَل . وأصل المَهْل والمَهَل السَّكينة والوقار ، ومنه الإمهال فى الدَّيْن . والأرَب : الحاجة . ثم صرّحت بما عرَفَتْهُ من سوءِ نِيَّتها فيها ، وحِرْصها على

(١) فى الأصل : « المختلطة » ، صوابه فى م ، ل والتيمورية .

الزيادة فى مساءتها ، فقالت : تكلَّفْتَ ذلك المقالَ منها مَلَقاً منها ومجاملة ، ولو وجدتْنى فى نارٍ مُحْرِقةٍ ثم قدرَت لزادت فى وَقودِها وإضرامها . ويقال : سَعَرْتُ النارَ والشرَّ وأسعَرْتهما ، وإنه لمِسْعَرُ حرْب .

٢٥٦

وقال ابنُ السَّلْمانى[١] :

١ — لَعَمْرُكَ إنّى يومَ سَلْعٍ لَلائمٌ لِنَفْسِى ولكن ما يَرُدُّ التَّلوُّمُ

سَلْعٌ : موضعٌ أضاف اليومَ إليه تعريفاً . وحُكِىَ السَّلْعُ : شقٌّ فى الجبل ، ومنه قيل : تَسلَّعت رِجلُه ، إذا تشقّقت . وكأنَّ قولهم : هادٍ مِسْلَعٌ[٢] من هذا ، أى يَشُقُّ أجوازَ الفلاةِ شقًّا . واللام من « لَعَمْرُكَ » لام الابتداء ، وخبر المبتدإ محذوفٌ . ولا يجىء « عَمْرو » فى القَسَم إلا مفتوحَ العين ، وإن كان الضمُّ لُغةً فيه ، ومعناه البقاء . والتلوُّم : تكلف اللّوم ، فهو كالتذمُّم . يقول : وبقائك إنى فى هذا اليوم لعاتبٌ على نفسى ومُقرِّع لها ، ولكن ماذا يُغنِى التعتُّبُ والأمرُ فائتٌ . وقوله « ما يَرُدُّ » يجوز أن يراد به ما يَرجِعُ ، ويجوز أن يكون بمعنى ما ينفع . ويقال : هذا أرَدُّ عليك ، أى أنفَعُ . وموضعُ « ما » يجوز أن يكون مفعولا ، ويجوز أن يكون مبتدأً .

٢ — أأمْكَنْتُ من نَفْسِى عَدُوِّىَ ضَلَّةً أَلَهْفَى عَلَى ما فاتَ لو كنتُ أعْلَمُ

قوله « أأمكَنْتُ » لفظه الاستفهام ، ومعناهُ التقريع والتَّوبيخ . وهذا

---

(١) شاعر إسلامى كان إبراهيم بن عربى والى اليمامة من قبل عبد الملك قد قبض عليه وحمله إلى المدينة مأسورا ، فلما مر بسلع ، وهو موضع قرب المدينة ، قال هذه الأبيات . معجم البلدان (سلع) . وابن السلمانى ، كذا ورد فى جميع النسخ ، ويعززه ما فى معجم البلدان . وعند التبريزى : « ابن السليمانى » . والسلمانى : نسبة إلى سلمان ، وهم حى من مراد ، كما فى الأنساب ٣٠٢ ب .

(٢) هو فى قول سعدى الجهنية ترثى أخاها أسعد :

سباق عادية ورأس سرية ومقاتل بطل وهاد مسلع

الكلام هو صريحُ لَوْمِه لنفسه ، فيجوز أن يكون حَذَف قبله لفظةَ قائلٍ ، كأنه قال : إنّى لائمٌ لنفسى وقائلٌ أأمْكَنْتُ . ويجوز أن يكون استأنف عَذلَ نفسه من بَعْدُ أيضا . وقولُه « ضَلّةً » مصدر فى موضع الحال ، ويجوز أن يكون مفعولًا له ، أى فعلْتُ ذلك ضالًّا أو لإضلالى . وأصلُ الضَّلالِ الذَّهاب عن القصد . ويقال ضَلِلْتُ مكانى ، بكسر اللام وفتحها ، إذا لم تهتدِ إليه ، وأضْلَلْتُ بعيرى ، إذا شرَدَ فذهَبَ عنك . وقولُه « ألَهْفَى على ما فات » تحسُّرٌ وتأسُّفٌ ، وهو كلامٌ مستقلٌ بنفسه . وقولُه « لو كنتُ أعْلَمُ » تندُّمٌ على ما قصَّر فيه من النَّظر والفحصِ ، والكشفِ عن عُقْبَى الأمْرِ . وأعْلَمُ مفعولُه محذوف ، وهو بمعنى أعرِف ، فيكتفِى بمفعول واحد ، كأنّه أراد : لو كنتُ أعْلَمُ مَغَيَّبه[(١)] . وجواب لو محذوفٌ ، أى لو علمْتُ ما تندَّمْتُ ولا شَقِيتُ ، وهذه اللفظةُ هِجِّيرَى كلّ متوانٍ فى الشَّىء حتّى يفوتَه أو يُكابدَ المكروهَ فيه . والبيت على ثلاثة فصولٍ ، كلُّ فصلٍ منها ينفردُ بمبناه ولا يفتقر إلى سِواهُ : فالأوّل قوله « أأمْكَنْتُ من نَفْسِى عَدُوِّىَ ضَلّةً » كأنه يستنكر ما اتّفق منه ضلالًا ، فأخذ يستفهم تقريعًا وعتابًا . والثانى «ألَهْفَى على ما فاتَ» ، وقد تقدم القول فى إعراب « ألَهْفَى[(٢)] » . والثالث قولُه « لو كنتُ أعْلَمُ » أى لو علمْتُ لتحرَّزْتُ .

٣— لَوَ انَّ صُدورَ الأمْرِ يَبْدُونَ للفتَى كأعْقَابِهِ لم تُلْفِهِ يَتَنَــــــدَّمُ

هذا مَعذِرةٌ فيما سَهَا عنه ومَسْلاةٌ عمّا بُلِىَ به [فتحزَّنَ له[(٣)]] . وقولُه « لو أنّ صدورَ الأمر » ، هو حذف المضاف ، والمراد : لو أنّ مؤدِّيات صدورِ الأمرِ ومسبَّباته تظهر للفتَى كما تَظهر له عند أعجازه ، لم تَرَهُ نادمًا على فائتٍ ،

---

(١) ل والتيمورية : « مغبته » ، أى عاقبته . وما فى سائر النسخ أقوم .
(٢) انظر ما سبق فى الحماسية ٤ ص ٤٤ .
(٣) التكملة من م ، ل ، وفى التيمورية : « فتحرز له » .

ولا جازعًا إثرَ هالِكٍ . وفى طريقته قولُ ابنِ الرُّقَيَّات :

فى مُقْبِلِ الأمرِ تَشْبِيهٌ ومُدْبِرُهُ كأنَّما فيـــه بالليل المصابيحُ

٤ — لَعَمْرِى لقَدْ كانَتْ فِجاجٌ عَرِيضَةٌ وليْلٌ سُخَامِىُّ الجناحَيْنِ أدْهَمُ

٥ — إذِ الأرْضُ لم تَجْهَلْ علَىَّ فُرُوجُها وإذْ لِىَ عن دارِ الهَوانِ مُراغَمُ(١)

هذا تذَكُّرٌ لموارد مَخلَصِه من الأمرِ الذى لُزَّ به ، والبلاء الذى استأسَرَ له ، وتَحسُّرٌ فى عُدولِه عن مَدارِجِ الحزمِ فيه ، وانتهاز الفُرصَةِ فى الممكن منه ، اغترارًا بما لم يَجُز السُّكون إليه ، وانتظارًا لما لم يَصلح الاعتماد عليه ، حتَّى يَتمكَّنَ طالبُه من مُرادِه فيه ، وانسدَّتِ الطُّرقات بينه وبين ما يَرومه من بُعْدٍ عنه ، واحترازٍ منه ؛ فقال متهافتًا : لعَمْرِى لقد كانت لى سُبُلٌ واسعةٌ يمكنننى سلوكُها ، لا مُدافِعَ دونها ولا ممانع ، ولَيلٌ أسودُ الطَّرفين مظلم ، يستُرنى إذا ركبْتُه ، ويُساعدُنى على مجانبة ما أحْذَرُهُ ، لا مُجاذبَ عنه ولا مُنازِعَ . وكانَ من قولِه « لقد كانتْ فِجاجٌ » هو كانَ التَّامَّةُ المستغنِيةُ عن الخبر . وقولُه « وليلٌ سُخامِىٌّ » فالسُّخامُ : الأسود ، كأنَّه يريدُ سِرارَ الشَّهر ؛ ومنه سَخَّمَ اللهُ وجهَه ، أى سَوَّدَهُ . والسُّخامِىُّ المنسوبُ ، فى معناهُ ، ومثلُه الدَّوَّارى والدَّوَّارُ من قولِه :

* والدَّهْرُ بالإنسانِ دَوَّارِىُّ(٢) *

ويجوز أن يريدَ بالسُّخَامِىِّ الجناحَين ، اللِّينَ وقِلَّةَ الآفاتِ فى جوانبه ؛ فإنَّ السُّخام الرِّيشُ اللَّيِّن تحت الجناح ، لأنَّ قوله أدْهم قد دلَّ على الظُّلْمة .

وقولُه « إذِ الأرض » إذْ لما مَضَى ، وقد شُرِح بالجملة التى أُضِيفَ إليها

(١) ابن جنى : « قوافى هذه القطعة كلها مجردة غير مؤسسة ، إلا مراغم هذه ، فقد ساند إذن . وقد استقصيت هذا فى كتاب المعرب فى تفسير قوافى أبى الحسن » .

(٢) للعجاج فى ديوانه ٦٦ واللسان والمقاييس (دور) .

ومعنى « لم تجْهَل علىَّ فروجُها »(١) ، أى ثُغُورُها ومواضعُ المخافة منها كانت علىَّ معالِمَ لا مجاهِل ، فأدرِى كيف آتِيها ، وأنفذُ فى قطْعِها والخروج منها ، لا أتهيّبُ ولا أتحيّرُ . ويقال جهِلَ فُلانٌ علَىَّ ، إذا شقَّ عليك ، قال الشاعر(٢) :

جَهْلًا عَلَىَّ وجُبْنًا عَنْ عَدُوِّهِم ... لَبِئْسَتِ الخَلَّتانِ الجَهْلُ والجُبْنُ

وقوله « وإذْ لِىَ عن دار الهوان مُراغَمُ » الأصل فى المراغمة الهِجرانُ ، يقال فلانٌ يُراغِمُ أهلَهُ أيّامًا ثم يرجع . وفى القرآن : ﴿ يَجِدْ فى الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا ﴾ ، أى مُتّسَعًا لهجرته .

٦— فَلَوْ شِيتُ إذْ بالأمْرِ يُسْرٌ لَقلَّصتْ ... بِرَحْلِى قَتْـلاءُ الذِّراعَيْنِ عَيْهَمُ

٧— عليها دليـلٌ بالبلادِ نَهارَهُ ... وباللّيلِ لايُخْطِى لَهَا القَصْدَ مَنْسِمُ(٣)

يُخْبر عن نفسِه بأنّه إنّما أُتِىَ من تقصيره وتهاونِه فيما وَجب من جِدّه وتشميره ، فيقول : لو أردتُ حين كان الخطبُ أيسرَ ، وأسباب المَنع أقصر ، نَخفّتْ بى وشمّرت فى الانتقال عن دار المَذلّة والهَوان ، ناقةٌ فى ذراعيها فتَلٌ . والفَتلُ هو تباعُد المِرفقَين عن الزَّور ، لئلا يصيرَ حازًا ولا ناكِتًا ولا ضاغطًا . والعَيْهَمُ والعَيْهَمَةُ : النّاقة الماضيةُ ، وكذلك العيهامَةُ ؛ وقيل هى الطّويلة العُنُق ، الضّخمةُ الرّأس ، وذلك محمودٌ فى صفاتها . وقولُه « عليها دَليلٌ بالبِلاد » فإنّه يَعنِى به نفسه . وبالبلاد أراد بِه فى البِلاد ، كما يُقال فلانٌ بالبَصْرة وفى البصرة . ويجوز أن يكون أجْرَى قولَه « دليلٌ » مجرَى عارفٍ وعالم ، فلذلك أَتَى بالباء . وقولُه « وبالليل لا يُخْطِى لها القَصْدَ مَنْسِمُ » ، أى لِبَصَرِه لا يخطى

(١) يرى التبريزى أن هـذا التعبير من باب القلب ، وينظر له بقوله تعالى : « فعميت عليهم الأنباء » ، أى هم عموا عنها .

(٢) هو قعنب بن أم صاحب ، من حماسية ستأتى فى باب الهجاء .

(٣) التبريزى : « دليل بالفلاة » .

مَنْسِمُ بَعيرِه فَيزيغُ عن القَصْدِ . وهذا وإن جَعَله من صفة البعير فالمُراد به أنّهُ [هادٍ[1]] خِرِّيتٌ . والدَّليلُ أصلُه فاعلُ الدَّلالةِ ، فهو كالدّالّ ، وقد تُوُسِّعَ فيه . والبَلَدُ : الأرضُ وإن لم تُخْتَطّ .

٢٥٧

وقال آخر :

١ – أعْدَدْتُ بيضاءَ للحُروبِ ومَصْـــقُولَ الغِرارَيْنِ يَفْصِمُ الحَلَقا

٢ – وفارِجًا نَبْعَـةً ومِلْءَ جَفِيــرٍ من نِصــالٍ تَخالُها وَرِقا[2]

٣ – وأرْيَحِيًّا عَضْبًا وذا خُصَلٍ مُخْلَوْلِقَ المَتْنِ ســابِحًا تئِقا[3]

٤ – يملأُ عَيْنَيْكَ بالفِناء ويُرْ ضِيكَ عِقابًا إن شِئتَ أو نَزَقا

تبجّح في هـذه الأبيات بهمّته في جَمْع آلَتِه ليومِ حاجته ، فأخذ يَذْكُرُ الشيء بعد الشيء من عُدَّتِه وعَتادِه ، على ما يَسَّرَهُ له مَرُّ الأيام في جِدِّه وجِهادِه ، فقال : هَيّأتُ لملاقاة الأبطال ومناوَشَةِ الرِّجال دِرْعًا لم يَشِنْها صَدأً ، ولم يَعِبْها في السَّرْدِ خَلَلٌ ، وسيفًا مسنونَ الحَدَّيْنِ ، مصقول الصفحتين ، يقطَعُ البَيْض ويَفْصِلُ الحَلَقَ . والفَصْمُ : الكسر بلا بينونة ، والقَصْمُ : الكسر مع بينونة .

وقوله « وفارِجًا » أي وأعددتُ فارِجًا ، وهو القوسُ المتباعدةُ[4] الوَتَرَ عن الكبد ، وكذلك الفُرُجُ . وقوله « نبعةً » أي هي قضيبٌ وليست بشِقّةٍ .

---

(١) التكملة من ل ، م والتيمورية .

(٢) كذا وردت ورقا بكسر الراء في جميع النسخ . وقد قيدها الإمام المرزوقي في الشرح بمعنى الفضة . لكن التبريزي رواها « ورقا » بفتح الراء . وفسرها بقوله : « والورق يريدون ورق الحواء ، وهو يشبه النصال المشاقص ، وهي العراض التي في وسط كل نصل منها عير » . والحواء ، كرمان : نبت يشبه لون الذئب ، كما في اللسان .

(٣) التبريزي : « سابقاتئقا » .

(٤) كذا في م ، ل . وفي الأصل والتيمورية : « المتباعد » ، والقوس يذكر ويؤنث .

والنَّبْعُ أجودُ شجرٍ يُتخذُ منه القِسِيّ العربيّةُ ، وجعَله صفةً لأنه ضمّنه معنى الصفات . وعلى هذا أسماء الأجناس ، كقولك هذا خاتمٌ حديدٌ ، متى وصفْتَ بها تَضمَّنَ معنى فِعْل . وقوله « ومِلءُ جَفيرٍ » المِلْء : القَدْرُ الذى يُملَأُ به الظَّرف ، والمَلْءُ بالفتح المصدر . والجفير : كِنانةُ النَّبْل إذا كانت واسعة من خَشَب ، والجَفْرُ فى البئر منه . وقوله « من نِصالٍ » أراد بها نِبالا رُكِّبَتْ فيها نصالٌ بيض تتلألأ فتُحْسَبُ فِضّةً[1] .

وقوله « وأرِيحيًّا عَضْبًا » يعنى رجلاً يَرتاحُ للنَّفاذ فى الأمور الصِّعاب والمَضاء ويهتزّ ، والمراد به نفسُه[2] . والعَضْب : القاطع . وقد مرّ القولُ فى تصرُّفه[3] . وقوله « وذا خُصَل » يعنى به فرسًا له خُصَلٌ من الشَّعر . مُخْلَوْلِق المَتْن ، أى مصنوعًا أملسَ المَتْنِ شديد المَلاسةِ ، لأنّ مُفْعَوْعِلاً من أبنية المبالغةِ . على هذا قولهم اعشَوْشَبَتِ الأرض فهى معشوشِبةٌ . والتَّئِق : الممتلىء نشاطا . وقوله « يَملأ عينيكَ بالفِناء » ، فى طريقته قولُ الآخر[4] :

يَزِينُ البَيْتَ مَرْبُوطاً ويَشْفِي قَرَمَ الرَّكْبِ

والعِقابُ : جمع العَقْب ، وهو الجَرْى بعد الجرى . وقال الخليل : إذا كان للفَرَس جَمامٌ بعد انقطاع الجَرْى قيل : له عِقابٌ . والنَّزَق : الخِفّة والعَجَلة . ويقال

(١) انظر الحاشية الأولى لهذه الحماسية .

(٢) كذا فهم المرزوقى ، وهو معنى بعيد . والأوفق ماذكره التبريزى نقلا عن أبى العلاء المعرى ، قال : يجوز أن يكون صفة السيف بأريحى لأنه يهتز فكأنه يرتاح للضرب . وقد جاء فى شعر صخر الغى ما يدل على أنهم نسبوا السيوف إلى « أريح » وذلك قوله :

وصارم أخلصت خشيبته أبيض مهو فى متنه ربد
فلوت عنه سيوف أريح إذ باء بكفى ولم أكد أجد

قوله باء بكفى ، صارت كفى له مباءة أى مأوى . ولم أكد أجد لعزته . وخشيبته : طبيعته وهو رقيق . وأريح : قرية بالشام .

(٣) انظر ما سبق فى ص ٦٠ ، ١٤٢ .

(٤) هو عقبة بن سابق الجرمى ، كما فى الخيل لأبى عبيدة ١٦٠ .

نَزَّفْتُ الفرس ، إذا ضربته حتى يَنْزَقُ . ومعنى « يملأ عينيكَ » ، أى يشغلهما محاسِنُها(١) حتى لا تتَّسِع لغيرها .

٢٥٨

وقال قتادة بن مَسْلَمة الحنفِى(٢) :

١ — بَكَرَتْ عَلَىَّ من السَّفَاهِ تَلومُنى ... سَفَهًا تُعجِّزُ بَعْلَهــا وتَلُومُ

البيت على كلامين ، وذلك أنّ المِصْراع الأول إخبارٌ عن زوْجته بسوء عشرتها(٣) ، وتوجيهها العَتْبَ عليه فى غير كُنْهِه ؛ والمصراعُ الثانى رُجوعٌ منه عليها فيما أنكَرَتْ ، وردٌّ للعَتْبِ إليها لمّا تجرَّمت . وقال « تَلُومُنى » فى الصَّدرِ وفى العَجُز « تُعجِّزُ بَعْلَها » وهما واحدٌ ، على عادتِهم فى تصريفهم الكلام عند الأَمْنِ من الالتباس ، فيقول : ابتكَرَتْ عَلَىَّ تلومُنى وتَنْسُبنِى إلى العجز ، من السَّفَاهِ ، أى ممّا تصوّرَتْه سَفَاهًا من أحوالى . ثم أخذ يجبِّهُها ويُسفِّهُ قولها وفِعلَها فقال : سَفَهًا تُعجِّزُ بعلَها(٤) ، أى تَعجيزُها لى وتقريعُها إيّاى لسَفهِها ، وجَهْلِها بموارد الأمور ومصادرها . والسَّفَهُ والسَّفَاهُ والسفاهةُ : الخِفَّةُ والاضطراب . ويقال : تَسفَّهت الرِّيحُ الغصونَ ، إذا حرّكتْها . والبُكورُ ، أصله الابتداء ، ولذلك قيل لأوّل النهار بُكْرة . و تَلُومُنى فى موضع الحال ، والعاملُ فيه بَكَرتْ . وانتصب سَفَهًا على أنه مفعولٌ له وقد قُدِّمَ . والبَعْلُ ، أصله النِّكاح ، ولذلك

---

(١) الوجه : « محاسنه » ، لأن النعت السابق كله لمذكر .

(٢) قتادة بن مسلمة الحنفى ، شاعر جاهلى ، هو الذى أجار الحارث بن ظالم المرى حين قتل خالد بن جعفر بن كلاب ، وخرج مستجيرا بالقبائل محتميا بها وفى ذلك يقول الحارث بن ظالم :

قتادة الخير نالتنى حذيته ... وكان قدما إلى الخيرات طلاعا

انظر الأغانى (١٠ : ٢٤ — ٢٦) .

(٣) فى الأصل : « بعشيرته » ، صوابه فى ل ، م .

(٤) ابن جنى : « أراد تعجزنى فوضع الظاهر موضع ضمير المتكلم » .

قيل للمرأة بَعلةٌ أيضاً ، وقد ابتعَلَتْ وتبعَّلت ، أى أطاعت زوْجها .

٢ – لمّا رأتنى قد رُزِيتُ فَوارِسى وبَدَتْ بجسْمى نَهْكَةٌ وكُلُومُ

جوابُ لمّا تقدّمَ ، وهو بكرَتْ علىّ . كأنّ هذا الشاعرَ لاقى أعداءهُ ومُنابِذِيه ، بأصحابه ومعاونيه ، فكانت الدَّبْرَةُ عليه وعليهم ، فجُرِحَ هو وقُتِل أولئك ، فعدّت امرأتُه تلك الفعلةَ منه وما اتّفقَ عليه سَفَهًا وذنبًا يستحقّ لها اللَّوم ، فطَفِقت باكرةً عليه تُعجِّزه وتؤنّبُه . والنَّهْكةُ : التأثير ، يقال بانَتْ عليه نَهْكةُ العِلّةِ والمصيبةِ . ومعنى رُزِيتُ : أُصِبْتُ بهم . وتقدُّمُ القولِ فى مجىء الفَوارِسِ جمعًا لصفات المُذكَّر يُغنِى عن إعادته[١] .

٣ – ما كُنْتُ أوّلَ مَن أصاب بنَكْبةٍ دَهْرٌ وحَىٌّ باسِلُونَ صَمِيمُ

قوله « من أصاب » نكرةٌ تُفيدُ الكثرة ، والمُراد أوّلَ إنسانٍ أصابَهُ بنَكبةٍ دهرٌ . وهذا على عادتهم فى نسبة الحوادث إلى الدهر ، كما قال بعضُهم[٢] :

يا دَهْرُ قد أكثرتَ فَجْعَتنا بسَراتِنا وَوَقَرْتَ فى العَظْمِ

فأمّا تنكيرُه للدّهر فقد حُكى عن أبى زيدٍ وأبى عبيدةَ ويونس أنّ الدهرَ والزّمان والزّمن والحِين ، يقعُ على محدودٍ وغير محدود ، وعلى عُمر الدُّنيا من أوّله إلى آخره . وقال الخليلُ : الأبدُ الدّهر الممدود ، ويُجعَل اسمًا للنازلة . ويقال : دَهْرٌ من الدّهر ، لبَعْضِه ، كما يقال حِينٌ من الدهر . وقد اشتُق منه فقيل : إنها لَداهِرةُ الطُّولِ ، أى طويلةٌ جدًّا . والشاعر أراد بما قاله التجلُّدَ للشامت والتّسلّىَ من المُصاب ، وأن يُظهر لمن ألقَى السَّمْعَ جهلَ امرأتِه وعُدُولها

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ٣ ص ٣٩ .
(٢) هو الأعشى . ملحقات ديوانه ٢٥٨ واللسان (وقر) والمقاييس (دهر) .

عن الصواب . وقوله « وحىٌّ باسِلُون صَمِيمُ » ، فالبُسول : عُبوسة الشجاعة والغضَب . ويقال بَسُل واستبْسَل . والصَّميم : خالِصة الشىء وما به قَوامُه ؛ ومنه قيل صميم الصَّيف والشتاء . ويقال للرَّجُل : هو من صميم قومِه ، أى من مَحْضِ أصلِهم . ويوصَف بالصَّميم الواحدُ والجميع[(١)] .

٤ — قاتَلْتُهُم حتّى تَكافَأَ جَمْعُهمْ والخَيْلُ فى سَبَلِ الدِّماء تَعُومُ

معنى تكافأ جمعهم : انكفؤوا فهزموا . وهذا من الكَفْء : قَلْبك الشىء لوجْهِه . ومنه كفأْتُ الإناء ، إذا قلبته . ويجوز أن يكون من الكُفْء : النَّظير والمِثْل ، ويكون المعنى تكافؤُوا فى مُدافعتى ومُقاومتى ، أى تَساوَوْا حتى لم يَفْضُل أحدٌ منهم على الآخر [فى ذلك[(٢)]] . وعلى هذا ما رُوِى فى الخبر : « المُسلمون تتكافأُ دِماؤهم » . والسَّبَلُ : ما سال من المَطَر والدَّم ، ومنه أَسْبَلَ السِّتْرَ والإزار ، إذا أرخاهما . ومعنى تَعُومُ : تَسْبَح ؛ ويُسمَّى الفرسُ عوّامًا ، لسبْحِها فى الجرْى . وعلى التشبيه قالوا : النُّجوم تعومُ فى الفَلَك . ومراد الشاعرِ اقتصاصُ الحال ، وأنّه قد أدّى ما كان إليه من المجاهدة ، فلا تَبِعَةَ عليه .

٥ — إذْ تَتَّقِى بِسَرَاةِ آلِ مُقاعِسٍ حَذَرَ الأَسِنَّةِ والسُّيُوفِ تَمِيمُ[(٣)]

قوله « إذ تتّقى » ظرفٌ لقوله تَعُوم . والاتّقاء : أن تجعل بينك و بين محذورك شيئاً يَقِيك . والسَّرَاةُ : جمع سَرِىّ[(٤)] ، والفعلُ منه سَرَا يَسْرُو ، ولم يجئ فى المعتلّ فَعَلَةٌ فى الجمع إلّا هذا ؛ لأنّ هذا البناء يختصُّ بالصَّحيح ،

---

(١) كذا فى الأصل والتبريزى . وفى سائر النسخ : « والجمع » .
(٢) لم ترد فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .
(٣) التبريزى : « حَدَّ الأسِنَّة » .
(٤) قالوا : جاء على غير قياس ولا يعرف غيره أن يجمع فعيل على فعلة ، والقياس سراة بالضم مثل قضاة . ويقول سيبويه : إنه اسم للجمع ، وليس جمعا .

نحو فَسَقَةٍ وكَتَبة ، فهو بإزاء فُعَلَةٍ من المعتلّ نحو قُضاةٍ ورُماةٍ . وانتصب « حذَرَ الأسِنَّةِ » على أنّه مفعولٌ له ، وتميمٌ يرتَفِعُ بفِعْلهم ، وهو تَتَّقِى ، والتقدير : إذ تَتَّقِى وحين تَتَّقِى بِسَراةِ هؤلاء القوم تميمٌ حذَرًا من الأسِنَّةِ والسُّيوفِ .

٦ — لم ألْقَ قَبْلَهُمُ فَوارِسَ مِثْلَهُمْ أَحْمَى وهُنَّ هَوازِمٌ وهَــــزِيمُ

يجوز أن يكون عَنَى بالفَوارس أصحابَه الذين فُجِعَ بهم ، فبيَّنَ أنهم لم يُؤْتَوا فيما مُنُوا به من ضَفَفٍ(١) وفَشَلٍ ، ولا من تقصير وكَسَل ، بل حامَوْا عن أحْسابهم جَهدَهُمْ ، ودافَعُوا عن أعراضهم طاقَتَهم ، حتّى لم يُبقُوا غايةً يتَعلّقُ بها حُسْنُ المحافَظة إلّا أشرفوا عليها ، وراموُا بجَهْدِ الممارسةِ تجاوُزَها . ويكونُ فى وصفِ أصحابِه بهذه الصِّفَةِ على الحَدِّ الذى عليه فى وصف نَفْسِه بقوله « قاتَلْتُهُمْ حتَّى تكافَأَ جَمْعُهُم » وبقوله « يَمَّمْتُ كَبْشَهُمْ بطَعْنَةِ فَيْصَلٍ » . وإنَّما تكَلَّفَ كلَّ ذلك ليُقيمَ عُذْرَ نفسه وعذرَهُم فيما اتَّفَق عليهم ، وليُرِىَ أنَّ ما لَزِمه وإيّاهُم قد أُدِّىَ بتَمامه ، وإنْ حالَ محتومُ القَدَر بينهم وبين النَّجاح . ويجوز أن يكون المراد بهم فُرسانَ الأعداء ، ويكونُ ثَناؤُه عليهم على عادتهم فى الرَّفْع من الخصمِ عند اقتصاص الأحوال ، ونُسبَتِه فيما تجاذَبُوهُ إلى الغَناء والاستقلال ، وكَمالِ الشِّدَّة والاضطلاع ، ليكونَ صُورتُه غالبًا ومغلوبًا أحسنَ ، والاعتدادُ بمجاراتِه ومجاذبته أَوْفرَ وأبْلَغ . فأمّا قولُه « أَحْمَى » فالمُراد به أَحْمَى منهم ، فحَذَفَ . وهذا الحَذْفُ من أفعَلَ الذى يتِمُّ بمِنْ يجوزُ إذا وَقَعَ خبَرًا لا صِفَةً ، وقد تقدَّم القَوْلُ فيه . أى لم ألْقَ فُرسانًا مِثْلَهم قبلَهم هم أَحْمَى منهم هازمين ومهزومين . وقولُه « وهُنَّ هَوازِمٌ » الواو واو الحال ، والضمير منه لفِرَقٍ

(١) هذا ما انفرد به نسخة الأصل . والضفف ، بالتحريك : الضعف ، كما فى القاموس ، وفى سائر النسخ : « ضعف » .

الخَيلِ وطوائفِها ، ولهذا قال هَوازمُ ، لمَّا كان فواعِلَ يختصُّ بجمع المؤنّث إلَّا فى الأحرف المعدودة عند الكلام فى فوارس [1] . ومثل هوازم قولُهم الخوارج — لأنَّ المراد به الفِرَقُ — وما أنشدَنَاهُ أبو عليٍّ النحويُّ الفارسيُّ رحمه الله ، للقُطاميِّ :

فوارسُ بالرِّماح كأنَّ فيها شَوَاطِنَ ينتزِعن بها انتزاعا

قال : وجاء فى شعره أيضاً :

* ما ينامُ سَوَافِرُهْ [2] *

ثم قال : لا يمتنع أن يكون سَوَافِرُ جمع سَافِرٍ الذى هو المصدر ، كما قال الآخر :

* فقد رأى الراءون غيرَ البُطَّلِ *

فَجَمع باطلا على البُطَّلِ ، والباطل مصدرٌ ، تقول قد قلتَ باطلاً كما تقولُ قد قلتَ حَقًّا . فأما قوله « وهو هَزِيمُ » فهو فعيل بمعنى مفعول ، والمُراد به الكثرة لا الواحد ، كأنَّه قال وهُنَّ من بينِ هازمةٍ ومهزومةٍ .

٧ — لمَّا الْتَقَى الصَّفَّانِ واخْتَلَفَ القَنَا والخَيْلُ فى رَهَجِ الغُبارِ أُزُومُ [3]

٨ — فى النَّقْعِ ساهِمَةُ الوُجُوهِ عَوَابِسٌ وبِهِنّ من دَعْسِ الرِّماحِ كُلُومُ [4]

٩ — يَمَّمْتُ كَبْشَهُمُ بطَعْنَةِ فَيْصَلٍ فهَوَى لحُرِّ الوَجْهِ وَهْوَ ذَمِيمُ [5]

لمَّا هذه علَمٌ للظَّرف ، وهو لوقوع الشيء لوقوع غيره ، وجوابُهُ يجيء من بَعْدُ ،

---

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ٣ ص ٣٩ .

(٢) البيت بتمامه كما فى ديوان القطامى ٢٢ :

تعارض براق المتون موقعا رضيض الحصى ليست تنام سوافره

(٣) م والتبريزى : « فى نقع العجاج أزوم » .

(٤) م : « والقوم ساهمة الوجوه » .

(٥) التبريزى : « دميم » بالدال المهملة .

وهو قولُه « يَمَّمْتُ كَبْشَهُمْ » . فيقول : لمَّا تواقفَ الفئتان فى مَصافِّهم ، واشتجرت الرِّماحُ بالطَّعن بينهم ، والدوابُّ عَواضٌّ على لُجُمها فى القَتام السَّاطع ، متغيِّرةُ الألوان لاشتداد الشَّرِّ اللازم ، كوالحُ الوجوهِ لما يقع بها من الطَّعن الدِّراك ، والدَّفْع بالرِّماح ، قصدتُ رئيسَهم بطَعنةِ رَجُلٍ يقضى الأمرَ ، ويَفْصِل العُمْرَ ، فسقَط لوجهه وهو مذمومٌ لعُتُوِّهِ وبَغْيِه . وقوله « أُزُومُ » جمع آزِمٍ ، والأَزْم : الإمساكُ والعَضُّ ، وكُنِيَ به عن الحِمْية فقيل : « نِعْمَ الدَّواء الأَزْمُ » .

وقوله « فى النَّقْع » الأجود أن يكون مصدرَ نقَع الشَّرُّ والصوتُ والموتُ ، إذا كثُر وارتفع ، وأن يُعدلَ به عن الغُبار ، لأنَّه قال : فى رَهَج الغُبار . ومعنى رهَج الغبار : ما أُثير من الغبار . وقولُه « ساهِمَةُ الوجوه » السُّهوم : تغيُّرُ اللونِ مع هُزَالٍ وبُؤُسٍ . والدَّعْسُ : الطَّعنُ وشِدَّةُ الوطء . ويقال طريقٌ مِدعَاسٌ ، أى مُذَلَّلٌ ؛ ورجُلٌ مِدْعَسٌ : شديد الطعن .

وقولُه « فهَوَى لحُرِّ الوجه » فالحُرُّ من كل شيء أعتَقُهُ ، وقال الخليلُ : حُرُّ الوجه : ما بَدَا من الوَجنةِ . وحُرَّةُ الذِّفْرَى : موضع مَجَال القُرْطِ[1] .

١٠ — ومَعِى أُسُودٌ من حَنِيفةَ فى الوَغَى ... لِلْبَيْضِ فوق رءوسهمْ تَسْوِيمُ

١١ — قَوْمٌ إذا لَبِسُوا الحديدَ كأنَّهمْ ... فى البَيْضِ والحَلَقِ الدِّلاصِ نُجُومُ

١٢ — فلَئِنْ بقيتُ لأرحلَنَّ بغزْوَةٍ ... نَحْوَ الغنائِمِ أو يموتَ كريمُ

قولُه « من حنيفةَ » فى موضع الصِّلة لأُسودٍ ، وفى الوَغَى ظرفٌ لما دَلَّ عليه قولُه أُسودٌ ، وتقديره معى رجالٌ يشابهون الأُسودَ شجاعة وإقدامًا فى الحرب حنفيُّون . والوَغَى أصلُه الجَلَبةُ والصَّوتُ ، ثم صار كالاسم للحَرْب . وقولُه :

(١) هذا أحد قولين ، والآخر أنها صفة ، يقال هى حرة الذفرى ، أى حسنة الذفرى أسيلتها . والذفرى : العظم الشاخص خلف الأذن .

« للبَيْض فوق رءوسهم تسويم » ، فالتَّسويم : العلامة والتأثير ، ومنه قولهم : الخَيْل المُسوَّمة ؛ وكلّ ذلك من السِّيما : العَلامة ، ويقال السِّيميا . ومعناه أنَّهم لِطول لُبْسِهم للبيض ، ودَوام مُمارستهم للحرب ، قد انحسَر الشَّعرُ عن جوانب رءوسهم . ويشبه هذا المصراع قول الآخر[١] :

قَدْ حَصَّتِ البيضةُ رأسِى فَما أطعَمُ نَوْمًا غَيْرَ تَهْجاعِ

وقول أبى تمّام الطائى :

عَبُوسٌ كَسَا أبطالَهُ كُلّ قَوْنَسٍ يُرَى المرء منه وهو أفْرَعُ أنْزَعُ[٢]

وقولُه « قومٌ إذا لَبِسُوا الحديد » ارتفع قَوْمٌ على أنه بَدَلٌ من قوله أسُودٌ . ويجوز أن يكونَ خبرَ مبتدإ محذوف كأنه قال : هم قَوْمٌ . وإنما يَصِفُهم بأنهم مشاهيرُ بحسن البلاء ، متميِّزون عن الفُرسان إذا حَضَرُوا الوَقَعات ، بعلاماتهم ومعارِضِهم التى عُرِفوا بها وفيها ، فلا يخفى آياتُهم إذا تَدَجَّجُوا ، ولا يلتبِسُ أحوالُهُم متى تَطَلَّعُوا ، بل كأنهم النُّجومُ فى المناظِرِ والقُلوب . وجعل الحديد كنايةً عن أنواع الأسلحة . والدِّلاصُ : اللَّيِّنة الملساء ، يقال دِرعٌ دِلاصٌ ودَلِيصٌ ، ودُروعٌ دُلُصٌ . وقال الخليل : ربَّما جاء دِلَاصٌ فى صفة الجَمْع .

وقوله « فلئِن بقيتُ لأَرْحَلَنَّ بغَزْوَةٍ » اللام من لئن موطِّئةٌ للقسم ، ولأَرحلَنَّ جوابُه[٣] . وقولُه « نحو الغنائم » ظرفٌ لِأَرحلَنَّ . ورواه بعضُهم :

(١) هو أبو قيس بن أبى الأسلت الأنصارى . المفضلية ٧٥ .

(٢) أى إن بيض الحديد يحفى شعر الفرسان ، فمن كان منهم طويل الشعر بدا كأنه أنزع منحسر الشعر . وفى نسخة الأصل : « يرى الموت » ، وفى الديوان ١٩١ : « ترى الموت » ، وكلاهما محرف عما أثبتنا من سائر النسخ .

(٣) ابن جنى : « لأرحلن إنما هو جواب حلف محذوف ، أى أقسم لأرحلن . واللام فى لئن زائدة وموطئة للام الجواب ، وليست بواجبة . ألا ترى إلى قول الله سبحانه : وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . وصار القسم وجوابه عوضا عن جواب الشرط ، أى إن أبق أرحل » .

«تحوِى الغنائمَ» ، ويكونُ صفةً لغزْوَةٍ ، أى حاوِيةٍ للغنائم . وقوله «أو يموتَ كريمُ» أو بدَلٌ من إلّا ، ويموتَ ينتصِب بأن مُضْمَرَةً ، كأنّه قال إلّا أن يموتَ كريمُ . ويَعْنِي بالكريم نفسَهُ . وفى طريقته قولُ لبيد :

* أو يَرتبطْ بَعْضَ النُّفوس حِمَامُها(١) *

٢٥٩

وقال رجلٌ من بنى يَشْكُر(٢) :

١ — ألاَ أبْلِغْ بنى ذُهْلٍ رَسُولاً ... وخُصَّ إلى سَرَاةِ بَنِى النِّطاحِ(٣)

٢ — بأنّا قد قتلْنا بالمُثَنّى ... عُبَيْدَةَ منكُم وأبا الجُلاحِ

٣ — فإن ترْضَوْا فإنّا قد رَضِينا ... وإن تأْبَوْا فأطرافُ الرِّماحِ

٤ — مُقَوَّمَةٌ وبِيضٌ مُرْهَفاتٌ ... تُتِرُّ جَماجِمًا وبَنَانَ راحِ

قولُه «رَسولاً» أراد رسالةً . وقوله «وخُصَّ إلى سَراة بَنى النِّطاح» أى توَصَّلْ إلى أن تَخُصَّهم بأدائها . والسَّراةُ تقدَّم القولُ فيه(٤) .

وقوله «بأنّا قد قتَلْنا» الباء زائدةٌ للتأكيد ، وموضع بأنّا نَصْبٌ على أنه بدلٌ من رسولا . ومثله أعْلِمْ بكذا ، يريدُ أبلغْ خيارَ هؤلاء القوم وأماثِلَهم أنّا قتلنا بدلَ الواحد الذى قتلتموه منّا اثنين منكم ، فإن رَضِيتم فرِضانا مع رضاكم ، وإن أبيتُم وتسخَّطتم حاكمْنا كم إلى ظُبَى السُّيوف وقد أُرهِفتْ ، وإلى أسنّةِ

---

(١) صدره : * تراك أمكنة إذا لم أرضها *

(٢) زاد التبريزى : «فيما كان بينهم وبين ذهل» .

(٣) م : «وخص بها» ، أى بالرسالة . وأشار التبريزى إلى رواية : «وخص به» ، أى بالقول . ورواية التبريزى : «بنى البطاح» بالباء المضمومة ، وفسره بقوله : «البطاح مالك بن عامر بن ذهل بن ثعلبة» .

(٤) فى البيت ٥ من الحماسية ٢٥٨ ص ٧٦٧ .

الرِّماح وقد قُوِّمت . وهذا الكلام اعتلاء واقتدار ، وتوعُّد واستكبار . والفاء من قوله « فأطرافُ » بما بعدها جوابُ الجزاء ، وارتفَع أطرافُ بالابتداء ، وخبَرُه محذوف ، كأنه قال : فأطرافُ الرماح وبِيضُ السيوف بيننا . وتُترُّ فى موضع الصِّفة للبِيض ، ومعناه تُسقِط . والمُرهَفات : المُرقَّقات الحدّ . والرّاح : جمع راحة .

٢٦٠

وقال جُرَيبَةُ بن الأشْيَم الفَقْعَسىّ (١) :

١ — فِدًى لفَوَارِسِ المُعْلَمِينَ تحتَ العَجاجَةِ خالى وعَمّْ

(١) هو جريبة بن الأشيم بن عمرو بن وهب بن دنار بن فقعس بن طريف الأسدى ثم الفقعسى . قال الآمدى : كان أحد شياطين بنى أسد وشعرائها فى الجاهلية ، ثم أسلم فقال :

بدلت دينا بعد دين قد قدم … كنت من الدين كأنى فى حلم

يا قيم الدين أقمنا نستقم … فإن أصادف مأثماً فلم ألم

الإصابة ١٢٨٠ والمؤتلف ٧٧ . وأخوه مطير بن الأشيم . وروى التبريزى من سبب الشعر ونسبته أن النعمان بن بجير العجلى كان قد غزا بنى فقعس ورئيسهم أهبان بن عرفطة ، فلما بصر بنو فقعس بالخيل قالوا : هذه عير عليها تمر . فابتدرتها خيلهم ، فلحق بهم جريبة بن الأشيم ويكنى أبا سعد ، فلما رآهم رجع واقتتل القوم فقتل أهبان ، قتله الحصف بن معبد العجلى ، وقال فى ذلك هذه الحماسية . فتزعم هذه الرواية أن أبا تمام أخطأ فى نسبة الشعر الى جريبة ، وإنما هى للحصف ، وليس لجريبة علاقة بهذا الأمر إلا أنه حضر الوقعة وفر منها وقال :

قالوا أبا سعد ألم تعرفهم … ثكلت جريبة أمه من يعرف

والله ما منوا على وإنما … منت على شراف إذ تتحرف

شراف : اسم فرسه . وذكر التبريزى رواية أخرى تنسب الشعر الى سبرة بن عمرو ، وهو فقعسى تقدمت له الحماسية رقم ٦٠ . يقوله مناقضة لشاعر عجلى قال شعرا فى حرب شنتها بنو فقعس على بنى عجل . ثم ذكر رواية ثالثة عن أبي محمد الأعرابى ، تؤيد أن الشعر لجريبة . قال : كان من قصة هذا الشعر أن سلهباً وأبا سلهب ، من بنى ضبيعة بن عجل ، سارا فى جمع من بكر بن وائل يطلبان ، وخرجت بنو فقعس فى غزى لهم أيضاً يطلبون الغنائم ، فالتقى الجمعان ولا يريد منهم واحد صاحبه . فلما التقوا صاح بنو فقعس : نزال نزال ! فلم ينزلوا وقاتلوا على الخيل ؛ فشد فروة بن مرشد الفقعسى على أبي سلهب العجلى فاختلفا ضربتين ، فكلاهما قتل صاحبه ، وهزمتهم بنو فقعس وقتلوا منهم . فقال فى ذلك جريبة .

٢— هُمُ كَشَفوا عَيْبَةَ العائبين   مِنَ العارِ أَوْجُهُهُمْ كالْحُمَمْ[1]

حَمِدَهم لما ظَهَرَ من وفائهم و بلائهم ، ففدّاهم وأثنى عليهم . والمُعْلِمَ : الذى شَهَرَ نفسه فى الحرب بعلامةٍ لكَىْ إذا أبلى عُرِفَ بها[2] . والعَجَاجُ : الغبار ، وكذلك العَجَاجةُ . ويقال لفّ عجاجتَه على بنى فلانٍ ، إذا أغارَ عليهم . وقوله « خالى » فى موضع الرّفع ، لأنه خبر المبتدأ . وقوله « هُمُ كَشَفوا عَيْبَةَ العائبين » العَيْبَةُ : شِبه الخريطة من الأَدَم . وهذا مَثَل ، أى أظهروا من عَيْبِ مَن كان يَطلبُ عيبَهم ما كان خافيًا ، وكذّبوهم فيما كانوا يختلقونه ويتنفّقون به ، فكأنّهم كشفوا عِيابَهم المنطويةَ على عيوبهم ، فاسودّت وجوهُهم بما غَشِيَها من العار حتى صارت كالْحُمَم . ويقالُ: « فلانٌ عَيْبَةُ عُيوبٍ ، ومِذْنَبُ ذُنوب » . ويقال: عابَ المتاعُ وغيرُه ، إذا صار ذا عَيْبٍ ؛ وعِبْتُهُ أنا ، أى جعلتُ فيه عيْبًا . وعلى هذا قول الله تعالى : ﴿ فأَرَدْتُ أن أَعِيبَها ﴾ . والحُمَم : الفحْم . ويقال جاريةٌ حُمَمَةٌ ، أى سوداء .

٣— إذا الخيْلُ صاحَتْ صِياحَ النُّسورِ   حَزَزْنا شَرَاسِيفَها بالجِذَمْ

يقول: إذا ضَجّتِ الخيلُ من الطَّعنِ الواقع على نُحُورِها ، وهَمّت بالازْوِرار أكرهناها على الصبر والتقدُّم . ومثله قول خِداش بن زُهير :

يَصِيحُون مِثلَ صِياحِ النُّسو   رِ من أَسَلٍ وارِدٍ صادِرِ

---

(١) نبه التبريزى على هذه الرواية ، وروايته فى الصلب : « غيبة الغائبين » . ثم قال : « ومن روى غيبة الغائبين أراد : من قتل منهم فى عار تسود منه وجوههم أدرك هؤلاء القوم ثأرهم فغسلوا ذلك العار عنهم ، فكأنهم بذلك حفظوا عهد من غاب عنهم . قال أبو هلال : والوجه الأول — أى عيبة العائبين — أجود ، لقوله كشفوا ولم يقل حفظوا » .

(٢) كذا وردت العبارة فى جميع النسخ . ولها وجه فى العربية يخرج على حذف المنصوب بكى ، فيكون تقدير الكلام : لكى يعرف ، إذا أبلى عرف بها . قال صاحب التصريح فى الكلام على (كى) : « فإن ادعوا — أى الكوفيون — أن حذف المنصوب وبقاء ناصبه قد ثبت فى صحيح البخارى فى تفسير : وجوه يومئذ ناضرة : كيما فيعود ، أى كيما يسجد . قلنا : إن ثبت حذف يسجد فهو غريب لا يقاس عليه » . فالحذف هنا على مذهب ضعيف .

ومعنى حَزَزْنا قَطَعْنا . والشَّراسيف : مَقاطُّ الأضلاع : والجِذْم : السِّياط .
وقوله « صاحَتَ صياحَ النسور » ، يريدُ صاحت صياحًا يُشْبِه صياحَ النسور[١] .
وإذا ظرفٌ لقوله حَزَزْنا .

٤ — إذا الدَّهْرُ عَضَّتْكَ أنيابُهُ لَدَى الشَّرِّ فأْزِمْ به ما أَزَمْ

هذا مَثَلٌ ، والذى أشار إليه بالأنياب نُوَبُ الدَّهرِ وحوادِثُه . وقوله « فأْزِمْ به » أى اعْضَضْ به ، والمعنى صابِرْه . والتوسُّع فى الأَزْمِ والعَضّ على طريقةٍ[٢] ، يقال : هذا عَضيضى وأنا عَضيضُه ، أى نتشاكس فى الأمر[٣] . وإنّ لَعِضاضُ عيشٍ ، أى صَبورٌ على شدَّته . و « ما أَزَمْ » ما مع الفعل فى تقدير المصدر ، واسمُ الزَّمان محذوفٌ معه ، فهو فى موضع الظَّرف[٤] . والمعنى : اعضَضْ به مُدّةَ عَضِّه بك . ورواهُ بعضُهم : « فارْزِمْ له ما رَزَم » ، والمعنى : اثبُتْ له ما ثَبَت لك . وإنما قال « فأْزِمْ به » طلبًا للمطابقةِ والموافقةِ[٥] . على هذا قوله تعالى : ﴿ فمن اعتدَى عليكُم فاعتدُوا عليهِ ﴾ ، والثانى ليس باعتِداء ، بل هو جزاؤه . وجوابُ إذا قوله « فأْزِمْ به » وهو العامل فيه .

٥ — ولا تُلْفَ فى شَرِّهِ هائبًا كأنَّكَ فيه مُسِرُّ السَّقَمْ

فى شرِّه ، أى فى شرّ الدَّهر . يقول : لا تُوجَدَنّ فيما تُدْفَعُ إليه وتُمتَحَن به من نوائب الدَّهر خائفًا متهيِّبًا مستشعِرًا لليأس من النَّجاح ، وانقلابِ الأمر

(١) التبريزى : « صياح النسور ، أى أصواتًا قصيرة ... وقال أبو هلال : يقول إنها قد عودت ترك الصهيل فى الغزو ، فإذا صاحت صياح النسور لأمر يعرض لها — وهو صوت واحد ضربناها بالسياط ، لتذكر العادة » .
(٢) العضيض فسر فى اللسان بأنه القرن ، وفى القاموس بأنه القرين .
(٣) أى على طريقة واحدة .
(٤) هو ما يعبر عنه الإعرابيون بقولهم : ما مصدرية ظرفية .
(٥) هو ما يسميه البلاغيون المشاكلة .

إلى الخير والصَّلاح ، فتكونَ بمنزلةِ مَن به داء عُضال لَزِمَهُ ، فأعياه مُداواته حتى يئسَ من إقلاعه وذهابِه ، فجعل يكتمه ويُخفِي أثره ، وهو خائفٌ مما يتعقَّبُه . ورواه بعضُهم : « مُشِرُّ السَّقَمْ » ، أى مُظهِرُه . وهذا كما رُوِىَ بيتُ امرئِ القيس :

* لو يُشِرُّونَ مَقْتَلِى(١) *

وأُنْشِدَ فيه :

* وحتَّى أُشِرَّتْ بالأكُفِّ المصاحِفُ(٢) *

ومعناه تَغتمُّ لما تُقاسيه ، وتخافُ نُزولَ أمثالِهِ ، فتنخزِل وتنقطع ، فِعْلَ الوَصِبِ المريضِ إذا اشتكَى مما به .

٦— عَرَضْنا نَزَالِ فلم يَنْزِلوا وكانت نَزَالِ عليهم أَطَمّْ

يقول : عَرَضْنا عليهم المُنازَلة فقُلْنا نَزَالِ ، لمّا ضاقَ مجالُ الخيلِ عن الطِّراد ، فتكرَّهوه ولم يَنْشَطوا له . وكانت هذه العَرْضةُ بهذه اللَّفظة أشدَّ عليهم وأغلَبَ لهم من كلِّ ما تقدَّم من ألفاظ التَّداعى والتَّجاذب . وقد تقدَّم فى لفظةِ نَزَالِ وبنائه وتأنيثهِ وحقيقته ما فيه كفايةٌ(٣) . ومعنى « أطَمّْ » يقالُ طَمَّ البحرُ ، إذا غلَبَ سائر البحور . والطَّامَّة : الخَصْلةُ التى تَطُمُّ على ما سِواها . وفى القرآن : ﴿ فإذا جاءتِ الطامَّةُ الكُبْرى ﴾ ، يرادُ به القيامة .

٧— وقد شبَّهوا العِيرَ أفراسَنا فقد وجَدُوا مَيْرَها ذا بَشَمْ(٤)

---

(١) والرواية المعروفة « لو يسرون » بالسين المهملة . وهو بتمامه :

تجاوزت أحراساً إليها ومعشرا على حراصا لو يسرون مقتلى

(٢) لكعب بن جعيل ، أو الحصين بن الحمام المرى ، يذكر يوم صفين . وصدره :

* فما برحوا حتى رأى الله صبرهم *

(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ٩ ص ٦٢ — ٦٣ .

(٤) يروى أيضاً : « ذا شبم » . قال أبو رياش : الشبم البرد ، ومعناه صادفوا الموت : =

العِير : الإبل عليها المِيرَةُ وغيرُها . وقال بعضهم : هو من قولهم : عارَ الشىءُ : ذَهَبَ ، يَعِيرُ ، وهى جماعات السَّفْر ، ووزنُه فُعْل ، جمع عائِرٍ ، كعائذٍ وعُوذٍ ، إلاَّ أنَّ العين كُسرت لتدلَّ على الياء[١] . والمَيْر : مصدر مارَهُم يَميرُهم ، إذا نقَلَ إليهم المِيرَة . والمعنى : لجهلهم بخصمهم ، وثِقَتِهم بأنفسهم ، وتمكُّنِ البَغْىِ من اختيارِهم ونظرِهم ، عدُّونا غنيمةً تُغْتَنَمُ ، وإبِلاً بأحمالِها تُساقُ وتُقْتَسَمُ ، فقد استوْبَلوا عاقبةَ غنيمتهم ، وذاقوا وخامةَ مِيرتهم . والبَشَم : الثِّقَل ، يقال بَشِمْتُ من الطَّعام ، وبَغِرتُ من الماء .

٢٦١

وقال آخر[٢] :

١ — أتانى عن أبى أَنَسٍ وَعِيدٌ فَسُلَّ لِغَيْظَةِ الضَّحَّاكِ جِسْمِى[٣]

٢ — ولم أَعصِ الأميرَ ولم أُرِبْهُ ولم أَسبِقْ أبا أَنَسٍ بِوَغْمِ[٤]

هذه الأبيات إنما خَتم بها الباب وإن لم تكن منه على عادتِه ، فى إتْباع المعنى بضدِّه كثيرًا . والأغلبُ فى الظنِّ بقائلها أن يكون قَصَد بها الهُزْءَ والتملُّحَ . وفى طريقتها قول الآخر[٥] :

= والموت بارد ، والسم بارد . ومنه قول خداش بن زهير :

بين الأميلح والطرفاء تشدخهم زرق الأسنة فى أطرافها شبم

(١) هذا تصريف نادر لكلمة « العير » .

(٢) فى معجم البلدان (٣ : ٤٧٤) « قال الأسدى » . التبريزى : « وقال شقيق ابن سليك الأسدى » وهو شاعر إسلامى ، يقول هذا الشعر معتذراً إلى الضحاك . وهو أبو أنس الضحاك بن قيس بن خالد الشيبانى الفهرى . شهد صفين مع معاوية ، وغلب على دمشق ، ودعا إلى بيعة ابن الزبير ، ثم دعا إلى نفسه . وقتل بمرج راهط سنة ٦٥ . الإصابة ٤١٦٤ وتهذيب التهذيب .

(٣) التبريزى : « تغيض الضحاك » صوابه « تغيظ » ، كما فى معجم البلدان .

(٤) التبريزى : « الأمير هو الضحاك بن قيس الفهرى صاحب المرج » .

(٥) هو أبو دلامة ، كما فى عيون الأخبار (١ : ١٦٤) والأغانى (٩ : ١١٩ — ١٢٠) .

إنى أعُوذُ برَوْحٍ أن يُقَرِّبَنى إلى القِتال فيَخْزَى بى بنو أسَدِ[(١)]
إنّ المُهَلَّبَ حُبَّ المَوْتِ أورثَكُم ولم أرِثْ نَجْدَةً فى الحَرْبِ عن أحَدِ[(٢)]
إنّ الدُّنُوَّ من الأعداء تَعْلَمُه مما يُفَرِّقُ بين الرُّوحِ والجَسَدِ

ولبعضهم :

باتَتْ تُسَخِّفُنى هِنْدٌ وقد عَلِمَتْ أنّ الشَّجاعةَ مَقْرُونٌ بها العَطَبُ[(٣)]
يا هِنْدُ لا والذى حَجَّ الحَجِيجُ لهُ ما يشتَهِى الموتَ عندى من له أَدَبُ[(٤)]
للحَرْبِ قومٌ أضَلَّ اللهُ سَعْيَهُمُ إذا دعَتْهُمْ إلى أهوالِها وثَبُوا[(٥)]
ولستُ منهم ولا أرضَى فَعالَهُمُ ما القَتْلُ يُعْجِبُنى منهم ولا السَّلَبُ

وأبلغُ منه قول الآخر :

اثنانِ منّا يغلبانِ واحدًا إذا تعاوَنَا وكانَ راقِدَا

فأما قولُه « فسُلَّ لغَيْظَةِ الضَّحّاكِ » فالضَّحّاكُ اسم أبى أنَسٍ . ومعنى سُلَّ : ذابَ ، كجِسْمِ من به السُّلالُ ، وهو داء معروف . وقال « غَيْظة » لأنه أراد المرّةَ الواحدة ، وهذه الهاء تدخُل فى المصادرِ على اختلافِها لهذا المعنى ، كالضَّرْبَةِ والخَرْجَةِ والإلمامة والاستخراجة . وقولُه « ولم أرِبْهُ » يُرْوَى بفتح الهمزة

(١) روح هذا ، هو روح بن حاتم المهلبى ، وكان أبو دلامة قد شهد معه الحرب فقال له روح : تقدم وقاتل . الأغانى : « إلى البراز » .

(٢) وكذا فى الأغانى وشرح التبريزى . وفى م ، ل والتيمورية وعيون الأخبار : « ورثكم » .

(٣) الأبيات فى عيون الأخبار (١ : ١٦٤) والعقد (١ : ١٦٦) ، وفى ل والتيمورية وعيون الأخبار والعقد : « تشجعنى » . وأشير فى هامش ل إلى رواية « تسخفنى » ولم تنص المعاجم على « التسخيف » فإن صحت كانت بمعنى النسبة إلى السخف وهو الضعف .

(٤) فى العيون : « لا والذى حجت الأنصار كعبته » . وفى العقد : « لا والذى منع الأبصار رؤيته » . وفى العيون : « من له أرب » أى من له عقل . وفى حواشى ل : « أرب بالراء محتمل أيضاً ، أى عقل » .

(٥) العيون : « إلى حوبائها » ، العقد : « إلى نيرانها » .

وضمّها ؛ والفرقُ بينهما أنه يقالُ رابَهُ الدَّهرُ إذا قصَدَهُ برَيْبِهِ وحوادِثِه ؛ وأرابَهُ : أتاه بريبة . والوَغْمُ : التِّرَةُ والذَّحْل .

٣– ولـكنّ البُعُوثَ جرَتْ علَيْنَا فصِرْنا بين تَطْوِيحٍ وغُـرْمِ (١)

٤– وخافَتْ من جِبالِ السُّغْدِ نفسِي وَخافَتْ من جِبالِ خُوارِزْمِ (٢)

قولُه « ولـكنّ البعوثَ جَرَتْ علينا » يقالُ ضُرِبَ البَعْثُ على الجُنْدِ ، وأُجْرِىَ البَعْثُ عليهم ، أى بُعِثُوا إلى العَدُوّ . وجَمَعَه فقال البُعُوث ، لاختلافِه وتكرُّرِه . وهذا كما يُجْمَع الضَّرْب على الضُّروبِ والفَنُّ على الفُنون . والتَّطويحُ : التَّبْعِيدُ فى الأرضِ ، والحَمْل على ركوبِ المهالِك . ويقال طُوِّحُوا وطُيِّحُوا جميعًا .

٥– وقارَعْتُ البُعُوثَ وقارَعُونِى فَفَازَ بضَجْعَةٍ فى الحىِّ سَهْمِى (٣)

٦– فأعْطَيْتُ الجِعَالَةَ مُسْتَمِيتًا خَفِيفَ الحاذِ من فِتْيانِ جَرْمِ

قولُه « قارَعْتُ البُعُوثَ » يريدُ به ساهمتُهم ، والقُرْعَةُ الاسم . ويقال : هو قَرِيعِى أى مُقارِعِى ، كما يُقالُ هو خَصِيمِى . وقولُه « البُعُوثَ » أراد أصحاب البُعُوث ، فحذفَ المضاف . ويجوز أن يكون سَمّى المبعوثَ بَعْثًا ثمّ جمَعَه ، وهذا على عادتِهم فى الوصف باسم الحدَث . وقولُه « فاز بِضَجْعَةٍ فى الحَىِّ سَهْمِى » أى خَرَجَ (٤) قِدحِى باضطجاعى وراحَتِى . ويقال رَجُلٌ ضُجَعِىٌّ بضم الضاد

---

(١) التبريزى : « جنت علينا » ويبدو أنه تحريف فى النسخة ، لأنه ذكر فى التفسير : « ضرب البعث على الجند ، وأجرى البعث عليهم » .

(٢) التبريزى : « ويروى خوارزم » .

(٣) التبريزى وياقوت : « وقارعنى » .

(٤) فى الأصل : « ضرج » ، صوابه في سائر النسخ .

وكسرها ، وضُجَعَة ، للعاجز اللازم مَنزِلَهُ ، ومنه قيل للنُّجوم الثَّوابتِ : الضَّواجعُ . وقولُه « أعْطَيْتُ الجَعالة » ، يريدُ أعطيتُ الرَّشوةَ لنائِبٍ عَنِّى من بنى جَرْمٍ ، خفيفِ الحال فقيرٍ ، رَضِىَ بالموت وعرَّض بنفسِه له ، لأَسعَدَ بالرَّاحةِ والسَّلامة ، ويَشقَى هو بالتَّعبِ والهَلَكة[1] . ويقال : فلانٌ خفيفُ الحاذ ، أى الحالِ والمؤونة ؛ وهما بحاذٍ واحد ، أى بحالٍ واحد .

تمَّ بَابُ الحماسة ، بحمد الله الذى هو ولىُّ الحمد[2]

---

(١) ذكر التبريزى أنه عنى بالمستميت حطان بن خفاف بن زهير بن عبد الله بن رمح ابن عرعرة بن نهار .

(٢) فى نسخة ل : « تم باب الحماسة بحمد الله وحسن توفيقه فى شهر ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

باب المراثي

بابُ المَراثِي

٢٦٢

قَالَ أبو خِرَاشٍ الهُذَليُّ[(١)] :

١ — حَمِدتُ إِلٰهِى بَعْدَ عُرْوَةَ إِذْ نَجَا   خِرَاشٌ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ من بَعْضِ

خِرَاشٌ : مصدر خارشْتُه ، أو جمع خَرْشٍ ، وهو الأثر كالخدش ؛ ومنه تخَارَشَ الكلابُ : مزّق بعضُها بعضا . والخِراش : سِمَةٌ مستطيلةٌ كاللَّذْعة الخفيّة ، ويقال بعيرٌ مخروشٌ . والمِخْرَشُ : اسمٌ لِما يُؤثِّرُ به ، خشبةٌ كان أو غيرها . فأمّا أبو خُرَاشَةَ من بيت الكِتاب[(٢)] :

أَبَا خُرَاشَةَ أَمَّا أَنْتَ ذا نفرٍ   فإنّ قَوْمِىَ لم تأكُلْهُمُ الضَّبُعُ[(٣)]

فقد رُوِى بضمّ الخاء وكسرها ، فخُراشَةٌ يجوز أن يكونَ من خَرَشَ لعيالِه ، أى كسَبَ ، ويكونُ من باب عُمالَةٍ وعُجالَةٍ وصُبابَةٍ وما أشبهها . وخِراشَةٌ منه من باب وِلايَةٍ ونِكابةٍ[(٤)] وما أشبهَهُما .

---

(١) هو خويلد بن مرة ، أحد بنى قرد بن عمرو بن معاوية بن تميم بن سعد بن هذيل شاعر مخضرم ، أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه . ونزل به قوم من اليمن حجاج ، واضطروه أن يستق لهم تحت الليل ، فنهشته حية فى طريقه ، ثم سقاهم وأطعمهم ولم يعلمهم بما أصابه ، فأصبح وهو فى الموت ، فلم يبرحوا حتى دفنوه ، فلما بلغ عمر غضب شديداً ، وقال : لولا أن تكون سنة لأمرت ألا يضاف يمان أبداً . انظر الأغانى (٢١ : ٤٧ — ٤٨) والإصابة والاستيعاب وأسد الغابة واللآلئ ٢١٦ — ٢١٧ والخزانة (١ : ٢١١ — ٢١٢) والاشتقاق ١١٠ والشعر والشعراء ٦٤٦ — ٦٤٨ .

(٢) كتاب سيبويه (١ : ١٤٨) وانظر الخزانة (٢ : ٨٠) .

(٣) البيت للعباس بن مرداس . وأبو خراشة هذا هو خفاف بن ندبة الصحابى الشاعر .

(٤) فى جميع الأصول : « نكاية » بالياء ، وهو تحريف ، صوابه « نكابة » بالباء وهى مصدر نكب على قومه ينكب نكابة ، أى صار منكباً لهم وعريفا ، والنكابة كالنقابة وزناً ومعنى .

وأَبُو خِراشٍ هذا كان خِراشٌ ابنُه وعُرْوَةُ أخُوهُ ، اصطَحَبا فى مُتصَرَّفٍ لهما[١] فأسَرَهما بطنان من ثُمالَة : بنو رِزامٍ و بنو بَلَّالٍ[٢] ، وكانوا موتورِينَ ، فاختلفُوا فى الإبقاء عليهما وقتلِهما ، فمَالَ بنو بَلَّالٍ إلى قتلهما ، وتَفاقَمَ الأمرُ بينهما فى ذلك إلى أن صار يُؤدِّى إلى المقاتلةِ ، فتفرَّد أولئك بعُرْوَةَ فقتَلوه ، وتفرَّد هؤلاء بخِراشٍ فخلا به واحِدٌ منهم منتهزًا للفُرصةِ فى الإسداء إليه ، فقال له : كَيْفَ دِلِّيلاكَ[٣] ؟ قال : قَطَاةٌ[٤] ! فألقَى عليه رداءَهُ وقال : انْجُهْ . فمَرَّ لِطِيَّتِهِ ، فلما انحرفوا للنَّظَرِ فى أمرِه قال لهم مُمْسِكُه : إنَّهُ أفلَتَ ! فطرَدوه فأعياهُمْ ، فلما رَجَعَ خِراشٌ إلى أبيه وخَبَّرَهُ بما جرَى على عُرْوَةَ ، وبما اتَّفَقَ من صاحِبِه فى بابه ، اقتصَّ قِصَّتَهُ فى هذه الأبيات .

وقد حُكِيَ فيما رُوِيَ عن الأصمعيِّ وأبى عُبيدةَ أنهما قالا : لا نعرِفُ مَن مَدحَ مَن لا يَعرِفه غيرَ أبى خِراشٍ . وقد سَلَكَ من شُعراء الإسلام مَسلَكَهُ أبو نُواسٍ فى أبيات أوَّلُها :

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وأدْلَجُوا ... بِهَا أثَرٌ منهم جَدِيدٌ ودَارِسُ
مَسَاحِبُ من جَرِّ الزِّقَاقِ على الثَّرَى ... وأضْغَاثُ رَيْحَانٍ جَنِيٌّ ويَابِسُ
ولم أدْرِ مَنْ هُمْ غيْرَ ما شهِدَتْ لهمْ ... بشرقِيِّ ساباطَ الدِّيارُ البَسَابِسُ

ومَرَّ بى أبياتٌ لبَعْضِ الأغْفَالِ فيها :

سَقْيًا لَهُمْ فِتْيَةً تَدْمَى سُيُوفُهُمُ ... لا عِلْمَ لِى غيْرَ أنَّ القَوْمَ أحْرَارُ

---

(١) كذا فيما عدا الأصل . وفى الأصل : « منصرف » بالنون .

(٢) بنو بلال ، بفتح الباء وتشديد اللام ، كما فى الخزانة (٢ : ٤٥٩) عند ذكر هذه القصة نقلا عن الأغانى (٢١ : ٤٣) .

(٣) الدليلى : الدلالة والعلم بها ، وهى الدليل الهادى أيضاً . وقال المبرد : « وقوله كيف دليلاك ، فهى كثرة الدلالة . والفعيلى إنما تستعمل فى الكثرة ، يقال : القتيتى لكثرة النميمة . ويقال : الهجيرى لكثرة الكلمة المترددة على لسان الرجل » .

(٤) عنى أنه فى دلالته وهدايته كالقطاة ، ويضرب بها المثل فى هدايتها إلى الماء .

فهذا ما رواه الناسُ .

وقد حَكَى أبو العبّاس فى الكامل[١] : أنّ خِراشًا كان فى القِدِّ مأسورًا ، وأنّ آسِرَهُ نَزَلَ به ضَيْفٌ فقام يَحتَشِدُ له ، فنظر[٢] ذلك الضيفُ إلى خِراشٍ وكان مُلْقًى وراء البيت ، فسألَهُ عن حالِهِ ونَسَبِه فشرَحَ له قِصّتَهُ وانتَسَبَ ، فقَطَعَ إسارَهُ وخَلّاهُ ، فلما رجع ربُّ البيت قال : أَسِيرى أَسِيرى ! ! وأراد السَّعْىَ فى أَثَرِه ، فوتَّرَ قَوْسَه وحَلَفَ أنه إن تَبِعَه رماهُ .

وقد ذُكِرَ أنّ مُلْقِىَ الرِّداء كان مُجتازًا بعُرْوَةَ ، فرآه بادِىَ العورةِ مصروعًا ، ففَعَلَ ذلك به[٣] . فهذا قِصّتُه على الاختلاف فيه .

وقولُه « حَمِدْتُ إلهى » رُوِى : « حَمِدْتُ الإلٰه » ، وقَلَّ ما يقع فى الاستعمال الإلٰهُ معرَّفًا باللام[٤] ، وقد أَتَى به على أصلِهِ ، إذ كانت العادة جرَتْ باستعمال لفظة الله بدلَه ، حتى جرَى مجرى الألقاب فى أن يكون مقدَّمًا وسائرُ الصِّفاتِ تَتْبعه . ومعنى اللفظة : الذى تَحِقُّ له العبادةُ . والحمد يَجرِى مَجرَى الشكر ، إلاّ أنه يُستعمل فى مُسْدِى الإحسانِ ، وفى مَن رُضِيَتْ أفعالُه وإن لم يكن منه إحسان ، فيقال : حَمِدْتُ فلانًا على اصطناعِهِ لى ، وحَمِدْتُه على بَراعتِه وفَضْلِه ؛ والشكر لا يُستعمَل إلا فيمن يكون منه إسداء معروفٍ وأَخْذٌ بإحسان . والمعنى

(١) الكامل ٣٣٧ ليبسك .

(٢) فى الأصل : « فنزل » ، صوابه فى سائر النسخ وشرح التبريزى .

(٣) كان العرب كذلك يفعلون ، يمر الرجل بالقتيل فيلقى عليه ثوبه يستره به . انظر المفضلية ٦٧ وقول متمم بن نويرة فى البيت الثانى منها :

لقد كفن المنهال تحت ردائه فتى غير مبطان العشيات أروعا

(٤) ومن هذا القليل قول أمية بن أبى الصلت :

له ما رأت عين البصير وفوقه سماء الإله فوق سبع سمائيا

سيبويه (٢ : ٥٩) والخزانة (١ : ١١٨) . وقد سبق أيضاً قول عمرو بن كلثوم فى الحماسية ١٦٠ :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا على هالك أو أن نضج من القتل

أشكرُ اللهَ بعد ما اتَّفقَ مِن قتلِ عُرْوة، على تخلُّصِ خِراش، و بعضُ الشرِّ أخفُّ من الآخر. كأنه تصوَّرَ قتلَهما جميعاً لو اتَّفقَ، فرأى قتلَ أحدِهما أهون.
وهذا الكلام، أعنى «و بعض الشرِّ أهونُ من بعض» رَمَى به مَرمَى الأمثال.
فإن قال قائلٌ: ليس فى الشرِّ هيِّن، وأفعلُ هذا يُستعمل فى مُشترِكين فى صفةٍ زاد أحدُهما على الآخر؛ لا تقولُ: زيدٌ أفضلُ من عمرٍو، إلاَّ وقد اشتركا فى الفضْل، فكيف جاز أن يقولَ: و بعض الشرِّ أهونُ من بعض، ولا هيِّنَ فى الشرِّ؟ قلت: إنَّ للشرِّ مراتبَ ودرجاتٍ، فإذا جئتَ إلى آحادِها، وقد تصوَّرْتَ جُملَها، ورتَّبتَ الآحادَ فيها، وجدتَ كلَّ نوع منها بمُضامَّتِه للغير له حالٌ فى الخِفَّةِ أو الثِّقَل، وإذا كان كذلك فلا يمتنع أن يُوصَفَ شىءٌ منه بأنَّه أهونُ من غَيره. ولا يُشْبه هذا قولَهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾؛ لأنك إذا تصوَّرتَ حالَ أهل الجنَّة مع أهل النَّار لم تجِد ثَمَّ مراتبَ متقاربةً يترقَّى الواصفُ فى درَجِها، ويتصوَّر اشتراكَهم فيها، إذ لم يكن ثَمَّ مشاركةٌ البتَّةَ بوجهٍ من الوُجوه. فالجامع بين الآية و بين هذا وأشباهِهِ خارجٌ عن الطَّريقة. والصَّوابُ أن يقالَ فى الآية: إنَّ المعنى: أصحابُ الجنَّةِ يومئذٍ أحْسَنُ حالاً وأعظمُ شاناً، وأعلَى درجةً ومكاناً، وخيرٌ مستقرًّا وأفضلُ مَقيلا، من أن يُشبَّهَ بشىء، أو يُحَدَّ بوصفٍ، فحُذِف منه ما حُذِف. وعلى هذا يُحمَلُ قولُ المسلمين: اللهُ أكبرُ، وما رُوِىَ عن النبىِّ صلى الله عليه وسلم أنه لمَّا سَمِعَ الكُفَّار يقولون: اُعلُ هُبَل! قال: «اللهُ أعْلَى وأَجَلّ!».

٢ — فواللهِ ما أنسَى قَتيلاً رُزِيتُهُ بجانبِ قُوسَى ما مَشَيت عَلَى الأرْضِ(١)

(١) قوسى ضبطت فى الأصول والتبريزى وكذا فى أصل ديوان الهذليين (٢ : ١٥٨) بضم القاف، وضبطت فى القاموس وشرحه وكذا فى معجم البلدان عند إنشاد هذه الأبيات بفتح القاف، قال ياقوت: «يجوز أن يكون فعلى من القوس بالضم وهو معبد الراهب، أو من القوس وهو الزمان الصعب، أو من الأقوس وهو الرحل المشرف. قيل: بلد بالسراة».

تَعلّقَ الباء من قولِهِ « بجانب » بقتيلا ، كأنّهُ قال : ما أنسى قتيلاً بجانب قُوسى رُزِيته . وموضع رُزِيته وبجانب قوسى جميعاً صِفَة للقتيل ؛ وقد دَخَلَهُ بعضُ الاختصاص بذكرهما . وقولُه « ما مَشَيْتُ » ما مع الفعل فى تقدير مصدر حُذِفَ اسمُ الزّمان معه ، كأنّه قال : مُدّةَ مَشْيِى على الأرض . وفى الكلام نيّةُ الشَّرْطِ والجزاء ، كأنّه قال : لا أنسى قتيلاً رُزِيته إنْ مَشَيتُ على الأرض ، ومعناه إنْ بَقيتُ حيًّا ، فلذلك وقع الماضى فيه فى موضع المستقبلِ ، لأنّ « ما مَشَيْتُ على الأرض » فى موضع ما أمشى على الأرض ، وإنْ أَمْشِ على الأرض . فأمّا تذكُّرُهُ له أبداً فالوجه أن يكون عامًّا فيما يتعلق بالمتوفَّى وبمن يَرْثيه ، كأنّه لا يَنْسَى أخلاقَهُ وطيبَ العيشِ معَه ، ولا الامتناع بمكانه وشدّةَ الفاقة إلى حياته ، فلا يَنْسَى ما يلزمه فى قضاء ذِمامه وطَلَبِ دمه ، ومكافأةِ أعدائِهِ وقاتِليه ، إلى غير ذلك . يَشهد لهذا الذى قُلناه ما يجىء كثيراً فى هذا الباب من قولهم « هوّنَ وَجْدِى أننى لم أفعَلْ كذا » و « يذكّرُنى من فلانٍ كذا » ، وما يجرى هذا المجرى ، ويجوز أن يكون قال : لا أنساهُ ، تعظيما للمصيبة به ، وتفظيعاً للحال المعترِضَةِ فيه ، وعلى عادة قولِ النّاس عند النازلة الهائلة ، والنائبة الكاربة : لا يُنْسِينى هذا شىء ، وهو نَصْبَ عَيْنِى إلى أن أموتَ ، والمَعنى : لا يُرَى أعظم منه .

٣ — على أنّها تَعفو الكُلُومُ وإنّما نُوَكَّلُ بالأدنَى وإنْ جَلَّ ما يمضى

مثله قول الأحوص :

إنّ القديم وإنْ جلّت رزيئته يَنْضُو فيُنسَى ويبقى الحادث الأُنُفُ

وقوله « على أنها تعفو الكلوم » يجرى مجرى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما أطلقه من قوله : لا أنسى قتيلا رُزِئْتُهُ مُدّةَ حياتى . يكشف هذا أن موضع « على أنّها تعفو الكلومُ » من الإعراب نصبٌ على الحال ، والعاملِ فيه

ما أنسى قتيلا . وهذا كما تقول : ما أتركُ حقَّ فُلانٍ على ظَلْعٍ بى ، كأنّ التقدير أؤدِّيه ظالعاً ، فعلى المثال الذى ذكرنا يجىء ما أنسى قتيلا رزِئْتُهُ على عفاء الكلوم ، أى أذكره عافياً كلمى كسائر الكلوم . ويعنى بالكَلْمِ : الحزّةَ عند ابتداء الفَجْعة . وإنّما قال هذا لأنّ الإنسان بكونه مُهْدِفاً للأحداث ، غَرضاً للمصائب والأرزاء ، موزّع الحال بين ما يتجدّدُ له أو يَبْلَى ، مُقسَّم الصبر فى أثناء ذلك على ما يَحْدُثُ أو يتولّى ، فلذلك قال « نُوَكَّلُ بالأدْنى وإن جَلَّ ما يَمْضى » فهذا بيانُ كونِ الكلام اعتذاراً . وقوله « على أنَّها » الضمير للقصّة ، وخبر أنّ الجملة بعدها ، ولو قال : على أنّه لجاز وكان الضمير للشأن والأمر . والمرادُ : على أنّ القصة إذا اقتُصَّت ، والصُّورةَ إذا تُحُقِّقت ، أنّ الجروح تعفو ، وإنما الجَزَعُ للأقربِ منها فالأقرب يتسلَّط فيعلو . وهذا كما سئل بعضهم : ما أشدُّ الأدواء ؟ فقال : ما يَحْضُرك ، وإن بَرَّحَ بكَ ما غابَ ! ويقال عفَا الشَّىءُ ، إذا دَرَسَ عَفَاءً وعفُوًّا ، وتَعَفَّى أيضاً ، وعفَته الرِّيح ،وعفا الشَّىءُ : كثُرَ عُفُوًّا وعفوْته . قال أبو زيد : يقال عَفوتُ صُوفَ الشّاةِ ، إذا أخذته ، وعفوتُه إذا وفَّرْتَه ، فهو من الأضداد . وأبلغ ممّا قاله قولُ الآخر[(١)] :

فلم تُنسِنِى أوْفَى المصيباتُ بَعْدَهُ ولكِنَّ نَكْءَ القرحِ بالقَرحِ أوْجَعُ

٤ — ولَمْ أدرِ مَنْ ألقَى عليه رِداءَهُ ولكنَّهُ قد سُلَّ عن مَاجدٍ مَحْضِ[(٢)]

ويجوز أن يكون « من » بمعنى الذى فيكون فى موضع المفعول ، « وألقى عليه رداءَهُ » صِلتُه ، ويجوز أن يكون [مَنْ[(٣)]] استفهاماً مبتدأ وألقى عليه رداءه فى موضع الخبر ، ويكون الجملة فى موضع المفعول لـ « لَمْ أدرِ » . وتحقيق

(١) هو مسعود أخوذى الرمة يرثى ابن عمه أوفى بن دلهم . انظر تحقيق هذا مسهباً فى حواشى البيان (٢ : ١٩٢) .

(٢) كذا رواية الأصل والديوان . لكن فى سائر النسخ والتبريزى : « على أنه قد سل » .

(٣) التكملة مما عدا الأصل .

الكلام : لم أدر ما يقتضى هذا السؤال ، لإنّ الذى خَفِيَ عليه ذاتُ المُلقى واسمُه لا فِعلُه . وموضع « على أنه » نَصْبٌ فى موضع الحال ، كأنّه قال : أدريه مَسلولاً من ماجدٍ مَحضٍ . ويروى : « سِوَى أنه قد سُلّ » ويكون موضع سِوَى من الإعراب نَصْبًا على أنّه استثناء خارجٌ ، ألا ترَى أنه يتأتّى أن يَجْعَلَ مكانَهُ لَكِنْ ، والتقدير : لا أعرف اسمَهُ ونَسَبَهُ ، إلّا أنه وَلَدُ كريم بما ظهر من فعله . والمستثنى قد انقطَعَ عن الأوّل ، ألا ترَى أنه قد عرَفَهُ بدِلالته و إن لم يعرف نفسَهُ وذاتَهُ .

ومعنى البيت : ولا أعلم الذى اهتدى لهذه المكرُمة فى بابِ ابنى خِراش ، ولكنه كريم الأصل شريفُ الفرَعِ ، مؤثِرٌ لفعل الصَّنيعةِ كيف اتفقتْ ، لا يُراعِى وُجوبَها ولا زَكاءها . وأصل المَجْدِ الكثرة ، يُقال أمجدتُ الدابةَ العَلَفَ ، إذا أكثرتَ له . وأراد بالمحض صفاء النسب .

٥ — ولم يكُ مَثلوجَ الفؤادِ مُهبَّجًا   أضاعَ الشَّبابَ فى الرَّبيلةِ والخَفْضِ

قوله « ولم يك » حذف النون من يَكُنْ لكثرة الاستعمال لهذه اللفظة ، ومضارعةِ النون لحروف المدّ واللين ، وقد مَضَى مثلُه . وقولُه « مثلوجَ الفؤادِ » أى باردَ الفؤاد غير ذكيّ ولا حَديدٍ . والمُهبَّج : المتورِّم ، يقال هبَّجَهُ بالعصا فهَبِجَ وتهَبَّجَ ، إذا ضربَهُ بها فانتفخ وتورّم . والرَّبيلة ، أصلُها الرُّطوبة والسِّمَنُ . يقال : رجلٌ رَبِلٌ ، وبئرٌ ذاتُ رَبالَةٍ ، إذا كانت ناجعةَ الماء فى الماشية تَسمَنُ عليه . والرَّبْلُ : ما تفطَّرَ من الورق فى آخر الصَّيف بِبَرْدِ اللَّيل . يقال : هُمْ يتربَّلون . والرِّيبال من أسماء الأسد إذا لم يُهمَز ، يجوز أن يكون فِيعالًا من هذا ، لتربُّلِه وعِظَمِه . والخَفض : الدَّعةُ وتركُ السَّفر . ومعنى البيت : أنه رجَعَ إلى صفة عُروةَ فقال : كان ذكيَّ الفؤاد شَهمًا ، نافذًا فى الأمور ، حيَّ القلب ، لا آفةَ به فيتورَّمَ جِلدُه أو يتغيَّرَ لونُه ، ولم يكن ممَّن ضيَّعَ شبابه فى التودُّع

وصَلاحِ البدَن ، حتّى كانَ يَتْرُكُ السَّفرَ واكتسابَ الأُحدوثة بما يمتَهِنُ فيه النَّفس ، ويتعرَّض من أجلِه لِلتَّلف .

٦ — ولـكنَّه قد نازَعَتْهُ مَجاوِعٌ على أنه ذُو مِرَّةٍ صَادِقِ النَّهْضِ(١)

لـكِنْ المخفَّفةُ استدراكٌ بعد نَفْى ، والمشدَّدةُ وإن كان للتحقيق فيه معناه . فلمَّا نَفَى عنه ما قدَّمَهُ فى البيت الذى قبله(٢) ، استدرَكَ على نفسِه إثباتَ ما يَتَضمَّن هذا البيتُ له . ويروى « ولـكنه قد لَوَّحَتْهُ مخامِصُ » ، ومعنى لوَّحَتْهُ غيَّرَتْه ، والمخامصُ : جمع مَخْمَصَةٍ ، وهى خَلاء البطن من الطَّعام جُوعًا . وفى الحديث : « تَغدُو الطَّيرُ خِماصاً وتروحُ بِطَاناً » . والمجاوِع مثل المَخامِص . والخصال التى تَحْمِل النُّفوسَ على الصَّبر على الجوع والخَماصَةِ مَخَامِصُ ومَجاوِعُ . فيقول : كما انتَفَى عنه تلك الأوصافُ الذَّميمة جاذِبَةٌ فى مساعيه ومتصرَّفاته لمباغيه الشريفة ومطالبِهِ مجاوِعُ أو مَخامصُ ، يريدُ خِصالاً تُجَوِّعُ فيها النفس وتُفْطَمُ فيها عن لذيذ الطُّعْمِ ؛ وهو ذو قُوَّةٍ ، إذا نَهَض فى الأمور صَدَق فيها ، ولم يكذِبْ فِعْلَ مَن يأبَى الشىء تعذيراً أو رِياءً . وقولُه « صَادِقُ النَّهْضِ » جَعَل الصدقَ للنَّهْضِ وإن كان الفِعلان له ولذلك كان نكرةً تقديره : ذومِرَّة صادقٌ نهضَتُه ، وأصل النُّهوض البَرَاح من الأرض ، ومنه النَّاهض : الفَرخ الذى وَفَرَ جناحاه فنَهَضَ للطَّيرَان .

(١) الديوان : « قد نازعته مخامص » .

(٢) كذا فى الأصل . وفى سائر النسخ: «الذى يليه » ، أى الذى يليه هذا ، فالمعنى يستقيم بكل منهما .

٢٦٣

وقال عَبْدَةُ بنُ الطَّبِيبِ[1] :

١ — عَلَيْكَ سلامُ اللهِ قَيسَ بنَ عَاصِمٍ ... ورَحْمَتُهُ ما شاء أن يَتَرَحَّمَا

حيّاه بقوله : « عليك سلام اللهِ ورحمته » وهكذا تحيَّةُ الموتى ، بتقديم عليك ، والمعنى : عليك من الله السَّلامَةُ ! وسلامَتُهُ وقد ماتَ ، فى توفُّر الرَّحمة عليه ، لذلك قال « ما شاء أن يَترَحَّما » ، فاستدام له التحيّة بقوله : ما شاء أن يترحّم ؛ لأن الترحم من الله دائمٌ ، لاتّصال رحمته فى خلقه ، فكأنه قال : توفَّرَتْ عليك الرَّحمةُ ما شاء أن يترحّم . وقوله « ما شاء » ما مع الفعل فى تقدير مصدر ، وهو فى موضع الظَّرف ، والمصادرُ يُحذف معها أسماء الزَّمان كثيراً ، فالتقدير : مُدَّة مشيئته للرَّحمة . والسلامُ من أسماء الله تعالَى ، مصدرٌ فى الأصل ، والمُراد به ذو السَّلامة . وليس فى أسمائه تعالى ما هو مصدرٌ إلا هذا ، وقولهم إله ، والباقى كُلُّه صفاتٌ . وقوله « قيسَ ابنَ عاصمٍ » هو على لغة من لا يُنوِّن فى غير النداء[2] ، ومن ينوِّن يقول قَيْسُ فيبنيه على الضَّمّ .

---

(١) التبريزى : « عبدة واحدة العبد ، وهو نبت ، وهو من بنى عبشمس بن سعد بن زيد مناة بن تميم ». وعبدة هذا بسكون الباء ، وأما علقمة بن عبدة الفحل فبفتحها . والطبيب اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة بن أنس بن عبد الله بن عبد نهم بن جشم . وعبدة شاعر مقل مجيد ، وهو مخضرم أدرك الإسلام فأسلم ، وشهد مع المثنى بن حارثة قتال هرمز سنة ١٣ . وكان فى جيش النعمان بن مقرن الذين حاربوا الفرس بالمدائن . وكان عبدة أسود ، وهو من لصوص الرباب . انظر الإصابة والأغانى (١٨ : ١٦٣ — ١٦٤) واللآلىء ٦٩ — ٧٠ والشعر والشعراء ٧٠٥ .

(٢) أى لا ينون الأعلام الموصوفة بالأبناء المضافة إلى الأعلام ، وهى اللغة الغالبة . وفى غير الغالب أن ينون ، فيقول فى غير النداء : رحم الله قيساً ابن عاصم . والمعروف عند النحويين أن التنوين إنما يكون فى الضرورة لا فى الاختيار ، وذلك كقول الراجز :

جارية من قيس بن ثعلبه ... تزوجت شيخاً غليظ الرقبه

انظر همع الهوامع (١ : ١٧٦) والتصريح (٢ : ١٧٠) .

٢ – تَحِيَّةَ من غادَرْتَهُ غَرَضَ الرَّدَى إذا زارَ عن شَحْطٍ بِلادَكَ سَلَّمَا[١]

انتصَبَ « تحيَّةً » على المصدر مما دلَّ عليه قوله عليك سلامُ الله ، كأنَّه قال : أحيِّيك تحيَّةَ من غادَرْتَهُ . و « من غادرته » يجوز أن يكون مَنْ معرفةً فى موضع الذى وغادرتَهُ من صلته ، ويجوز أن يكون نكِرةً فى موضع إنسان ، كأنه قال : تحية إنسان هكذا ، فيكون غادرتَهُ صفةً لَهُ . وانتصَبَ « غَرَضَ الرَّدَى » على الحال ، وهو فى موضع النَّكِرة وإن كان مُضافاً إلى ما فيه الألف واللام ، لأنَّ غَرَضَ يتضمَّن معنى الصِّفة ، كأنَّهُ قال غادرته منصوباً للرَّدَى وهَدَفاً له . وقولُه « إذا زار عن شَحْطٍ بلادك سلَّما » يجوز أن يكون فى موضع الصِّفة لغرضَ الرَّدى أو حالا له ، ويجوز أن يكون فى موضع الحال إذا جعلتَ مَنْ معرفةً ، ويجوز أن يكون فى موضع البَدل من غادرتَهُ إذا جعلتَهُ صِلةً . وقولُه « عن شَحْطٍ » أراد بعد شحط أى بُعدٍ . يقال : شَحَط يَشْحَطُ شَحْطاً وشُحُوطاً . وكأنَّهُ أشار به إلى بُعد المزار والعَهْد جميعا . وقوله « سَلَّما » جوابُ إذا . ومعنى البيت : أحيِّيك تحيَّةَ الرَّجلِ الذى غادرتَهُ غَرَضَ الرَّدَى ، أو تحيَّةَ إنسانٍ هكذا ، على التقديرين . أى تركْتَهُ مُهْدِفاً للمهالك والمعاطِب ، وبمَدْرجَةِ الآفات والنَّوائب ، أشدَّ ما كان حاجةً إليك ، لا ناصِرَ له ولا مُلتجأَ ، ولا مُستغاثَ ولا مُعتمدَ ، وإذا أراد قضاء

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : غرض الردى بالغين معجمة ، أى هدف الردى صباح مساء . وهذه صفة لجميع الناس ، وليس فيه تخصيص لأحد . والجيد عرض الردى ، بالعين غير معجمة ، من قولهم : فلان بعرض الأمر ، أى بحيث يناله ولا يخطئه . وإذا كان كذلك عاش عيشة نكدة لتوقعه له ، لأنه بصدده . أى جعله هذا الميت معرضاً للأعداء ينالونه كيف يريدون . وقال النمرى : يروى بالعين وبالغين ، فقال أبو محمد الأعرابى : هذا موضع المثل :

أعيتك حمر الوحش أن تصطادها فعبأت رمحك للحمار الآهل

ذكر نبذاً من الحروف ، وأعرض عن تفسير قوله إذا زاره عن شحط بلادك سلما . ومعنى ذلك أن قيس بن عاصم كان كثير الإفضال على عبدة بن الطبيب فآلى عبدة ألا يخرج فى سفر إلا بدأ بتوديعه ، وإذا قدم منه بدأ بزيارته والتسليم عليه ، فكان ذلك دأبه فى حياته ، وفى زيارة قبره بعد وفاته » .

حقَّك ، أو زيارتَك للتسلِّى بك ، فقطع المسافةَ بينه و بينك لم يَرْزأْك شيئاً إلاَّ تسلياً عليك . وهذا الكلام تصريح باليأس منه ، و إظهارٌ للحاجة إليه .

٣— فما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلكَ واحِدٍ ولكنَّهُ بُنيانُ قومٍ تهدَّمَا[١]

يجوز أن يروى « هُلك » بالنَّصب والرفع ، فإذا نصبتَ كان هُلكه فى موضع البَدَل من قَيسٍ وهُلك ينتصب على أنَّه خبر كان ، كأنَّه قال : فما كان هُلكُ قيس هلك واحد من الناس ، بل مات بموته خَلقٌ كثير ، وتقوَّضَ بِبنْيَتِه وعزِّهِ بنيانٌ رفيع . و إذا رفعتَهُ كان هلكه فى موضع المبتدأ ، وهُلك واحدٍ فى موضع الخبر ، والجملةُ فى موضع النَّصب على أنَّه خبرٌ كان . و يُشبه هذا البيتَ قولُ امرئ القيس :

فلَوْ أنَّها نفْسٌ تموتُ سَوِيَّةً ولكنها نفْسٌ تُساقِطُ أنفُسَا

إذا رَوَيْتَ « تُساقِطُ » بضمّ التاء[٢] . ومثلُهُمَا و إن كان أغمضَ قولُ الهُذَلى[٣] :

مُطَأْطَأَةٌ لم يُنبِطُوها وإنَّها لِيَرْضَى بِها فُرَّاطُها أمَّ وَاحِدِ

لأنَّ المعنى أنَّ الفُرَّاط لما حفَرُوا القبر رضُوا بأن يضعوا فيه واحِدًا ، فإذا هم يدفنون بدَفنِه خَلْقًا كثيراً .

وصَلَحَ قوله « ولكنه بُنيانُ قومٍ تهدَّما » فى مقابلةِ « فما كان قَيْسُ هُلكه » لمعناهُ الموافق له ، وذلك أنَّ البُنيان وتهدُّمه لم يكن إلاَّ لموت أربابه .

---

(١) قال أبو عمرو بن العلاء : هذا البيت أرثى بيت قيل . وقال ابن الأعرابى : هو قائم بنفسه ، ماله نظير فى الجاهلية ولا الإسلام .

(٢) الرواية الأخرى : « تَساقَطُ » ، أى تتساقط .

(٣) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ١٢٣) .

٢٦٤

وقال هشامٌ أخو ذى الرُّمَّة(١) :

١ — تعزَّيْتُ عن أوْفَى بِغَيْلانَ بَعْدَهُ عَزاءً وجَفْنُ العَيْنِ مَلآنُ مُتْرَعُ

هِشامٌ هذا فُجِع بأخيه أوْفى ، وأتى عليه زمانٌ مقاسِيًا لآلام الفجيعة به ، ثم أُصيبَ بعده بغَيلان — وهو ذو الرُّمَّة — فيقول : تسليتُ عن الرزيئة بأوْفَى أخى ، بعد أن أُصِبْتُ بغيلانَ عقِيبَهُ ، وجَفنُ عينى مملوء دمعًا ، عَزاءً . وانتصَب « عَزاءً » على المصدر ، وهو موضوعٌ موضع التَّعزِّى ، والفِعل من العَزاء عَزِىَ(٢) وعَزِىَ جميعاً ، أى صَبَرَ . ويقال : هو حَسَنُ العِزْوَةِ ، أى العَزاء ، وبناء تَعزَّى بناء تكلُّفٍ . والواو من قوله « وجَفْنُ العين » واو الحال ، والعامل فى موضع الجملة تعزَّيْتُ . وفائدة اقتران هذه الحال بما قبلهُ هو أن يتبيَّن به ضَعْفُ العَزاء المشار إليه ؛ لأنّ العَزاء المتكلَّفَ إذا صَحِبَهُ البُكاء لم يكن عزاءً فى الحقيقة ، ولا يمتنع أن يكون الجملة التى هى « وجَفْنُ العَيْن ملآنُ » فى موضع الصِّفة لعزاء ، لأنك إذا قلتَ رأيتُ رجلاً ومعه غُلامُه ، معناه رجلاً بهذه الصفة ، فكذلك يكون المرادُ عزاءً بهذه الصفة وهى أن يصحبَه البُكاء . ولا يجوز أن يكون العاملُ فى موضع قوله « وجَفْنُ العين » عزاءً إذاجعلتَه حالاً ؛ لأنّ الاعتماد على الفِعل ، وعزاءً معمولُه ، والمصدرُ وقد تَبِع الفِعلَ معمولاً له

(١) التبريزى : « وقال هشام بن عقبة العـدوى أخو ذى الرمة يرثى أوفى بن دلهم ، وذا الرمة غيلان . وقال أبو هلال : كان لذى الرمة ثلاثة إخوة : أوفى ، وهشام ، وجرفاس ، وكانوا يقولون الشعر ، فغلب ذو الرمة على شعرهم » . وفى الشعراء ٥١٠ أن إخوته أوفى وهشام ومسعود ، فمات أوفى ثم مات بعده ذو الرمة ، فقال مسعود هذا الشعر فى رثائهما . وفى الأغانى (١٦ : ١٠٧) أن هذا الشعر لمسعود أخى ذى الرمة يرثى به أخاه ذا الرمة وابن عمه أوفى بن دلهم .

(٢) رسمت فى ل والتيمورية « عزا » بالألف . والذى فى المعاجم المتداولة « عزى » كفرح فقط .

يؤَكِّدُه لا يعملُ فى غيره عملَه ، ولا فِعلَ معه . وقولُه « مُتْرَعُ » أراد الامتلاء وزيادةً ، وهو الانصباب . يقال أتْرَعْتُ الإناء ، إذا ملأتَهُ مَلْأً يَضِيقُ عمّا يحويه حتى يَنصبَّ منه . ويقال تَرِعَ الإناءُ وأُتْرِعَ بما فيه . والمُتَرِّع : المتسرِّع إلى الشرِّ المقتحم فيه ، منه . وجَعل الامتلاء للجفن لأنه يُمسِكُ الدَّمع ، وأصل الجفن الحبْس ، لذلك قيل لقِراب السيف : جَفْن .

٢ — نَعَى الرَّكْبُ أوْفَى حين آبَتْ رِكابُهُم لَعَمْرى لقد جاءوا بشَرٍّ فأوْجَعُوا

٣ — نَعَوْا باسِقَ الأفعالِ لا يَخْلُفُونَهُ تَكادُ الجِبالُ الصُّمُّ منه تَصَدَّعُ

أتبعَ ما تقدَّم باقتصاص نعيِ الرُّكبان لأوْفَى ، كأنه أراد أن يَذكر ابتداء المُصاب به ليتبيَّن كيف توفَّرَ الجزَعُ عليه ، وكيف انصرف ما انصرَفَ منه إلى ما تعقَّبَهُ من المُصاب الثانى ، فيقول : ذَكَر الرُّكبانُ مَوْتَ أوْفَى عند إيابِهم ، ولَعَمْرى لقد ذكروا شرًّا عظيما ، وأوجعوا قلبًا سليمًا . وقولُه « نَعَوْا باسِقَ الأفعال » أعاد ذِكر النَّعيِ تفظيعًا للشأن . ويقالُ نَعَى نَعْيًا ونَعِيًّا ونُعْيانًا ، أى خَبَّر بالموت . وقولهم : نَعاء فلانًا ، لفظةٌ يَشْهَرُون بها موتَ الرئيس . ومعنى « باسِقَ الأفعال لا يَخْلُفُونَه » أنهم ذكروا موتَ رجلٍ علِيِّ الشأن ، شريفِ الأفعال ، رفيع الحكمة ، هم بأجمعهم لا يقُومون مَقامَه فيما كان يتولّاه فى الحىِّ من الإحسان إليهم ، والتحمل عنهم ، وبَسْطِ الخير فيهم ، والبُسُوقُ فى الأفعال ، وهو فى الأصل الطُّول والاستكمال ، ويجوز أن يكونَ إشارةً إلى أنه لا يُدرَكُ غايتها ، فكلُّ فعلٍ يقع من غيرِه إذا قِيس إلى ما يأتيه يَتَّضِعُ دونَه ، ويَنحطُّ عن رتبته ، فلا يعلو عُلُوَّهُ ، ولا يَكمُلُ كمالَه . وعلى هذا قولهم : فلانٌ رفيع الفَعال علِيُّ المَقال . ويجوز أن يُريدَ بالبُسُوقِ امتدادَ الصِّيت بها ، وصُعودَها فى دَرَج تقبُّل الله تعالى إيّاها إلى السماء . وهذا كما يقال : قولُك هذا يَرتقِى إلى الملإِ الأعلى . وهذا الشِّعر إسلامِيٌّ ، فلا يمتنع أن يشيرَ فيه إلى قولِهِ عزَّ وجلَّ :

﴿ إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ . وقوله « تَكادُ الجِبالُ الصُّمُّ منه تَصَدَّعُ » مُنقطعٌ مما قبلَهُ ويجرى مجرى الالتفات ، لأنَّه لما قال « نعوْا بَاسِقَ الأفعال لا يَخْلُفونهُ » كأنَّه أقبلَ على مَن حولَه فقال : تكادُ الجبال الصُّمُّ منه تَصَدَّعُ ، ويكون الضَّمير من قوله منه يَرجِعُ إلى النَّعِىّ ، ودلَّ عليه قوله نعوْا . وهذا كما يقالُ : مَن حَمِدَ اللهَ تعالَى كانَ خيرًا له ، أى كان الحمدُ خيرًا له . والمُرادُ بالصُّمِّ الصِلاب كأنَّه لا خُروق فى أثنائِها ولا تَخَلْخل .

٤ — خَوَى المَسْجِدُ المَعمورُ بعدَ ابنِ دَلْهَمٍ وأَمْسَى بأَوْفَى قَوْمُه قد تَضَعْضَعُوا

ابن دلهم كان السبب فى عمارة المسجد الذى أشار إليه ، فلمَّا مضى لسبيلِهِ صار المسجدُ خالياً إذ كان هو المُراعِىَ والمُتفقِّدَ لصَلاح أمرِه . وأوفى — يعنى الذى يَرثيه — كان قِوامُ أمرِ عشيرته به ، وانتظامُ شئونهم بمكانِه ، فلما ثُلَّ عَرْشُهُ وأُصيبوا به اضطَربت أحوالُهم ، واتَّضعت رُتُباتُهم ، فصاروا بعدَهُ كالمسجد المعمور بعد ابن دَلهم . أراد أن يشبه تضعضع القوم بموت أوفى ، بخراب المسجد بموت ابن دلهم فلم يَأْتِ بلفظ التَّشبيه إذ كان معناهُ من الكلام مفهوما . والضَّعضعةُ : الخضوع والتَّذلُّلُ .

٥ — فَلَمْ تُنْسِنِى أَوْفَى المُصيباتُ بَعْدَهُ ولَكِنَّ نَكْءَ القَرْحِ بالقَرْحِ أَوْجَعُ

القَرْحُ والقُرْحُ لُغتان فى عَضِّ السلاح وما يَجرَحُ فى الجسَد . ويقال إنَّه لَقَرْحٌ قَرِحٌ ، وقَرِحَ قَلبُه من الحُزنِ . ونبَّهَ بهذا الكلام على أنَّ الجزعَ بأوْفى لم يُزِلْه ما تَعَقَّبهُ من المصائب ، ولكنَّه زادهُ اشتِدادًا ، ثم شَبَّهَهُ بالقَرْحِ وهو الجُرْح ، وقد جَلَبَ ويَبِس ، إذا نُكِئَ وقَرِحَ ثانياً ، أى أُدْمِىَ وقُشِرَتْ جُلْبَته كما أنَّ القَرْحَ إذا فُعِلَ به ذلك كان إيجاعه أشدَّ وأبلغ ، فالهَلَع بموت أوفَى وقد أُمِدَّ بمُصابٍ آخر يكون أتمَّ وأكمل . وقوله «أوجع» موضوعٌ موضِعَ أشدَّ إيجاعًا .

فإن قيل : كيف صَلَحَ ذلك ، وأفعلُ الذى للمبالغة والتفضيل يَتبع ما أفعَلَه وكذلك أفعِلْ به ، وفِعْل التعجُّب يجب أن يكون من الثلاثى لا غيرُ : فَعَل وفَعُل وفَعِلَ ، وأوْجَعَنِى ليس منهما ؟ قُلتَ : ذلك سائغٌ على مذهب سيبويه ، إذ كان عنده أنَّ فعل التعجُّب يكون من الثُّلاثىّ ومما كان على أفعَلَ خاصَّة ، على ذلك حُكِىَ قولُهم : ما أعطاه للمال ، وما آتاه للخَير ، وإنما هما من الإيتاء والإعطاء ، لا من الأَتْى والعَطاء ، وكذلك قولُهم : ما أسداه للمعروف ، وذلك لكثرة وجوه الشَّبَه بين فَعَل وأَفْعَل ، ألا ترَى أنهما يتَّفقان فى معنًى ، وأنّه يُقالُ فى مفعولها مفعولٌ ، وفى فاعلهما فاعل ، وأنَّ كلّ واحدٍ منهما يقع فى مطاوَعة الآخَر ، إلى غير هذا من الشَّبَه . وكان أبو العباس المُبَرِّد[1] يقول : ذلك جائزٌ على حذف الزَّوائد ، يعنى بناء التعجُّب من أفعَل . ويشبِّهه بقول الشاعر[2] :

* يَكْشِفُ عن جِمامِهِ دَلْوُ الدَّالْ[3] *

وقوله : * ومَهْمَهٍ هالِكِ مَنْ تعَرّجا[4] *

ويقول الله تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ . ويَجوزُ مثلَ هذا فى كلّ ما كان أصله ثلاثيًّا على أىّ بناء حصَل . وكان يَتْبع مذهبَ الأخفش فى ذلك ، فاعلَمه[5] .

(١) تتفق نسخ الأصول على ضبطه بهذا الضبط حيثما ورد .

(٢) هو العجاج . ملحقات ديوانه ٨٦ واللسان (دلا) .

(٣) رواية الديوان وسائر النسخ : « عن جماته » . والجمات : جمع جمة ، وهى المكان الذى يجتمع فيه ماء البئر ، والجمام ، بكسر الجيم هى كذلك جمع جمة . والشاهد فيه استعمال الدالى بمعنى المدلى . وقد رسم فى الأصل « الدالى » ، وهو تحريف . إذ أن أرجوزة العجاج هذه مقيدة بالسكون غير مطلقة بحركة .

(٤) وهذا الشطر أيضا للعجاج فى ديوانه ٩ واللسان (هلك) .

(٥) كلمة « فاعلمه » انفردت بها نسخة الأصل .

٢٦٥

وقال مُتَمِّمُ بن نُوَيْرَةَ يرثى مالكًا أخاه(١) :

١ — لَقَدْ لَامَنِي عند القُبُورِ على البُكَا | رفِيقِي لِتَذْرَافِ الدُّمُوعِ السَّوَافِكِ

٢ — فقَال أتبكِي كُلَّ قَبْرٍ رأيْتَهُ | لِقَبْرٍ ثَوَى بين اللِّوَى فالدَّوَانِكِ

٣ — فقلتُ له إن الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا | فَدَعْنِي فهـذا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

يقول : استَسرَفَ رفيق بكائى عند القبور ، واستفظَعَ سَيَلانَ الدُّموع من عَيْنِي فقال مُوَبِّخًا : أمِنْ أجل قَبْرٍ لَكَ بين اللِّوَى فالدَّوانِكِ تبكى عند كلِّ قَبْرٍ تَرَاهُ ؟ فأجبته بأنَّ الحُزنَ يُهَيِّجُ الحُزْنَ فاتركنى ، فكلُّ قبرٍ أنتهى إليه يذكِّرنى قبرَ مالكٍ ، إذْ ليس لى فى قبر مالكٍ إلا مِثْلُ مالِى فى القُبور كُلِّها .

---

(١) روى التبريزى عن أبى محمد الأعرابى أن هذا الشعر ليس لمتمم بن نويرة ، بل هو لابن جذل الطعان الفراسى ، من بنى كنانة ، يرثى أخاه مالـكا . وأول الأبيات :

نبى الحزن أرمام غشينا بمنشد | ورملة قرى عن يمين الشنابك
فأسعدت أبكى مالـكا وكأنه | بجثوته بينى وبين الشوابك
ولا صاحبى لم يبك والناس ضاحك | سلى وباك شجوه غير ضاحك
وقال أتبكى كل رمس رأيته | لرمس مقيم بالملا والدوانك
فقلت له إن الشـجا يبعث البكا | فدعنى فهـذا كله قبر مالك
ألم تره فينا يقسم ماله | وتأوى إليه مرملات الضرائك
فآخر آيات مناخ مطيـة | ورحل علافى على متن حارك
فلما استوى كالبدر بين شعوبه | وأمت بهاديها فجاج المهالك
بعينى قطامى تأوب مرقبا | فبـات به كأنه عين فارك
أطفنا به نستحفظ الله نفسه | تقول له مصاحـبا غير هالك

ومتمم بن نويرة ، وأخوه مالك ، شاعران صحابيان من بنى ثعلبة بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . وقد قتل «مالك» فى حرب الردة ، قتله خالد بن الوليد فى ظروف مبهمة اختلف الرواة فيها ، فبعضهم يقول إنه قتله مرتدا ، وبعضهم يقول إنه أخطأ فى قتله . واستتبع ذلك اختلافهم فى تزوج خالد لامرأة مالك ، أو تسريه لها ثم ردها على أخيه متمم . وقد حقق ذلك الأستاذ الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر فى مقال نشر بالمقتطف أغسطس سنة ١٩٤٥ وبالهدى النبوى شعبان سنة ١٣٦٤ . وانظر الإصابة ٧٦٩٠ ، ٧٧١١ والشعراء ٢٩٦ — ٢٩٩ والأغانى (١٤ : ٦٣ — ٦٩) . وقد ساق التبريزى أيضا خبر مقتله مفصلا .

يُرِيدُ أنّ أسبابَ الحُزْنِ ومهيِّجاتِه تتشابَهُ ، فكلٌّ منها يَقُومُ مَقامَ الآخر ولا سِيَّما وقد توافقت فى الجِنسيَّة . وقولُه « لتذرافِ الدُّمُوعِ السَّوافِكِ » أى من أجله ، بعدَ قولِه « على البُكا » ، فيه من الفائدة المتجدِّدةِ التنبيهُ على إجابة الدُّموع له ، وانصبابها بحَسَب مرادِه ، حتَّى لا جُمودَ من الحِجاج[1] فى شىء من الأوقات ، ولا توقُّفَ من السَّيَلان فى حالٍ من الحالات ، وليس كلُّ باكٍ بهذه الصِّفَةِ . فكأنَّه لامَهُ على البكاء من أجل ما استنكره من إجابة الدُّموع السائلة له ، إذ كان ذلك بالضَّررعليه أعْوَدَ ، وإلى بُطلان العَينِ بمكانِه أدْعَى . وقال « السوافِك » والسَّفْكُ صَبُّ الدَّمِ والدَّمعِ ، فوصَفَ الدموع بها لأنها جمع سافِكَةٍ ، والمرادُ ذواتُ السَّفْكِ . والسَّفْكُ أيضا : نَثْرُ الكلام . ويقال : رجلٌ سَفَّاكٌ للدِّماء ، وسَفَّاكٌ بالكلامِ ، أى يُثِيرُ الكلامَ ويَصُبُّ الدِّماء .

وقولُه « بين اللِّوَى فالدَّوانِك[2] » اكْتفَى بَيْنَ باللِّوى ، وهو مُسْتَرَقُّ الرَّمْلِ لوقوعه على أماكنَ مختلفة ، ولمَّا اكتفَى به جاز أن يَترتَّبَ عليه فالدَّوانِك . ولو رُوِى « والدَّوانِك » كان جائزًا ، إلَّا أنّ اللِّوى حينئذ لا يُتصوَّرُ شُمولُه لبِقاعٍ كما يُتصور فى أسماء الجموعِ شُمولُها للكثير ، نحو القَومِ والرَّهطِ والعشيرة .

والشَّجَا : الحُزْن . يقالُ شَجاهُ يَشْجُوهُ شَجْوًا ، فَشَجِيَ يَشْجَى شَجًا . ومعنى يَبْعَثُ يُهَيِّجُ ويُثِيرُ . على هذا قولُكَ بَعَثْتُه من منامِه ، والبَعْثُ فى الجُندِ . وقولُه « فهذا كلُّه قبر مالِكِ » أشار بهذا إلى الجِنْس كما هو ، كأنه أراد جنس القُبور ؛ يدُلُّ عليه إتباعه إيَّاهُ بما يُفيدُ العُمومَ ، وهو قولُه كلُّه . ويقال

(١) حجاج العين بكسر الحاء ، هو العظم المستدير حولها .

(٢) رواه التبريزى : « بين اللوى فالدكادك » . وقال : « وذكر بعضهم أن اللوى ها هنا يقع على أماكن مختلفة . ولأجل ذلك جاز أن يترتب عليه فالدكادك . وإذا روى : فالدوانك ، لا يتصور وقوع اللوى على أماكن مختلفة ، والدوانك علم لموضع » .

ذَرَفَتْ عينهُ ذَرْفًا وذَرَفانًا وذَرِيفًا . فأما قولُه « تَذْراف » فهو من باب ما تُكَثَّرُ فيه المصدرَ من فَعلتُ وتُلْحِقُه الزَّوائدَ وتبنيه بناء آخر على غير ما يجب للفِعل ، قَصْدًا إلى المبالغة والتكثير . وقولُه « الدَّوانك » عَلَمٌ لموضعٍ . [وذَاكَ[1]] فيما أظنُّه مُهمَلٌ .

ومالكُ بن نُوَيْرَةَ قُتل فى الرِّدَّةِ أيامَ أبى بكرٍ رضى الله عنه .

٢٦٦

وقال أبو عطاءِ السِّنْدىّ[2] :

١ — ألاَ إنَّ عَيْنًا لم تَجُدْ يومَ واسِطٍ ⁂ عليك بجَارى دَمْعِها لَجَمُودُ

٢ — عَشِيَّةَ قامَ النائحاتُ وشُقِّقَتْ ⁂ جُيُوبٌ بأيْدِى مَأْتَمٍ وخُدُودُ

افتتح كلامَه بألاَ ، ثم أخذ يعظِّمُ أمرَ الفجيعة ، ويبيّن موقِعَها من النُّفوس ، وشدَّةَ تأثيرها فى القلوب ، واشتراكَ الناسُ كافّةً فى الجَزَع لها ، والهَلَع عليها ، فقال : إنَّ عَيْنًا لم تَدْسَحْ بدمعِها الجارى على هذا المرثىِّ يومَ واسطٍ ، لَجَمُودُ الحِجَاجِ على المصائب[3] ، شديدةُ البُخْلِ بما فى شئونها من الذَّخائر . والجُمود : ضِدُّ الذَّوْب ، واستعمالُه فى الدَّمْعِ مجاز .

---

(١) ليست فى نسخة الأصل ، وهى فى سائر النسخ .

(٢) هو أبو عطاء أفلح بن يسار السندى ، مولى بنى أسد ، شاعر من مخضرمى الدولتين وكان فيه عجمة . وكان من شيعة بنى أمية ، توفى عقب أيام المنصور . الأغانى (١٦ : ٧٨ — ٨٤) والمرزبانى ٤٨٠ ، واللآلى ٦٠٢ — ٦٠٣ والعينى (١ : ٥٦٠ — ٥٦١) والخزانة (٤ : ١٧٠) . والشعراء ٧٤٢ — ٧٤٦ . وهذه المرثية يقولها فى مقتل يزيد بن عمر بن هبيرة ، قتله المنصور بواسط سنة ١٣٢ . الطبرى (٩ : ١٤٦) وابن خلكان (٢ : ٣٦٩) واللآلى ٦٠٢ . وذكر التبريزى أنه قتله غدراً بعد أن آمنه ، فلما حمل رأسه إليه قال للحرسى : أترى إلى طينة رأسه ! ما أعظمها ! فقال الحرسى : طينة إعانه أعظم من طينة رأسه ! !

(٣) سبق مثل هذا التعبير فى الصفحة السابقة س ٤ .

وقوله « عشيّة قام النائحات » بدلٌ من قوله « يومَ واسطٍ » ، وأسماء الزَّمان تُضاف إلى الأفعال ، وهو توقيتٌ وتحديدٌ ، إلاَّ أنّ فيه بياناً لتفظيع الشان . وعلى هذا ضَبْطُهم لمدَى الأوقات فى ترتيب النوائب ، والتنبيه على ما يتقدَّم من الأحداث أو يتأخر . ومعنى قيام النائحات ، تهيُّؤها للنَّوْح . وعلى هذا قولهم : قامَتِ السيوف ، وقوله تعالى : ﴿ إذا قمتُمْ إلى الصَّلاة ﴾ . وأصلُ التَّناوُح : التقابُل ، يقال فى الجبَلَين المتقابلين : هما يتناوَحان . وقولُه « شُقِّقَتْ جُيُوبٌ بأيدِى مَأْتَمٍ وخُدُودُ » ، فالمأتَم : النِّساء يجتمعن فى الخير والشرّ ، وأصلُه من الأَتْم ، وهو التقاء المَسلَكَين ، ومنه أيضا الأَتُومُ فى صفة النِّساء . وهذا الكلام وإن كان اقتصاصَ حالٍ ففيه دِلالةٌ على تمَكُّنِ الجزَع بالمُصابِ من كافَّةِ النَّاس ، وتناهيهم فيما يُستدلّ به على شدّةِ تأثيرِه فيهم .

٣ — فإنْ تُمْسِ مَهْجُورَ الفِناء فرُبَّما أقامَ بهِ بعْدَ الوُفود وُفُودُ

٤ — فإنَّكَ لم تَبْعُدْ على مُتَعَهِّدٍ بَلَى كُلُّ مَنْ تحْتَ التُّراب بَعيدُ

الرواية المختارة : « وربّما أقامَ به بعد الوفودِ وُفودُ » ، بالواو ، وذلك أن الشَّرْطَ فى قوله « فإن تُمْسِ مَهْجُورَ الفِناء » جوابه فإنَّك لم تَبْعُدْ ، ويصيرُ : « وربّما أقامَ » بيان الحالِ فيما تقدَّم من رِياستِهِ وقْتَ توَفُّر الناس على قَصْده وزيارته . والمعنى : إنْ مُتَّ وصرتَ مهجور الساحةِ مرفوضَ الخِدمة — وربّما كانت الوفود فيما مَضَى من حياتِكَ تزدحمُ على بابِكَ ، وتتلاقى فى فنائِك — فإنّك السَّاعةَ لم تَبْعُد على مَن يتعهَّدُك ، ويرى قضاء حقِّك ، وإقامةَ الرَّسم فى واجبِك ، ثم قال مستدركا على نفْسِه : بلَى كلُّ من تحت التراب فقَدْ بَعُدَ عن ذلك كلِّه . ويعنى بالوفودِ طُلَّابَ الحاجات والمؤدِّين لواجبات الشُّكر ، إذ كان فى حياتِهِ المقصودَ والمشارَ إليه ، والمُصْطَنِعَ لطوائف الناس بما يتفرّقُ من إحسانه فيهم .

وقولُه « على مُتَعَهِّدِ » يريدُ متتبِّعَ العهود بالحِفظ لها ، ومَنعها من الضَّياع والدُّورس . وكما يُقالُ : تعهَّدتُ الشَّىء إذا تأمّلتَهُ هل بَقِىَ على ماعَهدتَه ، يقال : تفقَّدتُ الشَّىء إذا تأمَّلتَهُ هل لِحَقَهُ فقودٌ أمْ لا . وإذا رَوَيتَ « فربما أقام به بعد الوُفود وفُود » ، وجعلتَه جزاء للشرط ، يَصيرُ « فإنَّكَ لم تَبْعُد » استئنافُ كلامٍ ، ويكون الفاء رابطَةً لجملةٍ على جُملةٍ ، والمعنى : إنْ هُجِرَ فناؤك السّاعةَ لموتك فربّما كان مألفًا للوُفود أيّامَ حياتِك . وفى طريقته قولُ الآخر :

فقد كان يَخشاكَ الكَمِىُّ ويَتَّقِى أذاكَ ويَرجُو نَفعَكَ المتضعضِعُ

فإن قِيلَ : الشّرط والجزاء لا يصِحّانِ إلا فيما كان مستقبلا ؛ ألا تَرَى أنّه لا يجوز أن يقول القائل : إن خرجْتَ أمْس أعطيتُك فيه دِرهمًا ؛ لأنّ الوقت وقد انقضى لا يصحُّ تعليق الشّرط والجزاء به ، وإنما يُعلَّقان أبدًا بما يُستأنف من الزّمان ، حتّى يصحّ من الفاعِلِ إيقاعُ فعله به واستحقاقُه الجزاء عليه . قلتَ : إنّ الأمر فى الشّرط على ماذكرتَ إلّا فى لفظ كانَ ، لأنّهم جوّزوا أن يقولَ القائل : إن كُنتَ خرجْتَ أمْسِ إلى موضع كذا أعطيتُك اليومَ كذا ، والمعنى إن ثَبَتَ فى علمى وقوعُ الخروج منك أمْسِ . وجوّزوا هذا فى لفظة كانَ لقوّتِه فى العبارة عن الأحداث ، فأمّا الجزاء فلا يجوز فيه مثلُ هذا لا بلفظةِ كان ولا بغيره . ويمتنع أن يُقال : إن تجئْنى اليوم أعطيتُك أمْسِ ، على أن تكون العطيّةُ سَلَفًا فى جزائه على فِعلِه . فإن قيل : كيف جاز أن تقولَ على هذا « فربّما أقامَ » وأقام بناء ماضٍ ؟ قُلتَ : إنّ الجواب فى قولِه « فربّما » ليس بالفعل ، وإنّما هو بجملةٍ من مبتدإ وخبرٍ ، كأنّه قال : ففناؤك ربّما أقامَ به بعد الوُفودِ وُفودٌ فيما مَضَى . والفاء فى جواب الجزاء إنما تُجلَبُ إذا كان الجزاء غير موافِقٍ للشّرط ، وهو أن يكونَ مبتدأً وخبرًا ، لا فِعْلاً وفاعِلاً ، وإذا كان كذلك فقدْ

سَلِم اللَّفظُ وصار المعنى : إن أَمْسَى فِناؤك مهجُورًا السَّاعةَ فرُبَّما كان مألوفاً من قبل . والعَربُ تقول : هذا بذاكَ ، أى عِوَضٌ من ذاك . فأما وقوع الماضى بعد إنْ فلأنَّ إن يَنقُله بكونه شرطاً إلى المستقبل ، وهذا كما يَنقلُ « لَمْ » بناء المستقبَل إلى الماضى . وهذا ظاهِرٌ .

٢٦٧

وقال آخر :

١ — لو كان حَوضَ حِمارٍ ما شَرِبْتَ به إلاّ بإذْنِ حِمارٍ آخِرَ الأَبَدِ (١)

حِمارٌ اسمُ أخيه ، وكان فى حياته يتعزَّزُ به فلا يعترِض عليه أحدٌ فيما يفعله ، ولا يَطْمع إنسانٌ فى اهتضام جانبِه وقَصْدِه فيما يختصُّه ، فلما أُصيبَ به استُلِين جانبُه ، واستُبيح حريمُهُ ، حتى إنه جَبَى ماءً فى حوضٍ ليسقِيَ إبلَه منه ، فجاء من زاحَمَهُ فيه واستَبدَّ به دونه ، فقال متلهِّفاً : لو كان هذا الحوضُ حوض حمارٍ أخى ما جَسَرْتَ على شُربِ مائه ، ولا على امتهانه فيه ، بل كنتَ تستأذنه ثم تُقْدِم عليه . وقوله « آخِرَ الأَبدِ » يتعلقُ بقوله « ما شَرِبْتَ به » . فأما تكريره لفظةَ حمارٍ فهم يفعلون ذلك فى الأعلامِ وما يَجرِى مجراها ، وفى أسماء الأجناس ، ويكونُ القصدُ إلى التعظيمِ فى التكرير . على ذلك قوله تعالى :

(١) أنشد ياقوت هذه الحماسية فى رسم (حوض حمار) ، وقال : « قيل حمار اسم رجل ضعيف ، وكانوا يتمثلون بضعفه . وقيل بل أراد الحمار بنفسه . يقول : لو كان حوضى حوض حمار ما شربت منه إلا بإذن الحمار ، لضعفك وذلك وقلتك ، ولكان الحمار أعز منك ، ولكنك وجدت حوضى حوض رجل أهلك الدهر قومه ونظراءه فطمعت فيه ، فليس ما فعلته دليلا على عزك ، ولكنه دليل على ضعفى . كأنه يحرض قومه بذلك » .

﴿ رُسُلُ اللهِ اللهُ أعلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رِسالاتِهِ[١] ﴾ . وقولُ الشاعر[٢] :

لا أرَى الموْتَ يَسْبِقُ الموتَ شيءٌ ... نَغَّصَ الموتُ ذا الغِنَى والفقيرَا

وقد قيل إنّ حِمارًا المذكور اسم رَجُلٍ كان يُضرَب به المثَل فى الذُّل ، فلذلك ذكره . ولا يجوزُ أن يُرادَ به واحدٌ من الحُمُر ، لأنه لو كان كذلك لوجَبَ أن يقولَ فى الثانى إلا بإذن الحمار ؛ لأن النَّكِرةَ إذا أُعيد ذِكرُها يجب تعريفُه بالألف واللام إشارةً إليه على هذا كُتِبَ فى أواخِر الكُتُب وقد قُدِّمَ فى أوائلها : سَلامٌ عليكَ : والسلامُ عليك .

٢ — لكِنَّهُ حَوْضُ من أُودِى بإخْوتِه ... رَيْبُ الزَّمانِ فأمْسَى بيضَةَ البَلَدِ

هذا الكلام فيه تنبيهٌ إلى شِدّة فاقته إلى من يَذُبُّ عنه ، وتأكُّدِ جزَعِه لما فاتَه من الصِّيانةِ بإخوتِه ، فيقول : لكنه حوضُ رَجلٍ فرّق الدهرُ بينَه وبين من كان يَعتزُّ به ، ويَدفعُ الظلمَ والمضيمةَ عن نفسه بمكانِه ، فأمسى لا ناصرَ له ، ولا دافِع دونَه ، كبَيضةِ البلد . وقد قيل فى بيضة البلد : إنه أراد بَيضَ النَّعام ، لأنها سيِّئة الهِداية ، فتَضَعُ بيضَها فى موضع ، ثم تتركه ضَلالاً عنه فتَضِيع ، وربما تذهَبُ وتَحضُن بيضَ غيرِها تظُنُّ أنها بيضُها . وقد ضُرِبَ المَثلُ بها فقيل :

كتارِكةٍ بيْضَها بالعَراء ... ومُلْبِسةٍ بَيْضَ أُخرَى جَناحا[٣]

وقد قيل : إنّ بيضةَ البَلَد هى الكَمأةُ البيضاء تنشقُّ عنها الأرض — وهى

(١) قرأ ابن كثير وحفص «رسالته» بالتوحيد ، وباقى السبعة « رسالاته » على الجمع . تفسير أبى حيان (٤ : ٢١٧) .

(٢) هو عدى بن زيد العبادى ، أو ابنه سوادة ، الخزانة (١ : ١٨٣) وكتاب سيبويه (١ : ٣٠) .

(٣) البيت لإبراهيم بن هرمة . الحيوان (١ : ١٩٩) . وانظر ثمار القلوب ٣٥٣ ، والدميرى (٢ : ٥٠٢) والموشح ٢٣٧ .

القَقَع – فتطؤه الماشيةُ ، وتنقرُه العافية[1] ، ولذلك قيل : « أذلُّ من ققعٍ بقاعٍ » . وكما ضُرِبَ المثلُ ببيضة البلد فى الذُّل ضُرِبَ المثلُ بها فى العِزِّ أيضاً . وقد مَضَى ذكرها . وأنشدنى بعضُهم لأخت عَمرِو بن عَبْدِ وَدٍّ[2] ترثى أخاها ، وكان أمير المؤمنين عليه السلام قاتِلَه :

لو كان قاتلُ عمرٍو غيرَ قاتِلِه بَكَيْتُه ما أقامَ الرُّوحُ فى جَسَدِى
لكنَّ قاتِلَهُ مَن لا يُعابُ به وكان يُدعى قديمًا بيضةَ البَلَدِ

والمراد إذا مُدِح أنه لا نظيرَ لها ، ولا أختَ معها ، فالنَّعامةُ تُطِيفُ بها إشفاقًا عليها . ومما يُحتجُّ به فى الذَّمِّ قولُ الآخر :

إنَّ أبا نَضْلَةَ لَيْسَ من أَحَدْ ضَلَّ أباه فهو بَيضةُ البَلَدْ

وبَيضةُ الإسلام : جماعتهم . ويقال : تَفَرَّى بيضةُ الأرض عن بنى فُلانٍ ، إذا تناسلوا وكثُروا . وبيضة الخدر قد تقدَّمَ القولُ فيه[3] .

٣ – لو كانَ يُشكَى إلى الأمواتِ ما لقِىَ الـ أحياءُ بَعْدَهُمُ من شِدَّةِ الكَمَدِ

٤ – ثم اشتكيتُ لأشكانى وساكِنُه قَبْرٌ بِسِنْجارَ أو قَبْرٌ على قَهَدِ

قَصْدُه إلى بيانِ برِّ أخيه به أيَّامَ حياتِه ، فقال : لو جرَتِ العادةُ بتكلُّفِ الأحياءِ الشَّكوى إلى الأمواتِ ، وإنهاءِ ما يقاسونه من الجزَعِ فيهم ، ومن النَّوائب بفقدهم وبعدَهُم[4] ، ثم كان يَنفع ذلك أو يُثمِر إصغاءً وإجابةً ،

(١) العافية : طلاب الرزق من الإنس والدواب والطير . انظر ص ٨٢٣ س ٢ .
(٢) كذا على الصواب فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « عمرو بن معد يكرب » وفى م : « عمرو بن ود » كلاهما محرف . وكان مقتـل عمرو بن عبد ود فى غزوة الخندق ، قتله على عليه السلام ، وقتل كذلك ابنه حسل بن عمرو . السيرة ٦٩٩ – ٧٠٠ جوتنجن . وود بفتح الواو : صنم لهم ، وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم .
(٣) انظر ما سبق فى الحماسية ١٦٧ ص ٥٠٥ .
(٤) كذا ورد ضبطها فى جميع النسخ .

وجريْتُ أنا على عادتهم فى مُبَاثَّةِ أخِى ، والإفاضةِ فى الشَّكْوِ إليه ، لأرضانى وأزال شكواىَ .

وقوله « أشكانى » يقال شَكوتُه فأشكانى ، كما يقال طَلبتُ منه كذا فأطْلَبنِي ، وعَتَبْتُ عليه فأعتَبَنِي . وقوله « وسا كِنُه قبرٌ بِسنجارَ أو قَبْرٌ على قَهَدِ » ، قدَّمَ المعطوفَ وهو سا كِنُه على المعطوفِ عليه ، وهو قَبرٌ بسنجار . ومثله قوله :

* عَلَيْكِ ورحمةُ اللهِ السلامُ(١) *

وإنما يَحسُن هذا إذا كان العاملُ مُقدَّماً ، وهو فى الفعل والفاعل أ كثرُ منه فى المفعول ، فأمَّا المجرور فلا يجوز ذلك فيه ، لا يجوز أن تقولَ مَررتُ وعمْرٍو بزيدٍ إذ كان فيه تقدُّم المعطوف على المعطوف عليه وعلى العامل فيه . والكَمَدُ : حُزنٌ وهَمٌّ لا يُستطاعُ إمضاؤُه ، وقال الدُّرَيْدِىّ : هو مَرَضُ القَلْبِ من الحزن . يقال كَمِدَ يكمَد كَمَدًا ، ورأيته كامِدَ الوجهِ وكَمِدَ الوجه ، إذا بان به أثرُ الكَمَد ؛ وأ كْمدَهُ الحُزن إكمادًا .

٢٦٨

وقال رَجلٌ من خَثْعَمَ(٢) :

١ — نَهِلَ الزَّمانُ وعَلَّ غيرَ مُصَرَّدِ   مِن آلِ عَتَّابٍ وآلِ الأسْوَدِ

(١) البيت لا يعرف قائله ، وقيل : هو للأحوص . الخزانة (١ : ١٩٢) وصدره :
* ألا يا نخلة من ذات عرق *

(٢) ابن جنى فى المبهج ٣٩ : « وخثعم اسم قبيلة غير مصروف . وهو فى الأصل اسم بعير . والخثعمة : تلطخ الجسد بالدم . ويقال : إنما سميت بذلك لأنهم نحروا بعيراً فتلطخوا بدمه وتحالفوا . فخثعم على هذا فى الأصل ماض كدحرج ، نقل فسميت القبيلة به . ويجوز أن يكون مصدراً حذفت منه الهاء عند النقل ، وأصله خثعمة » . وخثعم هو أفتل بن أنمار بن أراش بن عمرو بن لحيان بن عمرو بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يعرب بن =

٢ — من كلِّ فيّاضِ اليدين إذا غدت نكباءُ تُلوِى بالكنيفِ المُوصدِ

النَّهَلُ : الشُّرْبُ الأوّل . والعَلَلُ : الشُّرب الثانى . والتَّصريد : تقليل الشُّرب ؛ يقالُ إناءٌ مصرَّدٌ ، إذا كان ما يحويه دُونَ الرِّىِّ ، ويقالُ صرَّدَ عطاءَهُ إذا نزَّرهُ . وقصْدُ الشّاعرِ إلى بيان تأثير الزّمان فى الذين ذكرهم حالاً بعد حالٍ ، ووقتاً بعد وقتٍ ، وأنَّهُ استوفَى منهم ما أراد دَفعةً بعد أُخرى ، وثانيةً بعد أُولى ، غيرَ مُقالٍ ولا مُطفِّف .

وقوله « من كلِّ فيّاض اليدين » بدلٌ من قوله « من آلِ عتّابٍ » ، وقد أعادَ العاملَ فيه ، وهذا يكثُر فى المجرور . على هـذا قولُ الله تعالى : ﴿ قَالَ المَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ ألا ترى أنه أعاد اللام كما أعادَ هذا الشّاعر مِنْ . وهذا التكرير تأكيدٌ للإبدال ، وتنبيهٌ على أنّ الثّانى من الأوّل . والفيّاض : الكثير السّيلان ، وهو بناء المُبالغة . والنَّكباء : ريحٌ تنكَّبتْ عن مَهابِّ الرِّياح الأربع . وإذا كثُرت النَّكباواتُ واشتدَّ هُبوبُها شَمِلَ القَحط . ويقال : إنَّهُ لَمِنكابٌ عن الحقِّ ، أى كثير العُدول عنه ، والأنكب البعير كأنَّهُ يمشى فى شِقٍّ ، ومعنى تُلوِى : تذهب به . والكنيف : الحظيرةُ من الشَّجر ؛ والمُوصَدُ : الذى جُعِل له إصادٌ إحكاماً له ، والإصادُ : عتَبَةُ الباب ، والجميع الأُصُدُ . وفسَّرَ قولَه عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ ﴾ أى مُطْبَقةٌ . ويُهْمَزُ ولا يهمز . وقيل : الوصيد الفِناء . والمعنَى أنّ الزّمانَ ألحّ عليهم ، وتناولَ منهم الأفضلَ فالأفضلَ تناولاً لا تقليلَ فيه ولا تعذير ، فذهب منهم بكلِّ رَجُلٍ

= قحطان . نهاية الأرب (٢ : ٣١١ وما قبلها) . على أن البيت الرابع من هذه الحماسية نسبه ياقوت فى رسم (البقيع) إلى عمرو بن النعمان البياضى ، فى أبيات أخرى قالها يرثى قومه ، وكانوا قد دخلوا حديقة من حدائقهم فى بعض حروبهم ، وأغلقوا بابها عليهم ثم اقتتلوا ، فلم يفتح الباب حتى قتل بعضهم بعضا . ونسب الجاحظ هذا البيت الرابع أيضا إلى حارثة بن بدر ، فى البيان (٣ : ٢١٩ ، ٣٣٦) . والبياضى : نسبة إلى بياضة بن عامر بن زريق بن عبد بن حارثة ابن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج . نهاية الأرب (٢ : ٣١١) .

سَخِيّ واسعِ المعروف إذا اشتدَّ الزّمانُ وأسنتَ النّاس . وقول الجَعْدىّ :

سألتني عن أُناسٍ هَلَكُوا شَرِبَ الدَّهْرُ عليهمْ وأَ كَلْ[1]

ليس مما قالَهُ فى شىء ، وإنما يريدُ مَرّ عليهم دهرٌ مديدٌ وزمانٌ طويل ، فشَرِبَ النَّاسُ بعدهم وأ كلُوا ونَسوا أولئك . وهذا مثل .

٣ — فاليَوْمَ أَضْحَوْا للمَنُونِ وَسِيقَةً من رائحٍ عَجِلٍ وآخرَ مُغْتَدِ

٤ — خَلَتِ الدِّيارُ فسُدْتُ غَيْرَ مُدافعٍ ومِنَ الشَّقاء تَفَرُّدِى بالسُّودَدِ[2]

قولُه « فاليَوْمَ » أشار به إلى الزّمان الحاضر المُتّصل بما بعده ، غيرَ محصورٍ بنهاية ، ولا مضبوطٍ بذكرِ غاية ، وهذا كما يُقال : فُلانٌ بالأمسِ كان يفعلُ كذا وهو اليومَ رئيسُ بَلَدٍ . فذِكرُ الأمسِ واليومِ لاتّصال الوقتين ، وتقريب المَدَى بين الماضى منهما والحاضر . والوسيقةُ : الطّريدةُ . ونَبّهَ بهذا الكلامِ على أنّ الدّهر بَعْدُ جارٍ على عادتِهِ المستأنَفةِ معهم فى الأخْذ منهم ، والذّهابِ بهم . وقولُه « من رائحٍ عَجِلٍ وآخرَ مُغْتَدِ » بيانٌ لذَهاب الواحد منهم فى إثر الآخَر . والعَجِلِ : المستعجِل . ويقال عَجِلٌ بكسر الجيم وعَجُلٌ ، ومثلُه العَجْلان .

وقوله « خَلَتِ الدّيار فسُدْتُ غيرَ مدافعٍ » يُروى « غيرَ مُسَوّدٍ[3] » .

(١) وكذا جاءت نسبته فى أمالى المرتضى (١ : ٦٦) واللسان (١٣ : ٢٢) . ونسبه الجاحظ فى الحيوان (٥ : ٢٨) إلى دهمان النهرى .

(٢) كذا فى التيمورية ، وهو مايقتضيه التفسير من بعد . وفى سائر النسخ : « مسود » .

(٣) مسود ، كذا وردت فى جميع النسخ بالتنوين فى هذا التفسير وفى متن الأصل ، ل ، م . وهو جار على مذهب من لا يعترف بالتصريع إلا فى أول بيت من القصيدة . والحق أن التصريع جائز فى كل بيت . قال ابن رشيق فى العمدة (١ : ١١٥) : « وقد كثر استعمالهم هـذا حتى صرعوا فى غير موضع تصريع ، وهو دليل على قوة الطبع وكثرة المادة » .

ومعنى « خَلَتِ الدِّيار » ماتَ الرُّؤساء الذين لكل واحد منهم بَيتٌ ودارٌ يُنسبُ إليـه ، ويُتَبَجَّحُ به . وإذا رويتَ « غيرَ مُدافِعِ » يكون حالًا ، كأنه سادَهم ولا مُنازِعَ له ولا مُتأَبِّيَ عليه . وإذا رويت « غَيرَ مُسَوَّدِ » جاز أن يكون غير مفعولاً من سُدتُ ، فيكونَ مثل قول الآخر :

وَضَعَ الدَّهْرُ عليهم بَرْكَهُ ... فأراه لم يُغادِرْ غيرَ فَلّ

فيكون المعنى : سُدتُ مَن لا يَصلُح أن يُنسبَ إلى السِّيادة فى حال ؛ لأنَّ مَن استُصلِحَ لها ، أو ذُكِرَ فى عِدَاد الرُّؤساء إذا عُدُّوا ، ماتوا وبادُوا . وجاز أن يكون حالاً ، ويكون المعنى سُدتُ قبلَ أوانِ سِيادتِى ، أى سدتُ ولم أُسَوَّد بعدُ . وقولُه « ومن الشَّقاء تَفرُّدِى بالسُّودَدِ » ، يؤكد المعنى الذى ذكرناه أوَّلًا فى غيرَ مُسَوَّد ، وإنما شَقِىَ بزَعمِهِ لأنه فُجِـعَ برؤساء عشيرته ، وفى ذاك ضَعفُهُ وتراجُع رِياسته .

٢٦٩

وقال محمَّدُ بن بَشِيرٍ الخارجى(١) :

١ — نِعْمَ الفَتَى فَجَعَتْ به إخوانَهُ ... يَوْمَ البَقِيعِ حَوادِثُ الأَيّامِ

٢ — سَهْلُ الفِناءِ إذا حَلَلْتَ بِبابهِ ... طَلْقُ اليَدَيْنِ مُؤدَّبُ الخُدّامِ

(١) هو أبو سليمان محمد بن بشير بن عبد الله بن عقيل الخارجى ، نسبة إلى بنى خارجة ابن عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان بن مضر . شاعر فصيح من شعراء الدولة الأموية ، وكان منقطعا إلى أبى عبيدة بن عبد الله بن ربيعة القرشى ، وإلى يزيد بن الحسين وابنه الحسن . وقد رثى أبا عبيدة بقصيدة رائية فى الأغانى . وكان يبدو فى أكثر زمانه ، يقيم فى بوادى المدينة فلا يكاد يحضر مع الناس . الأغانى (١٤ : ١٤٢ — ١٥٥) والخزانة (٤ : ٣٧) . قال التبريزى : «فى نسخة: بسيرالخارجى ، وفيها : بسير فعيل من البسر ، وبشير هو الوجه» .

٣ — وإذا رأيتَ شقيقَهُ وصديقَهُ لم تَدرِ أيُّهمَا ذوُو الأرْحَامِ (١)

المحمود : الذى يَطلبه نِعْمَ بالاختصاص من بين جنسه محذوفٌ ، كأنه قال نِعْمَ الفتى فتًى فَجعتْ به إخوانَه . والضمير من قوله « به » عائدٌ إلى المحذوف ، والجلة من الفعل والفاعل قد خصَّصتْه حتَّى صار كالمعرفة . ومثلُه قوله تعالى : ﴿ نِعْمَ العَبْدُ إنَّهُ أوَّابٌ ﴾ كأنه قال : نعم العبدُ أيوب . والحذف فى مثل هـذا المكان يصلحُ إذا كان المحمود مشهورَ الشَّان ، معلوماً أمرُه من القرائن فى الكلام . وارتفع « حوادثُ » بفِعلها وفِعلُها فَجَعَتْ ، وذكر الإخوان تنبيهٌ على من آخاهُ من الأجانب والقرائب جميعاً .

وقوله « سَهْلُ الفناء » ارتفع على أنه خبر مبتدأ مضمر ، وجعل فِناءه للزُّوَّار والمجتدينَ والعُفاةِ سَهلا ، وذلك مَثَلٌ لكثرة إحسانِه إليهم ، وحُسنِ توفُّرِه عليهم . ومعنى « مؤدِّب الُخدَّام » تنبيـهٌ على اقتدائهمْ بمولاهم فى تَفقُّد الوُرَّاد وإكرامِهم ، والمبالغة فى التخفُّف لهم والسَّعى فى مصالِحهم .

وقوله « وإذا رأيت شقيقَهُ وصديقَهُ » فالشقيق إشارة إلى إخوان الوِلادِ (٢) ومن جرَى مَجراهم ، ممن شاركه فى نَسَبه حتى كأنه شُقَّ منه . والصديق إشارةٌ إلى إخوان المودَّة ومَنْ ضرَب بسهمٍ فى الانصباب إليه ، والاعتزاء إلى جَنبتِهِ والاعتماد عليه . ثم قال « لم تَدرِ أيهما ذوُو الأرحام » ، تنبيها على تساويهما فى المحلِّ عنده ، وشُمول حُسن التفقُّد لهم ، حتى ترَى كلًّا منهم يُدِلُّ بمثل إدلال صاحبِه ، لا تمايُزَ ولا تباين . وفى طريقته قوله :

فما زال بى إكرامُهم واقتفاؤهم وإلطافُهم حتَّى حسبْتُهُمُ أهلِى (٣)

---

(١) التبريزى : « صديقه وشقيقه » .

(٢) هكذا وردت فيما عدا الأصل . وفى الأصل : « الولادة » وهما بمعنى واحد .

(٣) البيت لبكير بن الأخنس ، كما سبق فى حواشى ص ٣٠٣ ، وهو من أبيات الحماسة .

وأشار بقولِهِ : « شقيقهُ وصديقهُ » إلى الجنسين ، وفائدتهما الكثرة لا الوَحدة . ألا ترَى أنهُ قال : لم تدر أيُّهما ذوُو الأرحام ، أي أيُّ الجنسين .

٢٧٠

وقال أيضا :

١ – طَلبْتُ فلَمْ أُدْرِكْ بوجْهِي وليتني قعَدتُ فلم أبْغِ النَّدَى بعْدَ سائبِ

قوله « بوجهي » تعلَّقَ الباء منه بطلبْتُ ، والمعنى ببذْلِ وجهي ، كأنَّه تولَّى الطَّلبَ بنفسه ، وابتذلَ وَجهَه وجاهَه فيه ، فلم يُدرِكِ المطلوب . ومفعول « طَلبْتُ » محذوف دلَّ عليه قوله « فلم أبْغِ النَّدَى » والتَّقدير : طلبْتُ بعد سائبِ النَّدَى ببذْلِ وجهي فلم أنَلْهُ ، وليتني قعَدتُ فلم أبْغِهِ ، ولا يمتنع أن يتعلَّق الباء من قوله بوجهي بأدْرِكْ ، وهو المختار عند أصحابنا البَصريِّين ، ويكون التقدير : طلبْتُ النَّدَى فلم أُدْرِكْه ببذْلِ وجهي . وقوله « بعد سائب » يجوز أن يكونَ العامل فيه طَلبتُ وكلٌّ واحدٍ من الأفعال المجتمعة ، وهي : طلبْتُ وأدرِكُ وقعَدتُ ولم أبْغِ . والمعنى : بعد موت سائب .

٢ – ولو لَجأَ العَافِي إلى رَحْلِ سائبٍ ثوَى غيْرَ قالٍ أو غدَا غيْرَ خائبِ

أَلَمَّ في هذا البيت بقول الآخر[(١)] :

حتى يكونَ عزيزًا من نفُوسِهِمُ أو أن يبِـــينَ جميعاً وهو مُختارُ

لأن معنَى « من نفوسِهم » مقيما فيهم ، وكالواحِدِ منهم . يقول : ولو التجأ العُفاةُ هاربين من الزَّمان ، ونَـكَد الحدَثَان ، إلى فِناء هذا المرثيّ ، أقاموا مُـكرَّمين معظَّمين ، لا يجتوُونهُ ولا يُبغِضونَهُ ما داموا مقيمين ، وإذا أرادوا

(١) هو يزيد بن حمان السكوني ، من الحماسية ٩٣ ص ٣٠١ .

الانصرافَ عنه اغتدَوْا غيرَ محرومِينَ ولا يائسين . وانتصبَ « غَيْرَ » على الحال وأشار بالعافى إلى الجِنْس ؛ ويقال عَفاهُ واعتَفاه ، إذا طَلَبَ معروفَه ، فأعفاهُ أى أعطاهُ . ومنه عافية السِّباع والطَّير .

٣ — أَقُولُ وما يَدْرِى أُنَاسٌ غَدَوْا به إلى اللَّحْدِ ماذا أَدْرَجُوا فى السَّبائبِ

موضع « ماذا أَدْرَجُوا » نَصْبٌ على أنّه مفعولٌ لأقولُ ، ويجوز أن يكون ما مَعَ ذا بمنزلةِ اسمٍ واحدٍ وأدرجوا فى موضع الخبر ، ويجوز أن يكون ما وحدَهُ اسماً وذا خَبَرُه بمنزلة الذى وأدرجوا من تمامِه . والمعنى : أقول متلهِّفاً فِعْلَ مَن أعياهُ الأمر فالتحَفَ باليأس ، وتَعَلَّلَ بكلمة الحسرةِ بعد الفوات : أىُّ رَجُلٍ أُدرِجَ فى الكَفَنِ والغادونَ به إلى اللَّحدِ لا يعلمون . وهذا تفظيعٌ للشَّأن ، وتعظيمٌ لحادثِ الرُّزْء ، وقولُه « أُناسٌ » أشار به إلى الجماعة والطَّائفة ، والألف فيه زائدة بدلالة قولهم أَنَسٌ وأَنَاسِىٌّ وإنسٌ . وإذا كان كذلك فقولُه ناسٌ منه أيضاً ، والألف زائدة ، وفاء الفِعْل محذوفة . ومن ذَهَبَ إلى أنَّ لفظةَ الناس ليست من أُناسٍ فى شىء ، وأنَّ الألفَ فيه منقلبةٌ عن حرفٍ أصلىٍّ فقد أخطأ . والسبائب : جمع سبِيبةٍ ، وهى الثوبُ الأبيضُ ، العمائمُ وغيرُها . وكذلك السِّبُّ . قال الشاعر(١) :

* يَحُجُّون سِبَّ الزِّبرِقانِ المزعفرا(٢) *

٤ — وكُلُّ امْرِئٍ يوماً سيَرْكَبُ كارهًا على النَّعْشِ أعناقَ العِدَى والأقاربِ

العِدَى : الغُرباء ، وانتصبَ كارهاً على الحال من سَيَرْكَب ، وموضع على

(١) هو المخبل السعدى . إصلاح المنطق ٤١١ واللسان (سبب ، حجج) . وأنشد البيت فى البيان (٣ : ٩٧) بدون نسبة .

(٢) صدره : * وأشهد من عوف حلولا كثيرة *

النَّعْشِ منصوبٌ على الحال ممَّا في قوله كارِهاً ، ويجوز أن يكون صفة لـكارِهٍ ، كأنَّه قال : يركَبُ كارهًا حاصلاً على النَّعْشِ أعناقَ العِدَى يومًا مَا . وقال الخليل : قومٌ عِدًى : بُعُدٌ عنك وغُرباء . ويقال قومٌ أعداء أيضاً بهذا المعنى . والعِدَى : البُعْد نفسُه .

٢٧١

وقال دُرَيْدُ بن الصِّمَّة(١) :

١ — نَصَحْتُ لعارضٍ وأصحابِ عارضٍ ورَهْطِ بنى السَّوْداء والقَوْمُ شُهَّدِي (٢)

٢ — فقلت لهم ظُنُّوا بألْفَىْ مُدَجَّجٍ سَرَاتُهُمُ فى الفارسىِّ المُسَرَّدِ

يقال نَصَحْتُه ونَصَحْتُ له ، نُصْحًا ونَصِيحةً ونَصَاحةً ونَصَاحِيَةً ، وهو ناصِحُ الجَيْبِ ، أى ناصحُ الصَّدْرِ . وقوله « والقَوْمُ شُهَّدِي » فائدتُه أنَّهم

---

(١) دريد بن الصمة بن الحارث بن بكر ، من بنى جشم بن معاوية بن بكر بن هوازن من بطن منهم يقال لهم بنو غزية . ودريد تحقير أدرد على الترخيم . والأدرد : الذى كبر حتى سقطت أسنانه فصار يعض على دردره . والصمة : الشجاع ، وهو لقب لأبيه ، واسمه معاوية . ودريد شاعر شجاع فارس من ذوى الرأى فى الجاهلية . وشهد يوم حنين مع هوازن وهو شيخ كبير . وقال :

يا ليتنى فيهـا جذع أخب فيهـا وأضع

وقتل دريد يومئذ فيمن قتل من المشركين . المعمرين ٢١ — ٢٢ والاشتقاق ١٧٧ — ١٧٨ والأغانى (٩ : ٢ — ١٩) واللآلى ٣٩ — ٤٠ والمؤتلف ١١٤ والخزانة (٤ : ٤٤٢ — ٣/٤٤٧ : ٤٦١ — ٤٦٢) والسيرة ٨٤١ — ٨٤٢ جوتنجن والشعراء ٧٢٥ — ٧٢٩ .

(٢) أبيات هذه الحماسية ، هى من الأصمعية رقم ٢٨ (طبع المعارف) ، وكان من خبر الشعر ما رواه التبريزى أن عبد الله — وهو اسم آخر لعارض وهو أخو دريد ، كان يسمى عارضاء وعبدالله ، وخالدا ، وكان يكنى أبا أوفى ، وأبا ذفافة ، وأبا فرعان — كان عبدالله هذا أسود إخوته ، فغزا ببنى جشم وبنى نصر ابنى معاوية بن بكر بن هوازن ، وغنم مالا عظيما ، بمنعرج اللوى ، فمنعه دريد عن اللبث وقال : إن غطفان ليست بغافلة عنا ! فحلف أنه لا يريم حتى يقسم ، فلحقت بهم عبس وفزارة وأشجع ، وأوقعوا بعبد الله وأصحابه ، وقتل عبد الله ، وجعل دريد يذب عنه وهو جريح . وهو قوله : « فجئت إليه والرماح تنوشه » .

كانوا له حاضرين ومضطرّين من كلامِه وأشارتِه وبَذْلِه النُّصْح لهم ، إلى ما كان أدّى إليه مراسلتهم فى ذلك وهم غائبون ، إذْ كان يَبِينُ لهم منه ما كان يَبِين وقتَ الحُضور .

وقوله « ظنُّوا بألفَىْ مُدَجَّجٍ » يجوز أن يكون معناه : ظنُّوا كلَّ ظنٍّ قبيحٍ بهم إذا غزَوكم فى أرضكم وعقر ديارِكم[1] . ويجوز أن يكون معنى ظنُّوا أيقِنوا ، لأن الظنَّ يستعمل فى معنى اليقين . على ذلك قولُ الله تعالى : ﴿ الذين يظُنُّونَ أنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِم ﴾ .

وقولُه « سَرَاتُهم » ، يعنى به رؤساءهم وخيارَهم ، وقد مضى القولُ فى بنائه[2] . والفارسىّ المُسرَّد ، يَعنى به الدُّروع . والسَّرْد : تتابُع الشىء ، كأنه أراد فى الدُّروع تتابُعَ الحَلَقِ فى النَّسجِ . لذلك قيل فى الأشهُرِ الحُرُم : ثلاثةٌ سَرْدٌ ، وواحِدٌ فَرْدٌ . وقال الخليل : السَّرْدُ : اسمٌ جامعٌ للدُّروع وما أشبهها من عَمَل الحَلَقِ ، لأنه يُسْرَدُ فيُثْقَب طرَفا كلِّ حَلَقةٍ بالمِسمار ، وفى القرآن : ﴿ وقَدِّرْ فى السَّرْدِ ﴾ ، أى اجعلْ المساميرَ على قَدْر خُروق الحَلَق ، لا يَغلُظِ المسمارُ فيتخرق ، أو يَدِقَّ فيَقْلَق . ومعنى البيتين : بذَلتُ نُصْحى لهؤلاء القومِ بلسانى وقولى فيما صَلَحَ فيه التخاطُبُ ، و بإشارتى وتعريضى ، وهم لى حاضرون يَسْمَعون ويَعُون ، وقلتُ لهم : إنّ الأعداء لكم مترصِّدون ، وإليكم قاصدون ، وعَدَدهم وعُدَدهم تامّة ، فوسِّعوا مجالَ الظنِّ السَّيِّئ بهم إذا تمكّنوا منكم ، أو أيقنوا بقَصْدِهم ، على الطريقتين اللّتين بيّنّا .

٣ — فلمّا عصَونِى كنتُ مِنهم وقد أرَى غوايَتَهم وأنّنى غيرُ مُهْتَدِ

---

(١) اتفقت النسخ على ضبط « عقر » بالفتح ، وهو يقال بالضم والفتح ، الضم لغة الحجاز ، والفتح لغة نجد . وعقر الدار : أصلها أو وسطها .

(٢) انظر البيت ٥ من الحماسة ٢٥٨ ص ٧٦٧ .

لمَّا عَلَمٌ للظَّرف ، وهو لوُقوع الشيء لوقوع غيرِه ، فيقول : لما أصرُّوا على ما كانوا عليه ، واطَّرحوا نُصْحى ومَشُورتى عليهم ، تبعتُ رأيَهم ولم أنفرِدْ عنهم [1] وأنا أرى جهلَهم ، وأتصورّ عاقبةَ لجَاجِهم ، وأنى ضالٌّ عن الطَّرِيق عادِلٌ عن الصَّواب فى اتِّباعى لهم ، لـكنِّى لم أستَصْلِحْ لنفسى الخروجَ منهم ، والتَّباعُدَ عنهم . وقوله « كُنتُ منهم » مِنْ هـذه تفيدُ تبيينَ الوِفاق وتَرْكِ الخلاف ، وأنَّ الشأنَينِ واحِدٌ لا تمايُزَ بينهم ولا تبايُنَ . وهم يقولونَ فى النَّفى أيضًا : لَسْتُ مِنكَ ، أى انقطَع ما بيننا ، فلا خِلاط ولا اشتراكَ . على هـذا قول الشاعر [2] :

* فإنِّى لَسْتُ منكَ ولستَ مِنِّى [3] *

فأمَّا قولهم : أنتَ منِّى فرسخان ، قال [4] شيخُنا أبو علىّ [الفارسىُّ رحمه الله [5]] هـذا كلامُ الذَّليل مع المُستذِلِّ ، والمعنى : أنتَ فى هِدايتى مَدَى الفَرسَخين . وإلى غايتهما ، وقد خالفَ هذه الطريقة حُصَيْن [6] بن المُنْذِرِ فقال :

أمَرْتُكَ أمْراً حازماً فعَصَيْتَنِى ... فأصْبحْتَ مَسلوبَ الإمارةِ نادِمَا

فمَا أنا بالباكِى عَلَيْكَ صبابةً ... وما أنا بالدَّاعى لِتَرجِعَ سالما

٤ — أمَرْتُهُمُ أمْرِى بمُنْعَرَجِ اللوَى ... فلَمْ يَسْتَبِينُوا الرُّشْدَ إلَّا ضُحَى الغَدِ

قوله « أمرى » يجوز أن يُريدَ المأمورَ به ، ويكون الأصـل : أمرتُهُمْ

---

(١) كذا فى الأصل . وفى سائر النسخ : « ولم أنفرد عنهم » .

(٢) هو النابغة الذبيانى . ديوانه ص ٧٩ .

(٣) صدره : * إذا حاولت فى أسد فجوراً *

(٤) كذا سقطت فاء الجواب فى جميع النسخ ، على ما جاء فى قول الله : « وأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم » .

(٥) هذه التكملة ليست فى الأصل ، وإثباتها من سائر النسخ .

(٦) كذا ورد فى النسخ بالصاد المهملة ، وصوابه بالضاد المعجمة ، انظر المؤتلف ٨٨ والخزانة (٢ : ٨٩ — ٩٠) والطبرى (٦ : ١٨) وتهذيب التهذيب .

بأمْرِى ، فحذَفَ الجارَّ ووصل الفعلُ بنفسه . ويجوز أن يكون مصدرَ أمرتُ ، وجاء به لتأكيد الفعل . وقولُه « بمنعرَج اللِّوَى » تحديدٌ وتوقيتٌ ، وبيانٌ أنّ ذلك كان من همّه حتى اختارَ له الموضع الذى كان أوفقَ عنـدَهُ ، والوقتَ الذى كان أعْوَدَ عليهم فيما أمرَهم به . واللِّوَى : مُستَرَقُ الرّمل . ومُنعرَج : منعطَف . وقوله « فلم يستبينوا الرُّشد » أى لم يتبيّنوه فى الحال حتى جاء الوقتُ المقدَّر له . وذِكْر الغدِ يكثُر فيما يتراخى من عواقب الأمور إذا أحيلَ عليه البيانُ والظُّهور فيه . والمعنى : فى المستأنَفِ من الوقتِ . وهذا زاد عليه « ضُحَى » لأنه من النهار أضوأ ، فكأنّ المعنى : لم يبنْ لهم مادعوتُهم إليـه إلّا فى الوقتِ الذى لا لَبْسَ فيه ولا اعتراضَ شكّ . ومثلُه قولُ المتلمِّس :

عصَانى فلَمْ يَلْقَ الرَّشَادَ وإنّما يُبَيَّنُ عن أمرِ الغوىِّ عواقبُهْ

٥ — وهَلْ أنَا إلّا من غَزِيَّةَ إنْ غوَتْ غَوَيْتُ وإن تَرْشُدْ غزِيَّةُ أَرْشُدِ (١)

يُقالُ رَشِدَ يَرْشَدُ رَشَدًا ورشادًا ، ورشَدَ يَرْشُدُ ؛ فلكَ أن تضمّ الشّين من ترشد وأن تفتحها . وقوله « هل أنا » هو فى مذهب النّفْى وإن كان استفهامًا ولذلك تبِعهُ إلّا ، كأنّهُ قال : ما أنا إلّا من غزِيّة فى حالَتَى الغىِّ والرَّشاد ، فإن عدَلُوا عن الصَّواب عدلتُ معهم ، وإن اقتحموه اقتحمت بهم . وغزيّةُ هو رهطُه . فإن قيل : إنّهُ كرّر معنًى واحدًا فى هذه الأبيات مرّتَيْنِ ، لأنّ قولَهُ « إن غوَتْ غوَيْتُ » قد اشتمَل عليه « كُنتُ منهم وقد أرى غوايتهم وأنّى غير مُهتَد » . قلتَ : فى الأوّل اقتصّ الحالَ التى دارَ عليها معهم ، وفى الأمر بقيّةٌ ، وللنُّصحِ توَجُّهٌ ، وأنّهُ اجتهَد فى رَدِّهم إلى ما هو أردُّ عليهم وأنفعُ لهم ، فلما عصَوْه فى ذلك أمسكَ عنهم جاريًا فى الطَّريق الذى يسلكونَهُ وإن علِمَ

(١) غزية ، بفتح الغين . ابن دريد فى الاشتقاق ١٧٧ : « ومن قبائل بنى جشم بنو غزية . والغزية فعيلة من الغزو . والغزى : الجماعة من القوم يغزون » .

الخطأَ فيه . وقولُه « وهل أنا إلَّا من غزيّةَ » بيانٌ لِمَا دُفِعُوا إليه بعد تبيُّن الرَّشاد لهم ، وابتُلُوا به من مقاساة سُوء العاقبة لسوء اختيارِهم ، فقال : وما أنا إلَّا شَريكٌ لهم فيما أثمرَ لهم جهلُهم وغوايتُهم كما كنتُ شريكاً لهم لو رَشَدُوا فيما كان يثمِرُ لهم رشادُهم . فهو فى الأوّل ذكَرَ اتّباعَه لهم بعدَ النُّصحِ ناظرًا من وراء رأيه ما يدفعون إليه ويُمتَحنون به ، وفى الثّاني ذكر انغماسَهم معهم فيما أعقبَ لهم اختيارُهم ، وأنَّه شَقِيَ بمثل ما شقُوا به فى عُقْبَى جهلهم أو بأشدَّ منه ، وإذا كان كذلك اختلَفَ الحالتان والاتباعان . ثمَّ أخذَ يبيِّنُ محنتَه ، فقال :

٦— تَنَادَوْا فقالوا أَرْدَتِ الخيلُ فارِسًا فقلتُ أَعَبْدُ اللهِ ذلكمُ الرَّدِي

٧— فَجِئْتُ إليه والرِّماحُ تَنُوشُهُ كَوَقْعِ الصَّياصِي فى النَّسِيجِ المُمَدَّدِ

يعنى بالخيل الفُرسان . يقول : نادَى بعضهم بعضًا : أسقطَتِ الخيلُ فارِسًا ! فقلتُ : أعبدُ الله ذلكم السَّاقط الهالك ، وإنما دعاهُ إلى هذا القولِ أمران : أحدهما سوء ظنِّ الشقيق ؛ والثاني أنَّه علِمَ إقدامَه فى الحرب ، وابتذالَهُ النَّفسَ وتعرُّضَه للحتفِ ، فدعاهُ الشَّفقةُ والإشفاقُ إلى قَصْدِهِ لوقايتِه بنفسه ، فلحِقهُ والرِّماحُ تتناولُه وتَقَعُ فيه وقْعَ الصَّياصِي ، وهى خشبةُ الحائك فى نَسْجِه الممدود إذا أرادَ تمييز طاقاتِ السَّدَى بعضِها من بعض ، وكأنَّهُ سمِّيتْ بذلك تشبيهاً بصِيصِيَةِ الدِّيك وهما مِخلَبانِ فى ساقه ، وبِصيصية الثَّوْر ، وهو قَرنُه . وقوله « أعبدُ الله » ، وقد سماه مَعْبَدًا أيضا ، وهم يفعلون كثيرًا فى الأعلام مِثلَ ذلك . ألا ترَى حالَهُم فى سليمان ، وأنَّهم يُسمُّونه مَرَّةً سُلَيْماً ومَرَّةً سَلَّامًا[1]

(١) هو مماثل لما نصنعه فى عصرنا هذا من تغيير بعض الأسماء للتدليل ونحوه . ومن شواهده قول الأسود بن يعفر :

ودعا بمحكمة أمين سكها من نسج داود أبى سلام

=

وقول الآخر(١) :

* صَبَوْتَ أبا ذِيبٍ وأنتَ كَبِيرُ(٢) *

يعني أبا ذؤيب . وقولُه : « تنُوشُه » من النَّوشِ . والظَّبيةُ تنُوشُ الأراكَ وتنتاشه ، أي تتناوله ، وفي القرآن : ﴿ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ .

٨ – وكنتُ كذاتِ البَوِّ رِيعَتْ فأقبلَتْ إلى جَلَدٍ من مَسكِ سَقْبٍ مُقَدَّدِ(٣)

بَيَّنَ ما ذا أدركَ من أخيه لما أرادَ وقايتَه والذَّبَّ عنه فقال : كنتُ كناقةٍ لها ولدٌ فأُفْزِعَتْ فيه لما تباعدَتْ عنه في مَرعاها ، فأقبلَتْ نحوَه ، فإذا هو بجَلَدٍ مُقطَّعٍ ، وشِلوٍ مُبدَّدٍ . كأنَّه انتهى إلى أخيه ، وقد فرَغَ مِن قتلِه ومزَّقَ كلَّ مُمزَّقٍ . والبوُّ ، أصله جلدُ فَصيلٍ يُحشَى تِبنًا لتَدِرَّ عليه ، فاستعاره للولد . وكذلك الجَلَدُ هو ما جُلِدَ من المسلوخ وأُلبِسَ غيرَه لتشَمَّه أمُّ المسلوخ فتدِرَّ عليه . والمَسْكُ : الجلد ، لأنَّه يُمسِك ما وراءه من اللَّحمِ والعَظمِ . والسَّقْبُ : الذَّكرُ من أولاد الإبل ؛ وناقةٌ مِسقابٌ ، إذا وَلَدت الذُّكرانَ كثيرا .

٩ – فطاعنْتُ عَنْهُ الخيلَ حتَّى تبدَّدَتْ وحتَّى علَاني حالِكُ اللَّوْنِ أَسْوَدُ

١٠ – قِتالَ امرِئٍ آسى أخاهُ بنفسِهِ ويَعلَمُ أنَّ المَرْءَ غيرُ مُخَلَّدِ

يقول : دافعتُ الخيلَ — يعني الفُرسانَ — عنه حتَّى انكشفوا ، وإلى أن جُرِحتُ فسالَ الدَّمُ علَيَّ ، وكان ذلك منِّي دِفاعَ رجلٍ جعلَ نفسَه إسْوةَ أخيه ، واختارَ لها مثلَ ما سِيقَ إليه ، عالمًا بأنَّ المرءَ لا يبقَى ، بل مآلُه إلى الفناء ، وأنَّ استقتالَه ليلحقَ بأخيه خيرٌ له من أن يَبقَى بعده فيشقَى بالجزَعِ له وفيه .

= وكما قالوا فيه « سلام » قالوا فيه أيضاً « سليم » . ومنه قول النابغة في ديوانه ٦٤ :

وكل صموت نثلة تبعية ونسج سليم كل قضاء ذائل

(١) هو أبو ذؤيب الهذلي . ديوان الهذليين (١ : ١٣٧) .

(٢) صدره : * ديار التي قالت غداة لقيتها *

(٣) انفردت نسخة الأصل برواية : « فكنت كذات » .

ويقال: هو يأتسي بفلانٍ، أي رَضِيَ لنفسه ما رَضِيَ ذاك لنفسه. والمُواساة والتأسّي والائتساء واحد. وقوله: «حتّى عَلاني حالكُ اللون أسْوَدُ»، فيه إقواء، وكثيرٌ من العلماء يهوّنون الأمرَ في الإقواء ولا يَعُدُّونه عيبًا قبيحا. وحُكِيَ عن الأخفشِ أنّه قال: ما أنشدَتْني العربُ قصيدةً سلمتْ من الإقواء طالت أو قصُرت. ويُرْوَى: «وحتَّى علاني حالكٌ لونُ أسْوَدِ»، والضَّعفُ فيه ظاهر. ألا تَرَى أنه قال حالكٌ وهو الشَّديدُ السواد، ثمّ قال لَوْنُ أسْوَدِ. وفي إضافةِ لون إلى أسْوَدَ مالا يُرتضَى. وأجْوَدُ من هذا أن يُروى: «حالكُ اللّون أسْوَدِي» وهو يريد أسودِيٌّ، كما قيل في الأحمر الأحْمَرِيٌّ، وفي الدّوّار دَوّارِيٌّ، ثمّ خُفّفت ياء النسبة بحذف أحدِهما، وهو الأوّل، وجعل الثاني صِلَة.

١١— فإنْ يَكُ عبدُاللهِ خَلّى مَكانَهُ فَما كانَ وَقّافًا ولا طائشَ اليَدِ

قوله «خَلّى مكانَهُ» أي مَضَى لسبيله. والوَقّافُ: الجبان المتوقّفُ فيما يَعِنُّ له عَجْزًا وضعفَ قلب. ويقال: وَقّافَةٌ أيضًا، والهاء للمبالغة. والطائشُ: الخفيف، ومنه الطَّيّاشُ. ويقال: هو طائشُ السّهمِ، إذا عَدَلَ سهمُه عن الهَدَف ولم يَقْصِد قَصدَه؛ ثم يُقال: هو طائشُ اليدِ، إذا كان فيما يتولّاهُ من الأعمال كذلك. يقول: إنْ كان عبد الله تُوُفّيَ وخَلّى ما كان يَسُدُّه بنفسه وغَنائه من أمرِ العشيرة وسياستهم، فلقدْ كان مِقدامًا صائبَ الرّأي، حليمًا فيما يأتيه، لا يَطِيشُ زَهوًا، ولا يُؤْثِرُ على الصّواب شيئا.

١٢— كَميشُ الإزارِ خارجٌ نِصفُ ساقِهِ بَعيدٌ من الآفاتِ طَلّاعُ أنْجُدِ

الكَمْشُ والكَميشُ: الخفيف السّريعُ الحركة. يقال: انكَمِشْ في حاجتِك، أي تَخفّفْ وأسرِع. وأضافَ الكَمِيشَ إلى الإزار على المجاز كما يُقالُ: عفيف الحُجْزةِ، ونَقِيُّ الجيب. وقوله «خارجٌ نِصفُ ساقِهِ» يصفه

بالتَّشمُّر . وقد قيل : هو عارِى الظُّنبوب ، فى هذا المعنى . قال :

* عارِى الظَّنابِيبِ مُمْتَدٌّ نواشِرُهُ[(١)] *

وقد يُرَادُ بهذا قِلَّة اللحْم والهُزال . وقوله « بعيدٌ من الآفاتِ » يريدُ أنّه لا داء به ولا غائلةَ ، فهو سليمُ الأعضاء متين القُوَى . ومعنى « طَلَّاعُ أنْجُد » أنه يَتصعَّدُ فى دَرَج السُّموّ . ويقال طَلَّاعُ أنجِدَةٍ أيضًا ، قال :

* طَلَّاع أنْجِدَةٍ فى كشحِهِ هَضَمُ[(٢)] *

فأنجِدَةٌ جَمْعُ نِجَادٍ ، ونِجادٌ جَمْعُ نَجدٍ . فأما أنجُدٌ ، فالأصلُ أن يكون لأدنَى العَدد وقد استُعير للكثير ، لأنه كفَلْسٍ وأفْلُس . وهم كما يضعون بناء القليل للكثير والكثيرِ للقليل فى أصلِ الوَضْع ، يَستعيرون بناء القليل للكثير وإنْ كان بناء الكثير قد استُعمل أيضا . يكشف هذا أيضا أنّهم يقولون : رَسَنٌ وأرسَانٌ ، فوضعوه للكثير وإن كان فى الأصلِ للقليل ؛ وقالوا دِرهَمٌ ودَراهِم فوضَعُوهُ للقليل . وقال الله تعالى : ﴿ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ يريدُ أهلَ الجنّة . فوَضَعَ الغرُفَاتِ موضع الغرَف على الاستعارة .

١٣ — قليلُ التَّشكِّى للمُصيباتِ حافِظٌ من اليَوْمِ أعقابَ الأحاديثِ فى غَدِ

يريدُ بقوله « قليلُ » نفىَ أنواعِ التشكِّى كلِّها عنه . على هذا قوله تعالى : ﴿ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ، وقولهم : قَلَّ رجلٌ يقول ذاك ، وأقَلُّ رجلٍ يقولُ ذاك . والمعنى : أنّه لا يتألَّمُ للنَّوائب تنزلُ بساحته ، والمصائبِ تتجدَّد عليه

---

(١) البيت لتأبط شراً فى القصيدة الأولى من المفضليات . وعجزه :

* مدلاج أدهم واهى الماء غساق *

(٢) البيت لزياد بن منقذ ، وهو المعروف بالمرار العدوى . وصدره فى اللسان (نجد) :

* يغدو أمامهم فى كل مربأة *

من أبيات أولها :

كم فيهم من فتى حلو شمائله جم الرماد إذا ما أخمد البرم

فى ذويه وعشيرته ، وأنّه يحفظ من يومه ما يتعقّبُ أفعالَه من أحاديثِ النّاسِ فى غَده ، فهو نقىُّ الأفعالِ من العُيُوبِ ، طيّبُ الأخبار فى أفواه الناس ، صَبورٌ على العزّاء .

١٤ — تَرَاهُ خَمِيصَ البَطْنِ والزّادُ حاضِرٌ عَتِيدٌ ويَغْدُو فى القَمِيصِ المُقَدَّدِ

مِثْلُ المصراع الأوّل قولُ الآخر[١] :

* يابِسُ الجَنْبَيْنِ من غَيْرِ بُوسٍ[٢] *

يَصِفه بقلّة الطُّعْم مع اتّساع الحال ، وطاعةِ الزاد ، فيقولُ : ترى بطنَهُ منطويًا والزّادُ مُعَدٌّ ، لأنّه يُؤْثِر به غيرَه على نفسه ، ولأنّه لا نَهْمَةَ ثَمَّ ولا حِرصَ على عِمارة البَدن ، ولا على استسراء الثّياب ، فهو يَغدو فى القميص المُمزَّق ، إذْ كان يبتذِلُ نفسَه فيما كان يَكْسِبُه فَخْرًا وعُلُوًّا[٣] . ويقال : عَتُدَ فهو عَتِيدٌ عَتَادًا ، وأعتَدْتُه أنا . ومنه سُمِّيَ العتيدةُ التى يكونُ فيها الطِّيبُ ، والعَتَدُ بفتح التاء وكسرها : الفَرَس المُعَدُّ للمهمّات من الطَّلَب والهرب وغيرِهما ، الذَّكَرُ والأنثى فيه سواء .

١٥ — وإنْ مَسَّهُ الإقْوَاءُ والجَهْدُ زَادَهُ سَمَاحًا وإتْلافًا لِمَا كانَ فى اليَدِ

يقول : وإن اتّفق عليه إعسارٌ ونَفادُ زاد ، وجَهدٌ من نكد الزّمان وإعوازٌ زادَه سخاءً وإتلافًا للمال ، جَرْيًا على عاداته التى ألِفَها ، لا يَهْضِمُهُ ضُرٌّ ، ولا يَلفِتُهُ فَقر . ويقال : أقْوَى الرّجلُ ، إذا نَفِدَ زادُه . ويقال : زادَ الشّىءُ ضِدّ نقَص ، وزدته أنا فازداد . وفى طريقته قولُ الآخر :

قَدْ جَعَلَ اللهُ فِيكَ قَلْبًا يَأْبَى على الشُّغْلِ أن يَضِيقَا

---

(١) هو تأبط شراً ، من الحماسية ٢٧٣ .
(٢) عجزه : * وندى الكفين شهم مدل *
(٣) يكسبه ، ضبط فى جميع النسخ بفتح الياء ، يقال أكسبه مالا ، وكسبه أيضاً .

١٦ — صَبَا ما صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رأْسَهُ   فلمَّا عَلَاهُ قال للباطِلِ ابْعَدِ

يجوز أن يكون صبا الأوّل من الصِّبا واللَّهو، وصَبَا الثانى من الصَّبَاء بمعنى الفتَاء، فيكون المعنى: تعاطَى اللَّهوَ والصِّبا ما دامَ صبيًّا، فلما اكتهلَ وظَهر فى رأسه الشَّيبُ فاشتغَل نحَّى الباطِلَ عن نفسِه زُهدًا فيه، ورجوعًا إلى الحقِّ، ورغبةً فيما يَكسِبُه الأحدوثَةَ الجميلة من أبوابِ الصَّلاح والجِدِّ. ويجوز أن يكون المعنى: تعاطَى الصِّبا ما تعاطاه إلى أن علاهُ المَشِيبُ، فيسقط التجنيس من البيت، وهو يَحْسُن به. وما صَبَا فى موضع الظَّرف على الوجهين جميعًا، أى مُدَّةَ الأمرين. وحتَّى للغاية. وقوله « ابْعَد » مِن بَعِدَ يَبْعَدُ، إذا هَلَكَ. ولو أرادَ البُعد لقالَ ابْعُدْ، بضمّ العين. وجرَى أبو نُواسٍ فى هذه الطريقة لمَّا قال:

قَدْ عَذَّبَ الحبُّ هذا القَلْبَ ما صَلَحَا   فَلَا تَعُدَّنَّ ذَنْبًا أن يُقالَ صَحَا

١٧ — وطَيَّبَ نَفْسِى أنَّنِى لم أقُلْ لَهُ   كَذَبْتَ ولم أبْخَلْ بما مَلَكَتْ يَدِى

أنَّنِى فى موضع الفاعِل لطيَّبَ، وليس القصدُ إلى أنَّه لم يَقُل له كَذَبْتَ قطُّ، وإنَّما المُرادُ أنِّى لم أجْفُهُ بأدْوَنِ ألفاظ الجفاء. على ذلك قولُ الله تعالى فى الوَصَاةِ بالوالدين وتنزيهِهما عن قبائح القولِ والفِعل: ﴿وَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ فأفٍّ الأصلُ فى صيانتِهما عن الخنا وفُحْشِ القولِ، والنَّهرُ الأصل فى تَرْكِ إيذائهما بالفِعْلِ والزَّجرِ. فيقولُ: سَلَّانى طاعتى له واحتشامى منه مُدَّةَ حَياتِه، وإعظامى إيَّاهُ فى القول عند مخاطبتِه، والفِعْلِ وقتَ مجالَسته ولَدَى مُعاملتِهِ. وأشار إلى القول بقولِهِ « لم أقُلْ له كَذَبْتَ » وإلى الفعلِ بقوله « ولم أبْخَلْ بما مَلَكَتْ يدى ». والمعنى لم أبخَل بملك يدِى عليه، فحذف عليه كما يحذَفُ المفعول إذا دلَّ عليه الكلام.

٢٧٢

وقال أيضا :

١ — تقولُ ألا تَبْكِي أخاكَ وقد أرى   مَكَانَ البُكا لكنْ بُنِيتُ عَلَى الصَّبْرِ

٢ — فقلتُ أعبدَ الله أَبْكِي أمِ الَّذِي   لَهُ الجَدَثُ الأعْلَى قتيلَ أبِي بَكْرِ (١)

يقول : اجتمعَتْ علىَّ المصائب والرَّزايا فاقتسمَتْنى ، فإذا دُعيتُ إلى البُكاء على أخى ، أرى البُكاء يَحِقُّ له لِفاقتى إلى حياتِه ، وتكامُلِ فَضله فى نفسه ، لكنِّي وُجِدْتُ صبورًا إذْ كانت عليه بِنْيَتِي ، وإذ صار دَيْدَنى ودأْبِي. وقولُه « مكانَ البُكا » بيانُ استحقاقِ أخيه البكاءَ عليه . وقد قصَرَ البكاء ، وللشّاعر أن يَقْصُرَ الممدود باتفاقٍ من المذهبَين . وفى طريقته قول الآخر (٢) :

ولو شئتُ أن أبْكِي بُكًا لبَكَيْتُه   عليْكَ ولكن ساحةُ الصَّبْرِ أوْسَعُ (٣)

وقوله « فقلتُ أعبدَ الله أبكِي » ، كَشَفَ به [عن (٤)] تَوالِي الرَّزايا ، وأنَّ جَلَدَه متوزَّعٌ فيها ، فكأنّه قال : إلى مَن أصرِف البُكا ، ومَن أخُصُّ به أعبدَ الله أم المَدفونَ فى القبرِ الأعلى قتيلَ أبى بكر بن كِلابٍ . وقوله « الأعلى » يريد الأشرَف ، ويجوز أن يُريدَ الأعلَى فى مكانِه وموضِعِه . والجَدَثُ : القبر ، وكذلك الجدَف ، وجمعه الأجداث . وفى القرآن : ﴿ فإذا هُمْ مِنَ الأجْداثِ إلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴾ . وانتصَبَ عبد اللهِ بأَبْكِى ، وقتيلَ على البدَلِ من الذى .

(١) فى الأغانى (٩ : ٢) : « وكان لدريد إخوة ، وهم عبد الله الذى قتلته غطفان ، وعبد يغوث قتله بنو مرة ، وقيس قتله بنو أبى بكر بن كلاب ، وخالد قتله بنو الحارث بن كعب » .

(٢) هو إسحاق بن حسان الخريمى . معاهد التنصيص (١ : ٨٤) .

(٣) يروى : « أن أبكى دما » . (٤) هذه من م ، ل والتيمورية .

٣— وعَبْدُ يَغُوثَ تَحْجُلُ الطَّيْرُ حَوْلَهُ وعَزَّ المُصَابُ جَثْوَ قَبْرٍ على قَبْرِ

نَبَّهَ بقوله « تَحْجُلُ الطيرُ حولَه » على أنَّه تُرِكَ بالعراء ، وعوافِي الطير تأكله ، فلم يُدْفن ، وإنما قال تَحْجُل إشارةً إلى امتلاء حواصلِها وثِقَلها ، فهي تحجُل حَوْله[1] ولا تَطيرُ . والحجْل : مَشْيُ المُقيَّد ، وتوثُّب الإنسان على إحدى رجليه وقد رَفعَ الأُخرى . ونَزَوَانُ الغُرابِ حَجْله . وهذا الكلام تلهُّفٌ وتحزُّن . وقولُه «وعبدُ يغوثَ» وإن استأنفَ الكلامَ به فهو في المعنَى معطوف على ما قبلَه ، كأنَّه قال : أيُّهُمْ أبْكِي وقد كَثُروا . وقولُه « وعَزَّ المُصابُ » يُروَى المُصابُ بالرَّفع ويُراد بالمُصابِ المصيبة ، ويرتفع « جَثْوُ » على أنَّه بدلٌ منه ، ويكون مفعولُ عزَّ محذوفاً ، كأنَّه قال : وعَزَّ الشاعِرَ المصيبةُ جَثْوُ قبرٍ على قبر . وإذا روَيتَ « وعَزَّ المصابَ » بالنَّصب ، يكون المُصابُ الشاعر ، وجَثْوُ قبرٍ هو الفاعل ، والمعنى غَلَبهُ تَوالِي المصائب عليه . وقولُه « جَثْوُ قَبْرٍ على قَبْرِ » أي حصول الواحد في إثْر الواحد . ويقال : جَثَا لرُكْبته ، وفي القرآن : ﴿ حَوْلَ جَهَنَّمَ جُثِيًّا[2] ﴾ ، أي لازمينَ لرُكَبهم لا يستطيعون القيام . واستعمالُ الجُثُوِّ مجاز هنا ؛ لأنَّ القبر لا يَجثو . والجُثوةُ من التُّرابِ وغيره : ما جُمِعَ ، وبه سُمِّي القبر جُثْوة . وروى بعضُهم : « حَثْوُ قبرٍ على قبرِ » ، فَجَعل الحَثْوَ للقبر ، وإنما يُحْثَى عليه[3] ، كما قال :

---

(١) هذا ما في التيمورية وفي سائر النسخ « حولها » .

(٢) وردت الآية بهذه القراءة في جميع النسخ ، وهي قراءة جمهور القراء ماعدا حمزة والكسائي . وكذلك يقرءون « عتياً » و « صلياً » كلها عندهم بضم أوائلها . وأما حمزة والكسائي فيقرآن بكسر أوائلها . تفسير أبي حيان (٦ : ٢٠٨) .

(٣) كذا فهم المرزوقي ، أما ابن جني فقد قال في التنبيه : « حثو قبر على قبر ، أي حثو قبر عقيب حثو قبر . فعلى هذا صفة لحثو ، كقولك ولد له عشرون ولداً رأساً على رأس ، أي تابعاً وتالياً » .

* وما مِنْ قِلًى يُحثَى عليه من التُّرْبِ *

ورَوَى بعضُهم « وعَزَّى » والمعنَى سَلَّى المُصابَ ، أى نفسَه ، من البُكاء والتحزُّن ، توالى الأرزاء عليه ؛ فإنه تمرَّن بها ، فصار يصبِرُ عليها . ويكونُ فى هذا مُلِمًّا بمعنى قول الآخَر[1] :

فَقَدْ جَعَلَتْ نَفْسِى على النَّأْىِ تَنْطَوِى وعَيْنِى على فَقْدِ الصـديقِ تنامُ

٤ — أبَى القَتْلُ إلَّا آلَ صِمَّةَ إنَّهُمْ أبَوْا غَيْرَهُ والقَدْرُ يَجْرِى إلى القَدْرِ

يقولُ : لم يَرضَ القتلُ إلَّا آلَ صِمَّةَ لأنهم الكرامُ ، والدَّهر يأبَى فى الاختيار أن يكونَ حظه من غيرِهم ، كما أنَّ آلَ صِمَّةَ لم يرضَوْا من أحداثِ الزَّمان فيهم إلَّا بالقتل ، إذْ كان ذلك عندهم أحسنَ المِيتات وأكرمَها . وقوله « أبى القتلُ إلا آلَ صِمَّةَ » يُشبهه قولُ الآخَرِ[2] :

أرى المَوْتَ يَعْتامُ الكِرامَ ويَصْطَفِى عَقِـيلةَ مالِ الفاحِشِ المُتَشَدِّدِ

وقولُه « إنهم أبَوْا غيرَهُ » يشبِهُهُ قولُ الآخر[3] :

* وما ماتَ مِنَّا مَيِّتٌ حَتْفَ أنفِهِ[4] *

وقولُه « والقَدْر يجرى إلى القَدْرِ » ، يريد كما قَدَّرُوا للقتل قُدِّرَ القتلُ لهم ، لأنهم بما اجتمعَ فيهم من الخِصال الشَّريفة التى يختارها الدَّهرُ لنوائبه ، كأنَّهم خُلِقوا للدَّهرِ ولتأثيرِه الذى هو القتل ، لأنَّ القتلَ لما كان أشرف أسباب الحتف عندهم فأحبُّوهُ ومالوا إليه ، صاروا لذلك كأنَّ القَتْل خُلق لهم .

(١) هو عبد الصمد بن المعذل ، أو الحسين بن مطير ، كما سبق فى حواشى الحماسية ٧٧ ص ٢٧٣ .
(٢) هو طرفة بن العبد ، فى معلقته .
(٣) هو السموأل ، كما سبق فى الحماسية ١٥ .
(٤) عجزه : * ولا طل منا حيث كان قتيل *

٥ — فإمَّا تَرَيْنا لا تَزالُ دماؤُنا لَدَى وَاتِرٍ يَسْعَى بها آخِرَ الدَّهْرِ

٦ — فإنّا لَلَحْمُ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرةٍ ونُلْحِمُهُ حِيناً ولَيْسَ بِذِى نُكْرِ

جواب إمّا أوّلُ البيت الذى يليه ، وهو فإنّا . والفاء من فإنّا رابطةٌ ما بعدها بما قبلها ، ولا تَزالُ دماؤنا إلى آخر البيت فى موضع المفعول لتَرَيْنا ، ولَدَى واترٍ لفظه واحدٌ والمُراد به الكَثْرة . وآخِرَ الدَّهْرِ : ظرفٌ ، والعاملُ فيه « لا تَزالُ دماؤنا » لأنّ المعنى إمّا تَرَيْنا لا تَزال دماؤنا أبَدَ الدّهر لدى واتِرِين يَسعَون بها . ولا يجوز أن يكون العاملُ فيه يَسْعَى بها ، لأنّ فيه إيهامًا أنهم لا ينالُون الوِتْرَ من الواتِرين سريعًا ، ولكنّهم يَسعَونَ بدمائهم أبَدَ الدّهر . وهذا الكلامُ كالاعتذار من كثرة القتلِ فيهم ، فيقول : إن اتّصلَ القتلُ فينا حتّى نَرَى دماءنا أبَدَ الدّهر لدى واترين ، فإنّا لحبّنا للقتل طُعْمُ السُّيوفِ حقًّا غيرَ ذى إنكارٍ ولا امتراء ، وكما تتطعّمُ مِنّا فإنّا نُطْعِمُها أيضًا مِن غيرنا ، فنَجعل أعداءنا لُحمةً لها غيرَ ذى شكٍّ ولا رِيبةٍ . وقولُه « غير نكيرةٍ » انتصب على المصدر وأكثرُ ما يُستعمل نكيرٌ بغير الهاء فالنُّكر والنَّكير ، كالعُذْرِ والعَذِيرِ والعُذْرَى . ومثلُ هذا المصدر يؤكّدُ به الكلام الذى قبله ، ويجرى مجرى حقًّا وما أشبهه . ويجوز أن يكون الهاء من النَّكيرة للمبالغة[1] . وقولُه « ونُلحِمه حينًا » فالحينُ اسمٌ للزمان المتّصل ، فكأنّه قال : ونُلْحِمُهُ فيما يتّصلُ من الأوقات . وليس يُريدُ حينًا من الأحيان . وإن رُوِى « غير نكيرِهِ » على أن يكون الضميرُ منه يعودُ إلى السّيْفِ كأنّه قال : غيْرَ منكورٍ له ، فيجعَله حالًا لِلّحم ، فليس بجيّد ؛ لأنّ القَصدَ إلى تأكيد الكلام بهذا المصدر ؛ فكما أنّ

(١) زاد ابن جنى رأيًا آخر انفرد به ، وهو قوله : « يجوز أن يكون غير هذا ، وهو أن يريد به النكرة التى هى ضد المعرفة ، ثم أشبع كسرة الكاف فأنشأ عنها ياء ، مثلها فى الصياريف والمطافيل ».

فى آخر البيت قولَه « وليس بذى نُـكرِ » تأكيدٌ لما قبلَه ، كذلك يجب أن يكون غيرَ نَـكيرةٍ هكذا ، ليتقابل الصَّدْرُ والعَجزُ على حَدٍّ واحدٍ من التّأكيد وحصول هاء التأنيث فى نَـكيرةٍ لا يجب أن يُنكر ، كما لا يُنكَرُ فى قولهم نكرةٌ ومعرفةٌ ، وكما لا يُنكَرُ الألف فى آخر ذِكرَى وعُذرَى .

٧ — يُغارُ عَلَيْنَا واتِرِين فَيُشْتَفَى بِنَا إنْ أُصِبْنَا أو نُغِيرُ عَلَى وِتْرِ

نَبَّهَ بقوله « فَيُشْتَفَى بنا » أنّهم الثّأرُ المُنِيمُ ، فإذا أصيبت دماؤهم كان فيها للأعداء الشِّفاء . وانتصبَ على الحال من الضمير فى علينا . وقولُه « أو نُغِيرُ على وِترِ » ، يريدُ على وِترٍ لنا عندهم ، فكأنّه قال : أو نُغِيرُ على واترِين لنا . وقد سَلكَ الأعشى هـذه الطَّرِيقَة ، فلم يُوَفِّ القِسمةَ حقَّها كما فعل هذا ؛ لأنّه قال :

فأظعنتَ وِترَكَ من دارِهم ووِتْرُكَ مِنْ قَبْلِهم لم يُقِمْ

والمعنى أزعجتَ الوِتْرَ الذى كان لك عندهم من دارهم ، على عادتِك مع سائر الناس من قَبلُ فى إدراكِ الثّأرِ سريعًا ؛ لأنّ قوله « ووِترَكَ من قَبلهم لم يُقِمْ » إشارةٌ إلى أنّه لا يُمهِل ولا يُهمِلْ فوِتْرُه لا يتلوّمُ عند الأعداء .

٨ — قَسَمْنَا بِذاكَ الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنا فَما يَنْقَضِى إلّا ونَحْنُ عَلَى شَطْرِ

أشار بقوله « ذاك » إلى ما تقدّم ذِكرُه من تردُّدِه فى مجاذَبة الأعداء طالبينَ مَرّةً ، ومطلوبين أخرَى . وانتصب « شَطْرَين » على المصدر ، كأنّه قال : قسمنا الدّهر قسمين . ويجوز أن يكون حالًا على معَنى قسمناهُ مختلفًا ؛ فوقَع الاسمُ موقعَ الصِّفَة لمّا تَضمَّن معناهُ ، كما تقول : طَرحتُ متاعى بعضَه فوْقَ بعضٍ ، كأنّكَ قلتَ متفرّقًا . والمراد : جعلنا أوقاتَ الدّهر بيننا وبين أعدائنا مقسومةً قسمين ، فتراها لا ينقضى شىءٌ منها إلّا ونحن فيه على أحدِ

الحدَّين . إمَّا أن تكونَ لنا الكرّةُ عليهم فندال منهم . وإما أن تكونَ لهم الجولةُ علينا فيُنالَ مِنَّا .

٢٧٣

وقال تَأَبَّطَ شَرًّا(١) :

وذُكِرَ أنه لخَلَفٍ الأحمرِ ، وهو الصَّحيح(٢) .

١ — إنَّ بالشِّعْبِ الذى دُونَ سَلْعٍ   لَقَتِيلًا دَمُهُ ما يُطَلُّ

يجوز أن يكون ذكر الشِّعبَ الموصوفَ لأنَّ قبر ذلك القَتيلِ كان فيه ، ويجوز أن يكون ذكَره لأنَّه قُتِل عندَهُ ، وهو فى اللُّغة ما انفرج بين جبليين ونحوها . والسَّلعُ بفتح السين وكسرِها : شَقٌّ فى الجبَل ، ومنه سَلَعْتَ رأسَه ، أى شققته . وقولهم هادٍ مِسْلَعٌ(٣) ، أى يَشُقُّ أجوازَ الفلاة . وقوله « دَمُه ما يُطَلُّ » من صفة القتيل ، والمعنى أنِّى فى طَلَبِ ثأره ، فدَمُه لا يَذهب هَدَرًا . والطَّلُّ : مَطْلُ الدَّم والدِّية وإبطالُهما . وقال :

* أزُهَيرُ ليسَ أبوكَ بالمطْلُولِ *

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١١ ص ٧٤ .

(٢) وعبارة التبريزى مطابقة لهذه ، وزاد : « وقيل : قال ابن أخت تأبط شراً . قال النمرى : ومما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله فيها :

* جل حتى دق فيه الأجل *

فإن الأعرابى لايكاد يتغلغل إلى مثل هذا . قال أبو محمد الأعرابى : هذا موضع المثل : ليس بعشك فادرجى . ليس هذا كما ذكره ، بل الأعرابى قد يتغلغل إلى أدق من هذا لفظاً ومعنى . وليس من هذه الجهة عرف أن الشعر مصنوع ، لكن من الوجه الذى ذكره لنا أبو الندى . قال : مما يدله على أن هذا الشعر مولد أنه ذكر فيه سلعاً ، وهو بالمدينة ، وأين تأبط شرا من سلع . وإنما قتل فى بلاد هذيل ورمى به فى غار يقال له رخمان . وفيه تقول أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان   بثابت بن جابر بن حيان

* من يقتل القرن ويروى الندمان * » .

والقصيدة فى العقد (٣ : ٢٩٨ — ٣٠٠) طبع لجنة التأليف ، بزيادة بعض أبيات وخلاف فى الرواية .

(٣) انظر ما سبق فى حواشى حماسية ابن السلماني ص ٧٥٩ .

٢ — خَلَفَ العِبْءَ عَلَيَّ وَوَلَّى أَنَا بِالعِبْءِ لَهُ مُسْـتَقِلُّ[(١)]

أراد بالعبء طَلَبَ دَمِه والنَّيلَ من عَدُوِّه . وقوله « أنا بالعِبْء له مستقِلٌّ » تحقيقٌ للوعد بإدراك الثَّأر ، وإظهارُ اقتدارٍ على النِّكاية فى الأعداء . وقوله « لَهُ » أى من أجل المرثىّ ، وإنَّما سُمِّىَ الثِّقْلُ عِبْئًا لأنَّه من عَبَأْتُ المتاعَ أعبؤُه عَبْئًا ، ثم يُسمَّى المَتاعُ عِبْئًا ، فهو كالنَّقضِ والنِّقْض . وكثُر استعماله حتّى تسمَّحُوا به فيما يدخُل من الثِّقْل على القَلب ولا يُحمَلُ على الظهر .

٣ — وَوَرَاءَ الثَّأْرِ مِنِّى ابنُ أُخْتٍ مَصِـعٌ عُقْـدَتُهُ ما تُحَلُّ

أعطَى فيما اجتمَعَ من الوصف التَّرتيبَ حقَّهُ ، وذلك لأنّه اجتمع مفردٌ وجُملةٌ فى صفةِ « ابن أُختٍ » فقَدَّم المُفرد على الجملة ، وهذا وجهُ الكلامِ وحقُّه ؛ لأنَّ الجملة إنَّما وُصِفَ بها لوقوعها موقع المُفرد ، فإذا صاحَبها مفرد كان الأولى تقديمَه ، وإذا كان كذلك فعُقْدتُه ارتفع بالابتداء ، وما تُحلُّ خبرُه . والمَصِع : الشَّديد المقاتَلة الثَّابتُ فيها . ويعنى بوراء هاهنا الخلفَ ، وإن كان يصلُح للقُدّام . وفى هذا الكلام ضَربٌ من الوعيد ، كأنَّه يجرى مجرى قولِ القائل : اللهُ من ورائِكَ . ويُريدُ : وفى طَلَب الثّأر من جهتى ابن أُختٍ هذه صِفَتُهُ ، ويعنى به نفسَهُ . ويجرى هذا المجرى قول الشَّنفَرَى :

همَمت وهَمّتْ وابتدرنا وأسدلت وشَمَّر منّى فارطٌ مُتمهِّـلُ

والفارط المتمهِّل هو الشَّنفرَى . وقوله « عُقدَتُه ما تُحَلُّ » يجوز أن يريد مايَعقِده برأيه أو يُحْكمه لا يُنقَضُ . ويجوز أن يريدَ به قُوَّتَه وجلادتَه ، وتكون العُقدةُ راجعةً إلى استحكام خَلقِه وصبرِه فى الشّدائد .

(١) فى العقد : « قذف العبء » .

٤ — مُطْرِقٌ يَرْشَحُ مَوْتًا كما أطْـ رَقَ أفعى يَنفثُ السَّمَّ صِلُّ[١]

شَبَّهَ نفسَهُ فى إطراقِهِ وسكونه ، منتظرًا لفرصةٍ ينتهزها فى إدراك ثأره بالحيَّة ، وأنه فى إمساكه يرشَحُ بالموتِ لعدوِّه كما أنَّ الحيَّة إذا أطرقَ نفثَ بالسَّمّ . والرَّشْح كالعرَق ، والنَّفْث ، كالقَذْف . والصِّلُّ من صفة الأفعى ، ويُوصف به الداهية وكلُّ خبيث ، يقالُ : هو صِلُّ إصلالٍ ، كما يقالُ داهيةُ دَواهٍ . وأسماء الحيَّات وصفاتُها تُستعار فى الدَّواهى كثيرا . والأفعى مؤنثة ، وذكَرُها الأُفْعُوان . وقال الخليل : الأفعى حيَّةٌ قصيرةٌ عريضةُ الرأس . وينوّن فيقال أفعًى ، وبعض طيِّئ يقلِبُ ألِفَهُ واوًا فيقول أفْعَوْ[٢] ، وبعض قيسٍ يقلبها ياء فيقول أفعَىْ . ومنه تفعَّى فلانٌ ، إذا ساء خُلُقُه . وقال سيبويه : صَرْفُه أكثر وأجود . ويصلح للذَّكر والأنثى ، والأفعوان الذَّكر لا غير .

٥ — خَبَرٌ ما نابَنا مُصْمَئِلٌّ جَلَّ حتَّى دَقَّ فيه الأجَلُّ[٣]

٦ — بَزَّنى الدَّهرُ وكان غَشومًا بأبِىٍّ جارُهُ ما يُذَلُّ[٤]

يعنى بالخبر نعىَّ المتوفَّى ؛ وقد استعظَمَهُ وجعلَهُ داهيةً منكَرةً حتَّى علا شأنُه وجلَّ عن أن يُضْبَط بوصفٍ ، أو يُحَدَّ بنعت ، فلذلك قال «جلَّ حتَّى دَقَّ فيه الأجَلُّ» . ويقال داهيةٌ مُصْمَئِلَّةٌ ، إذا اشتدّت . والأجَلُّ تأنيثه الجُلَّى ، والألف واللام فيه بدلٌ من الإضافة النَّائبة عن مِن فى قولهم : هو أجَلُّ

(١) التبريزى والعقد « يرشح سما » .

(٢) هكذا ضبطت فى ل مى و « أفعى » التالية بسكون آخرها . وكذلك وردت « أفعو » ساكنة الواو فى اللسان (فعا) فى حديث ابن عباس : « لا بأس بقتله الأفعو ، ولا بأس بقتل الحدو » ، ثم قال : « ومنهم من يقلب الألف ياء فى الوقف ، وبعضهم يشدد الواو والياء » .

(٣) مصمئل ، وردت بعدم التنوين فى الأصل ، وبالتنوين فى سائر النسخ . وانظر ما سبق فى حواشى ٨٠٧ .

(٤) كذا ضبطت فى ل . وكتب فوق الكلمة « معاً » ، لتقرأ بالقراءتين .

من كذا ، ومعناه الجليل . وقوله « بَزّنى الدّهرُ » ، أى غلبنى واستلبنى . وقوله « بأبىٍّ » الباء دخلتْ للتّأكيد زائدةً ، كأنّه قال : بزّنى الدّهرُ أبيًّا . ومثلُه قول الآخر(١) :

* سُودُ المحاجِرِ لا يَقرأْنَ بالسُّوَرِ(٢) *

ويجوز أن يكون عدّى بزّنى بالباء لمّا كان معناه فجعنى ، ويكونَ من باب ما عُدِّى بالمعنى دون اللفظ ، كقوله :

إذا تغنّى الحمامُ الوُرْقُ هيَّجنِى ... ولو تعزَّيْتُ عَنْها أمَّ عمّارِ(٣)

وقولُه « جارُه ما يُذَلُّ » من صفة الأبىّ . والأبىُّ : المتصعّبُ المتمنّع . والغَشْمُ : الظّلم والقهر . وقوله « وكان غَشُومًا » يعنِى به الدّهر ، وهو اعتراضٌ بين الفاعل والمفعول ، ومثلُه يتأكّد به الكلام . وقوله « يذلُّ » يُروى بفتح الياء ، ويُذَلُّ على ما لم يُسمَّ فاعلُه ، والمعنى ظاهر . وصَفَه بأنّه كان عزيزَ الجار محمىَّ الفِناء ، وأنّه كان له عُدّةً على الدّهر ، وسلاحًا معه فاستلبه منه .

٧ — شامِسٌ فى القُرّ حتى إذا ما ... ذَكَتِ الشِّعْرَى فَبَرْدٌ وظِلُّ

٨ — يابسُ الجَنْبَيْنِ مِنْ غيرِ بُوسٍ ... ونَدِىُّ الكَفَّيْنِ شَهْمٌ مُدِلُّ

وصفَه بأنّه كان يُنتفع به فى كُلّ حالٍ وزمان ، وأنّه كان غِياثًا للناس فى حالَتِى السّرّاء والضّرّاء ، فكانَ الشّمسَ عند البَرد ، والظِّلَّ عند الحرّ . يقال : ذَكَتِ النّارُ تذكو ، وأذكيتها ، وكذلك أذكيتُ الحرْبَ . ونَوءُ الشِّعرَى

(١) هو الراعى النميرى ، أو القتال الكلابى . انظر حواشى صفحة ٣٨٣ .

(٢) صدره : * هن الحرائر لا ربات أحمرة *

(٣) أى ذكرنى أم عمار . والبيت للنابغة الذبيانى فى معلقته برواية أبى زيد القرشى فى جمهرة أشعار العرب ص ٥٣ .

بشدّة الحرّ يجيء . ويقال للشمس ذُكاء من ذلك . وقد جاء مثل هذا فى النّسيب ، يقول ابنُ الرُّقَيَّات :

سُخْنَةٌ فى الشتاء باردةُ الصَّيْــفِ هِلَالٌ فى اللَّيْلةِ الظَّلْماء

والمعنى أنها للضَّجيع فى الصَّيف هكذا ، وفى الشتاء هكذا . وقد أتى الأعشى بهذين المعنيين فى بيتين ، وابنُ الرُّقيَّات أتى بهما مع ثالثٍ لهما فى بيت واحد . وبيتُ الأعشى :

وتَبْرُدُ بَرْدَ رِداءِ العَــرُو سِ بالصَّيْفِ رقرقْتَ فيه العبيرا[1]
وتَسْخُنُ ليــلةَ لا يستطيـ ـعُ أنْ ينبِحَ الكلبُ إلَّا هَرِيرَا[2]

وأما قوله « يابسُ الجنبين من غير بُوسٍ » يريدُ[3] أنه يُؤْثِرُ بالزّاد غيرَه على نفسِه . وعادتُهم التمدُّحُ بالهُزال ، فهو كقول الآخر[4] :

تراهُ خميصَ البطْنِ والزّادُ حاضِرٌ عَتِيدٌ ويغدُو فى القَمِيص المُقَدَّدِ

وقولُه « ندِيُّ الكفّين » ، أراد أنه سخِيٌّ . ويقال : هو يتندَّى على أصحابه ، أى يتسخّى . والشّهم : الذَّكِيُّ الحديد ، ومنه قيل للقُنفُذ الشّيهم . والمُدِلُّ هو الواثِق بنفسه وبآلاته وعُدَّتِه .

٩ — ظاعِنٌ بالحَزْمِ حتّى إذا ما حَلَّ حَلَّ الحَزْمُ حَيْثُ يَحُلُّ
١٠ — غَيْثُ مُزْنٍ غامِرٌ حين يُجْدِى وإذا يَسْـطُو فلَيْثٌ أَبَلُّ

وصَفَه بأنه مستعمِلٌ للحزم وآخِذٌ به ، ظاعنًا كان أو مقيما . وأشار بقوله

(١) انفردت نسخة الأصل برواية : « عبيرا » .
(٢) اتفقت النسخ على ضبط « ينبح » بكسر الباء ، وهما لغتان ، يقال بكسر الباء وضمها .
(٣) كذا جاء جواب « أما » بدون الفاء ، وانظر ما سبق فى حواشى صفحة ٨١٤ .
(٤) دريد بن الصمة . الحماسية ٢٧١ .

« ظاعِنٌ » إلى غزواته ، وأسفاره وغاراته ؛ و بقوله « حَلَّ الحَزْمُ حَيْثُ يَحُلُّ » إلى شدَّةِ حذره فى إقامته ، ودوام اتِّقائه من الأعداء حتَّى لا ينسام ولا يَغفل عنهم . وقولُه « غيثُ مُزْنٍ غامِرٌ حين يُجْدِى » وصَفه بأنَّ منافعه عامَّةٌ للخَلْق . والمُزنة : السَّحابةُ البيضاء . والغامِر : الشَّاملُ جدواه وعطيَّته . وقوله « و إذا يسطو فليثٌ أَبَلُّ » ، الأَبلُّ : الفاجر المصمِّمُ الماضى على وجهه ، لا يُبالِى ما لَقِىَ . والمراد أنَّه فى الإحسانِ بالغٌ أقصى الغايات ، وعند السَّطوة على الأعداء كاللَّيث الكثير الإفساد ، الشَّديد النكاية . والسَّطْوُ : البَسْط على الإنسان تقهرُهُ مِن فوق . ويقال : سطا عليه وسطا بِه . وقال الخليل : سُمِّى الفَرسُ ساطيًا لأنَّه يسطو على سائر الخيل ، فيقوم على رجليه و يرفع يدَيه .

١١ — مُسْبِلٌ فى الحىِّ أحْوَى رِفَلٌّ   وإذا يَغْزُو فسِمْعٌ أَزَلُّ

١٢ — ولهُ طَعْمانِ : أرْىٌ وشَرْىٌ   وكِلا الطَّعمَينِ قدْ ذاقَ كلٌّ

مفعول « مُسْبِل » محذوفٌ . وصفَهُ بأنَّه فى الحىِّ ـ والحالُ سلامةٌ ـ يُسْبِلُ إزارَه خُيلاء وكِبْرًا ، ويتبختر ذاهبًا فى التُّرفةِ إلى أرفع الدَّرجة[١] ، وأنَّه إذا غزَا فهو كالسِّمْع ، وهو الوَلَدُ بين الذِّئب والضَّبُع ، وهو أخبثُ السِّباع وأعداها . والزَّلَلُ : خِفَّةُ العَجُز ، وذلك خِلقته[٢] .

وقولُه « وله طَعمان أرْىٌ وشرْىٌ » يريدُ به أنَّه للمُوالِينَ كالأرْى ـ ويراد به العَسَلُ و إن كان فى الأصل عَملَ النَّحل ـ وللمُعادِينَ كالشَّرْى ، وهو الحنظلُ .

---

(١) التبريزى : « والوجه الآخر فى مسبل أن يكون عاملا فى أحوى ، ويراد به مسبلا شعراً أحوى ، أى أسود ؛ لأنهم كانوا يوفرون لممهم . ويصفون الشاب بحسن اللمة . . . . ويدل على توفيرهم الشعور أنهم كانوا إذا أسروا الفارس من المذكورين جزوا ناصيته ليفتخروا بذلك » .

(٢) التبريزى : « والأزل : الأرسح ، وهو الممسوح العجز . وهم يصفون الرجل بذلك ويكرهونه للمرأة » .

ثم قال : وكِلاَ الطَّعمين قد ذاق كُلٌّ ، أى كلٌّ واحدٍ من الطعمين قد ذاقه كلٌّ واحدٍ من قَبِيلَيِ الأعداء والأولياء . ومفعول ذاقَ محذوفٌ إذا جعلتَ كِلاَ مبتدأ ، كأنّه قال : قد ذاقَهُ كلٌّ . والأجودُ أن تجعلَ كِلاَ مفعولَ ذاق ولا تجعلَه مبتدأ . ومثاله : زيدًا ضربْتُ ، ألا ترَى أنه يُختار على : زَيْدٌ ضَربْتُ . وكِلاَ اسمٌ موحَّدٌ يؤكَّدُ به المثنَّى ، كما أنّ كُلًّا اسمٌ مُوحَّدٌ يؤكَّدُ به الجمعُ . وهو مقصورٌ كمِعًى ، وألفه منقلبةٌ عن واو ، وهذا مذهبُ أصحابنا البَصريِّين ، والكوفيُّون عندَهُم أنه اسمٌ مثنًّى .

١٣ — يرْكَبُ الهَوْلَ وَحيدًا وَلاَ يَصْ حَبُـــهُ إلّا اليَمانِى الأَفَلّْ

هذا كقولِ الآخرِ(١) :

يَظَلُّ بمَوْماةٍ ويُمسِى بغَـــيرِها جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المهالِكِ

والمعنى : أنّه لا يتكثَّرُ بالأصحاب إذا همَّ باقتحامِ أمرٍ عظيم ، وهَولٍ شديدٍ ، بل يتفرَّدُ فيه مستصحبًا سيفَهُ الأفلَّ ، وهو الذى قد كَثُر فلولُه بكثرة الاستعمال . وانتصَبَ « وحيدًا » على الحال . وقولُه « ولا يَصْحَبُهُ » انعطفَ عليه ، وهو صِفَةٌ للوحيد(٢) وتأكيدٌ للوَحدَةِ(٣) .

١٤ — وفُتُوٍّ هَجَّرُوا ثمَّ أسْرَوْا لَيْلَهُمْ حتَّى إذا انْجابَ حَلُّوا

(١) هو تأبط شرا . الحماسية ١٣ ص ٩٥ .

(٢) أى صفة معنوية لا نحوية ، على أن الوجه أن تكون الجملة حالية مؤكدة معطوفة على الحال قبلها .

(٣) كذا وردت هذه اللفظة بفتح الواو فى جميع النسخ ، وهو رد على من أنكر صحة هذا الضبط . ويؤيد صحته ما ورد فى اللسان (٤ : ٤٦٢) : « وحكى سيبويه الوحدة فى معنى التوحد » ، وقد ضبطت بفتح الواو .

١٥ — كُلُّ ماضٍ قد تردَّى بماضٍ كَسَنَا البَرْقِ إذا ما يُسَلُّ[(١)]

فُتُوٌّ : جمع فتًى ، ولام فتًى ياء بدلالة قولهم فِتْيانٌ ، لكنَّه بناهُ على مصدره وهو الفُتوَّةُ ، وهذا المصدرُ إنَّما جاء على هذا عِوَضا مِن حملِ بناتِ الواو على الياء كثيرا ، فكأنَّهم أرادوا أن يحملوا ما هو من الياء على الواو أيضًا ، وهو شاذٌّ[(٢)] .

ومعنى هَجَّرُوا : ساروا فى الهاجرة . ويقال : جُبتُ الظَّلامَ واجتَبتُه فانجاب . وجُبْتُ المفازةَ : قطعتُها . يريدُ أنّهم وصَلُوا السَّير بالسُّرَى ، فلمَّا انكشَفَ الظَّلامُ نزلوا . وقد اشتمل هـذا الكلامُ على جوابُ رُبَّ ؛ لأنّ قولَهُ حَلُّوا — وهو جوابُ إذا انجابَ — صار جوَابًا لِرُبَّ أيضًا . ويقال : سَرَى وأسرَى بمعنًى واحِد . وقولُه « كل ماضٍ قد تَرَدَّى بماضٍ » يريدُ أنّ كلَّ واحدٍ من هؤلاء الفِتيان نافذٌ فى الأعمال والغَزَوَاتِ ، وقد تقلَّدَ سيفًا نافذًا فى الضَّريبات ، وإذا انتُزِع من غِمده لَمَعَ التماعَ البرق . ويقال : ارتدَى بسيفه وتردَّى واعتَطفَ به ، ويسمَّى السَّيفُ الرِّداءَ والعِطافَ .

١٦ — فاحْتَسَوْا أنفاسَ نَوْمٍ فلمَّا ثَمِلُوا رُعْتَهُمُ فاشْمَعَلُّوا[(٣)]

قوله « رُعْتَهم » جواب لمَّا ، ومعنى اشمعَلُّوا جَدُّوا فى المُضِىّ . ويقال رجلٌ

---

(١) روى بعده التبريزى :

فادّركنا الثّأرَ منهمْ ولمَّا يَنْجُ مِلْحَيَّيْنِ إلّا الأقَلُّ

(٢) أما ابن جنى فيرى أن واوه قد تكون أصلية فلا شذوذ ، قال فى التنبيه : « فتو طريف التصريف ، وذلك أن لامه ياء بدلالة قوله سبحانه : ودخل معه السجن فتيان . وفعول إذا كان مكسراً ولامه واو قلبت إلى الياء ، وذلك نحو عصى ودلى وحق . فأما أن تكون ياء ثم تقلب فى التكسير واوا فقلب القضية ونقض الطريقة . غير أن هذا متخرج على مذهب أبى الحسن الأخفش ، وذلك أنه يذهب إلى أن لام فتى يصلح أن يكون واواً وأن يكون ياء ، ولا قاطع عليه فى فتية ولا فتيان ، لأن له أن يقول إنه كصبية وصبيان » .

(٣) رواية التبريزى : « فلما هوموا » .

مُشْمِلٌ ، أى جادٌّ خفيف . والمعنى أنهم ساروا يومهم وليلتهم ، وكلٌّ يرجِعُ من نفسه وسلاحِه إلى ما يُرتضَى ويُعتَدُّ به ، ثم نزلوا وهوَّموا ، وناموا نومةً خفيفةً مثل حَسْوِ الطَّير ماء الثَّمَد ، تمشَّت فى يَقَظتهم بقدر دبيبها فى عُروقهم ، ومزاولتها لخفوتهم وسكونهم ، فلما صارُوا منها كالسُّكارى أنبهَهُمْ وبعثَهُمْ للارتحال ، فخفُّوا وأطاعوا . ودلَّ بهذا الكلام على أنَّ المَرئىَّ كان رئيسَهم ومدبِّرَهم ، على زيادة غَنائه وذكائه ، وشهامته ومضائه ، وأنه لما بعثَهُمْ جدُّوا وخَفُّوا غيرَ مُتوقفين فى أمره ، ولا مُعتلِّين على رأيه .

١٧ — فَلَئِنْ فَلَّتْ هُذَيْلٌ شَبَاهُ ‌ ‌ لَبِمَا كانَ هُذَيْلًا يَفُلْ

١٨ — وبِمَا أَبْرَكَهُمْ فى مُنَاخٍ ‌ ‌ جَعْجَعٍ يَنْقَبُ فيه الأَظَلْ[1]

يقولُ : إن كان هُذَيلٌ قد تمكَّنتْ منه فكَسَرت حدَّه وأتعسَتْ جَدَّه ، فهو بما كان يؤثِّرُ من قَبْلُ فى هذيل فيطأُ حريمَها ، ويُكثِرُ قتيلَها . والعربُ تقول : هذا بذاك ، أى هو عِوَضٌ منه . واللام من قوله « لئن » موطِّئَة لقسم مضمَرٍ ، والتى فى قوله « لبِما » جوابُ ذلك القسم . والشَّباة حَدُّ الشَّىء . ويقال : أشْبَى الرَّجلُ ، إذا أتى بأولادٍ نجباء يصيرُ له بهم حَدٌّ حديدٌ كشَبَا الأسِنَّة . ويقال أيضاً : أشْبَيْتُ الرجل ، أى وجدت له شباة . حكاه أبو عمرو . ويجوز أن يكون « شَبْوَةُ » وهو اسم العقرب ، من الشَّبَا ، لإبرتها .

وقوله « وبما أبْرَكَهُم » معطوفٌ على لَبِما كانَ . والجَعْجَعُ : مُناخُ سوء ،

(١) التبريزى : « وبما أبركها » برجوع الضمير إلى القبيلة . وقد روى التبريزى بعده بيتاً آخر ، هو :

وبِما صَبَّحها فى ذَرَاها ‌ ‌ منه بَعْدَ القَتْلِ نَهْبٌ وَشَلّْ

الذرى ، بالفتح : الكنف والناحية . والشل : الطرد .

وهو الأرض الغليظة . والأظَلُّ : باطِنُ خُفِّ البعير . ومعنى[1] يَنْقَبُ أى يَحفَى . والمُراد : وبما كانَ ينالُ منهم ويحملهم فيه على المراكب الصَّعبة ، ويُنزلهم له بالمنازل الحَزْنة ، التى تؤثِّر فى أنفسهم وأموالِهم . وهم يجعلون مثلَ هذا الكلام كنايةً عن التأثير القبيح . ويشبهه قول الآخر[1] :

مَنْ يَذُقِ الحربَ يجِدْ طَعْمَها مُرًّا وتبرِكْه بجعجـــاع[2]

وقول الآخر[3] :

لقد حَمَلَتْ قيْسَ بنَ عَيْلانَ حَرْبُنا عَلَى يابسِ السِّيساء مُحْدَودِبِ الظَّهرِ

وقول الآخر[4] :

وحَمَلْناهُمْ عَلَى حَزْنِ ثَهْلَا نَ شِـلَالًا ودُمِّىَ الأنساءُ

١٩ – صَلِيَتْ مِنِّى هُذَيْلٌ بِخِرْقٍ لا يَمَلُّ الشرَّ حــتَّى يَمَلُّوا

٢٠ – يُنهِلُ الصَّعْدَةَ حتَّى إذا ما نَهِلَتْ كانَ لهَا مِنْـــهُ عَلُّ[5]

يقول : ابتُلِيَتْ هُذيلٌ من جهتى برَجُلٍ كريمٍ يتخرّقُ فى العُرفِ مع الأولياء ، وبالنُّكرِ مع الأعداء ، لا يفترُ عن النِّكاية فيهم ، وعن الإغارة عليهم ما دام لهم ثباتٌ وكانَ للجزاء عليهم مَحِلٌ . وقولُه « حتى يملّوا » يريدُ حتّى يملُّوه ، وليس المراد قعودَهم عن مكافأتِه ، ومتاركتَهم لهيْجه ، وإنَّما يريدُ أنّه لا يَكُفُّ عن الإيقاع بهم ، ولا يُمسِك عن التَّأثير فيهم ، حتَّى يَبْشَمُوا الشرَّ[6] وحَتَّى لا تبقى فيهم قوّةٌ ولا نُهوضٌ فيُراصِدُوا أو ينا كِدوا .

(١) فى الأصل : « ومنه » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٢) هو أبو قيس بن الأسلت . المفضلية ٧٥ .
(٣) هو الأخطل . ديوانه ١٢٩ واللسان (سيس) . وقد سبق فى ص ٤١٣ .
(٤) هو الحارث بن حلزة اليشكرى ، فى معلقته .
(٥) روى التبريزى بعده البيتين ٢٣ ، ٢٤ ثم ٢١ ، ٢٢ .
(٦) انظر ما سبق من التحقيق فى الحاشية ٣ من الصفحة ٦٤١ .

وقولُه « يُنْهِلُ الصَّعْدَةَ » يريدُ الإبانةَ عن الحال التى أشار إليها من دوام الحربِ ، وبَسْطِ القتل ، فيقول : يُرَوِّى الرُّمحَ من دمائهم بالسَّقْيَةِ الأولى ، فإذا ما رَوِيَتْ[١] لم يُرضِه ذلك حتّى يُعْقِبَه بمثلِه من السَّقيةِ الثانية . والمعنى اتِّصالُ الوَقَعات ، وامتدادُ البلاء منه فى صَبِّ الغارات . والصَّعدةُ : القَناة تَنبتُ مستويةً ، وجمعُها صَعَدَاتٌ بفتح العين ، لأنها اسم . ثمَّ قيلَ فى المرأة المستوية القامة ، والأتانِ الطَّويلةِ : صَعْدَةٌ ، وهى وصفٌ لهما ، ويُجمع حينئذٍ على صَعْدَاتٍ بسكون العين ، لكونها صفةً .

وقولُه « صَلِيَتْ منّى هُذَيْلٌ بخِرْقٍ » ، مثل قولِه من قَبْلُ : « ووراء الثَّأر منى ابنُ أختٍ » فى أنّ الخِرْق هو هو لا غيرُه[٢] . ويُقالُ صَلِيتُ بكذا أى ابتُليتُ به ومُنِيتُ ، وأصلُه من صِلاء النَّار ، يقالُ صَلِيتُ أصلَى صِلاءً ، واصطَلَيتُ أصطلى اصطلاء .

٢١ – تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هُذَيْلٍ وَتَرَى الذِّئْبَ لها يَسْتَهِلُّ

٢٢ – وعِتَاقُ الطَّيْرِ تَهفُو بِطَانًا تَتَخَطَّاهُمْ فَمَا تَسْتَقِلُّ[٣]

استعارَ الضَّحِكَ للضَّبُع ، والاستهلالَ للذِّئب . وأصل التهلُّل والاستهلال فى الفَرَح والصِّياح ، والمراد رَغَدُ العيش لهما ، واتِّصال طُعْمِهما باتِّصال قَتلِه فى هذيل . وليس قولُ من قال معنى تَضْحَكُ : تَحيضُ ، بشىء . وقولُه « وعتاقُ الطَّيرِ تَهفُو بِطَاناً » مثل قول الآخر[٤] فيما تقدم :

* وعبد يغُوث تَحجُلُ الطَّيرُ حَوْلَه[٥] *

(١) أى الرماح المفهومة من الرمح .
(٢) هذا فى سائر النسخ . وفى الأصل : « لا غير » .
(٣) التبريزى : « تغدو بطاناً » ، ثم نبه على رواية : « تهفو » .
(٤) هو دريد بن الصمة ، فى الحماسية ٢٧٢ .
(٥) عجزه : * وعز المصاب حثو قبر على قبر *

ويَعنى بالعِتاق آكِلةَ اللُّحْمان وعافِيَةَ الجيف منها . وقوله « تَهْفُو بطانًا » أى إنّها قد زَوَّرَتْ[1] ، وامتلأَتْ حواصلها فثقُلت ، فإذا طارَتْ تَخطّتهم فى الطَّيرانِ فلا ترتفع فى الجوّ ، بل تُسِفُّ لثِقَلِها . وبِطانٌ : جمع بَطِينٍ . وتهفو : تطيرُ ؛ يقال : هَفَتِ الصُّوفةُ فى الهواء ، أى ارتفعت . قال الخليلُ : ويقال لرَفارِف الفُسطاط إذا تحرَّكتْ : تهفُو بها الرِّيح . ثم تُوُسِّع فيه ، فيقال : هَفَا الظَّليمُ ، وهفا قلبُ فلانٍ فى إثْرِ كذا .

٢٣ — حَلّتِ الخَمْرُ وكانَتْ حَرامًا ... وبِلأْيٍ ما أَلَمّتْ تَحِلُّ[2]

٢٤ — فاسْقِنِيها يا سَوَادَ بْنَ عمرٍو ... إنَّ جِسْمِى بَعْدَ خالِى لَخَلُّ

هذا على عادتهم فى تحريم الخمْر وما يجرى مجراها فى وَلُوع النَّفس به والمَيْلِ إليه إذا قُتِلَ لهم قتيلٌ ، حتّى يُدْرِكُوا ثأرَهُ ، أو حزَبهم أمرٌ عظيم يحتاجُون فيه إلى مُناهضةٍ ومزاولة . وربَّما كانوا يحرِّمون على أنفُسِهم تنظيفَ البَدن والأخذَ من الشَّعر وما شاكَلَهُ ، وذلك على حَسب مَيل الطِّباع وإيثار فَطْم النَّفس عن الشَّىء الذى لا مَتْرَكَ له عندَها . والقَصدُ فى جميعه حَبْسُ النَّفس عن المطلوب وتذكيرُها بالمفقود ، لئلَّا تتناساهُ أو تتشاغَل عنه[3] . فيقول : أدركتُ الثَّأرَ فحلّتِ الخمْرُ بعد أن كانت مُحرَّمةً بالنَّذر علىَّ ، وبجَهدٍ ألمّتْ حَلالًا ، إشارةٌ منه إلى ما قاساهُ فى طَلَب دَمِه . ومعنى بلأْيٍ : بعد جَهد وبجَهد . على ذلك قولُه :

* فلأْيًا بلأْىٍ ما حَمَلْنا غُلامَنا[4] *

---

(١) أبو زيد : زور الطائر تزويراً ، إذا ارتفعت حوصلته .

(٢) سبق التنبيه على أن التبريزى روى هذا البيت وتاليه بين البيتين ٢٠ ، ٢١ .

(٣) كذا فى الأصل . وفى سائر النسخ : « لئلا يتناساه أو يتشاغل عنه » .

(٤) لامرئ القيس فى ديوانه ٨٤ . وعجزه :

* على ظهر محبوك السراة محنب *

وفى هذه الطريقة لامرئ القيس :

حَلَّتْ لِيَ الخَمرُ وكنتُ امرَأً عَنْ شُرْبِها فى شُـــغُلٍ شاغِلِ

وقول الآخر(١) :

فيا لَيْلَ إنّ الغِسْل ما دُمْتُ أيّمًا عَلَيَّ حَرامٌ لا يَمَسُّنِيَ الغِسْـــلُ

وقوله « ما ألمّت » يجوز أن يكون ما صِلَةً ، ويجوز أن يكون مع الفعل بعدَهُ فى تقدير المصدر . يريدُ : وبِلأْيٍ ألمّتْ حَلالًا . والإلمامُ أصلُه فى الزِّيارةِ الخفيفة ، وتُوُسِّع فيه فأجْرِيَ مجرى حَصَلتْ عندى . وقوله :

فاسقِنيها يا سَــوادَ بنَ عمرٍو إنّ جِسمى بعــد خالى لَخَلُّ

أظهر التشفِّيَ بما نالَهُ من الأعداء حتّى دَعَا مَن خاطَبَهُ إلى ما كان يتشوَّفُه مِن سَقْيِه له ، كما أظهرَ التوجُّعَ لفقده مَن أُصِيبَ به بقوله « إنّ جِسْمِي بَعْدَ خالِي لَخَلُّ » . والخَلّ : المهزول . وقوله « يا سوادَ بن عمرو » جَعَلَ سَوادَ — وقد رَخَّمَهُ عن سوادَةَ — بمنزلة ما جاء تامًّا ولم يُحذَفْ منه شىء ، فجعل سواد وابن بمنزلةِ شىء واحد ، وبناهُ على الفتح . فالفتحة فى ابنَ للإعراب ، والفتحةُ فى سوادَ للبناء . ولك أن ترويه : « يا سَوادُ بنَ عمرٍو » والضَّمَّةُ فيه ضَمّة المنادى المفرد ، فيكون كقولك : يا زَيْدَ بنَ عمْرٍو ويا زيدُ بنَ عمرٍو ، فاعلَمْه .

(١) هو عبد الرحمن بن دارة . إصلاح المنطق ٦ — ٧ واللسان (غسل) .

٢٧٤

وقالَ سُوَيْدُ المَراثِدِ الحارِثىّ[١] :

١— لَعَمْرِى لقَدْ نادَى بأرْفَعِ صَوْتِهِ   نَعِىُّ سُوَيْدٍ أنَّ فارِسَكُمْ هَوَى[٢]

٢— أجَلْ صادِقًا والقائلُ الفاعِلُ الذى   إذا قال قولًا أنْبطَ الماء فى الثَّرَى

يُرْوَى : « أنَّ صاحِبَكم هوَى » ، ومعنى صاحبكم رئيسُكم ، كما أنَّ معنى فارِسَكم أفرَسُكُم ، ولهذا أقسم وعَظَّمَ الحالَ فى نعىِّ النّاعِى حتَّى جعَلَهُ يُنادِى بأرفع صوتِهِ فِعلَ النّادِبِ المتحسِّر ، ثم صَدَّقَه فى ثنائِه وخَبَرِه فقال : أجَلْ صادِقًا أى قلتَ صادِقًا . وأجَلْ هو لتحقيق الإخبار ، كأنَّه لمَّا قال : إنَّ صاحِبَكم أو فارِسَكم هوى ، قال : أجل أنت مُصَدَّقٌ ، ثم زاده ثناء فقال : وإنَّ القائلَ الفاعلَ الذى إذا قال قولًا أنبَطَ الماء فى الثَّرى . وقولُه « أنَّ » صاحبَكُم ، أراد بأنَّ صاحِبَكُم ، فحذف الباء وَوَصَلَ الفِعلَ . وانتصب « صادِقًا » على الحال ، والعامِلُ فيه مادلَّ عليه الكلامُ من معنى قلتَ . و« القائلَ الفاعِلَ » عطفَهُ على صاحبكم ، ويجوز أن ترفعَهُ ، كأنَّهُ قال : وهو القائل الفاعِل ؛ والنَّصب أحْسَنُ

---

(١) كذا فى الأصل ، وفى سائر النسخ : « سويد الحارثى » فقط . التبريزى : « وقال سويد المراثد الحارثى . أبو هلال : ويقال سويد المراثى . سويد تصغير أسود على الترخيم . والمراثد : جمع مرثد ، وهو فى الأصل مصدر رثدت المتاع بعضه فوق بعض ، أى نضدته » . وقد سبق فى الحماسية ١٦ عن البرقى ذكر « سويد بن صميع المرثدى ، من بنى الحارث » . فهذا قول ثالث فى تسميته . انظر البيان (٢ : ١٨٦) وحواشيه . والأبيات رواها المبرد فى الكامل ٧٢٧ ليبسك منسوبة إلى أعرابى .

(٢) كذا فى سائر النسخ والتبريزى . وفى الأصل : « ان صاحبكم » ، وسيأتى أنها رواية أخرى . ويبدو أن صواب رواية البيت هو ما رواه المبرد فى الكامل : « نعى حي » فيكون اسم المرثى حيا ، إذ أن سويدا اسم الشاعر ، وأن مطابقة اسمه لاسم المرثى على رواية المرزوقى والتبريزى أمر بعيد الاحتمال .

وأجود ، ومعنى أنبطَ الماء فى الثرى : وَصلَ القولَ بالفعلِ الجالب للخير ، وقرّبَ الغَناء من العَناء اللاحق فى الأمرِ ، وهو بعد ذلك مَثَلٌ لِتحقيق قولِه ، وصِلَةِ النَّجاز بوعْدِه . ومعنى أنبطَ الماء : أخرجه . ويقال نبطَ أيضا . فإن قيل : هل يجوز أن يكون التَّصديق منه للنَّاعِى فى قوله « هوَى » لا غيرُ لأنَّه هو الخبَر ، ويكون هذا كما قال دريد[1] : « أعبْدُ الله ذلكم الرَّدِى » جوابا لقولِه « أردتِ الخيلُ فارسًا » ؟ قلتَ : لا يجوز ذلك ، بدلالة قوله « والقائلَ الفاعلَ الذى » ، لأنَّ هذا العطف لا يكون إلَّا على « صاحبَكم » ، فكأنه صدَّقه فى الأمرين جميعا ، وزادهُ مِن بعدُ مازاده[2] . وكذلك قول دريد ، لا يمتنع أن يثْبِتَ الفروسيَّة له مع الإرداء أيضًا فى استثباته إيَّاهم لمَّا قالوا : أردتِ الخيلُ فارِسًا .

٣ — فَتى قَبَلٌ لم تُعنِسِ السِّنُّ وَجْهَهُ سِوَى خُلْسَةٍ فى الرَّأسِ كالبَرْقِ فى الدُّجى[3]

وصفَهُ بأنه مُقْتَبَل الشَّباب ، لم يمسَّه أوائل الكِبَر ، وأنَّ السِّنَّ لم تَنقُص رونقَ شبابه ، ولم تُرنِّق ماء بشرته ، فهو طَلْق الوجهِ غيرُ عابس . والعُبُوس : ظهور الغضب فى الوجه . ويقال منه : يومٌ عَبُوسٌ ، أى شديد . وقوله « سِوَى خُلسَةٍ فى الرَّأس » استثناء منقطِعٌ ، ويَعنِى أنَّه ظهرَ من الشَّيبِ فى رأسه شُعلةٌ ،

(١) انظر البيت ٦ من الحماسية ٢٧١ .

(٢) هذا ما فى سائر النسخ . وفى الأصل : « وزاد من بعد ما زاد » .

(٣) فى جميع النسخ : «لم تعبس» بالباء ، وصوابه بالنون ، كما فى رواية التبريزى والمسان (عنس) وكامل المبرد . ونبه صاحب اللسان أن رواية المبرد « تُعْنِسْ » . وقال : « قال الأزهرى : وهو أجود » ، أى أجود من رواية تُعْنِس . وأنشد فى اللسان نظيره لأبى ضب الهذلى :

فتى قبل لم يعنس الشيب رأسه سوى خيط فى النور أشرقن فى الدجى

ورواية عجزه عند المبرد : « سوى وضح فى الرأس » .

فهو كالبرقِ يلمعُ فى سوادِ اللَّيل . والخُلْسةُ : بياضٌ فى سوادٍ ، وقد أخْلَسَ رأسُه ، وشَعَرٌ خليس ، ومنه قيل للمولود بين الأسود والبيضاء ، والأبيضِ والسَّوداء : خِلَاسِيٌّ .

٤— أشارَتْ لَهُ الحَربُ العَوَانُ فجاءها يُقَعْقِعُ بالأقرابِ أوّلَ من أتى

٥— ولَمْ يَجْنِها لكنْ جَناهَا وَلِيُّهُ فآسَى وآداهُ فكان كَمَنْ جَنَى

قولُه « أشارت له الحربُ العَوَانُ » ، كأنَّهُ لم يَصبِر إلى أنْ دُعِىَ ، ولكن حين اهتاجت الحربُ جاءها ، فكأنَّ الحَربَ أشارَتْ إليه . والعَوانُ : الحرب التى قُوتِل فيها مرّةً بعدَ أخرى ، تشبيهًا بالعَوانِ من النِّساء ، وهى النَّصَف . والفعل منه عَوَّنَتْ وعانَتْ . وقوله « يُقَعقِع بالأقرابِ » يجوز أن يكون المعنى جاءها ولخواصرِه قعقعةٌ ، أى صوتٌ ، لشدَّة عَدْوِه وحِرصِه . وقد يُسمَعُ من جوفِ العادِى العَجِل وصَدرِه النَّهيمُ والصَّوتُ الشَّديد ، إذا استُعجِل[١] فى الإدراك . ويجوز أن يكون القعقعةُ التى ذَكَرها من السِّلاح الذى كان عليه . وقوله « أوّلَ مَن أتى » يجوز أن يكون مَنْ نكرةً ، كأنَّه قال : أولَ فارسٍ طَلَع ، فيكون أتى صفةً له ؛ ويجوز أن يكون معرفةً وأتى صلةً له ، كأنه قال : أوّلَ الآتِين ، ويكون «مَنْ» مُوحَّدَ اللَّفظ مجموعَ المعنى . وانتصَبَ أوّلَ على الحال فى الوجهين جميعًا ، والعامل فيه جاءها أو يُقعقِع . وقوله « ولم يَجْنِها لكن جناها وليُّه » يُحقِّق ما قلناهُ من أنه لم ينتظر الاستغاثة ، ولكن لمَّا طَلَعتْ له أمارات امتحان وليِّه آساه بنفسه ، وأعداهُ على مِحنَتِه ، فكان كالجانى وإن لم يكن منه جنايةٌ ، بَذْلَ اجتهادٍ وسُرعةَ إنجاد . فالبيت الأوّل كما قال الآخر[٢] :

قومٌ إذا الشرُّ أبدَى ناجذَيهِ لهمْ طارُوا إليه زَرافاتٍ ووُحْدَانا

---

(١) هذا ضبط ل ، م ، وضبط فى الأصل بالبناء للفاعل .

(٢) هو قريط بن أنيف ، أو أبو الغول الطهوى . الحماسية الأولى ص ٢٧ .

والبيت الثانى كقول الآخر[١] :

وإنِّى لا أزالُ أخا حروبٍ إذا لم أجْنِ كنتُ مِجَنَّ جانِ

وقوله « آداه » أصلُه أعداه ، والألف الثانية همزة أُبدِلَت من العين فى الأصل ، والمعنى أعانَهُ . ويجوز أن يكون مِن الأداة ، أى جَعل له أداةَ الحربِ وعُدَّتَها . وأنشد الأصمعىُّ قولَ الأسود بن يَعْفُر :

ما بَعْـدَ زيدٍ فى فتاةٍ فُرِّقُوا قَتْلًا وسَبْيًا بعـد حُسْنِ تآدِ[٢]

وقال : معناه بعد أخْذ الدهر أداتَه .

٢٧٥

وقال رجل من بنى نَصرِ بن قُعَيْنٍ[٣] :

١ — أبْلِـغْ قبائلَ جَعْفَرٍ إن جِئتَها ما إنْ أحاوِلُ جَعْفَرَ بنَ كلابِ[٤]

---

(١) هو سوار بن المضرب السعدى . الحماسية ١٨ س ١٣٢ .

(٢) جاء فى شرح المفضلية ٤٤ : « كان المنذر بن ماء السماء خطب ابن امرأة تدعى أم كهف ، من بنى زيد بن مالك بن حنظلة ، فأبوا أن يزوجوه إياها ، فغزاهم وأجلاهم من بلادهم وقتلهم » .

(٣) بنو نصر بن قعين ، بطن من بنى أسـد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر . المعارف ٣٠ . وقعين ، يجوز أن يكون تصغير أقعن ، من القعن ، وهو قصر فى الأنف فاحش . وهذا الرجل هو ربيعة — بضم الراء وفتح الباء وتشديد الياء المكسورة — بن عبيدة بن سعد بن جذيمة بن مالك بن نصر بن قعين . قال أبو محمد الأعرابى : ليس فى العرب ربيعة غيره . وهو أبو ذؤاب الأسدى . وكان ولده ذؤاب قتل عتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعى يوم خو ، وأسرت بنو يربوع فى ذلك اليوم ذؤابا ، أسره الربيع بن عتيبة بن الحارث وهو لا يعلم أنه قاتل أبيه ، فأتى ربيعة الربيع وافتدى ولده ذؤابا بشىء معلوم يؤديه فى سوق عكاظ ، فلما دخلت الأشهر الحرم وافى ربيعة بالإبل الموسم وتخلف الربيع بن عتيبة لشغل عرض له فلم يواف بالأسير ، فقدر ربيعة أن الربيع علم بأنه قاتل أبيه فقتله ، فرثاه بهذه الأبيات وسارت عنه وبلغت يربوعا ، فعلموا أن ذؤابا قاتل عتيبة فأقادوه به . انظر الحيوان (٣ : ٢٤٦) ، وشرح التبريزى للحماسة ، وأمالى القالى (٢ : ٧٢ — ٧٣) والمؤتلف ١٢٥ .

(٤) قال التبريزى : « قبائل جعفر ، يعنى جعفر بن ثعلبة بن يربوع ، رهط عتيبة » . ورواية الأمالى : « قبائل جعفر مخصوصة » .

٢ — أنَّ الهَوادَةَ والمَوَدَّةَ بيننا خَلَقٌ كسَحْقِ اليُمْنَةِ المُنْجَابِ

قوله « ما إنْ أُحاوِلُ جَعْفَرَ بنَ كلابِ » يجرى مجرى الصفة فى شرح الاسم الذى أراده وإزالة اللَّبسِ عنه . والهَوادةُ : الحُرمة والذِّمام والصُّلح . والمُهاودة : المُوادَعَةُ . وتَهوَّدتُ إلى فلانٍ تهوُّدًا ، أى توسَّلْتُ إليه بوسيلة ؛ من قولهم : بيننا هوادةٌ ؛ ومنه هَوَّدَ الرجلُ إذا مشَى مَشيًا ساكنا . فيقول : أَبلِغْ هؤلاء القومَ إن زُرتَهمْ أنّ أسباب الصُّلح والمودّة ، والذِّمام والحُرمة ، قد خَلُقَتْ بينى و بينهم ، وتغيَّرت عما عُهِدَتْ ، فهى تزدادُ على مَرِّ الأيام دروسًا وهُمودًا كخَلَقِ البُرود المنشقِّ ، تزيدُه الأيام بِلًى وانسحاقًا ، فلا تماسُكَ فيها ، ولا رجاء لصلاحها وعَودها إلى ما كانت . والثَّوبُ السَّحْقُ وُصِفَ بالمصدر ، كأنّ البِلَى سَحَقَهُ . واليُمْنَةُ : ضربٌ من بُرود اليمَنِ . والمُنجاب : المنشَقّ . وهذا الكلام وعيدٌ ، و يشتمل على أنّ الطَّمع من رجوع الأمر إلى ما كان زائلٌ ، وأنّ الفسادَ فى ذاتِ بينِهِمْ مُتظاهر ، لا يَقبلُ إصلاحًا ، ولا يَلقَى مُزاوِلوهُ فَلاحا . وقوله « أنّ الهوادَةَ » فى موضع نصبٍ على أنّه مفعول ثانٍ لأبلِغْ .

٣ — أذُؤابُ إنِّى لم أَهَبْكَ ولم أقُمْ للبَيْعِ عند تَحضُّرِ الأَجْلابِ[1]

يُروَى « لم أهَبْكَ » من الهِبَة ، أى لم أسمَحْ بدمِك كما يتواهَبُ النَّاسُ الشّىء بينهم ، وحكى ابنُ الأعرابىّ : وَهَبنى اللهُ فِداءَك . ومنه قولهم : هَبْهُ كذا ، أى احْسِبْهُ . ويُروَى : « لم أُهِنْكَ » ، أى لم أتغافَلْ عن طلب دمِك استهانةً بكَ . وقولُه « ولم أقُمْ للبَيْع عند تحضُّرِ الأجلاب » ، يريدُ : إنّى لم أجد الدِّيَةَ ، فكنت بائعًا لدمِك كما يُباع الجَلَبُ من الأموال ، إذا سِيقت

(١) انفردت نسخة الأصل برواية « لم أهنك » . وفى المؤتلف :

أذؤاب إنى لم أبعك ولم أهب بعكاظ حيث تجمع الأجلاب

إلى الحضَر . ولم يُرِدْ بقوله « لم أقُمْ » القيامَ الذى هو ضدُّ الجلوس ، إنما المُراد لم أترشّح ولم أتهيّأ . على ذلك قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إذا قُمتُمْ إلى الصَّلاةِ ﴾ .

٤ — إنْ يَقتُلوكَ فقدْ ثَلَلْتَ عُرُوشَهمْ بعُتَيْبَةَ بنِ الحارثِ بن شهابِ[١]

٥ — بأشَدِّهِمْ كَلَبًا علَى أعدائِهِمْ وأعَزِّهِمْ فَقْدًا علَى الأصْحابِ[٢]

الثَّلُّ : الهَدْمُ ؛ ويقال ثُلَّ عَرش فلانٍ ، إذا تضعضعَتْ حالُه واتّضعَ عزُّه . قال الأصمعىّ : وربما قيل : ثُلَّ عُرْشُه ، وإذا أريد به القتلُ فليس إلّا بضمّ العين . قال ذو الرمة :

* وقد ثَلَّ عُرْشَيْهِ الحُسامُ المُذَكَّرُ[٣] *

والعُرْشان : لحمتان مستطيلتان من جانبى العُنُق ، وفيهما الأخدعان . وقولُه « إن يقتلوكَ » وقد كانوا قتلوه ، يريدُ إنْ تبجَّحُوا بقتلك وصاروا يفرحون به ، فقد أثَّرتَ فى عِزِّهم ، وهدمت أساس مَجدِهم بما نِلتَ مِن رئيسهم عُتَيبة ابنِ الحارث . وقوله « بأشدِّهم كلَبًا » جعله بدلًا من قوله بعتيبة ، وقد أعاد حرف الجرّ فيه ، وقد مضى مثله[٤] ، وذكرنا الشاهدَ فيه من قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ ومعنى أشدِّهم كلَبًا أشدُّهم تأثيرًا ونكايةً فى الأعداء . ومن كلام الحَسَن : « إنّ الدُّنيا

(١) الأمالى : « فقد هتكت بيوتهم » .

(٢) انفردت نسخة الأصل والتبريزى بهذه الرواية . وفى المؤتلف وسائر النسخ : « على أعدائه » . وفى الأمالى :

بأحبهم فقدا إلى أعدائهم وأشدهم فقدا على الأصحاب

وقال القالى : ويروى :

بأشدهم أوقا على أعدائهم وأجلهم رزءا على الأصحاب

(٣) صدره فى ديوان ذى الرمة ١٣٦ واللسان والمجمل والمقاييس (عرش) :

* وعبد يغوث تحجل الطير حوله *

(٤) انظر البيت الثانى من الحماسية ٢٦٨ .

لما فُتِحت على أهلها كَلِبُوا عليها أشدَّ الكَلَب» ، أى أحرَصُوا أشدَّ الحِرص . ويقال : دَهرٌ كَلِبٌ ، أى مُلِحٌّ على أهله بما يسوؤُهم . وقولهم كَلْبٌ كَلِبٌ : يأكل لحومَ النّاس فيأخُذُه منه شِبْه جنون . وقولُه «وأعزِّهم فقدًا على الأصحاب» يريدُ وأشدّهم ، ومنه استَعَزَّ اللحمُ ، إذا صَلُبَ ؛ ويَعِزُّ علىَّ أن أرى كذا . وانتَصَبَ «فقدًا» و«كَلَبًا» جميعًا على التّمييز . ويقال : عَزَّ علىَّ كذا ، أى حَقَّ واشتدَّ . ويقولون : أتحبُّنى ؟ فيقالُ : لَعَزَّ ما ، أى لَحَقَّ مَا .

٢٧٦

وقال الحُرَيثُ بنُ زَيْدِ الخَيْل (١) :

١— ألا بكَرَ النّاعِى بأوْسِ بن خالدٍ ... أخِى الشَّتْوَةِ الغَبْراء والزَّمَنِ المَحْلِ (٢)

٢— فإن تَقْتُلُوا بالغَدْرِ أوْسًا فإنّنى ... تركْتُ أبا سُفيانَ مُلْتَزِمَ الرَّحْلِ (٣)

(١) فى جميع النسخ : «الحرث بن زيد الخيل» ، وإنما هو «الحريث» بالتصغير كما فى التبريزى والأغانى (١٦ : ٥٦) والإصابة ١٦٧٣ والشعر والشعراء ٢٤٤ . وفى الإصابة والشعر والشعراء أنه كان لزيد الخيل ولدان : مكنف وحريث ، أسلما وصحبا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهدا قتال الردة مع خالد بن الوليد . ومما يؤكد تصحيح اسمه ما أنشده ابن حجر له :

أنا حريث وابن زيد الخيل ... ولست بالنكس ولا الزميل

وأنشد له الواقدى فى الردة أشعاراً منها :

ألا أبلغ بنى أسد رسولا ... وهذا الحى من غطفان قبلى

بأن طليحة الكذاب أمسى ... عدو الله حاد عن السبيل

وقد قتله عبيد الله بن الحر الجعفرى مبارزة فى حرب كانت بينهما من قبل مصعب بن الزبير . وأبيات الحماسية هذه فى الأغانى والشعر والشعراء .

(٢) قال أبو رياش : كان سبب هذه الأبيات أن عمر بن الخطاب بعث رجلا يكنى أباسفيان ليس بالهاشمى ولا الأموى — إلى البادية يستقرئهم ، فمن لم يقرأ شيئاً — أى شيئاً من القرآن — ضربه ، فانتهى الى بنى نبهان ، فاستقرأ أوس بن خالد بن عمرو ، ابن عم لزيد الخيل ، فلم يقرأ شيئاً فضربه فمات من ضربته ، فقامت ابنته وأم أوس تندبانه ، فأقبل حريث بن زيد الخيل حتى دخل على أبى سفيان فقتله وأصحابه وقال هذه الأبيات . وزاد أبو الفرج فى روايته عن أبى عمرو ، أنه هرب إلى الشام . وذكر أبو الفرج أيضاً أنه أوس بن خالد بن زيد .

(٣) الأغانى : «فإن يقتلوا أوسا عزيزا» .

أبو سفيان مُصدِّقٌ ورد حيَّهُمْ لاستيفاء الصَّدَقة عليهم ، فاتَّهمَ أوسَ بن خالدٍ بأنه سَتَر بعضَ مالِه طمعًا فيما يلزمه من الصَّدَقة فيه ، واقتطاعًا من الواجب عليه ، فأخذَهُ أبو سفيان يضربُهُ ، وارتَقَى ما بينهما إلى أن أدَّى إلى قَتْلِه ، فصاحت أمُّ أوسٍ فأغاثَها قائل هذه الأبيات ، ورَمَى أبا سفيانٍ بسهمٍ نَفَذَ فيه فقتله .

وقولُه « بَكَرَ النَّاعِى » ، يجوز أن يكون معناه ابتدأ ينعاهُ لأنَّ البُكور أصلُه ذلك ، ولذلك قيل فى أوَّل النَّهار : بُكرةٌ . ويجوز أن يكون بمعنى جاء بُكرةً . فيقول : ابتكر المُخبِرِ بقتل أوسِ بن خالد ملجأِ الضُّعفاء ، وثِمَالِ الأيتام ، فى الشَّتْوةِ الغبراء ، القليلة الأمطار ، الشديدة الإمحال . والمَحْلُ : يُبْسُ الأرض . ويقال زَمَنٌ ماحِلٌ ومَحْلٌ ، وقد أَمحلَ النَّاسُ إذا أسنَتوا . وقوله « فإن يقتلوا بالغَدْرِ أوْسًا » يريدُ أنَّ أبا سفيان هذا كان انطوَى على غِلٍّ لأوْسٍ ، وعداوةٍ كامنةٍ له ، فتوصَّلَ بما ادَّعَى من خيانتِه فى مالِ الصَّدقة إلى ضربِه وقتلِه ، لذلك قال : « إن تقتلوا بالغَدْرِ » . وقوله « فإنِّى تركْتُ أبا سفيان ملتزِمَ الرَّحْل » ، يريد : إنِّى اثَّأرتُ من أبى سفيانَ وجعلتُه ملتزِمًا لرحله لا حَرَاكَ به ، أى قتلتُهُ بدلًا من صاحبِه .

٣ — فلا تجزَعِى يا أمَّ أَوْسٍ فإنَّهُ تُصِيبُ المنايا كُلَّ حافٍ وذى نَعْلِ[١]

أخَذَ بعد اقتصاص الحال يُسَلِّى أمَّ أوسٍ عن ابنها ، ويطيِّبُ قلبَها ، ويعرِّفها أنَّ الموتَ طريقٌ يَسْلُكُه الناس على اختلاف طبقاتِهم ، وأنَّه لا مَحِيدَ عنه ولا مَعْدِل . وحَسُنَ ذلك منه لأنه كان قد أدركَ الثَّأرَ لها ، وشفَى نفسَها من داء مصيبتها ، فأقبل يَبْرُدُ[٢] غليلَها بوعظِه ، زيادةً فى الاهتمام لها والتوفُّرِ عليها .

(١) فيما عدا الأصل : « تصيب المنايا » . وفى الأغانى : « يلاق المنايا » .
(٢) هذا ضبط جميع النسخ . يقال برد الطعام وبرده ، بالتضعيف ، وأبرده .

وكان يجب أن يقول : كل ذى حَقٍ وذى نَعلٍ ، أو كُلٌّ حافٍ وناعِلٍ ، لكنّه لما وجدَ اسم الفاعل يَنوبُ مَنابَ ذى كذا ، لم يُبالِ أن يكون أحدُهما بذى . وهذا يُبيِّن ما يسلكه أصحابنا البصريّون فى مثل قولهم : طالِقٌ وحائضٌ ، أنه على طريق النِّسبة وفى معنى ذاتِ طَلاقٍ وذاتِ حيض ، ويؤكِّد صحّته .

٤ — قَتَلنا بقتلانا من القومِ عُصْبَةً كِرامًا ولَمْ نأكُلْ بهم حَشَفَ النَّخلِ (١)

٥ — ولولا الأُسَى ماعِشتُ فى النّاس بَعْدَهُ ولكن إذا ما شئتُ جاوَبنى مِثْلِى (٢)

فى هذا الكلام دِلالةٌ على استفحال الشّرّ بينهم حتّى قُتِلَ من الجانبين عِدّة ، لذلك قال : قتلنا بدل قتلانا من القوم عصبة يرجِعُون إلى كَرَم . والعُصبَةُ : العَشرةُ من الرِّجال ، وقيل ما بين العشرة إلى الأربعين ، وكذلك العِصابة من النّاس والطَّير والخيل . وهذا تنبيهٌ على أن الثأر الذى أدركه منهم كان مُنيمًا ، والاشتفاء من دائه بِهِ كان مُحيبًا . وقوله « ولم نأكلْ بهم حَشَفَ النَّخل » يريدُ : لم نشتغِلْ عن طلب دمهم بالأكل . وذِكر الحشَفِ إزراء بذلك الطّعام لو صُرِفت النّفوسُ إليه مع تَضايقُ الوقت فى طلب الدّم . ويجوز أن يريدَ : لم نأخذ ديتَهم . وجَعَل التمرَ حَشَفًا كما قال غيرُه (٣) :

ولا تأخُذُوا منهمْ إفالًا وأبكُرًا وأُترَكَ فى بيتٍ بصَعدَةَ مُظلِمِ

والإفالُ والأبكرُ لا تُؤخَذانِ فى الدِّية (٤) ، ولكنْ حقّر أمرَها . وقولُه : « ولولا الأُسَى ماعِشْتُ فى النّاس بعده » يريدُ لولا التصبُّر والتأسِّى والاقتداء بهم فى المصائب ، لقتلتُ نفسى ولم أعِشْ بَعْدَه — يعنى بعد أوسٍ — فى النّاس ،

(١) الأغانى ، « أصبنا به من خيرة القوم سبعة » و « ولم نأكل به » .
(٢) فى الشعراء : « فى الناس ساعة » و « ساعدنى مثلى » .
(٣) هو كبشة أخت عمرو بن معد يكرب . الحماسية ٥٢ ص ٢١٧ .
(٤) فى الأصل : « لا تؤخذ إلا فى الدية » ، صوابه فى سائر النسخ .

ولكن متى شئتُ وجدتُ لنفسى نظائرَ ممّن فقدوا أعزّتهم . ويُشبه هذا قولُ الخنساء :

ولولا كثرةُ الباكينَ حولِى على إخوانِهِمْ لقتلتُ نفسِى

وقوله « ما عشتُ فى الناس بعده » جواب لولا ، ونابت عن خبر المبتدأ وهو الأسى ، كأنّه قال : لولا الأسى مانعٌ لى ما عشتُ فى النّاس بعدَه . وقد تَقدم القولُ فى لولا ، وفيما يقع فيه (١) .

٢٧٧

وقال البراء بن رِبْعِىّ الفَقْعَسى (٢) :

١ — أَبَعدَ بَنِى أُمّى الذين تتابعُوا أُرَجِّى الحياةَ أم من الموتِ أجزَعُ

قولُه « أبَعْدَ » لفظُه لفظُ الاستفهام ، والمعنى معنى التوجُّع . والاستفهامُ يَطلُبُ الفِعْلَ . فيقول : أُرجِّى الحياةَ أم أجزَعُ من الموت بعد إخْوانى الذين انقرضوا وذهب الواحدُ فى إثْر الواحدِ فدرجوا . والمعنى : ماذا يجوز أن يكونَ منِّى : أيحسُنُ الطَّمَعُ فى الحياة بعدَهم ، أم الجزعُ من الموتِ عَقِيبَ الفَجْع بهم . وأم هذه يجوز أن يكون أوْ بدلها ، لأنها المنقطعة . ألا ترَى أنّ التى تكون عديلةَ الألفِ فى العطف مِن شرطِها أن يكون أحدُ الأمرين اللّذَيْنِ يَسألُ عنهما المستفهمُ قد وقَع عنده إلّا أنه لا يَدْرى أيُّهما هو . يقول القائل : أرأيتَ زيدًا أم عمرًا ، وهو لا يشكّ أنّ أحدهما رآه ، إلا أنّه لا يدرى أيُّهما هو . والذى فى البيت ليس كذلك فتأمّله .

(١) انظر ما سبق فى ص ٤٦٦ فى الحماسية ١٥٧ .

(٢) التبريزى : « وقال أبو حبال البراء بن ربعى الفقعسى . البراء فى اسم رجل يجوز أن يكون مأخوذاً من قولهم : أنا براء منك ، أى برىء ، أو من قولهم لآخر ليلة من الشهر ليلة البراء ... والربعى : ما نتج فى أيام الربيع ، ويكنى به عن ولد الرجل فى شبابه ... قال أبو هلال : أبو حبال هكذا رويناه فى الأصل ، وهو تصحيف ، وإنما هو أبو الحناك بالنون والكاف » . وقد ذكره صاحب المؤتلف ٨٦ وصاحب القاموس فى (حنك) .

٢ — ثمانيةٌ كانوا ذُؤابةَ قومِهِمْ بِهِمْ كُنتُ أُعْطِى ما أشاء وأَمْنعُ(١)

٣ — أُولئكَ إخْوانُ الصَّفاء رُزِئتُهُمْ وما الكفُّ إلّا إصبعٌ ثُمّ إصْبَعُ

ذكر أن إخوانهُ كانوا ثمانيةً ، وأنّهم كانوا رؤساء قومهم ، وأنه بعِزّهم ومكانِهم مِن قبيلتِهم كان يدفعُ عن نفسه ما يشاء ، ويَقبَل لها ما يشاء . وفى قولِه « كنتُ أعطِى ما أشاء » حَذْفٌ ، ولو أتى على حدِّه لكان : كنتُ أُعطى ما أشاء إعطاءَهُ وأمنعُ ما أشاء مَنعَه . والمفاعيل تُحذَفُ كثيرًا لأنّ القرائن تدل عليها . وإنما قال « ذؤابة قومهم » ولم يقل ذوائب قومهم ، لأنه عدّهم شيئًا واحدًا ، لتناصُرِهم واتِّفاق أهوائهم . والذُّؤابةُ : اسمٌ فى الأصل ، وقد وُصِفَ به ، وكما قيل هو ذؤابةُ قومِهِ ، وهم ذوائبُ قومِهِ ، قالوا فى الضِّدِّ منه : هو ذُنابة قومه ، وهم ذَنائب قومه . وقولُه « أولئك إخوان الصّفاء » نَبّهَ به على زوال الخلافِ وسقوط المِراء من بينهم ، وعلى خُلُوص نِيّة كلٍّ وَاحدٍ منهم مع صاحبه ، حتى كانَ ما يجمعهم تَصافِيا بلا كَدَرٍ ، وتوافقًا بلا حَسَدٍ ، وأنّهم كانوا فى التّعاوُن والتّظاهُر كالكفِّ الواحدة ، فكلٌّ واحدٍ منهم كالإصبع من تلك الكفّ ، فلما تَخرَّموا ومات الواحدُ بعد الواحد ، صارت الكفُّ تتراجَعُ بنُقصان أصابِعها حتّى صارت لا تغنى فى البَطْشِ بِها ، ولا تَعمَلُ عند القبض والبسط عَمَلَها .

٤ — لَعَمْرُكَ إنّى بالخليلِ الذى لَهُ عَلَىَّ دَلالٌ وَاجِبٌ لَمُفجَّعُ

٥ — وَإنّى بالمَوْلَى الّذِى لَيْسَ نافِعِى ولا ضائرِى فِقدانُهُ لَمُمَتَّعُ

أقسم بأنّه مُفَجّعٌ بمن تعزُّ حياتُه ويكرُم مقامُه ، حتّى يَرَى لنفسه تدلُّلا

(١) المؤتلف : « من أشاء ».

واجبًا عليه ، وتمكُّنًا مكينًا منه ؛ ومُمتَّعٌ بمن لا رغبةَ له فى العيش معه ، فليس فى بقائه نَفْعٌ له ، ولا فى ذهابِه ضررٌ عليه ، وكان الواجب أن يقول : ليس نافعى حياتُه أو وجدانه ، حتّى يكونَ فى مُقابلةِ قوله « ولا ضائرى فِقدانُه » ؛ إلّا أنّه لمّا ضاقَ نطاقُ البيت عنه لم يُبالِ بالاقتصار على نافِعِى ، إذ كان المرادُ بها مفهومًا ، وإذْ كان ضميرُه فى ليس يقومُ مقامَ حياتِه لو أتى به . وسَمَّى مَن اشتدَّت فاقتُه إلى حياته خليلًا لاختصاصِ مكانِه من قلبِه ، وعلى عادَتِهم فى تسمية المعتَمَد عليه خليلًا ، حتّى سمّوا الفرَسَ والسَّيفَ خليلًا . قال يعنى الفرَس :

. . . . وأتّقى   بهادِيهِ إنّى للخليلِ وَصُولُ[1]

وقال الآخر فى السيف :

* ماسَدَّ كَفّى خَلِيلُها[2] *

وسمّى القبيلَ الثّانى مَوْلًى إشارةً إلى أبناء عمّه الذين لا غَناء عندهم ، ولا انتفاع له بمكانهم .

٢٧٨

وقال مُطيع بن إياسٍ ، فى يحيى بن زياد[3] :

١ — يا أهْلِ بَكُّوا لِقَلْبِيَ القَرِحِ   وللدُّمُوعِ السَّواكِبِ السُّفُحِ

(١) البيت لأبى الأبيض العبسى ، سبق فى الحماسية ١٥٧ . وصدره :

* أقيه بنفسى فى الحروب وأتقى *

(٢) سبق فى ص ٤٦٩ : « ماشد » بالشين المعجمة . والبيت بتمامه :

وإنى كما قالت نوار إن اجتلت   على رجل ماشد كفى خليلها

(٣) مطيع بن إياس بن أبى سلمة الليثى الكنانى ، من مخضرمى الدولتين ، كان ظريفا خليعاً متهما بالزندقة ، ولد ونشأ بالكوفة . وأخباره مسهبة فى الأغانى (١٢ : ٧٥ — ١٠٣) وأمالى المرتضى (١ : ٩٨) ، ولسان الميزان (٦ : ٥١ — ٥٢) . وكان يحيى بن زياد الحارثى صديقاً له هو وحماد الراوية ، وحماد عجرد ، وعمارة بن حمزة ، وآخرون ، كلهم ظريف متهم بالزندقة . انظر الحيوان (٤ : ٤٤٧ — ٤٤٨) . وكان المنصور يعجب بهذه الحماسية . الأغانى (١٢ : ٨٢) .

٢ — راحُوا بيحيَى ولو تطاوعُني الـ … أقدارُ لم تَبْتَكِرْ ولم تَرُحِ (١)

لم يَرْضَ بتجرُّدِه لتلقِّي الأمر الذي دهمه ، وبتفرُّدِه في الجزع للخَطْبِ المُلِمِّ به حتى طَلَبَ من ذويه وعشيرته إسعادَهُ في البُكاء لما نابَهُ فأقرحَ قلبَهُ ، وأسالَ دمعَهُ . وإنّما فَعَلَ ذلك لأنه يَعُدُّ التعاوُنَ فيه والتّشارُكَ ، أدلَّ على تجليل الفجيعة له ؛ والائتساء والتّساوي ، أجْلَبَ للتخفيف ممّا به . ألا تَرَى أنّ الله تَعالى يقولُ في أصحابِ النار : ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ ، فأيأسَهم من أن يكون اشتراكُهم في العذاب يسلّيهم أو يرجعُ بضربٍ من النّفع عليهم ، على العادة في دار الدُّنيا . وقوله « قلبي القَرِح » يقال : أقرحَهُ الهمُّ فَقَرِحَ وهو قَرِحٌ قريحٌ . وقيل في القَرْح هو البَثْر إذا ترامَى إلى فساد . وقوله « السّواكب » جمع ساكبة ، ووُصِفَ الدُّموعُ به على معنى ذات سُكُوبٍ ، كما قيل عَيْشٌ ناصِبٌ ، أي ذو نَصَبٍ على النِّسبة . والسُّفُح : جمع سَفُوح ، والسَّكْبُ والسَّفْحُ يراد بهما الصَّبّ ، إلّا أنّ السَّفحَ أبلغُ من السَّكْب ، لذلك ارتقَى من السّواكب إليه . وحكَى الخليل أنّ أهل المدينة يقولون : اسكُبْ على يَدِي . ويقال رجُل سَفّاحٌ للدِّماء ، ولم يُقَل سَكّابٌ ، لأنّ السَّكب لا يبلغُ حدّ السَّفْح .

وقولُه « راحوا بيحيى ولو تطاوِعُني الأقدار » ، يقول مُنبِّهًا على مِساسِ الفاقة إلى بقائه ، وغلبة اليأس من الاعتياض منه : راحوا ولو أطاعني القَدَرُ ما فُجِعنا بفِراقه ، فكان لا يبتكر لا غاديًا ولا رائحًا . ومن رَوَى بالتاء « لم تبتكر » جعل الفعلَ منسوبًا إلى الأقدار يريدُ : لم تبتكر الأقدار ولم تَرُحْ به وأنا راضٍ .

(١) ل : « لم يبتكر ولم يرح » بالياء ، وهـذه هي الرواية التي تتلاءم مع مفهوم التفسير فيما بعد .

وإنَّما قال « بَكُّوا » لأنَّ فَعَّلَ يفيد التكثير من الفاعلين . وتكرير الفعل من واحدٍ حالًا بعد حال .

٣ – ياخيرَ من يَحْسُنُ البكاءُ لَهُ الـ يَومَ ومن كان أمْسِ للمِدَحِ

٤ – قد ظَفِرَ الحُزْنُ بالسُّرورِ وقد أُدِيلَ مَكْرُوهُنا من الفَرَحِ

إنما ناداهُ لقوله « قد ظَفِرَ الحُزْنُ بالسُّرور » ، كأنَّه يريدُ إعلامَه تأثيرَ المُصابِ فيهم ، وأنَّهم قد استبدلُوا بعدَه بالسُّرور حُزناً دائما ، وبالفَرَحِ مكروهًا راتبًا . و« مَنْ » نَكِرة . وقوله « يَحْسُن البكاء له اليومَ » صفة له ، فيقول : يا خيرَ إنسان كان المدحُ فيما مضَى من الزّمان أوْلَى به ، والبكاء عليه فى الحال والاستقبال أحقَّ لَهُ ، قد تأدَّى حالُنا بَعدكَ إلى أن أَبدلَنا القدَرُ بالفرح تَرَحًا مُتَّصلاً ، وبالمحبوب مكروهًا لازما .

ومعنى ظَفِرَ الحُزْنُ بالسرور وأُدِيلَ مكروهُنا ، أنَّ الغَلَبَ لهما حتى لاثَباتَ للسرور والفَرَح معهما ، ولا انتِياشَ منهما[١] . يبيِّن ذلك أنه قال « وقد أُدِيلَ مكروهُنا » أى جُعِلَ له على الفرح دَولةٌ . وقوله « من الفَرَح » يريد من المفروح به ، وهو المحبوب ؛ لأنه كما طابَقَ الحُزْنَ بالسرور فى الصدر ، طابَقَ المكروهَ بالمحبوب فى العَجُز . وهذا كما يقال : لا يسرُّنى بهذا الأمر فَرَحٌ ومفروحٌ به ومُفرِحٌ . والوصفُ بالمصدر ووضْعُه موضع الفاعل والمفعول مشهورٌ . وقد خرج فى هذا الكلام جوابُ سائلٍ يقول : ما الفرْق بين السرور والفرح ؟ وكيف أتى بهما وهما بمعنًى واحد ؟

(١) الانتياش : الاستنقاذ ، يقال انتاشه ، أى استنقذه واستدركه وأخذه من مهواته .

٢٧٩

وقال مُطيعٌ أيضاً(١) :

١— قلتُ لِحَنّانَةٍ دَلُوحٍ تَسُحُّ من وابلٍ سَحُوحِ
٢— أَمِّي الضَّريحَ الذى أُسَمِّى ثم اسْتَهِلِّى على الضَّريحِ
٣— ليس من العَدْلِ أن تَشِحِّى على فتًى ليس بالشَّحيحِ(٢)

أراد أن يدعوَ للقَبْر بالسُّقيا فجَعَل بدلَ الدعاء سؤالاً وتمنّيا ، لأنّ طريقة الجميع واحدةٌ فقال : قلتُ لسحابةٍ فيها رعدٌ ، فكأنّها كانت تحِنُّ برعدها إلى شيء كحنين الناقة إلى وطنها أو وَلَدِها . دَلُوح ، أى ثقيلة . يقال : مَرَّ البعيرُ يَدْلَحُ بحِمْلِهِ ، أى يمشى متثاقلاً . والسَّحابةُ تَدْلَحُ من كثرة مائها . تَسُحُّ أى تَصُبُّ . وابلٌ : مطرٌ ضخمُ القَطرِ . سَحُوح : كثير الانصبابِ شديدُهُ . إن قيل : كيف جعَلَ السَّحَّ مرّةً للحنّانة ومرّةً للوابل ، والوابل يكون مصبوباً لا صابّاً ، وما فائدة مِن فى قوله « من وابلٍ سَحُوح » فإنّ المرادَ به الكثرة ، وهم يجعلون ، إذا قصدوا إلى المبالغة ، الفِعلَ الواقعَ بالشّىء له . ألا ترى أنهم يقولون : مَوتٌ مائتٌ ، وشِعرٌ شاعرٌ . وهذا كما قالوا : سيلٌ مُفعَمٌ ، والسيلُ

(١) كذا نسبه أبو تمام . وفى الأغانى (١٣ : ٧٩) أن الشعر لحماد عجرد يرثى الأسود ابن خلف ، وكان يعاشره ولا يكادان يفترقان . ومما يجدر ذكره هنا أن حماد عجرد كان معاصراً لمطيع بن إياس وصديقاً مواصلا له . وقد روى أبو الفرج بعد البيت الأول :

جادت علينا ، لها رباب بواكف هاطل نضوح

وبعد الثانى ، وهو مما يؤيد نسبته إلى حماد عجرد فى رثائه للأسود :

على صدى « أسود » الموارى فى اللحد والترب والصفيح
فاسقيه ريا وأوطنيه ثم اغتدى بعده وروحى
اغدى بسقياه فأصبحيه ثم اغبقيه مع الصبوح

وكلمة الصبوح ، هى فى الأصل « الكسوح » .

(٢) فى الأغانى : « على امرئ » .

لا يُملأ إنما يُملأ به الشيء . وإذا كان كذلك فالسَّحُّ من الحَنّانة حقيقة ، والسَّحُّ من الوابل مجاز ، والمرادُ به ما ذكرنا . على أنه لا يمتنع أن يكون سَحّ من باب فَعَلته ففَعَل ؛ فقد حكى الخليلُ : سَحّ المطرُ والدَّمعُ ، وقال : هو شدَّة انصبابهما . ويقال من السَّحّ : فَرَسٌ مِسَحٌّ ، أى يَصُبُّ العَدْوَ . وأرضٌ سَحَاحٌ[١] ، أى تسيل من مطرٍ يسير .

وقوله « أُحيّى الضَّريحُ الذى أسمّى » يريدُ الذى أنصُّ عليه وأبيِّنه بذكر اسم صاحبِه ، إذْ لم يكن للضريحِ اسمٌ يتميَّز به عن القبور ، فكأنّ بيانَ الكلام : أسمِّى صاحبَه ، فحذفَ المضاف وهو صاحبٌ ، ثم أقام المُضافَ إليه مقامَه ، فجاء أسمِّيه ، ثم حذف المفعول من الصلة لطولها فبقىَ أسمّى . ومعنى استهَلّ : صَبّ . ويقال هَلّ السحابُ بالمطرِ واستهَلّ وانهلّ المطرُ انهلالاً . والأهاليلُ : الأمطار الشديدةُ الانصباب[٢] . ويجوز أن يكون لمّا وصفَ السحابةَ بالحنّانة لرعدِها كَنَى عن المطر بالاستهلال ، لأنه كالحنين ، وهو رفعُ الصوت بالتلبية وغيرها ، فيكون الحنين والاستهلال للرَّعد والمطر كالسؤال والجواب . فأما قولُه « على الضريح » فتكراره تنبيهٌ على عِظَم شأنه وفَظاعة الفَجْع به . والتفخيم بالتكرير يحصُل كثيراً . والضَّريح : القبر بلا لَحْد ، وهو فَعِيل بمعنى مفعول ، لأنه يقال ضَرَحوا له ضريحاً . وقال الدُّريدىّ : سمّى ضريحاً لأنه انضرح عن جَالَى القبر[٣] ، أى اندفَع فصار فى وسَطِه . وقولُه :

ليس من العدل أن تَشِحّى — على فتًى ليس بالشَّحيحِ

يريد : ليس من الإنصاف البُخْلُ بمائك وصَوْبِك على فتًى كان لا يبخل

(١) لم ترد هذه الكلمة فى المعاجم المتداولة .

(٢) قيل لا واحد للأهاليل ، وقيل واحدها هلال والجمع سماعى .

(٣) الجالان : الجانبان ، يقال جال وجول وجيل ، وهو الجانب والناحية .

بماله ، وما يُجتدَى منه فى جاهِه وحالِه . وهذا ظاهر . وفى طريقته قول أبى تمام :

وكيف احتمالى للغيوثِ صَنيعةً بإسقائها قَبْرًا وفى لَحْدِهِ البَحْرُ

٢٨٠

وقال الأشْجَعُ السُّلَمىّ[١] :

١ — مَضَى ابنُ سعيدٍ حين لم يَبقَ مَشْرِقٌ ولا مَغْرِبٌ إلاّ لهُ فيه مادِحُ[٢]

يقول : فُجِعَ الناسُ بابن سعيدٍ حين كَمَل وبَرَع وشَمِل نفعُه فعمَّ حتى لم يَبقَ بُقعةٌ من جوانب الشرق والغرب إلا وتَرَى فيها شاكرًا لنعمِه ، حامدًا لفَعالِه ، مادحًا لفرط إحسانِه . وإنما يَعظُمُ الرُّزْء باستكمال فضائل المرثىّ ، وشمول فواضِله .

٢ — وما كنتُ أدرِى ما فواضِلُ كَفِّهِ على الناسِ حَتَّى غَيَّبَتْهُ الصَّفائحُ

قوله « ما فواضِلُ كفِّهِ » استفهامٌ ، وموضع الجملة من الإعراب أنه مفعولُ أدرِى وقد عُلِّق عنه ، والمعنى : ما أدرى ما يقتضى هذا السؤالُ . والفواضِلُ : جمع فاضلة ، وهو اسمٌ لما يَفضُل من نَدَى كَفِّهِ فيتجاوزُها إلى

(١) هو أشجع بن عمرو السلمى ، من ولد الشريد بن مطرود السلمى ، وكان يكنى أبا الوليد ، شاعر من شعراء الدولة العباسية ، نشأ بالبصرة وقال الشعر وأجاد وعد فى الفحول ، وكان الشعر يومئذ فى ربيعة واليمن ، ولم يكن لقيس شاعر معدود ، فلما نجم أشجع وأجاد افتخرت به قيس . ومدح البرامكة وانقطع إلى جعفر خاصة وأصفاه مدحه فأعجب به ووصله إلى الرشيد ومدحه فأعجب به أيضاً فأثرى وحسنت حاله . الشعراء ٨٥٧ — ٨٦١ ، والأغانى (١٧ : ٣٠ — ٥١) وتاريخ بغداد (٧ : ٤٥) ومعاهد التنصيص (٢ : ١٣٣) والموشح ٢٩٥ وقال التبريزى : « قال أبو هلال : كان البحترى يقول : إنه يخلى . ومعنى الإخلاء أن يأتى بألفاظ حسنة ليس تحتها كبير معنى » .

(٢) الأبيات رواها القالى فى أماليه (٢ : ١١٨) والحصرى فى زهر الآداب (٣ : ٢٠٩) وروى صاحب العقد (٣ : ٢٨٧) بعض أبيات هذه الحماسية منسوبة إلى منصور النمرى .

الناس . ويجوز أن يكون فاضلةٌ مصدرًا بمعنى فَضْلٍ أو إفضال ، فيكون كالعافيةِ والقائمِ من قولهم قمْ قائمًا ، والباليةُ من قولهم ما أباليه باليةً[١] ، ثمّ لاختلافهِ جَمَعَهُ . والمصادرُ تُجمع إذا اختلفت ؛ على ذلك قولهم العُلوم والعُقولُ وما أشبههما . وإذا جُعِل كذلك يكون قد عدَّى فواضِلَ وهو جمعٌ مكسَّرٌ إلى قوله على الناس . وحصَّل من هذا الكلام أنّ قوله « على الناس » يتعلَّقُ بفواضل على وجهين : أحدهما أن يكون فواضــل جمع فاضلة ، وهو اسم للفاعل ، والثانى أن يكون فواضل جمع فاضلة ، وهو مصدرٌ ، وتعدِّى مثلِه ليس بكثير .

وقولُه « حتى غَيَّبَتْهُ الصفائح » معناه إلى أن غَيَّبَتْهُ الصفائح . والصفائح : أحجار عِراضٌ سُقِّف بها قبرُه . يقول : لم أتبيَّنْ مقاديرَ إحسانه عنـد الناس ، ومَبالغَ أياديه لديهم ، وفنونَ برِّهِ بهم ، وانصبابَ مِنَنِه إليهم ، لاختــلاف مواقعها ، ولخفاء كثيرٍ منها على حَسَب قُصودِه فى الإفضال ، ولتباينُ مَواضِـع الصنيعة فى التفصيل والإجمال ، إلى أن خَلَّى مكانَه فظهرت الفاقةُ على متحمِّلى نِعمِه ، وتَظاهرَ الحمد والثَّناء من الكافّة على اختلاف منازِلهم وتباعُدِ مظانّهم ، فحينئذ بان لى كثرتُها وتوفُّرها .

٣— فأَصْبَحَ فى لَحْدٍ من الأرْضِ مَيِّتًا وكانَتْ به حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ[٢]

قولُه « فى لَحْدٍ » موضعه نصبٌ على أن يكون خبر أصبح ، وانتَصَبَ « مَيِّتًا » على الحال ، وكذلك قوله « حيًّا » انتَصبَ على الحال . ولا يجوز أن يكون « لَحدٍ » فى موضع الحال ومَيِّتًا خبر أَصْبَحَ ، لأنَّ مَيِّتًا من الصَّدْر فى مقابَلة حيًّا من العَجُز ، ولا يكون ذلك إلا حالاً ، فكذلك يجب أن يكون

(١) المعروف « البالة » مخفف البالية .
(٢) الأمالى : « وكانت له حيا » .

ميّتا ، وإلّا اختلفا وفَسد المعنى . يقول : أصبحَ وهو ميِّتٌ يتّسع له لَحدٌ من الأرض ، وكانت الصَّحاصِحُ تَضيقُ عنه وهو حَيٌّ . فيجوز أن تكون تَضِيقُ عن جُيوشِه وأصحابه الذين كانوا يَحيَونَ بحياته ، ويَسطُون على الدّهر بعِزّته ؛ ويجوز أن يُريد بالضِّيق ما كان يَبُثُّ من إحسانه ، ويَنْتَشِر من جَدْواه فى أهل الأرض ويشمَلُهم من المنافِع بمكانه وجاهه ، فيكون التّقدير أنَّها لو جُسِّمتْ لكانت الصَّحاصِحُ تضيق عنه . والصّحصح والصّحصَحان : الأرَضُون المستوِية الواسعة . وفى طريقته للبحترى :

كانوا ثَلاثةَ أبْحُرٍ أُفْضى بها وَلَعُ المَنُونِ إلى ثلاثةِ أقْبُرِ

٤ — سأبْكيكَ ما فاضَتْ دُموعِى فإنْ تَغِضْ فحَسْبُكَ مِنّى ما تُجِنُّ الجَوانِحُ[(١)]

ضَمِن له دوامَ البُكاء ما دامت الدُّموع تُجِيبُه وتُساعده ، فإنْ عجَزت ونَقصتْ عن المُراد ، وانقَطعت أوان الحاجة ، فكافِيه منه ما تشتمل عليه جوانِحُه ، ويتضمّنُه صدرُه وفؤاده . وقولُه « ما فاضت » فى موضع الظَّرف ، أى مُدّةَ فَيضِها . وقولُه « حَسْبُكَ » مبتدأ وخبرُهُ « ما تُجِنُّ » . وقد يتمّ حَسْبُكَ بنفسه فلا يحتاجُ إلى خَبرٍ ، فيُقالُ حسبك ، وحينئذٍ[(٢)] يتضمّن معنى الأمر ، كأنّه يرادُ به اكتفِ ، ولذلك يستقلُّ الكلامُ به . ويقال : غاض الماء وغِضْتُه والجوانح : الضُّلوع ، سمِّيت بذلك لانحنائها . والجُنُوح : المَيْل .

٥ — وما أنا من رُزْءٍ وإن جَلَّ جازِعٌ ولا بسرورٍ بعدَ مَوْتِكَ فارِحُ[(٣)]

قولُه « ما أنا من رُزءٍ » تبرُّؤٌ من الجزَع على الرُّزء ، أى لستُ له بصاحِبِ

---

(١) هذا البيت لم يروه القالى . وفى زهر الآداب : « ما تكن الجوانح » .
(٢) هذا مافى سائر النسخ . وفى الأصل : « وحقيقته » .
(٣) زهر الآداب : « بعد ما مات » .

وإن جَلَّ الفادِحُ، كما أنى لستُ بسُرُورٍ به وإن عَظم بفارِحٍ. والمعنى: أنَّ المنايا والعطايا تساوت أقدارها عنـدِى بعدك، لأنك كنتَ المرجُوَّ عندى، والمَخوفَ عليه لدَىَّ، فلما فاتنى القدرُ بك أمِنْتُ من الجزَع لحادثِ شرٍّ، ويئِسْتُ من الفرح لنائبِ خيرٍ. ولو قال بدَلَ جازِعٍ وفارِحٍ: جَزِعٍ وفَرِحٍ، كان أفصحَ وأكثر، لأنَّ فَعِلَ إذا كان غير متعدٍّ فالأجود والأقيس فى مصدرِه[1] فَعَلٌ، وفى اسم الفاعل فَعِلٌ، وإذا كان متعدِّيًا فبابُه فاعِلٌ. وقد قيل فى المريض مارِضٌ، وفى السَّليم سالِمٌ، لأنَّ البابين يتداخلان. وقولُه «ولا بسرورٍ» أى ولا بذى سُرورٍ فحذف المُضاف وأقام المُضاف إليه مقامَه.

٦– كأنْ لَمْ يَمُتْ حَىٌّ سِواكَ ولم تَقُم ... على أحَـدٍ إلاَّ عليكَ النوائحُ[2]

٧– لَئِنْ حَسُنَتْ فِيكَ المَراثِى وذِكْرُها ... لقد حَسُنَتْ من قَبْلُ فيك المدائحُ

قوله «كأنْ» مخفف كأنَّ، واسمه مُضمرٌ، أراد كأنَّ الأمرَ أو الشأن لم يَمُتْ حَىٌّ سواكَ. والخَطْبُ إذا وقَع مستغرَبًا كان تأثيرُه أشدَّ، ونَكْؤُه أوجع، منه إذا أُلِفَ وُقوعُه، وتُمُرِّنَ بتكرُّرِه. فيقول: إنّ المُصيبةَ عَظُم تأثيرُها فى النُّفوس فكأنَّ موتَك بِدْعُ فَعَلاتِ الدهرِ، وكأنَّ النِّياحةَ لم تَقُم على مَن سواكَ، إذْ كانت طوائفُ النَّاس على تبايُنهم وتباعُدِ أقطارِهم، واختلاف هممهم وأوطارِهم، تَشارَكوا فى الجزَع لكَ، وتشابَهُوا فى استعظام الأمرِ والخَطْب بك، فكأنَّهم لم يرَوْا مفقودًا، ولا قامت النَّوائحُ فيهم عند بكائهم هالكًا.

وقولُه «لئن حَسُنَتْ فيك المَراثى وذِكرُها»، مثلُه قولُ الآخَرِ[3]:

---

(١) فى جميع النسخ: «فى مصدرهما».
(٢) رواية زهر الآداب: «كأن لم يمت حى سواه ولم يقم على أحد إلا عليه».
(٣) هو مطيع بن إياس. البيت الثالث من الحماسية ٢٧٨ ص ٨٥٣.

يا خيرَ مَن يحسُنُ البكاء له الـ يَوْمَ ومَن كانَ أمسِ للمِدَحِ

وقد تقدّم القولُ فى لام لَئِنْ واليمينِ المضمرة فى الكلام(١) . والجواب لقد حَسُنَتْ ، وقوله حَسُنَتْ فى موضع تَحْسُنُ ، لأنَّ حرف الشَّرط نَقَل المُضِىَّ إلى الاستقبال ، وجوابُ الشَّرط بالفاء هاهنا وقد حُذف كأنَّه قال : إنْ يحسن الرِّثاء لك وفيك ، الآنَ وفى مستقبَلِ الزَّمان ، فَلَلْمدائحُ فيمامضى كانت حسنةً فيك .

٢٨١

وقال يحيَى بنُ زيادٍ(٢) :

١ — نعَى ناعِيَا عَمرٍو بِلَيْلٍ فَأَسْمَعَا فَراعَا فُؤاداً لا يَزالُ مُرَوَّعا(٣)

يقول : خَبَّرَ النَّاعيان بموتِ عَمرٍو ليلًا ، فأبلغا الخبر وهو فظيع مُنكَر ، وفزَّعا قلباً لا يزالُ مُفزَّعًا . وإنما قال بليلٍ لأنَّهما لم يصبرَا إلى مجىء النهار استعظاماً للخَطْب ؛ لأنَّ اللَّيل لمَّا كان أخفى للويلِ صار سَعْىُ الناعيينِ فيه أدلَّ على استفحال الرُّزء . وقوله « أَسْمَعَا » حَذَف مفعولَيه لأنَّ المراد أسْمَعا النَّاسَ نَعِيَّهُ ، وهو بتجرُّده من المفعول يُستعمل فى المكروه كثيراً ، ولأنه إذا أطلق

(١) منها البيت ١٧ من الحماسية ٢٧٣ .

(٢) هو أبو الفضل يحيى بن زياد الحارثى ، قال التبريزى : « وهو خال أبى العباس السفاح » . وهو خطأ ، والصواب أن أباه زيادا هو خال أبى السفاح . قال المرزبانى فى معجمه ٤٩٧ : « يحيى بن زياد بن عبيد الله بن عبد المدان — وهو عمرو — بن الديان — هو يزيد — ابن قطن بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن الحارث بن كعب . وزياد بن عبيد الله خال أبى العباس السفاح ، وقلده المدينة فى خلافته . ويحيى يكنى أبا الفضل » . وأنشد المرزبانى البيت الأول والثالث من هذه المرثية .

وكان يحيى معاصراً لمطيع بن إياس ، وقد سبق ذكره فى الحماسية ٢٧٨ التى يرثيه بها مطيع بن إياس . وقد سجل مطيع أن يحيى كان خطيباً أديباً ، وذلك فى مرثية له فى الأمالى (١ : ٢٧٠) :

ما الذى غال أن تحير جوابا أيها المصقع الخطيب الأديب

(٣) المرزبانى : « كان قدما مروعا » .

مُبهماً فالإطلاق فى مثل هـذا المكان أبلغُ ، وإنما قال « مُرَوَّعاً » إيذاناً بأنَّ ذلك الرَّوع ثبت فى القلب حتى لا إفاقة منـه . ويجوز أن يريدَ أنه مرزَّأ فى الـكِرام ، فهو الدَّهرَ قلِقٌ لا يسكن ، وحَذِرٌ لا يأمن .

٢ — وما دَنِسَ الثَّوبُ الذى زَوَّدوكَهُ وإن خانَهُ رَيْبُ البِلَى فتقطَّعا

الدَّنَسُ : لَطْخُ الوسَخ ونحوِه حتى فى الأخلاق . يقال : هو دَنِسُ المروءة ، وقد دَنِسَ عِرضُهُ . ونبَّهَ بهـذا الكلام على أنَّ زاد المُتوفَّى من الدنيا كفَنُه ، وأنَّ ما كُفِّن فيـه المتوفَّى بَقِيَ طاهِراً لطهارة نفسه وعُنصُرِه ، وأنه كان يجبُ بقاؤه جديداً لا يؤثِّر فيـه البِلى ، ولا تَسبِقُ إليـه الخُلوقةُ ، وأنَّ تأثيرَ رَيبِ الدَّهر فيه بالتقطيع خِيانةٌ منه . وكل هـذا تعظيمٌ للمرثىّ ، وأنَّ حالَهُ بخلاف أحوال غيره حَيًّا وميِّتا . ومعنى « خانَهُ رَيْبُ البِلَى » أى نزول البلى ، قال أبو عُبيدة : يقال رابَ عليه الدَّهرُ ، أى نزَلَ[1] .

٣ — دَفعنا بِكَ الأيَّامَ حَتى إذا أتتْ تُرِيدُكَ لم نَسْطِعْ لها عنكَ مَدفَعا

يجوز أن يريد بالأيَّام نوائبَ الأيام وأحداثَها فحذف المضاف وأقام المضافَ إليه مقامَهُ ، ويجوز أن يريدَ بالأيَّام أنفُسَ الأحداث ، فسمَّاها أيَّاماً كما تُسمَّى الوَقَعاتُ بها ، وكما قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ النَّاسِ ﴾ . ومعنى « حتى إذا أتتْ تُريدُكَ » .وضع تُريدُكَ نصبٌ على الحال ، أى مُريدةً لك . وفائدة حتى الغايةُ ، كأنه قال : دافَعْنا الأيامَ بك وبمكانِك إلى وقت مجيئِها مُريدةً لكَ ، فحينئذٍ لم نقدِر على دفاعها . وقوله « لم نَسْطِع » أراد نستطع فحذفَ منـه تخفيفاً لـكثرته فى الـكلام . يقال اسطاع يَسْطيع ، بمعنى استطاع

(١) هذا نص لغوى نادر .

يستطيع ؛ وقد حكى أَسطَاعَ بفتح الهمزة يُسطِيعُ بضم الياء ، وليس هذا من الأول لأنّ هذا فى معنى أطَاعَ .

٤ — مَضَى فمضَتْ عنّى به كلُّ لَذّةٍ تقَرُّ بها عيْنَاىَ فانقَطَعا معا

يقول : مَضَى عَمْرٌو لسبيله فانقطعت عنّى لذّات الدنيا ، وفارقتْنى بفراقه ، فانقطَعا مجتمعَيْن ومصطحبين . وموضع « تقَرُّ بها عيناىَ » جَرٌّ على أن يكون صفةً للذّةٍ ، أى كلُّ لَذّةٍ تبرُدُ لهـا عيناى لها وتُسَرُّ نفسى بحصولِها . وقوله « مَعا » فى موضع الحال . وقوله تقَرُّ بها عيناى ، قيل هو من القَرارِ ، وقيل هو من القُرّ : البَرْد . وهذا أقرب لأنّه يقال فى ضِـدِّه : سَخِنَت عينه ، وهو سُخْنة العَين[1] .

٥ — مَضَى صاحِبِى واستقبَلَ الدَّهرُ صَرعَتِى ولا بُدَّ أن أَلْقَى حِمامِى فأُصْرَعا

هذا فى طريقة قوله :

فغَبَرْتُ بعدهمُ بعيشٍ ناصبٍ وإخالُ أنّى لاحِقٌ مُستَتْبَعُ[2]

ومعنى « استقبل الدّهرُ صرعتى » توطينٌ للنّفس على أنها بمدرَجة الدّهر ، فهو ينتظر إيقاعه بها وكأن قدْ . ومعنى استقبَلَ الدّهرُ صرعتى ، أى إماتَتِى ، كما يقال « لِـكلِّ جَنبٍ مَصْرَعُ[3] » . ومعنى « لا بد » : لا محالة ، وهو من البَدَد : الاتّساع والتفريج . كأنّه تضايقَ الأمرُ فيه فلا اتّساعَ معه ، ويقال : لا بد من أن يكون كذا ، ولا بدَّ أن يكون كذا ، و « أنْ » يُحذف حرف الجرّ معه كثيرا .

---

(١) السخنة ، بالضم : مصدر ، كالسخونة .

(٢) البيت لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ٢) والمفضليات (٢ : ٢٢١) وجمهرة أشعار العرب ١٢٨ ، والخزانة (١ : ٢٠٢) وشواهد المغنى ٩٢ .

(٣) من قول أبى ذؤيب الهذلى ، قبل البيت السابق :

سبقوا هوى وأعنقوا لهواهم فتخرموا ولـكل جنب مصرع

٢٨٢

وقال ابنُ المقفَّع[(١)] يرثى يحيى بن زياد[(٢)] :

١ — رُزِئْنا أبا عمرٍو ولا حَيَّ مِثْلَهُ   فلِلَّهِ رَيْبُ الحادِثاتِ بمَنْ وَقَعْ[(٣)]

يقول : أُصِبْنَا بأبى عمرو ، وهو مفقودُ النَّظير ، معدومُ الشَّبيه . فموضع « ولا حَيَّ مثلَهُ » نَصْبٌ على الحال ، والعامل فيه رُزِينا . ثمَّ قال على وجه التعجُّب : لله رَيبُ الدهر بأىِّ رجل وقَع . فقولُه « بمَنْ وقع » منقطِع مما قبله وإن كان فاعلُ وقع الضميرَ العائدَ إلى الرَّيب المستكنَّ ، لأنَّ قوله « لله ريبُ الحادثات » كلام مستقلٌّ بنفسه فيما يُفيد من إكبار الشّانِ وتفظيع الحال . وإضافةُ الشَّىء إلى الله عزَّ وجلَّ تفخيمٌ وتعظيم ، على ذلك قولهم : بَيتُ الله — وإن كانَ المساجدُ لله[(٤)] — ولله دَرُّه . وقوله «بمن وقع» مستقلٌّ بنفسه أيضاً وفيه استعجاب من أن يكون الدّهر يَعرِض لمثله أو يَهُمُّ به مَعَ فخامة أمرِه ، وجلالةِ نفسه . ولو قال : وبمن وقع ، فزاد واوًا ، لكان أكشَفَ فى المعنى

(١) هو عبد الله بن المقفع ، من أشهر كتاب العربية ، فارسى الأصل ، ولد مجوسيا فى العراق ، وأسلم على يد عيسى بن على عم السفاح ، وولى كتابة الديوان للمنصور العباسى . واتهم بالزندقة فقتله فى البصرة أميرها سفيان بن معاوية المهلبى . والمقفع : لقب أبيه واسمه داذويه ، وكان الحجاج قد ولاه خراج فارس فأخذ الأموال فعذبه فتقفعت يده . وقال ابن مكى : الصواب المقفع بكسر الفاء ، لأنه كان يعمل القفاع : جمع قفعة بالفتح ، وهو شىء يعمل من الخوص شبيه بالزنبيل لا عروة له . أخبار الحكماء للقفطى ١٤٨ وابن خلكان (١ : ١٤٩ — ١٥١) فى أثناء ترجمة الحسين بن منصور الحلاج ، والفهرست ١١٨ وخزانة الأدب (٣ : ٤٥٩) وأمالى المرتضى (١ : ٩٣) .

(٢) التبريزى : « وقيل يرثى ابن أبى العوجاء عبد الكريم » .

(٣) مثله ، جاءت روايتها بالنصب فى جميع النسخ ، وكذا التبريزى ، على أن تكون صفة لحى ، والخبر مقدر . وقال السيوطى فى همع الهوامع (١ : ١٤٦) : « حذف خبر هذا الباب — يعنى باب لا — غالب فى لغة الحجاز ملتزم فى لغة تميم وطيء ، فلم يلفظوا به أصلا » .

(٤) أى خصصت الكعبة باسم « بيت الله » تشريفا لها وإن كان كل مسجد لله . وفى القرآن الكريم « وأن المساجد لله » . وفى نص التبريزى : « وإن كانت المساجد كلها لله » .

المرادِ به[١] . ولا يمتنع أن يكون بمن وقع فى موضع الحال ، كأنّه قال : لله رَيْبُ الحادثات واقِعًا بمن وَقَع ، ومؤثّرًا مُوجِعا ، ويكون حالا للرَّيب ، والعامل فيه ما دلّ عليه لله ريبُ الحادثات .

٢ — فإن تَكُ قد فارقتنا وتركتنا ذَوِى خَلَّةٍ ما فى انْسِدادٍ لها طَمَعْ

٣ — فقد جرَّ نفعًا فَقْدُنا لكَ أنَّنا أمِنَّا على كلِّ الرَّزايا مِنَ الجَزَعْ

حذْف النون من تكُ قد تقدَّمَ القولُ فيه . والمعنى إن فارقتنا والوَهىُ بك لا يُرْقَع ، والخَلَّةُ بك لا تُسَدُّ ، وحديثُ النَّفس بالطَّمع فيك لا يَخطُر بالقلب ولا يَجولُ فى الفِكر ، فقد جلَبَ إلينا فَقْدُكَ نفعًا ، وهو أمْنُنا من تسلُّط الجزَع علينا لرزيئةٍ مستأنفةٍ ، أو نَكبةٍ معترِضة ، إذْ كان خَوفُنا عليك ، وحذَرُنا فيك . وقوله « ما فى انسدادٍ لها طمع » فى موضع الجرّ ، لأنه صفة خَلَّةٍ . يريدُ ما لنا طَمَعٌ فى انسدادٍ من أجلها وبَعْدَها يحصُل . وجوابُ إن تكُ ، الفاء مع ما بَعدَها من قوله « فقد جرَّ نفعًا » ، وإنما جُلبَ الفاء لمخالفة الجزاء للشَّرط بكونه مبتدأ وخبرا ، والمبتدأ محذوف كأنه قال : والأمر والشّان قد جر فقدُنا لك نفعًا . وقوله « إنّنا أمِنّا » إذا كسرتَ الهمزة من إنّ يكون على الاستئناف ، ويكون جملة الكلام تفسيرًا للنَّفع المستجَدّ له ، وإذا رويت « أنّنا » بفتح الهمزة يكون بمعنى لأنّنا أمِنّا ، فيكون الكلام بيانا لعلّةِ حصول النَّفع . ويجوز أن يكون موضع أنّنا نصبًا على البدل من نَفْعًا .

وقولُه « على كلّ الرزايا » ، على تعلّق بقوله أمِنّا ، يقال هو آمِنٌ على كذا ، وقد أمِنْتُ على مالى عند فلانٍ من امتداد الأيدى إليه ، أى لا تمتدّ ، كذلك أمِنّا على كل الرزايا من الجزع ، أى لا نَجْزع . وأتى بلفظة العموم فيه ،

(١) هذا ما فى الأصل ، وفى سائر النسخ : « المراد منه » .

وهو كُلٌّ ، إيذاناً بتساوِى الخطوب عنده ، وانحطاطِها عن درجة المُصاب به وفيه ، حتى لا جَزَع يتجدَّدُ بعدَه لحادثٍ يحدُثُ . ولا يجوز أن يتعلّق قوله «على كلّ الرزايا» بقوله : من الجزع ، لأنه لو كان كذلك لكان فى صلته ، والصّلة لا تتقدّم على الموصول .

٢٨٣

وقال بعضُ بنى أسدٍ :

١ — بَكِّى على قَتْلَى العِدَانِ فإنّهُمْ   طالت إقامتُهُمْ ببطنِ بَرَامِ [١]
٢ — كانوا على الأعداء نارَ مُحرِّقٍ   ولقومِهِمْ حَرَمًا من الأحْرامِ

يخاطب امرأةً والنساء كُلُّهُنَّ عندهُ تلك المرأة ، فيقول : أ كثِرى البُكاء على المقتولين بهذا المكان — وقيل العِدَان[٢] ساحل من سواحل البحر — والمدفونين ببطن بَرامٍ ، فقد طالت إقامتُهم . والمراد أنّ اليأس منهم قد حصلَ وقَوِىَ ، وأنّ غيبتَهم اتّصَلَتْ فرُفِعت الأطماعُ من عَودِهم والاجتماع معهم . ثم أخذ يصفُهم فقال : كانوا على المنابذين والمخالفين كنارِ هذا الملك ، لا تُبقى ولا تَذَر — ومحرِّق هو عمرو بن هِند ، وكان نَذَرَ أن يُحْرِق مائةَ نفس ، ففعل ، فضُرِبَ المثلُ بناره — وكانوا لقومهم حَرَمًا من الأحرام ، لا مخافةَ فيهم ولا هضيمة . يريدُ أنّ قومَهم يأمَنون نزولَ النوائب بهم فى فنائهم ، فكانوا كمن

(١) العدان ، بالكسر فى جميع النسخ ، ماعدا م والتبريزى ، فهى فيهما بالفتح ، وقد أنشد ياقوت هذه الحماسية فى (عدان) بعد أن قال : « عدان النهر بالفتح : ضفته » . والعدان بالفتح هى عند التبريزى قبيلة من قبائل أسد . قال : « العدان من بنى أسد ثم من بنى نصر ابن قعين ، وأصل العدان فى اللغة ساحل من السواحل . وبرام وخزام ببلاد بنى عامر » . وقال ابن منظور فى اللسان (عدن) : « والعدان قبيلة من أسد » . ثم أنشد هذا البيت .

(٢) اتفقت النسخ على ضبطها هنا بكسر العين .

حَصَل فى الحرَم ، وأن أعداءهُمْ كانوا يحترقون بنكايتهم فيهم ، فكانوا عليهم كنار هذا الملك .

وقوله « مُحرِّق » وإن كان صفةً فى الأصـل ، فصار بالاشتهار فى رجُل واحدٍ كالعَلَم له . وعلى هذا جاء فى قوله :

* عليهنّ فتيانٌ كساهُم مُحرِّقٌ[(١)] *

وقوله :

* إليك ابنَ ماءِ المُزْنِ وابنَ مُحرِّقٍ[(٢)] *

وقولُه « حرَمًا من الأحرام » نكّرهُ لاختـلاف الأحرام . وهى حرَم الله تعالى بمكة والشام ، وحرَمُ الرّسول عليه السلام بالمدينة .

٣ — لا تَهلِكى جزَعًا فإنّى واثِقٌ برِماحِنـا وعَواقِبِ الأيّامِ

هذا الكلام تَسليةٌ لها وإن كان أمرَها بالبكاء ، وإيذانٌ أنه سيُدرك الثأر ، فهو ينتظر عُقَب الأيام وانتهاز الفُرص . ونبّه بقولِه « واثِقٌ برماحِنا » على الغَناء عندهم ، وأنّ العناية متوفِّرةٌ من جهتهم . وانتصب « جزَعًا » على أنه مصدرٌ لعلّةٍ ، ولا يمتنع أنْ يكون فى موضع الحال يُريدُ جازعةً ، وهذا الجزع الذى نهاها عنـه ليس يريدُ به الحُزنَ لفقدِه ، وإنما يُريدُ الحزنَ لسلامة الواتر على مرّ الأيام لا غيرُ . ألا ترى أنه قال : فإنى واثقٌ برماحنا . وقوله « عواقبِ الأيام » يُشيرُ فيه إلى تغيُّر الزمانِ واختلاف الحدَثان ، وأن الدّهرَ

(١) للحصين بن الحمام . الحماسية ١٣٣ ص ٣٨٩ . وعجزه :

* وكان إذا يكسو أجاد وأكرما *

(٢) ابن ماء المنذر ، عنى به النعمان بن المنذر بن ماء السماء . ونحوه ما ورد فى شروح سقط الزند ١٣٩٨ من قول سعيد بن أنيس يخاطب النعمان :

إليك ابن ماء المزن أقبلت بعدما مضى لى سبع من دخولى على أهلى

كما يُعطى يَرتجع ، وكما يولِّى ينتزع ، فغيَرُه لا تؤمَن ، وأحـداثه على حالةٍ واحدة لا تقِفُ(١) .

٢٨٤

وقال آخر :

١— نَعَى لى أبا المِقْدامِ فاسودَّ مَنْظَرِى   من الأرْضِ واستكَّتْ علىَّ المَسامعُ

٢— وأقبَل ماءُ العَيْنِ من كلِّ زَفْرةٍ   إذا وَرَدَتْ لَمْ تَسْتَطِعْها الأضالِعُ

يقول : خبَّر النّاعى بموت أبى المِقدام فدِيرَ بى ، وأصبحتِ الدنيا مُظلمةً فى عينى ، وأوْرَثَ خبرُه صَممًا فى أذُنى ، فلا الأذُن تأذَنُ للكلام على ما كانت تعملُ ، ولا العين تُدرِك المرئيّات إدراكَها مِن قبل ، كلُّ ذلك لتأثير نَعيِّهِ فى الحواسّ التى هى طرُق العلوم وتَبيُّنِ المشاهَدات . وبعد ذلك أقبل الدَّمعُ يَسِيلُ فى إِثْرِ زَفَراتٍ اتصلتْ وتعاقَبَتْ ، وكل واحدةٍ منها لامتلاء الصدر بها كادَتِ الضلوع تستقيم لورودِها . والزَّفرة : أن يَتردَّد النَّفَس فى الصدر ثم يمتلئَ منه ويَزفِرَ به ، أى يَرْمِى . وقد أومأ أبو تمّام إلى هذا المعنى وإن لم يصرِّح تصريحَه فى قوله :

وما للدّارِ إلاَّ كلُّ سَمْحٍ   بأدمُعِهِ وأضلعِهِ سَخِىِّ(٢)

فأمّا أبو عُبادة ففى قوله :

ووراءهم صُعَداءُ أنفاسٍ إذا   ذُكِرَ الفراقُ أقمْنَ عُوجَ الأضْلُعِ(٣)

قد بالَغَ فى الإبانة كلَّ المبالغة . وقوله « استكّت علىَّ المَسامعُ » فالمَسامع :

(١) روى التبريزى بعد البيت الأخير من هذه الحماسية :

عاداتُ طَىٍّ فى بنِى أسَدٍ لَهُمْ   رِىُّ القَنا وخِضابُ كلِّ حُسامِ

(٢) ديوانه ص ٢٤٣ . (٣) البحترى ص ١٠٠ .

جمع المِسْمَع بكسر الميم ، وهو الأُذُن . والمَسْمَع ، بفتح الميم : موضع السَّماع . وقوله « استكَّت » من قولهم بئر سَكُوكٌ ، إذا كانت ضيِّقة الخرْق . فإذا أُريد الصَّمَمُ قيل استكَّت أذُنُه لحقيقته ضاق صِماخُها ، وهو الخَرْق الباطنُ المُفضِى إلى الرَّأس .

٢٨٥

وقال آخر :

١ — قد كان قَبلَكَ أقوامٌ فُجِعْتُ بهم خَلَّى لنا هُلْكُهمْ سَمْعًا وأبْصارا[(1)]

٢ — أنت الذى لَمْ يَدَعْ سَمْعًا ولا بَصَرًا إلاَّ شفًا فأمرَّ العيشُ إمرارا

قولُه « فُجِعْتُ بهم » الجملة فى موضع الصِّفة لقوله أقوامٌ . وخَلَّى لنا هُلْكُهم ، فى موضع خبر كان . والمعنى : قد فُجِعْتُ فيما مضى من الزمان بأقوامٍ جزِعْتُ لهم بل هَلِعْتُ ، وأقمتُ الرَّسمَ فى البكاء عليهم بل أسرفْتُ ، فبقَّى الفجْع بهلاكهم لى ولمن تَبِعَنى واقتدَى بى ، السَّمعَ والبصرَ بعدَهم ، فزجَّينا الوقتَ مستمتِعين بما سَلِمَ من حواسِّنا ، وعائشين مع الناس فى باقى عُمرِنا ؛ فلما أُصِبْنا بك استنفَدْت قوانا ، واستنزَلْتَنا عن ذخائر صبرِنا ، فبطَلَت طرائق العُلوم مِنَّا ، وتناهت فى العَجْز عنا حواملنا ، إلاَّ شفَاً ، فطالت شِقوتنا ، وأمرَّ عَيْشُنا . والشَّفَا : الباقى من الشيء القليل . ويقال : ما بَقِىَ من النهار إلا شَفًا ، أى مقدارُ ما بين الليل والنهار حين غرَبت الشمس .

وقولُه « لم يدَعْ » بالياء ، هو أقيَسُ الرِّوايتين ؛ لأن الصِّلة جاءت على حدِّها مع الموصول . وإذا رويتَهُ بالتاء فعلى الخطاب ، وساغَ لأنَّ المخاطب

---

(١) التبريزى : « لنا فقدهم » .

والذى مرجعُهما إلى شىء واحد ، وقد مضى مثله[١] ، فاعلَمْه . وقال المازنىُّ : لولا كثرة مجيئه لردَدْته . ومثله :

* أنا الذى سمّتنِ أمّى حَيْدَرَهْ[٢] *

وقال سَمْعًا وأبصارًا لأنّ السمعَ اسمُ الجِنس ، فهو كالجمع .

٢٨٦

وقال نَهشَلُ بنُ حَرِّىٍ[٣] :

١ — بنَفْسِى خَلِيلاىَ اللّذانِ تبرَّضَا ... دُموعِى حتى أسْرَعَ الحُزْنُ فى عقْلى[٤]

تعلّق الباء من « بنفسى » بفعلٍ مضمرٍ دلّ عليه جَلِيّةُ الحال ، وقرينة الكلام ، كأنه قال : أفدى بنفسى مَنْ أخالُه . ومعنى « تبرّضا » أفنيا دُموعى شيئًا فشيئًا ، وقليلاً قليلاً ؛ لأنّ التبرُّض التبلُّغُ والتطلُّب من هاهُنا وهاهُنا . وماء بَرْضٌ ، أى قليل . وبَرَضَ لى من مالِهِ بَرْضًا ، إذا أعطاك القليل . قال :

(١) انظر ما سبق فى ص ١١٥ ، ٤٠٧ .

(٢) لعلى بن أبى طالب ، كما سبق فى حواشى الموضعين السابقين .

(٣) اقتصرت نسخ المرزوقى على هذه النسبة . ونص التبريزى : « وقال الشمردل بن شريك ، أو نهشل بن حرى » . والنسبة إلى الشمردل هى الصواب ، فقد روى أبو الفرج فى الأغانى أنه كان له أخ يدعى قدامة جاءه نعيه فى يوم ، ثم تلاه نعى أخيه وائل بعده بثلاثة أيام فرثاهما بالقصيدة التى منها البيت الأول من هذه الحماسية . انظر الأغانى (١٢ : ١١٢ — ١١٣).

وأما نهشل الذى تنسب إليه هذه المرثية خطأ فهو نهشل بن حرى — كلفظ المنسوب إلى الحر بالفتح — بن ضمرة بن ضمرة بن جابر بن قطن بن نهشل بن دارم . شاعر شريف مخضرم بقى إلى أيام معاوية ، وكان مع على فى حروبه ، وقتل أخوه مالك بصفين وهو يومئذ رئيس بنى حنظلة ، فرثاه نهشل بمراث كثيرة . وجده ضمرة بن ضمرة كان اسمه شقة بن ضمرة ، فسماه النعمان ضمرة باسم أبيه ، إعجابا به ، بعد أن قال فيه المثل السائر : تسمع بالمعيدى لا أن تراه ! ابن سلام ١٣٠ والاشتقاق ١٥٠ والأغانى (٨ : ١٥٣ — ١١/١٥٤ : ١٣٤) والخزانة (١ : ١٤٧ — ١٥٢) والإصابة والشعر والشعراء ٦١٩ — ٦٢١ ووقعة صفين ٢٩٩ — ٣٠٢ .

(٤) صدره فى الأغانى : * سبيل خليلى اللذين تبرضا *

لَعَمْرُكَ إنّنى وطِلَابَ سَلْمَى لكالمتبرِّضِ الثَّمَدَ الظَّنُونا[(١)]

والمعنى فَدَيْتُ بنفسى صديقىَّ اللذين نَضَبَ فى البكاء لهما دموعى ، وتأدَّى إلىَّ الحزنُ[(٢)] إلى أن عَمِلَ فى عقلى فأزاله ، فَدَمعى وصَبرى مستنفَدان لتأثير الفجيعة بهما . وجَعَلَ الفعل فى تبرَّضا للخليلين ، وحَقُّ الكلام تبرَّضَ الحزنُ لهما والبكاءُ عليهما دموعى ، إلى أن أسرعا فى عَقْلى فصار وَالِهًا .

٢ – ولولا الأَسَى ماعِشْتُ فى الناسِ بعدَهُ ولكن إذا ما شِئتُ أسعَدَنى مِثلى[(٣)]

قوله « ما عشْتُ فى الناس » أى مع الناس ومختلطا بهم ، فموضعُ فى الناس نَصْبٌ على الحال ، والكلام جواب لولا ، وخبر المبتدأ الذى هو الأَسَى محذوفٌ استُغنِىَ عنه بجواب لولا ، والمعنى لولا أنَّ لى بالناس إُسْوةً فى مصائبهم ، فأورثنى ذاك تماسكاً وصبرًا ، لقتلتُ نفسى فلم أَعِشْ ساعةً من عمرى ، ولكن متى شئتُ وجدتُ لنفسى أقرانًا إنْ دعَوْتُهم أجابونى ، وإن استسعدتهم أسعدونى . والإسعادُ ، قال الخليل : يُستعمل [فى المساعدة[(٤)]] على البكاء خاصّةً ، ومثله :

ولولا كثرةُ الباكِينَ حَوْلِى على إخوانهم لقتلتُ نَفْسِى[(٥)]

٢٨٧

وقال أيضاً[(٦)] :

١ – أغرُّ كمِصباحِ الدُّجُنَّةِ يَتَّقِى قَذَى الزَّادِ حتى يُستَفَادَ أطايبُه[(٧)]

(١) أنشده فى المقاييس (برض) واللسان (ثمد) بدون نسبة .

(٢) فيما عدا نسخة الأصل : « وتأدى الحزن » .

(٣) التبريزى : « فى الناس ساعة » .

(٤) هذه من سائر النسخ ، وهى ساقطة من نسخة الأصل .

(٥) البيت للخنساء . ديوانها ص ٥٠ .

(٦) زاد التبريزى : « والمرثى مالك بن حرى أخو نهشل ، ويكنى أبا ماجد ، قتل بصفين مع على ، وكان شجاعا » . وانظر بعض مراثيه فى وقعة صفين ٢٩٩ — ٣٠٢ .

(٧) التبريزى : « حتى تستفاد » .

الدُّجُنَّة : الظُّلمة ؛ وليلةٌ مِدْجَانٌ . والدَّجْن : إلباس الغيم ؛ ويقال : هو يَومُ دَجْنٍ . وأراد بقوله « أغرُّ » إنه كريمٌ نقِيُّ العِرض أبيضُ الطَّلعة ، فكأنَّه فى تلألُؤِه ونُور وجهه وتهلُّله مصباحُ الظَّلام . ومعنى « يتَّقى الزَّادَ » أنه يزهد فى خبائث الزَّاد وما يشين أخْذُه وتَطَعُّمه ، إلى أن يستفيد الطيِّبات منه . ويُشيرُ بقَذَى الزَّاد إلى ما يُفضِى به عليه غَدرٌ أو غُلول ، أو مَخانَةٌ[1] أو ابتذالٌ . ويُشِيرُ بالطيِّبِ إلى ما كان من حِلِّه ووجهه ، لا عارَ فى اكتسابه ، ولا بِذْلةَ فى احتجانه[2] . و بعض الناس[3] روَى : « قَدَى الزَّاد » ، والقدَى : الرائحة الطيِّبة ، يقال قِدْرٌ قَدِيَةٌ ، إذا كانت طيِّبة الرائحة . كأنَّ المراد عنده : لا يتشمَّمُ الزَّادَ ورائحتَه حتى يتيقَّنه طيِّباً . والأوَّلُ الأصحُّ والأجود ، وذاك أنَّه أراد بالقذَى الخبيثَ ، وقد طابَقَ الطيِّبَ به ، كما قال الآخر[4] :

* وما كان زادى بالخبيث كما زَعَمْ[5] *

وذِكْرُ القدَى مستَبعدٌ هاهنا ، ولا فائدة فى إبقائه له ، ويغلِبُ فى ظَنِّى أنَّه تصحيف .

٢ — وهوَّنَ وَجْدِى عن خَلِيلِى أنَّنِى ... إذا شِيتُ لاقَيْتُ امرأً ماتَ صاحِبُهْ

(١) أى ما يكسبه بهذه الطرق الخبيثة . والمخانة : الخيانة . وفى الأصل : « مخافة » ، صوابه فى ل . وهذه العبارة ساقطة من م . وفى ل : « غدرا أو غلولا أو مخانة أو ابتذالا » بالنصب ، وله وجهه .

(٢) كذا على الصواب فى ل ، م والتيمورية . والاحتجان : الجمع والاكتساب . وفى نسخة الأصل : « فى احتجابه » ، وليس بصواب وإن كان موافقا للسجع .

(٣) هو ابن جنى فى التنبيه . وقال : « لام القدا واو ، وهو رائحة الطعام . يدلك على ذلك ما حكاه أبو زيد قداوة الطعام » .

(٤) هو راشد بن شهاب اليشكرى . المفضلية ٨٦ .

(٥) صدره : * ولكن أنباء أتتنى عن امرئ *

٣ — أخٌ ماجِدٌ لم يُخزِنى يَوْمَ مَشْهَدٍ ... كما سَيْفُ عمْرٍو لم تَخُنْهُ مضارِبُهْ

يقول : خَفَّفَ وجدى بخليلى لمّا أُصِبتُ به ائتساُئى بغيرى من النّاس ، لأنى متى شئت لاقيتُ مَن امتُحِن بمثل مِحنتى . ثم قال « أخٌ ماجِدٌ » ، أى خليلى وصاحبى أخٌ ماجد ، لم يُهِنّى يوم حَفلٍ ولم يَخْذُلْنى عند احتشادٍ وجمعٍ ، ولا جَلَبَ علىَّ فى مَشهدٍ من المشاهد ما أستحيِي منه أو أُخْزَى له ، بل كان لى عند ما أدعوه له مُجيباً ، وفى الشَّدائد عَوناً وظَهيرا ، لا يتغيَّبُ عنى ولا يَفترُ معى ، كصَمْصَامَةِ عَمْرٍو[1] ، له نفاذٌ حيث أعمَلَه ، ومضاءٌ عند ما يَهُزُّهُ ، لا يَخُونُ ولا يرتدُّ ، فكذلك كان صاحبى . وارتفَع قوله أخٌ ماجِدٌ على أنه خبَرُ مبتدإ مضمرٍ . وقوله « كما سيفُ عَمْرٍو » لو رويتَ « كما سَيْفِ عَمْرٍو » لجاز ، تَجعَلُ ما صلةً وينجرُّ السّيف بالكاف . ومثله قوله :

كما العَظْمِ الكسيرِ يُهاضُ حَتَّى ... يَبِتَّ وإنّما بدأ انصِداعا[2]

تجُرُّ العظمَ بالكاف ، وإن رفعْتَهُ كان مبتدأً ، وكذلك إذا رفعتَ سَيفُ ، ويكون ما من قوْلِهِ ما الكافَّة ، ويكون مثل ما من قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الّذِينَ كفَرُوا لو كانوا مُسلِمين[3] ﴾ . والضمير من قوله « لم يخُنْه » يرجع إلى عَمْرو ، ويجوز أن يرجع إلى السيف أيضاً .

---

(١) التبريزى : « وكان سيف عمرو لا ينبو ، فاستوهبه عمر بن الخطاب فوهبه له ، فقيل لعمر إنه غيره وإنه ضن بالصمصامة ، فذكر عمر ذاك فغضب عمرو بن معديكرب وقال : إنما أعطيتك السيف لا الساعد ! » . وفى اللسان (صمم) أنه أهداه لسعيد بن العاص .

(٢) البيت للقطامى فى ديوانه ص ٣٧ من قصيدة يمدح بها زفر بن الحارث .

(٣) الآية الثالثة من سورة الحجر . و « ربما » قال أبو حيان : « لم تقع فى القرآن إلا فى هـذه السورة على كثرة وقوعها فى لسان العرب » . وقال : « وقرأ عاصم ونافع : ربما ، بتخفيف الباء ، وباقى السبعة بتشديدها ، وعن أبى عمرو الوجهان . وقرأ طلحة بن مصرف وزيد بن على : ربتما بزيادة تاء » . وقد جاءت « ربما » فى الأصل و ل ، م بتشديد الباء .

٢٨٨

وقال أَسْوَدُ بن زَمَعَة[١] :

١ — أتَبْكِى أنْ يَضِلَّ لها بَعِيرٌ وَيَمْنَعُها من النَّـومِ السهودُ

٢ — فلا تبكِى على بَكْرٍ ولكنْ على بَدْرٍ تقاصَرَتِ الجُـدودُ

٣ — ألا قد سادَ بَعْدَهُمُ رِجالٌ ولولا يَوْمُ بَدْرٍ لم يَسُـودُوا

كان السبب فى قول الأسود هذا الشِّعر أنَّ قريشًا كانت حَرَّمَتِ البُكاء على أنفسهم لقَتْلَى بدر ، لئلَّا يَشمَتَ النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابُه بهم ، وكان الأسود قد فُجِع بابنه زَمَعَةَ ، إذ كان من قَتلَى ذلك اليوم ، فاقتدَى بالنَّاس فى ترك البُكاء عليه ، فاتَّفقَ أنْ كانت له مَشْرَبَةٌ[٢] فتنزَّه ومضى إليها فسمع بكاء امرأةٍ فقال لأصحابه[٣] : انظُروا فإنْ [كانَ[٤]] البكاء قد حُلِّلَ ،

(١) كذا على الصواب فى سائر النسخ . وفى الأصل : « سويد » ، تحريف . التبريزى « وقال الأسود بن زمعة بن المطلب بن نوفل يرثى ابنه زمعة بن الأسود وقتل يوم بدر مع قريش مشركا . وفى نسخة : المطلب بن أسد بن عبد العزى » . على أن الصواب أنه الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وهو الذى قال فيه الرسول صلوات الله عليه : « اللهم أعم بصره وأثكله ولده » . السيرة ٢٧٢ . والصواب فى ابن زمعة : « أبو زمعة » وزمعة ولده .

(٢) المشربة : أرض لينة لا يزال فيها نبت أخضر ريان . وهى بفتح الراء وضمها كما فى القاموس . وقد ضبطت فى ل بضم الراء .

(٣) السيرة ٤٦١ — ٤٦٢ : « إذ سمع نائحة من الليـل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره : انظر هل أحل النحيب ، هل بكت قريش على قتلاها لعلى أبكى على أبى حكيمة — يعنى زمعة — فإن جوفى قد احترق . قال : فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته . فذاك حين يقول الأسود : » وأنشد هذه الحماسية ، وزاد فيها بين الثانى والثالث :

على بدر سراة بنى هصيص ومخزوم رهط أبى الوليـد
وبكى إن بكيت على عقيل وبكى حارثا أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمى جميعاً وما لأبى حكيمة من نديد

(٤) التكملة من ل ، م .

حتَّى نبكيَ نحنُ أيضًا زَمعة، فرُجِعَ إليه وقيل: إنَّه بكاء امرأةٍ ضلَّ لها بعيرٌ. فقال هذا الشِّعرَ مُنْكِرًا لبكائها ومستعظِمًا.

وقوله «أتبْكِي أن يَضِلَّ» لفظُه لفظ الاستفهام، والمعنى معنى الإنكار. وقوله أن يَضِلَّ: أراد مِنْ أن يَضِلَّ، وهم يحذفون حرف الجرِّ مِن أنْ كثيرًا. والسُّهودُ: امتناعُ النَّوم؛ ورجُلٌ مُسَهَّدٌ، إذا كانَ قليل النوم. ولم يَرْضَ بأنْ أنْكَرَ البكاء عليها، وتركَ النَّوْمِ لفقدان بعيرها، حتَّى نهاها فقال:

فلا تبْكِي على بَكْرٍ ولكن على بَدْرٍ تقاصَرَتِ الجُدُودُ

يُرِيدُ أنَّ الذى يجب البكاء له ما جرَى على رؤساء قريشٍ وأرباب الجدودِ فيهم ببدْرٍ، وأنَّ الحَيْفَ العظيم والخُسران المبينَ والغَبْنَ الشَّديدَ فى ذاك، لا فى ضَلَالِ بكْرٍ. وبَدْرٌ: اسم بِئْرٍ اتَّفقت الوقْعةُ عندها. وقولُه «تقاصَرَتِ الجدُود» من فصيح الكلام، وهو تفاعُلٌ من القُصورِ والعجز، لا القِصَر الذى هو ضِدُّ الطُّول، كأنَّها تبارَتْ فى القُصور، يَدُلُّ على ذلك أنه يُقالُ قَصَرْتُ كذا على كذا، إذا حَبستَهُ عليه ومنعتَهُ من الذَّهابِ عنه حتَّى صار كالعاجز عن غيرِهِ. ويقال أيضا قصرتُه على كذا، إذا رَدَدْتَهُ دون ما أراد. ومنه القَصْرُ فى الصَّلاةِ. ويقال تقاصَرَتْ إلى فُلانٍ نَفْسُهُ ذُلًّا. وقصرَ السَّهمُ عن عن الهَدَفِ فهو قاصِرٌ. ولا يمتنع — وإن كان الأوَّل هو الوجْهُ — أن يُجعَل من القِصَر، ويكونَ ضِدَّ تطاوَلَت، ويكون عَلَى موضوعًا موضع الباء، كما يقال: هم على ماء كذا وهم بماء كذا.

وقولُه «ألَا قد سَادَ بَعْدَهُمُ رِجَالٌ» يريدُ أنَّ أهلَ السِّيادة انقرضوا وبادوا فى ذلك اليوم، فعادَتْ إلى مَن لا يستحقُّها ولم يَكُن لها بأهْلٍ (١). ومثل

(١) التبريزى فى تفسير هذا البيت: «يعرض بأبى سفيان بن حرب، لأنه رأس قريشاً لما قتلت أشرافهم».

هذا وإن كان أغْمَض منه قولُ الآخر :

* وَأَلحَقْنا المَوالِيَ بالصَّمِيمِ *

٢٨٩

وقال الأَسَدِىُّ

وخَبَرُه فى مُنادَمَتِهِ معروف(١) :

١ — خَلِيلَيَّ هُبَّا طَالَ مَا قَدْ رَقَدْتُما أَجِدَّكُما لا تَقْضِيانِ كَرَاكُما

قوله « طال ما » يجوز أن يكون ما الكافّة وقد رُكِّبَ مع طال تركيبًا واحِدًا حتَّى صارا مَعًا كالشىء الواحد . ويجوز أن يكون ما منفصلًا من طال ، ويكون مع الفعل الذى بعده فى تقدير المصدر ، كأنه قال : طال رقُودُكُما . فإذا كُتِبَ المُرَكَّبُ مع ما يجب أن يُوصَلَ أحدُهما بالآخر ، وإذا كُتِبَ الثانى يُفصَلُ بين طالَ وبين مَا . و« أجِدَّكُمَا » انتَصَبَ على المصدر ، ذكره سيبويه فى باب ما ينتصب من المصادر توكيدًا لما قبله(٢) . قال : ومثله فى الاستفهام :

---

(١) التبريزى : « وذكروا أن رجلين من بنى أسد خرجا إلى أصبهان ، فآخيا دهقانا بها فى موضع يقال له راوند ، فمات أحدهما وغبر الآخر والدهقان ينادمان قبره ، يشربان كأسين ويصبان على قبره كأسا . فمات الدهقان فكان الأسدى ينادم قبريهما ويترنم بهذا الشعر ، وكان يشرب قدحا ويصب على قبريهما قدحين » . وروى أبو الفرج روايات فى نسبة هذه الأبيات إلى قس بن ساعدة ، أو عيسى بن قدامة الأسدى ، أو الحزين بن الحارث أحد بنى عامر بن صعصعة ، أو أحد الكوفيين الذين وجههم الحجاج إلى الديلم ، وكل هذه الروايات تشترك فى حديث الخمر والمنادمة ، إلا الرواية الأولى التى تمثل قسا وقد ابتنى مسجداً بين قبرأخويه يعبد فيه الله . الأغانى (١٤ : ٤٠ — ٤٢) . ونسب الشعر فى معجم البلدان (روانْد) ومعجم ما استعجم (خزاق) إلى الأسدى ، وحكيا القصة التى رواها التبريزى ثم قال ياقوت : وقال بعضهم : إن هذا الشعر لقس بن ساعدة فى خليلين له كانا وماتا . وقال آخرون : هذا الشعر لنصر بن غالب يرثى به أوس بن خالد وأنس بن خالد . وقد سبق ذكر أوس بن خالد فى الحماسية ٢٧٦ . وانظر الخزانة (١ : ٢٦١ — ٢٦٨) .

(٢) كتاب سيبويه (١ : ١٨٩ — ١٩٠) .

أجِدَّكَ لا تَفْعَل كذا ، كأنّه قال أجِدًّا . غيرَ أنّه لا يُستعمل إلّا مُضافًا ، فهو يجرى في التأكيد مَجْرَى حقًّا . وفى الإضافة : جِهْدَكَ ، ومَعاذَ الله ، والمعنى : أتجعلان فِعْلَكُما جِدًّا . وقوله « لا تقضيان كَرَاكُما » كأنه لما اتّصل رقادُهما ودلَّ على حالَيهما فى امتدادِه قولُه هُبَّا ، وقولُه طالَمَا قد رقدتما ، جَعَلَ النّفىَ بلا ، ليدلَّ على اتّصاله فى الاستقبال ، وأنَّ سؤالَه عمّا يجىء لا عمّا هو فيه . ولو جُعِلَ بَدَلَ « لا » ما ، كان للحال . ومعنى البيت : يا خليلَيَّ انتبِها فقد امتدَّ رقادُكما . وأجِدّان جِدَّ كما فى أنَّ كَرَاكُما بَعدُ لا مُنتهَى له ولا انقضاء ، بل يتّصل ويدوم . وقولُه « طالما قد رقدتما » يُكتفَى به إذا كان المتقدِّم من الكلام يشتمل على ما قد استُطيل . وعلى ذلك عزَّ ما ، وشدَّ ما .

٢ — أَلَمْ تَعلَمَا مَا لِى بِرَاوَنْدَ كُلِّها ... ولا بِخُزَاقٍ مِن صَدِيقٍ سِواكُما[1]

قوله « ألم » هو لم أُدخل عليه ألف الاستفهام ، والاستفهام كالنّفى فى أنه غير موجَب ، ونفىُ النّفى إيجاب ، لذلك قُرِّرَ بألَمْ فيما كان واجبا واقعًا ، لأنّه يتضمَّن من التّحقيق والتّثبيت فى التّقرير ، وتأكيدِ المُقرَّر على المُخاطَب ، مثلَ ما يتضمَّنه القَسَمُ لو أُتِىَ به بدله ؛ لذلك عقّبه بما يُعقَّبُ به القسم ، وهو ما النّافية . وقد تقدّم القولُ[2] فى قول القائل : الله يَعْلَمُ ، ويَعْلَمُ الله ، والله يَشهدُ ؛ أنَّ جميعَ ذلك يُستعمل استعمالَ الأيمان . وكذلك قول القائل :

ولقـــد علِمْتُ لتأتِيَنَّ مَنِيَّةٌ ... ما بَعْدَهَا خَوْفٌ عَلَيَّ ولا عَدَمْ

فقولُه « ولقـد علِمْتُ » جارٍ مجرى اليمين فيما ذكرتُ من التّأكيد ، ولولا

---

(١) فى رواية لأبى الفرج :

ألم تعلما أنى بسمعان مفرد ... ومالى فيه من حبيب سواكما

وأنشده ياقوت فى رسم (سمعان) برواية أبى تمام مع تغيير « رواند » إلى « سمعان » . وذكر أن سمعان جبل فى ديار بنى تميم . ثم ذكر أن « سمعان » اسم رجل نسب إليه عدة أديرة .

(٢) انظر ما سبق فى ص ١٨٨ — ١٨٩ .

ذلك لما عُقِّبَ بما يكونُ جوابَ اليمين . وقولُه « ألم تَعلما » أصله تَعْلَمانِ ، ودخلت ألم للتقرير . وقوله « مالى بِراوَنْد » فى موضع المفعول لتَعْلَمانِ ، لأن تعلم هاهنا فى موضع تعرف ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾ ، وكذلك : لقد عَلِمتُ لَتأتِيَنَّ ، أصله لتأتِين ودخلت علمتُ ليُؤَكِّدَ بها ، لأنّك أخرجْتَ الكلامَ بها من أن يكونَ على سبيلِ التظنّى أو من خبرِ مُخبِرٍ فيكون إحالةً عليه . واللام من « لتأتينَّ » له الصَّدر ، فيمنع علمت من العمل ، وإذا كان كذلك كان موضع لتأتينَّ نَصْباً على أنّه مفعول عَلِمتُ ، وعلِمْتُ بمعنى عرَفْتُ . وقوله « من صَديقٍ » فى موضع الرَّفع على أن يكون اسم ما . وفائدة من الاستغراق ، و «سواكما» فى موضع غير ، وهو صفة لصديق . والكلام هو استبطاء فى استمرارِ رُقادِهما عنه ، وغفلتهما مما هو بسبيله ، وباطنه تَلَهُّف وتوجُّعٌ .

٣ — أُقيمُ عَلَى قَبْرَيكُما لستُ بارِحًا ... طَوالَ اللّيالى أوْ يُجيبَ صَدَاكُما[(١)]

٤ — أُصُبُّ على قبرَيكما مِنْ مُدامَةٍ ... فإن لم تَذُوقاها أُبَلَّ ثَرَاكُما[(٢)]

يقول : أَصِلُ مُقامى على قبريكما باتِّصال اللّيالى ودوامِها ، ولا أبرح إلا أن يجيبَنى صدا كما . وقوله « لست بارِحًا » فى موضع الحال ، كأنّه أراد : أقيمُ مُلازماً أبداً . وطَوالَ انتصب على الظَّرف ، والعامل فيه يجوز أن يكون بارِحًا ، ويجوز أن يكون أُقيمُ . فأمّا قوله « أو يُجيبَ » فأو بدلٌ من إلى ، والفعل بعده انتصب بأنْ مُضمَرة . والعربُ تقول : عظام الموتى تصير أصداء وهاما ، لذلك قال : أو يجيب صدا كما .

---

(١) فى رواية بالأغانى : « مقيم على قبريكما » .
(٢) فى رواية بالأغانى : « فإلا تذوقا أرو منها » .

وقوله « أصُبُّ على قبريكما من مُدامة » مِنْ أفاد التّبعيض ، وموضع من مُدامةٍ نصبٌ على أنّه مفعول أصُبُّ ، والمعنى أُجرِيكما فى المنادَمة والشُّرب مَجرا كُما وأنتما حيّان ، فإذا عادت النّوبة إليكما أصُبُّ مانابكما من المُدامة على قبريكما ، لأنّه إن لم يَبُلّ ريقَكما رطّب قبريكما . وقوله « أبلّ » يجوز أن تبْنِيه على الفتح والضمّ والكسر ، لأنك تدْغم وإن كان مُعرَبا ، فيلتقى بنقل الحركة عن العين إلى الفاء ساكنان ، ثم يُبنى على الكسر لأنّه أصلٌ فى التقاء السّاكنين ، أو على الفتح لخفّته ، أو على الضمّ للإتباع . ولا خِلاف فى إدغام المعْرَب من كلّ العرب ، فأمّا المبنىُّ فبعْضٌ يُظهِر التّضعيفَ فيه فيقول : ارْدُد ، وبعضٌ يقول رُدَّ فيُدغِم وإن كان مبنيًا ، إلّا أنَّ الأصل فى الإدغام للمعرب ، ثم حُمِل المبنىُّ عليه فاعلمْه .

٥ – وأبْكيكُما حَتّى المَماتِ وما الذى يَرُدُّ على ذِى عَوْلَةٍ إنْ بَكاكُما[1]

قوله « وما الذى يردُّ على ذى عَوْلةٍ » يجرى مجرى الالتفات . وقوله « إن بكاكما » إذا فتحت الهمزة يكون موضعُه من الإعراب الرفع على أن يكون فاعل يردّ ، لأنّ أنْ مع الفعل فى تقدير المَصْدر ، وإن روَيْت إن بكسر الهمزة كان شرطا وجوابُه يدلُّ عليه ما تقدّمه ، وفاعل يَرُدُّ ما يدلّ عليه أبكيكما من مصدرِه ، كأنّه قال : وما الذى يردّ البكاء على ذى عَوْلَةٍ إن بكاكُما . على ذلك قولهم : «مَنْ كذَب كان شرًا له ، ومن صَدَق كان خيراً له » يريدون كانَ الكذبُ شرًا له والصّدق خيراً له . والمعنى : أبكيكما ما اتّصلَ عمرى . ثم قال كالملتفت إليهما على طريق اليأس : وما يُغنى البكاء عن المُعْوِل إن بَكاكُما . فقوله « ما » استفهام ومعناه للإنكار . والعويل : صوت الصّدر ، ومنه العَوْلة ، وقد أعْوَلَتِ المرأةُ .

---

(١) فى رواية بالأغانى : « سأبكيكما طول الحياة » .

٢٩٠

وقال عبدُ المَلِكِ بنُ عبدِ الرَّحيم الحارِثى(١) :

١ — إنّى لِأربابِ القُبورِ لَغابِطٌ لسُكْنَى سَعيدٍ بينَ أهلِ المَقابِرِ

٢ — وإنّى لَمَفْجُوعٌ بِهِ إذْ تكاثَرَتْ عُداتى ولم أهْتِفْ سِواهُ بناصِرِ

قولُه « سُكْنى » أن تُسكِنَ إنساناً منزلاً بلا كِراء ، والمنزل سَكَنٌ ومَسْكَن ؛ وهو مصدر كعُذْرى و بُشْرَى . ومعنى البيت : إنّى أغبط الموتى لحصول سعيدٍ فيما بينهم ، فإنّ الجمال الذى كانَ للأحياء بمُقامه فيهم كأنّه انتقلَ إلى الأموات عنهم ؛ وإنّى لمتبيّنٌ تأثيرَ الفجْع به ، وشِدّةَ فاقتى إليه ، إذا تَزاحَمَ الأعداء وتبالَغُوا فى قَصْدِى ، ولا يكون لى من أستَنْصِرُه عليهم غيره . وقوله « سِواه » فى موضع النَّصب على أنّه استثناء مقدَّمٌ . ويقالُ هَتَفَ هَتْفاً وهُتافاً . والهَتْفُ : الصَّوت الشديد ، وقوسٌ هَتَفَى ، والحمامُ تَهتِفُ . وهَتَفَ به وصاح به ، إذا دعاهُ .

٣ — فكنتُ كمَغلوبٍ على نَصْلِ سَيْفِهِ وقد حَزَّ فيــه نَصْلُ حَرّانَ ثائرِ

النَّصل : اسمُ حديدةِ السَّيف ، لذلك صَلَح إضافتُه إلى سيفِهِ وإن كان قد يُستعمل استعمالَ السَّيف . ألا تَرَى أنّه قال : وقد حَزَّ فيه نَصل حَرّان . يقولُ : كان عُدّتى على الدهر وسلاحى على أعدائى ، فلما فَقَدْتُه والأعداء بالمِرصادِ لى ، صِرْتُ كمن غُلِبَ على سَيْفِهِ وسيفُ عَدوِّه قد خَرَجَ عليه كطالبِ ثأرٍ وكبدُه حرَّى ، لشدّةِ عداوَتِه واستحكام غيظه يَعملُ فيه ، ويَنْفُذُ فى الضَّريبة منه ،

(١) التبريزى : « يكنى أبا الوليد ، وهو شامى كلامى شاعر » . وكلمة « كلامى » محرفة ، صوابها « كلاعى » بفتح الكاف . قال السمعانى فى الأنساب (٤٨٢ أ) : « هذه النسبة إلى قبيلة يقال لها كلاع نزلت الشام ، وأكثرهم نزل حمص » .

والمراد : كنتُ كمن غُلِبَ على عُدّته أشدَّ ما كان حاجةً إليها ، وحين تمكَّنَ العدوُّ وهو تامُّ الآلة ، مَكِينُ القُوى فى المنازَلة .

٤ — أتيناهُ زُوّارًا فأمجَدَنا قِرًى ... من البثِّ والداءِ الدَّخيلِ المُخامِرِ

٥ — وأُبْنا بزَرْعٍ قد نَما فى صدورنا ... من الوَجْدِ يُسْقَى بالدُّموعِ البَوادِرِ

يقول : جئناه زائرين فوسَّعَ قِرانا من الحُزْن والداء المتمكِّن من القلب ، المُخامِرِ له . والمُخامِرُ مأخوذٌ من الخَمَر ، وهو ما واراكَ من الشَّجَرِ وغيرِه . وإذا كان كذلك فهو أبلغ من قوله الدَّخيل ، لأنه يُفيدُ فى الموصوف فائدةً أكثرَ من الدُّخول ، إذ كان المرادُ به دبيبَهُ فى أثناء القَلب وأطباقِهِ ، وذَهابَه فى أجزائه وأضعافِهِ ، وليس فى الدَّخيل هذا المعنى . ويقال أمجدْتُ الدَّابّةَ العَلَفَ ، إذا أكثرتَ له .

وقوله « وأُبْنا بزرعٍ قد نما فى صدورنا » نَبَّه بهذا الكلام على أنَّ حُزْنَه يزيد على مَرِّ الأيّام ، فهو كالزَّرع النامى ، وأنَّ سُقياه الدُّموع . ومعنى البوادر المُستبِقَةُ لكثرتها وغَلَبتها . وأصل الزَّرع الإنبات . والزُّرعةُ : البَذْر . لذلك قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ أأنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ . وازدرع ، إذا زَرَع أو أَمَر به لنفسِه خاصّةً . ويقال : زُرِعَ لفلانٍ بعدَ شَقاء ، إذا أصابَ مالاً بعد الحاجة . فإن قيل : كيف قال « أمجدَنا قِرًى » والميّتُ لا يعمل شيئاً ؟ قلتَ : لمّا جعله مَزُورًا أقام له قِرًى لزائره على عادته وهو حيٌّ . وهذا المعنى من كلامه أبينُ وأظهر من كلام عَبْدَةَ بنِ الطَّبيبِ لمّا قال :

* إذا زارَ عن شَحْطٍ بِلادَكَ سَلَّمَا[1] *

(١) من الحماسة ٢٦٣ . وصدره :

* تحية من غادرته غرض الردى *

٦ — ولمّا حضَرْنا لاقتسام تُراثِه أصبْنا عظيماتِ اللُّهَى والمآثرِ

٧ — وأسْمَعَنا بالصَّمْتِ رَجْعَ جَوابِه فأبلغْ به من ناطقٍ لم يُحاورِ

اللُّهَى : أفضلُ العطايا وأجزلُها ، والواحدة لُهْيَةٌ ولُهْوَةٌ ؛ ومنه اللُّهْوَةُ التى تُلقَى فى الرَّحَى . يقول : لمّا اجتمعنا لنقتسم تِركتَه فيما بيننا لم نَجِدْ له إلاّ ما كسبَه عطاياه من المآثر الكريمة . فأضاف عظيمات إلى اللُّهَى والمآثر جميعاً ، وهى جمع مأثُرَة ، وهى ما يُؤْثَر من المحامد والمعالى ويُذْكَر . ويجوز أن يُريدَ بالعظيمات المفاخر التى ادَّخرَها له اللُّهَى ، ويكون اللُّهَى حينئذ الأموال الكثيرة . ويجوز أن يكون المراد بالمآثر الأعلاقَ الثمينة ، والنَّفائسَ الكريمة ، التى فرَّقها فى حياتِه ، وآثر غيرَه بها . وقوله « وأسْمَعَنا بالصَّمْتِ رَجْعَ جَوابِه » أى مَرْجوع جوابه ، كما قال غيرُه[1] : « اسأَلِ الأرض ، أينَ مَن شقَّ أنهارَكِ ، وغَرَسَ أشجارَكِ ، وجَنَى ثِمارَكِ ؛ فإنْ لم تُجِبْكَ حِوارًا أجابتْك اعتبارًا » ؛ وكما قال الآخر[2] :

* وعظَتْكَ أجداثٌ صُمُتْ[3] *

ومثله :

وكانت فى حياتِكَ لِى عِظاتٌ فأنتَ اليومَ أوعظُ منك حيًّا[4]

(١) هو الفضل بن عيسى بن أبان . الحيوان (١ : ٣٥) . وانظر البيان (١ : ٨١) وعيون الأخبار (٢ : ١٨٢) .

(٢) هو أبو العتاهية . ديوانه ٥٢ .

(٣) عجزه : * ونعتك أزمنة خفت *

(٤) البيت من مشهور شعر أبى العتاهية ، فى رثاء صديقه على بن ثابت . انظر البيان (١ : ٤٠٧ — ٤٠٨) والأغانى (٣ : ١٤٢) . وذكر الجاحظ أن أبا العتاهية أخذ هذا المعنى من قول أحد الخطباء حين قام على سرير الإسكندر وهو ميت : « الإسكندر كان أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس » . انظر أيضاً البيان (١ : ٨١) لنسبة هذا القول الأخير .

٢٩١

وقالت امرأةٌ من بني شَيبان (١) :

١ — وقالوا ماجِدًا مِنكُم قَتَلْنا   كذاكَ الرُّمْحُ يَكْلَفُ بالكريمِ

٢ — بِعَيْنِ أُباغَ قاسَمْنا المَنايا   فكانَ قَسِيمُها خَيْرَ القَسِيمِ

انتَصَب « ماجِدًا » على معنى أنه مفعول مُقدَّم ، ومنكم في موضع الصِّفة له . وموضع ماجِدًا منكم قَتَلْنا الجملة موضع المفعول لقوله قالوا . وقوله « كذاكَ الرُّمْحُ » جوابٌ لهذا الابتداء ، كأنَّه قال : فأُجيبوا : الرُّمْحُ يَكْلَفُ بالكريم كذلك ، فأُشير بذاكَ إلى الخبر الذي اقتصُّوه . والكاف من كذاكَ كاف الخطاب لاموضعَ له من الإعراب . وتلخيص الكلام : الرُّمح يَكْلَفُ بالكرام كَلَفًا مثلَ ذلك الكلف . والعامل في كذاكَ يَكْلَفُ . والمعنى : تنادَوا : قَتَلْنا ماجِدًا منكم ؛ فأُجيبوا : الرُّمح يعشَقُ الكرامَ ويُولَعُ بهم مِثلَ ذلك . وأكثر ما يجيء الجواب في إثر السُّؤال من واحدٍ في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ . وقد أَلَمَّ في هذا البيت بقول طرَفة :

أرى المَوتَ يَعْتامُ الكِرامَ ويَصطفِي   عَقِيلَةَ مالِ الفاحِشِ المُتشدِّدِ

وقولُه « بعَيْنِ أُباغَ قاسَمْنا المَنايا » مثلُه قول الآخر :

* وقاسَمَنِي دَهْرِي بَنِيَّ بشَطرِهِ *

---

(١) التبريزى عن أبي محمد الأعرابي : « هذا الشعر لبنت فروة بن مسعود ، ترثى فروة وقيسا ابني مسعود بن عامر بن عمر بن أبي ربيعة ، وقتلا مع المنذر ذي القرنين يوم عين أباغ يوم قتل المنذر ، وكان الذي قتل المنذر شمر بن عمرو الحنفي وكان مع الحارث بن أبي شمر الغساني . وهو المنذر بن امرئ القيس ، وأمه ماء السماء النمرية » . وقال ياقوت في (أباغ) : « وقالت ابنة فروة بن مسعود ترثي أباها ، وكان قد قتل بعين أباغ : واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام وكانت منازل إياد بن نزار . وكان عندها في الجاهلية يوم بين ملوك الشام الغساسنة ، وملوك الحيرة اللخميين ، وفيها قتل المنذر اللخمي » .

كأنَّه كانَ للمَنَايا نصيبٌ فيهم فقاسَمَتهم على نصيبها فوقَعَ إليها خَيرُ النَّصيبَين . والمعنى : اختارَتْ منهم الأمثلَ فالأمثل ، وغادَرَتِ الفَلَّ منهمْ والمُسترذَل . وقوله قَسِيمُ يكون فى معنى مقسوم ، وقد يكون القسيمُ المُقاسِم ، وليس هذا موضِعَه . ولك أن تَرْوِى « قاسَمْنَا المَنَايَا » بسكون الميم ، ويكون المنايا فى موضع المفعول ، ولك أن تفتح الميم وتجعل المنايا فاعلةً ؛ والمعنى فيهما مُتقارِبٌ . وكانت الوقعةُ بعين أُباغ ، فلذلك خَصَّه بالذِّكر ، وقاسَمَ يقتضى مفعولاً آخر ، كأنَّه قال : قاسَمْنَا المنايا النَّاسَ أو الأصحاب . وقولُه « قَسيمُها » . كقولك نصيبُها . وخَيْرُ القَسِيمِ كقولك خَيرَ الأنصِباء . وأنشد ابنُ الأعرابىِّ فى هذه الطَّرِيقة :

إذا ما المَنَايا قاسَمَتْ بابنِ مِسحَلٍ — أخا واحِدٍ لم يَرْضَ نِصفًا قَسِيمُها
فآبَ بلا قَسْمٍ وآبَتْ بقَسْــمِها — إلى قَسْمِهِ لاقَتْ قَسِيما يَضِيمُها

كأنَّه كانَ للمنايا نصيبٌ فى أخيه ، فقاسَمَتْهُ وأخذت نصيبه إلى نصيبها ، وآبَ هو بلا نصيب . ثم دعَا على المنيَّةِ[1] فقال : قَيَّضَ الله لهَا قَسِيمًا يظلمها كما ظلمَتْنى .

٢٩٢

وقال عُتَىُّ بنُ مَالكٍ[2] :

١ — أعدَّاءِ مَن للْيَعْمَلاتِ على الوَجَى — وأَضـيافِ لَيلٍ بَيَّتُوا لِنزُولِ
٢ — أعدَّاءِ ماللعَيْشِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ — ولا لخَليــــلٍ بَهْجَةٌ بِخَلِيلِ

(١) فى الأصل : « الموت » ، والصواب من سائر النسخ .
(٢) التبريزى : « عتى بن مالك العقيلى » ، ولم أعثر له على ترجمة .

٣ — أَعدَّاءِ ماوَجْدِى عليكَ بِهَيِّنٍ ولا الصَّبْرُ إن أعْطِيتُه بجميلِ

ناداه مُسائِلًا له على طريق التوجُّع[(١)] : مَنْ خَلَّفْتَ بعدكَ للوُرَّاد ، وعلى مَن اعتمدتَ فى تفقُّد الأضياف . واليَعْمَلات : النُّوقُ السِّراعُ . والوَجَى هو الحَفَى . وقال الخليل : اليَعْملة لا يُوصفُ بها إلا النُّوق . وقال أبو سعيدٍ : يقالُ للجَمَل يَعْمَلٌ ، اسمٌ له من العَمَل ، كما يقال يَعْمَلَةٌ ، وأنشد :

إذْ لا أزالُ على أقتادِ ناجيةٍ صَهْباءَ يَعْمَلَةٍ أو يَعْمَلٍ جَمَلِ

أراد أو جملٍ يَعمَل . وموضع « على الوَجَى » نَصْبٌ على الحال ، كأنَّ فِناءَه وداره كان مألَفًا للعُفاةِ ومَجمَعًا للأضياف ، فإذا أرادوا مَن يؤويهم لم يُؤْثِروا تطلُّبًا على قصده ، ولم يَجِدُوا تَطلُّقًا وتوفُّرًا إلَّا مِن عندِه ، فقال على طريق التحسُّر : مَنْ يُؤْوِى الأضيافَ وقد بَهرهم السَّعىُ وأتعبهم الطَّلَب غيرُك ، ومن يُنزِل السَّفْر وقد أكَلَّهُم التَّعَبُ وأملَّهم الدَّأْبُ حتَّى حَفِيت رواحلُهم ، وحتَّى بَيَّتُوا النزولَ ، ميلًا إلى نَيلِ راحتهم . ويقال بَيَّتَ الأمرَ ، إذا دبَّره بالليلِ . وكلُّ رأىٍ أَجْلَتَه بليلٍ فهو مُبيَّت . وماءٌ بَيُّوتٌ ، إذا باتَ ليلةً فى الإناء . وبَيَّتُّ القومَ ، إذا أوقعتَ بهم ليلًا . ويقالُ للهَمِّ : هو بَيُّوتٌ ، وللصَّقيع بَيُّوت .

وقوله « أعدَّاءِ ما للعَيْشِ بَعْدَكَ لَذَّةٌ » يصفُه فيه بأنَّه كان ببليغ لُطفِه وجميل خُلُقه ، وسهولة جانبه ورَحابة جَنابِه ، يَطِيبُ العيشُ معه على ما يعترِضُ فيه من مساءةٍ أو مَسرَّةٍ ، إذْ كان يَتَحمَّل الأعباء عمَّن يجاوِره[(٢)] ، ويُخَفِّفُ ظهرَ مَن ينصَبُّ إليه ، أو يَتسبَّب بقرابةٍ لديه ، أو يتوكَّلُ لمُخالَّةٍ عليه ، فكانَ لذيذُ الحياة يوجَدُ عنده ، وصَفِىُّ البقاء يَحصُلُ معه . وقوله « ولا لخليلٍ بهجةٌ بخليل » يعنى أنَّ النَّاسَ وقد رأَوا مآلَ أمرِكَ إلى الفناء ، وانقطاعَ السُّرور عنهم

---

(١) فى الأصل : « على ظهر التوجع » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٢) فى الأصل : « يتحاوره » ، صوابه فى سائر النسخ .

بعد النماء ، صار لا يبتهج بعضهم ببعضٍ ، فلا يسكُن الصَّديقُ إلى صديقه ، ولا القريبُ مع قريبِه ، لغَلَبة اليأسِ من الخير ، وارتفاع الطَّمع من الفَرَج .

وقوله « أعدّاه ما وَجدِى عليكَ بِهيّنٍ » كرَّر مُناداتَهُ دِلالةً منه على لُزوم التَّوجُّع ، وتنبيهًا على حُصُولِ العَناء والاشتكاء بعد التَّودُّع . ثم قال : ليس جزَعى عليكَ بخفيف ، ولا وَجدى عليك بطفيف ، ولا صَبْرِى لوحَصَلَ بجميل ، لأنَّ الصَّبرَ على فقدِكَ منكَر ، وهَوْنَ الوَجد وخفَّته مُستفظَع ، فليس لنا إلَّا الاستمرار فيما نحن بسبيله من اللَّهفِ والحسرة ، والاستسلام للشَّقاء والهلَكة .

٢٩٣

وقال أيضاً :

١ — كأنِّىَ والعَدَّاءَ لم نَسْرِ ليلةً ولم نُزْجِ أنضاءً لهنَّ ذَميلُ
٢ — ولم نُلْقِ رَحْلَينا بِبيداءَ بَلْقَعٍ ولم نَرمِ جَوْزَ اللَّيلِ حيثُ يَميلُ

أدخل الألف واللام فى هذه المقطوعة على العَدّاء لأنه صِفةٌ فى الأصل ، فهو كالحسَنِ والعبّاس وما أشبههما ، فإذا أتيتَ به ولا ألفَ ولامَ فيه فلأنَّك جعلتَهُ عَلمًا ، فصار معرفةً بالعَلَمِيّة ، وإذا أدخلتَ الألف واللام عليه فإنَّك راعيتَ حالَه وهو صفةٌ ثم جعلتَها نفسَ المُسمَّى وأدخلت الألف واللام عليه . فعَلَى الأوّل لا يُفِيدُ الاسمِ [فى[1]] المُسمَّى شيئًا أكثرَ من تمييزه عن غيره ، وعلى الثانى أفاد معنى الوصفيّة فيه مع التمييز ، فصار كالصفات الغالبة الجارية مَجرى الألقاب فى التخصيص .

وقوله « كأنِّىَ والعَدّاءَ لم نَسرِ ليلةً » يريد أنَّ الشىء إذا انقطعَ فكأنه لم

(١) هذه من ل ، م والتيمورية .

يكن . والمعنى أنّي وقد فقدته فكأنّي وإيّاه لم نصطحب في قَطْع مسافة ، ولم نشترِكْ في سَوقِ أنضاء من الإبلِ لتحمُّل كُلْفةٍ ، أو صبرٍ على مشقّةٍ . ونبّه بهذا الكلام على تبذُّله — كان — فيما يَكسِبه الأُحدوثةَ الجميلة ، وإن تكلَّف فيه الأثقالَ العظيمة . والذَّميل : إسراع السَّير . والأنضاء : جمع النِّضْو . وقال الدُّرَيديّ : يقالُ : ذَمَلَت الناقةُ ذَميلاً وذَمَلاناً ، وهو ضَربٌ من السَّير أعلى من العَنَقِ ، وناقةٌ ذَمولٌ . والإزْجاء : السَّوْق .

وقوله « ولم نُلقِ رحْلَيْنا » لو قال رحالنا لكونهما اثنين من اثنين ، لجرى مثل قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما ﴾ كان أدخلَ في الاستعمال ، لكنّه أتى به على الأصل . والبَيْداء : المَفازةُ . والبَلْقَع : القَفْر الخالى . والمعنى على ما تقدم في البيت الذى قبلَهُ ، من الصبر على الشدائد .

وقوله « ولم نَرْمِ جَوْز الليل حيثُ يَميلُ » أراد حيث يميلُ الليلُ . وحيث هذا ظرفُ زمانٍ . يريد فكأنّا لم نَرْمِ بأنفسنا جوْزَ اللّيل وقتَ ميلِه . يشيرُ إلى جنُوحِه وإشرافِه على تَهوُّرِه ، لأنّ ميلَه على ذلك يكون . ومما جاء فيه وهو للزّمان دون المكان عند أبى الحسن الأخفش قوله :

للفَتَى عَقْلٌ يَعيشُ به حيثُ تَهدِى ساقَهُ قَدَمُهْ[1]

لأنّ المعنى : للفتى عقلٌ يعيش به مُدَّةَ سعيِه وحياتِه ، ونُهوضِه بساقِه في أمرِه . ويجوز أن يكون حيثُ ظرفاً لمكانٍ ، ويكون المعنى : إنّا نعتسف الطريقَ فحيثُ مالَ الليلُ مِلنا معه . ويجوز أن يكون فاعل يميل مادلَّ عليه « ولم نَرمِ » من المصدرِ ، ويكون المعنى حيثُ يميلُ الرَّمْىُ ويذهَبُ فيه .

(١) لطرفة في ديوانه ١٩ .

٢٩٤

وقال أبو الحَجْناء(١) :

١ – أضْحَتْ جِيادُ ابنِ قَعْقاعٍ مُقَسَّمَةً ... في الأقْرَبِينَ بلا مَنٍّ ولا ثَمَنِ
٢ – وَرَّثْتَهُمْ فَتَسَلَّوا عنكَ إذ وَرِثُوا ... وما وَرِثْتُكَ غَيْرَ الهَمِّ والحَزَنِ(٢)

القَعْقاع والقَعْقعانيُّ : الذى إذا مَشَى سُمِع لمفاصله تَقَعْقُع . وأراد بالأقربين وُرَّاثَه ، وبالجِياد خيلَه . فيقول : أضحتْ خيلُه مُفرَّقةً فى وُرَّاثِه ، وهم لا يعتَدُّون له بها ولا يبتاعونها ، فتكونَ له المِنَّةُ أو الثَّمن . ثم قال : ورَّثْتَهم فتسُوك اشتغالاً بالإرث ، وتسلِّياً عنك بالمال ، وأنا باقٍ على ما كنتُ عليه من التَّحزُّنِ والاهتمام لا إرثَ لى غيرُهما . وهذا كلامُ متأسِّفٍ ومستنكرٍ من أقاربه ما يَرَاهم عليه من نِسيانه والسُّرور بما فازوا به من ماله . والسُّلوُّ : طِيب النَّفس عن الشىء . وفى تَسَلَّى من التَّكلُّف ما ليس فى سَلاَهُ .

٢٩٥

وقال آخر :

١ – لَنِعْمَ الفَتَى أضْحَى بأكنافِ حائلٍ ... غَداةَ الوَغَى أكْلَ الرُّدَيْنِيَّةِ السُّمْرِ
٢ – لَعَمرِى لقَدْ أُرْدِيتَ غَيْرَ مُزَلَّجٍ ... ولا مُغْلِقٍ بابَ السَّماحَةِ بالعُذْرِ
٣ – سأبكيكَ لا مُسْتَبْقِياً فيضَ عَبْرَةٍ ... ولا طالباً بالصَّبْرِ عاقبةَ الصَّبْرِ

---

(١) هو أبو الحجناء نصيب الأصغر ، مولى المهدى ، أقطعه المهدى ضيعة بالسواد ، وعمر بعده ، ومدح الرشيد والفضل بن يحيى . وكان شبية بن الوليد العبسى وأخوه ثمامة يبرانه ، وكانا من وجوه قواد المهدى ، فلما مات شبية دخل نصيب على ثمامة وهو يفرق خيل شبية على الناس ، فأمر له بفرس ، فأبى أن يقبله وبكى ثم قال :

يا شبية الخير إما كنت لى شجناً ... آليت بعدك لا أبكى على شجن

ثم البيتين اللذين أنشدهما أبو تمام هنا ، فجعل ثمامة ومن هو عنده حاضر من أهله وإخوانه يبكون . الأغانى (٢٠ : ٢٨) .

(٢) الأغانى : « فتعزوا عنك » .

المحمود محذوفٌ ، كأنّه قال : نِعمَ الفتى فتًى أضحى . وانتصبَ « أَكْلَ » على أنّه خبر أضحى ، وبأكنافِ حائلٍ ظرفُ مكانٍ . وغداةَ الوَغى ظرف زمانٍ ، وتعلّقا جميعاً بأضحى . ويجوز أن يُجعَلَ بأكناف حائلٍ الخبر ، وينتصب أكلَ على الحال . ولا يمتنع أن ينتصب غداةَ بما دلَّ عليه بأكنافِ حائلٍ من الفعل المضمرِ . ويجوز أن يكون العامِلُ فيه أكلَ ، لأنّه ليس بمصدر فلا يعمل ما فى صلته فيما قبله . والأكل : الطُّعْمُ ، وإضافته إلى الرُّدينيّة لم تفِدْ فيه اختصاصًا . ألا ترى أنّ فائدتَه وهو مضافٌ مثلُ فائدته لو نُوِّنَ فقيل أكْلًا للرُّدينيّة . ومثلُه قَيْدُ الأوابِدِ وما أشبهه . ومعنى البيت : محمودٌ فى الفِتيان فتًى حصَل بجانب هذا الوادى غداةَ الحربِ طُعْماً للرُّدينيّة السُّمر . وأصل الوَغى الجلَبةُ والصَّوت . واللام مِنْ « لنِعْمَ » جوابُ قَسمٍ مضمر .

وقولُه « لعمرى لقد أُرْدِيتَ غيرَ مُزَلَّجٍ » أقبل عليه يخاطِبُه بعدَ أن كان يخبرُ عنه ، على عادتهم فى افتنانهم فى الكلام ، وكأنَّ الخطاب أدلُّ على التحسُّر والتَّوجُّع من الإخبار ، ولذلك عَدَلَ إليه . واللام فى لَعَمْرِى لام الابتداء . وخبر المبتدأ محذوف ، كأنّه قال : لعمرى قَسَمِى . واللام من لَقَدْ جوابُ اليمين ، والمعنى : وبقائى لقد أُهلِكتَ غيرَ ضعيفٍ ولا جبانٍ وقتَ المُدافعةِ والممانعة فتُضَيِّعَ محفوظاً ، ولا متشدِّداً على تزاحُمِ المجتَدين والسُّؤَّالِ ، بإقامة المعاذير والعِلّات ، فتُغلِقَ للسماحة باباً مفتوحا .

وقوله « سأبكيك لا مستبقيًا فَيضَ عَبرةٍ » يريدُ أنَّ بُكاءهُ يتّصلُ إلى أن يستنفد موادَّ دمعِه ، وأنه لا يَطلُبُ بتكلف الصَّبر ما يتعقبه من التَّسلّى . فقوله « بالصبر » أراد بتكلُّفِ الصَّبر ، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامَه ، وذاك أنَّ الإنسانَ إذا تَصبَّرَ فيما يدهَمه مُدّةً ، وتماسك به بُرهةً ، أدّاه مرورُ الأوقات إلى أن يَتسلّى ؛ فعاقِبةُ الصَّبر هو التَّسلّى ، فإذا تسلّى عادَ طمَعُه فيما يُرجَى ،

وحَذَرُهُ مِمّا يُخْشَى ، إلى ما كان أو أشدّ ، وذلك حالُ مَن لا هَمَّ له .

٢٩٦

وقال خَلَفُ بن خَلِيفَةَ[1] :

١ — أُعاتِبُ نَفْسِى أَنْ تَبَسَّمْتُ خالِيًا وقد يَضْحَكُ المَوْتُورُ وهو حَزِينُ

انتصب خالِيًا على الحال من أُعاتِبُ . وأَنْ تبسَّمْتُ بفتح الهمزة معناه لأَنْ تبسمتُ ، ومن أجل تبسُّمِى . ولك أن تكسر الهمزة من إنْ فيكون شرطاً ، ويكونُ جوابهُ ما دلَّ عليه أُعاتِبُ نفسى . والمعنى : إذا خَلَوْتُ بنفسى أبْسُطُ العَتْبَ عليها لما يتفقُ منها فى المَلأ من مُتابَعةِ النَّاسِ على تصرُّفهم فى المُؤانَسة والمضاحكة ، وطَلَبِ موافقتِهم عند المفاكهة والمحادثة . هذا وليس ذاك لداعيةِ سُرورٍ ، ولا لباعثةِ ابتهاجٍ وحُبورٍ . ثم قال «وقد يَضحكُ الموتورُ وهو حَزِينُ» يريد أنَّ الموتور وإنْ تناهَى حزنُه ، واشتدَّ قَلَقُه وبَثُّه ، فقد يضحك قطْعًا لشماتِه شامتٍ ، وتَجلُّدًا مع عَدُوٍّ مكافِحٍ ، أو جريًا على عادةٍ ، أو استمرارًا فى إقامة موافقةٍ ، ولا يُعَدُّ ذلك منه إخلالًا بواجب الهلَع ، ولا إغفالًا للوازمِ الجزَع ، والضَّحكُ أبلغُ من التبسُّم ، فكذلك أنا وإن تَبسَّمْتُ لضَرْبٍ من تلك الضُّروبِ ، فطَلَبُ الوِتْرِ والقيام بسُنَّةِ الحزنِ نَصْبُ عَيْنِى ، وأهمُّ الأُمورِ إلىَّ .

٢ — وبالدَّيْرِ أَشْجانِى وكَمْ من شَجٍ لَهُ دُوَيْنَ المُصَلَّى بالبَقِيعِ شُجُونُ

٣ — رُبًى حَوْلَها أمثالُها إنْ أتَيْتَها قَرَيْنَكَ أَشْجانًا وهُنَّ سُكُونُ

٤ — كذا الهَجْرِ أنا لم يَصِحْ لكَ أَمْرُنا ولَمْ يأتِنا عَمّا لَدَيْكَ يَقِينُ

(١) كان يقال له «الأقطع» ، لأنه قطعت يده فى سرقة فاستعاض عنها بأصابع من جلود ، وكان من معاصرى جرير والفرزدق . وفيه يقول الفرزدق :

هو اللص وابن اللص لا لص مثله لنقبِ جدار أو لطر الدراهم

وقد عده الجاحظ من شعراء المولدين المطبوعين . البيان (١ : ٥٠) والشعر والشعراء ٦٩٢ — ٦٩٥ .

الأشجان : جمع الشَّجَن ، وهو الحزن ، فى أدنى العدد ، والشُّجون جمعه الكثير . وقوله « رُبى حولها أمثالها » موضعه رفع على أنّه بدل من قوله شُجون . ويعنى بها القبور المسنَّمة . وحولها أمثالها صفة للرُّبى . وما أشار إليه من المماثلة يعنى فى الصُّورة والفَناء جميعا . وقد ألمَّ فى هذا بقول الآخر(١) :

فقلت له إنَّ الشَّجَا يبعث الشَّجَا فَدَعْنِى فهــذا كُلُّهُ قَبرُ مالكِ

وإنّما يريد أنَّ قبور أحبّته بالدَّير وقبور أحبّة مَن يأتسى بهم من المفجوعين ببَقيع الفرقَد ، لأنَّ أولئك ماتوا حَتْفَ أنفِهم وفى أماكنهم ، فدفنوا فى مقابرهم ، وأصحابُ الشَّاعر قُتِلوا وتغرَّبوا فدُفِنوا ثَمَّ . والكلامُ توجُّعٌ وتلهُّف . وقوله « دُوَيْنَ المصلَّى » تحديدٌ للمقبُرة ، وتقريبٌ لها من المصلَّى ، لذلك قال دُوَيْنَ فصغَّر دُونَ . وعلى ذلك تصغيرهم لقُبَيْلٍ وبُعَيدٍ وفُوَيق . وقوله « إن أتيتها قرينَك أشجانا » مثل قول الآخر(٢) :

أتيناهُ زُوّارًا فأمجَــدَنا قِرًى من البثِّ والدَّاء الدَّخيلِ المخامِرِ

وأضاف إليه معنى البيت الآخر بقوله « وهنّ سكون » وهو « وأسمعنا بالصَّمتِ رجع جوابه(٣) » . وقوله « كذا الهجر » يجوز أن يُشير بذا إلى ماقدَّمه ، ويجوز أن يكون وضع حرفَ الإشارة والمشارُ إليه يجىء من بعدُ على طريق التَّفسير له ، والتَّرجمة عنه . والمراد : مابيننا من استعجام الأخبار ، وذَهاب الالتقاء والاجتماع ، على اتِّصال التَّزاور إذا فُعِلَ ، أشبَهُ شىء بالهِجران ؛ وذلك مالم يدخل بيننا فى شىء من الأوقات والأحوال . وهذا تحسُّرٌ آخر جديد ، وتلهُّف شديد .

(١) هو متمم بن نويرة . الحماسة ٢٦٥ ص ٧٩٧ .
(٢) هو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى . الحماسة ٢٩٠ ص ٨٨١ .
(٣) صدر البيت ٧ من الحماسة ٢٩٠ . وعجزه :
* فأبلغ به من ناطق لم يحاور *

٢٩٧

وقال عبدُ الله بن ثَعْلَبَةَ الحَنَفِيُّ[١] :

١ — لِكُلِّ أُناسٍ مَقْبَرٌ بِفِنائِهِم ... فَهُمْ يَنْقُصُونَ والقُبُورُ تَزِيدُ

٢ — وما إنْ يزالُ رَسْمُ دارٍ قَدَ اُخْلَقَتْ ... وَبَيْتٌ لِمَيْتٍ بالفِناءِ جَدِيدُ[٢]

٣ — هُمُ جِيرَةُ الأحياءِ أمَّا جِوارُهُم ... فَدانٍ وأمَّا المُلْتَقَى فَبَعِيدُ[٣]

يقول على وجه التحزُّن والتفجُّع والتوجُّع : تساوت أحوالُ النّاس فى مقاساة البلاء ، ومعاناة الشَّقاء ، لا تفاضل فيما بينهم ولا تمايُز ، يَرَون مصارعَهم بأفنيتهم ، وجنودَ الموت والفناء متسلِّطةً على طوائفهم ، تَختَرِمُ الواحدَ بعد الواحد منهم بلا حياء ولا رِقبةٍ ، ولا استبقاء ولا رِعَة ، وقد رَضُوا بحكمِه وأخذِه ، واختياره وقَسْره ، فعَسْفُه عندهم رِفق ، وبطشُه رحمةٌ وعدل ، يَرَون فِرَقَ أحيائهم[٤] على مُرور الأيّام إلى تراجُعٍ وتناقُص ، ومصيرَ مَصانِعِهم ومساكِنِهم قريبًا إلى البِلى والتعطُّل ، ويجدُون عددَ الأموات إلى تزايُدٍ وتكاثُر ، ومقابرَهم إلى عِمارةٍ وتوافُر . هذا وقد التزموا ما يَجرِي عليهم التزامًا ، لا سُخطَ فيهم ولا إنكار ، ولا كراهةَ ولا مَلال ؛ فلا المجاورةُ بين الفريقين تنقطع ، ولا المهاجرة ترتفع ، ولا الأحوالُ تتبدَّل ، ولا العادةُ فى جميعها تتغيَّر ؛

(١) ذكره ابن الجوزى فى صفة الصفوة (٣ : ٢٩٠) فى الطبقة السادسة من أهل البصرة ، وكان معاصراً لسفيان بن عيينة . وروى له ابن قتيبة فى عيون الأخبار (٢ : ٣٩٥) وكذا ابن الجوزى قوله : « تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار !! » . وروى له ابن الجوزى هذه الأبيات فى صفوة الصفوة .

(٢) صفة الصفوة : « دار حى قد اخربت » .

(٣) صفة الصفوة : « هم جيرة الأموات » .

(٤) هذا ما فى ل ، م . وفى الأصل « أحبابهم » . وفى التيمورية : « أحبائهم » .

فى كل قبيلةٍ حدوثُ مصيبةٍ ، ونزولُ بلية ؛ وفى كل مَجْمَعةٍ تأثيرُ فجيعةٍ ، ونكايةُ منيّة . فبماذا نستمسك ونعتصم من الفناء ، وعلى ماذا نعوّل ونعتمد فى الرّخاء ، وكيف رضِينا بتدانٍ يُبْطله فناء ، وتجاوُرِ بُنِيَ على تدابُر ، وأنَّى يستقيم البناء والتَّشيد ، لمن مَلَكَهُ النّفادُ والتَّشتيت ، ومتى يحصل السُّلُوّ لمن هو مُرتهَن بتجديد الفقود .

٢٩٨

وقال آخر :

١ — لا يُبْعِدِ اللهُ إخواناً لنا ذهبُوا أفناهُمُ حَدَثانُ الدهرِ والأبدُ

٢ — نُمِدُّهُمْ كلَّ يومٍ من بقيّتِنا ولا يؤوبُ إلينا منهم أحدُ

معنى لا يُبعِدِ اللهُ لا يهلك الله . يقال بَعِدَ الرّجلُ إذا هلك . فإن قيل : كيف قال لا يُبْعِدِ اللهُ وقد عقَّبه بقوله أفناهُم حَدَثان الدهر والأبد ، وهل الهلاك إلّا الفناء ؟ قلتَ : هذه اللفظةُ جرت العادةُ فى استعمالها عند المصائب ، وليس فيه طلبٌ ولا سؤال ، وإنّما هو تنبيهٌ على شدّة الحاجة إلى المفقود ، وتناهِي الجزَعِ فى الفَجْع به . ألا تَرَى أنّ الآخر[1] قال :

يقولُونَ لا تبعَدْ وهم يَدْفِنونَنِي وأين مكانُ البُعدِ إلّا مكانيا

وأشار بقوله « حَدَثان الدّهرِ » إلى النّوائب والنّكبات ، وبقوله الأبدُ إلى نَفْس الدّهر ؛ لأنّ مَن سلِم من الآفات أدّاهُ مرورُ الأيّام واللّيالى إلى الفناء والهرَم . أمَا سمِعتَ قولَ القائل :

وَدَعَوْتُ رَبّى بالسَّلامةِ جاهِدًا لِيُصحّنِى فإذا السّلامةُ داء[2]

(١) هو مالك بن الريب . جمهرة أشعار العرب ١٤٤ والخزانة (١ : ٣١٩) .

(٢) نسبه المبرد فى الكامل ١٢٥ لبعض شعراء الجاهلية . وقبله كما فى الكامل وشروح سقط الزند ٣٠٨ :

كانت قناتى لا تلين لغامزٍ فألانها الإصباح والإمساء

والأموات على اختلافهم لا يخرجون من هذين الحكمين . وقوله « نُمِدُّهمْ كلَّ يومٍ من بقيَّتنا » مثل قوله :

* فهم يَنقصون والقبور تزيدُ[(١)] *

إلا أنَّه زاد على ما قاله ، حين قال : « ولا يؤوب إلينا منهمُ أحد » . ويجوز أن يُريد بقوله « مِن بقيَّتنا » من خيارنا . يقال : فلانٌ من بقية قومه ، أى من خيارهم . ويكون مثلَ قوله :

* أرَى الدَّهرَ يَعتامُ الكرامَ ويَصطفِى[(٢)] *

٢٩٩

وقال المَعطَمَّشُ الضَّبِّىّ[(٣)] :

١ — إلى اللهِ أشكُو لا إلى النَّاسِ أنَّنِى أرَى الأرضَ تبقَى والأخلّاء تذهبُ

٢ — أخِلَّاءِ لو غَيرُ الحِمامِ أصابَكُمْ عَتَبْتُ ولكنْ ما على المَوْتِ مَعْتَبُ[(٤)]

صَرَفَ شكواهُ عن النَّاس إلى الله عزَّ وجلَّ ، يأسًا مِن معُونتهم ، وإشكاءه يَخْصُل مِن جهتهم ، ولأنَّ الله تعالى هو الذى أجرى المقاديرَ بما يَتألَّمُ منه ، مِن بقاء الأرض وفَناء الأصدقاء . ثم قال « أخِلاءِ لو غَيرُ الحِمام أصابكم » ، كأنَّه أقبلَ على الذَّاهبين معتذِرًا إليهم من استسلامه للحكم الجارى عليهم ،

(١) عجز البيت الأول من الحماسية السابقة .

(٢) لطرفة بن العبد فى معلقته . وعجزه :

* عقيلة مال الفاحش المتشدد *

(٣) ابن جنى فى المبهج : « الغطمشة : أخذ الشىء قهراً . قالوا : ومنه اشتق الغطمش فى اسم رجل ، فهو على هذا اسم مرتجل . وقالوا : الغطمش : الرجل الكليل البصر ، فهو على هذا منقول من الصفة » .

(٤) كذا فى سائر النسخ والتبريزى ، وهو ما يناسب التفسير التالى . ورسم فى الأصل: « أخلاى » .

ومن عَجْزِ قُواه عن نُصرتهم فيما أصابهم فقال : لو كان القاصدُ لـكم غيرَ الموت لتسخَّطتُ الحالَ ولم يكن منّى بها رِضًا ، ولـكنْ ما على الموت طريقٌ للعَتْب ، ولا فيـه لى رَجاءٌ لإعتابِ ، ورُجُوعٌ باعتذار . وقوله « أخِلَّاء » يُروَى « أخِلَّاىَ » على قصر الممدود . والأجود أن يُترك مَدَّته على حالها[1] ، وتُحذف الياء من آخره فى النِّداء ، لأنَّ الـكسرةَ تدلُّ عليه . وقد ألمَّ بقولِه :

أَمِنَ المَنُونِ ورَيبِهـــا تتوَجَّعُ والدَّهْرُ ليس بِمُعْتِبٍ من يَجْزَعُ[2]

٣٠٠

وقال أَرْطَاةُ بنُ سُهَيَّةَ[3] :

١ــهَلْ أنتَ ابْنَ لَيْلَى إن نَظَرْتُكَ رائحٌ مَعَ الرَّكْبِ أو غادٍ غداةَ غدٍ مَعِى

٢ــوقَفْتُ على قَبْرِ ابنِ لَيْلَى فلَمْ يَكنْ وُقوفِى عليه غَيْرَ مَبْكًى ومَجْزَعِ

٣ــعَنِ الدَّهْرِ فاصْفَحْ إنّه غيرُ مُعْتِبٍ وفى غيرِ مَن قد وَارَتِ الأرضُ فَاطمَعِ

خاطَبَ المرثِيَّ متلهِّفًا على مفارقته ، ومتحسِّرًا فى إثْرِ الفائتِ منه ، فقال : هل تَرُوحُ مع رُكبان الإبلِ إن انتظرناك ، وهل تغدو غداةَ غدٍ معى إن أقمتُ لك . وهذا تحزُّنٌ وإظهارُ يأسٍ ، و بيانُ انقطاع ما بينهما من التألُّف والاجتماع ، والتَّعاون والاصطحاب . ومن روى « غداتَئذٍ » فالمُرادُ غداةَ إذِ الأمرُ كذا ،

---

(١) هذا ما فى التيمورية . وفى الأصل : «على حالته» وفى سائر النسخ : «على حاله» .

(٢) لأبى ذؤيب الهذلى فى ديوان الهذليين (١ : ١) ، وهو مطلع المفضلية ١٢٦ .

(٣) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٥ ص ٣٩٧ . وروى التبريزى من سبب الشعر أنه كان مات له ابن ، فأقام على قبره حولا يأتيه كل غداة فيقول : يا عمر ، إن أقمت إلى المساء فهل أنت رائح معى ؟! ويأتيه عند المساء فيقول مثل ذلك ثم ينصرف . فلما كان رأس الحول تمثل بقول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

فحذف الجملة التى أضيف إذْ إليها لينشرح بها ، لكون المراد مفهوما ، ثمّ أتى بالتنوين عِوَضًا من الجملة المحذوفة ليستقلّ إذْ به .

وقولُه :

وقفت على قبر ابن ليلى فلم يكن وقوفى عليه غيرَ مَبْكًى ومجزَع

مثل ما تقدَّم من قول الآخَر(١) :

رُبًى حَوْلَهَا أمثالُها إنْ أتيتها قَرَيْنَكَ أشْجَانًا .... (٢)

وقول الآخر(٣) :

أتيناه زُوَّارًا فأمجَدَنا قِرًى من البثِّ والدَّاء الدَّخيلِ المُخامِرِ

وقوله « عن الدهر فاصْفَحْ » رَجَع إلى نفسه وأقبل يُشيرُ عليها بالرِّضا بالمقدور ، وترك التكلُّف للعَتْب على الدَّهر فى ارتجاع الموهوب ، إذ كان ذاك لا يؤدِّى إلى زَجْرٍ وارعواء ، ولا إلى تَلافٍ(٤) من جهته أو إعتابٍ . وقوله « وفى غير من قد وارت الأرضُ فاطمع » تصويرٌ لليأس من المدفون ، وأنه لا طَمَعَ فى إيابه إذ لم يكن حالُه كغيبة الغائبين .

وكلُّ ما فيه من غريب وتصريف قد مرّ القولُ فيه .

٣٠١

وقال آخرُ فى أخٍ له مات بعد أخ :

١ – كأنِّى وصَيْفِيًّا خَليلِىَ لم نَقُلْ لِمُوقِدِ نارٍ آخِرَ الليلِ أَوْقِدِ(٥)

٢ – فلو أنَّها إحْدَى يَدَىَّ رُزِيتُها ولكنْ يَدِى بانَتْ على إثْرِها يَدِى

(١) هو خلف بن خليفة ، فى الحماسية ٢٩٦ .

(٢) تمامه : « وهن سكون » .

(٣) هو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثى . فى الحماسية ٢٩٠ .

(٤) التلافى : التدارك . وفى نسخة الأصل : « ائتلاف » .

(٥) هنا تنتهى نسخة دار الكتب المصرية التى رمزنا إليها بالرمز « م » .

٣ — فأقسمتُ لا آسَى على إثْرِ هالِكٍ قَدِى الآنَ من وَجْدٍ على هالِكٍ قَدِى

يقول : لمّا انقطع ما بينى و بين أخى صُيَيْقٍ بالموت صِرتُ كأنْ لم يجمعْنى وإيّاه أُخُوَّةٌ ووِصال ، ولا وِلادة ولِبَان ، فلم نترافَدْ على ابتناء مَكْرُمةٍ ، وإيقاد نارٍ لطارقِ ليلٍ ، وطالبِ قِرًى وضِيافة ، ولم نتعاونْ على إقامةِ مروءةٍ وإسداء عارفة . ثم قال « فلو أنَّها إحدى يدىَّ رُزِيتُها » . وموضع إحدى مبتدأ ورُزِيتها فى موضع الخبر . والشّاعر إنّما يريد بيانَ توالِى المصائب عندَه وعليه ، وتفاقُمِ الخَطْب لديه فقال : لو أُصِبْتُ بإحدى يدىَّ لكان فى الباقية بعضُ الاجتزاء والاستغناء ، ولكنْ تَبِعَتِ الأولى الثانيةُ ، فأدّى فَقْدُهما إلى انقطاع الحياة ، وافتقادِ العُدّة فى الآلات . وحذف جَواب لَوْ لأنّ المراد مفهوم ، فهو كما تقول : لو رأيتَنى وأنت شابٌّ ، ولو رأيتَ زيدًا وفى يده السَّيف ؛ لأنَّ المعنى لرأيتَ الأمرَ بخلافه . والضمير فى قوله « فلو أنها » يجوز أن يكون للقصّة ، ويجوز أن يكون للمصيبة ، كأنّه قال : فلو أنَّ القصّة والشّان إحدى يدىَّ رُزِيتُها .

وقوله « فأقسمتُ لا آسَى على إثْرِ هالك » معناه حَلَفتُ لا أحزَنُ لنعْمةٍ فى هالك بعد هذا تتجدَّد ، لأنَّ حَذَرى كان عليهما ، وخَوْفى كان مِن فقدهما ، كما كان رجائى فيهما ، وطمعى مُعلَّقًا بحياتهما .

وقوله « قَدِى الآن » معناه حَسْبى . وقد تُزادُ النون عليه ليَسْلَم السكون فى داله ، إذ كان مبنيًّا عليه ، فيقال قَدْنى ، وإن جعلتَ قد غير مضاف فى الموضعين جاز . ويجوز تحريك الدال فى الأول لالتقاء الساكنين ، وفى الثانى لأنَّ كلَّ ساكنٍ وَقَعَ رَوِيًّا يجوز إطلاقُه بالكسر . قال حُجَّة فى زيادة النون وحذفه :

* قَدْنِىَ من نصر الخُبَيْبَيْنِ قَدِى (١) *

(١) الرجز لحميد الأرقط . الخزانة (١ : ٤٥٣) .

فأَتَى بالوجهين جميعاً . وقوله « الآن » موضـعه نصب على الظرف ، ولا يجىء إلاَّ بالألف واللام ومبنيًّا معه . « ومن وَجدٍ » موضـعه رفع على أنه خبر المبتدأ الذى هو قدِى . وكرَّر قدى على طريق التأكيد ، والثانى مبتدأ مثل الأول وخبره مضمر وهو مثل ما ظهَرَ وصار خبرَ الأوّل . ومعنى الآنَ أنه اسمٌ للزّمان الحاضر . وقال بعضهم : هو الزّمان الذى هو آخر ما مضى وأوّل ما يأتى من الأزمنة ، وإنما بُنِيَ لأنها وقعت فى أوّل أحوالها بالألف واللام . وحُكم الأسماء أن تكون شائعةً منكورةً فى الجنس ثم يدخُل عليها ما يعرّفها من إضافةٍ وألفٍ ولامٍ ، فخالف الآنَ سائرَ أخواتها بوقوعه معرفةً فى أوّل الأحوال ، ثم لزم مع ذلك موضِعًا واحداً ، لأنَّ لزومَها فى هذه الحالة لموضِعِه قد ألحقه بشبه الحروف ، إذ كان حُكم الحروف لزومَها لمواضعها فى أوّليّتها لا يزولُ عنها ، فبُنِيَ لذلك ، واختيرت الفتحة لخفّتها .

٣٠٢

وقال آخر :

١— هَوَى أبنِي مِنْ عَلَى شَرَفٍ يَهُولُ عُقَابَهُ صَعَـدُهْ

٢— هَوَى مِنْ رَأْسِ مَرْقَبَةٍ فَزَلَّتْ رِجْـلُهُ وَيَدُهْ

يقول : سقط أبنِي من أعلى جبلٍ يَهُولُ الارتقاءُ إليه والصُّعودُ فيه عِقبانَه ، لسُموقه وارتفاعه . أى إذا همّت العُقاب بالطَّيَران إلى قُلَّته تداخلَها منه هَوْلٌ وهَيبةٌ . وهذا تهويل وتفظيع للشأن . وأعادَ قولَه « هوَى » تحسُّرًا وتوجُّعًا . والمرقبةُ هو المَحْرَسَة . والعُلَى هو الأعلى . ويقال صَعِدَ يَصْعَدُ صُعودًا وصَعَدًا وصُعُدًا[١] .

(١) ل : « وصعداء » ولم تعرف المعاجم إلا الصعود ، والصعد بضمتين ، ذكرت الأخيرة فى اللسان .

وهَوَى مصدره الهَوِىُّ والهُوِىُّ بالفتح والضم ، وقد تقدَّمَ القول فيه [١] . والأُهوِيَّة : البئرُ ، وما بين أعلى الجبل إلى مستقرِّ بطن الوادى . وقيل الهاوية : كلُّ مَهْواةٍ لا يُدرَكُ قَعرُها . وقوله « يَهولُ عُقابَهُ صَعَدُه » فى موضع الصِّفة للشَّرَف . ومعنى زَلَّتْ رجله ، أى انخلعت وبانت منه .

٣ — فلا أُمٌّ فتبـكيه ولا أُخْتٌ فتفتقِـدُهْ

لم يجعل فتبكيه ولا فتفتقده جواباً للنَّفى ، لأنَّ الجواب يكون منصوباً ، لـكنَّه عطَفَ على ما قبله ، وهو عَطفُ جملةٍ على جملة . ومثله فى القرآن : ﴿ ولا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ ، لأنَّ المعنى لا يُؤذن لهم ولا يعتذرون . وكذلك هذا ، معناه لا أمَّ له فلا تبكيه ، إلاَّ أنَّ الجملة المعطوفة مما فى القرآن موافِقةٌ للجملة المعطوفِ عليها ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ منهما متركِّبةٌ من فعل وفاعل ، والتى عُطِفَ عليها هى من ابتداء وخبَر . والجُمل الخبَرِيَّة إذا اختلفت مثلَ هذا الاختلاف يَسُوغ عطف بعضها على بعضٍ ، ألا تَرَى أنَّ الله تعالى يقول : ﴿ سَوَاءٌ عليكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صامِتُونَ ﴾ ، فعطف أنتم صامتون وهو ابتداءٌ وخبَرٌ ، على ما قبله وهو فعل وفاعل ، لأنَّ المعنى لا يختلِف ، بل يصير كأنَّه قال : أدعوتموهم أم صَمَتُّم . وقد جاء على العكس من هذا ، لأن الشاعر يقول :

* أمُوفٍ بأدْراعِ ابنِ طَيْبَةَ أم تُذَمّْ [٢] *

فعطف تُذَمُّ ، وهو من فعل وفاعل بأمْ على مُوف وهو ابتداءٌ وخبر ، لأنَّ المعنى أأنت مُوف محمودٌ أم غادرٌ مذموم . والكلام فى لا أُخْتٌ فتفتقده على

(١) انظر ما سبق فى الحماسية ١٢ ص ٩١ .

(٢) فى الأصل : « بأدراع ام » ، تحريف ، صوابه فى سائر النسخ . وفى ل : « ظبية » صوابه فى نسخة الأصل والتيمورية والمفضليات (٢ : ١٠٩) ، وهذا عجز بيت لراشد بن شهاب اليشكرى . وصدره :

* أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد *

ذلك ، كأنه قال لا أُختٌ له فلا تفتقدُه . وقال الخليـــل : تفقَّدت أمر كذا : تعهّدته ، وافتقدته : لم أره هلا كاً وغيبةً .

٤ — هَوَى عن صَخْرَةٍ صَلْدٍ ففُتَّتْ تحتَها كَبِدُهْ(١)

٥ — أُلامُ على تبكِّيه وأَلْمُسُهُ فلا أَجِدُهْ

٦ — وكيفَ يُلامُ مَحْزونٌ كبـــيرٌ فاتَهُ وَلَدُهْ

أعاد قوله « هَوَى » استفظاعًا وتحسُّرًا . وعدَّى هَوَى هاهنا بعَنْ لأنه أجراه مجرى زلَّ وما أشبهه . والصَّلْدُ : ما لا يُنبت شيئاً من الحجارة ومن الأرَضين . ومنه أصْلَدَ الزَّنْدُ ، إذا لم يخرُج منه النارُ ولم يكن وريًّا . ومعنى قوله « فُتَّت تحتها كبِدُه » تقطّعت كبده لمّا حصَل على الأرض . ويُشير بالصخرة إلى المَرقَبة .

وقوله :

أُلام على تبكِّيه وأَلْمُسُهُ فلا أَجِدُهْ

معناه أنّ الناس يستسرفون اتصالَ بكائى عليه ، ودوامَ التحسُّرِ فى إثره ، والحاجةُ إليه تدعونى إلى طَلَبه فلا أظفَر به ، فعند كل طَلَبٍ يحصُل يأسٌ ، ويتعقّب ذلك اليأسَ منِّى بكاءٌ وتحزّن . وقولُه « أَلْمُسُهُ » بمعنى ألتمسه . واللَّمْس والمَسّ يتقاربان فى معنى الطَّلب والالتماس . ألا ترَى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنا السَّماءَ فوَجَدْناها مُلِئَت حَرَسًا شَديدًا وشُهُبًا ﴾ ، وأنَّ مُسترِقةَ السَّمع لم يلمُسوا السماء ولا طلبوا ذلك منها ، و إنما تراقَوْا للسَّمع ليسترِقوا السَّمع

---

(١) التبريزى : « نفرت تحتها » . والتفريت . التفتيت . قال التبريزى : « وقال أبو العلاء : إذا روى نفرت تحتها كبده ، فهو من قولهم أفرزته أى أزعجته ... كأنه يريد أن كبده زالت من موضعها . وبعض الناس ينشد : ففتت . ومنهم من يقول : نفرت ، يريد فريت من تفرى الأديم ، ويحمله على لغة طيِّئ ، يقولون : المرأة دعت ، أى دعيت » .

لا غير. وإذا كان كذلك فمعنى لمَسَ التمس وطَلَبَ. وكذلك قولُ الشاعر[1]:

مَسِسْنا من الآباء شيئاً وكُلُّنا إلى حَسَبٍ فى قومه غيرِ واضعِ

معنى مَسِسْنا منه طلبنا وفتَّشنا ونظرنا، وليس هو من اللَّمسِّ باليد فى شىء. ويَدُلُّ على أن معنى قوله ألْمَسُه أطلبه أنه عقَّبه بقوله فلا أجده؛ وهذا ظاهر.

وقوله:

وكيف يُلام محزون كبيرٌ فاتَهُ ولدُهْ

يريد: كيف يُلام على البكاء والتوجُّع محزونٌ قد مَسَّهُ الكِبَرُ، ومَن كان أعدَّه لحياته ومماته، واعتدَّه للنيابة عنه فى عِياله ومعاشِه، قد فاتَه حتَّى لا طمع فى إيابٍ له، ولا فى مَعُونَةٍ من جهتِه وإن استغاثَ به.

٣٠٣

وقال آخر:

١ — إذا ما دعوتُ الصبرَ بعدَكَ والبُكا أجابَ البُكا طوْعاً ولم يُجبِ الصبْرُ

٢ — فإنْ ينقطِعْ منك الرَّجاءُ فإنه سيَبْقَى عليكَ الحزْنُ ما بقِىَ الدهرُ

يقول: إذا ميَّلتُ الرأىَ بين حَمْلِ النَّفسِ على الاستمرار فى الجزَع، والذَّهاب فى الهَلَع، وبين ضبطه وإمساكه والأخْذ بالصَّبر فيه، ثمَّ استدعَيتُ الصَّبرَ من جانب والبكاءَ من جانب، وجدتُ البكاءَ يستجيب سريعاً من غير تباطؤٍ واستكراه، ووجدت الصَّبرَ يخذُل ويتأخَّر، فلا يكون منه دنوٌّ ولا مساعَدة. وهذا الكلام تلهُّفٌ وتوجُّع. ثم أقبَلَ على المرثىِّ فقال: إن كان الأملُ فيك منقطعاً، والرَّجاء من إيابك متأخِّراً مستبعَداً، فإنَّ الحزنَ يبقى

(١) هو يزيد بن الحكم. الحماسية ٥٨ ص ٢٣٢.

عليكَ ويتَّصل باتِّصال الأبد ، لا يَفْتُر ولا يتغيَّرُ . وقولُه « طَوْعًا » مصدرٌ في موضع الحال ، أراد : أجابَ طائعاً غير مُجْبَر .

٣٠٤

وقال النَّابغة يرثي أخًا له من أمِّه [١] :

١ — لا يَهْنِئِ النَّاسَ ما يَرْعَوْنَ من كَلَإٍ ... وما يَسُوقُونَ من أَهْلٍ ومِنْ مَالِ

٢ — بعدَ ابْنِ عاتِكَةَ الثَّاوِي عَلَى أَبَوَى ... أَمْسَى بِبَلْدَةِ لا عَمٍّ ولا خالِ [٢]

دعاهُ الضَّجَرُ بموت من أُصِيبَ به إلى أنْ دَعَا على النَّاسَ كافَّةً بأن لا يهنئَهم اللهُ ما يرعَونهُ من حِمًى ، وما يَحُوزونه من مالٍ ولُهًى ، ويسوقون من أهلٍ وولَدٍ ، ويجمعونَهُ من عَتادٍ وذخيرة . وهذا يدلُّ على شماتةٍ من قومٍ حصلتْ عليه حين فُجِعَ بأخيه ، فيجوز أن يكون النَّاسُ وإن كان لفظُه عامًّا يختصُّ [٣] بمن مُنِيَ بعداوته ، وابتُلِيَ بشَماتَتِه . فقد قيل في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴾ : إنَّه كان رجلا واحداً . ولا يمتنع أن يكون اعتقَد في النَّاس كافةً أنَّهم نظَروا بعينِ الحاسدِينَ إليه أيَّامَ حياته ، لحُسْن توفُّره ، وكمالِ بَراعته . وهذا شأنُ مَن أُعجِبَ بشيء أوتِيَه ، فلمَّا فقَده ظنَّهم شمِتوا به ، وأدركوا مُراداً لهم في فقدِه ، لا اختصاصَ فيه ولا تبايُنَ ، فعمَّهم بالدُّعاء عليهم .

(١) ل : « ورثى أخا له من أمه » . التبريزى : « يرثى أخاه من أمه . وأمه عاتكة بنت أنيس الأشجعى » . والأبيات ليست فى ديوانه المطبوع فى خمسة دواوين ، بل فى طبع بيروت ١٣٤٧ ص ٩١ . وأنشدها ثعلب فى المجالس ١٣٨ وياقوت فى معجم البلدان (أبوى) . واسم أخيه هذا « صحار » كما فى ديوان النابغة .

(٢) روى التبريزى : « على أمر » . وقال : « ويروى الثاوى على أبوى ، وهو موضع فيه قبره . وذو أمر : موضع بعينه » قال ياقوت : « أمر : موضع بالشام » . وقال فى أبوى أيضا : « اسم موضع أو جبل بالشام » . ورواية ياقوت وثعلب : « أضحى ببلدة » .

(٣) هذا ما فى ل والتيمورية . وفى الأصل : « عاما تعريضا » .

وقوله « بعد ابن عاتكةَ » نسبه إلى أمّه تنبيهاً على أنّ الجامعَ بينهما كانت الأمومة. وقوله « الثاوى على أبوَى » يَدُلُّ على أنّ قبرَه كان به. وقوله « ببلدة لا عمٍّ ولا خال » نبّه به على تباينِه عن بلاده وأقاربه، وأنّه مات فى غُربة.

٣ — سَهْلُ الخليقـةِ مَشّاءٌ بأَقْدُحِه ... إلى ذَوَاتِ الذُّرَى حَمّالُ أثقالِ

٤ — حَسْبُ الخليلَيْنِ نَأْىُ الأرضِ بينهما ... هذا عليها وهـذا تحتَهَا بالِ (١)

وصَفَهُ بأنه كان سهلَ الجانب حسنَ الخُلق، جميـلَ التعطُّف أوانَ القحطِ والجـدْبِ على الفُقراء والمساكين، ضَروباً بقِداحِه على الإبل السِّمان ذواتِ الأسنِمَة الـكبيرة، إذا حضر الأيسار، لشدّة الزّمان؛ وأنّه كان يَدخُل تحت الأعباء الثقيلة فيحملُها على جاهِه ومالِه لذويه، والعُفاةِ الراجين له.

وقولُه « حَسْبُ الخليلين نأىُ الأرضِ بينهما »، يعنى بالخليلين نفسه والمفقودَ، فيقول: حَسْبُنا من البُعد وإن كان التّدانِى بالجوار حاصلا أنّ صاحبى تحتَ التُّراب يَبْلَى، وأنّى على ظهرها أمشى وأحيا. وقوله « هـذا عليها وهذا تحتها » أشار إلى كلٍّ واحدٍ منهما بمـا يُشارُ به إلى الحاضر، تنبيهاً على التّجاورِ والتّدانى فى الدّيار، وأنّ البُعدَ إنّما كان فى تَعذُّر الوِصال، وسقوط التّزاوُر والالتقاء.

٣٠٥

وقال مُوَيْلِكٌ المزمومُ يرثى امرأته:

١ — أَمْرُرْ على الجَدَثِ الذى حَلّتْ به ... أُمُّ العَـلاء فَحَيِّها لو تَسمعُ

٢ — أَنَّى حَلَلْتِ وكُنْتِ جِدَّ فَرُوقَةٍ ... بَلَدًا يَمُرُّ به الشُّجاعُ فيَفزَعُ

(١) ثعلب فى المجالس: « أخذ الناس كلهم هذا المعنى من النابغة. يعنى حسب الخليلين ».

٣ — صَلَّى عَلَيْكِ اللهُ مِن مفقودةٍ   إذ لا يلائمُكِ المكانُ البَلْقَعُ

يخاطِبُ نفسه ويبعثُها على زيارة المفقودة والتسليمِ عليها ، قضاءً لحقِّها ، وتجديداً للعهد بها ، فقال : أمْرُرْ على القبر الذى دُفنت فيه ، وسَلِّمْ عليها إن كانت تَسْمَعُ . وهذا توجُّع وتلهُّف . ويُروى « فحيِّها هل تَسْمَعُ » ، والفرق بين لو هنا وبين هل ، أنَّ « لو » فائدته الشَّرط هاهنا ، والكلام به كلام مَن غلَبَ القنوطُ عليه من إدرا كها تحيَّة مَن زارها ؛ و « هل » من حيث كان للاستفهام يصير الكلامُ به كأنَّه كلامُ راجٍ أو طامعٍ فى سَماعها . ويكون المعنى : حيِّها وانظر هلْ تسمع .

وقوله « أنَّى حَلَلْتِ » معنى أنَّى كيف ومِن أين . وفَروقٌ بناء المبالَغة ، وازدادَ تناهيًا بدخول هاء المبالغةِ عليه . فيقول مخاطبًا لها : كيف تأتَّى منك الاستيطانُ والنُّزول فى قفرٍ إذا مرَّ به الرجلُ القويُّ القلبِ تَداخَلَهُ رُعْبٌ ، واستولى عليه قلقٌ وذُعر ، وعهدى بكِ وكنتِ أضعفَ الناس قلباً وأشدَّهم مِن ذِكرِ المحاذر استيحاشاً . وقوله « كنتِ جِدَّ فروقةٍ » ، كقولك كنتِ فروقةً جدًّا لا هزلاً ، وحقًّا لا باطلا . والبَلَد : القطعة من الأرض اختُطَّ أو لم يُختَطّ .

وقوله « صلى عليك اللهُ » فالصلاة من الله تعالى الرَّحمة ، كأنَّه يئس منها فأقبلَ يترحَّم عليها ، فيقول : إنَّكِ فى شَبابِكِ وقربِ ميلادك ، وكَمالِكِ فى خصال أمثالِك ، لم يَلِقْ بك فقدان ، ولا كان لوقت مجىء الموتِ بطلبك مِنِّى انتظار ، ثم كنتِ من التُّرْفَةِ والنَّعمة ، ومساعدة القدَر لك ، بحيثُ لا يوافقُك الانتقالُ إلى القَفْر ، والتوحُّش عن الأهل .

وهذه الأبيات غايةٌ فيما يُحدِّث به المفجوع نفسه .

٤ — فلقدْ تَرَكْتِ صَغِيرَةً مَرْحومةً   لمْ تَدْرِ ما جَزَعٌ عَلَيْكِ فتَجْزَعُ

٥ — فَقَدَتْ شَمائلَ مِنْ لِزامِكَ حُلوَةً ... فتَبيتُ تُسْهِرُ أهلَها وتُفجِّعُ[(١)]

٦ — فإذا سَمِعتُ أَنينَها فى لَيْلِها ... طَفِقَتْ عليكِ شُؤُونُ عَيْنِيَ تَدْمَعُ[(٢)]

قوله « لم تدرِ ما جَزَعٌ عليك فتجزع » لم يحمل « فتجزعُ » جوابًا ولا عطفاً على ما قبله ، وليس اللفظ على واحدٍ منهما ولا المعنى ، و إنما قوله « فتجزعُ » منوِيٌّ به الاستئناف ، كأنَّه أراد أنها مِن صِغَرِها لا تعرف المُصِيبةَ ولا الجزَعَ لها ، وهى على حالها لا تجزع ، لأنَّ ما تأتيه من الضَّجَر والبُكاء ، وتتركه من النَّوم والقَرار ، فِعلُ الجازعين ، وغايةُ الفاقدين . وفى كتاب الله عزّ وجلّ قوله : ﴿ إن تُبْدُوا ما فى أنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاء[(٣)] ﴾ ، لك أن ترفع فيغفرُ على نيّة الابتداء ، كأنَّه قال : فهو يغفرُ لمن يشاء . ومثلُ هذا كثيرٌ فى القرآنِ والشِّعر . على ذلك قولُه :

فما هو إلاَّ أن أراها فُجاءةً ... فأُبهتُ حتى ما أكادُ أجيبُ[(٤)]

يُرفع « أُبهتُ » على الابتداء والاستئناف .

وقوله « فقدتْ شمائلَ » ، يريد الأخلاقَ والشِّكْلَ[(٥)] وجميلَ المخالَطة .

وقال الخليلُ : الشِّمالُ : خَليقة الرجُل وطبيعته ، وجمعه شمائل . وأنشد :

همُ قومى وقد أنكرتُ منهمْ ... شمائلَ بُدِّلوها من شِمالى[(٦)]

(١) ل والتيمورية : « تسهد أهلها » ، بالدال .

(٢) التبريزى : « وإذا سمعت » .

(٣) قراءة الرفع هذه هى قراءة ابن عامر وعاصم ويزيد ويعقوب وسهل ، وقرأ باقى السبعة بالجزم عطفاً على الجواب ، وقرأ ابن عباس والأعرج وأبو حيوة بالنصب على إضمار أن ، فينسبك منها مع بعدها مصدر مرفوع معطوف على مصدر متوهم من يحاسبكم ، تقديره يكن محاسبة فمغفرة وتعذيب . وقراءة رابعة ، قرأ الجعفى وخلاد وطلحة بن مصرف « يغفر » بالجزم ولا فاء قبله ، وروى أنها كذلك فى مصحف عبد الله . تفسير أبى حيان (١ : ٣٦٠ — ٣٦١) .

(٤) البيت لعروة بن حزام العذرى ، ويروى أيضاً لكثير عزة . الخزانة (٣ : ٦١٨) وحماسة ابن الشجرى ١٥٣ .

(٥) الشكل ، بالكسر : الدل .

(٦) البيت للبيد فى ديوانه ١٢٨ واللسان (شمل) .

فيقول : كانت اعتادتْ منكِ توفُّرًا ومداراةً وحُسنَ خُلق ، ولينَ عِطفٍ وكرمَ مخالَطَة ، وإيناسًا فى مجاملة ، فلما انقطع عنها جميعُ ذلك بالفراقِ باتت لا تنام ولا تُنيم ، بل تَفجّعُ وتَوجّعُ ، ومهما أدركْتُ شكواها وبكاءها أقبلَتْ مفاصلُ رأسى تَسمح بالدّمع فأبكِى عليكِ ولَهًا . ومعنى « طفِقَت عليك شُؤونُ عينى » كقولك : أقبلَت تفعل كذا ، وجعلَت تقولُ كذا .

٣٠٦

وقال حَفْصُ بن الأحنفِ الكنانى[١] :

١ — لا يَبْعَدَنَّ ربيعةُ بن مُكَدَّمٍ ... وَسَقَى الغَوادِى قَبْرَهُ بذَنوبِ[٢]

٢ — نَفَرَتْ قَلُوصِى مِن حجارةِ حَرَّةٍ ... بُنِيَتْ عَلَى طَلْقِ اليَدَيْنِ وَهُوبِ

قوله « لا يبعَدنّ » لفظهُ لفظُ الدُّعاء ، والكلام فيه على ما تقدّم . وكما قيل : بُعْدًا له وسُحقًا لم يُقَلْ مِن بَعِدَ بَعَدًا إذا هَلَكَ بَعدًا له ، وكان استعمالُ هذا فى الدُّعاء أقربَ فلم يجئْ . ومعنى « وسَقَى الغوادِى قبرَه بذَنوبِ » أنه دعا

(١) التيمورية : « بن الأخيف » . قال التبريزى : « ويروى لحسان » . وقال أيضاً : « ويروى : الأخيف ، وهو الصحيح ... وقال أبو العلاء : حفص مأخوذ من قولهم لزبيل من جلود : الحفص ، وقد قيل إن ولد الأسد يسمى حفصا . وحفص بن الأخيف يختلف فى لفظه ، فيقال الأحنف ، من حنف الرجل ، وهو أن تقبل إحدى الرجلين على الأخرى ، وقيل الحنف أن يمشى الإنسان على ظاهر قدميه . . . . ويروى : الأخنف ، بالخاء والنون ، وهو أن يكون أحد جانبى الجسم مخالفاً للآخر . ومن روى الأجنف فهو من الجنف ، أى الميل والظلم » .

(٢) كان من خبر هذا الشعر أن نبيشة بن حبيب خرج فى فرسان من بنى سليم ، فلقوا ربيعة بن مكدم ، فظل يقاتلهم حتى حمل عليه نبيشة فطعنه ، فاستمر يقاتلهم وهو مطعون قد عصب طعنته ، فلما وجد الموت اتكأ على رمحه ، وأقبل السلميون وهم يحجمون عنه يخالونه حيا وهو قد فارق الحياة ، فرمى أحدهم فرسه فندر عنها ميتاً ، ودفن على رأس ثنية غزال فكان لا يمر به أحد من العرب إلا عقر عليه دابة أو بعيرا ، حتى مر به كرز بن خالد وهو شيخ كبير ، فقال : لا أعقر ناقتى ولكن أرثيه مكان ذلك ، ويقال بل عمرو بن شقيق الفهرى ، ويقال حفص بن الأحنف العامرى .

له بالسُّقيا . والغوادى هى السَّحابات التى تنشأ غُدوةً . والذَّنوب : الدّلو بما فيه من الماء ، قال :

* له ذَنوبٌ ولنا ذنوبُ(١) *

وربّما جُعِلَ الذَّنوب الحظَّ والنصيب ، كما قال :

* وحُقَّ لشأسٍ مِنْ نَداكَ ذَنُوبُ(٢) *

وفى القرآن : ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ ﴾ . وفى البيت الذى نحن فيه يحتمل الوجهين .

وقوله « نفَرَتْ قَلوصِى مِن حجارةِ حَرَّةٍ » فإنّه كان اجتاز بقبرِ ربيعةَ وقد نُضِدَ عليه حجارةٌ سُود ، فنفَرتْ قَلوصُه ، فأخذَ يقتصُّ ما كان اتّفق ويُنكِره . وقوله « بُنيتْ على طَلْقِ اليدَين » من صفة الحجارة . ومعنى طلق اليدين أنّه سَخىٌّ بَذَّالٌ يُطلِق يدَيه بالمعروف . والوَهُوب : الكثير الهبات .

٣ — لا تنفِرى يا ناقَ مِنْهُ فإنَّهُ شَرَّابُ خَمْرٍ مِسْعَرٌ لحُرُوبِ(٣)

٤ — لولا السِّفارُ وبُعْدُ خَرْقٍ مَهْمَهٍ لتَرَكْتُها تَحْبُو على العُرْقُوبِ(٤)

جَعل نِفارَ ناقته كأنّه كان من المدفون ، فنهاها عن ذلك ، ثم أخَذَ يصفُه بالكرم والشَّجاعة ، والتقدُّم فى الشُّربِ والبَطَالةِ . والمِسعر : الذى كأنّه آلةٌ فى إيقاد نار الحرب .

وقوله « لولا السِّفار » كانت(٥) العادة فى العرب أنّ الواحد منهم إذا اجتازَ

(١) فى اللسان (ذنب) :

لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب

(٢) لعلقمة بن عبدة فى المفضليات (٢ : ١٩٦) . وصدره :

* وفى كل حى قد خبطت بنعمة *

(٣) التبريزى : « شريب خمر » ، وفى الأصل كتب تحت « شراب » : « شريب » إشارة إلى أنها رواية أخرى .

(٤) فى الأصل : « لتركتها تكبو » ، صوابه فى ل والتيمورية والتبريزى .

(٥) بعده سقط فى التيمورية ينتهى قبيل الحماسية ٣٢٣ ، وسننبه على نهايته بعد .

بقبرِ كريمٍ كان مأوًى للأضياف ، ومقيمًا لقِراهم ، ينحَر راحلتَه ويُطعِمها النّاسَ إذا أعوزَ الزّادُ ولم يتّسع ، يفعل ذلك نيابةً عنه ، إلّا أن يمنَع مانعٌ من بُعْد السّفر وتناهى المشقّة وما يجرى مجراه ، فقال هذا الشّاعرُ معتذرًا من إبقائه على راحلتِه ، لمّا خفّ الزّادُ الذى كان معه ، وعَجز عن الصَّحْب على بُعد المسافة وطُول المشقّة ومِساس الحاجة . ومعنى « لتركتُها تحبو على العُرقوب » أى لعرْقَبْتُها . والحَبْو : ما يفعله الصبىُّ من الزّحف قبل القيام ، ويفعله البعيرُ وهو يريد المَشْى ومنه الحابى من السّهام ، وهو الذى يسقُط ثم يَزْحَف إلى الهَدَف . ويقال : حبا للخمسينَ ، أى لم يبلغْها وقد دنا منها ؛ وهو من فصيح الكلام . والخَرْق : المكان الواسع تتخرّق فيه الرّيح . والمَهْمَهُ : الأملَسُ الواسعُ .

٣٠٧

وقال آخر :

١ — أجارِىَ ما أزدادُ إلّا صبابةً   عَلَيْكَ ولا تزدادُ إلّا تنائيا[١]

٢ — أجارِىَ لو نفْسٌ فدَتْ نفْسَ ميّتٍ   فَدَيْتُكَ مسْرُورًا بِنفْسِى ومالِيا

الصّبابة : الوَجْد والمحبّة ، والفعل منه صَبِبْتُ بكسر الباء أصَبُّ . ورجُلٌ صَبٌّ ، وامرأةٌ صَبّة . وقوله «أجارى» ، ليس بندبةٍ[٢] ، لأنّ المندوبَ لا يكون إلّا بيا ووَا ، لـكنّه على العادة والرّسم ناداه ورخّمهُ . يقول : لا أزداد على مُرور الأيّام وتصرُّفِ الأوقاتِ إلّا شوْقًا إليك ، ووَلُوعًا بك ، وقوّةَ أسفٍ عليك ، إذ لم يكن حالى حالَ المتحسّر فى إثْرِ فائتٍ ، والرّافع طمعَه من لقاء مائت ، فيُعقِبه الفوات يأسًا ، ويُورثه ما يشاهده مِن حال الفناء تناسيًا أو تسلّيًا ؛ وأنت

(١) ل والتبريزى : « عليك وما تزداد » .

(٢) فى الأصل : « ليس بندبه » وأثبتنا ما فى ل والتبريزى .

لا تزداد إلَّا تناهيًا فى الانقطاع ، وتنائيا فى الهِجرة والإعراض . فقولُه « تنائيا » لم يُرِدْ تباعُدَ الأجرام وتراخِيَ المَزار ؛ لأنَّ تجاورَ الدِّيارِ وتصاقُبَها كان باقيًا على ما كان فى الأصل .

وقوله « أجارِيَ لو نفسٌ فدَتْ نفسَ ميِّت » ، يريد : لو كان السَّبيل إلى التَّفادى بين الأحياء والأموات مسلوكًا ، وقَبولُ الأبدال عند الاستعراض والدُّعاء مُجابًا إليه مألوفا ، لكنتُ السابقَ إليه ، والجاعلَ فى فدائك النَّفسَ والمال ، وأنا مغتبطٌ بذلك ومغتنمٌ له ، لكن لامانع لما طَلِب ، ولا مَعْدِلَ عما حُتِم .

٣—وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أُمَلَّاكَ حِقْبَةً فَحَالَ قَضَــاءُ اللهِ دُونَ رَجَائِيَا

٤—أَلَا لِيَمُتْ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ إِنَّمَا عَلَيْكَ مِنَ الْأَقْدَارِ كَانَ حِذَارِيَا

قوله « أنْ أُملَّاكَ » يقال مُلِّيتُ فلانًا فتملَّيتُه ، أى جُعِلَ لى أن أعيش معه مُلاوةً فيبقى لى ممتَّعًا به . والمَلَوانِ : اللَّيل والنَّهار ، من هذا[1] . يقول : كنت أرجو أن أُمتَّعَ بحياتك حِقبةً — وقال الخليل : الحِقبة زمانٌ من الدهر لاوقتَ له ، والجميع الأحقاب والحِقَبُ والحُقْبُ مثلُه — فحجز بينى و بين مرادى القدرُ الذى لا يُملَكُ معه إلَّا الاستسلام له .

وقوله : « ألا لِيمُتْ مَن شاء بعدك » مثل قول الآخر :

* فآليت لا آسى على إثرِ هالكٍ[2] *

وقول الآخر[3] :

* أمِنَّا على كلِّ الرَّزايا من الجَزَعْ[4] *

(١) أصرح منه قول ابن جنى فى التنبيه : « ولام أملاك واو ، وهو من الملوين ، وهما الليل والنهار » .

(٢) البيت الثالث من الحماسية ٣٠١ . وعجزه :

* قدى الآن من وجد على هالك قدى *

(٣) هو عبد الله بن المقفع . الحماسية ٢٨٢ .

(٤) صدره : * فقد جر نفعاً فقدنا لك أننا *

٣٠٨

وقالت فاطمةُ بنت الأحْجَمِ الخُزَاعيَّة[١] :

١ — ياعَيْنِ بَكِّى عند كُلِّ صَبَاحِ جُودِى بأربعَـــةٍ على الجَرَّاحِ

قوله « بَكِّى » يجوز أن يريدَ به أكثِرِى البكاء ، ويجوز أن يريدَ كرِّرِى البكاء ، لأنَّ تضعيف العين إذا لم يكن للتَّعدية مثل كَرَّمَ — لأنَّه كأكرمَ لا فرقَ بينهما — يكون للتكثير أو التكرير ، وذلك كقولك ضَرَّبَ وقَتَّلَ . وإنَّما قال « عند كلِّ صَباحِ » لأنَّه يريد اجعَلِى مَبْدأَ نهارِكِ لذلك ، أولأنَّه يريد كانَ وقتَ نكايته فى الأعداء ، وشنِّ الغارات على المنابِذين ، فاجعلى بإزاء فِعلِهِ حينئذٍ البكاء عليه السَّاعةَ . وقوله « جودى بأربعة » أراد بالأربعة قبائلَ الرَّأس . والدَّمعُ يخرج من الشؤون . فأراد : جودى بدَمعكِ كلِّه ، ولا تدَّخِرى منه شيئا . وقوله « ياعينِ » حذف الياء لوقوعها موقعَ ما يُحذف فى النداء وهو التَّنوين ، ولأنَّ الكسرة تدلّ عليه . وبابُ النِّداء بابُ حذفٍ وإيجاز .

٢ — قد كُنْتَ لِى جبَلًا ألُوذُ بِظِلِّهِ فتَرَكْتَنِى أَضْحَى بأجْرَدَ ضَاحِ

أقبلَ يخاطب المرثىَّ على عادتهم فى الانتقال عن الإخبار إلى الخطاب ، وعن الخطاب إلى الإخبار ، تفنُّناً واقتداراً . فيقول : كنتَ لى جبلَ عِزٍّ ، آوِى إليك فى الشَّدائد ، وأعوِّل على حسن دِفاعك فى النَّوائب ، وأستكِنُّ بظلِّك ،

(١) كان والدها الأحجم — ابن دندنة — ويقال « الأجحم » أيضاً — أحد سادات العرب . وزوجته هى خالدة بنت هاشم بن عبد مناف . وقال السكرى : الشعر لليلى بنت يزيد ابن الصعق ، ترثى ابنها قيس بن زياد بن أبى سفيان بن عوف بن كعب ، وقال الأخفش : إنه لامرأة من كندة ترثى زوجها الجراح . انظر أمالى القالى (٢ : ١ — ٢) والتنبيه ص ٨٧ . وقد ذكر القالى أن عائشة رضى الله عنها تمثلت بهذه الأبيات بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم .

وأتحصَّن بتمنُّعك ، فغادرتنى بارزاً للآفات ، ومعرَّضاً للحوادث والنَّكايات[(١)] ، لا معْقِلَ لى مما يَدهَم ، ولا مَلاذَ عند مايهجُم . والضَّاحى : البارز للشَّمس ؛ والفعل منه ضَحِيَ يَضْحَى ؛ وقد أتى بهما فى البيت . والأجرد : الأملَسُ . يَضْرِبُ[(٢)] ذلك مثلًا لكونه مُعْوِرًا لا واقِيَ له ولا ساتر ، ولا مُحامِيَ ولا مدافِع .

٣— قدكنتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ ماعِشْتَ لِى أَمْشِى البَرَازَ وكنتَ أنتَ جَنَاحِى

٤— فَاليَوْمَ أَخْضَعُ للذَّلِيلِ وأَتَّقِى منه وأَدْفَعُ ظالِمِى بالراحِ

قوله « قد كنتُ ذاتَ حَمِيَّةٍ » يقال حَمِيتُ من الشَّىء أَحْمَى حَمِيَّةً ، أى أنِفْتُ وغضبت . ورجل حَمِىُّ الأنف : لا يحتمل الضيم ، وحَمِىَ أنفه من كذا . والمعنى : كنتُ فى حياتك آنَفُ مما أُسَامُ من الضَّيم فأتسخَّطُه ، وتتَّسع المقدرةُ لدَفعِه والإباء منه ، والآنَ صار بدلَ ذلك السُّخطِ الرِّضا ، و بإزاء ذلك الانتقامِ الاستسلام . و « ماعشت » فى موضع الظَّرف ، أراد مُدَّةَ عيشِك لى . وقوله « أمشِى البَرَازَ » البراز : المكان الفَضاء من الأرض . وإذا خرج إنسانٌ إلى ذلك الموضع قيل بَرَّز . ومن هذا قولهم : بَرَّز على أقرانِه ، أى صار فى البَراز ظُهوراً عليهم واقتداراً . وكما تصرَّفوا فى هذا على ماترَى تصرَّفوا فى الظَّاهرة ، وهى الضَّاحيةُ العالية ، فقيل : ظَهَرَ فلانٌ على فُلان ، أى عَلاهُ ، وأظهرهُ اللهُ عليه[(٣)] ، وفى القرآن : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ . وأصلُه أمشِى فى البَراز ، فحذَف الجارَّ ووصَلَ الفعلُ فعَمِل . والمعنى : كنتُ لا أستتر ولا أكتتم[(٤)] تهيُّباً وتخوُّفاً من شىء . وقوله « وكنتَ أنتَ جَناحِى » فالجناح من الطَّائر والإنسان :

(١) ل : « والنكبات » .
(٢) ل : « وضرب » .
(٣) كذا فى ل . وفى الأصل : « وأظهره مافيه عليه » .
(٤) ل : « ولا أكتمن » .

يداهُ . والمعنى : كنتُ أطير بقوّتِك ، وأنهضُ فى الأمور بصولتِك ، وأبْطِشُ بالأعداء بيدك وأيْدِك .

وقوله « فاليَوْمَ أخْضَعُ للذّليل » ، أراد باليوم متّصِلَ وقتِه من الحال والاستقبال ، والمعنى : صرتُ من طلَب السّلامة على الدّهرِ وأهلِه بحيث يَطْمَعُ فىَّ الذّليل ، ويَستلينُ جانبى المَهين ، فأتّقِى ذا الشّوكة ومَن لا شوكة له ، وأحذَرُ مَن يُخشَى كيدُه ومَن لا كيد له . وقوله « وأدفعُ ظالمى بالرّاح » يريد أدفعُه باللّينِ ما أجدُ السّبيلَ إليه ، لا خشونةَ لى فى قولى[1] ولا مزاحمةَ فى رُكنى ، ولا اعتراضَ شديداً منّى فى اهتضامِه لى ، ولا محاجّةَ قويّةً على جِدالِه إيّاى ، فِعْلَ مَن لا حَدَّ له ولا حديدةَ ، ولا عُدَد ولا عَتيدة ، ولا حِمَى ولا حَمِيّة .

٥ — وإذا دَعَت قُمْرِيّةٌ شَجَنًا لها يومًا على فَنَنٍ دَعوْتُ صَباحى[2]

٦ — وأغضُّ من بَصَرِى وأعلمُ أنّهُ قَدْ بانَ حَدُّ فوارِسى ورِماحى

قوله « وإذا دَعَتْ قمرية شجناً » كلامٌ أُخرِجَ على ما فى اعتقادهم من بُكاء الحمام ، فيقول : إذا ناحت حمامةٌ على غُصْنٍ وهى تدعو حُزْنَها ليهتاجَ بكاؤها ويمتدَّ صوتها ، فإنى أَشْجَى لصوتها وأُجاوِبُها داعيًا صباحى ، أى قائلاً : وا صباحاه !

وقوله « وأغضُّ مِن بَصَرِى » غَضُّ الطَّرْف مِن فعلِ الذليل المنخزل ، كما

(١) هذا الصواب من ل . وفى الأصل : « لاخشونة فى قوله » .

(٢) ورد هذا البيت عند التبريزى متأخرا عن تاليه ، وهو الأوفق . وقال البكرى فى التنبيه على الأمالى ص ٨٧ : وأخبرنى غير واحد عن أبى العلاء المعرى — رحمه الله — أنه كان يرد هذه الرواية ويقول إنها تصحيف ، وكان ينشده : * وإذا دعت قرية شجبا لها * بكسر الجيم وبالباء بعدها ، يعنى فرخها الهالك ، وهو الهديل . والشجب : الهلاك ، والشجب : الهالك . وأخلق بهذا القول أن يكون صحيحا ، والحق أحق أن يتبع » .

أن طُموحَهُ فعلُ العزيزِ الناظرِ من فوق . فيقول : إنى عارفٌ بمقدارى بَعدَك ، ومتيقِّن نكوصى وسقوطَ حشمتى بذهابك ، وكَلّةَ[1] حَدِّى وحدِّ أصحابى لفقدانك ، فأغمِّض عينى فى كثيرٍ مما يجرى علىّ وألابِسُه ، مخافةَ أن أرى ما هو أكبرُ منه . وقولُه « وأعلم أنه » الضمير ضمير الأمر والشأن . يريد : وأعلم أنّ الأمرَ انفلالُ فُرسانى ، وتفلُّلُ أسِنَّةِ رماحى . وهذا مثلٌ لسقوط القُوَى واستعلاء العِدَى ، وذهاب العُدَّة وتراجُع العِدَّة . ولا يمتنع أن يريد بحدّ فوارسى نفسَ المفقود ، جعله لفُرسانه حَدًّا إذ كان مقدامهم ومِدرَهَهم ، ولرماحِه سِناناً إذ كانت تعمل بقوّته ، وتنفذ بصرامته .

٣٠٩

وقال آخر[2] :

١ — إخوتى لا تَبْعَدُوا أبدًا ... وبَلَى واللهِ قد بَعِدُوا

٢ — لو تَمَلَّتْهُم عَشيرَتُهُمْ ... لاقتناء العِزِّ أو وَلَدُوا[3]

٣ — هانَ مِنْ بَعْضِ الرَّزِيئةِ أو ... هانَ مِن بَعْضِ الذى أجِدُ

٤ — كلُّ ما حَيٍّ وإن أَمِرُوا ... وارِدُو الحَوْضِ الذى وَرَدُوا[4]

لك أن تروى « إخوتى » و « إخوتا » . فمن روى « إخوتى » فإنه يسكِّن الياء وأصلُه الحركة ، لكونه علامة الضمير متطرِّفاً على حرفٍ واحدٍ

(١) الكلة بالكسر : مصدر كل السيف ونحوه كلا وكلة وكلالة وكلولة وكلولا ، إذا لم يقطع .

(٢) كذا ورد فى ل . وعند التبريزى : « وقالت أيضا » ، أى فاطمة بنت الأحجم . وقد ذكرها ابن جنى صريحة فى التنبيه : « وقالت فاطمة بنت الأحجم الخزاعية » .

(٣) هذه رواية ل وأشير فى هامشها إلى أنها فى نسخة « أوولدوا » ، وبهذه الرواية الأخيرة وردت فى نسخة الأصل والتبريزى . ومقتضى عبارة الشرح أولوية رواية ل .

فوجب تقويتُه بالتحريك كما كان سبيل أختيه الكافِ والهاء لو وقعا موقِعَه، لكنّهم آثروا الفتحة لخفّتها. ويدلّ على أنّ الأصل الفتحة أنه لو كان ما قبله ساكناً كان لا يجيء إلاّ مفتوحا، وذلك قولك رَحَايَ وعَصَايَ، إلاّ أنه لمّا كان باب النّداء باب حذفٍ وإيجاز، لكثرة استعمالهم له، سكّنوا الياء. ومَن قال «إخوتا» فرّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة، فانقلبت الياء ألفاً. على ذلك قولهم باديَهْ وباداهْ، وناصِيَهْ وناصاهْ، وقولك بأباها وأنت تريد بأبي هما. وقوله «لا تبعَدوا» قد تقدّم القول فيه[1]. فأمّا استدراكه لقوله «وبَلَى والله قد بَعِدوا» فإنه تنبيهٌ منه على أنّ لا تبعَدوا وإن كان لفظُه لفظَ الدُّعاء فهو جارٍ على غير أصلِه، وأنّه إنما هو تحسُّرٌ وتوجُّع.

وقوله «لو تملّتهمْ عشيرتهم»، يريد: لو بَقُوا معهم مُلاوَةً من الدّهر ممتّعين بهم، ومقتنين العزّ بمكانهم أو أولادُهم بَقُوا معهم فتربّوا في حُجورهم، وتأدّبُوا بسياستهم، واحتبَوْا بأردية السّيادةِ في أفنيتهم ومحافِلهم — لهانَ بعضُ الرزيئة. ولك أن تروى «أو ولدوا» على أن يكون فعلًا وواوُ الضمير بعد حرف الرويّ تجعل وصلًا، ويكون المعنى: لو أعقبُوا وخلّفوا أولادًا يرِثونَ مجدهم ويُحيُون أسماءهم، ويَعْمُرون معاليَ آبائهم بعدهم. وجواب لو أوّل البيت الذى يليه، وهو «هان من بعض الرزيئة». ومعناه: لو قُضِي الأمرُ على ذلك لخفّ بعضُ ما على النّاس لهم ومن أجلهم، أوخفّ بعضُ الذى أجدُه أنا من الاكتئاب والاهتمام بفوتهم. وقوله «من بعض الرزيئة»، الأخفش يجيز زيادة «مِن» في الواجب، فعلى طريقته يكون المعنى هان بعضُ الرزيئة. وسيبويه يمتنِع من زيادة من إلّا فيما ليس بواجبٍ، كالاستفهام والنّفى. فعلى طريقته يكون المعنى: كانَ ابتداء المهوّنِ بعضَ الرزيئة أو من بعض الرزيئة.

(١) انظر الحماسية ٢٩٨ ص ٨٩٢، و٣٠٦ ص ٩٠٥.

وقوله « كلُّ ما حيّ » ما زائدة ، ويجوز أن يريد بالحىّ القبيلة . ومعنى أمِرُوا كَثُروا ، يقال أمِرَ الشَّىء وآمَرَه الله له[1] . ويجوز أن يريد بالحىّ ضدَّ الميّت ، ويكونَ الضمير من أمِروا عائداً إلى لفظ كلّ . فيقول : كل قبيلة وإنْ تناسَلوا وتكاثروا فمآلُ أمرِهم إلى مثلِ ما آل إليـه أمرُ إخوتى ، وموردُهم من الذَّهاب والفَناء مثلُ موردهم ، إذْ كان الموتُ لا معدِلَ عنه ، ولا مَنْجَى لأحدٍ منه . وجواب الشَّرط فى قوله وإن أمِروا دلّ عليه قوله « وارِدُو الحوضِ الذى وردوا » ، والضمير العائد من الصِّلة إلى الموصول محذوف ، كأنه قال : الذى وردوه ، لأنَّهم استطالوا الاسم بصِلتِه .

٣١٠

وقالت امرأةٌ أخرى[2] :

١ — طافَ يَبْغِى نَجْوَةً　　مِنْ هَلاكٍ فهلَكْ[3]

٢ — لَيْتَ شِعرِى ضَلَّةً　　أىُّ شىء قَتَلَكْ

النَّجاة والنَّجوة : ما ارتفع من الأرض حتّى لا يصلَ إليـه السَّيلُ ولا يبلغَه . قال :

فَمَنْ بنَجْوَتِهِ كمَن بعَقْوَتِهِ　　والمستكِنُّ كمَنْ يمشِى بقِرواحِ[4]

فجعله ها هنا مثَلًا لما كان يطلبه مِن وجه الخلاصِ من الآفات . وكأنّ هذا

(١) كلمة « له » ليست فى ل .

(٢) التبريزى : « ويروى أنها لأم تأبطشراً ، ويقال لأم السليك بن السلكة » . ورجح التبريزى أن الشعر لأم السليك بن السلكة بخبر طويل ساقه فى شرحه . وفى العقد (٣ : ٢٦١) : « خرج أعرابى هاربا من الطاعون فبينما هو سائر إذ لدغته حيه فمات ، فقال أبوه يرثيه » .

(٣) هذا وزن نادر من أوزان الشعر . قال التبريزى : « من مشطور المديد والقافية متراكب . قال أبو العلاء : هذا الوزن لم يذكره الخليل ولا سعيد بن مسعدة . وذكره الزجاج وجعله سابعا للرمل . وقد يحتمل أن يكون مشطوراً للمديد » .

(٤) لأوس بن حجر فى ديوانه ص ٤ ليبسك ، أو عبيد بن الأبرص . اللسان (قرح) .

المرثىّ كان استشعر خوفاً من الموت فأخذ يتنقّل فى البلاد والبِقاع ويتطلّب موضعاً يبعِّده من الآفات ، فبقى يتردّد فى ذلك ويتحيّر ، فإذا الهلاك قد فاجأه من حيث لا يحتسب ولا يرتقب . وإنّما نكّر من هلاكٍ لأنّه جعل كلَّ نوعٍ منه هلاكاً ، ولم يَدْرِ ماذا يصيبه .

وقوله « ليت شِعْرى » موضع شعرى نصبٌ فى معنى عِلمى . ويقال شَعَرْت شِعْرةً كما يقال فَطَنت فِطنة ، إلّا أنّه لا يستعمل مع ليت إلّا وقد حُذِف الهاء منه . وقوله « أىُّ شىء قتلك » الجملة كما هى فى موضِع نصب ، لأنّها نابَت عن مفعوليه . وخبر ليت مضمَر لا نجده إلّا كذلك ، فهو يُشبِه خبرَ المبتدأ بعد لولا إذا قلت لولا زيد لخرجت ، لأن لَخرجتُ جوابُ لولا . وخبر المبتدأ محذوف لا يجىء إلّا على ذلك . واستغناء ليت بمفعولَىْ شِعرى عن خبره ، كاستغناء المبتدأ بعد لولا بجوابه عن خبره . و « ضَلّةً » ، انتصبَ على المصدر ، والعامل فيه فعل مضمر . وهذا الضّلال يجوز أن يكون لنفسه فيما استَبهَمَ عليها من حال المتوفَّى ، كأنّه ضَلَّ عن العلم ضَلّةً ، ويجوز أن يكون للمتوفَّى نفسِه ، كأنّه عَدَّ غيبتَه وخفاء أمره ضلالا له ، والمعنى : تمنيت أنّى أعلم أىُّ شىء أهلكك ، وهذا لضلالى عن معرفة حالِك ، وذَهابى عن العلم به . هذا على الأول ، وعلى الثّانى يكون المعنى : ما الذى قتلك حتّى ضلِلْتَ هذا الضّلالَ .

فإنْ قيل : خبر ليت كيف يجىء فى التّقدير وإنْ لم يظهر فى الاستعمال ؟ قلتَ : تقديره ليت شعرى واقعٌ أىُّ شىء قتلَك ، أى ليتنى علمت أو وقعَ عِلمى بما يقتضى هذا السُّؤالُ ، لأنّ الذى تمنّاه هو ما كان جوابُه لانفسُ السُّؤال .

٣ — أمَرِيضٌ لم تُعَدْ أم عـــدُوٌّ ختَلَكْ[1]

(١) بعده عند التبريزى :

أم تَوَلَّى بك ما غالَ فى الدّهرِ السُّلَكْ

السلك ، كصرد : فرخ القطا ، وقيل فرخ الحجل .

٤ — كُلُّ شيءٍ قاتِلٌ حين تَلْقَى أَجَلَكْ

٥ — والمنايا رَصَدٌ للفَتَى حَيْثُ سَلَكْ(١)

٦ — أيُّ شيءٍ حَسَنٍ لِفَتًى لَمْ يكُ لَكْ

قوله « أمريض لم تُعَد » هو إعلام منها بأنّه تغيَّبَ فخفِىَ أمرُه فيما أصابه حتّى لم يبِنْ له أثر ، ولا لمرضه نبأ . وهو يجرى مجرى البيانِ لقولِها « أىُّ شىء قتلك » . فتقول : أمريضٌ كنتَ فى غربةٍ ووطنٍ وَحشةٍ ، فمتَّ حتْفَ أنفِك لا يعُودك مُشفِق ، ولا يتفقّدك ممرِّض ، أو اغتالكَ عدوٌ فتوصَّلَ إلى الغِيلة فى بابك بإعمال الخَتْل والحِيلة . ويروى : « أو رصيدٌ خَتَلَكْ » ، والمعنى : أو خَدَعك عن حياتك مَنْ كان بالمرصاد لكَ من أعدائك . وقال الخليل : الخَتْلُ : تَخادُعٌ عن غفلة .

وقوله :

كلُّ شيءٍ قاتلٌ حين تَلْقَى أجلَكْ

تريد الإخبارَ عن استواء أسباب الموت فى الأخذ والظَّفَر ، إذا دنا الأجل . وأنَّ كلَّ سببٍ ينُوب مَنابَ الآخَر إذا انتهت المُدّة .

وقوله :

والمنايا رصَدٌ للفَتَى حيثُ سلَكْ

تُريد به أنَّ البِقاعَ والتحوُّلَ(٢) فيها لا يغنى ؛ لأنَّ حُكمَ الله تعالى يبحَثُ وينقِّب عن المطلوب حيث كان ، فالموتُ رصَدٌ للفتى حيثُ استطرَقَ وأنَّى توجَّه .

(١) روى التبريزى هذا البيت وبعده البيت السادس ثم الخامس .

(٢) كذا بالحاء المهملة فى جميع النسخ . يقال حال الرحل وتحول من موضع الى موضع ، أى انتقل .

وبعضهم يرويه : « والمنايا رُصَّد » كأنَّه جمع الرَّاصد لكون المنايا جمعا . والأوّلُ أفصح وأجود .

وقوله :

أىُّ شىء حسنٍ لفتًى لم يكُ لكْ

يصفُه ببراعته وتكامُلِ محاسنه ، واستتمام آلات الرِّياسة فيه ، فكأنه لا يُستحسَن من الفِتيانِ شىءٌ خَلقا ولا خُلُقا إلَّا وقد كان حصَلَ له ، واجتمع فيه . وقد تقدم القول فى حذف النُّون من لم يك .

٧ – سأعزِّى النَّفسَ إذْ لم تُجِبْ مَنْ سألَكْ

٨ – إنَّ أمرًا فادحًا عَنْ جوابِى شَغَلَكْ

٩ – طالما قد نِلْتَ فى غيرِ كدٍّ أمَلَكْ[1]

قوله « سأعزِّى النَّفس » أى سأصبِّرها ، إذْ كنتَ مع السَّائلين – وإن اختلفوا – على حَدٍّ واحدٍ فى ترك مجاوبتهم ، فعَمَمْتَ ولم تَخُصَّ . وهذا التعزِّى الذى أشار إليه ليس لتَسَلٍّ عن المفقود ، ولا لِتَنَاسٍ منه ، ولكنَّه[2] طِيبُ النَّفس بتشارُك النَّاسِ فى إمساكه عن إجابتهم .

وقوله : « إنَّ أمرًا فادحًا » اكتسب أمرٌ وهو نكرةٌ من النَّعت الذى تَبِعه بعضَ الاختصاص ، فلذلك صلح الابتداء به حتَّى دخل إنَّ عليه . ألا ترى

---

(١) روى التبريزى هذا البيت بعد البيت الرابع ، ثم روى بعدهما الثامن فالسابع ، ثم بيتين لم يروهما المرزوقى ، وهما :

ليتَ قلبِى ساعةً صَبْرَه عنكَ مَلَكْ

ليتَ نفسِى قُدِّمتْ للمنايا بَدَلَكْ

(٢) بعدها فى الأصل كلمة « مهما » ، وهى مقحمة .

أنَّ فائدته مع إبهامه كاملةٌ فى المراد ، والمعنى : إنَّ عظيماً من الأمور صَرَفَكَ عن رَسْمِكَ ودأبكَ فى مباسَطَتِى ومُباثَّتِى . ولأنَّ الكلامَ قد يُحْمَل على المعنى فيما يُستفاد منه ، فكأنَّه قال : ما صرَفكَ وشغَلكَ عن جوابى إلّا أمرٌ عظيمٌ فادح ؛ إذ كانت العادة قَدُمَتْ منك فى حُسْن التوفُّر(١) علىَّ والإقبالِ ، لتوجُّه خطابى نحوَك .

وقوله :

طالما قد نلت فى غَيْرِ كَدٍّ أملَكْ

إيذانٌ بأنَّه نال من الدُّنيا كثيرًا من إرادته وأمانيه ، حينَ هبَّت أرواحُه ، وساعدَتْه أيامُه وحالاتُه ، وأنَّه طالما كان يتحصَّل له المَباغِى بلا كَدٍّ لإقبال الدُّنيا عليه ، ويتسهَّلُ له المَطَالب لاقتران المناجح بما لديه أو إليه ، وفى ذلك بعضُ التَّسلِّى للجازعين له ، والمتوجِّعين لفنائه .

وقد تقدم القول فى لفظةِ طالما و بينت معناه ومجاه فى الكتاب(٢) .

٣١١

وقال المُجَيْرُ السَّلُولِى(٣) :

١ — تركْنا أبا الأضياف فى لَيْلةِ الصَّبَا بِمَرٍّ ومَرْدَى كُلِّ خَصْمٍ يُجادِلُهْ(٤)

(١) فى الأصل : « التوفير » ، والوجه مافى سائر النسخ .

(٢) انظر الحماسية ٢٨٩ ص ٨٧٥ .

(٣) المجير لقب له ، واسمه عمير بن عبد الله بن كعب بن عبيدة بن جابر بن عمرو بن سلول ، وبنو سلول هم بنو مرة بن صعصعة غلبت عليهم أمهم فسموا بها . والمجير شاعر مقل إسلامى من شعراء الدولة الأموية . الأغانى (١١ : ١٤٦ — ١٥٣) والخزانة (٢ : ٣٩٩) ، والمؤتلف ١٦٦ . وكان يكنى أبا الفرزدق باسم ولد له . المؤتلف ومعجم المرزبانى ٢٣٢ . كما كان يكنى أبا الفيل فيما قال البغدادى . وقد ذكر المرزبانى حفيده عمرو بن الفرزدق بن المجير فى الشعراء .

(٤) تلتبس بعض أبيات قصيدة هذه الحماسية بأبيات الشمردل بن شريك ، التى رواها أبو الفرج فى الأغانى (١٢ : ١١٣ — ١١٤) . =

يُروى «تركنا أبا الحَجْناء» وهو فيما أظنُّه كُنْية المرثِيّ . وجعله أبا الأضياف لتوفُّره عليهم ، ولأنَّ داره كانت مثواهم . وهم يقولون : فلانٌ أبو مثوايَ ، وفى المرأة : أمُّ مثوايَ ، لمَنْ قَراهم . وأشار بليلة الصَّبا(١) إلى ليلةٍ بعينها(٢) اتّفق فيها على هـذا الرّجل بمَرّ ، وهو موضعٌ ، اجتماعُ الخصوم حولَه(٣) . والمِرْدَى : صخرةٌ يُكسَر بهـا النّوى ؛ هذا أصله ، ثم يقال فلانٌ مِردَى الخُصوم ، أى يُرمَون به فيكسِرهُم . وقوله « كلّ خَصْم » أراد بالخصم الكثرة ، كأنّه حضَرَه من كلّ قبيلٍ من مُخالِفيه مِردًى لهم يجادِلُه عنهم ويجاذبه . وقوله « بمَرّ » منَعَه من الصَّرف لأنّه جعله مؤنّثا معرفة ، ولو ذكّره لصرفه . والواو من قوله « ومردى كلّ خصم » واو الحال(٤) . والصَّبا : ريحٌ تستقبل القبلة ؛ والفعل منهُ صَبَا يصبو . وأضاف الليلة إلى الصَّبا تعريفًا وتخصيصا ، كأنّه كان للصَّبا شأنٌ فى تلك اللَّيلة .

٢ — تركْنا فتًى قَدْ أيْقنَ الجوعُ أنّه إذا ما ثوَى فى أرْحُلِ القومِ قاتِلُهْ

= وانظر بعض أبيات العجير فى معجم البلدان (مر) وأمالى القالى (١ : ٢٧٥) . وذكروا أن العجير كان له ابن عم يدعى « جابر بن زيد » ، وكان كريماً مفضالا ، قال فيه العجير :

إن ابن عمى لابن زيد وإنه لبلال أيدى جلة الشول بالدم

فكان إذا سمع بأضياف عنـد العجير لم يدعهم حتى يأتى بجزور كوماء فيطعن فى لبتها عند بيته ، فيبيتون فى شواء وقدير . وكان الناس يقولون له : مالك لا تكثر إبلك ؟ ! فيقول : إن العجير لم تدعها تكثر ! ! ثم سافر ابن زيد فمات بمكان يقال له « مر » ، فرثاه العجير بهذا الشعر . الأغانى ومعجم البلدان .

(١) رواية أبى الفرج : « فى كل شتوة » ، ورواية ياقوت : « فى ليلة الدجى » .

(٢) الحق أنها ليست ليلة بعينها ، وأن الإطعام عند هبوب الصـبا هو غاية الـكرم ، وذلك لما يصاحبها من الجدب . وكان لبيد فى الجاهلية قد آلى ألا تهب صبا إلا أطعم . الأغانى (١٤ : ٩٤) . وانظر (مطاعيم الريح) فى بلوغ الأرب (١ : ٩١ — ٩٢) .

(٣) كذا يرى المرزوقى . والحق أن « مر » موضع مات فيه ودفن .

(٤) وبذا تكون جملة « يجادله » خبراً لـكلمة « مردى » ، وهذا تفسير **ضعيف** . والأوفق فيما نرى ، أن تكون كلمة « مردى » معطوفة على « أبا الأضياف » و « يجادله » فى موضع الصفة لخصم . فيكون قد نعته بالـكرم وقوة العارضة .

يقول : تركنا فى ذلك المكان فتًى كان ربيعًا للفقراء ، ومَألفًا للأضياف . وإذا اشتدَّ الزمان وأسْنَتَ النّاسُ تيقّن الجدبُ والقحطُ أنّه لا يُقارُه ، بل يَقتلُه بما يُفيضه على النّاس من إحسانه ، ويَشملُهم من تَفَقُّدِهِ وبرِّه . وقوله « قد أيْقَنَ الجوع » إلى آخر البيت ، من صفة الفتى ، وفى طريقته قول الآخر (١) :

يُقاتِلِ جُوعَهمْ بمكَلَّلاتٍ ... من الفُرْنِيِّ يَرْعَبُهَا الجَمِيلُ (٢)

وقوله « إذا ما ثوَى » ظرفٌ لقاتله .

٣ — فَتًى قُدَّ قَدَّ السَّيفِ لا مُتَضائلٌ ... ولا رَهِلٌ لَبَّاتُهُ وَأَباجِلُهْ

معنى « قُدَّ قَدَّ السيف » أنه فى مضائه ونفاذِه كالسيف . والقَدّ : القطع طُولاً . ويقال : هو حَسَن القَدّ ، أى التقطيع ؛ وهو على قدِّه ، أى على قَدرِه . وهو يقتدُّ الأمورَ بالسيف ، إذا دبَّرها بالسيف . ومعنى لا مُتضائل : لا مُتخاشع . والضُّؤولة : الدِّقّة ، يقال : هو ضئيل الجسم . والرَّهِل : المُسترخِى اللَّحمِ (٣) من السِّمن . يقال : فَرَسٌ رَهِلُ الصدر . واللَّبّات : جمع اللَّبَّة ، وهو الصدر ؛ وجَمَعه على ما حَوْلَه ، أو جعَل كلَّ قطعةٍ لَبّة . والأباجل : جمع أبْجَل ، وهو عرقٌ فى الساق . والمعنى أنه ليس بكثير اللَّحم على الصدر غليظِ الساق . وهم يتمدَّحون بالهُزال ويذُمُّون السِّمَن . ويُروى « وبآدِلُه » ، وهو ما بين العنُق والتَّرْقُوة . ومعنى البيت : أنه فى قدّ السيف ومَضائه ، لا يَشينُه تخاضعٌ ، ولا هو سمينٌ مسترخِى اللَّحمِ على الصدر ولا على ما حولَه . ولا متضائل ، ارتفع متضائل

(١) هو أبو خراش الهذلى . ديوان الهذليين (٢ : ١٤١) واللسان (جمل) . وانظر إصلاح المنطق ٣٠٠ .

(٢) هذا تنظير المرزوقى ، أما التبريزى فقد نظر له بقول القائل :

هم المطعمون سديف السنا ... م والقاتلو الليلة البارده

(٣) فى نسخة الأصل : « المسترخى من اللحم » ، وأثبتنا ما فى سائر النسخ .

على أنه خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: لا هو متضائل. ولبّاته ارتفع بفعله، وفعله رَهِلٌ.

٤ – إذا جَدَّ عند الجِدّ أرضاكَ جِدُّه وذُو باطِلٍ إن شئتَ ألهاكَ باطِلُهْ

٥ – يَسُرُّكَ مظلومًا ويُرضيك ظالمًا وكلُّ الذى حَمَّلتَهُ فهوَ حامِلُهْ(١)

يصفُه بأنه كان مُستَصْلَحًا للهَزلِ والجِدّ، فإن جَدَّ حَسُنَ جِدُّه وتناهَى الرِّضا به والاستحسانُ له، وإن هَزَلَ ألهَى هزلُه على اقتصادٍ فيه واستطابة له، لأنه أخذ من مَكارم الأخلاق بأوفر النَّصيب، فهو ينخرِط فى كلِّ سِلك، ويدخُل فى كلِّ شأنٍ وأمر.

وقوله «يسرُّكَ مظلومًا» انتصب مظلومًا على الحال. يقول: إن اهتُضِمتَ انتقمَ لكَ من ظالمك، وإن اهتضمتَ أنت غيرك لم يبعد عن نُصرتك. وهذا على طريقتهم فى قولهم: «انصُرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا(٢)». وقوله «وكلُّ الذى حَمَّلتَه فهو حامِلُه» يصفُه برَحابة الصدر والأخذِ فى كلِّ ما يُدعَى إليه بالصبر، وأنه يتحمل الأعباءَ الثقيلةَ عن ذَويهِ والمنتسبين إليه، لا يَضْجَر بما يَحُلُّ بفِنائه، ولا يتسخَّط أمرًا يُقترحُ عليه، أو يُستَنهَض إليه.

---

(١) روى التبريزى: بعده:

إذا نزَلَ الأضيافُ كان عَذَوَّرًا على الحىِّ حتّى تَستَقِلَّ مَراجِلُه

العذور: السيء الخلق، كأنه يحتاج الى أن يعتذر لسوء ما يفعل، ومعناه أنه يسيء خلقه على خدمه وأصحابه، لأنه يريد أن يعجل قرى الأضياف.

(٢) حديث حسن، رواه الدارمى وابن عساكر. الجامع الصغير رقم ٢٧٣٩.

٣١٢

وقال أبو الحَجْناء[(١)]:

١ — أعاذِلَ مَنْ يُرْزأ كحَجْناء لا يَزَلْ كَئيبًا ويَزهَدْ بَعْدَهُ في العَواقِبِ

يقول: ياعاذِلةُ، مَن يُصَبْ بمثل من أُصِبْتُ به يتّصلِ اكتئابُه، ويَدُمْ زُهدُه في عواقب أطهار النِّساء ومباشرتِهن[(٢)] عِلمًا بأنّ مثل ذلك الولد لا يُعتاض منه. وحَجناء: ابنهُ. كأنّ عاذلةً آذته بتكرير الوَصاة عليه وإدامةِ الوعظ له، وأنّ ما يأتيه من التفجُّع مُستسرَفٌ ومُستقبَحٌ، لخروجه[(٣)] عن العادات، فأقبل يُجيبها ويذكر عُذرَه لها. وقد صرح غيره[(٤)] بهذا المعنى فقال:

أفبَعْدَ مَقْتلِ مالكِ بن زُهَيْرٍ ترجو النِّساءُ عواقِبَ الأطهارِ

٢ — حَبيبًا إلى الفِتْيانِ صُحْبَةُ مِثْلِهِ إذَا شانَ أصحابَ الرِّحالِ الحقائبُ

انتصب حَبيبًا على الحال للضمير في قوله «بعده». وصُحبةُ ارتفع على أنه قامَ مَقام فاعل حبيبًا. ويروى «حبيبٌ إلى الفِتيان» فيكون خبرًا مقدَّمًا، والمبتدأ صحبة مثله. وجواب إذا ما يدلُّ عليه صدر البيت، كأنه قال: إذا بَخِل أصحابُ الرِّحال بالزاد فشانَهم امتلاءُ حقائبهم وقلّةُ إنفاقهم منها، ففي ذلك الوقت

(١) التبريزي: «أبو الحجناء مولى بني أسد». وأبو الحجناء هذا غير أبي الحجناء نصيب الذي تقدمت ترجمته في الحماسية ٢٩٤. فتلك الحجناء ابنة نصيب، وفيها يقول:

لقد أصبحت حجناء تبكي لوالد بدرة عين قل عنه غناؤها

والحجناء في هذه الحماسية اسم رجل هو ولد الشاعر، وهي تسمية نادرة.

(٢) وقد تابع التبريزي المرزوقي في هذا الفهم متأثرين بالشاهد الذي سيأتي في نهاية تفسير هذا البيت. والأوفق أن يكون المراد عواقب الأيام والدهر.

(٣) في نسخة الأصل: «بخروجه».

(٤) هو الربيع بن زياد، اللسان (قوى) وشروح سقط الزند ١١٤٦. والبيت في العمدة (١: ٩٤) بدون نسبة.

يَستحِبُّ الفِتيانُ صحبةَ مثلِ أبي حَجناء ، لحُسْنِ توفُّره ، ورَحابة صـدرِه ، وكرم صحابته ، وجميل تفقدِه لأصحابه . وإنما قال « صحبةُ مثلِه » ولم يقل صحبتُه ، إجلالاً له ، وصيانةً لاسمه ، لا إثباتاً لنظيرٍ له[1] . وعلى هذا قولهم : مِثلُ فلانٍ لا يُوازَى ، و مثلُك لا يَفعل كذا . وفى القرآن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ﴾ .

٣ — نِظَامُ أُناسٍ كان يجْمَعُ شَمْلَهُمْ ... ويَصْـدَعُ عنهم عادياتِ النَّوائبِ[2]

يريد أن داره كان مجمعًا لأناسٍ هو ينظِم شَمْلهم ، ويؤلِّف جمعَهم ، فإنْ حَزَبهم من النَّوائب عادياتُها فرَّقها عنهم ، وإن حَلَّ بِفِنائهم من أثقال الزمان ما ينهَظُهم[3] آساهم وتحمَّل عنهم . وقوله « عادياتِ » يجوز أن يكون من العَدَاء الظُّلْمِ ؛ يقال عَدا يعدو عُدُوًّا[4] وعَدَاء وعُدوانًا . ويجوز أن يكون من العَدْو ، يريد مسرعاتِ النَّوائب وصادماتها . ومعنى يَصـدَع يُفرِّق ، ومنه تصدَّعت الأرضُ بفلانٍ ، إذا تغيَّب فارًّا .

٤ — وجَرَّبْتُ ما جَرَّبْتُ منه فسَرَّنى ... ولا يَكْشِفُ الفِتْيانَ غيرُ التَّجارِبِ

يريد أن ينبِّـه على أنَّ ما وصـفه به لا عن تقليدٍ أو شكٍّ والتباس ، ولا عن تخمينٍ أو حَدْسٍ وقياس ، بل عن تجريب واستكشاف على مرِّ الأيام . فيقول : لم أرضَ منه بعفوِ أفعالِه وما يختاره فى مقاصِدِه ، بل أخذْتُ أستدرجُه وأتعرَّف غَوْرَ[5] مقالِه وفعاله بالسَّبْر والنَّظَر ، فلم أرَ إلاَّ ما سَرَّ وآنَسَ ، وزاد فى العلم به فأبهج . وقوله « ولا يَكشِفُ الفتيانَ غيرُ التَّجارب » ، يشبه الالتفات ،

(١) هذا ما فى ل وفى نسخة الأصل : « لا إثبات النظير له » .

(٢) هذه رواية الأصل . وفى ل : «يجمع بيننا» . وكتب فوقها : «بينهم» . ورواية التبريزى « بينهم » .

(٣) كذا على الصواب فى ل . وفى نسخة الأصل : « يتحفظهم » .

(٤) وعدوا أيضا ، بفتح العين وسكون الدال .

(٥) هذا ما فى ل . وفى نسخة الأصل « غرر » .

كأنه أقبلَ بعد ما خبَّر، على إنسانٍ فقال : إنَّ الفتيان تتشابهُ ظواهرُ أمورهم ، ولم يخبرْك عنهم مثلُ مجرِّب . ولهذا قيل فى المثل السائر :

تَرَى الفِتيانَ كالنَّخـلِ وما يُدْرِيكَ ما الدَّخلُ[1]

٥ — بَعيدُ الرِّضا لا يبتغى وُدَّ مُدْبِرٍ ولاَ يَتَصَدَّى للضَّغِينَ المُغاضِبِ

قوله « بعيد الرِّضا » يريد أنه ليس بسريع الفَيئة إذا سَخِطَ ، لـكنه يَغرُك أذَى مُجاذِبِه ومجاوِره بجَنْبه ، ويصبر ما أمكن ، فإذا أظهرَ النكيرَ[2] ، وتلقّى ما يزاوله بالضَّجَر الشديد ، لم يُرْضِه أدنى المعاذيرِ فِعْلَ مَن لا حميّـة له ولا عزيمة . وقوله « لا يبتغى وُدَّ مُدْبِرٍ » وَصَفه بأنه آخِذٌ بالصُّرْم إذا أُحوِجَ إليه ، غيرُ راغبٍ فى الزَّاهد فيه . وهذا كما يقال : فلانٌ وَصَّالٌ صَرُوم .

وقولُه « ولا يتصدَّى للضَّغِينِ المغاضب » معنى يتصدى أن ينظر إليه نظرَ غيرِ محتفلٍ به ، وكالمعْرِض عنـه ، حتى يخرجه ذلك إلى ما يطلبه . يريد أنه لا يتعرَّض لعدوِّه والمضطغِن عليه ، بل يتركه ينطوى على ما فى صدره من غِلٍّ وعداوة ، ولا يُخرجه[3] إلى مبادرةٍ ومكاشَـفة ، بل يجرى على المداجاة معه ، منتظراً ما يكون منه ، ومحاذِراً ما يُتّقى من جهته . وهذا كما قال الآخر[4] :

* أفِرُّ من الشَّرِّ فى رِخْوِهِ[5] *

---

(١) البيت لعثمة بنت مطرود البجلية ، كما فى أمثال الميدانى (١ : ١٢٣) . وقد ضمنته ابنة الخس شعراً لها فى البيان (١ : ٢٢٠) واللسان (١٨ : ١٧٩ — ١٨٠) .

(٢) النكير : الإنكار ، وفى الأصل : « النكيرة » ، وأثبتنا ما فى سائر النسخ . انظر لفظ « النكيرة » ما مضى فى الحماسية ٢٧٢ ص ٨٢٥ .

(٣) ل : « يحرجه » بالحاء المهملة .

(٤) هو أبو ثمامة بن عازم . الحماسية ١٨٧ ص ٥٧٩ .

(٥) سبق برواية : « رخوة » . وعجزه :

* فكيف الفرار إذا ما اقترب *

وقد ألمّ بقول الآخر (١) :

إذا حاربْتَ حاربَ من تُعادِي وزاد سِلاحُه منك اقترابا

٦ – وكنتُ إذا ماخِفْتُ أمرًا جَنَيْتُه يُخَفِّضُ جأشى ضَبْنُكَ المتراغِبُ (٢)

يصفه بحُسن المدافعة عن متسبِّبٍ إليه ، ومبالَغة النُّصرة لمن أوى إلى جَنْبَته ، فيقول : إذا خفتُ جريرةً ارتكبتُها ثم لُذْتُ بفنائك ، واعتمدتُ تعصُّبَك ، سكّن من جأشى وأزال قلقى قَبْضُك الواسع ، ودَفْعك المحامِى ، وذبُّك المبالِغ (٣) .

وقوله « المتراغب » يُروى بالغين معجمة وبالعَين ، فإذا روى بالغين معجمةً فهو من الرَّغابة . ويقال : وادٍ رَغيبٌ ، وحَوض رغيب ، أى واسع ؛ ورجلٌ رَغيبُ البطنِ ، أى أكُول . ومن روَى بالعين غير معجمة فهو من قولهم سيل راعِبٌ : يملأ الوادى . ومنه حِسْىٌ متراعِب ، أى واسعٌ لا يملؤه شيء . ومعنى يُخفِّض جأشى يسكِّن نفسى . ويقال : هو رابط الجأش ، أى قوىُّ النفس ؛ وخافِض الجأش ، أى ساكنه . والخفض : ضدُّ الرفع . والتخفيض : مَدُّك رأسَ البعير إلى الأرض . والضَّبْث : القبض الشديد ، ومنه يقال : ناقةٌ ضَبوثٌ ، أى سمينة لا يُشَك فى سِمَنِها ، كأنّه فعول فى معنى مفعولة ، أى حيث ضُبِثَ منها باليد ملأَت الكفَّ لحمًا .

٣١٣

وقال آخر :

١ – إذا ما امرُؤٌ أثنى بآلاء ميِّتٍ فلا يُبْعِدِ اللهُ الوليدَ بنَ أدْهَمَا

---

(١) هو ربيعة بن مقروم . الحماسية ١٧٧ ص ٥٤٣ .

(٢) أشار التبريزى إلى رواية : « ضبنك المتراغب » . والضبن ، بالكسر : الكنف والناحية .

(٣) ل : « البالغ » .

٢ – فما كانَ مِفْراحًا إذا الخيرُ مسَّهُ ولا كانَ منّانًا إذا هوَ أنعمَا[١]
٣ – لعمرُكَ ما وارَى التُّرابُ فعالَهُ ولكنَّما وارَى ثِيابًا وأعْظُما

الآلاء: النِّعَم، واحدها إلَى. ويعنى بها صنائعَهُ ومِنَنَهُ عند الناس. فيقول: إذا ذُكِرَ مُنعَمٌ عليه إحسانَ المنعِمِ عليه، وأياديَه لديه، فشَكَرَ ثمَّ تجاوزَ الشكر إلى الثَّناء فأفرط، فلا أبعَدَ اللهُ هذا الرجل. وهذا الكلامُ وإن كان دعاء فى موضعه الذى استعمل فيه أبلغُ من كلِّ ثناء، وأَزْيَدُ من كلِّ تقريظ وإطراء. ولذلك اقتصر عليه ولم يخلط به غيره.

وقوله «فما كانَ مِفْراحًا إذا الخير مسَّه» يصفُه بأنه لا يُطغيه الغِنى فيكْسِبُه كِبْرًا وبَأْوًا، بل يزدادُ تواضُعًا فيما يناله، وتودُّدًا إلى الناس على اتّساع حاله، حتى يُشْرِكَهم فى خيره. وقوله «ولا كان مَنّانًا إذا هو أنعما» يصفُه بأنه لا يُكدِّر نعمةً عند غيرِه بالمنِّ والأذى، بل يتناساها حتى يكون فى صورة من لم يُسْدِ ولم يصطنِع.

وقوله «لعمرك ما وارى التُّرابُ فعاله» يريد أنَّ مكارمَه لم تَمُتْ بموته، ولم تُدفَن فى قبره، بل هى منشورةٌ فى النَّاس لا تُنسَى، ومأثورةٌ لا تُلغَى، فهى على مرِّ الأيّام تزداد جِدَّةً، وعند النّاس طَرَاءةً، لأنَّها تُذكَر وتُتلَى، ولأنَّ ما سُيِّرَ فيه من الشِّعر والمدائح تُقرأ وتُروَى. وقوله «ولكنّما وارى ثيابًا وأعظُما» الفعل للتُّراب، وهذه إشارةٌ إلى الكفَن ونفس المتوَفَّى، وفيه من إظهار التوجُّع ما كفَى وأغنَى.

---

(١) روى التبريزى بين هذا البيت وتاليه:

ونادَى المنادِى أوّلَ اللّيلِ باسمِهِ إذا أجْحَرَ الليلُ البخيلَ المذمّما

أجحره: ألزمه بيته فلم يبرز لضيف أو طارق ليل.

٣١٤

وقال أبو الشَّغْب العَبْسى[1]

فى خالد بن عبد الله[2]، وهو أسيرٌ فى يدَىْ يوسُفَ بنِ عُمَر :

١ — ألَا إنَّ خيرَ النَّاسِ حَيًّا وهالِكًا أسيرُ ثَقيفٍ عِنْدهُمْ فى السَّلاسلِ[3]

قوله « حَيًّا وهالكا » يجوز أن ينتصب على الحال والعامل فيه ما دلَّ عليه خير الناس ، ويكون الكلام ثناء على المخبرَ عنه بخير النَّاس ، و يجوز أن ينتصب على التمييز ، وحينئذٍ يكون تفصيلاً للنّاس ، كأنّه قال : إنَّ خير الناس من الأحياء والأموات أسيرُ ثَقيف . وقوله « عندهم » يجوز أن يكون فى موضع الحال ، ومعناه حاضرًا لهم وقريبًا منهم ، ويكون العامل فيه ما دلَّ عليه أسير ثَقيف ، ويكون فائدة الكلام أنّه كان يجوز أن يكون أسيرًا لهم ولم يكن عندهم ، فأفاد أنّه أسيرُهم وحاصِلٌ بحضرتهم . وكذلك قوله « فى السَّلاسل » يجوز أن يكون فى موضع الحال ويكونَ العامل فيه ما عمل فى الظَّرف ، فيكون تقديره بحضرتهم مقيَّدًا ، و يجوز أن يكون العامل فى عندَهم ما دلَّ عليه قوله فى السَّلاسل من الفعل .

---

(١) أبو الشغب العبسى : شاعر من شعراء الدولة الأموية ، واسمه عكرشة ، كما سيأتى فى الحماسية ٣٦٣ التى يرثى بها ابنه شغباً ، وكما فى أمالى القالى (٢ : ٨٨) .

(٢) هو خالد بن عبد الله القسرى ، كان واليا على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجبال ، وأخوه أسد بن عبد الله كان أيضا واليا على خراسان ، وكان بدء ولايتهما سنة ١٠٦ وعزلا سنة ١٢٠ . وهذه الحماسية ليست من مراثى الأموات ولكنها تمجيد من أبى الشغب لخالد وتنويه به ، فهى من مراثى الأحياء . يقال : رثيت للحى رثيا ومرثاة ، أى توجعت له ورققت . وكان من خبر خالد أن الوليد بن يزيد بن عبد الملك لما ولى الخلافة — وأمه أم الحجاج ابنة محمد بن يوسف الثقفى ، كما فى التنبيه والإشراف — دفع بخالد الى يوسف ابن عمر عامله على العراق ، فحمله إلى الكوفة وعذبه حتى قتله ، وذلك فى سنة ١٢٦ . تاريخ الطبرى .

(٣) رواية الجاحظ فى البيان (٣ : ٢٣٦) :

ألا إن خير الناس قد تعلمونه أسير ثقيف موثقاً فى السلاسل

٣ — لَعَمْرِى لقد عَمَّرتُم السِّجْنَ خالِدًا وأَوْطَأْتُمُوه وَطْأَةَ المُتَثَاقِلِ [١]

هذا الكلام تفظيعٌ للأمر الذى رَكبوه ، وإعلامٌ منه بأنَّهم أتَوْا قبيحا من الأمر منكرًا ، عمَّ وبالُه النّاسَ وظهر تأثيرُه فيهم . فهذا فائدة اليمينِ وجوابُها . وقوله « عمَّرتم » أى أدمتم سَجْنَه وأطلتم حَبْسَه ، كأنَّهم جعلوا خالدًا للسِّجن عُمْرَهُ . والعُمُر : السُّنُونَ والحين ، ومنه قوله تعالى ﴿لَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا[٢]﴾ . وقوله « وأوطأتموه وطأَةَ المتثاقِل » يجوز أن يكون وطأة مصدرا من أوطأتموه وإن لم يكن من لفظه ، وهذا كما يُجعَل العطاء موضعَ الإعطاء ، والجابة موضع الإجابة . والمفعول الثانى محذوف ، كأنَّه قال : أوطأتموه السِّجنَ أو الأرضَ إيطاء المتثاقِل ، أى أثقلتموه . ويجوز أنْ يريد : أوطأتموه فوطِئَ وطأة المتثاقل ، أى يَفعَل فعلَ المتثاقل وإن لم يكن معه تثاقُل ، هو يطأ عَقِبَه .

٣١٥

وقال مُهَلْهِلٌ[٣] :

١ — نُبِّئتُ أنَّ النَّارَ بَعْدَكَ أُوقِدَتْ واسْتَبَّ بَعْدَكَ يا كُلَيبُ المجلِسُ

---

(١) فى ل : « لئن عمرتم » وكتب فوقها : « خ : لقد » ، أى هى كذلك فى نسخة . ورواية البيان : « لئن أعمرتم » . ورواية التبريزى تطابق رواية ل والبيان . وروى بعده التبريزى :

لقــد كان يَبنِى المَكرُماتِ لقومهِ ويُعطِى اللُّهَى فى كُلِّ خَيرٍ وباطلِ
فإن تسجُنوا القَسْرِىَّ لا تسجُنوا اسْمَهُ ولا تسجُنوا مَعــرُوفَه فى القبائلِ

ورواها الجاحظ ، لـكن روى الأول على هذا الوجه :

لقد كان نَهَّاضا بكل ملمَّــة ومُعطِى اللُّهَى غمراً كثيرَ النوافلِ

(٢) العمر ، بضمتين : لغة فى العمر بضمة واحدة . وبالأخيرة انفرد الأعمش . تفسير أبى حيان (٥ : ١٣٣) .

(٣) اسمه عدى بن ربيعة ، وقالوا : سمى مهلهلا لأنه أول من أرق الشعر وهلهله . وهو أخو كليب بن وائل الذى هاجت بمقتله حرب بكر وتغلب ، وهو كذلك خال امرئ القيس =

٢ — وتَكَلَّمُوا فِي أمْرِ كُلِّ عَظِيمَةٍ لَوْ كُنْتَ شاهِدَهُمْ بِهَا لَمْ يَنْبِسُوا

كان كليبُ وائلٍ لا تُوقد معَ نارِه للضِيفانِ نارٌ فى أحمائه ، وفيما يَقرُب مِن منازلِه وأوطانه ، بل يتفرّد بذلك لا مبارِيَ له ولا مشارِك ؛ وكان إذا حَضَرَ مجلسَهُ النّاسُ لا يجسر أحدٌ أن يُجاذِبَ غيرَه أو يفاخرَه أو يسابَّه ، إعظامًا لقدْرِه وإجلالًا لشأنِه وأمْرِه ، فيقول على وجه التحسُّر : خُبِّرْتُ أنَّ نِيرانَ الضِّيافة بعدكَ أُوقِدَتْ لسُقوط احتشامك ، وأنَّ أهلَ المجلس تنازَعُوا الكلامَ بَعدكَ وتجاذبوه ، حتّى صار بعضُهم يسبُّ البعضَ ويصكُّ فى وجهه الكلامَ القبيح ، لا رِقْبَةَ تَردَعُهم ، ولا حِشمةَ تدفعُهم .

وقوله « وتكلَّموا فى أمرِ كلِّ عظيمةٍ » ، يريد أنَّ الكلامَ منهم فيما يَدهَمهم من النُّوَب[1] نُهبَى ، لأنّهم صاروا سُدًى لا يَبِين التّابعُ من المتبوع فيها ، ولا الرئيس من المرءوس ، حتّى صار تدبيرُ العظيمة بينهم فوضَى فضًا ، يتناهبون إدارةَ الكلام فى دفعها ، ويتجاذبون إجالةَ الرّأى فى رفعها ، ولو كنتَ حاضرَهم ما جَسَرُوا أن يتقدَّموا بين يديك بارتجالِ خطاب ، أو رَجْعِ جواب . ويقال :

= وجد عمرو بن كلثوم . الأغانى (٤ : ١٣٩ — ١٥١) والخزانة (١ : ٣٠٠ — ٣٠٤) والمرزبانى ٢٤٨ واللآلى ٢٦ — ٢٧ ، ١١١ — ١١٢ والشعراء ٢٥٦ — ٢٥٩ . وكان من خبر مقتل كليب أن كليباً بلغ من بغيه أنه كان يحمى من المرعى مدى صوت كلب فيختص به ، حتى قالت العرب « أعز من كليب وائل » . وكان قد تزوج جليلة بنت مرة ، وأخوها جساس بن مرة كان له خالة تسمى « البسوس » جاورته ولها ناقة يقال لها « سراب » فرت إبل كليب بسراب وهى معقولة بفناء البسوس ، فلما رأت الإبل نازعت عقالها وتبعت إبل كليب ، فلما رآها رمى ضرعها فنفرت حتى بركت بفناء صاحبتها فبرزت صارخة تصيح : وا ذلاه ! فلما سمع جساس صوتها سكنها وقال : والله ليقتلن غدا جمل عظيم أعظم عقراً من ناقتك ! فر جساس بكليب وهو على غدير الذنائب منفرداً فقتله . انظر الخزانة والعقد فى (أيام العرب) والأغانى .

(١) النؤب ، كذا وردت مهموزة فى الأصل ، فيكون من همز المعتل . وفى اللسان : « والنائبة : النازلة ، وهى النوائب والنوب ، الأخيرة نادرة » .

كَلَّمتُه فما نَبَس ، أى لم يتكلَّمْ بحرف ، وما سمعتُ للقول نَبْسَةً ولا زَنْجة . وقوله « استبَّ » يقتضى اثنين فصاعدًا ، وإنَّما تمّ بِالمجلسِ ، لأنَّ المراد به أهلُ المجلس ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، كقوله تعالى : ﴿ وَسَلِ ٱلْقَرْيَةَ(١) ﴾ ، وقولِ العرب : بنو فلان يَطَؤهمُ الطَّريق .

٣١٦

وقال آخر :

١ — لَقَدْماتَ بالبَيْضاءِ مِنْ جانِبِ الحِمَى   فَتًى كان زَيْنًا للمواكِبِ والشَّرْبِ
٢ — تَظَلُّ بنَاتُ العَمِّ والخالِ حَوْلَهُ   صَوَادِيَ لا يَرْوَيْنَ بالبارِدِ العَذْبِ
٣ — يَهِلْنَ عَلَيْهِ بالأَكُفِّ مِنَ الثَّرَى   وما مِنْ قِلًى يُحْثَى عليه من التُّرْبِ

الحِمَى : اسمٌ للموضع الذى فيه الماء والكلأ وقد دُفِع عنه النَّاس(٢) . ويقال : أحميت المكانَ ، إذا جعلتَه حِمًى . وقوله « بالبيضاءِ مِن جانب الحِمَى » توقيتٌ للمكان الذى وقع فيه الحادثة ، وذلك إعظامٌ لخطْبِها ، وتفظيعٌ لشأنها . وقوله « كانَ زَيْنًا للمواكب والشَّرب » يصفه بالرِّياسة ، وأنَّه كان يَزِين المواكبَ خَلْفَه من حيث يستحقُّ التعظيمَ والتَّقديمَ والاتِّباع ؛ لم يَرِثْ ذلك فيهم عن كَلالةٍ(٣) ، فهو كما قال الأعشى :

(١) هذه قراءة ابن كثير والكسائى وخلف ، وذلك بنقل حركة الهمزة إلى السين ثم حذفها فى أمر المخاطب إذا تقدمه واو أو فاء ، وسائر القراء بإثبات الهمزة فى ذلك . فإن لم يتقدمه ذلك فالكل متفقون على النقل نحو سل بنى إسرائيل ، وإن كان لغائب فالكل بالهمزة نحو وليسألوا ما أنفقوا ، إلا حمزة وقفاً . تفسير أبى حيان (٣ : ٢٣٦) وإتحاف فضلاء البشر ١٨٩ .

(٢) عينه ياقوت فى رسم (البيضاء) بأنه حمى الربذة ، قال : « والبيضاء : موضع بقرب حمى الربذة » ، وذلك حيث أنشد هذه الحماسية .

(٣) الكلالة : كل ما لم يكن من النسب لحا .

* كلٌّ سيَرضَى بأن يُلقَى له تبعا[(١)] *

وقوله « والشَّرب » يريد أنَّ مَن نادمَهُ واختلط بأهل مجلسِه زانه ذلك ولم يَشِنْه ، لِمَا سُلِّمَ له من الاعتلاء والفَضل ، والسَّابقة فى الرِّياسة والطَّول .

وقوله « تظلُّ بنات العمّ والخال حوله صوادِيَ » أراد أنَّ غليلَهن وحَمْيَ أكبادِهنَّ لا يزول بالبارد العذب من الماء ، إذْ لم يكن ذلك عن عطاشٍ ، ولكن كان لِمَا اهتاجَ فى صدورهنَّ من بوارح التوجُّع ، ولواذع الغموم والتفجُّع ، حتَّى كُوِيت أكبادُهن بمواسمها ، واحترقتْ أحشاؤهنَّ من لفح نوائرها .

وقولُه « يَهِلن عليه بالأكفِّ من الثَّرى » يريد أنَّ النوائح لما هِلْنَ التُّرابَ عليه لم يَفعلن ذلك عن بُغض وإهانة ، ولكن إظهاراً لما أفضَى إليه أحوالُهنَّ من السقوط فى الترابِ والالتزاق به ، ولِمَا شمِلهنَّ من الصَّغار والابتذال بموته . ويقال : هِلْتُ الترابَ وغيرَه أهِيله هَيْلاً . وفى الحديث : « أتكيلون أم تَهيلون ؟ قالوا : نَهيل . قال : فكيلوا ولا تَهِيلوا[(٢)] » . وحثَوْتُه أحثوه حَثْوًا . والصَّوادى : العِطاش ، والفعل منه صَدِيَ يَصْدَى صَدًى .

٣١٧

وقالت جارية

ماتت أُمُّها فأضرَّت بها رابَّتُها[(٣)] :

١ — ولوْ يَأْتِى رَسُولى أُمَّ سَعْدٍ   أَتَى أُمِّى وَمَنْ يَعْنِيهِ حاجِى

(١) كذا ورد نصه فى جميع النسخ . وانظر ما سبق من بيان الرواية فيه ص ١٢١ .
(٢) نصه فى اللسان (هيل) : « وفى الحديث : أن قوما شكوا إليه سرعة فناء طعامهم ، فقالوا : أتكيلون أم تهيلون ؟ فقالوا : نهيل . فقال : كيلوا ولا تهيلوا ؛ فإن البركة فى الكيل . وذكر قبله : « الجوهرى : هلت الدقيق فى الجراب : صببته من غير كيل » .
(٣) الرابة : امرأة الأب . التبريزى : « فأضرت بها امرأة أبيها » .

٢ – ولكنْ قد أتى مَنْ بَيْنَ وُدِّى وبينَ فؤادِهِ غَلَقُ الرِّتاجِ

٣– ومَن لم يُؤْذِهِ أَلَمٌ برأسى وما الرِّئْمانُ إلاّ بالنِّتاجِ

كأنها لما ناكدتْها رابَّتُها ، ولجّت فى إهانتها والإضرارِ بها ، راسلت أباها تُطْلِعه على ما تُقاسى منها ، وتستمدُّ التعصُّب لها رجاء أن يزجرَها ، فلم ترَ مِن عطفِه عليها ما يُرضيها ، ولا مِن إنكاره فيها ما يَردَعُها ، فلمّا استمرت الحالُ بها على طريقةٍ واحدة اقتصَّتْها شاكية فقالت : لو وَرَدتْ رسالتى على والدتى ومَن يُهِمُّه أمرى لاقتضَتْها الشفقةُ الاعتناء بشأنى ، وعطَفَتْها الأمومةُ على ما أقترِحُه من حاجى ، ولكن قد وَرَدتْ على من صُرِف ودُّه عنّى ، وحيل بينه وبين الحنوِّ علىّ ، فانسدَّت طُرُق الأمل فيه ، وأُغلقت أبوابُ الخير مِن جهته ، فلا اهتزازَ لمأربة ، ولا انبعاثَ لدفع مَضرّة ، ولا توجُّعَ لشكوى تظهر ، ولا تَرَحُّمَ لبلْوى تُذكر . وما ذلك إلاّ لأنَّ علائق الوِداد تستحكم بالنِّتاج ، ومعاقدَ الإشفاق تَتوثَّق بالوِلادِ ، فبهذا انفصلت الأُبُوَّة عن الأمومة ، وضعفت الأسبابُ إلاّ عن الرَّضاع والحْضانة .

وقولُه « وما الرِّئمان إلا بالنِّتاج » فيه بعضُ ما فى المثل السائر ، وهو « ابنُكِ مَن دَمّى عقِبَيْكِ » . يريد من قمتِ عنه وقد ولدْتِه . وفى المثل الآخر : « ابنُكَ ابنُ بُوحِكَ[1] » أى الناشئ فى باحة دارِكَ . والباحَة : عَرْصة الدار ، وجمعها بُوح . والرِّئمان : العَطف ، يقال رئِمْتُه أرْأَمُه رَأْمًا ورِئمانًا ، ثم يسمَّى الولد رأْمًا ، وهو المرءوم . قال أبو ذُؤَيب :

كعُوذِ المُعطَّف أحْزَى لها بمَصْدَرةِ الماء رَأْمٌ رَذِى[2]

(١) الميدانى : « يقال البوح النفس ، فإن صح هذا فيجوز كسر الكافين وفتحهما . ويقال البوح الذكر ، فعلى هذا لايجوز الكسر » .

(٢) ديوان الهذليين (١ : ٦٦) .

٣١٨

وقالت أُمّ الصَّرِيح الكِنديَّةُ :

١ – هوَتْ أُمُّهم ماذا بهِمْ يومَ صُرِّعوا ... بجَيْشانَ مِنْ أسبابِ مَجْدٍ تَصَرَّما[١]

٢ – أَبَوْا أن يَفِرُّوا والقَنَا فى نُحُورِهم ... ولم يَرْتَقُوا مِن خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا[٢]

٣ – ولو أنَّهُمْ فَرُّوا لكانوا أعِزَّةً ... ولكنْ رأَوْا صبرًا على الموتِ أكْرَما[٣]

قوله « هوَتْ أُمُّهم » أى هلكت . والمَهْوَاةُ والهُوَّة والهاوية والأُهْوِيَّة والهُوَّاءة على فُعَّالةٍ بمعنًى ، وهو ما بين أعلى الجبل أو البئر إلى المستقَرّ . وفى القرآن : ﴿ فأُمُّه هاوِيَةٌ ﴾ ، قيل هى اسمٌ لجهنَّم ، أى هى مأواهم كما تُؤوى الأمُّ الولدَ ، وقيل هى من هوَتْ أُمُّهم ، وهذه اللفظة تُستعمل عند الداهيةِ يُشْرِف عليها الإنسانُ أو يقعُ فيها ، وفيها معنى التعجُّب والاستفهام . على ذلك قوله :

هَوَتْ أُمُّه ما يَبْعَثُ الصُّبحُ غاديا ... وماذا يؤدِّى الليلُ حينَ يؤوبُ[٤]

وعلى الأوّل قول الآخر[٥] :

* كنتَ كمَن تَهْوِى به الهاويه[٦] *

وقيل : هوَتْ أُمُّهم ، معناه أُمُّ رءوسهم هاويةٌ فى الهُوَّة أو فى النار . وتلخيص البيت : هَوَتْ أُمُّهم أى شىء تصَرَّم بهم من أسباب المجد يوم صُرِّعوا

---

(١) جيشان : مخلاف باليمن . وقد أنشد هذه الأبيات ياقوت فى رسمه .

(٢) ياقوت : « فى صدورهم » .

(٣) التبريزى : « فلو أنهم » .

(٤) البيت لكعب بن سعد الغنوى فى اللسان (هوا) وأمالى القالى (٢ : ١٥٠) ، والخزانة (٤ : ٣٧٣ — ٣٧٥) .

(٥) هو عمرو بن ملقط الطائى . اللسان (هوا) .

(٦) صدره : * يا عمرو لو نالتك أرماحنا *

بجَيْشان ، وهو عَلَمُ البقعة[(١)] اتَّفقت الوقعةُ بهم فيها . وماذا إن شئت جعلتَ ما اسمًا مبتدأً وذا خبره ، وإن شئت جعلتَ ما مع ذا اسمًا واحداً ويكون مبتدأً وتصرَّم فى موضع خبره . وهذا الكلام مخرجه على الاستفظاع والتعجُّب .

وقوله « أبَوْا أن يَفِرُّوا » يصف ثباتَهم فى وجه البلاء ، وصَبْرَهم على الطِّعان والوِقاع . والواو من قوله « والقَنا فى نُحُورهم » واو الحال ، أى امتنعوا من الإحجام والنُّكوص فلم يطلبوا وجهَ المَهْرَب ، ولا سلكوا طُرقَ المَخْلص ، مع الإمكان والتمكُّن ، وتمهُّد المَعذِرة عند الناس فيما يأتونه والتنصُّل ، ومع العِلم باستظهار الأعداء عليهم ، وقُعود العجز عن الوفاء بهم .

ثم قال « ولو أنهم فرُّوا لكانوا أعزَّة » أى لو تأخَّروا وكَفُّوا لما لحقهم ذُلٌّ فيه ولا غضاضة ، ولا تَسلَّطَ على عِزِّهم نقيصةٌ وحَقارة ، ولكن وجَدوا الصبرَ على الموت ، والاستقتالَ بعد اللِّقاء أكرمَ فى الأُحدوثة ، وأنفَى للعار والمَذَمَّةِ .

٣١٩

وقال الحسين بن مُطَيْرٍ[(٢)] :

١ — ألِمَّا عَلَى مَعْنٍ وقُولاَ لِقَبْرِه سَقَتْكَ الغوادِى مَرْبَعًا ثم مَرْبَعَا[(٣)]

٢ — فيا قَبْرَ مَعْنٍ أنت أوّلُ حُفْرَةٍ من الأرض خُطَّت للسَّماحَةِ مَضْجَعَا[(٤)]

---

(١) ل : « علم لبقعة » .

(٢) هو الحسين بن مطير بن مكمل ، مولى لبنى أسد بن خزيمة ثم لبنى سعد بن مالك بن ثعلبة بن دودان بن أسد . وهو من مخضرمى الدولتين ، شاعر مقدم فى القصيد والرجز فصيح ، قد مدح بنى أمية وبنى العباس ، وكان زيه وكلامه يشبه مذاهب الأعراب وأهل البادية . الأغانى (١٤ : ١١٠ — ١١٤) والخزانة (٢ : ٤٨٥ — ٤٨٨) . وعند ابن النديم ٢٣٠ أن شعره نحو مائة ورقة . والأبيات فى الأغانى والخزانة والقالى (١ : ٢٧٥) .

(٣) الأغانى والخزانة : « ألما بمعن ثم قولا لقبره » .

(٤) الأغانى والخزانة : « كنت أول حفرة » .

يخاطب صاحبَين له ، يسألهما زيارة قبرِ معن و إبلاغَه عنه أنه مقيمٌ على ما هو دأبه ووُكده من طلب السُّقيا له ، فواصَلَ اللهُ ذلك لك من السُّحُب التى تنشأ غُدوَةً ، ربيعًا[١] بعد ربيع . والمعنى : دامت النَّضارة والطَّراوة . وإنما خصَّ الغوادىَ لأنَّ المرادَ حصولُه له غداةَ كلَّ يوم . وقوله « مَرْبَعًا » يجوز أن يكون ظرفاً ، ويكون أن يكون مفعولا ، ويكون المربع والربيع المطرَ نفسَه . قال الخليل : وقد يسمَّى الوسميُّ ربيعًا . ويكون المعنى : سَقَتْك مطرًا الغوادى بعد مطر . ويجوز أن يكون مصدرًا من قولهم رُبِعَت الأرضُ ، إذا أصابها الرَّبيع ، فكأنه قال : رَبعَتْكَ الغوادى مَرْبَعًا بعد مَرْبَعٍ ، أى سقتك الغوادِى سقيًا بعد سقى .

وقوله :

* فيا قبر معنٍ أنت أوّلُ حفرةٍ *

يحتمل وجهين : أحدهما أن يكون مثلَ قول الآخر[٢] :

كأن لم يَمُتْ حَىٌّ سِواكَ ولم تَقُمْ   على أحَدٍ إلّا عليكَ النوائحُ

ويكون الكلام تفظيعاً للحال ، وتنبيهاً على أنَّ ما وقع لم تجرِ العادةُ بمثله ، فهو مُستبدَعٌ لِعِظَمِ موقعِه فى النُّفوس ، حتى كأنَّه لم يُرَ قبرٌ قبلَه دُفِنَ فيه كريم . والآخر أن يكون المعنى : أنتَ أول حَفيرة استُحدِثَتْ لتُوارَى فيها السَّماحة والسَّخاء والمروءة ، فتصيرَ مضجعاً لها ، ويكون المعنى أنَّ السَّماحةَ ماتت بموتِ مَعْنٍ ودفنتْ بدفنه ، وأنت أوّلُ خُطَّةٍ اختُطَّت للسَّماحة نفسِها . وقوله «مضجعاً» انتصَبَ على الحال .

---

(١) ل : « وربيعا » .

(٢) هو أشجع السلمى . الحماسية ٢٨٠ ص ٨٥٩ .

٣— ويا قَبْرَ مَعْنٍ كيف وارَيْتَ جُودَهُ ... وقد كان منه البَرُّ والبَحْرُ مُتْرَعا

٤— بَلَى قد وَسِعْتَ الجُودَ والجودُ مَيِّتٌ ... ولو كان حَيًّا ضِقْتَ حتى تَصَدَّعا

كرَّرَ مناداةَ القبر توجُّعًا وتحسُّرًا ، ثم أخذ يتعجَّب ويقول مُنكراً : كيف سَتَرتَ جوده ، وقد كان مِلئًا للبرِّ والبحر معًا . وفى طريقته قولُ الآخَر(١) :

عَجبًا لأربَعِ أذرُعٍ فى خَمسةٍ ... فى جوفها جَبَلٌ أشَمُّ كَبيرُ

فإن قيل : لم قال مُتْرَعًا فوحَّدَ والإخبار عن البرّ والبحر جميعاً ؟ قلتَ : يجوز أن يكون إنما وَحَّد لأنَّه نوَى التَّقديم والتأخير ، كأنه قال : وقد كان منه البرُّ مُترعًا والبحر ، أى والبحر أيضاً مُترع ، فيرتفع البحرُ بالابتداء ، واكتفى بالإخبار عن الأوّل إذ كان المعطوف كالمعطوف عليه . ومثله :

* فإنِّى وقَيَّارًا لغريبُ(٢) *

يريد : إنّى لغريبٌ بها وقيار أيضاً غريب ، وهو اسم فرسِه . ويجوز أن يكون لمَّا علم أنَّ المعطوفَ حكمُه حكم المعطوف عليه اكتفَى بالإخبار عن أحدهما ، ثِقَةً بأنَّ الثَّانى عُلِمَ أنّه فى حكمه . ومثله :

رَمانِى بأمرٍ كنتُ منه ووالدى ... بريئًا ومن أجْلِ الطَّوِيِّ رَمانى(٣)

وقوله :

(١) هو عبد الله بن أيوب التيمى . الحماسية ٣٢٧ .

(٢) لضابئ بن الحارث البرجمى . الخزانة (٤ : ٣٢٣) والإنصاف ٦٥ وسيبويه (١ : ٣٨) ونوادر أبى زيد ٢٠ والكامل ١٨١ ليبسك والشعراء ٣١١ . وصدره :

* فمن يك أمسى بالمدينة رحله *

(٣) البيت لابن أحمر ، وقيل للأزرق بن طرفة بن العمرد الفراصى ، كما فى اللسان (جول) . وروى : « ومن جول الطوى » ، كما فى شرح التبريزى واللسان والمقاييس (جول) ، ورواية المرزوقى هنا هى الصحيحة ، قال ابن برى : لأن الشاعر كان بينه وبين خصمه حكومة فى بئر ، فقال خصمه إنه لص ابن لص ، فقال هذا الشعر . وبعد البيت :

دعانى لصا فى لصوص وما دعا ... بها والدى فيما مضى رجلان

* بَلَى قد وسعت الجود والجود ميت *

بلى جوابُ استفهامٍ مقرونٍ بنَفى نحو قولك ألَمْ ، أليس ، وما أشبههما . وهذا الشّاعر لما قال متعجّباً من مخاطبة القبر ومُنكِراً : كيف واريتَ جودَه على كثرته ووفورِه ، وشموله لأقطار البرّ والبحر ، صار بما اعتبر وشاهدَ من الحال كأنّ القبرَ قال له : ألم أسَعْهُ ، ألم أوارِه ، ألم أتضمّنْه على ما به ؟ فقال مصدِّقاً له ، ومتلهّفاً : بلى قد وسعتَه واشتملتَ عليـه وهو ميّت ، ولو كان حيّاً لضِقْتَ عنه حتى تنقطع وتنشق[1] ، والصَّدع : الشَّقُّ فى الشىء الصُّلب . وصدَعْتُ الفَلاةَ والنّهرَ : قَطعتُهما .

٥ — فتًى عِيشَ فى مَعرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ كما كان بَعْدَ السَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعا

٦ — ولمّا مَضَى مَعْنٌ مَضَى الجودُ فانقضى وأَصْبَحَ عِرْنِينُ المَكَارِمِ أَجْدَعا[2]

قوله « فتًى عِيشَ فى معروفه » موضعه نصبٌ على المدح والاختصاص ، والعامل فيه فعلٌ مضمَر ، كأنّه قال : أذْكُرُ فتًى هذا صفته . ويجوز أن يكون موضعه رفعاً على الاستئناف ، ويكون خبر مبتدأ محذوف ، كأنّه قال : هو فتًى ، أومَن أؤبِّنه فتًى ، وقوله « عِيش فى معروفه بعـد موته » يجوز أن يكون أراد مَن استغنَى به وبمعروفه من المتّصلين به ، والمنقطعين إليه ، والراجين له . ويجوز أن يكون أراد من عاش من وُقوفه وحبائِسِه بعدَه ، ويجوز أن يريد أنه علّمَ النّاسَ الجودَ والـكرم ، فمِن مُقتدٍ به آخِذٍ أخْذَهُ ، ومُستَنٍّ بسُنّته سَلَكَ مسلكه ، فما يفعله هؤلاء صار كأنّه هو الفاعل له . ثمّ شبّهه بالغيث يصوبُ فيُحيي العبادَ ثم

(١) ل : « وتنشقق » .

(٢) وكذا رواية التبريزى . وفى أمالى القالى (١ : ٢٧٥) : « وانقضى » . وروى موضعه فى الأغانى والخزانة :

أبى ذكر معن أن تموت فعاله وإن كان قد لاقى حماماً ومصرعا

يعيشُ النّاسُ فى آثاره بَعد انقطاعِه ومُضيِّه. وقوله «كما كان بعد السَّيل مجراه» ارتفع مجراه بكان، وكان الحكمُ أن يَليَهُ فلم يَسَعْ لأنَّ الضمير فيه يرجع إلى السَّيل وقد تَقَدَّم عليه، والإضمار قبل الذِّكر أو ما يجرى مجراه لا يجوز، فامتنع ردُّه إلى رتبته من وَلْيِ العاملِ له، لشىء يرجع إلى الضمير المتَّصل به لا لشىء يرجع إليه. وتلخيص الكلام: كما كان مجرى السيل مرتعاً بعده.

وقوله «ولمَّا مَضَى مَعْنٌ» لمّا يجىءُ لوقوع الشىء لوقوعِ غيرِه، وهو علَمٌ للظَّرف. فيقول: حينَ مضى مَعْنٌ لسبيله وانقطعت حياتُه، فُقِد الجود وامّحت آثاره، فأصبحت المكارم ذَليلةً إذْ مات من يَرُبُّها ويَعْمُرها، كمن جُدِع أنفه مُثْلةً وعقوبة، وإرغاماً وإهانة. ويقال فى المثل: «مِنِّى أنفى وإن كان أجدَع». والعِرْنين: ما ارتفعَ من الأنف والأرض، وأوائلُ الشىء، وأشراف القومِ وسادتُهم. وكما ضُرب المثل بجَدْع الأنف فى الإذلال، ضُرِب بصلم الأذن فيه لذلك. قال:

* فمشُّوا بآذان النَّعامِ المُصَلَّمِ (١) *

٣٢٠

وقال آخر:

١ – ما ذا أجالَ وثيرةُ بن سِماكِ من دَمْعِ باكيةٍ عليه وباكِ (٢)

٢ – ذَهَبَ الذى كانت مُعَلَّقَةً به حَدَقُ العُناةِ وأنفُسُ الهُلّاكِ

(١) لكبشة أخت عمرو بن معديكرب فى الحماسية ٥٢ ص ٢١٨. وصدره:
* فإن أنتم لم تثأروا واتديتم *

(٢) التبريزى: «قال أبو العلاء يروى: وثيرة بالثاء... ويروى: وتيرة... ويروى وُبَيْرَة ومَزِيرة، ويروى: أحال، وأجال، وأسال. فأجال من جولان الدمع، وأحال بالحاء: صب». ورواية القالى (١: ٢٧٦): «ماذا أحال وثيرة».

يقول على وجه التعجُّب وإكبارِ الأمر : أيُّ دمعٍ أراقه وتيرةُ بن سِمَاكٍ من عَينٍ باكيةٍ عليه وباكٍ . يريد أنَّ المصيبةَ به أثَّرت فى جماهير النَّاس وطوائفِ الخلق ، وأنَّهم لم يملكوا فيما دَهِمهم إلَّا البكاءَ إطفاءً لنار الوجد ، وإراحةً من تعب القلب[1] ، وماذا يُغنى العَويل ، وهو الرَّاحةُ المطلوبةُ من البكاء إذا حقَّت الحقيقةُ ، إلَّا زيادةٌ فى اللَّوعة وإنجادٌ المصيبة . وقد تقدم القول فى ماذا ، وشرَحنا أمره[2] .

وقوله : « ذهب الذى كانت معلَّقةً به » يريد أنه كان يَفُكُّ الأُسَراء ، ويُنعش الفقراء ، حتَّى كأنَّ مَن ابتُلِيَ بأسرٍ ، أو رُمِيَ بفقر ، فإنَّه لم يُعَدَّ لفكِّه ولم يُرْجَ لجبرِه غيرُه ، فأعيُنهم كانت ممتدَّةً إليه ، وآمالُهم كانت معلَّقةً به ، وإذْ قد مَضَى لسبيله ، وانتقل إلى جوارِ من هو أحقُّ به ، فقد استَبْدَلوا بالطمع خيبةً ، ومن التعزُّز ذِلَّةً ، وبَقُوا فى ملَكةِ مِحَنِهم لا انفكاك لهم منها ، ولا ارتياشَ[3] من سقطاتها .

٣٢١

وقال أشجعُ بن عَمرٍو السُّلَمى[4] :

١ — أنعَى فَتَى الجُودِ إلى الجُودِ ما مِثْلُ مَن أُنْعَى بموجودِ

(١) ل : « القلوب » .
(٢) انظر ما سبق فى الحماسية ٢٧٠ ص ٨١١ و ٣١٨ ص ٩٣٤ .
(٣) كذا وردت فى النسختين . يقال ارتاش : حسنت حاله . والوجه « انتياش » . والانتياش الاستنقاذ والاستدراك .
(٤) زاد التبريزى : « فى محمد بن منصور بن زياد » . ونسبة الشعر إلى أشجع هى كذلك فى الشعر والشعراء ٨٥٩ وقد رواها ابن قتيبة سبعة أبيات . لكن الجاحظ فى البيان (٣ : ١٢٣) بتحقيقنا قد نسبه إلى أبى الشيص . وترجمة أشجع مضت فى الحماسية ٢٨٠ ص ٨٥٦ .

٢ – أنعى فتًى مصَّ الثَّرَى بَعْدَهُ بقيَّـةَ الماء من العُـودِ[(١)]

قولُه « أنعى فتى الجود » إنما أضافه إلى الجود إيذاناً بأن الجودَ كان يمتلكه فهو فتاه. أو يريد أنّ الجود كان يتبجّح بكوْنِ هذا الرّجلِ من أسرته وأصحابه، لأنه كان يتفتّى فى الجود؛ وهذا كما يقال: فلانٌ فتى الحرب، وكما قيل: « لا فتى إلا علىٌّ فى الوَغى ». فيقول: إنّه الآن وقد مضى لسبيله فإنى أنعاه إليه، لنَتَشاركَ فى فقده والجزعِ عليه. ثم قال: « ما مثل من أنعى بموجود »، وهذا يشبهُ الالتفات، كأنه أقبلَ على إنسانٍ فقال: أذكرُ موتَ مَن كان معدومَ النَّظير، قليلَ الشبيه، فلا الجود يجدُ من يخلُفُه ويُعلى ذكرَه، ويقوم بأوَده فيقيمُه فيقال هو فتى الجود، ولا نحن نعتاضُ منه مَن يجمعُ شملنا، ويجبُر كسْرنا، ويسدُّ مَفاقرَنا إذا أضرَّ الزمان بنا.

وقولُه « أنعى فتى مَصَّ الثّرى بعده »، يريد: تغيَّرت الأرض عما كانت عليه، فيبست أشجارُها واغبرَّت ساحاتها[(٢)] بموت هذا المرثىّ، فالدُّنيا مُدْبِرة، والأقطار مُقشعِرّة، والبؤس للبَئِيس مُعانِق، والخيرِ بتوابعه من النّدى والتطوُّل والخِصْب والترطُّب مُفارِق.

---

(١) أنشد بعده التبريزى، وكذا أنشد ابن جنى البيت الأول من البيتين التاليين:

وانثلَمَ المجـدُ بِهِ ثُلمةً جانبُها ليس بمسـدودِ
فالآنَ تُخْشى عَثَراتُ النَّدَى وصَـولةُ البُخلِ على الجودِ

(٢) كذا فى ل. وفى الأصل: « ساحتها ».

٣٢٢

وقال عبدُ الله بن الزَّبِيرِ الأسدىّ[١] :

١ — رَمَى الحَدَثانُ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ بِمِقْدارٍ سَمَدْنَ لَهُ سُمُودَا[٢]

٢ — فرَدَّ شُعورَهُنَّ السُّودَ بِيضاً ورَدَّ وُجوهَهنَّ البِيضَ سُودَا[٣]

السُّمود : الغفلة عن الشَّىء وذَهابُ القلب عنه . ويقال للمأخوذ عن الشّىء : اترُكْ سُمودَكَ . وفى القرآن : ﴿ وأنتُمْ سامِدُون ﴾ ، أى ساهون لاهون . وقوله « رَمَى الحَدَثانُ نِسوةَ آلِ حربٍ بمقدارٍ » فيه ما يجرى مجرى القَلْب ، لأنَّه لو قال رمى المقدار نسوةَ آل حَرْبٍ بحَدَثانٍ ، لكان أقربَ فى المعتاد ، وأجْرَى على طريق الدِّين . فيقول : جرَّ المقاديرُ على نسوةِ آل حَرْبٍ نَوْبَةً من نوائب الدهرِ أثَّرَتْ فى عقولهنَّ ، حتى غَفَلن عن أسباب الدِّين والدُّنيا كلِّها ، وحتى

(١) هو عبد الله بن الزبير بن الأشيم بن الأعشى بن بجرة ، ينتهى نسبه إلى أسد بن خزيمة ، والزبير هذا بفتح الزاى وكسر الموحدة . وهو شاعر كوفى المنشأ والمنزل ، من شعراء الدولة الأموية ومن شيعتهم والمتعصب لهم ، فلما غلب مصعب بن الزبير على الكوفة أتى به أسيراً فمن عليه ووصله ، فدحه وأكثر من مدحه وانقطع إليه ، ولم يزل معه حتى قتل مصعب ، وعمى هو بعد ذلك ومات فى خلافة عبد الملك . الأغانى (١٣ : ٣١ — ٤٧) ومعاهد التنصيص (٢ : ١٠٨ — ١١٠) والخزانة (١ : ٢٤٥ — ٢٤٦) . ولم يذكره الصفدى فى نكت الهميان .

(٢) نسبت الأبيات فى زهر الآداب (٢ : ٧) إلى ابن الزبير أيضاً . وفى عيون الأخبار (٣ : ٦٧) إلى فضالة بن شريك ، وفى أمالى القالى (٣ : ١١٥) إلى الكميت بن معروف . وانظر اللسان (سمد) والأضداد لابن الأنبارى ٣٦ . ورواية ثعلب : « آل صخر » . وفى اللسان : « بأمر قد سمدن » . وفى عيون الأخبار : « بفادحة سمدن » .

(٣) روى بعدهما التبريزى :

فإنَّكَ لو رأيتَ بكاءَ هِندٍ ورَملةَ إذْ تَصُكَّانِ الخُدودا

سمعتَ بكاءَ باكيةٍ وباكٍ أبانَ الدهرُ واحدَها الفقيدا

شَيَّبْنَهنَّ ولفَحَت وجوههن(١) ، فردّت السُّودَ من شعورهنّ بيضا ، والبيضَ من وجوههن سُودا .

وهذا كما حُكى عن العُريان بن الهيثم(٢) ، لمّا سأله عبدُ الملك عن حاله ، فقال : « ابيضّ منّى ما كنتُ أحِبُّ أن يسوَدّ ، واسودّ منى ما كنت أحبُّ أن يبيضّ » فى كلامٍ طويل . ثم قال :

وكنتُ شبابى أبيضَ اللّونِ زاهرًا فصرتُ بُعَيْدَ الشَّيبِ أسْوَدَ حالكا

٣٢٣

وقال مُسْلِمُ بن الوليدِ(٣) وماتت امرأته :

١— حَنِينٌ ويأْسٌ كيف يجتمِعانِ مَقيلاهما فى القَلْبِ مُخْتلِفانِ

٢— غدَتْ والثَّرَى أوْلَى بها مِن وَلِيِّها إلى منزِلٍ ناءٍ لِعَيْنِكَ دانِ

٣ - فلا وجْدَ حتّى تَنزِفَ العينُ ماءَها وتعترفَ الأحشاءُ لِلْخَفَقانِ

هذا الكلام شَكْوٌ من حالِه فيمن أُصيب به ، فيقول : اليأس حاصلٌ منها إذ كان غائبُ الموتِ لا إيابَ له ، والشّوقُ إليها غالبٌ حتى كأنّى ما فقدتُها ؛

(١) إلى هنا ينتهى سقط التيمورية الذى بدأ فى ص ٩٠٦ .

(٢) وكذا فى عيون الأخبار (٢ : ٣٢١) . وفى البيان (١ : ٢/٣٩٩ : ٦٩) أنه « الهيثم بن الأسود بن العريان » .

(٣) مسلم بن الوليد الأنصارى ، الملقب صريع الغوانى ، من شعراء الدولة العباسية ، مولده ومنشؤه بالكوفة . وهو أول من أشاع البديع فى شعره ، وتبعه فى ذلك أبو تمام . وكان مسلم مداحا جل مدائحه فى يزيد بن مزيد ، وداود بن يزيد ، والبرامكة ، وصافا للشراب ، وكثير من الرواة يقرنه بأبى نواس فى هذا المعنى . قال ابن قتيبة : ولى بريد جرجان فى خلافة المأمون ، فلم يزل بها حتى مات . الشعر والشعراء ٨٠٨ — ٨١٩ ومعاهد التنصيص (٢ : ١٠ — ١٥) وتاريخ بغداد (١٣ : ٩٦ — ٩٨) وملحق الجزء الخامس من الأغانى المطبوع مع ديوانه فى ليدن ١٨٧٥ .

فيا عجبا كيف اجتمعَ مع اليأس رجاء مع اختلاف مقرّهما فى القلب ، ومع تَنافيهما عند التحصيل والكَشْف ، وهل يكونُ الإنسان فيما اعتِيدَ وعُرِف من أحوال الأزمان مُبتَلًى بأسباب الخيبة من الشَّىء ، ومتردِّدًا معها بين علائق الطمع فيه . والمَقيلُ : الموضع من قِلتُ . وفى القرآن : ﴿ أصحابُ الجَنَّةِ يوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وأحسَنُ مَقيلاً ﴾ .

وقوله « غدَتْ والثَّرى أولَى بها من وليِّها » تحسُّر ، فيقول : ابتكرَتْ وهى فى مَلَكة التُّراب دون ملكة وليِّها ، فالثَّرى صار أولى بها ، والانتقالُ من بين الأحْياء إلى الأموات أحقُّ وأوجبُ فى أمرها . وقوله « إلى منزلٍ ناء لعينك دانٍ » مثلُ قول الآخر[1] :

... أمَّا جِــوَارُهمْ فدانٍ وأمَّا الملتقَى فبعيدُ[2]

وقد ألَمَّ فى قوله « غدَتْ والثَّرى أولَى بها » بقول الآخر[3] :

صلَّى الإلٰهُ عليكِ مِن مَفقودَةٍ إذْ لا يلائمُكِ المكانُ البَلْقعُ

وقوله « فلا وجدَ حتى تَنزِف العينُ ماءها » يريد به : لا وجد يُعتَدُّ به إذا ذُكِر الهلَع على مثله حتى تستنفدَ العينُ دمعَها ، لاتِّصال البكاء بها ، وحتى تستمرَّ الأحشاء فى خفقان القلب فتذلَّ له وتصبرَ عليه ، حتى يصير عادةً وسجيّةً . ويقال : عَرَفَ فلانٌ لكذا واعترف له ، إذا صَبَر فيه واعتاده . على ذلك قوله :

* على عارِفاتٍ للّقاء عَوابِسِ[4] *

ويقال نَزَفْتُ البئرَ وأنْزَفتُها جميعًا . قال العجّاج :

(١) هو عبد الله بن ثعلبة الحنفى ، فى الحماسية ٢٩٧ ص ٨٩١ .
(٢) أوله : « هم جيرة الأحياء » .
(٣) هو مويلك المزموم ، فى الحماسية ٣٠٥ ص ٩٠٣ .
(٤) للنابغة فى ديوانه ٥ . وعجزه :

* بهن كلوم بين دام وجالب *

* وأَنْزَفُ العَبْرَةَ من لاقى العِبَرْ *

وفى المثل « أجْبَنُ من المنزوفِ ضَرِطًا » .

وقوله « لا وَجْدَ » خبره محذوف ، كأنّه قال : لا وجد حاصلٌ أو موجود . والخفقانُ فى القلبِ والجناح : الاضطراب ، ومنه خَفْقُ البُنُودِ والأعلام ، حتّى سُمِّى الأعْلامُ خوافِقَ . قال :

لقد تركتْ عفراءُ قلبى كأنّهُ جَناحُ عُقابٍ دائمُ الخفقانِ[1]

٣٢٤

وقال مُسْلِمٌ أيضا[2] :

١ — قبرٌ بحُلْوانَ استسَرَّ ضَرِيحُه خطرًا تَقاصَرُ دُونَه الأَخطارُ

٢ — نَفَضَتْ بِكَ الأَحْلاسَ نَفْضَ إقامةٍ واستَرْجَعَتْ نُزَّاعَها الأَمْصارُ

قوله «استسرّ» بمعنى أسَرَّ ، ومثله استعجب بمعنى عَجِبَ . وأكثر ما ترى استسرَّ يكون فى معنى استخفَى وتوارَى . على ذلك قولهم فى آخِرِ الشهر استَسَرَّ القمرُ ليلةً أو ليلتين ، فهو من السِّرَار ، وهو آخِرُ يومٍ فى الشَّهر . والخطَر : ارتفاع المكانةِ والحالِ فى الشَّرف ، ثم يقال فى الشَّريف : هو عظيم الخطَر . والضَّرِيح ، أصله القبر يُشَقّ وسطُه ولا يُلحَد . وارتفع « قبر » بالابتداء لأنّه بصفته وهو بحلوان قَرُبَ من المعارف ؛ واستَسَرَّ فى موضع الخبر . والمعنى : قبرٌ بهذا المكان اشتمَلَ جوفُه على عظيمٍ من العظماء ، رفيع المكانةِ جليلِ الخطَر ، يتقاصر عنه كلُّ عظيمٍ جليل . وقوله « خطرا » أراد ذا خطر ، فحذَف المضاف ،

(١) البيت لعروة بن حزام فى ديوانه مخطوطة الشنقيطى ، وأمالى القالى (٣ : ١٦٢) .

(٢) يقولها فى رثاء يزيد بن مزيد . ديوان مسلم ٢٣٨ والبيان (٣ : ١٤١ ، ٢٦٠) وأمالى القالى (١ : ٢٧٦) .

وكذلك الأخطار، أراد ذوو الأخطار. وقوله «تقاصرُ» يجوز أن يكون من القصور: العجز، أى تعجِزُ أن تبلغ مَحَلّه الأخطار. ويجوز أن يكون ضدَّ تطاوَل فيكون من القِصَر.

وقوله «نُفِضت بك الأحلاسُ نَفْضَ إقامةٍ» يريد أنّ العُفاة قعدوا عن الاجتداء بعد موتِكَ يأسًا ممن يُطمَع فيه، أو يُرْجَى خيرُه، فنفَضوا أحلاسَ رواحِلِهم نَفْضَ مَن يقيم فى بلاده ويطّرِح التَّرحال. وقوله «استرجَعَتْ نُزَّاعها الأمصارُ» معناه أنّ مَن كان على بابه انصرفوا إلى أوطانهم نافضين أيديَهم ممّن يتعطّف عليهم، أو يصطنعُهم وينظرُ لهم، فكأنّهم كانوا ودائعَ الأمصار عندهُ مدّةَ مُقامِهم ببابه فارتجعَتْهُم. والنُّزّاع: جمع نازِع، وهو البعيد والغريب جميعا، وكذلك النَّزيع والجميع النزائع. ويجوز أن يكون مِن نَزَعْتُ إليه نِزاعًا، أى حَنَنْت. فيقول: المقيمُ فى موضِعه رَفَضَ التَّرحالَ، والمسافر عاد إلى مَقرّه يأسًا مِن كسب المال.

٣ـ فاذهبْ كما ذَهَبَتْ غَوادِي مُزْنَةٍ ... أثْنَى عليهـــا السَّهْلُ والأوْعارُ

٤ـ سَلَكَتْ بِكَ العَربُ السَّبيلَ إلى العُلَى ... حَتّى إذا سَبَقَ الرَّدَى بِكَ حارُوا

يقول: اذهب لوَجْهك وآلاؤك منشورةٌ، وصنائعُك محمودةٌ مشكورة، وآثارك كآثار السُّحبِ وقد أغاثت النّاسَ بأمطارها، فإذا أقلَعَت ترَى أهلَ السهلِ والوَعرِ يُثنون عليها. والغوادى: السَّحابات التى تَنشأ غُدْوَةً، وكأنّه أراد أقطاعًا منها، وأضافها إلى المُزْنة لأنّها منها تجمّعت فكَمَلَتْ مُزْنةً. ويجوز أن يكون المراد بالغوادى أمطارًا تَصُوب غدوةً، وأضافها إلى المزنة.

وقوله «سلكت بك العربُ السّبيلَ إلى العلى» يريد أنّك هادِى العربِ ودليلُهم فى اكتساب المعالى وابتناء المكارم، فأنت قائدهم وهم يطَؤون عَقِبك،

ويقتدون بكَ ، حتّى إذا فقدوا إرشادكَ تحيَّروا فلم يهتدوا ، وضلُّوا فلم يَرشُدوا .
ومعنى « سَبَقَ الرَّدَى بكَ » كأنهم كانوا يتشبَّثون به ويلزمونه حافظين بقاءَهُ
فجاء الرَّدَى يطلبُه ويختاره ، فانتهزَ الفُرصةَ فى السَّبق به واجتذابِه من أيديهم ،
والفوز به من دونهم . ومفعول سَبَقَ محذوف ، كأنَّه قال سبقَهم الرَّدَى[1] بك .

٣٢٥

وقال حَنَش[2] فى يعقوبَ بنِ داود :

١ — يعقوبُ لا تَبْعَدْ وجُنِّبْتَ الرَّدَى ... فلَنَبْكِيَنَّ زمانَكَ الرَّطْبَ الثَّرَى
٢ — ولئنْ تَعهَّدَكَ البلاءُ بنفسه ... فلقِيَتَهُ إنَّ الكريمَ لَيُبْتَلَى

لم يَرضَ بالجرىِ على عادة النَّاس فى قولهم عند المصاب : لا تَبعَدْ ، حتّى زاد عليه « وجُنِّبتَ الرَّدَى » ليكون الكلامُ أدلَّ على التوجُّع ، وأوفَى بالتَّنبيه على حاجة النَّاسِ إلى بقاء المتوفَّى . وقوله « فلنبكِيَنَّ زمانَكَ الرَّطبَ الثَّرَى » يشير فيه إلى إحسانه الضَّافى ، ومعروفِه الواسع الوافى ، وأنَّه كان للناس كالحَيا يُحيِي الأرضَ وسُكَّانَها ، فكانَ تَرى الأرضِ به رطْبا ، وزمانُه خِصبا . وفيه إلمام بقوله :

(١) هنا تنتهى النسخة التيمورية . وتستمر المقابلة بين نسختين : الأصل ، ل .

(٢) وكذا فى ل . وعند التبريزى : « أبو حنش الهلالى » ، وهو الصواب . قال التبريزى : « قال أبو هلال : قال دعبل : اسمه خضير بن قيس النميرى . بصرى ، كان يحفظ القرآن ، وعاش مائة سنة ، وصحب يعقوب وزير المهدى ، فلما حبسه المهدى ونال منه ما نال قال . . . » . وذكره ابن النديم فى الفهرست ٢٣١ عند ذكر دواوين بعض الشعراء : « أبو حنش النميرى ثلاثون ورقة » . وكان كما ذكر أبو الفرج فى الأغانى (١٨ : ٧٤) على صلة بأبى محمد اليزيدى ، قال له يوما يا أبا محمد : قل أبياتا قافيتها على هاءين . فقال أبياتا منها :

أبلغ حضيراً عنى أبا حنش ... عائرة نحوه أوجهها

وردت حضيراً فى الأغانى بالحاء المهملة . ومما يجدر ذكره أن الأبيات ليست رثاء فى ميت ، بل هى رثاء لحى ، كما سبق نظيره فى الحماسية ٣١٤ ص ٩٢٧ .

* اذهَبْ كما ذهبَتْ غوادِي مُزْنَةٍ[١] *

وقوله « ولئن تعهَّدكَ البلاء بنفسه » أفاد قوله « بنفسه » إكبارَ الأمرِ وتفظيعَ الشَّانِ فى موته وفِقْدانه ، كأنَّ البلاء لم يرضَ فى الذَّهابِ به بأن يعتمِد على نائِبيه ورسُلِه ، بل جاءه بنفسه . وقوله « إنَّ الكريمَ ليبتلى » تَسْلِيَة[٢] .
ومعنى « تعهَّدكَ » أى نَظَر هل أنتَ على ما عَهِدكَ ليَرَى فيك رأيَه . وفى الكلام إلمامٌ بقول الآخر[٣] :

أرى الموتَ يَعتامُ الكِرامَ ويَصطفِي عَقِيلةَ مالِ الفاحِشِ المتشدِّدِ

ويعنى بالبلاء الموتَ ، وقد يكون فى غير هذا الموضِع النِّعمةَ والاختبار .
ومنه قوله تعالى : ﴿ لِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ﴾ ، أى يَمتحِن . وقوله « لئن » اللام موطِّئة للقسم ، وهو مضمر وجوابه « إنَّ الكريمَ ليبتلى » .

٣ — وأرى رجالاً يَنهَسُونكَ بَعْدَما أغنَيْتَهمْ مِن فاقةٍ كلَّ الغِنَى
٤ — لو أنَّ خَيْرَكَ كان شرًّا كُلُّهُ عِندَ الَّذِينَ عَدَوْا عليكَ لَمَا عَدَا

معنى ينهسونك يغتابونك ، وأصل النَّهس فى العظم إذا عُرِق ما عليه من اللَّحم . وانتصب « كلَّ الغِنى » على المصدر ، ووضع الغنى موضع الإغناء على عادتِهم فى وضع الاسم موضعَ المصدر . والمعنى : أرى مَن أحسنتَ إليه وأنعشتَه ، وبعد الفاقةِ أغنيتَه ، يتنقَّصك ويغتابك ، سوء محافَظةٍ منهم ، ولدناءةِ أصلهم ولؤمِ عِرقهم .

ثم قال : لو أنَّ خيرك عندهم كان كلُّه شرًّا لما جاوز فعلُهم بك ، ومكافأتُهم لك ، ما تراه . ومعنى « عَدَوْا عليك » ظلموك . ومعنى « لَمَا عدا » لما جاوَز .

(١) من الحماسية ٣٢٤ لمسلم بن الوليد . والنص هناك : « فاذهب » . وعجزه :
* أثنى عليها السهل والأوعار *
(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « يسليه » .
(٣) هو طرفة بن العبد ، فى معلقته .

ويقال عدا عليه عَدْوا وعُدُوًّا وعَدَاء وعُدْوانا . وارتفع « كلُّه » على التوكيد للمضمر فى كان ، ويجوز أن يكون اسم كان . وفى قوله « لمّا عدا » ضمير للشرّ ، ومفعوله محذوف ، كأنه قال : لمّا جاوز الشَّرُّ ، أى جزاء الشَّرّ ، ما يأتونه فى نقيصتك والوضع منك . والكلام تحسُّرٌ وتَشَكٍّ من متحمّلى صنائع المفقود ، وذمٌّ للدَّهرِ وأهله .

٣٢٦

وقالت صَفِيّةُ الباهليّة(١) :

١ — كُنّا كغُصْنَيْنِ فى جُرْثُومةٍ سَمَقَا حِيناً بأحْسَنِ ما تَسْمُو له الشَّجَرُ(٢)

٢ — حتَّى إذا قِيلَ قد طالَتْ فُروعُهما فطابَ فَيْئاهُما واسْتُنْظِرَ الثَّمَرُ(٣)

قوله «سمقا» أى طالا فى كمال . والجُرثومة : الأصل . فيقول : كنا كغُصْنَيْنِ خرجا من أصلٍ واحد فنميا وطالا ، واستكملا زمانًا ، وبقيا يزدادانِ على أحسنِ ما تزداد له الأشجار ، حتّى إذا فرَعا ، وآتتْ أغصانُهما وبرَعا ، وكثر ورقُهما ، واستُطيب ظلُّهما ، وصارا يُنتظر ثمرها ، وقَفَ الأمرُ بِهما دونَ الغاية المرجوّةِ فيهما ، ودُعِيَ أحدهما مقدّما على الآخر للمحتوم لهما . والفرع من كلّ شيء : ما تفرّع منه فى أعلاه . والفيء من الظّلّ : ما فاء من جانبٍ إلى جانب . ومعنى استُنظِر انتُظِر . ورواه بعضهم : « واستُنضر الثّمر » ، أى وجد ناضراً غضًّا . والأوّل أحسن .

---

(١) هى إحدى الأعرابيات . وذكر ابن عبد ربه فى العقد (٣ : ٢٧٧) أن الأبيات رثاء لزوجها ، وذلك فى باب (من رثت زوجها) ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار (٣ : ٦٧) أنها رثاء لأختها .

(٢) العقد : « بسقا » ، عيون الأخبار : « سموا حيناً على خير ما ينمى » ، التبريزى : « ما يسمو » .

(٣) العقد وعيون الأخبار : « وطاب قنواهما » .

٣ – أَخْنَى عَلَى واحدٍ رَيْبُ الزَّمانِ وما يُبْقِى الزَّمانُ على شىء وما يَذَرُ[(١)]
٤ – كُنَّا كأَنْجُمِ ليلٍ بينها قمرٌ يَجْلُو الدُّجَى فَهَوَى مِن بَيْنِها القمرُ[(٢)]

قوله « أخنى » جواب إذا من قوله « حتى إذا قيل قد طالت فروعهما » ، وقوله « وما يُبقى الزّمان » اعتراض حصَلَ بين ما قبله وما بعدَه من القصّة ، مؤكّدٌ له . فيقول : لمّا بلغ الأمرُ بنا ذلك المبلغَ أناخ حدَثانُ الدّهرِ على أحدهما فأتلفه وأفسده ، والزّمانُ هذا دأبُه ، لا يَسلَمَ عليه شىءٌ ، بل يرتجعُ كما يُعطى ، ويَستلبُ كما يَهَب .

ثم قال : « كُنَّا كأنجُمِ ليلٍ بينها قمرٌ » ، وهذا تشبيه ثانٍ ، كأنها فى الأوّل – وهو كُنّا كغُصنين – شبّهتْ نفسَها وصاحبَها بغُصنَين ، وفى الثّانى شبّهتِ العشيرةَ كلَّها والمتوفَّى فيها ، بنجوم ليلٍ أحدقَتْ بقمرٍ استضاء ظلامُ اللّيلِ بنُوره فسقط ذلك القمرُ من وسطها فعادَ اللّيلُ كما كان .

وهذا الكلام فيه تفضيلٌ للمتوفَّى على ذَويه كلّهم ، فإنّهم كانوا يَستكشِفون ظُلمة حوادثِ الدّهرِ من جهته ومكانِه ، فلمّا فارقَهم عادَ الشَّرُّ جَذَعًا[(٣)] ، والضِّياء حِندِسا .

---

(١) انفرد ابن قتيبة برواية « على واحدى » و « لا يبقى » و « لا يذر » .
(٢) ابن قتيبة : « وسطنا قمر . . . من بيننا » . وقال : ومن هذا أخذ الطائى – يعنى أبا تمام – قوله :

كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

انظر ديوان أبى تمام ٣٦٩ .
(٣) عاد جذعا ، أى جديدا كما بدأ ، وأصل الجذع من الدواب والأنعام الصغير السن قبل أن يثنى بسنة ، وهو أول ما يستطاع ركوبه والانتفاع به .

٣٢٧

وقال التَّيمىُّ[١] فى منصورِ بنِ زِياد[٢] :

١ — لَهفِى عليك لِلَهفَةٍ مِنْ خائفٍ يَبْغِى جِوارَكَ حِينَ لَيْسَ مُجِيرُ

« لَهفَى » مبتدأ ، وهو لَهفُ مضاف إلى ضمير النَّفس ، ففرَّ من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة فانقلبت ألفا . ولو رُوِى لَهفِى عَلَيْكَ ، لجاز ، ويكون جارياً على أصله . و « عليك » فى موضع الخبر . واللام من لِلَهفةٍ متعلّق بما دلَّ عليه لَهفَى . فيقول : لى عليك حسرةٌ شديدةٌ من أجلِ حسرةِ رجلٍ نابَهُ من حوادثِ الدَّهر ما اختَشَى له فطلب جِوارَك ، والاستعاذةَ بفنائك ، وقتَ لا مجيرَ له ثم لا يَجِدُك . وقوله « حينَ ليس مجير » ظرفٌ ليَبغِى ، ويبغِى فى موضع الصِّفة لخائف . وخبر ليس محذوف ، كأنَّه قال : حينَ ليس مجيرٌ فى الدُّنيا ، أو ينعَشُه ، أو ما أشبه ذلك . وأضاف حينَ إلى ليس فبناهُ لأنَّ المضافَ إليه غيرُ متمكّن ، فاكتسب البناء من جهته ، فالفتحة فى حينَ فتحةُ بناء . ولا يمتنع أن يكون فتحة إعراب ، كأنَّه أجرى حينَ على سلامته ولم يعتدَّ بالإضافة فيه .

٢ — أمَّا القُبُورُ فإنَّهنَّ أوانِسٌ بِجِوارِ قَبْرِكَ والدِّيارُ قُبورُ

٣ — عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ فَعَمَّ هَلاَكُهُ فالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مأْجُورُ

(١) التبريزى : « قال أبو هلال : هو عبد الله بن أيوب ، ويكنى أبا محمد ، عربى من أهل اليمامة ، فصيح كلامى . وقال الفضل بن سهل لأبى سهل الخطاب الأزدى : من أشعر من بقى ؟ قال : مسلم . قال : لا ، بل التيمى . ومن مشهور قوله :

لعمرك ما الأشراف فى كل بلدة وإن عظموا للفضل إلا صنائع
ترى عظماء الناس للفضل خشعاً إذا ما بدا والفضل لله خاشع
تواضع لما زاده الله رفعة وكل رفيع عنده متواضع »

(٢) منصور بن زياد : أحد وجوه الدولة العباسية ، وكان ابنه محمد بن منصور كاتباً للبرامكة ، الشعراء ٨٣٠ .

يقول : فارقتَ الأحياء وفى كلِّ فِرقةٍ من فِرَقهم غمٌّ شامل ، وزفرةٌ متَّصلة ، فاختلطْتَ بالأموات ، فالأُنْس الذى كان فى الأحياء انتقلَ بانتقالك إلى الأموات ، فديارُ الأحياء ذاتُ وَحْشَةٍ ونُفُور ، فهى كالقُبورِ لِما حصَل فيها من الفجْع بك ، وفارَقَها من نَسيم الرَّوْح والرَّاحةِ بفراقك . وقبورُ الأموات ذواتُ أُنْس وقرارٍ بمجاورتها لقبرك ، ولِما يَغْدُو ويروح إليها من زُوَّارِك .

وقوله « عَمَّتْ فواضِلُه فعَمَّ هلا كُه » يريد أنَّ إحسانَه عَمَّ الخلق ، وصنائعه شمِلتْهم ، فبحسب ذلك عمَّتْهم الفجيعةُ به ، فالنَّاسُ كلُّهم مُصابون مأجورون ، قد استوت أقدامُهم وتناسَبَتْ أحوالُهم فيما نالَهُمْ من الحسرة فيك ، وأضرَّ بهم من الخللِ الواقِع فى عَيْشهم بك .

٤ — يُثْنِي عَلَيْكَ لِسانُ مَنْ لَمْ تُولِهِ   خَيْرًا لأَنَّكَ بالثَّناء جَـدِيرُ

٥ — رَدَّتْ صَنَائِعُهُ إليه حياتَهُ   فكأَنَّهُ من نَشْرِهَا منشـورُ

يقول : عرَف النَّاسُ على اختلافهم وتبايُنِ أوطانهم ، فضلَكَ وفواضلَك ، فاتَّفقت ألسنتُهم فى الثَّناء عليك والحمدِ لك ، فمَنْ لم تُسْدِ إليه خيراً منك ، ولم تُشركه فى النِّعمة عِندك ، صار مقتدياً بغيره فى إطرائكَ ومدحِك ، وتقريظِك وتزكِيتك ، لأَنَّك عندهم كلِّهم جديرٌ بذلك ، لا لمكافأةٍ على إحسانك ، ولا لشكرٍ وجَبَ عليهم فى تحمُّل أفضالِك .

وقوله « رَدَّت صنائعُهُ إليه حياتَهُ » ، يقول : تذاكَرَ النَّاسُ بعوارِفك لديهم ، ونشروا محامدَك فيهم ، فكأَنَّك حيٌّ لم يُوارِكَ قبر ، ولم يَفُزْ بك موت . ويقال أنشر اللهُ الموتَى ونَشَرهم جميعا . وأنْشَرَ أفصح . وقوله « من نَشْرِها » أى من نَشرِ النَّاس لها ، فأضيف المصدر إلى المفعول .

٦ — فالنَّاسُ مأْتَمُهُمْ عَلَيْهِ واحِدٌ   فى كلِّ دارٍ رَنَّةٌ وزَفِـيرُ

٧ — عَجَباً لأَرْبَعِ أَذْرُعٍ فى خَمْسَةٍ فِى جَوْفِهَا جَبَلٌ أَشَمُّ كَبِيرُ

أصل المأتم النِّساء يجتمِعْنَ فى الخير والشَّرّ ، وجعله هاهنا المصيبة نفسَها . والرَّنين : الصَّوت . والرَّنَّة الفَعْلَة منه . وانتصب « عَجَباً » على المصدر ، والعامل فيه فعلٌ مضمَر ، كأنَّه قال : عجِبْتُ عَجَباً . وإنَّما قال أربع أذرع ، لأنَّ الذِّراع مؤنثة ، وفى خمسة لأنَّه أراد الأشبار . والشِّبْر مذكَّر . ويشبه هذا قوله :

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الجودَ والجودُ ميِّتٌ ولَوْ كان حَيّاً ضِقْتَ حَتَّى تَصَدَّعا(١)

والجبل الأشَمُّ : الطَّويل الرَّأْس . ويقال عِزٌّ أشَمُّ ، يراد به الارتفاع .

٣٢٨

وقال نَهارُ بنُ تَوسِعَةَ(٢) يَرْثِي أخاه :

١ — عِتْبانَ قد كُنتُ امرأً لِيَ جانِبٌ حَتَّى رُزِيتُكَ والجُدودُ تَضَعْضَعُ

٢ — قد كنتُ أَشْوَسَ فى المَقامَةِ سادِراً فنَظَرْتُ قَصْدِى واستقامَ الأَخْدَعُ

يقول : يا عِتْبان ، كنتُ رجلاً كان لى ملاذٌ ألوذ به ، وجانبٌ أستنِيم إليه ، وأتعزَّز بعزِّه ، إلى أن فقدتُك . والجُدود تنحطّ بعد الارتفاع ، وتعوجُّ عَقِيب الاستواء . فقوله « والجدود تضعضع » اعتراضٌ ، لأنَّ قوله « كنتُ أشْوَسَ » متَّصل بما قبلَه . والشَّوَس هو النَّظَر فى اعتراضٍ كنظر الغَضْبانِ والكارهِ للشىء

(١) للحسين بن مطير ، فى الحماسة ٣١٩ .
(٢) نهار بن توسعة بن تميم بن عرفجة بن عمرو بن حنتم بن عدى بن الحارث بن تيم الله ابن ثعلبة ، أحد شعراء بكر بن وائل هو وأبوه توسعة . وهو شاعر أموى . قال التبريزى : « وكان أشعر بكرى بخراسان » . وهو القائل ليزيد بن المهلب :

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها وكل باب من الخيرات مفتوح
فاستبدلت « قتبا » جعدا أنامله كأنما وجهه بالخل منضوح

يعنى قتيبة بن مسلم . المؤتلف ١٩٣ .

المعرضِ عنه . والمَقامة : المجلس . والسَّادر : الذاهب عن الشَّيء توَقُّماً عنه . ويقال أتى فلانٌ أمْرَه سادراً ، إذا جاءه من غير جهتِه . والسَّدَر : ظُلمةٌ تَغَشَّى العين ، وكأنَّ السادر منه . وقوله « فنظرتُ قَصدِى » أراد نظرت حيثُ أقصِدُ ، ومكانَ قَصدِى . وإعرابه يجوز أن يكون نصبا على الظَّرف ، وقدحُذف اسم المكان معه ، ويجوز أن يكون مصدراً ، كأنه قال : فنظرت أقصِد قَصدِى ، أى قاصداً قصدى فدلَّ المصدرُ على اللَّفظ بالفعل ، والواقعُ موقع الحال هو الفعل . ومعنى البيت : قد كنتُ بما فى نفسى من الكِبْر والتعلِّى على النَّاس أنظرُ إلى أهل المجلس نظرَ المعترض عليهم ، المعرض عنهم المستهينِ بهم ، المأخوذِ عن قصدى فيهم عجباً واستغناء ، فلما فقدتُكَ زالت تلك الخُنزُوانة عنى ، واستقام عنقى من الصَّوَر العارض له ، كما اعتدل نظرى فزال عنه الشَّوَس الذى كان فيه .

ويُستحسن لأوس بن حَجرٍ قوله :

* تَشاوَسْ يزيدُ إنَّنِى مَنْ تَأمَّلُ[1] *

٣ — وفَقَدتُ إخوانِى الَّذِينَ بعَيْشِهِمْ قد كنتُ أعطِى ما أشاء وأمنَعُ[2]

خاطب عِتبانَ فيما تقدّم ، وشكا بَثَّهُ إليه ، على عادة النَّاس فى إظهار التلهُّف عند مخاطبة المفقود ، والجرىِ فى مباثّته على عادتهم معه فى حياته . وفى الثَّانى أخبرَ عن نفسه بأنَّه مُرَزّأٌ فى إخوانه . كأنَّ المصائبَ كانت متوافيةً إليه ، ملحَّةً فى تكرير الفجائع عليه ، فإخوانُه تفانَوْا واحدًا بعد واحد ، وتداعَوْا فى التَّتابُع سَنَدا بعد سند ، فقال : ورُزِئت إخوانى الذين كنت أعطِى ما أشاء

---

(١) لم يرو فى ديوان أوس بن حجر . وأنشده فى مجالس ثعلب ١٥٥ والإنصاف ٣٤٤ . ورواية ثعلب : « تشاوس قليلا » وابن الأنبارى : « تشاوس رويداً » . وصدره فيهما :

* يقلب عينيه كما لأخافه *

(٢) سبق نظيره فى الحماسية ٢٧٧ فى قول البراء بن ربعى :

ثمانيــة كانوا ذؤابة قومهم بهم كنت أعطى ما أشاء وأمنع

إعطاءه ، وأمنع ما أشاء منعَه ، مدَّة عيشِهم ، وزمنَ بقائهم . ويقال : عشت عَيْشًا ومَعاشا . والمَعِيش والمَعِيشة والمَعَاش : اسمُ ما يُعاش به . ويقال هو عائشٌ أي حالُه حسنةٌ .

٤ — فلِمَن أقولُ إذا تُلِمُّ مُلِمَّةٌ أَرِنِي بِرأيك أم إلى مَنْ أَفْزَعُ

٥ — فليأْتِيَنَّ عليكَ يومٌ مَرَّةً يُبْكَى عليكَ مُقَنَّعًا لا تَسْمَعُ[(١)]

قوله « فلِمَنْ أقولُ إذا تلِمُّ ملمة » كلامُ من سلبه القَدَر إخوانَه ، وقصَّ جناحه فأعياهُ طيرانُه[(٢)] ، فمتى طرقَهُ حادثٌ ، أو ألمَّ بساحته من الدَّهر نائبٌ لم يكنْ له مَن يرجعُ إليه مستشيرًا ، أو يقتبس من نُور رأيِه مستضيئًا ، ولا وجدَ مَن يستدفِع به البلاءَ أو يستعْدِيه على مهتضِمِه ، فيصرِفُ بقوَّته عن نفسه العَداء فيبقى أسيرَ الغِيَر ، وقِيذَ الفكر[(٣)] . ومعنى « أرِنِي برأيك » أرشِدْنى برأيك ، واهدِنى بنظرَك . وقد حذف المفعول الثانى لقوله أرِنى ، والمراد أرِنى الصَّوابَ أو وجْه الأمرِ برأيك . ويقال : رأيْتُ الشَّىء بعينى رُؤْيةً ورأْيا ، ورأيته بقلبي رأيا لا غير . فأمَّا قولُ زُهير :

فقال أميرِى ما تَرَى رَأْيَ ما تَرَى أنخْتِـــلُه عن نفسه أم نُصَاوِلُه[(٤)]

فالمراد به ما تَرَى رأىَ أىِّ الأمرين ترى . فما ترى سؤالٌ عن جُملة الرَّأى ورأْىَ ما تَرَى سؤالٌ على طريق التَّفصيل ، وقد بيَّنه بقوله أنختِله أم نصاوله . وقوله « إلى مَن أفزع » يقال فَزِعت إلى فلان أفزع ، إذا التجأتَ إليه ؛ وهو

---

(١) أخذه من قول متمم بن نويرة فى البيت ٤٥ من المفضلية ٩ .

(٢) فى نسخة الأصل : « فأعيا طيرانه » ، وأثبتنا ما فى ل .

(٣) كذا فى النسختين . والوقيذ : المغشى عليه ، والذى يضرب حتى يشرف على الموت . وقذ ، فهو موقوذ ووقيذ .

(٤) رواية الديوان ١٣٢ : « ما ترى رأى ما نرى » . وفى شرحه : « أميره : الذى يؤامره . ما ترى رأى ما نرى فى الصيد ، أى قد رأينا كذا وكذا فما ترى فيه » .

لنا مَفْزَع ، أى نفزَعُ إليه . وفى ضدِّه يقال : هو لنا مَفزعةٌ ، أى نفزع منه . ويَستوِى فيه الواحد والتثنية والجمع ، والمذكَّر والمؤنث .

وقوله « فليأتينَّ عليك يومٌ مرَّةً » خِطابٌ لنفسه . وقد ألمَّ بقول الآخر[١] :

* وإخالُ أنِّى لاحِقٌ مُسْتَتْبَعُ[٢] *

يريد أن أجَله قد قرُبَ ولا بقاءَ للرُّوح على ما يمارسه ويزاوله . وأشار بقوله « يومٌ » إلى وقت النَّازلة . ويقال فعل كذا مرًّا ومرَّيْن كما تقول مرَّة ومرتين ، و« مقنَّعا » انتَصب على الحال من قوله « يُبكَى عليك » ومعناه مُسَجًّى مستور الوجه . ولا تَسمع فى موضع الصِّفة لقوله مقنَّعا ، أى مقنعا غير سامع عَولةَ الباكى . و « ليأتينَّ » جواب يَمينٍ مضمرة ، ويُبكَى عليك فى موضع الصِّفة ليومٌ ، أى يومٌ يُبكَى عليك فيه ، أو يُبكاهُ عليك إن قدّرته تقدير المفعول به . ومثله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ ، وقد مرَّ القول فيه[٣] .

٣٢٩

وقال يزيد بن عَمْرٍو الطائىّ[٤] :

١ — أصابَ الغَليلُ عَبرتِى فأسالَها ... وعادَ احتمامُ ليلــتى فأطالَها

٢ — ألا مَن رأى قومى كأنّ رِجالَهُمْ ... نَخِيلٌ أتاها عاضِدٌ فأمالَها[٥]

الغَليل : حرارةُ الجَوف ، يقال به غُلّة . والاحتمام : القَلَق والانزعاج ، يقال أحَمّنى الأمرُ إحماما . والعاضد : قاطع النَّخْل ، والذى يُقطَع به يقال له

(١) هو أبو ذؤيب الهذلى . ديوان الهذليين (١ : ٢) ، والمفضليات (٢ : ٢٢١) .

(٢) صدره : * فغبرت بعدهم بعيش ناصب *

(٣) انظر ما مضى فى ص ٣٣ .

(٤) لم أعثر له على ترجمة .

(٥) التبريزى : « من رأى قوما » . وقال : « قال أبو العلاء : إذا رويت : أتاها عاصف فأمالها ، فهى من عصف الريح » .

المِعْضَد . فيقول : تناهَى حَمْىُ جَوفى وغُلّة كَبِدى ، فأسَلْتُ دمعى إطفاءً لنائرتها ، وعاد قلقُ ليلتى ، وطار النَّومُ عنِّى فطال له ليلتى . وقوله « احتمام ليلتى » أضاف الاحتمامَ إلى ليلته لسكونه فيها ، ولاجتماع الوساوس عليه ، لتَفرُّدِه عما يشتغل به . ويروى : « احتمامى ليلتى » ، ويكون ليلتى فى موضع الظَّرف ، يريد احتمامى فى ليلتى . وإنما قال احتمامُ ليلتى لما كان تقدَّمَ من مصائبه فى عشيرته .

وقولُه « ألاَ مَن رأى قومى » لفظه استفهام ، والمعنى معنى التوجُّع . وقد يأتون به على الخطاب هل رأيتَ قومى ؟ كأنَّ هذه الرُّؤيةَ مستنكَرة فهو يَستثبِت . وقوله « كأن رجالَهم نَخيلٌ » شبَّههم وقد صُرِعوا بنخيلٍ معضودة . وهذا التشبيه ورَد مثلُه فى القرآن ، فى قوله تعالى : ﴿ كأنَّهُمْ أعجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ ﴾ . وجملةُ المعنى كأنّه يُنكِر أن يكون قومُه بهذه الصِّفة ، فقال مستثبِتاً على طريق التحسُّر : مَن رأى قومى مُقتَّلين مُصرَّعين كأنَّ فُرسانَهم نخيلٌ قَصَدها عاضدٌ فأمالها . وفائدة أمالَها ، على فصاحته فى هذا الموضع ، تصويرُ حالة الرِّجال حِينَ تُرِكوا بالعَراء كيف تُرِكوا .

٣ — أُدفِّنُ قتلاها وآسُو جِراحَها وأعلَمُ أن لا زَيْغَ عمَّا مُنَى لهَا

٤ — وقائلةٍ مَنْ أمَّها طالَ ليلُهُ يزيدُ بن عمرٍو أمَّها واهتَدَى لهَا

وَصف حالتَه وما مُنِى به فى ذَوِيه وعشيرته ، وكيف تَولَّى من المقتولين دفْنَهم ، ومن المجروحين أسْوَهم ، لأنّه إذا احتاج إلى تولِّى ذلك منهم كان أشقَّ له وأعْودَ بالكَمد عليه . وقوله « وأعلَمُ أن لا زَيْغَ عما مُنَى لها » رِضاً منه بمحتوم القضاء ، وإظهارٌ للتصبُّر فى البلاء ، وتحسُّر على ما فاتَه من القوم فى حالتَى الشِّدَّة والرَّخاء . ومُنَى لها ، يعنى قدِّر لها ، وأصله مُنِىَ ، فأخرجه على لغتِهِ ، لأنهم يفرُّون من الكسرة وبعدها ياء إلى الفتحة ، فتنقلب الياء ألفاً . والزَّيْغ :

الميل والانحراف . وقوله «أن لا زيغَ» أن فيه مخفَّفة من الثقيلة . أراد أنّه لا زيغَ . والضمير فى أنه للأمر والشأن ، ولا زيغ فى موضع خبر أنْ .

وقوله « وقائلةٍ مَنْ أمَّها » مَن فى موضع المبتدأ ، وطال ليله فى موضع الخبر ، كأنّه قال : الذى أمَّها طال ليلُه . ويزيد بن عمرو مبتدأ آخر وأمَّها فى موضع الخبر ، وهو استئناف كلامٍ منقطع عما قبله . ويعنى بيزيد بن عمرٍو نفسه .

وروى الأثرم هذه الأبياتَ عنْ أبى عُبيدةَ للنابغة الذُّبيانىّ ، وأثبتها فى ديوانه وقد غيَّر أبياتَه ترتيباً ولفظا ، وقال : إنما هو زياد بن عمرو ؛ لأنّ اسم النابغة زياد[1] ، وزعم أنَّه قالها فى وقعة طَيِّئ يومَ «شَرَاف[2]» ، غزاهم حِصن بن حُذَيفة ومعه النابغة ، فالتقوا بشَرَاف . والناسِبون كالكلبىّ والشَّيبانىّ واليَربوعىّ والأصمعىّ ، ذكروا أنّ النابغة هو زياد بن معاوية بن جابر بن ضِباب بن يربوع ابن غَيْظ بن مُرَّة . وأبو تمّامٍ نسبها إلى يزيد بن عمرٍو الطائىّ . وفى ألفاظ هذه الأبياتِ على ما رواه أبو تمّامٍ شاهدُ صدقٍ على أنه ليزيد لا للنابغة . والله أعلم .

ومعنى البيت : رُبَّ امرأةٍ قالت متوجِّعةً متحسِّرة : من قَصَد هؤلاء المقتولين ، ووُفِّق فى الاهتداء فقد أُطيلَ ليلُه ، لأنه يَرِدُ منهم على ما يَجرح القلب ويُطيلُ السَّهر . ثم قال يزيدُ بن عمرٍو : أنا الشقىُّ الذى أمَّها واهتدى لها ، مجيباً للقائلة . وفائدة اهتدى أنّ الموضع الذى قتلوا فيه كان كالملتبِس عليهم ، فصار هو الطَّالبَ له ، والمهتدِيَ إليه ، والمنبِّه عليه . وانجرّ « وقائلةٍ » بإضمار ربَّ ، وجوابه مَنْ أمَّها ، والجملة فى موضع المفعول لقائلة . وقد تعرَّى قائلة من صفةٍ لها ، وأكثر ما يجىء المجرور برُبَّ يجىء موصوفا .

(١) انظر الحيوان (٥ : ٥٥٥) حيث أنشد الجاحظ البيت منسوبا إلى النابغة برواية :

وقائلة من أمها واهتدى لها — زياد بن عمرو أمها واهتدى لها

(٢) يقال بالبناء على الكسر كقطام ، وبالإعراب مع التنوين وعدمه . معجم ما استعجم .

٣٣٠

وقال قَسَامُ بن رَوَاحَةَ السِّنْبِسىّ[١] :

١ — لَبِئس نصيبُ القوم من أخَوَيْهِمُ ... طِرادُ الحواشى واستراقُ النَّواضحِ

٢ — ومازال من قتلَى رَزَاحٍ بِعَالِجٍ ... دَمٌ ناقِعٌ أو جاسِدٌ غيرُ ماصِحِ

أخويهم يريد صاحبيهم . والعرب تقول : يا أخا بكرٍ ، يريد[٢] واحداً من بنى بكر . والحواشى : صغار الإبل ورُذالُها . والنَّواضح : التى يُستقى عليها الماء ، واحدتها ناضحة . وسُمِّيت بذلك لأنه جُعِل الفعلُ لها كأنَّها هى التى تنضح الزّراعاتِ والنَّخيل . وهم يسمُّون الأكّار النَّضّاح . على ذلك قول الهُذَلىّ[٣] :

هَبَطْنَ بطنَ رُهاطٍ واعتصَبْنَ كما ... يَسقِى الجذوعَ خِلالَ الدُّورِ نَضَّاحُ

فيقول : مذمومٌ فى أنصباء القوم مِن صاحبَيْنِ لهم يُقتلانِ طردُ الإبل وسَوقُها ، وسرقة البُعران التى يُستَقَى عليها . وإنما جعل الطَّرائدَ حواشىَ الإبلِ ونواضحها إزراء بها ، كما قالت كَبْشة أخت عمرو بن معدِ يكرِبَ :

* ولا تأخُذوا مِنهمْ إفالًا وأبْكُرا[٤] *

يعنى فى الدِّية . وهذا تعريضٌ بمن وجَب عليه أن يُهِمّه طلبُ دمِ صاحبيهم

---

(١) التبريزى وابن جنى : «قسامة» بالتاء . وقد ورد برواية المرزوقى فى المؤتلف ٢٢٧ ، والمرزبانى ٣٤٠ حيث رويا أبيات هذه الحماسية ، أى « قسام » . لكن البغدادى فى الخزانة : (٤ : ٨٨) قال : وهو فى بعض نسخ الحماسة قسام بن رواحة ، وفى بعض آخر منها قسامة بزيادة الهاء . ثم نقل نسبه من جمهرة الأنساب : قسامة الشاعر بن رواحة بن جل بن حق ابن ربيعة بن عبد رضا بن ود بن ود بن معن بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيّ . قال البغدادى : « ولم أر فى نسبه لاسنبسا ولا عنبسا » . وهو شاعر جاهلى .

(٢) كذا فى النسختين ، أى يريد القائل .

(٣) هو أبو ذؤيب . ديوان الهذليين (١ : ٤٦) .

(٤) من الحماسية ٥٢ ص ٢١٧ . وعجزه :

* وأترك فى بيت بصعدة مظلم *

فاقتصر من الأعداء على الغارة عليهم ، وسَرِقة الإبل منهم . وفيه هُزُوٌ أيضاً ، وبَعْثٌ على طلب الدّم .

وقوله «ومازالَ مِنْ قَتلى رِزَاح بعالجٍ دَمٌ ناقع» فالنّاقع : الثّابت ، ومصدره النُّقوع . والماصحُ ، قال الخليل : هو الرّاسخ فى الثرى ، وهو هاهنا الذّليل ، والدارس . يقال مصَحتِ الدّار إذا درَست ، ومَصح الظّلُّ ، إذا قصُر . قال الأعشى :

* إذا الآلُ مَصَحْ[1] *

وهذا الكلام تذكيرٌ بدماء قتلاهم . ورمل عالج : موضعٌ معروف . ورِزَاح : قبيلة . فيقول : ولا يزال من مقتولِى هذه القبيلة بهذا المكان دمٌ ثابت ، أو يابسٌ غير زائل . والمعنى أنَّ دماءهم بحالها ما لم يثأروا بهم ؛ لأنَّ غسْلَ تلك الدّماء إنّما يكون بما يُصَبُّ من دماء أعدائهم .

٣ — دَعَا الطَّيْرَ حَتَّى أَقبلَتْ مِنْ ضَرِيَّةٍ دَوَاعى دَمٍ مُهْرَاقُهُ غيرُ بَارِحِ[2]

لم يَرْضَ بما ذكره فى البيت المتقدِّم من التّذكير بدماء المقتولين حتّى بَسطَ القولَ فيه وجَنّحه بأن قال : دعا دواعى دمائهم طيورَ الأماكِنِ النّائيةِ والجبالِ المُطِلّةِ ، حتى أقبلَتْ من ضَرِيّة — وهو اسم بلادٍ تشتمل على جبالٍ — عوافى سباعِها وطيورِها تَستدِلُّ بها ، فوقعت عليها تأكل من جِيَفِها . ويجوز أن يريد بالدّواعى الرِّياحَ الذّاهبة فى الأقطار . وقوله «مُهراقُهُ غيرُ بارح» أى هو مصبوبٌ موضعَه لم يَحُل ولم يَزُلْ . وأعاد المعنى تفظيعاً ، ويجوز أن يريد بقوله «مهراقه» الموضعَ المصبوبَ فيه الدّم ، كأنّه يستشهد به فقال : هو غير بارح . وقال مُهراقُهُ والأصل

---

(١) البيت بتمامه فى ديوان الأعشى ١٦١ :

ولقد أجذم حبلى عامداً بعفرناة إذا الآل مصح

(٢) فى المؤتلف : « غير نازح » .

مُهَراقٌ فيه . وإنما قلنا هذا ليكون بين هذا وبين قوله « دم ناقع أو جاسد غير ماصِح » فصْل . والكلامُ يشتمل على ما يُطرِّى المصيبة ويهيّج الفجيعة ، ويصوِّر مَصرعَ القومِ بما يأتيه من عوافى الطَّير . وفيه بعثٌ شديد وحضٌّ بليغٌ على طلب الدّم .

٤ — عَسَى طَيِّئٌ مِنْ طَيِّئٍ بَعْدَ هذِهِ ستُطفِئُ غُلّاتِ الكُلَى والجوانِحِ

عسى لفظة وُضعت للترجّى والتأميل ، إلّا أنها تؤذِن بأنّ الفعل مستقبَلٌ مطموعٌ فيه ، فيجب أن يُستأنَى له ، وإن كانت من أفعال المقاربة . وبهذا يَبِين عن لفظة « كاد » لأنّ كاد لمشارفة الفعل فهو يلى الفعل بنفسه تقول كاد زيدٌ يفعل كذا ، وعسى يَحُولُ بينه وبين الفعل أنْ ، يدُلُّك على هذا أنّه قال «ستُطفِئُ غُلّات الكُلَى والجوانح» . لمّا كان من شرط عسى أن يجيء بعده أنْ إيذاناً بالاستقبال جعَل هذا بدل أنْ السّينَ ، لأنّه أشهر فى الدّلالة على الاستقبال ، وإنّما قال « عسى طيِّئٌ من طيِّئٍ » لأنّ الجِذاب الذى أشار إليه والقتالَ ، كان بينَ بطنَينِ منهما . وقوله « بعد هذه » أشار إلى الحالة الحاضرة ، الجامعةِ لكلّ ما ذكره . والجوانح : جمع جانحة ، وهى الضُّلوع القِصار . والمعنى : المطموع فيه من أولياء الدّم أن يطلُبوا الثّأر فى المستقبل ، وإن كانوا أخّروه إلى هذه الغاية ، فتسكنَ نفوسٌ وتبرُدَ قلوب . وقد آلَمَ بهذا الكلام كل الإيلام ، لِمَا ختَم به كلامه المتقدّم .

وأبلغ من هذا قول الآخر ، وهو فى طريقته :

وإنى لَراجِيكُم على بُطْءِ سعيِكُمْ كما فى بطونِ الحاملاتِ رَجاءُ

٣٣١

وقال سُليمان بن قَتَّةَ العَدَوىّ[١] :

١ — مَرَرْتُ على أبياتِ آلِ مُحمّدٍ فلم أَرَها أمثالَها يومَ حُلَّتِ
٢ — فلا يُبعِدُ اللهُ الدِّيارَ وأهْلَها وإنْ أصبحَتْ منهم برَغْمِي تخلَّتِ

الآلُ عند أصحابنا البصريِّين والأهلُ واحد ، ويدلُّ على ذلك أن تصغير الآل أُهَيْل ، كما أنّ تصغير الأهل أُهَيْل . وأخبرنا الفرّاء عن الكسائى أنه قال : سمعت أعرابيًّا فصيحا يقول : أَهْلٌ وأُهَيْلٌ ، وآلٌ وأُوَيْلٌ ، قال أبو العبّاس ثعلب : فقد صار أصلين لمعنيين ، لا كما قال أهل البصرة . وحكى أبو عُمَر الزّاهدُ عن ثعلبٍ أنّ الأهل القَرابة ، كان لها تابعٌ أو لم يكن ، والآل : القرابة بتابِعها . قال : ولهذا أجودُ الصلوات على النبى صلى الله عليه وسلم وأفضلُها : اللهمّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد . وقد ورد فيه التوقيف . رُوى أن أمير المؤمنين عليه السلام سأل النبىَّ صلوات الله عليه : كيف الصلاة عليك ؟ قال : « قولوا اللهمّ صلِّ على محمدٍ وعلى آل محمد » .

وقوله « فلم أرها أمثالَها يومَ حُلَّتِ » ، يريد أنها قد ظهر عليها من آثار الفَجْع والمصيبة ما صارت له وحْشًا ، فحالُها فى ظهور الجزَع عليها ليست كحالها فى السُّرور أيّامَ حَلُّوها . فهو مثل قول الآخر :

بَكَتْ دارُهم من فَقْدِهم فتهلَّلت دُموعى فأىَّ الجازعَينِ أَلُومُ

(١) ذكره ابن قتيبة فى مقدمة الشعراء ٦ باسم « سليمان بن قتة التيمى المحدث » . وفى حواشى بعض أصوله : « ابن قتة هذا عدوى ، وهو أول من رثى أهل البيت » . وذكره الطبرى فى تاريخه (٨ : ٢٤٨) باسم « سليمان بن قتة مولى بنى تيم بن مرة » وذكر أنه كان صديقاً لأسد بن عبد الله القسرى الذى توفى سنة ١٢٠ . وروى له أبو الفرج شعراً فى (١٧ : ١٦٥) . وذكر التبريزى أن البرق روى هذه المقطوعة لأبى رمح الخزاعى .

أَمُستعبِرٌ يَبكِي من الهُونِ والبِلَى ... أَمَ اٰخَرُ يبكى شَجْوَه ويَهِيمُ

وقد سلك محمّد بن وُهَيْبٍ مثلَ هذا فى مديحةٍ فى المأمون أوّلها :

طَلَلان طال عليهما الأَمَدُ ... دَرَسا فلا عَلَمٌ ولا نَضَدُ[1]

لَبِسَا البِلَى فكأَنَّما وَجَدَا ... بَعْدَ الأَحِبَّةِ مثلَ ما أَجِدُ

وسلك أبو تمامٍ هذا المسلكَ فزاد عليهم كلّهم ، لأنه قال :

قد أقسمَ الرَّبْعُ أنّ البَيْنَ فاضِحُهُ ... أَنْ لم تَحُلَّ به عفراءُ عن عُفُرِ

وقوله « فلا يُبعِدِ اللهُ الدّيارَ وأهلها » فيه دلالةٌ على أنّه جعل الدار وحالَها كالمفقودِين وأحوالهم ، إذ كانت لفظة لا تَبْعَدْ ولا يُبْعِدِ اللهُ يستعمَل فى الفائت . وقوله « وإن أصبحَتْ منهم برَغْمِى تخلّتِ » تحسُّرٌ على أهل الدار والدار جميعًا .

٣— ألا إنّ قَتْلَى الطَّفِّ من آلِ هاشِمٍ ... أَذَلّتْ رِقابَ المسلمِينَ فذَلَّتِ

٤— وكانوا غِياثًا ثم أَضْحَوْا رزِيّةً ... ألا عَظُمَتْ تلكَ الرَّزايا وجَلَّتِ

قَتلَى الطفّ[2] : الحسينُ ومن مَعَه من ذويه عليه السلام . وقوله « أذلّت رقابَ المسلمين فذلّت » كأنّها لما أُذِلَّتْ ، بأن بُغِيَ لعِترة رسول الله صلى الله عليه وسلم وولدِه عليه السلامُ الغوائلُ ، واستُحِلَّ منهم المحارمُ ، ونِيلَ منهم ما كان محظوراً من غيرهم من المسلمين ، فكيف منهم ، وقُهِروا على حقوقهم واستُبيحت دماؤهم وحُرَمهم — التزمَتْ رقابُهم ذلك الذّلَّ فأقرّتْ به وخضعت ، ولبستْه لِبسةَ مَن كان ذلك نصيبَه من مَواليه ، فصاروا كالراضِين [به[3]] وإن لم يكن ذلك رِضًا . وقوله « وكانوا غياثًا » يريد أنهم كانوا للمسلمين غَوْثًا

(١) من أبيات فى الأغانى (١٧ : ١٤٧ — ١٤٨) .
(٢) الطف : أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرية .
(٣) هذه من ل .

عند ما يَنزِل بهم فلا يرجون لمُلِمِّهم ديناً ودُنيا غيرهم ، فلمّا نِيلَ منهم ما نيل صاروا رزيئةً لهم كلِّهم ، لأنّه بحسب رجائهم كان فيهم ، وعلى مقدار مكانتهم من قلوبهم صار نوازِلُ الغمِّ تَنْكِي فيهم ، وفواقِرُ الرُّزْءِ تكسر ظهورَهم .

وقولُه « ألا عَظُمَت تلك الرَّزايا وجَلَّتِ » التفات ، كأنّه أقبَلَ مُكْبِرًا ومُستفظِعًا على مَن حوله فقال : ما أعظمَ هذه الرزايا وما أجلَّها ، لقد بلَغَت مبلَغًا شنيعًا ، وافترَّت عن البلايا افترارًا قبيحًا ، فيالَها ما أنكاها وأقرَحَها .

٣٣٢

وقالت قُتَيْلَةُ بنتُ النَّضْرِ بن الحارث (١)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل أباها صبرًا (٢) :

١ — يا رَاكِبًا إنّ الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ   من صُبْحِ خامِسَةٍ وأنتَ مُوَفَّقُ (٣)

الأُثيل : موضعٌ كان فيه قبر النَّضر ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم تأذّى به فقتله صَبْرًا ، وكان من جملة أذاه أنه كان يقرأ الكتبَ في أخبار العجم على

(١) كذا في الإصابة ٨٨٤ من قسم النساء ومعجم البلدان (الأثيل) وحماسة البحتري ٤٣٤ والعمدة (١ : ٣٠) . قال البحتري : « وكانت حازمة ذات رأي وجمال ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يتزوجها حتى كان من أبيها ما كان » . وذكر ابن إسحاق في السيرة ٣٥٩ وأبو الفرج (١ : ٩) والحصري (١ : ٢٧) أنها « قتيلة بنت الحارث » فهي على هذا القول أخت النضر لابنته . وقال أبو الفرج في الأغاني : « فيقال إن شعرها أكرم شعر موتور وأعفه وأكفه وأحلمه » .

(٢) هذا على القول بأنها بنت النضر . وأما على القول الآخر فإنها أخته . ومهما يكن فإن مقتل النضر بن الحارث كان يوم مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من بدر ، أمر عليا أن يضرب عنقه صبراً ، وهو بالصفراء .

(٣) نسب الجاحظ هذه الأبيات إلى ليلى بنت النضر في البيان (٤ : ٤٣) وذكر أنها عرضت للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يطوف بالبيت واستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف منكبه ، وأنشدته شعرها بعد مقتل أبيها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « لو كنت سمعت شعرها هذا ما قتلته » .

العرب ، ويقول : محمدٌ يأتيكم بأخبار عادٍ وثمود ، وأنا منبّئكم بأخبار الأكاسرة والقياصرة . يريد بذلك القدْح فى نبوّته ، وأنّه إنْ جاز أن يكون ذلك نبيًّا لإتيانه بقصص الأمم السّالفة فإنِّى قد أتيت بمثلها رسولٌ أيضاً . وذكر ابنُ عبّاسٍ فى قوله تعالى : ﴿ ومِنَ النّاسِ مَنْ يَشْتَرِى لَهْوَ الحَدِيث ﴾ ، أنها نزلت فى النَّضر بن الحارث الدّارىّ(١) ، وكان يشترى كتبَ الأعاجم فارسَ والرّوم ، وكُتُبَ أهلِ الحيرة ، فيحدّث بها أهلَ مكّة ، وإذا سمِع القرآنَ أعرَض واستهزأ به . وقُتَيلةُ ابنتُه لمّا جاءت إلى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم وأنشدَته هذه الأبياتَ رَقّ لها النبىُّ صلّى الله عليه وسلم وبكى . وقال : « لو جئتِنى من قبلُ لعفَوْت عنه » ، ثم قال : « لا يُقتَلُ قرشىٌّ بعد هذا صبراً » . فأمّا قولها « يا راكباً » فإنها دعَتْ واحِداً من الرُّكبان غيرَ معيّنٍ ، فكلُّ من كان يجيبها منهم كان هو المدعوّ . والمَظِنّةُ : المنزِل المَعْلَم . وقولها « من صبح خامِسةٍ » تريد من صبح ليلة خامسةٍ لليلة التى تبتدئُ فى السّير منها إلى الأُثيل وأنتَ على الطّريق غيرُ عادلٍ منها . وإنما ترِيدُ أن تقول : إذا كان ابتداء السّير من موضِعها يكون انتهاؤه فى أُثيْل من سَيْرٍ يحصُل فى صباح ليلةٍ خامسة لليلتها . ومن قولهم(٢) : إذا خرجْت عن مكانٍ كذا فموضعُ كذا مَنزِلٌ قَمِنٌ منك ضَحْوةَ غَدٍ ، وموضعُ كذا مظِنّةٌ من عشيّة يوم كذا . وعلى هذا الوجه قولُ الآخر :

يَسِطُ البيوتَ لكى يكونَ مَظِنّةً   من حَيْثُ تُوضَعُ جَفْنةُ المُسترفِدِ

وإن كان الأوّل فى الزّمان وهذا فى المكان .

---

(١) ذكر فى الإصابة ٨٧٠٥ أنه النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار القرشى العبدرى .

(٢) ل : « ومن كلامهم » .

٢ — بَلِّغْ به مَيْتاً فإنَّ تَحِيَّــةً ما إنْ تزالُ بها الرَّكائبُ تَخْفِقُ

٣ — مِنِّى إليه وعَبْرَةً مَسْفُوحَةً جَادَتْ لِمَائِحِها وأُخْرَى تَخْنُقُ

هذا هو الرِّسالةُ التى تُرِيدُ أن تُحمِّلها الراكبَ ، تريد : يا راكباً بَلِّغ بهذا المكان ، إذا أتيته ، مقبوراً فيه تحيّتى ، فإنَّ التَّحيات أبداً تخفِق بها الرَّكائب وتُبلَّغ أربابها . والخَفقُ : الاضطراب . ومفعول بَلِّغ الثَّانى محذوف ، لأنَّ قولها « فإنَّ تحيَّةً » يدلُّ عليه .

وقولها « منِّى إليه » يتعلّق بفعلٍ مضمَر قد دلَّ عليه بَلِّغْ ، كأنّه قال : أوصِلْ إليه منى تحيّةً وأدِّ منِّى تحية ، لأنَّ جميعَ ذلك معناه بلِّغْه عنِّى . وقولها « وعبرةً مسفوحَةً » معطوف على المفعول المضمَر الذى أظهرته . والمسفوحة : المصبوبة . وقولها : « جادت لمائحها » أى أجابت داعِيَها وساعدت مُستَقيها . وقولها « وأخرى تَخنُقُ » معطوف على عَبْرَةً ، كأنّها قالت : وأدِّ إليه أيضا عبرةً قد خنقَتْنى وهى فى الطَّريق لم تُوجَد . وهذا الكلام يشتمل على اقتصاصِ حالِها ، وعلى ما فى نفسها من الحسَرات وآلام الفجيعة . والرَّكائب : جمع رَكوبة ، وهى مفردةٌ عن الموصوف ، لا يقال ناقة رَكوبة ، وكذلك حَلوبة وقتوبةٌ . وقولها « جادت لمائحها » فى موضع الصِّفة لعبرة ، كما أنَّ تخنُق فى موضع الصِّفة الأخرى . والمعنى : بلِّغْه عنِّى تحيّةً وأعلِمه من حالى بكاءً يتصلُ ولا ينقطع ، ودمعاً يُساعِد ولا يَخذُل ، فمن سائلٍ مَسفوحٍ ، ومن خانقٍ مَدفوعٍ . وجادت من الجَوْدِ . ولك أن تَروِى « لماتِحها » و « لمائحها » . والمائح أبلغ ؛ لأنَّ المَتح الاستقاء ، والمَيْح أن تُدخَلَ البئرَ ليملأ الدّلوُ إذا قلَّ الماء . والذى يدلُّ على قلَّة الدَّمع والجهدِ فى إسالته يكون أجودَ فى الرواية .

٤ — فليَسْمَعَنَّ النَّضرُ إن ناديْتَهُ إن كان يَسْمَعُ مَيِّتٌ أو يَنْطِقُ

قولها « إن نادَيْتَهُ » شَرْطٌ وجوابه ما دَلَّ عليه ليسمَعَنَّ ، وكذلك قولها « إن كان يسمَعُ ميِّت » شرط ثان وجوابه يدلُّ عليه ليسمَعَنَّ . وترتيب الكلام إذا جاء على وجهه : إن ناديتَ النَّضر وقد أتيتَه عنِّى فليسمعنَّ نداءكَ وليُجيبنَّك إن كان الميِّت يسمع أو ينطِق . وقولُها « ليسمعنَّ » جواب يمين مضمرة ودَلَّ على ليجيبَنَّك أيضاً ، لأنَّ مَن صحّ فيه السَّمع إذا دُعِىَ صَحَّ منه الجواب . وقد يقول الإنسانُ وقد سُئل شيئاً : السَّمعُ والطَّاعة ، والمفهوم فيه : إنِّى أجيبُك إلى ملتَمَسك . ويريد به الفعلَ لا سماعَ سؤالِهِ من دونِ الفعل .

٥ — ظَلَّتْ سُيُوفُ بنى أبيه تنُوشُهُ ... لِلّٰهِ أرحامٌ هُنـــاكَ تَشَقَّقُ

٦ — أَمُحَمَّدٌ ولأنتَ نَجْلُ نَجيبةٍ ... مِنْ قومِها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ

٧ — ما كانَ ضَرَّكَ لو مَنَنْتَ ورُبَّما ... مَنَّ الفتَى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ

٨ — والنَّضرُ أقرَبُ مَنْ أصبْتَ وسيلةً ... وأحَقُّهم إنْ كانَ عِتْقٌ يُعْتَقُ

قولها « ظَلَّت سيوفُ بنى أبيه تنوشُه » تحسُّرٌ منها لما جرَى على أبيها[1] ، تريد : صارت سيوفُ إخوانه تتناوله بعد أن كانت تَذُبُّ عنه ، وتَضَعُ منه بعد أن كانت ترفعُه ، وتبتذل حُرُماتِه بعد أن كانت تصونُها . ثم قالت كالمستعطِفة والمتعجِّبة : لله أرحامٌ وقَراباتٌ فى ذلك المكان قُطِعَت أسبابها ، وهُتِكت أستارُها .

وقولها « هناك » ظرف ، والكاف كاف الخِطاب ، ويُشار به إلى مكانٍ مُتراخٍ . وإذا قيل هنالك فزيد فيه اللامُ كانَ آكَدَ ، والمشار إليه أبعد . والعامل فى « هناك » تَشَقَّقُ ، وهو فى موضع الصِّفة للأرحام . واللام من قولِهِ « لله » لام التعجُّب . وهم إذا عظَّموا شيئاً نسبوه إليه تفخيما لأمره جلَّ شأنه .

---

(١) الكلام بعد « هناك تشقق » ساقط من ل ، وسننبه على نهاية هذا السقط .

وقولها « أمحمدٌ » نوّنت المنادى المفردَ المعرفةَ ضرورةً ، ولو رُدَّ إلى أصله فقيل أمُحمَّدُ لجاز . وسيبويه يختار تركه على البناء فى هذا المكان وإن نوّنه للضرورة ، لمشابهة البناء فى هذا المكان الإعراب(١) . ولذلك جاز حمل الصفة عليه . ومثل هذا قول الآخر(٢) :

لا نَسَبَ اليَوْمَ ولا خُلَّةً اتَّسَعَ الخَرْقُ على الرَّاقِعِ

فنوّن خلّة ، والفتح فيه للبناء ، لأنّه مبنيٌّ كمنصوب . وبعضهم روى : « أمحمدٌ ها أنت نَجْلُ نَجِيبةٍ » ، فأدخل ها التنبيهِ على الجملة وقد تعرّت من حرف الإشارة . وقد جاء مثله . قال النابغة :

ها إنّها عِذْرةٌ إلاّ تكن نَفَعَتْ فإنّ صاحبها قد تاهَ فى البَلَدِ

والواو من « ولأنت » عاطفة للجملة ومفيدةٌ معنى الحال ، وكذلك الواو من قوله « والفحلُ فحلٌ مُعرِق » . والمعنى : أنت كريمُ الطرفين مُعِمٌّ مُخْوِلٌ . ويقال : هو عريقٌ فى الكرم ، إذا كان متناهيًا فيه . وإنما نادته فى هذا البيت واستعطفته مقرِّظة ومُثنية والمدعوُّ له قولها : ما ضرّك لو مننت . وهذا الكلام فيه اعترافٌ بالذّنب ، والتزامٌ للنِّعمة والمِنّة فى العفو لو حصل . فتقول : أيُّ شىء كان يضرُّك لو عفوتَ والفتى وإن كان مُغضَبًا مُضْجَرًا ، منطويًا على حَنَقٍ وعداوةٍ ، قد يَمُنّ ويعفو . هذا إذا جعلت ما استفهاما . ويجوز أن تجعل ما نافية والاستفهام فى مثل هذا الكلام يفيد معنى النفى . وإنما قالت « ربّما » لأنّ الحالة التى أشارت إليها بقولها « المَغِيظ المحنَق » يقل فيها المَنّ ، ورُبَّ للقليل .

(١) التبريزى : « إذا نون المنادى العلم فسيبويه يختار رفعه ، وهو مذهب عيسى بن عمر والخليل بن أحمد . وكان أبو عمرو بن العلاء ينصب » . ومثل هذا الكلام عند ابن جنى فى التنبيه .

(٢) هو أنس بن العباس بن مرداس ، أو أبو عامر جد العباس بن مرداس . العينى (٢ : ٣٥٢) .

وقولها « والنَّضر أقربُ مَن أصبتَ وسيلةً » تذكيرٌ منها بما يجمع النبيَّ صلى الله عليه وعلى آله وإيّاه من القُربَى والقرابة . وإنما يَدُلُّ بذلك على وجه الاستحقاق للصَّفح عن الخيانة ، لما يُدِلُّ به من الأسباب المتواشِجة ، والأرحام المتشابكة . وقولها « وأحقُّهم إن كان عِتْقٌ يُعتَق » أرادت : وأحقهم بأن يُعتَق إن كان عتقٌ ، أى إن وقَع عِتق ، فحَذَف الباء ، وحروف الجرّ مع أن تُلْغَى كثيراً ، ثم حَذَف أنْ ورفَع الفعل ، فهو كقوله :

ألا أيُّهذا الزاجرى أحضرُ الوَغَى   وأنْ أشهَدَ اللَّذّاتِ هل أنت مُخْلِدِى[1]

يدلُّ على أنّ أنْ من أحضُر محذوفٌ أنه عطف عليه بأن فقال : « وأن أشهدَ اللَّذّات » . وجواب الشرط ، وهو « إن كان عِتقٌ » ، ما يدلُّ عليه « وأحقُّهم » و « أقرب مَن أصبْتَ » . وكان هذه كان التامّة فلهذا استغنت عن الخبر . والمعنى : والنَّضر أقرب الاسَراء الذين أسرتَهم إليك ، وأحقُّهم بالعِتق إن وقع فِكاكٌ وعِتق .

٣٣٣

وقال النّابغة الجَعْدىّ[2] :

١ — فتًى كانَ يُدْنيهِ الغِنَى من صَدِيقهِ   إذا ما هو استَغْنَى ويُبْعِدُه الفقرُ[3]

---

(١) لطرفة بن العبد ، فى معلقته .

(٢) هو عبد الله بن قيس ، من بنى جعدة بن كعب بن ربيعة ، ويكنى أبا ليلى . وهو من مخضرمى الجاهلية والإسلام . ويقال إنه كان أقدم من النابغة الذبيانى . الذبيانى نادم النعمان ، وهذا نادم أباه . قالوا : ومات بأصبهان وهو ابن مائتين وعشرين سنة . الشعراء ٢٤٧ — ٢٥٥ والمعمرين ٦٤ — ٦٦ وابن سلام ٢٦ — ٢٨ والأغانى (٤ : ١٢٧ — ١٣٩) والخزانة (١ : ٥٠٩ — ٥١٥) والمؤتلف ١٩١ ومعجم المرزبانى ٣٢١ والموشح ٦٤ — ٦٧ ، واللآلى ٢٤٧ والاستيعاب ، وأسد الغابة ، والإصابة .

(٣) كذا ورد هذا البيت . والحق أنه للأبيرد الرياحى كما فى الكامل ١٢٣ ليبسك . ولم يرو التبريزى هذه الحماسية .

هذا مثلُ قول الهُذَلى(١) :

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقــرَهُ على نَفْسِهِ ومُشِيعٌ غِنــاه

وأحسن منهما قول الآخر :

إذا افتقَروا عضُّوا على الفقرِ حِسبةً و إن أيْسَرُوا عادُوا سراعًا إلى الفقرِ

٣٣٤

وقال أيضًا :

١ — فتًى كانَ فِيهِ مايَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أنَّ فيــه ما يَسُوء الأعاديا

٢ — فتًى كَمَلَتْ خيراتُه غيْرَ أنَّهُ جَوادٌ فلا يُبقِى من المال باقِيا(٢)

لمَّا قال : « كان فيه ما يَسُرُّ صديقه » وعَلِمَ أنَّ فى النَّاس مَن يَجمع الخيرَ خالصاً من دون الشَّرِّ خَشِىَ أنَّه إنْ سكَتَ على هذه الجملة ظُنَّ به القُصُورُ عن التَّمام ، والوُقوفُ دونَ الكمال ، فلا يكون فيه النِّكايةُ فى الأعداء والإساءة إليهم ، و إذلالُهم و إرغامُهم . ثمَّ وصَفَه بأن قال « على أنَّ فيه ما يسوء الأعاديا » وهذا هو النِّهاية فى الكمال ؛ لأنَّه إذا عَرَف لأوليائه ما يُوجِب عليه التوفُّرَ عليهم ، وجميلَ التفقّد لهم ، وعَرَف لأعدائه ما يُوجب التنقُّصَ منهم و إذلالَهم ، كان فى ذلك أكملُ الكمال .

وقوله « فتًى كَمَلت خيراتُه غير أنَّه جواد » هذا استثناء فى نهاية الحُسْن ، فهو كالتأكيد لأوّلِ الكلام ؛ لأنَّ كونَه جوادًا لا يكون عيبًا فيُخرِجَه من قوله « كَمَلت خيراتُه » ، لـكنّه إذا كان عيبُه المستثنى من الخَيْراتِ الجودَ الذى

(١) هو المتنخل . ديوان الهذليين (٢ : ٣٠) .

(٢) البيتان من قصيدة رثى بها النابغة الجعدى أخاه ، وروى البغدادى فى الخزانة (٢ : ١٢ — ١٣) بعض أبياتها .

هو مُؤْثَرٌ عند الله تعالى وعند النّاس ، فخصاله المحمودة الباقية ماذا ترى تكون . فهو استثناء منقطع من الأوّل ، كأنّه قال : كملت خيراته لكنّه جواد . وإذا تأمّلتَ وجدت البيتَ الثّانىَ مثلَ البيت الأوّل ، فى أنّه أتبعَ ثناءً بثناءٍ ، وأردفَ مديحاً بمديح ، فعجُزُ كلٍّ واحدٍ منهما يؤكِّدُ صدرَه ، ويزيده مُبالغةَ معنًى وتظاهُرَ مبدأ ومُنتهًى . ومثلُهما بيت النابغة :

ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سُيوفَهمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِن قِراعِ الكتائبِ

وموضع قوله « فتى » فى البيتين جميعا نصبٌ على الاختصاص ، كأنه قال أذْكُرُ فتًى هذه صفتُه . ولا يمتنع أن يكون موضعه رفعًا على أن يكون خبر مبتدأ محذوف . فإنْ قيل : ما موضع « على أنّ فيه ما يسوء الأعاديا » من الإعراب ؟ قلتَ : هو يجرى وإن كان جمعًا بين صفتين متضادّتين على أنّ الثانيةَ كالحال للأولَى ، كأنّه قال : فيه ما يسرُّ صديقه مركّبا على ما يسوء الأعاديا . وقوله « فما يُبقِى من المال باقيا » تأكيد للجود . وانتصاب « باقيا » يجوز أن يكون على المفعول ، ويجوز أن يكون على المصدر ، وقد وضعَه موضع الإبقاء . ومثلُه :

* كَفَى بالنّأىِ من أسماء كافِ(١) *

وضع كافٍ موضع كفاية ، وهو مصدرٌ منصوب ، لكنّه حذف فتحة الإعراب من آخره وإن كانت الفتحة مستخَفّةً ، على طريقة مَنْ قال :

* كأنَّ أيدِيهنَّ بالقاعِ القَرِقْ(٢) *

---

(١) البيت لبشر بن أبى خازم فى مختارات ابن الشجرى ٧٥ . وعجزه :

* وليس لحبها إذ طال شاف *

(٢) الرجز فى اللسان والمقاييس (قرق) وإصلاح المنطق ٤٦٤ .

٣٣٥

وقال[١] :

١ — وأىَّ فتًى ودَّعْتُ يومَ طُوَيْلِعٍ ... عشيَّةَ سلَّمْنا عليه وسلَّما

٢ — رَمَى بصدورِ العِيسِ مُنخرَقَ الصَّبَا ... فلَمْ يَدْرِ خَلْقٌ بعدَها أيْنَ يمَّما

٣ — فيا جازِىَ الفِتْيانِ بالنِّعَمِ اجْزِهِ ... بِنُعْمَاهُ نُعْمَى واعْفُ إن كان أظْلَما[٢]

انتصب « أىَّ » بودَّعْتُ ، والكلام فيه تعجُّبٌ على طريق التفخيم للشأن ، والتعظيم للأمر . وانتصب « عشيَّةَ » على البَدَل من يوم ، والمعنى : ما أجلَّ شأنَ فتًى ودَّعْناه عشيَّةَ شيَّعْناه مِن يوم طُوَيلِع ، وقَضَينا فيما بيننا وبينه بَعْدُ حقَّ التوديع ، بأن سلَّمنا عليه وسلَّم هو علينا ، أى قلنا : أصْحَبَكَ اللهُ السلامةَ ، وحفِظَك حيثُ كنتَ ! وقال لنا مثلَ ذلك . وهذا كأنَّه كان تثنيةً للوَداع حينئذ ، وتذكرةً مِن بَعْدُ من الشاعر . وإرسالُ القَول فيه تحسُّرٌ وتوجُّع . وقوله « وسلَّما » يريد وسلَّمَ علينا ، فحذَفَ علينا . ويجوز أن يكون أراد بودَّعْتُ الوَداعَ الذى لا تلاقِىَ بعده . ألاَ ترَى أنه يقال للمُفارق : غيْرَ مُودَّعٍ ! أى جعلَ الله بعده التقاء . وقد كشَفَ عن هذا المعنى طرَفةُ حيث يقول :

قِفِى وَدِّعينا اليومَ يا ابنةَ مالكٍ ... وعُوجِى علينا مِن صُدورِ جِمالِكِ

قِفِى لا يكُنْ هذا تَعِلَّةَ ساعةٍ ... لِبَيْنٍ ولا ذا حَظَّنا من نَوالِكِ

فإذا جعلتَ ودَّعْتُ على هذا ، انفصَلَ معناه عن معنى سلَّمنا عليه وسلَّما . وهذا ظاهر.

---

(١) يفهم من هذا الصنيع أن الشعر للنابغة الجعدى . وفى التبريزى : « وقال آخر » فيكون غيره . وأنشد ياقوت هذه الأبيات فى معجم البلدان (٦ : ٧٣) .

(٢) أظلما ، هذه الرواية التى يقتضيها الشرح . وقد كتبت بخط مخالف لخط الأصل : « مجرما » وهذه الأخيرة هى رواية التبريزى ، قال التبريزى بعدها : « ويروى إن كان أظلما » .

وقوله « رَمَى بصدور العِيس منخرَق الصَّبَا » يريدُ أنه توجّهَ فى المَفَازة حيثُ تنخرِق الرِّيحُ ، ورَمَى بصُدور رَوَاحِلِه نحوها ، فلم يُعرَف له بعد ذلك خَبَرٌ ولا أثر. وقوله « أين يَمَّما » موضعُ الجملة من الإعراب نصبٌ على أنّه مفعول لم يَدْرِ ، كأنه قال : لم يَدْرِ خَلقٌ ما يقتضى هذا السُّؤال . وهذا الكلامُ نهايةٌ فيما يثيره الجزَع من المشفِقِ القَلِق ، ويدُور فى شكوَى المتولّه الحَدِب ، لأنه إذا لم يمكنْه الرُّجوعُ إلى شىء بعد جوْلةِ الوداع والافتراق ، إلاّ إلى صَدْمة اليأس والاكتئاب ، فذاكَ أجلب لِلَوَاذِعِ الرَّزيئة ، وأجمعُ لبوارح الشَّكِيّة .

وقولُه « فياجازِيَ الفِتيان بالنِّعَم اجزِهِ » دعاء له ، والمعنى أحْسِن إليه بدَل إحسانه إلى خَلْقِكَ ، وجزَاء على إنعامِه فى عبادِكَ ، وتجاوَزْ عن سيِّئاته فيما كان فيه ظالما ، وعن الحقِّ والنَّصَف عادِلا . وقوله « كان أظلما » أى كان ظالما . وأفعلُ بمعنى فاعلٍ جاء كثيراً . ومثله :

* فتلك سبيلٌ لستَ فيها بأوحَدِ[1] *

وجعل فى الثانى شرطا لأنّه قال « واعفُ إن كان » وفى الأوّل لم يأتِ بمثله ليدلَّ على سلامة طريقته من الجَوْر والاهتضام ، وبراءةِ ساحته فى غالب ظنّه ممّا يستحق به العقابَ والانتقام . والكلام وإن كان فيه دعاء فهو تحسُّرٌ وتوجُّع . وإنما قلتُ هذا لأنّ استعمالَ الدُّعاء بعقبِ ما ذكَر طريقٌ فى إظهار الخيبة لا يكاد يعفّيها تعاوُر الأحوالِ بالسّلوة ، ولا يحوّل عن سلوكها تعاقبُ الأزمانِ بالمساءةِ والمسرّة .

---

(١) سبق إنشاده وتخريجه فى ص ١٠١ . وصدره :

* تمنى أناس أن أموت وإن أمت *

٣٣٦

وقال شبيب بن عوانة[(١)] :

١ — لِتَبْكِ النساءُ المُعْوِلاتُ بِعَوْلَةٍ أَبا حُجُرٍ قامَتْ عليه النوائِحُ
٢ — عَقِيلَةَ دَلَّاهُ لِلَحْدٍ ضَرِيحِهِ وأَثوابُهُ يَبْرُقْنَ والخِمْسُ مَائِحُ
٣ — خِدَبٌّ يَضِيقُ السَّرجُ عنه كأنَّما يَمُدُّ رِكابَيْهِ مِن الطُّول ماتِحُ

لِتَبْكِ النساء : أمرٌ من فعلٍ يدلُّ على الحال . ألا ترى أنّه وصَفَ النِّساء المأمورات بأنّهن مُعْوِلات . والأمر وإن كان فى الأكثر يُبْنَى على المستقبل يصحُّ أن يبنى على ما للحال ، ويراد به الاستدامة والاستمرار فى الفعل . على ذلك قول الله تعالى : ﴿ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . وقوله « بعَوْلَةٍ » تَعلَّق الباء منه بِلِتَبْكِ ، والمراد أن يكون بكاء المُعْوِلات أبا حُجُرٍ بزيادة عَوْلَةٍ . المُعْوِلات : الصَّائحات ، والاسم العَوِيل . و « قامت عليه النَّوائح » فى موضع الحال وقد مضمَرة ، كأنّه قال : لتَبْكِه النِّساء فقد ماتَ والنوائحُ يَنُحن عليه . وهذا كلُّه تفظيع للرَّزيئة ، وتنبيهٌ على وجوب البكاء له ، وأنَّ الزِّيادة فى العَوْلات عليه مُسوَّغَةٌ ، لأنَّ فَقْدَ اسمِهِ غير مُشاهَدٍ من قبلُ ولا مُعتادٍ .

وقوله « عقيلةُ دَلَّاهُ » اقتصاصُ حال التجهيز والدَّفن ، وأنّها وقعت بمرأى منه ومسمَع ، فشَقِيَ بمزاولتها ، وكَمِدَ لمشاهدتها . وأراد بالأثواب أكفانَه ، فجعلها تبرُق لبياضها . والمائح أصله الذى يدخل البئرَ فيغرف الماء فى الدِّلاء إذا قلَّ الماء . وهاهنا أراد الذى يدخل القبرَ فينظفه ويُصلح ما يجب إصلاحه منه . ودَلَّى ، أصلُه الإرسال ، وتوسَّعوا فيه فقيل : دَلَّاه بغرور ، إذا خدعه . وتدلَّى

(١) العوانة : النخلة الطويلة ، أو دابة دون القنفذ ، وبها سمى الرجل .

على كذا بالحِيَل . فيقول : عقيلةُ هو الذى أرسلَه للَحْد القبر ، وأ كفانُه لبياضِها ونظافتها تَلْمَعُ ، والخِمسُ هو الذى تَوَلَّى من القبر ما تَوَلَّى . وسَوْق كلٍّ هذا تفجُّع وتألُّم ، وتذكُّر لما سَخِنت له العين ، وأُحرِقت له الكبد .

وقوله « خِدَبٌّ » هو الكامل الخَلْق التامُّ الأعضاء ، القويّ السويّ . لذلك قال « يضيق السَّرجُ عنه » . وقوله « كأنّما يَمُدُّ ركابَيْه » وصفه بامتداد القامة وطول البادَّيْنِ[1] . ويُحمد من الفارس ذلك . وقوله « كان ماتِحًا » أى مُسْتَقِيًا ، يَمُدُّ ركابَيْه من بئرٍ لطولها . والخِدَبُّ : الطويل . يقال : إنّ فى ذلك لَخَدَبًا أى طولًا . و بعيرٌ خِدَبٌّ : ضَخْمٌ شديد .

٣٣٧

وقال[2] :

١ — أبا خالدٍ ما كانَ أدْهَى مُصِيبةً ... أَصابت مَعَدًّا يومَ أَصبَحْتَ ثاوِيا

٢ — لَعَمْرِى لَئِنْ سُرَّ الأعادِى وأظْهَرُوا ... شَماتًا لقد مَرُّوا بَرَبْعِك خالياً

٣ — فإنْ تكُ أَفْنَتْهُ اللَّيالِى فأَوشَكَتْ ... فإنَّ له ذِكْرًا سَيُفْنِى اللَّياليا

خاطب المرثىَّ فقال متلهِّفا : ما أعظمَ مصيبةً أصيبت بها قبائلُ مَعَدٍّ يومَ فُجِعَتْ بك فأصبحتَ مقيماً فى مكانٍ لا تَبْرَحُ منه . يُشِيرُ إلى القَبْرِ . ويقال : ثَوَى بالمكان وأَثْوَى جميعا . وقوله « أدْهَى » يقال دَهاه كذا يَدْهَاهُ دَهْيًا ودَهْوًا ، إذا أثَّر فيه تأثيرًا شديدا . وداهِيَةٌ دَهْياء ودهواء . والدَّاهية : المنكَر من الأمر . فيقول : إنَّ المصيبةَ بك ما أعظَمَها وأنكرها ، فيا لَمَعَدٍّ فقد بُلِيَتْ بها .

وقوله « لعمرى » مبتدأ وخبره محذوف ، و « لئنْ سُرَّ » شَرْطٌ ، واللام

---

(١) البادان : مثنى باد ، وهو باطن الفخذ .

(٢) التبريزى : « وقال آخر » .

موطِّئةٌ للقسَم ، وجواب لعَمرى لقد مرُّوا ، وجواب الشَّرط ما دلَّ عليه هذا الجواب . والمعنى : و بقائى لئن كان الأعادى مسرورين بموتك ، شامتين بذويك وعشيرتك لفقدهم لك ، فقد وقعت الشَّماتةُ فى وقتها وحينها ، ووافاهم الشُرور لحادثِ أمرٍ عَظُمَ موقعُه ، لأنَّهم مرُّوا بر بعكَ خاليا . والمعنى : أنَّ ما كان ممدودا على ذويك وأوليائك من نطاق الاعتزاز بمكانك ، والاعتلاء بجَدِّك وجدُوه قاصراً زائلا منقطعا . وانتصب « خاليا » على الحال . وقوله « فإنْ يكُ أفنَته اللَّيالى فأوشكت » معنى أوشكت : أسرعَتْ . كأنَّه استقصرَ مدَّةَ بقائه . و يجوز أن يكون استقصرَ مدَّةَ علَّته . والكلام فى حذف النُّونِ من إن تكُ فقد تقدَّمَ فى مواضعَ . وقوله « فإنَّ له ذكرًا سيُفنى الليالى » يريد : إنْ كان عمرُه قد انقطعَ فإنَّ ذكرَه متَّصلٌ بالأبد ، لا تفنيه الأيَّام ولا تقطعُه الآماد ، بل هو يُفنى الأيَّام والآماد . ووشْكُ البَين : سرعةُ القطيعة . وتقول : لَوَشْكَانَ ذا ، كما تقول : لَعَجْلان ما كان كذا . ومثله قوله :

فإن تسجُنوا القسرىَّ لاتسجُنوا اسمَهُ ولا تسجُنوا معروفَه فى القبائلِ (١)

٣٣٨

وقالت امرأةٌ من كِنْدة :

١ — لاتُخْبِرُوا الناسَ إلاَّ أنَّ سيِّدَكم أسلَمْتُمُوهُ ولو قاتَلْتُمُ امتنَعا

٢ — أَنْعَى فتًى لم تَذُرَّ الشَّمسُ طالعةً يومًا من الدَّهرِ إلاَّ ضَرَّ أوْ نفعا

قوله « لا تُخْبِرُوا الناسَ إلاَّ » تهكُّم وسُخريَّة ، يشُوبُه تعيير شديد . أى قد ارتكبتم أمراً عظيما بتسليمكم سيِّدَكم ، فاستُرُوا أمرَكم ولا تُنَبِّئوا الناسَ به . وهذا مخاطبةٌ لقومٍ خذَلوا رئيسَهم ولم يثبُتوا معه ، حتى قُتِل . فيقول :

(١) البيت ٤ من الحماسية ٣١٤ ص ٩٢٨ .

لو ثبتوا وتابعوا لدافعَ عن نفسِه وعنهم . وقوله « إلاّ أنّ سيِّدكم » إلاّ بمعنى غير ، فهو منقطعٌ مما قبله . وهذا الاستثناء من المعنى ، كأنه قال : سَلِمْتُم إلاّ أنّ سيِّدَكم أسلَمتُم .

وقولها « أنعَى فتًى لم تذرُّ الشمسُ طالعةً » انتصب طالعةً على الحال المؤكِّد لما قبلَه . والكوفيُّون يقولون فى مثله : انتصب على القطع . وكما أنّ الحال يجىء مؤكِّداً لما قبلَه تجىء الصِّفةُ أيضاً مؤكِّدة لما قبلها . ومثال الحال : رأيتُه فى الحمَّام عرياناً ، فعريان حالٌ مؤكِّدة . ومثال الصفة أن تقول : فعلتُ كذا أمسِ الدّابرَ . وذُرُور الشمس : انتشارُها فى الجوّ . والمعنى : أذكُرُ موتَ فتًى لم تطلُع الشمسُ يومًا من أيّام الدَّهرِ عليه إلاّ وهو ضارٌّ لأعدائه ناكٍ فيهم ، أو نافعٌ لأوليائه مُسْدٍ إليهم . وفى هذا ذهبَ إلى مثل ما قاله عدىٌّ :

إذا أنتَ لم تنفَعْ بوُدِّكَ أهلَه   ولم تنكِ بالبُوسَى عدوّكَ فابعَدِ

٣٣٩

وقالت امرأةٌ من بنى أسَدٍ :

١ — خليلىَّ عُوجَا إنّها حاجَةٌ لنا   على قَبْرِ أُهْبَانٍ سَقَتْهُ الرَّوَاعِدُ

تخاطب صاحبين لها تسألها التعريجَ على قبرِ أُهبان زائرَينِ له ، ومجدِّدَينِ العهدَ به . وقوله « سقته الرّواعد » دعاءٌ للقبر بالسُّقيا . والرّواعد : السَّحاب التى فيها الرَّعد . وقولها « إنها حاجة لنا » حَشْوٌ واعتراض ، وقد وقع موقعًا حسناً ، وفيه استعطافٌ للمخاطَبَيْنِ واستلطافٌ فيما تُكلِّفهما . ويقال : ما عند فلانٍ تعويج عليهم ، أى تعريج . وعُجْنا بالمكان أشدَّ العِياجِ والعَوْجِ ، أى عطَفْنا .

٢ — فنِعْمَ الفتى كلُّ الفتى كان بَيْنَهُ   وبينَ المُزَجَّى نَفْنَفٌ مُتباعِدُ

قولها « كلُّ الفتَى » مفيدٌ للتأكيد ، وجامعٌ أسبابَ الفتوّة كلَّها

للموصوف ، فكأنها قالت : ثَمَّ الفتى التامُّ الفتوّة حتى لم يغادِرْ شيئاً من علائقها وأسبابها . وقولها « كان بينه و بين المُزَجَّى » ، والمُزَجَّى : الضَّعيف ، كأنه يُزَجِّى الوقتُ فى الاعتداد به بين الفتيان . ويجوز أن يكون سمِّى الضعيفُ مُزَجًّى لتأخُّره وحاجتِهم إلى تزجيته واستحثاثه فيما يَعِنّ . وهذا كما قيل « المركَّب » فى الضعيف الفروسيّة . والنَّفْنَف : المَهْواة بين الجبلَين ، والأرضُ بين الأرضَين . وهذا كما يقال : بين هذا و بين كذا بَوْنٌ بعيد . فتقول : بين هذا الفتى و بين من يُزَجَّى فى الفتيان مَهواةٌ بعيدة ، حتى لا التقاء ولا تدانِيَ .

٣— إذا انتضَلَ القومُ الأحاديثَ لم يكُنْ عَيِيًّا ولا عِبْئاً على مَن يُقاعِدُ[١]

أصل الانتضال والنِّضال فى الرِّماء ، ثم يستعمَل توسُّعا فى المفاخَرة وقتَ المنافرةِ ، ومُحاثاة الخُصوم لدى المناقرة[٢] . ألا ترى لبيداً يقول :

فانتضَلْنا وابنُ سَلْمَى قاعدٌ كعتيقِ الطَّيْرِ يُغْضِى ويُجَلّْ

ثم قال :

فرمَيْتُ القومَ رِشْقاً صائبًا ليس بالعُصْلِ ولا بالمُفْتَعَلْ

فيقول : إذا تجاذَبَ القومُ أطرافَ السَّمَر والأخبار ، وتنازَعوا قَصَص الفُرسان والأيّام ، ودَسُّوا فى أثناء المسارّة روائعَ التبجُّح والمكاثَرة ، لم يكن حاجزاً فيما بينهم فَدْمًا ، ولا ضعيفَ التصرُّف بكِيًّا ، ولا كان ثقيلاً على جُلسائه ، سَيِّئَ العِشْرة[٣] لخلطائه ، بل كان حسنَ المجلِس معهم ، مُستَحلَى المنادمة بينهم ، خفيفَ الوطْأة عليهم .

ومن روى : « ولا ربًّا على من يقاعد » فإنه يُريد : لا متكبِّرًا على جليسه فِعلَ ذى المَلَكة والسُّلطان ، والآخِذِ على مُصطنِعِه بالاعتلاء والامتنان .

(١) التبريزى : « ولا ربا » . وقال : « ويروى : عبئاً ... ويروى : لغبا ، أى ضعيفاً » .

(٢) المنافرة ، بالفاء : المفاخرة ، كأنها من كثرة النفر بمعنى العشيرة . وبالقاف : المنازعة ومراجعة الكلام .

(٣) فى الأصل : « العشيرة » ، تحريف .

٣٤٠

وقال كعبُ بن زُهَيْرٍ [١] :

١ـ لقــد وَلَّى أَلِيَّتَهُ جُوَىٌّ ... مَعاشِرَ غيْرَ مَطْلُولٍ أخُوها [٢]

كان جُوَىٌّ على ما دلَّ عليــه الكلامُ حلَفَ فى وجوه ناكِبِيه والعازمِين على قتله ، أنهم لا يستمرئون فِعلَهم ذلك ، وأن عشيرتَه وأصحابَه سيطلبون دمَه ويُدرِكُون ثأره ، فكانوا عند ظنّه بهم من غير إهمال ولا تضجيــع . فيقول : جعَــل جُوَىٌّ وِلايةَ يمينه التى أقسم بها إلى معاشرَ لا يُبطَلُ دمُ صاحبهم ولا يُهدَر ، بل لا ينامون ولا يُنِيمون حتى ينالوا الوِتْر . وقوله « غير مطلول أخوها » أى دم أخيها ، فحذف المضاف وأقام المضافَ إليه مقامه . قال :

دماؤهم ليس لهـا طالب ... مطلولةٌ مثلُ دمِ العُذْرَهْ

وقال :

تلكُمْ هُرِيرةُ لا تجِفُّ دموعها ... أهُرَيْرَ ليس أبوكِ بالمطـلولِ

---

(١) هو كعب بن زهير بن أبى سلمى ، من شعراء الصحابة ، نشأ فى بيت كلهم شعراء ، فأبوه وجده ، وعمتاه سلمى والخنساء غير المشهورة ، وخال أبيه بشامة بن الغدير ، وابنا عمته صخر والخنساء المشهورة ، وأخوه بجير وولده عقبة وحفيده العوام ، كلهم شعراء . أسلم بعد الفتح ، وعفا عنه الرسول وآمنه بعد كان قد أهدر دمه ، وكساه البردة . انظر كتب الصحابة والأغانى (١٥ : ١٤٢ — ١٤٣) والشعراء ١٠٤ — ١٠٧ ومعجم المرزبانى ٣٤٢ والخزانة (٤ : ١١) .

(٢) جؤى هذا هو جؤى بن عائذ ، من مزينة . وكانت مزينة حلفاء الأوس ، فمر جؤى على الأوس والخزرج وهم يقتتلون فدخل فى الأوس فأصيب جؤى ، فمر به ثابت الخزرجى والد حسان ، وقال له : لقد دخلت فى قوم ما يحمونك ! فقال جؤى وهو يجود بنفسه : أعطى الله عهداً ليقتلن بى منكم خمسون ليس فيهم أعور ولا أعرج . وثارت مزينة ، فأعملت القتل فى الخزرج فقتل منهم عدة . شرح السكرى لديوان كعب ٢٠٩ — ٢١١ وشرح التبريزى للحماسة .

أى لا يُنسَى دمُه ولا يُبطَل ديتُه . والأَلِيَّةُ : اليمين ، وجمعها ألايا . والفعل منه آلَيْتُ أُولِى إيلاء ، وائتلَى . وفى بعض اللغات يقال الأَلْوَةُ .

٢ — فإن تَهْلِكْ جُوَىُّ فإنَّ حَرْبًا كظنِّك كان بَعْدَكَ مُوقِدُوها

خاطَب بعد أن أخبر على طريق التَّسلية ، فيقول : إن ذَهَبْتَ لما دُعِيتَ له فإنَّ الذين شبُّوا نارَ الحرب بعدكَ فى التقاضى بك كانوا كما ظننتَهم ، وعند أملِكَ فيهم . فقوله « موقدوها » ارتفع بكان ، وكظنِّك فى موضع خبر كان وقد تقدَّم ، والجملة أعنى كان موقدوها بعدك كظنّك خبر إن ، واسم إنّ وهو حَرْبًا نكرةٌ غير موصوفة أيضا ، وساغ ذلك لَمَّا كان المراد بها مفهوما معلوما . ويجوز أن يُجعل قولُه « كظنِّك كان بعدك موقدوها » من صفة حَرْبًا ، ويُجعل خبر إنّ محذوفا ، كأنّه قال : إنّ حربا هذه صفتُها وقَعتْ . وبيتُ الأعشى حجّةٌ فى الوجهين جميعًا . وهو :

إنَّ مَحَلًّا وإنَّ مُرْتَحَلَا وإنَّ فى السَّفْرِ إذْ مَضَى مَهَلَا

ألا ترى أنَّ معناه إنَّ لنا مَحَلًّا وإنَّ لنا مرتحلا ، فحذف الخبر ، ومَحَلٌّ ومرتَحَلٌ نكرتان .

٣ — وما ساءت ظنونُكَ يومَ تُولِى بأرماحٍ وَفَى لك مُشرِعُوها

٤ — ولو بَلَغَ القتيلَ فَعالُ قَوْمٍ لسرَّكَ من سيوفِكَ مُنْتَضُوها[١]

٥ — كأنكَ كنتَ تعلَمُ يومَ بُزَّتْ ثِيابُك ما سَيَلْقَى سالِبُوها[٢]

---

(١) بعده عند التبريزى ، وهو فى الديوان بعد البيت التالى :

لِنَذْرِكَ والنُّذُورُ لها وَفاءٌ إذا بلغَ الحَزايَةَ بالغُوهَا

(٢) بعده عند التبريزى :

فما عُتِرَ الظِّباءُ بحىِّ كَعْبٍ ولا الخمسونَ قصَّرَ طالبُوها

صَبَحْنَ الخَزْرَجِيَّةَ مُرْهَفاتٍ أبانَ ذَوِى أَرُومَتِها ذَوُوها

قوله « وما ساءت ظنونك » تشكُّرٌ للعشيرة وإن كان لفظه إعلامَ جُوىً ما كان منهم وثناء عليهم ، فيقول : لقد حَسُنَ ظنُّك بأرماحٍ وفَى لك مهيِّئوها ومُعْلِموها يوم حِلفك ، فلا جَرَمَ أنَّهم صدَّقوا ظنَّك بهم ، وحقَّقوا اعتقادَك فيهم ، وجدُّوا فى طلب الأمر وانكمشوا ، حتَّى بَرَّتْ يمينُك ، وطابت نفوسُ أوِدَّائك والمفجوعينَ بك . وجعل الباء من قوله « بأرماحٍ » متعلِّقا بقوله ظُنونك ، وإنَّما الظنّ كان بأربابها ، مجازًا واتِّساعا .

وقوله « ولو بلغ القتيلَ فَعالُ قومٍ » يريد لو أمكن إبلاغُ المقتولين ما يفعله الأحياء بعدَهم لقُمتُ فى ذلك وقَعدتُ ، علمًا بأنَّ ما أتاه قومُكَ إذا تأدَّى إليك سَرَّكَ وقوعُه وحمِدتَهم له . ويقال : نَضَا سيفَه وانتضاه ، إذا جرَّدَه من غِمده . وقال « من سيوفك » وأضافها إليه لَمَّا كان أربابُها من أسبابه ، وما للسَّبب مثل ما للمسبَّب .

وقوله « كأنَّك كنت تعلم يوم بُزَّتْ ثيابك » أراد بالثِّياب السِّلاحَ ، وهذا كما يُقال له البَزّ . قال الهُذلىّ[1] :

* فَوُقِّرَ بَزٌّ ما هنالِكَ ضائعُ[2] *

يعنى به السَّيف ، ومعنى وُقِّرَ وُقِّعَ وَقَراتٌ وهَزَماتٌ فيه . ويقال بَزَّه كذا وابتزَّه . وفى المثل : « مَن عَزَّ بَزَّ » ، أى من غَلَبَ سَلَب . وقال الدُّريدىّ : البَزُّ السِّلاح ، يدخل فيه الدِّرع والمِغْفَرُ والسَّيف . وجعل تَعلَمَ بمعنى تعرف ، لذلك اكتفى بمفعولٍ واحد ، كقول الله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ . و « ما سيلقى » ما بمعنى الذى ، وما بعده من صلته ، وحذف المفعولَ من سيَلقى

---

(١) هو قيس بن عيزارة . ديوان الهذليين (٣ : ٧٨) ، وانظر ما سيأتى فى الحماسية ٣٤٥ ص ٩٨٨ .

(٢) صدره : * فويل ام بز جر شعل على الحصى *

استطالةً للاسم بصلته ، أراد ماسيلقاه ، ويعني بذلك مايصيبهم في مكافأةِ فعلِهم ، وعند الانتقام منهم .

٣٤١

وقال آخر :

١ — نعَى النّاعى الزُّبيرَ فَقُلْتُ تنعَى فتى أهْلِ الحجازِ وأهلِ نجْدِ
٢ — خَفِيفَ الحاذِ نَسّالَ الفيافِي وعَبْدًا للصَّحابةِ غيرَ عَبْدِ

يقول : خبَّرَ الناعى بموت الزُّبير ، فقلت معظِّمًا لشأنه ، ومفخِّمًا للتأثير بمكانه : إنك تذكر موتَ قريع أهلِ الحجاز وأهل نجد ومختارِهم ، ومَن لا تحقُّ الفتُوَّةُ بالاتفاق إلا له . وقوله « خفيف الحاذِ » وصفه بخفة العجُز وقلة اللّحم على الفخِذ ، وذلك مستحبٌّ من الفُرسان . قال الخليل : الحاذان : أدبارُ الفخِذين ، والآحاذ الجميع (١) . وقيل هو الظَّهر . والحاذُ في غير هذا المكان : الحال والمؤُونة . وقوله « نسّال الفيافى » أراد نسّالٌ فى الفيافى ، فأجراه مجرى قطّاع الفيافى . والنَّسلان : مِشية الذِّئب إذا أعنَقَ وأسرع . ويقال : نَسَل الماشى ، إذا أسرع . وفى القرآن : ﴿ فإذاهُم مِنَ الأجْداثِ إلى ربِّهم ينْسِلون ﴾ أى يُسْرِعون .

وقوله « عبْدًا للصَّحابة غيرَ عَبْدِ » يصفه بكرم الصِّحاب ، وحُسن التوفُّر على الرِّفاق . والصَّحابة مصدر فى الأصل ، يقال أحسَنَ الله صحَابتك ، ثم استُعمِل صفةً ، وقوِيَ فى الوصفيَّة حتى جرَى مجرى الأسماء ، وتفرَّد عن الموصوف به . وكذلك قولهم صاحبٌ اسم الفاعل من صحِبَ ، تفرُّدُه بنفسه ، قوِيَ حتى كأنَّه ليس بمشتقٍّ من صحِبَ ، لا يكاد يقال هو صاحبٌ زيْدًا كما

(١) المعروف فى جمعه « أحواذ » ، كما فى اللسان .

يقال هو ضاربٌ زيداً . ومعنى « غير عَبْـدٍ » نَفْىٌ لذُلِّ العبوديّة ، لأنّ قوله « عبداً للصحابة » أراد كرم الخُلُق وسهولةَ الجانب ، وتحمُّلَ الأعباء عن رفقائه . وقد ألمّ فى هذا بقول الآخر(١) :

* طَبّاخِ ساعاتِ الكَرَى زادَ الكَسِلْ *

٣٤٢

وقال رُقَيبَةُ الجَرْمىُّ ، من طيِّئ :

١ — أقولُ وفى الأكفانِ أبيضُ ماجِدٌ كغُصْنِ الأَراكِ وجْهُهُ حِينَ وَسَّما

٢ — أحقًّا عِبادَ اللهِ أنْ لَسْتُ رائيًا رِفاعَـةَ طُولَ الدَّهْرِ إلاّ تَوَهُّما

مفعول « أقول » هى جملة البيت الذى يليه ، والواو من قوله : « وفى الأكفان أبيضُ ماجد » واو الحال ، و « كغصن الأراك » فى موضع الصِّفة لأبيض . شبَّه امتدادَ قامتِه به . و « وجهُه » على هذا يكون مبتدأً وخبره حين وسَّما ، والجملة فى موضع الصِّفة لما قبله . وظروف الأزمنـة لا تتضمَّن الأشخاص والجُثَث ، لا تقول زيدٌ اليوم ، ولـكن هذا مثل قولهم : الهلالُ اللَّيلةَ ، فكما جازَ هذا لأنّ المراد طُلوع الهلال اللّيلة ، كذلك قوله « وجهُه حين وسَّما » لأن المعنى : بُقُولُ وجْهه(٢) حين وَسَّمَ . ومعنى وسَّمَ : خرَج قليلا ، وحقيقتُه أنّه بمعنى توسَّم ، كما أنّ وجَّه بمعنى توجّه ، ونبَّه بمعنى تنبَّه ، وقدَّم بمعنى تقدَّم . ويقال لوّن الغلامُ(٣) ، وطَرّ ، ووَسَّم ، وبَقَل بالتخفيف ، فى معنًى واحد . وأجاز أبو حاتم بَقّل بالتّشديد ورواه الأصمعىّ ولم يُجِزْهُ غيره . والمعنى : أقول

(١) هو الشماخ ، أو جبار بن جزء أخى الشماخ ، أو أبو النجم ، أو ابن المعتز . الخزانة (٢ : ١٧٣ بولاق) و (٤ : ١٧٧ سلفية) .

(٢) بقول الوجه : خروج شعره . وفى الأصل : « يقول وجهه » ، تحريف .

(٣) استعمال مجازى لم يرد فى المعاجم المتداولة .

متلهِّفا وقد كُفِن بمرأى منِّى ثَمَّ شابٌ مجتمِعٌ كريمٌ شريفٌ حسن الطَّأة[١] ، كأنَّه غُصن من الأراكِ ووجهُه قد وَسَمَ حديثا . والمعنى : اغْتُبِط ولم يُمتَّع بشبابه ، ولا أُمْهِل لاستكماله واكتهاله . فأقول : حقًّا عبادَ الله ما أرى .

وقد ألمّ في هذا المعنى بقول النَّابغة :

* يقولون حِصْنٌ ثم تأبَى نفوسُهم[٢] *

كأنه يكذِّب المشاهدة كما كذَّب النابغة الإخبار . وكلُّ ذلك لاستفظاع الحال ، واستعظام الأمرِ والخَطْب . فأمّا قوله « أحقًّا » انتصبَ[٣] عند سيبويه على الظَّرف ، كأنّه أفى الحقِّ ذلك . فإن قيل : كيف جاز أن يكون ظرفًا ؟ قلتَ : لمَّا رآهم يقولون : أفى حقٍّ كذا ، أو أفى الحقِّ كذا ، جعله إذا نصبوه على تلك الطَّريقة ، قال :

أفِى حَــقٍّ مُواساتِى أخاكُمْ   بمالى ثُمَّ يَظلِمُنى السَّرِيسُ[٤]

وقال :

أفى الحقِّ أنِّى مُغرَمٌ بكِ هائمٌ   وأنَّكِ لا خَلٌّ هَــوَاكِ ولا خَمْرُ

وقوله « أن لستُ رائيا » أنْ مخفَّفة من الثقيلة . والمعنى : أفى الحقِّ لستُ رائيًا هذا الفتى إلا متوهِّما أبَدَ الدَّهر . وقوله « توهُّما » مصدر فى موضع الحال .

---

(١) الطأة بفتح الطاء : الحال اللينة . قال الكميت :

أغشى المكاره أحيانا ويحملنى   منه على طأة والدهر ذو نوب

(٢) عجزه كما فى شروح سقط الزند ٢٦٢ ، ٨١٣ :

* فكيف بحصن والجبال جنوح *

(٣) جرى فى حذف فاء الجواب على مثل ما جرى عليه فى ص ٨١٤ . وهو جائز على قلة .

(٤) لأبى زيد الطائى ، كما فى اللسان (سرس) . والسريس : العنين ، أو الذى لا يولد له .

وفائدة قوله « عبادَ الله » أنّه رجع فيما كان لا يؤمِن به ولا يسكُن إليه شناعةً وقباحةً ، إلى النّاس كافّةً يستثبتُهم ويستفتيهم .

٣ — فأُقسِمُ ما جَشّمتُهُ من مُهِمّةٍ تَؤُودُ كِرامَ القومِ إلا تَجَشَّما(١)

٤ — ولا قُلتُ مَهْلًا وهو غضبانُ قد غَلا من الغيظ وسْطَ القومِ إلّا تبسَّما

يصِفُ رضاه وحُسنَ طاعتِه له ، وقُوّةَ نهضته بكلٍّ ما يُحمِّلُه من الأثقال المتعِبة ، والآراب المثقِلة ، ودوامَ صبرِه على جميع ما يُكلِّفُه من المهمّات الشاقّة على كِرام النّاس الباهظةِ ، إلى ما كان يُوجِب له ويعظِّم قدرَ كلامِه ، فقال : ولم أقل له رفقًا إذا احتمى غيظاً إلّا سكَنَ وحَسُنت فيئتُه ، وكرُمت عطفته ، حتّى بدَا لى مَضحكُه ، وتهلّلَتْ فى لُقياىَ غُرّتُه . هذا ومجلسُه مشهود ، والأقوامُ حولَه قعود ، فلا يتداخله نَخْوة ، ولا تأخُذه بالإباء والتشدُّدِ عزّة . وهذا كلّه تنبيهٌ على تعالِى لوعتِه ، وتغالِى حُرْقته وفَجْعته .

٣٤٣

وقال آخر :

١ — ألا لا فتى بعدَ ابنِ ناشِرةَ الفتى ولا عُرْفَ إلّا قد تولّى فأدْبَرا

٢ — فتًى حنْظَلِىٌّ ما تزالُ رِكابُهُ تجودُ بمعروفٍ وتُنكِرُ مُنْكَرا

٣ — لَحَى اللهُ قومًا أسلَموكَ وجرّدُوا عَناجيجَ أعطتْها يمينُك ضُمَّرا

حذف الخبر من قوله « لا فتى » و « لا عُرْفَ » جميعا ، كأنّه قال : لا فتى فى الدنيا بعدَ ذهابه ، ولا عُرْفَ موجودٌ بعد تولّى عُرْفه . وفى وصفه المرثىَّ

(١) التبريزى : « من ملمة » .

بالفتى كأنَّه جَمع له الفضائلَ كلَّها ، كما أنَّ نفيه العُرفَ كأنَّه نَفى به المحامد كلَّها ؛ لأنَّ من شرط الفتوَّة أن يَدخل تحتها خِصالُ الخير ، كما أنَّ العُرف والمعروف يدخل تحته كلُّ ما عُرِف فى الإحسان والصَّلاح . ولك أن تنوِّن « لا فتًى » وإن كان الأوَّل أشرفَ فى المعنى وأبلغ ، فيكون فى موضع الرَّفع بالابتداء ، وكذلك لا عُرْف ترفعه وتنوّنه ، لأنَّك تلقى حركة الهمزة من إلّا وهى كسرة على التَّنوين . والفصل بين الرَّفع والنَّصب أنَّ النَّصب يفيد الاستغراق ، كأنَّه نفى قليلَ الجِنس وكثيرَه ، إذ كان جوابَ هل مِن فَتًى ، ومن عُرْفٍ ؟ والرَّفع لا يكون فيه الاستغراق ، لكونه جوابَ هل فتًى وهل عُرْفٌ[1] ، فلا يمتنع أن يكون السُّؤال عن واحدٍ من الجنس ويكون الجوابُ على حدِّه . وقوله « ما تزال ركابه » من صفة فتًى ، و « تجود بمعروف » خبر ما تزال .

وارتفع « فتًى حنظلىٌّ » على أنه خبر مبتدأٍ محذوف ، ولو نصبه على المدح والاختصاص لجاز ، وقَصْدُه إلى أنَّه أمّارٌ بالمعروف ، ونَهّاءٌ عن المنكر ، ولا يَرضى بذلك فيما يليه من البلاد ، بل ترَى الرُّكبان تطوف به ، فيأتيهما فى الأباعد مثلَ ما يأتيهما فى الأقارب[2] . وقوله « ركابه » أراد أصحاب رِكابه يعنى رسله .

وقوله « لَحَى الله قوما أسلموك » تصريحٌ بأنَّ أصحابَه خذلوه وتقاعدوا عن نُصْرته حتَّى تمكّن منه الأعداء فقتلوه . وقوله « جرّدوا عناجيج أعطتْها يمينُك ضُمَّرا » بيانٌ لأنَّ الخيل التى جرّدُوها للرَّكض فى الهرَب ممّا سمحت به يدُه ، فلم يُراعُوا ذِمّة ، ولم يحافِظوا حُرمة ، ولا راجعوا أنفُسهم فيما تُنتِجه الأحدوثة ، وتسير به الرَّكبُ من سيِّئ القالة . والعَناجيج : الخيل الطِّوال ،

(١) فى الأصل : « هل من فتى ومن عرف » .
(٢) فى الأصل : « فتأتيهما . . . ما تأتيهما . . . » .

واحدها عُنجوج . ومعنى « لَحَى الله » يجوز أن يكون من اللِّحاء : السَّبّ والذمّ . ويجوز أن يكون من اللَّحْى : القَشْر . وكيف جعلتَه فهو دعاء عليهم ، تسويدًا لوُجوههم ، وإلحاقًا للعارِ بهم ، وتقبيحًا لفعلهم ، وجزاء على صُنعهم . وفائدة قوله « ضُمّرا » أنهم لم يُؤتَوْا من عُدّةٍ ولا عَدَدٍ ، وإنّما أُتُوا من عَجْزِهم وجُبنِهم ، وسوء نيّاتِهم ، وسُقوط هِمّتهم .

٣٤٤

وقال آخر :

١ – أضْحَى أبو القاسمِ الثّاوِى ببَلْقَعَةٍ تَسْفِى الرِّياحُ عليهِ مِنْ سَوافِيها[١]

قوله « أضحى » هاهنا لاتصال الوقت ، والباء من قوله ببلقعة تعلق بالثاوى ، وخبر أضحى تَسفى الرِّياح عليه ، والكلام توجُّعٌ وتحسُّرٌ بأنّه استَبدلَ بمَجالِسِهِ الفضاء ، ومن نُدَمائه وخلطائه الخَلاءَ ، ومن رفيع دَسْتِهِ ونَبيهِ فَرْشِهِ التُّراب ، والرِّياح السَّوافى تأتى بها إليه ، وتجمعه عليه[٢] . والسَّفا والسافياء : التُّراب . ويقال سَفَت الريحُ التُّرابَ وغيرَه تَسفيه سَفْيًا ، والريح سافية ، والجميع السَّوافى ، للترابِ والوَرَق واليَبِيس . وقيل السافياء : الريح تحمل ترابًا كثيراً تهجُم به على الناس . والسَّفا : اسم ما تسفيه . والبَلقَع : المكان الخالى .

٢ – هبّتْ وقد علِمَتْ أنْ لا هُبُوبَ به وقد تكون حَسيرًا إذْ يُبارِيها

يقول : هبّت الرياحُ عليه رافعةً الحشمةَ فى ابتذالها إيّاه ، عالمةً أنه لا هبوبَ

---

(١) أولها عند التبريزى :

كانت خُزاعةُ مِلْءَ الأرضِ ما اتّسعَتْ فقصَّ مَرُّ اللّيالى منْ حَواشِيها

(٢) جعل ضمير التراب مرة مؤنثاً وأخرى مذكراً .

لريح دَولته ، ولا نَفاذَ لأمره ، ولا استقامةَ لصولته ، وقد كانت إذا هَمَّت بمباراته تقِف حَسيرًا بهيرًا لا انخراقَ لها ، ولا مَجَرَّ لذيلها . وقوله « أن لاهُبوبَ » أن مخففة من الثَّقيلة ، كأنَّه قال : أنَّه لا هبوب به . والضَّمير للأمر والشأن ، وإن شئتَ كان للمرثىّ . ولا هبوب فى موضع خبر أنَّ ، والجملة سَدَّت مَسَدَّ مفعولى عَلِمَتْ .

٣ — أضْحَى قِرًى للمَنايا رَهْنَ بلقَعَةٍ وقد يكونُ غَـداةَ الرَّوْعِ يَقْرِيها

يقول : صار طُعمةً للمنايا هـذا المفقودُ ومرتهَنًا فى قبره ، لا انفكاكَ له ولا دِفاعَ به ، وقد كان وهو حَىٌّ غداةَ الرَّوع يَقرِى المنايا من لحوم الأعادى ، ويجعلهم قِراها وطُعْمها . ويقارب هذا قولَ الآخر(١) :

وإنَّا لَلَحْمُ السَّيف غَيْرَ نكيرةٍ ونُلْحِمُهُ حيناً وليس بذى نُكْرِ

٣٤٥

وقال عَقيل بن عُلَّفة(٢) :

١ — لِتَغْدُ المَنايا حيثُ شاءتْ فإنَّها مُحَلَّلةٌ بعدَ الفتى ابنِ عَقِيـلِ

٢ — فتًى كان مَوْلاهُ يَحُلُّ بنَجْوَةٍ فَحَـلَّ الموالِى بَعْدَهُ بمَسِيلِ

٣ — طَويلُ نِجادِ السيفِ وَهْمٌ كأنَّما تَصُولُ إذا استَنْجدتَه بقَبيلِ

كأنَّه أذِن لأنواع الموت أن تبتكر حيث شاءت ، وتنالَ من الناس مَن أرادت ، فقد حلَّ لها ذلك بعد أخْذها الفتى ابنَ عقيل ، لأنَّه هو الذى كان

(١) هو دريد بن الصمة . الحماسية ٢٧٢ ص ٨٢٥ .

(٢) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٣٦ ص ٤٠٠ . وساق التبريزى نسبه : « عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن غيظ بن مرة » . والأبيات يقولها فى رثاء ولده علفة بن عقيل ، وهو ولده الأكبر . الأغانى (١١ : ٨٨) .

يُخشى عليه منها ، ويُرتجى يومُه وغدُه ، وإذ قد أصيب الناسُ به فلا خطرَ على المنايا ، ولا خوفَ من الرزايا . ويقال : حَلَّلته من كذا تحليلاً ، إذا أطلقته له .

وقوله « كان مولاه يحلُّ بنجْوةٍ » فالنجوة : اسم المكان المرتفع ، والجميع النِّجاء . وقيل هو اسمٌ لما إذا أَوَيْتَ إليه نَجَوْتَ من محذورك . وقد دخل تحت قوله « مولاه » ابنُ العمِّ وكلُّ مَن ينتسب إليه بوَلاء . ألا ترى أنه لما أعاد ذِكره قال : « فحلَّ الموالي بعدَهُ بمَسِيل » . وإنما قال ذلك لأنَّهم كانوا بأجمعهم يتعزَّزون به ويستظهِرون على الدَّهر بحياته ، فلما أُصيبوا به تمكَّنت الأقدارُ من التأثير فيهم ، وتسلَّقت الآفاتُ من كلِّ جانبٍ عليهم ، وصاروا بمنزلة من نزلَ في مسيلٍ من الأرض فلعبت السُّيول به ، وتهجَّمت نُوَبُ[1] الزَّمان عليه ، وقد كان من قبلُ في يَفَاعٍ لا يرتفع إليه الأَتِيُّ وإن طمَا ، ولا يرتقى إليه الأبِيُّ وإن استعلَى .

وقوله « طويل نِجاد السيف » وصَفه بامتداد القامة ، وهذا كما أنَّ الفرسَ إذا وُصِف بطول الخدِّ قيل : هو طويلُ العِذار . ومثله قول أبي نُواس :

سَبْطُ البَنان إذا احتبَى بنجادِهِ ... غَمرَ الجماجمَ والسِّماطُ قِيامُ

وهذا المعنى مضادٌّ لما وَصَف به بعضهم[2] تأبَّط شرًّا ، وكان يلقَّب بالشَّغْل ، فسَلَبَ بَزَّ قتيـلٍ له وتقلَّدَ سيفَه ، وكان القتيل حسَنَ الشِّطَاط ، وتأبَّطَ شرًّا قصيرَ القامة ، فطال عليه حمائلُ السيفِ المسلوبِ وانجرَّ على الأرض ، فقال فيه :

فويلُمِّ بَزٍّ جَرَّ شَعْلٌ عَلَى الحَصَى ... فوُقِّرَ بَزٌّ ما هنالك ضائعُ

أراد بالبَزِّ السيف ، ومعنى وُقِّرَ وُقِّعَ فيـه وَقَراتٌ وهَزَماتٌ ، لتأثير الحصَى

(١) وكذا وردت هنا كلمة « نؤب » بالهمز . انظر ما مضى في ص ٩٢٩ .
(٢) هو قيس بن عيزارة . انظر حواشي الحماسية ٣٤٠ ص ٩٨٠ .

فيها . وجعل البَزَّ ضائعاً لِمَا لبِسه غيرُ صاحبه . فأمّا قوله « يصول إذا استنجدته بقبيل » فإنّه يصفه بغَنائه إذا استُغيث به وكمالِ آلاته ، حتى صار المستنصِر له والمستغيث به ، إذا أجابه واحتضره ، كأنّه أجابه قَبيلٌ لا رجُل . والوَهْمُ : العظيم التامُّ الخَلْق . ويقال : جَملٌ وهمٌ ، وهو القويُّ العظيم المنقاد ، المطيعُ لصاحبه .

٣٤٦

وقال مُسافِعٌ العَبْسىّ(١) :

١ — أبعد بنى عَمْرو أُسَرُّ بمُقْبِلٍ ... من العَيْشِ أوْ آسَى على إثْرِ مُدْبِرِ

٢ — وليسَ وَرَاءَ الشيءِ شىءٌ يَرُدُّهُ ... عليكَ إذا وَلَّى سِوَى الصَّبْرِ فاصْبِرِ

قوله « أبعد بنى عمرو أُسَرُّ بمقبِلٍ » كأنّه قال منكِرًا مستقبِحًا . يريدُ أُسَرُّ بعد أن فُجِعت بهؤلاء القوم بقدَرٍ يساعدُ ، أو عيشٍ يُقبِل ، أو زمانٍ يُطاوِع ، أو أحزَنُ فى إثْر فائتٍ ، أو أجزع لتولِّى مُدْبِر . والمعنى : أنَّ السُّرور كان يتصل بحياتهم ، والغَمَّ كان يُحذَر مخافةَ أن يكون فيهم ، وإذ قد مضَوْا لسبيلهم فلا شىء من أعراض الدنيا يَلحق له حبورٌ إذا نِيل ، ولا شىء من أعلاق المُنَى يُحزَن له إذا أُفِيتَ .

وقوله « وليس وراءَ الشىء شىء يردُّه عليك » أى(٢) يَرجِعه إليك . فالاعتصام بحَبل الصَّبر هو الأَوْلَى ، والأحبّ دِيناً ودُنيا ، فاصبِر . وقوله « سِوَى الصبر » موضعُه من الإعراب استثناء خارج ، لأنَّ الصبر ليس من الشىء الرادِّ الفائتَ فى شىء ، فقد انقطع مما قبله .

---

(١) هو مسافع بن حذيفة العبسى ، كما فى شرح التبريزى . قال البغدادى فى الخزانة (٢ : ٣٦٠) : « وهو شاعر فارس من شعراء الجاهلية » .

(٢) فى الأصل : « أو » .

٣– سلامٌ بنى عمرٍو على حيثُ هامُكُمْ جَمالَ النَّدِىِّ والقَنَا والسَّنَوَّرِ

٤– أولاكَ بنو خيرٍ وشرٍّ كِلَيْهما جميعًا ومعروفٍ أَلَمَّ ومُنكَرِ

لما استسلم للجزع وما اعتاده من الهَلَع، وصبَّر نفسه مسليًا، وتتبع أثر المصيبة معفيًا، حيَّاهم فقال: عليكم التَّحيَّةُ من اللهِ يا بنى عَمرٍو حيث قرَّت هامكم. و «هامكم» ترتفع بالابتداء وخبره محذوف، كأنه قال: حيث هامكم حاصلة موجودة. والجملة أضيف إليها حيث لينشرح بها، لأن حيث يقتضى جملتين، فهى فى الأمكنة مثل حينَ فى الأزمنة. ثم قال «جمالَ النَّدِى» أى أذكرُ جمالَ المجلس يومَ الحفل، وزَينَ السِّلاح غداةَ الروع، فانتصب جمالَ على الاختصاص والمدح[1]. وذكَرَ الهامَ على عادةِ العرب، فى زعمِهم أنَّ عظامَ الموتَى تصير هامةً تطير. والنَّدِىُّ والنَّادى: المجلِسُ. ويقال: نَدَاهُم المجلسُ، أى جَمَعَهم، فانتدَوْه.

وقوله «أولاك بنو خيرٍ وشرٍّ كليهما» إيذان منه بأنَّهم كانوا مستصلَحين لكلِّ ما يعنُّ ويحدُثُ من السَّرَّاء والضَّرَّاء، فكانوا بنى الخير لاستدرار المنافع من مالهم وجاههم، وبنى الشَّرِّ لاستدفاع البلايا ببأسِهم. وكانوا يُسْعِدون مواليَهم ببِرِّهم وتفقُّدهم، ويُشقُون مُعادِيَهم بحَدِّهم وسطوتهم. وقوله «كليهما جميعا» انجرَّ كليهما على البدل من خيرٍ وشرٍّ، ولا يجوز أن يكون توكيدًا لهما، لأنَّ توكيد ما لا يُعرَف لا فائدةَ فيه. والكوفيُّون يجوِّزون توكيدَ ما يدخله التَّجزئةُ من النَّكرات، يقولون: قرأت كتابًا كلَّه، وأكلتُ رغيفًا كلَّه، على التوكيد. وأصحابنا البصريُّون يجيزون الكلامَ بمثل هذا، ولكنهم يمتنعون من إجراء الآخِر على الأوّل على طريق التأكيد ويجعلونه بدلًا، كأنَّه قال بنو كِلَا الخيرِ

(١) وقال التبريزى إنه منصوب على النداء.

والشَّرّ . وانتصب « جميعا » على الحال . وكِلَا يضاف إلى المثنى ، إلّا أنَّ المعطوفَ والمعطوف عليه والحرف العاطفَ الواوَ بمنزلة المثنّى . وفائدة قوله « معروف ألَمّ ومنكَر » أن يُصْرَفا إلى النّوازل الملمّة والحوادث الطّارئة ، فيكون الخير والشر مقصورين على أفعالها ، فلذلك قال « ومعروفٍ ألَمّ ومنكر » ليتميَّز ما يكون من فعلهما عما يحدُث من غير فعلِهما .

٣٤٧

وقال الربيعُ بن زيادٍ العَبْسيّ (١)

فى مالكِ بن زُهيرٍ العبسِيّ :

١ — إنّى أرِقتُ فلم أُغمِّضْ حارِ ... مِنْ سيّئ النّبأ الجَليلِ السّارى (٢)

٢ — مِنْ مِثْلِهِ تُمْسِى النِّساءُ حَوَاسِرًا ... وتَقُومُ مُعْوِلَةً مع الأسْحارِ

يقول : لَمَّا تساقَطَ الخبرُ الموجِع السّارى بليلٍ ، العظِيمُ فى شأنه ، الفظيع عند وُقوعِه إلىّ ، سهرتُ فلم أغمِّض ياحار . كأنّه ذكَرَ ابتداء حاله لابتداء نَعيّه . والأرَق : السَّهَر . ويقال غمّضتُ عينى بالتشديد ، وغمَّضْتُها ، واغتمضتُ . وأضاف السّيّئ إلى النّبأ لأنّه جعل النّبأ للجِنْس ، فهو كإضافة البعض إلى الكلّ .

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ١٦٣ ص ٤٨٤ .

(٢) كان من خبرهذه الأبيات فيما روى التبريزى أن مالك بن زهير العبسى كان متزوجاً فى بنى فزارة ، فبعث إليه أخوه قيس حين قتل ندبة بن حذيفة أن اخرج عنهم ليلا . فبعث إليه مالك : مالى الى بنى بدر من ذنب ، وإنما ذنبك عليك ، وما أنابتارك منزلى لما أحدثت أنت . وغير مالك فى بنى فزارة دهرا ، ثم غدرت به فزارة ، وجه إليه حذيفة من يقتله فقتلوه . وكان الربيع مجاوراً لحذيفة ، فجاء إليه وقال : يا حذيفة سيرنى فإنى جاركم ، فسيره ثلاث ليال ، فقال حمل لحذيفة : بئس ما صنعت ، قتلت مالكا وخليت حبل الربيع ، والله ليضرمنها عليك ناراً فدونك الرجل قبل أن يفوتك ولا أحسبك تدركه . ثم إن الربيع جمع بنى عبس للقاء بنى فزارة ، وجرت بسبب هذا حروب فيما بينهم .

ويقال: أساء ما صنعَ، فهو سيّئ، وساءنى الشئ مَساءةً، وسُؤتنى بما فعلت مَساءةً ومَسائيةً. ويقال السَّيّئُ والسَّيّئة والسُّوءَى. والسيِّئة كالخطيئة، وهو بإزاء الحسنة، والسُّوءى بإزاء الحسنى. والسُّوء: الاسمُ الجامعُ للآفات والأدواء.

وقوله «من مثله تمسى النِّساء حواسرا»، أى يأتى عليهن المَساء وقد طَرحْن خُمُرَهنّ فهنّ كاشفات الرُّءوس، مسبلات الشُّعور، لا يَكتسِينَ ولا يستترن، ويقُمْن مع السَّحَر صائحاتٍ عائداتٍ إلى عادتهنّ من النِّياحة والبكاء. وقيل الإمساء من الظُّهر إلى المغرب، وقيل بل إلى نِصف اللَّيل من الإمساء. وروى بعضهم: «تَمشِى النِّساء» أى يمشين متبرِّزات لا يدفعُهنّ عن ذلك حشمة ولا يَحجزهنّ رِقْبةٌ. والأوّل أجودُ، حتَّى يكون المساء فى مقابلة الصَّباح، ويكونَ الشّاعرُ قد ذكر طَرَفَىِ النَّهار من أوقاتِهِنّ.

٣ — أفبَعْدَ مَقْتَلِ مالكِ بن زُهَيْرٍ ... تَرْجُو النِّساءُ عواقِبَ الأطهارِ (١)

٤ — ما إنْ أرى فى قتْلِهِ لِذَوِى القُوَى ... إلَّا المَطِىَّ تُشَدُّ بالأكْوارِ (٢)

هذا فيه ما فى قول الأخطل:

قوم إذا حارَبُوا شَدُّوا مآزِرَهُمْ ... دونَ النِّساء ولو باتَتْ بأطْهارِ

وإلى هذا أشار أبو تمامٍ فى قوله:

لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيًّا هَرَقْتَ له ... كأسَ الكَرَى ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

وقوله «أفبعد» لفظه لفظ الاستفهام، والاستفهامُ يطلب الفِعل، فكأنّه قال: أترجو النِّساء عواقبَ الأطهار بعد مقتل مالك؟ وهو ينكر أن يكون ذلك

(١) أنشد ابن رشيق هذا البيت فى العمدة (١: ٩٤) شاهدا على ما سماه الخليل «الإقعاد» وهو هنا حذف نون متفاعلن وإسكان ما قبله فى آخر تفعيله من الشطر الأول، وهو ما يسميه المتأخرون «القطع». وانظر شروح سقط الزند ١١٤٦.

(٢) التبريزى: «لذوى النهى».

أو يُستجازَ وقوعُه . والمراد بعواقب الأطهار مراجعةُ البُعولة إلى مضاجعة النِّساء بعقِبِ أطهارهنّ والتمتُّع بهنّ . والمعنى أنّ الأمر أفظَعُ من أن يُتوَهَّمَ ذلك ، والخَطْبَ فى المصاب به أنكَى فى القلوبِ والنُّفوسِ من أن يُتذكَّرَ لذّاتٌ ، أو يُتحدَّثَ بتناسُلٍ وولادات . وقوله « ابن زُهَيْرٍ » جعل عَروض الضَّرب الثانى من الكامل مقطوعة[١] ، ولو قال « زُهَيْرٍ » لاستقام له وكان يكون متفاعِلُنْ . وهم يُدْخِلون على الأعلام التَّغييرَ كثيرًا ، لكنّه مال إلى هذا وجعله فَعِلاتُنْ . وقد فَعَلَ فى أوّل المقطوعةِ مثلَ ذلك ، لكنّه فى ذلك أعذرُ لأنّه جعلَها مصرَّعَة ، ولم يرضَ بأن جعله فَعِلاتُنْ حتّى سكَّنَ العين منه وجعله مَفْعُولُنْ ، ويسمّى مقطوعا مُضْمَرًا . وفَعَلَ أيضا مثلَه فى قوله :

* ومُجَنَّباتٍ ما يَذُقْنَ عَذُوفًا *

والعُذر فيه كالعُذر فى قوله « أفبعد مقتل مالِك بن زُهَيْرٍ » ولو قال « عَذوفةً » لاستقام له . وربّما مالوا إلى المُزاحَفِ من غير ضرورةٍ . على ذلك قول المُتنخِّلُ فى الطائيّة :

أَبِيتُ على مَعَارٍ فاخِرات بِهِنّ مُلَوَّبٌ كَدَمِ العِباطِ[٢]

رووا أنّ كل العرب ترويه « مَعَارٍ فاخراتٍ » بالتنوين ، وإنّما هو من الضرب الأوّل من العَروض الأولى من الوافر : مُفاعَلَتُنْ مفاعَلَتُن فعُولُنْ ، فجعل مُفاعلتن الثانى مفاعيلن بالعَصْب ، وهو فى زِحاف هذا البحرِ جائز ، لكنّه لو رُوِى « مَعارِىَ » بفتح الياء لسَلِم ، ولم يفعل . وقوله « ما إن أرى فى قتله لذوى القُوى »

(١) أى جعل العروض التى ضربها الثانى مقطوع مقطوعة مثله . وهذه العروض أصلها العروض التامة .

(١) ديوان الهذليين (٢ : ٢٠) : « على معارى » .

أضاف المصدرَ إلى المفعول والمراد فى قتلهم لمالك ، ويعنى بذوى القُوَى ذوى الرَّأى والفِعْل[(١)] ، والعدد والعُدّة ، فيقول : لا أرى لمن كان هكذا من أولياء دمِه وطُلّاب ثأره ، إلّا امتطاء الإبل وتَجنيبَ الخيول ، وركوبَ كلِّ صعبٍ وذَلول ، إلى أن يُنالَ من العدوّ مثلُ ما ناله منهم ، فإنّ فى ركوب الجِدّ مساعدةً من الجَدّ ، ولن ترى العزمَ أُضرِخ بالفعل إلا وثَمّ مطاوَعَةٌ من القَدَر . وقوله « تُشَدُّ بالأكوار » يريد تُشَدُّ الأكوار عليها ، فرَمَى بالكلام .

٥— ومُجنَّباتٍ ما يَذُقْنَ عَذُوفًا ... يَقذِفْنَ بالمُهَرَاتِ والأمْهارِ

٦— ومَسَاعِرًا صَدَأُ الحديدِ عليهمُ ... فكأنَّما تُطْلَى الوُجوهُ بِقَارِ

عطَفَ قوله « ومجنَّباتٍ » على « إلّا المطى » والمراد أرى لهم أعدادَهم مطايا مرحولة ، وخيلاً مجنوبة . وكذا كانت عادتُهم فى مَقْصَدِهم الغارات ، وركوبِهم إلى الوَقَعات ، أن يركبوا الإبلَ ويجنبوا الخيلَ إلى أن ينتهوا إلى موضع الغارة ، أو ملتقَى القوم للمحارَبة ، فحينئذ يُنيخون الإبل ويركبون الخيلَ وهى وادعةٌ لم يلحقْها كبير[(٢)] تعب ، ولم يمتلكها سآمةُ ضَجَر ، فيُعمِلونها كما يحبُّون .

وهذا كما قال النابغةُ يصف خيلَ عمرِو بن هندٍ :

مُقَرَّنَةً بالأُدْمِ والعِيسِ كالقَطَا ... عليها الخُبُورُ مُحْقَبَاتُ المَرَاجِلِ[(٣)]

ويَقذِفْنَ بالأولاد فى كلِّ مَنزِلٍ ... تَشَحَّطُ فى أسلائها كالوصائلِ

ومعنى « ما يذقن عَذُوفًا » أى أدنى ما يُؤكَل . وقال الخليل : يستعمل فى الطعام والشراب . ويقال : ما ذُقْتُ عَذْفًا ولا عَذُوفًا ولا عَذُوفةً ولا عَذَافًا[(٤)]

(١) كذا فى النسختين ، ومعناه صحيح .

(٢) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « كثير » بالثاء .

(٣) الخبور : جمع خبر ، بالفتح ، وهى المزادة العظيمة .

(٤) ضبط فى النسختين بفتح العين . وفى اللسان بضمها ، وفى مادة (عدف) مهملة الدال فى اللسان والقاموس : « عداف » بضم العين .

أى ذَوَاقًا . والفعل منه قد يُبنَى فيقال تعـذَّفتُ عَذُوفةً . وقوله « بالمُهرَات والأمهار » أى لما يلحقهنّ من الكلال ، والتحامل عليه فى طىّ المنازل بها والترّحال . والمَساعِر : جمع المِسعر ، وهو كأنه آلةٌ فى إسعارِ نار الحرب و إيقادها . و إنما قال « صدأ الحديد عليهم » لاتصال لُبسهم الدُّروع[1] ، و« كأنما تُطلَى الوجوهُ بقار » ، لأنّ المراد أنّ السَّموم والحَرُور قد لَفَحت وجوهَهم ، وغيّرتْ ألوانَهم ، لأنهم تعوّدوا قَصْدَ الغارات ، وقَطْع المشاقّ . وجعَلَ الخيلَ كالفُرسان والفُرسانَ كالخيل فى الصَّبر والثَّبات .

٧ — مَن كان مسرُورًا بمقتلِ مالكٍ   فليأتِ ساحَتَنا بوَجْهِ نَهارِ[2]

٨ — يَجِدِ النِّساءَ حواسِرًا يَنْدُبْنَهُ   يَلْطِمْنَ أَوْجُهَهُنّ بالأسحارِ

كانت العادة مستمرَّةً مستحكِمةً فيهم ، أنهم لا يَنْدُبون القتيل أو يُدْرَكَ ثأره . فيقول : مَن كان فرحًا بمقتل مالك ، شامتًا بأوليائه ، فلينزِعْ ملابسَ المسرّة ، وليطَّرِحْ أرديةَ الشَّماتة ، فقد أُدْرِكت الأثارُ وأُرِيقت الدّماء ، وشُفيت الأدواء ، وليحضُرْ ساحتَنا فى أوّل النهار ، ليرى أنّ ما كان مُحرّمًا من الرّثاء قد حَلّ ، وأن الحَظْرَ الواقعَ ببكائه قد رُفِـع ، ويجدَ النساء مكشوفاتِ الرءوس يَذْكُرنه بما كان من فضائله ، ويندُبْنه بأشهر أوصافِه ، وأعلى مراتِبه ومَحالِّه ، فإنّ ذلك متّصلٌ من فعلهنّ غيرُ منقطِعٍ فى أطراف الليـل والنهار ، والآصالِ والأسحار . وبعضهم يرويه :

* مَن كان محزونًا بمقتل مالكٍ *

والمراد الموالُون ، كما كان المراد بالأوّل المنابِذين . وأ كثرُ من رأيناه كان

(١) ل : « للدروع » .

(٢) هذه أوجه من رواية التبريزى : « فليأت نسوتنا » .

يروى « فليأتِ نسوتَنا » . ورأيت الأستاذَ الرئيسَ أبا الفضل ابنَ العميد يقول : « إنى لأتعجَّب من أبى تمَّامٍ مع تكلُّفه رَمَّ جوانبِ ما يختاره من الأبيات[١] ، وغَسْلِه من دَرَن بَشِع الألفاظ ، كيف ترك تأمُّلَ قولِه فليأتِ نسوتَنا . وهذه لفظةٌ شنيعة . وكيف ذهَبَ عليه تأمُّلُ قولِه :

قلتُ لقومٍ فى الكنيفِ تروَّحوا عشيَّةَ بتنا عند ماوَانَ رُزَّحِ[٢]

تنالوا الغِنَى أو تبلغُوا بنفوسِكم إلى مُستَراحٍ من حِمامٍ مُبرِّحِ

حتى جمع بين كنيف ومستراحٍ فى بيتين . وتأمَّلْ أمثال ما ذكره وبيَّنه من شرائط الاختيار » .

٩ — قد كُنَّ يخبأْنَ الوُجوهَ تستُّرًا فاليومَ قد أَبْرَزْنَ للنُّظَّار[٣]

١٠ — يضرِبْنَ حُرَّ وُجوهِهِنَّ عَلَى فتًى عفِّ الشمائلِ طيِّبِ الأخبار

يصفهنَّ بأنهن ابتذَلْن أنفسَهنَّ للمصيبة وقد كان من قبلُ سِترُ الصيانة مُسْبَلاً عليهن ، لا يُظْهِرنَ المَعارِيَ من الوجوه وسائرِ الأعضاء لأحدٍ من الناس ، لتستُّرهنَّ وارتفاع محالِّهنَّ ومناصبِهنَّ عن التبرُّز والتبرُّج ، إذ كُنَّ بيضاتِ خُدورٍ وربَّاتِ حِجالٍ وستور . وقوله « فاليوم قد أَبْرَزْنَ للنُّظَّار » يريد الوجوه . وهُنَّ وإن رَمَيْنَ قِناعَهنَّ ، وأظهَرْن مُحيّاهُنَّ فإنَّ أحداً لا يَطمَع فى الدُّنُوِّ منهنَّ ، والنظرِ إليهنَّ ، فيخرجَ إلى حدِّ المنكَر . وقوله « يَضرِبْنَ حُرَّ وُجوهِهِنَّ عَلَى فتًى » يريد ما يَنَلْن من أنفسهنَّ بالضرب والإهانة ، إجلالاً للرَّزيئة ، واقتداءً للمرثىِّ[٤] . والعَفُّ : العفيف ، ومصدره العِفَّة والعَفاف . والشمائل : خَليقة الرَّجل

(١) انظر ما مضى فى ١٣ — ١٤ ، ٨٤ .

(٢) من الحماسية ١٥٦ ص ٤٦٤ — ٤٦٥ .

(٣) التبريزى : « حين برزن » . ويروى : « حين بدون » . انظر شروح سقط الزند ٥٢ والمزهر للسيوطى (٢ : ٣٦٤) فى (معرفة التصحيف والتحريف) .

(٤) هذا هو الوجه . وفى الأصل : « اقتداء بالمرثى » ، ل : « واقتداء بالمرثى » .

وطبيعتهُ ، واحِدها شِمال . وقوله « طيِّب الأخبار » أى حديثُه حسنٌ فى الناس لا يُؤْبَن بدنيّةٍ ، ولا يُوسَمُ بنقيصة .

٣٤٨

وقال كعبُ بن زهيرٍ[١] :

١ — لَعَمْرُكَ ما خَشِيتُ عَلَى أُبَيٍّ مَصَارِعَ بَيْنَ قَوٍّ فالسُّلَىِّ[٢]

٢ — ولكِنِّى خَشِيتُ عَلَى أُبَيٍّ جَرِيرَةَ رُمْحِه فى كلِّ حَىِّ

٣ — من الفِتْيانِ مُحْلَوْلٍ مُمِرٌّ وأمّارٌ بإرْشَادٍ وَغَىِّ

٤ — ألاَ لَهْفَ الأرامِلِ واليَتَامَى ولَهْفَ الباكياتِ على أُبَىِّ

قوله « لعمرك » مبتدأ وخبره مضمر ، وفيه معنى اليمين ، وجوابها ما خشيت . فكأنَّ هذا المتوفَّى مضَى لسبيله لعارِضٍ عَرَض له بين قَوٍّ والسُّلَىِّ . وإنما قال « مَصارع » لأنه جعل كلَّ قطعةٍ مما بين هذين الموضعين كالمَصرَع لواحدٍ من الناس . فيقول توجُّعًا : و بقائكَ ما خَشِيتُ على هذا الرجلِ أن يُصرَع بين هذين الموضعين ، ولكنِّى كنت أخشى عليه جرائره فى الأحياء ، وتِراتِه فى القبائل . وعلى ما يدلُّ عليه كلامُه كان مات هذا المرثىُّ حَتْفَ أنفِه ، فلهذا قال : لم أختَشِ عليه القدر بين هذين المكانين ما خَشِيتُ عليه من جرائر رُمحِهِ فى الأحياء .

---

(١) سبقت ترجمته فى الحماسية ٣٤٠ ص ٩٧٨ .

(٢) الأبيات الثلاثة الأولى فى معجم البلدان (السلى) ، والأول والثانى فى محاضرات الراغب (٢ : ٣٠٨) واللسان (سلا) والجمهرة (١ : ١٧٣) . والأول فى معجم ما استعجم (السلى) والثانى فى الجمهرة (١ : ٦٥) . قال ابن دريد : « أنشده ابن الأعرابى فى كتاب المراثى لامرأة ترثى أباها . والأبيات كلها فى الكامل ٧٢٥ ليبسك مع خلاف فى الرواية والترتيب . قال المبرد : « فهذا الشعر من أجفى أشعار العرب ، ينبىء صاحبه أن تقديره فى المرثى أن تكون منيته قتلا ، ويتأسف من موته حتف أنفه » .

وقوله « من الفتيان مُحْلَوْلٍ مُمِرٌّ » تعلَّقَ من بمحذوف ، كأنه قال : كان من بين الفِتيان سهلَ الخُلُق ، وطِيء الجانب . والمُحْلَوْلِي هو الذى تناهَى حلاوتُه. قال الخليل : افعَوْعَل : بناء للمبالغة . على ذلك قولهم اعشَوْشَبَ المكانُ ، إذا تناهَى عُشْبُه ؛ واحْلَوْلَى ، إذا تناهى حلاوته . والمُمِرّ : الذى صار مُرًّا . وليس هذا من قولهم : ما أمَرّ وما أحْلَى ، لأن ذلك معناه ما أتى بحُلوٍ ولا مُرٍّ ، ولكن يجب أن يكون من أمَرَّ الشىء فهو مُمِرٌّ ، وفى بعض اللغات مَرَّ . قال :

* لئن مَرَّ فى كِرمانَ لَيلِى لَطالَمَا[1] *

حتى يكونَ مثلَ محلولٍ . وقوله « أمَّارٌ بإرشادٍ وغَىّ » وضَع إرشاداً موضع رشادٍ ، ألاَ ترى أنّه قال وغَىٍّ . وهم كما يستعيرون الاسم للمصدر يستعيرون المصدر للاسم ، وكما يوضع العطاء موضع الإعطاء فى قول القطامىّ :

* و بعد عطائك المائة الرّتاعا[2] *

يضعون الإعطاء موضع العَطاء . فعلى هذا وضع الإرشاد موضع الرَّشاد . [وإذا كان كذلك فيجب أن يكون إرشاد هذا لا يتعدَّى ، لوقوعه موقع الرَّشاد[3]] . وقوله « ألا لَهْفَ الأراملِ واليتامى » الصدر من البيت تحسُّرٌ لما أصاب الفقراء واليتامى بعد موته ، إذ لم يكن فى الدهر مَن يُؤوِيهم أو يمُونهم . والأرامل : جمع أرْمَل ، وهذه الصفة يشترك فيها المؤنّث والمذكّر ، واشتقاقه من أرمَلَ القوم ، إذا نفِدَتْ نفقاتُهم ، وحقيقته صاروا من الفقر فى الرَّمْل ، كما يقال أتْرَبَ الرجلُ[4] . والشهادةُ فى اشتراك الرجلِ والمرأة فى هذه الصفة قولُ جرير :

---

(١) البيت للطرماح فى ملحقات ديوانه ١٣٥ واللسان (مرر) . وعجزه :

* حلا بين شطى بابل فالمضيح *

(٢) ويروى : « الرباعا » . وصدره فى ديوان القطامى ٤١ :

* أكفراً بعد رد الموت عنى *

(٣) التكملة من ل . (٤) إذا قل ماله ، ويقال أيضاً لمن اغتنى .

هٰذِى الأَرامِلُ قد قضّيتُ حاجتَها ... فمَن لحاجَةِ هذا الأرمَلِ الذَّكَرِ

وقوله « ولَهْفَ الباكياتِ على أبي » هذا العجزُ تحسُّرٌ للمتعلِّقين بحَبْله، والرّاجين ليومه وغده، والواصلين سبَبَهم بسببه دون أولئك، فتكريره اللَّفظ يشتمل على هذا المعنى.

٣٤٩

وقال(١):

١— فى بَعْضِ تَطْوافِ ابن طُعْـ ... ـمَةَ آمِنًا لاقَى حِمَامَهْ

٢— وَصَدًا لَهُ مِنْ خلفِهِ ... يَغْـتَرُهُ لا بل أمامَهْ(٢)

٣— غُرَّ امرُؤٌ منَّتْـهُ نَفْـ ... ـسٌ أن تَدُومَ له السَّلامَهْ

٤— هيهـاتَ أَعْيا الأَوَّلِيـ ... ـنَ دَوَاءُ دائِكَ يا دِعامَهْ

قوله « فى بعض تَطواف ابن طعمة » قد أبرز اسمَه، يقول: يا دِعامة. فهو دِعامة بن طُعمة. وتَطواف: بناء لما يَشُوبُهُ فى الوقوع أدنى تكلُّف. فكأنَّ هذا الرجل كان جَوّالةً، فاتّفق عليه أن مات آمَنَ ما كان، فأخذ يقتصُّ حالَه ويتحزَّنُ له، وجعل التَّطْواف للجنس، وأضاف البعضَ إليه. وانتصب « آمناً »

(١) يفهم من هذا الصنيع أن هذه المقطوعة لكعب بن زهير أيضاً. لكن فى رواية التبريزى: « وقال آخر ».

(٢) رواه ابن جنى والتبريزى: « رصداً له من خلفه ». وقال ابن جنى: « لك فى من هذه أوجه: إن شئت علقتها بنفس رصد، وإن شئت جعلتها صفة له فعلقتها حينئذ بمحذوف، وإن شئت علقتها بنفس يغتره، ويجوز أن يكون حالا من الفاعل فى تغتره. ولا يجوز أن يكون حالا من الهاء، لا فى له ولا فى تغتره، لأن الإنسان لا يكون من وراء نفسه، فالمعنى إذن يدفعه ».

على الحال مِنْ لاقَى حِمَامَه ، وإذا كان العامل فى ذى الحال فِعْلا جاز تقديم الحال عليه .

وقولُه « وصَدًا له » خَفِيَ عليه كيف اتفَّق مصرعه . ومعنى صَدًا له دعاه . ويجوز أن يكون فَعَل بمعنى تفعَّل ، كأنَّ صدا بمعنى تصدَّى له قائداً . والتصدِّى تعرُّضٌ يختلط بازورارٍ وإعراض . على ذلك قوله تعالى : ﴿ فأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾ . يقول : تصدَّى له الحَيْنُ سائقاً له يأتيه على غِرَّة ، بل تصدى له قائدا لا سائقاً . كأنَّه لما خَفِيَ عليه مِن أين أتَى لم يَقطع الكلامَ على وجهٍ واحد ، بل تداركَ وانتقل وهو بعد شاكٌّ ، ولكن كأنَّه أومأ إلى جِماع الطُّرُق . وقوله :

غُرَّ امرُؤٌ منَّتْه نَفْسٌ أن تدوم له السلامه

معنى غُرَّ خُدِع على وَجْهٍ له فى الاستنامة إليه غَرَرٌ . ويقال : ما غَرَّكَ بفلانٍ ؟ أى لِمَ اجترأتَ عليه وكان الوجه أن لا تجترئ . على ذلك قوله تعالى : ﴿ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَريم ﴾ . ويقال : مَن غَرَّكَ من فلانٍ ؟ أى مَن الذى جَذَبك عنه وحالَ بينك وبينه ، وكان الوجه أن تكون مُقبلاً عليه . ويقال : ما غرَّك من فلانٍ ؟ أى لِمَ وثِقْتَ به وكان الحُكم أن لا تثق به . فأما قوله « منَّته نفسٌ » فإنما نكَّرهُ لغرضٍ ما[1] ، وهو أنَّ لكلِّ رجلٍ فيما يهُمُّ به أو يرجوه أو يخافه نَفْسَين : نفسٌ تبعثه عليه ، ونفس تصرِفه عنه ، فلهذا قال : منَّته نفسٌ أن تدوم له السلامة ، أى غرَّت تلك النَّفْس أمراً جَعَلت من أمانيه دوامَ السلامة . يشهد لهذا الذى قلناه قولُ الآخر :

شاوَرَ نَفْسَيْ طمعٍ وخَيبةٍ تقول هاتى : لا ، وهاتيك : بَلَى

ثم قال :

(١) هذا ما فى ل . وفى الأصل : « فإنها نكرة لغرض ما » .

فشجّعته نفسُ حِرْصٍ طَمِعتْ وحذَّرته نفسُه الأخرى الرَّدَى

وقولُه :

هيهات أعيا الأوَّلين دواء دائك يا دِعامه

أراد بالأوَّلين الأممَ السالفة ، وقد أعجزَهم دواء الموت . وقولُه « هيهات » استبعادٌ لوقوع ما تقدَّم ذِكرُه ، وهو أن تدومَ [له[1]] السَّلامة . وهيهات : اسمٌ للفعل وهو بَعُدَ ، وفاعلُه ما دلَّ عليه ما قبلَه ، وكأنَّه قال : بَعُـد ذاك أن يكون . على هذا قولُه :

فهيهاتَ هيهاتَ العقيقُ ومَن به وهيهات خِلٌّ بالعقيق تُواصِلُه[2]

٣٥٠

وقال غُوَيَّةُ بن سُلْمِيّ بن رَبيعة[3] :

١ — ألاَ نادَتْ أُمامةُ باحتمالِ لِتَحزُنَنى فلا بِكِ ما أُبالِى

٢ — فَسِيرِى ما بَدا لَكِ أوْ أَقِيمِى فأيًّا ما أَتيتِ فَعَنْ تَقَالِ

يقول : أظهرت هذه المرأةُ من نفسها ارتحالاً عنِّى لتجلِبَ علىَّ حُزنًا وغمًّا ، ونادت بالفِراق وكثَّرتْه على ألسنة الناس . ثم انصرفَ عن الإخبار عنها وأقبلَ عليها يخاطبُها فقال : لا بِكِ ما أبالى . وهذه اليمين فيها تهكُّم وسُخريَّة ، لأنَّ مَن

(١) هذه من ل .

(٢) البيت لجرير ، فى ديوانه ٤٧٩ ومقاييس اللغة (عق) واللسان (هيه) . ورواية الديوان « فأيهات أيهات ... وأيهات » . وتواصله ، بالتاء كذا جاءت أيضاً فى رواية الديوان ، وفى المقاييس : « نواصله » بالنون ، وفى اللسان : « نحاوله » .

(٣) ابن جنى : « يجوز أن يكون تحقير غاوية ، ويجوز أن يكون تحقير غية بعد التسمية بها » . وفى معجم المرزبانى ٣٠٧ — ٣٠٨ : « عوية ، ويقال غوية بغين معجمة ، وهو عوية بن سلمى بن ربيعة بن زبان بن عامر بن ثعلبة الضبى ، من بنى ثعلبة بن ذؤيب ، جاهلى » .

يُحِلّ من قلبه امرأةً محلَّها لا يجعلها أهلاً للإقسام بها . فقولك لا بكِ ، كقولك لا بالله . وما أبالى جوابُ القسم . وقيل : أراد لا بِكِ أُبالى ، أى لا أبالى بكِ ، ويكون ما صلةً ، ولا قَسَمَ فى هذا الكلام على هذا . ورُوى « فآبكِ ما أُبالى » فيكون دعاء عليها . ومعنى آبكِ : أبْعَدَكِ الله ، والشاهد فى ذلك قوله :

وخَبَّرْتَنى يا قلبُ أنكَ ذو نُهىً بليْلَى فذُقْ ما كنت قبلُ تقولُ[١]

فآبكِ هَلاَّ والليالِى بغِرَّةٍ تُلِمُّ وفى الأيَّام عنكَ غُفُولُ[٢]

فإذا رويت لا بِكِ فالبيت على كلامين ، لأنَّ لا بِكِ ينفصل عما قبله ، ويصير ما أبالى متَّصلاً به لأنَّه جوابه . وإذا رويتَ « آبكِ » فالكلام على فصولٍ ثلاثة . فالفصل الأوَّل أنها أرادت أن تُدْخِلَ عليه جَزَعاً بالفراق ، فكأنَّه أقبل قُبْلَها[٣] ودعا عليها ، ويكون الدعاء حشواً حسَناً ، وما أبالى كلاما آخر ، وينفصل ما أبالى عن الدعاء وعن الأوَّل .

وقوله « فسِيرِى ما بدا لك أو أقيمى » استهانَ بها وبفراقها ، فخيَّرها بين السَّير ما بدا لها وأرادته ، وبين الإقامة ، ثمَّ قال : فأىَّ الأمرينِ اخترتِ فعَن تقالٍ لى إيّاه . وإنَّما قال تقَالٍ ولم يقل قِلًى ، لأنَّ فى التَّقالى زيادةَ معنى ، وهو أن يحدُثَ الفعلُ شيئاً بعد شىء . على ذلك قولُه تداعَى البِناء وما أشبهَه . وقوله « فأيًّا ما أتيتِ » أيًّا انتصَب بأتيتِ ، وما صلة ، ومِن شرط أىّ أن يجىء مضافاً ،

(١) فى أساس البلاغة : « أنك ذوعرى » .

(٢) فى مقاييس اللغة (أدب) : « تزور » بدل « تلم » . وفيه أيضاً : « شغول » . وأنشده فى اللسان وأساس البلاغة (أدب) برواية « غفول » ، ونسب فى أساس البلاغة إلى رجل من بنى عقيل .

(٣) القبل ، بالضم : الوجه . الجوهرى : « وقولهم إذا أقبل قبلك ، أى أقصد قصدك وأتوجه نحوك » :

فأفرده هنا لمَّا كان المضافُ إليه معلومًا . على ذلك قوله تعالى : ﴿ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ . ألا ترى أنَّ المعنى أيَّ الأسماء تدعوا . ولمَّا كان السَّيرُ منها أحبَّ إليه علَّقَهُ بما وسَّعَ أمَدَهُ فقال : ما بَدَا لكِ ، ولم يشترط فى الإقامة شيئًا . وقوله « فمن تقالٍ » ، عن تقتضى فعلًا مضمرا ، كأنَّه قال : أيَّ الأمرين أتيتِ أتيتِ عن تقالٍ منِّى ، فحذفَ الثَّانى ، لأنَّ الأوّل يدلُّ عليه . وحذف منِّى أيضاً لأنَّ فى الكلام عليه دليلًا . وما بدا لك فى موضع الظَّرف . وبدا هذا من البُدُوّ : الظُّهور ، وليس من البَدَاء : التحوّل ، لأنَّ المعنى سِيرِى مدَّةَ ظُهور السَّيرِ فى رأيكِ . ففاعل بدا السَّيرُ ، ودلّ عليه سِيرِى لأنَّ الفعلَ يدلُّ على مصدرِهِ كما أنَّ المصدرَ يدلُّ على فعلِه .

٣— فكَيْفَ تَرُوعُنِى امرأةٌ بِبَيْنٍ   حَيَاتِى بَعْدَ فارسِ ذى طَلَالِ[1]

٤— وبَعْدَ أبى ربيعةَ عبدِ عَمْرٍو   ومَسْعُودٍ وبعدَ أبى هِلَالِ

٥— أصابَتْهُمْ حَمِيدِينَ المَنَايا   فِدًى عَمِّى لِمُصْبَحِهِمْ وخالِى

٦— أولئكَ لو جَزِعْتُ لهم لَكَانُوا   أعزَّ علَىَّ مِنْ أهلِى ومالِى

أخذ يتعجب من نفسه وممَّن يظن به أنَّه يقف موقف من يُفزعه امرأةٌ بفراق ، فقال : كيف يكون ذلك مُدَّةَ حياتى بعد أن فُجِعْتُ بفارسٍ هذا الفَرَس . وذو طَلَالٍ كان اسْمَ فرسه ، و « حياتى » انتصب على الظَّرف ، أى مُدَّةَ حياتى ؛ لأنَّه حُذف اسم الزَّمان معه . ثمَّ عدَّد بعدَ ذكرِ هذا الفارسِ مَن فُجِع به من عشيرته حالًا بعد حال ، ووقتًا بعد وقت . ذكر أبا ربيعة ومسعودًا وأبا هلال ، وهؤلاء كانوا حُماةَ العشيرة وفُرسانَ الكتيبة ، فلهذا خصَّهم

(١) ل والتبريزى : « وكيف » .

بالذِّكْر وشَهَرَ نفسه بالتوجُّع لهم . ولو كانوا على غير هذه الصِّفة لما استحسن لنفسِه الاعتدادَ بهم فى الحالة التى ذكرها .

وقوله « أصابتهم حَميدينَ المنايا » حميدين انتصب على الحال ، يريد أنَّ أيامهم سلِمَتْ من شَوْبِ العار ، وقَباحة الذِّكر ، وأنهم أُصيبوا وهم مشكورونَ محمودونَ بلسان القريب والبعيد ، والأجنبىِّ والنسيب . وقوله « فِدًى عَمِّى لمُصبَحِهم وخالى » كلامٌ منقطع ممّا قبله ، وهو كالالتفات . كأنّه أقبلَ عَلى مُخاطَبٍ فقال : أفدى مُساهُم ومصبَحَهُم بأطرافِ العمومةِ والخؤولة . وذَكَرَ المُصْبَح وكأنّ المُمْسَى معه منوىٌّ ، لأنّ طرفَىِ النَّهار مذكورانِ فى الغارة والضِّيافة وما يشبهما من الإساءة والإحسان . وقيل المُمسى يتّصل بأوّل حد الليل ، وكذلك المُصبَح يبتدئ من أوّل حدِّ النَّهار . وقيل إنّ المُمسى يستحقّه الوقت إلى أن ينقضى شطر من الليل ، وكذلك المصبح يستحقّ إلى أن ينقضى شِطرٌ من النهار . والغرض فى التَّفدية التى تبرّع بهاهو إظهار اليأس والتفجُّع فى إثر أوقاتهم وأفعالهم فيها .

وقوله « أولئك لو جزِعْتُ لهم لكانوا » إقرارٌ بأنه لم يوفِّ الجزعَ فيهم حقَّه ، ولو وَفَّى لكان ذلك يُوجِب عليه الزُّهدَ فى العشيرةِ والأهلِ والمال ، وسائرِ ما يطيب العيشُ به وله . فالشَّرط الذى ذكره ليس هو شرطاً فيما يوجبه التوجُّعُ فى كونهم عزيزاً ، لأنّهم أعزّاء عليه فى كلّ حال ، وإنّما هو شرطٌ فيما يوجبه التوجُّع للمتوفَّى لو تُكلِّف على وجهه وكُنْهِه ، فكأنه قال : لو أعطيتُ الجزعَ حُكمَهُ لكان حالى حينئذ بخلاف حالى السّاعة ، ولكانَ لى عذرٌ فى ذلك ، لأنّهم أعزُّ علىَّ من أهلى ومالى ، لكنّى تركتُ ذلك اقتداءً بالنّاس فى جزعهم لمُصابهم . فذكر السبب فى أنّ ما يُظهِر منه ليس يعُدّه شيئاً مُغنيا مع

ما يستحقُّونه(١) . وهم يكتفون بذكر السَّبب عن المسبَّب وبذكر المسبَّب عن السبب كثيرا .

٣٥١

وقال قُرَادُ بن غُوَيَّة(٢) :

١— ألا لَيْتَ شِعْرِى ما يَقُولَنْ مُخارِقٌ إذا جَاوَبَ الهَامَ المُصَيِّحَ هَامَتِى(٣)

٢— ودُلِّيتُ فى زَوْرَاءَ يُسْفَى تُرابُها عَلَىَّ طَوِيلًا فى ثَرَاها إقامَتِى

تقدَّمَ القولُ فى ليت شعرى وأنَّ خبر ليت يحذَفُ أبدا كما يُحذف خبر المبتدأ بعد لولا ، وأنَّ شعرى بمعنى عِلْمى ، ويصير ما بعده سَادًّا مَسَدَّ مفعولَيه كما يسدُّ جواب لولا مَسَدَّ خبر المبتدأ بعده . وإنَّما تمنَّى أن يعلَمَ موقعَ مُصابه من مخارقٍ على حسنِ تربيته له ، وحميد تعطُّفه عليه ، وميله مدَّةَ عيشِه إليه . وكيف يَجزع له ويقلَق لِفراقه إذا حَدَثَ به قضاه الله ودخل فى جُملة الأموات ، وجاوَبَ صداه أصداءهم . وهذا على عادتهم فيما كانوا يقولونه من أنَّ عظام الموتَى تصير أصداءً وهامًا ؛ حتَّى قال النبىُّ صلى الله عليه وسلَّم : « لا عَدْوَى ولا هَامَةَ ولا صَفَر » . ويقال صاح يصيح ، فإذا أريد المبالغةُ قالوا صَيَّحَ . ويقال : سمِعت الصَّيحة فى الغارة وما أشبهَها ، وسمِعت الصائحة ، فى صَيْحة المناحة . وقوله « ما يقولَنْ مخارق » أدخل النُّون الخفيفة لتُؤذِن بالاستقبال ، وموضع النونين

(١) ابن جنى فى التنبيه : « هم على كل حال أعز عليه من أهله وماله ، فما وجه هذا الشرط ، ومن صحة الشرط أن يكون مما يتسلط عليه ؟ والجواب أنه ذكر السبب فاكتنى به من المسبب ، فكأنه قال ، لو جزعت لهم لكنت معذوراً فى ذلك لأنهم أعز على من أهلى ومالى » .

(٢) سبقت ترجمة أبيه فى الحماسية السابقة .

(٣) التبريزى : « ويروى : المصبح ، بالباء » .

الخفيفة والثقيلة الاستفهامُ وكلُّ ما ليس بواجب . وإذا ظرفٌ ليقولنَّ ، وجاوب جملةٌ مضاف إليها وشرح إذا بها .

وقوله « ودُلِّيتُ فى زَوْرَاء يُسْفَى ترابُها » أى أدخِلتُ فأُرسلتُ فى حُفرةٍ معوجَّة ، يعنى اللحد ، وقوله « يسفى ترابُها علىّ » أى يُهال ترابُها عليه إذا دفن فيها . وقد مضى القول فى السَّافياء والسَّوافى(١) ، إلا أنَّه يقال سَفَت الرِّيح التُّراب سَفْياً ، ثم قالوا : سفى الترابُ يَسفِى ، والتُّراب سافٍ ، وهو من باب فَعَلَ وفَعَلْتُه . وقال بعضهم : كان يجب أن يقال فى التُّراب مسفىٌّ فقيل سافٍ ، كقولهم عيشة راضية وإنما هى مرضيَّة . وقال الخليل : السَّفَا : اسمُ ما تَسفيه الرِّيح من التُّراب وغيره . وطويلا : انتصَبَ على الحال ، والعامل فيه دُلِّيتُ ، وإقامتى فى موضع الرَّفع على أنَّه فاعل طويلاً . والمقبور هكذا مُقامُه فى الثَّرى . وهذا اقتصاصُ حالِه عند ما تمنَّى معرفتَهُ من جهة مخارقٍ إذا حصلَتْ له من التلهُّف والتوجُّع . ثم استمرَّ فى ذكر الحال فقال :

٣ — وقالوا ألا لا يَبْعَدَنَّ اختيالُه وصَولَتُهُ إذا القُرُومُ تَسامَتِ

٤ — وما البُعدُ إلّا أنْ يكونَ مُغَيَّباً عَنِ النَّاسِ مِنِّى نَجْدَتى وقَسامَتِى(٢)

يريد : وقال الناس مكبراً(٣) ما يقع بى ، ومظهراً الفجيعة لى : لا يبعدن اختيالُه وصولَتُه ، يعنى كِبْره وحميَّته ، وبأسه وبطشه ، إذا حَصلَ بين الصَّفَّين ، فتدافعت فُحولةُ الرِّجال ، وتزاحمت أركانُهم فى القتال أو الجدال . وقد تقدم

(١) انظر ما مضى فى ص ٩٨٦ .

(٢) ل : « وبسالتى » وفى هامشها : « ويروى وقسامتى » . التبريزى : « وقسامتى » ثم قال : « ويروى : وبسالتى » .

(٣) كذا فى النسختين .

القول فى لا يَبعَدنَّ وما أشبهَهُ (١) . والقُروم : جمع القَرْم ، وهو الفَحْلُ أُقْرِمَ ، أى تُرِكَ حَتّى استَقرَم ، وهو المكْرم لا يُحمَل عليه شىء ، وإنّما يُترَكُ للفِحْلة . ويقال قَرْمٌ ومُقْرَمٌ . على ذلك قولُه :

إذا مُقرَمٌ مِنّا ذرا حَدُّ نابِهِ تَخَمَّطَ فينا نابُ آخَرَ مُقْرَمِ (٢)

ومعنى تسامَتْ تبارَتْ فى السُّمُوّ ذِكراً وحالا .

وقوله « وما البُعد إلا أن يكون مغيّبا » يقول : إنَّ الانتفاعَ بهذا القول إعظاماً للرُّزْء ليس يقع ، لأنَّ البُعد كلَّ البُعد فى الموت ، الذى يتغيَّبُ به عن النّاسِ ما شَمِلهم من معونتى ومَغُوثتى ، وإحسانى وإفضالى . ويقال رجل نَجدٌ (٣) ، وهو ظاهر النَّجْدة . ورجل قَسِيمٌ وسيم : ظاهر القَسامة والوَسامة . كأنَّه أراد بالقَسامة ما قُسِمَ فى الخَلق من طَوْله . وكذلك قولهم : رجل مقسَّم الوجهِ ، يرجع إلى هذا ، لأن المعنى ما قُسِمَ فى أعضائه من الحُسْن ، فكلُّ عضوٍ يَمُتّ بمِثل ماتَّةِ صاحبِه . والقَسامة : الجماعة يَشهدون على الشّىء ويُقسِمون مع الشَّهادة .

٥ — أيَبْكِى كما لو ماتَ قَبلِى بَكَيْتُه ويَشْكُرُ لى بَذْلِى له وكَرامَتِى (٤)

٦ — وكنتُ له عَمّا لطيفاً ووالِداً رَؤُوفاً وأُمّا مَهَّدَتْ فأنامَتِ

(١) انظر ما مضى فى ص ٨٩٢ ، ٩٠٥ .

(٢) لأوس بن حجر فى ديوانه ٢٧ واللسان والمقاييس (قرم ، ذرا) وكذا اللسان (خمط) .

(٣) بالفتح ، وبفتح فضم ، وبفتح فكسر ، ثلاث لغات .

(٤) رواه ابن جنى فى التنبيه : « ويشكرنى » ، وقال : « يجوز أن يكون أراد : على بذلى ، فحذف حرف الجر فنصبه بالفعل قبله ، على ما تقدم . ويجوز أن يكون بذلى بدلا من ضمير المتكلم ، أى يشكر بذلى . وإنما يجوز البدل من ضمير المتكلم وضمير المخاطب إذا كان بدل البعض أو بدل الاشتمال ، نحو عجبت منك عقلك ، وضربتك رأسك . ومن أبيات الكتاب :

ذرينى إن أمرك لن يطاعا وما ألفيتنى حلمى مضاعا » .

قوله « أيبكى » هو بيانُ ما تمنّى معرفته من أحوال مُخارِقٍ عند مفارقته له ، فقال : ليتنى علمتُ هل يوفِّى الجزَعَ حقّه ، كما لو أصِبتُ به كنتُ أوفّيه ، ويَرْثِى لى بمثل ما كنت أرثيه ؛ وهل يشكر الآلاءَ لَدَيه ، وإقبالى عليه ، وإحسانى إليه مدة حياتى أمْ لا . فحذف أم لا لأن المراد مفهومٌ ، أنّه يريد أيكون ذلك أم لا . وعلى ذلك قول القائل : ليتنى علمتُ أزيدٌ فى الدار — إذا سكتَّ عليه ، فلا بد من أن تريد أم لا .

وقوله « وكنت له عمًّا لطيفا » ، أى كنتُ جَمَعت له مدّةَ عمرى وما اطّرد فى نفسى ، بين حَدَبِ الآباء وشفقَتِهم ، ولُطف العمومةِ وتوفُّرِهم ، وتفقُّد الأمّهات وإشبالهن[١] . والمعنى : كنتُ أتنقّل له فى الأحوال بين ما يأتيه العمُّ فى وقتِ لُطفه أو يأتيه الوالد وقتَ رأفتِه ، أو الأمُّ وقتَ تربيتِها ولُطْفها . وقد سارت هذه اللفظة ، وهى « أمٌّ مَهَّدَتْ فأنامت » مثلاً فيما يُنشَر من إحسان الغير إلى الغير . ويقال : ما امتَهَد فلانٌ عندى مَهْدَ ذلك ، أى ما وَطَّدَ لنفسه . وقد أخرِج فى مِعرَضٍ آخرَ فقيل :

* كما مَهَّدَتْ للبَعْلِ حسناءُ عاقِرُ[٢] *

وروى بعضهم : « ويَشْكُرُنى بذلى له وكرامتى » على أن يكون بَذلى بدلاً من المضمر فى يَشكُرُنى .

---

(١) الإشبال : التعطف والمعونة .

(٢) البيت لدريد بن الصمة ، كما فى الحيوان (٧ : ٣٧ — ٣٨) أو معقر بن حمار البارق ، كما فى الأغانى (١٠ : ٤٥) والمزهر (٢ : ٣٤٨) . وصدره :

* لها ناهض فى الوكر قد مهدت له *

٣٥٢

وقال مِسْجاحُ بنُ سِبَاعٍ(٣) :

١— لَقَدْ طَوَّفتُ فى الآفاقِ حَتَّى ... بَلِيتُ وقد أنَى لى لَوْ أبِيدُ

٢ — وأَفنانِى ولا يَفْنَى نَهارٌ ... وليلٌ كُلَّما يَمْضِى يَعُودُ

٣ — وشهرٌ مُسْتَهِلٌّ بَعْدَ شَهْرٍ ... وحَوْلٌ بَعْدَهُ حَوْلٌ جَدِيدُ

٤ — ومَفْقُودٌ عزيزُ الفَقْدِ تأتِى ... مَنِيَّتُهُ ومَأْمُولٌ وَلِيدُ

يقول : جُلْتُ فى نواحِى الأرضِ شرقِها وغَرْبِها ، عافياً وطالباً بما يطلب به مثلِى المالَ والجاه ، والعزَّ والفخر ، إلى أن مَسَّنِىَ الكِبَرُ ، وتسلَّط علىَّ البِلَى والهرَمُ ، وضَعُفَ الأملُ فى البقاء بحسب قُوَّةِ الخوف من الفَناء ، فقد آن لى أن ألحقَ السَّابقين إنْ قُدِّرَ لى ذلك . وقوله « أَنَى لِى » يقال أنى وآن بمعنًى ، وفاعلُه ما دلَّ عليه لو أبيدُ ، والمعنى أَنَى لى البُيُودُ إن كُتِبَ وقُضِىَ علَىَّ .

وقوله « وأفنانى ولا يَفْنَى نهارٌ » جَمع بين فِعلَين ، على قوله نهار ، لكنَّه أعمَلَ الثانىَ ، وهو المختار . والمراد : أثَّر فى قُوایَ مُضِىُّ نهارٍ لا يتقضَّى ، وتجدُّدُ ليلٍ لا يتصرَّم ، بل كلما يمضى واحدٌ عادَ بدلَهُ آخَرُ ، وكذلك أفنانى ، أى أفنَى جِدَّتى وغَنائى ، شهر ينسلخ بعد استهلاله ، إلى وقت استكماله ، وسَنَةٌ يتبعها مثلُها ، فلا يُعرَف قضاؤها . ثمَّ ما يلحقُنى فى أثناء تلك اللَّيالى والأيَّام ، والسِّنينَ

(٣) المرزبانى فى معجمه ٤٦٩ : « المسجاح — ويقال المسحاج — بن سباع بن خالد ابن الحارث بن قيس بن نصر بن عائذة بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة . جاهلى » . وأنشد له هذه الأبيات . وذكره السجستانى فى المعمرين ٧٦ وأنه عاش حتى هرم ومل الحياة . وأنشد له أيضاً هذه الأبيات ، ولكنه أسقط اسم أبيه « سباع » وزاد « ذهل » بين « عائذة » و « مالك » . وفى الاشتقاق ١٢١ : « ومنهم مسجاح بن سباع ، كان من المعمرين . ومسجاح مفعال من السجح ، والسجح : قشرك الشىء » .

والأعوام ، مِنْ فَقْدِ من أعتمدُه ليومى وغَدِى ، وخِلافتى بعد موتى ، وأستكفِلُه وَلَدِى ، وأسترْعِيهِ هَمَلِى . هذا مع كماله فى فضله ، وبَرَاعته وطَوْلِه ، والإشادة بالتَّنويه إليه من كل جانب ، والشهادةِ له بالتَّبريز من كلِّ فاضل . ومِن ولادةِ طفلٍ يعلَّق الرَّجاء بنَشْئِه ، وتُجْمَع أسباب الطَّمَع فى حياته ، ويُشْغَلُ الوقتُ بتربيتِه والتَّرَفُّرُفِ عليه عِوَضاً مما كان له من كاسبه وكافِلِه ، ورحمةً لبقائه بَعْدَ مَن كان يعِزُّ عليه ، وعَقِب مَن هَنِئَ فيه فلم يَهْنَأْهُ .

وإذا تأمَّل الناظرُ ما اقتصَّه هذا الشاعرُ فى هذه الأبيات على قِلَّتها ، من امتحانه بالكَبْرة والسِّنِّ ، وتَراجُعِ القوّة بمأخذِ الدَّهر ، ومع التَّجْوال فى البُلْدان ، ومُقاساة الشَّقاء فى الحَلِّ والتَّرحال ، والتنقُّلِ فى الأحوال ، ثم مُرُورِ الأيَّام وكُرُورِها بما لا يسُرُّ عليه ، إلى أن رَفَع الطَّمعَ عما كان تجمُعه يدُه ونفضَ اليدَ مما كان يشدُّه قبْضُه ، ثم المُصابِ فى الكامل البارع ، وتعليق الرَّجاء بالطِّفْل الدارج — وجَدَ عَيْشَه على العكس مما وصفه امرؤ القيس فى قوله :

ألاَ انعمْ صَبَاحًا أيُّها الطَّلَلُ البالِى ... وهل يَنْعَمَن من كان فى العُصُرِ الخالى

وهل يَنْعَمَنْ مَن كان أقْرَبُ عَهدِهِ ... ثلاثينَ شهرًا أو ثلاثةَ أحوالِ (١)

وهل يَنْعَمَنْ إلاَّ خلىٌّ مُخلَّدٌ ... قليلُ الهُمُومِ ما يبيتُ بأوجالِ

فتأمَّلْها فإنَّها عجيبة .

---

(١) رواية ديوان امرئ القيس ٥٠ : « فى ثلاثة أحوال » .

[خاتمة الجزء فى نسخة الأصل]

تم الجزء الأوّل من شرح الاختيار المنسوب إلى أبى تمّام الطائى ، المعروف بكتاب الحماسة .

يتلوه فى الجزء الثانى إن شاء الله تعالى : « وقال حران[1] بن عمرو بن عَبْد مَناةَ يرثى زيدَ الفوارس وغيرَه من أبناء عمه :

تبكى على بكر شربتُ به ... سفهًا تَبكّيها على بكرِ
هَلاَّ على زَيد الفوارس زَيْـــدِ اللّاتِ أو هَلاَّ على عمرِو
تَبكِين لا رَقَأَتْ دُمُوعُكِ أوْ ... هَلاَّ على سَلَفَىْ بَنى نَصْرِ[2] »

---

(١) كذا فى الأصل . وانظر ما سيأتى فى تحقيقه .

(٢) فى نهاية هذا الجزء من نسخة الأصل هذا النص :
قد وقف هذا الكتاب الجليل والأثر الجيل ، والدة السلطان الأعظم ، والخاقان المفخم ، السلطان عبد المجيد خان ادام الله أيام وعمر دولته إلى آخر الدوران . أعنى بها حضرت بزم عالم سلطان ، علية الشان ، جعل الله سعى الواقفة مشكوراً ، وجزاءها جزاء موفوراً ، لسنة ست وستين ومائتين وألف ١٢٦٦ .